

كلايد بريستوويتز أمة مارقة

الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة
ترجمة وتقديم: فخرى لبيب





لقد عُرِفَت أمريكا يوما بحرصها الوطني علي المصلحة الشخصية في لغة يمكن للعالم كله أن يعتنقها - التحيز لمؤسسات كونية قوية ، وتنفيذ الإجراءات القانونية طبقا للقواعد والمبادئ الراسخة ، وحكم القانون . إننا نبدو الآن كأننا نفكر بطريقة أكثر دقة فيما يتعلق بأمننا العسكري والاقتصادي الحالي . كما أننا نعتبر مؤسسات مثل الناتو والأمم المتحدة مؤسسات غير ملائمة ، بل حتي مزعجة . لقد هجرنا سياسة وقف الانتشار إلي سياسة الهجمات الوقائية - إننا نعمل أكثر فأكثر بمفردنا - وقليلًا ما نأخذ بعين الاعتبار حاجات وأهداف الأمم الأخرى .

إن كتاب "أمة مارقة" يشكل حجة ضد هذا النوع من الغطرسة والجهل في ممارسة القوة ، كما يستكشف النبض الأحادي لأمريكا ، ويبين لماذا يجب علينا ، اعتناق التعددية ، والقانون الدولي من جديد .

أمة مارقة

الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة

المركز القومي للترجمة
تأسس في أكتوبر ٢٠٠٦ تحت إشراف: جابر عصفور
مدير المركز: أنور مغيث

- العدد: 2053
- أمة مارقة: الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة
- كلايد بريستوويتز
- فخرى لبيب
- اللغة: الإنجليزية
- الطبعة الأولى 2015

هذه ترجمة كتاب:

ROGUE NATION:

American Unilateralism & the Failure of Good Intentions

By: Clyde Prestowitz

Copyright © 2003 by Clyde Prestowitz

First published in the United States by Basic Books,

a member of the Perseus Books Group

Arabic Translation © 2015, National Center for Translation

All Rights Reserved

حقوق الترجمة والنشر بالعربية محفوظة للمركز القومي للترجمة
شارع الجبلية بالأوبرا - الجزيرة - القاهرة.

ت: ٢٧٣٥٤٥٢٤ فاكس: ٢٧٣٥٤٥٥٤
El Gabalaya St. Opera House, El Gezira, Cairo.

E-mail: nctegypt@nctegypt.org Tel: 27354524 Fax: 27354554

أمة مارقة

الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة

تأليف : كلايد بريستوويتز

ترجمة وتقديم : فخرى لبیب



2015

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشؤون الفنية

بريستويتز ، كلايد

أمة مارقة : الأحادية الأمريكية وفشل النوايا الحسنة

تأليف/ كلايد بريستويتز ، ترجمة وتقديم : فخرى لبیب .

ط ١ - القاهرة : المركز القومى للترجمة ، ٢٠١٥

ص ، ٢٤ سم

١ - الولايات المتحدة الأمريكية - العلاقات الخارجية

٢ - المجتمع الأمريكى

(أ) لبیب، فخرى (مترجم ومقدم)

٣٢٧، ٧٣

(ب) العنوان

رقم الإبداع ٢٠١٤/١٧٨٢١

I.S.B.N. 978 - 977 - 718-845-6 الترقيم الدولى

طبع بالهيئة العامة لشئون المطابع الأميرية

تهدف إصدارات المركز القومى للترجمة إلى تقديم الاتجاهات والمذاهب الفكرية المختلفة للقارئ العربى وتعريفه بها ، والأفكار التى تتضمنها هى اجتهادات أصحابها فى ثقافتهم ، ولا تعبر بالضرورة عن رأى المركز .

المحتويات

| | |
|-----|--|
| 7 | تقديم المترجم |
| 17 | إهداء |
| 21 | الفصل الأول: فى خصام مع العالم - وأنفسنا |
| 41 | الفصل الثانى: الإمبراطورية غير المعترف بها |
| 81 | الفصل الثالث: لعبة أمريكا |
| 121 | الفصل الرابع: الركض وراء باطل |
| 161 | الفصل الخامس: من الذى خسر كيوتو؟ |
| 203 | الفصل السادس: نحن نثق فى الأسلحة |
| 239 | الفصل السابع: شعب مسالم، وحرب بلا نهاية |
| 267 | الفصل الثامن: تأرجح الكلب: حكايتان |
| 313 | الفصل التاسع: أصدقاء وأعداء |
| 367 | الفصل العاشر: مدينة فوق التل |
| 391 | خاتمة |
| 409 | الهوامش |
| 443 | مراجع يوصى بقراءتها |
| 449 | شكر |
| 455 | قائمة بالاختصارات الواردة فى الكتاب |

تقديم المترجم

كتاب " أمة مارقة " كتاب مهم للغاية، وتجيء أهميته من أن كاتبه هو واحد من الطبقة الحاكمة فكرا وانتماء، وبذا ينطبق عليه أشد الانطباق القول المأثور: وشهد شاهد من أهلها، وهو شاهد لا يعرض للأوضاع الاقتصادية والسياسية والدولية والثقافية فقط، لكنه يدعم ما يقول بإحصائيات موثقة وباقتباسات ثابتة المرجعية؛ تأكيداً لمصداقيته، وهو في ذات الوقت كالزمار الذي لا يخفى لحيته فيترك لنا بصمته الدالة على موقعه الاجتماعي ورؤاه على امتداد الكتاب أيضاً.

وقبل الدخول في المقدمة يلزم تقديم المؤلف للقارئ كما جاء في سطره: " أنا لست اشتراكيا فرنسيا، أو من شباب الستينيات الأمريكي المتمسك بعناد بالمبادئ ... إننى فى الحقيقة الشخص غير الملائم لكتابة هذا الكتاب، إننى نتاج الطبقة الوسطى، محافظ جمهورى، يفتقد المرونة، صلب لا ينثنى، مفرط فى الوطنية ... أسست فى الكلية، كرد فعل للعقيدة الليبرالية السائدة فى حرم الجامعة نادى الكلية المحافظ ... تطوعت للخدمة فى فيتنام، وظللت داعما للحرب مدى طويلاً، عملت فى العديد من الشركات متعددة الجنسيات، والتحققت عام ١٩٨٢ بإدارة ريجان ثم مستشارا لوزير التجارة، وأدرت مفاوضات العديد من الاتفاقيات ... وحظيت بلقب (صقر التجارة)".

إنه براء تماماً من أن يكون يساريا أو ليبراليا أو ديمقراطيا، إنه محافظ ينتمى للحزب الجمهورى، لكنه يطرح أيضاً فى سياق عرضه الأسباب التى دفعته إلى كتابة هذا الكتاب: إن عزلة أمريكا التى أحس بها بقوة، بينما كان يسافر زائراً عدة بلدان، والتى تزداد سوءاً على مر الأيام هى التى دفعته إلى كتابة هذا الكتاب، وذلك بهدف

العودة إلى مبادئ المحافظين الحقيقية؛ فالمشروع الإمبراطوري الأمريكى لمن يسمون بالمحافظين الجدد - ليس محافظاً البتة، إنه الراديكالية والغرور والمقامرة مع بلاغة وطنية تقليدية.

ذلك هو المؤلف كما يقدم نفسه فى وضوح تام، وهو يقدم لنا أيضاً أمريكا الجنور خلاصة رؤية أمريكا لذاتها: إن الأمريكيين استثناء بين الأمم، هم منارة البشرية - الشعب المختار المميز - إسرائيل هذا الزمان، فإن كانوا هم الشعب المختار، فأمريكا هى أرض الميعاد، ويجب عليهم خلق أمة واحدة تمتد من البحر إلى البحر، وقد غدا ذلك حقيقة بمحاربة جيرانها والاستيلاء على أراضيهم وعلى حساب الأمريكيين الأصليين الذين أبيدوا من على وجه التقريب، وقد عبر أحد رؤسائهم، أندرو جاكسون على ذلك الاستيلاء على أرض الغير بانه: توسيع لمساحة الحرية.

وهناك إضافة مهمة عن رؤية الأمريكيين لأنفسهم ولإسرائيل باعتبار ذلك أمراً له أهمية خاصة فى منطقتنا: يرى الأمريكيون إسرائيل أشبه بأمريكا - أمة مهاجرة، ملاذاً للمقهورين، مجتمعاً من المستوطنين الرواد، بلداً قويا شجاعاً يرغب فى القتال من أجل الحق، ديمقراطية يحكمها القانون، مستهلكين للثقافة الغربية فى صحراء معزولة، شيئاً ما مثل الولاية الحادية والخمسين، ومن هنا ينظرون إلى الحرب الإسرائيلية باعتبارها حرباً أمريكية.

يا الله!

يتناول هذا الكتاب أوجه الحياة الأمريكية من خلال سياسات الإدارة الأمريكية، هناك قاسم مشترك يكمن وراء كل ذلك، إنه المنهج الأمريكى فى التعامل مع الآخر، وهو منهج كما سنرى يتسم بالتعالى والغطرسة والنظرة للغير من أعلى، مع اتخاذ موقف تبشيري مزعوم دفاعاً عن أجمل القيم الإنسانية، لكن دون أى التزام بها، حتى إنه ينطبق عليهم عنوان فرعى ساخر فى الكتاب يقول: "افعل كما أقول ولا تفعل كما أفعل"، وكذا قول سفير بريطانى: "إن أمريكا تبشر دوماً بحكم القانون، لكنها فى

النهاية تضع نفسها فوق القانون، أى أن هنالك تعارضاً حقيقياً بين القول والفعل، أو أنها تطلب من الآخرين تنفيذ ما لا تلتزم هي به، وهى نظرة عنصرية تقوم على أساس أن أمريكا فوق الجميع.

يقول الرئيس ترومان: طريقنا فى الحياة يقوم على إرادة الأغلبية، ويتميز بالمؤسسات الحرة وحكومة تمثيلية وانتخابات حرة وضمانات لحرية الفرد وحرية التعبير والعقيدة، يجب على الولايات المتحدة أن تدعم الشعوب، وتقاوم محاولات الإخضاع بواسطة الأقليات المسلحة أو الضغوط الخارجية.

ويقول بوش: إن على أمريكا أن تقف بقوة إلى جانب مطالب الكرامة البشرية: حكم القانون، وحدود لسلطة الدولة المطلقة، وحرية التعبير والعبادة، والعدالة المتساوية، واحترام المرأة، والتسامح الدينى والإثنى واحترام الملكية الخاصة.

لكن الواقع يقول: إن أمريكا دعمت كثيراً من الديكتاتورين السلطويين الذين يمثلون عكس ما قال به ترومان وبوش تماماً، ما داموا يعملون لحسابها وتنفيذا لأهدافها فى معاداة الشيوعية زمننا، وفيما تسميه بالحرب ضد الإرهاب الآن. يقول المؤلف: إن الولايات المتحدة تتدخل لتغيير أنظمة انتخبت ديمقراطياً مثل محمد مصدق فى إيران وإعادة الشاه، وجاكوب أرينيز فى جواتيمالا ليحل محله حكام دمويون، وسلفادور الليندى فى شيلي ليحل محله أوجستو بينوشيه، وهناك قائمة طويلة للتدخلات البربرية المروعة فى: زائير، وإندونيسيا، والدومينيكان، ولبنان، واليونان، والفلبين، وتايوان، وتايلاند، وكوريا، وباكستان وأفغانستان؛ حيث جاءت بنظام طالبان القمعى الذى ينتهى إلى القرون الوسطى.

وقامت أمريكا أثناء الحرب الأهلية بين ماوتسى تونج وشيانج كاي شيك بدعم الثانى حتى تمت هزيمته، ويقول المندوب الأمريكى لدى شيانج: إن المشكلة فى الصين بسيطة نحن نتحالف مع جاهل أمدى، متطير فلاح، ابن عامرة، فى حين كان سادة أمريكا مثل جون فوستر دالاس ودين راسك وغيرهما يصفون ديكتاتورية شيانج الفاسدة فى تايوان بأنها كانت: بطة الحرية والديمقراطية.

وأمریکا وقفت عند الصدام بین الهند وباكستان عام ١٩٧١ إلى جانب باكستان الفاشستية ضد الهند الديمقراطية.

وأمریکا تقول عن إسرائيل: إنها بلد ديمقراطي يحكمه القانون، وهي تعلم جيداً أن الفلسطينيين في الأرض المحتلة لا يستطيع البناء أو العمل أو الدراسة أو شراء أرض أو زراعة محصول أو أن يبدأ أعمالاً، أو أن يتمشى ليلاً أو يزور عائلته في غزة أو الأردن دون إذن من الاحتلال الذي يسمى كل تلك الأفعال "احتلالاً مستتيراً".

يبدو أن القاموس الأمريكي قاموس خاص تتقلب فيه المعاني تماماً؛ لأن هؤلاء الذين يتحدثون عن الخير للآخرين يقدمون فوراً الوجه الآخر إن كان هناك مساس، مهما كان ضئيلاً بمصالحهم، فمصالح الولايات المتحدة لا تبغى التصالح بتاتا مع أى مصالح أخرى، إنها الأعلى والأولى مهما كان الدمار الذي يمكن أن يحقق بالعالم. إنهم يرون ضرورة أن يتفوقوا ليردعوا أى أعداء محتملين يسعون للتفوق عليهم أو التساوى معهم، هم يقولون: نحن على القمة، ونحن نستحق أن نكون هناك، وننوى البقاء حيث نحن، وعلى حلفائنا ألا يطمحوا لنور أكبر.

ولهم عقيدة عن الأمن الخاص بهم عبر التفوق العسكرى الساحق، إن لديهم إحساساً بأنهم استثناء ومعزولون، شعب غير عادى، وليس لباقي العالم أن يخاف منهم؛ لأنهم قد منحو الحقيقة التي جعلتهم أحرارا صالحين، إنهم "إمبريالية ناعمة"، تتدخل ليس من أجل الإخضاع ولكن من أجل الإنسانية!! ومن أجل أن تنال ثناء محبى الحرية في العالم أجمع!! وكانت العقيدة الجديدة هي الحرب الاستباقية، أى أخذ الحرب إلى العدو الذي تفترضه الولايات المتحدة، رغم أن تلك جريمة حرب طبقا لمحاكمات نورمبرج، كما أنها منافية لدستور الأمم المتحدة.

وحتى تحقق الولايات المتحدة فرض سيادتها، عبر القوة العسكرية، أعدت ثلاث عشرة من "مجموعات المعارك"، التي لا يوجد لدى أى بلد في العالم مثيل لها، ولو مجموعة واحدة، وتلك تتكون من: حاملة طائرات طولها ١١٠٠ متر بها حوالى ٦٠٠٠

ملاح وطيار وميكانيكى، عليها ٧٠ طائرة، يرافقها طراد مضاد للصواريخ، وعدة فرطاقات ومدمرات، وغواصتان وسفن إمداد، وهناك قوات متناثرة فى ٧٠٠ منشأة عسكرية على امتداد العالم، مع ١٢٠٠٠٠ جندى فى أوروبا، و٩٢٠٠٠ فى شرق آسيا والباسيفيكي و ٢٠٠٠٠ فى شمال إفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا و ٢٥٠٠٠ فى النصف الغربى من الكرة الأرضية. الولايات المتحدة تضع العالم كله على حافة الحرب، ترهب العالم بكل تلك القوة العسكرية، ويتحدثون عن أن أى تردد من جانبهم يعرض سلام العالم للخطر، فى حين تتمتع تلك القوات حيثما وضعت بوضع إمبراطورى. وضع سيادى لا مثيل له. فهى تفرض كما فى كوريا الجنوبية اتفاقية غير متكافئة البتة خاصة بوضع قواتها هناك، تنص على أن سلطات الولايات المتحدة وحدها (محكمة الولايات المتحدة العسكرية) هى التى تتناول الجرائم التى يرتكبها جنود الولايات المتحدة وقت عملهم، والمحاكم الكورية هى التى تتناول الجرائم فى غير أوقات العمل، وتلك مقيدة أيضاً فى التطبيق.

والتاريخ الأمريكى حافل بالحروب، منذ توقيع الدستور عام ١٧٨٩، حتى الآن، نادرا ما مر عام لم ترتبط فيه الولايات المتحدة بعملية عسكرية عبر البحار حتى إنها بلغت ٢٣٥ عملية، غير الحرب الأمريكية ضد الهنود الحمر.

ولقد أنشأت الإمبريالية الأمريكية شكلاً يطلقون عليه "الإمبريالية المعادية للإمبريالية"، والحقيقة أن ذلك ليس غير صراع للسيطرة على مناطق الثروة والأسواق فى العالم.

ويقول المؤلف: إننا ندفع ثمن أخطاء جسيمة صدرت عن الجهل وجنون العظمة والثقة الزائدة فى أسلحتنا وقوتنا. ورغم كل التضحيات، فى سبيل قضية الحرية والعدالة، فغالبا ما يُنظر إلى أمريكا من الخارج بخوف وارتياب.

والحقيقة أن الشعوب دائماً ما تنتظر إلى السياسات الأمريكية بخوف وارتياب، وذلك لأن تلك السياسات ما كانت قط فى سبيل الحرية والعدالة.

يقول أحد الرؤساء الأمريكيين: إن الولايات المتحدة هي القائد الذي يجب أن
التفاوض حول معاهدات دولية.

ولكن واقع الحال يقول كالمعتاد خلاف ذلك. هنالك قضية أن الشعب الأمريكي
استثناء من شعوب الأرض، شعب مختار يعمل في حقل نشاط الرب، هم يقفون إلى
جانبه يحاربون من أجل الخير ضد الشر، وهم أكثر قداسة من الآخرين، لهم القيادة
وعلى باقى العالم أن يتبعهم، متميزون ولذا فهم يستحقون الحصانة.

إن تلك العقلية المتغترسة المتسيدة المتعالية دائماً ما تقود لا إلى مفاوضات ولكن
إلى طريق مسدود بالنسبة للأمريكيين؛ مما يؤدي إلى عزلهم والابتعاد أكثر فأكثر عن
باقي السياق العالمى.

إن الولايات المتحدة بسبب الصورة التي صاغتها لنفسها تطالب في كثير من
المفاوضات الدولية باستثناءات خاصة، أو ميزات تنفرد بها دون كل دول العالم. ففي
قضية حظر استخدام الألغام الأرضية، طالبت أمريكا، حتى توقع على الاتفاقية،
باستثناء استخدام الألغام في المنطقة الكورية المنزوعة السلاح، كما طالبت بحقوقها
في استخدام الألغام الذكية وهي ذات التدمير الذاتي بعد زمن محدد سابقاً، وتفاوض
لا ينتهى حول الألغام المضادة للأشخاص، واستخدام الأنظمة المختلطة المضادة
للدبابات، ويقول كلينتون تبريراً لذلك: "إن لأمتنا مسئولية متفردة. لن أرسل جنودنا
لحماية حرية شعبنا، وحرية الآخرين، دون أن يكونوا في أمان قدر المستطاع". رغم أنه
من الثابت أن قوات الولايات المتحدة غالباً ما كانت تجد نفسها تتقهقر عبر حقول
ألغامها هي، وهناك تقدير بأن حوالى ثلث كل ضحايا الولايات المتحدة خلال الحرب
كانت بسبب ألغام صديقة. إن الحقيقة تكمن ليس في الدفاع عن حرية أمريكا
والآخرين، لكنها تكمن، دون شك، في صناع الأسلحة والمكاسب الهائلة التي يحققونها
من تجارة الموت تلك.

وقد طالبت الولايات المتحدة أثناء مفاوضات المحكمة الجنائية الدولية، باستثناء
مواطنى الولايات المتحدة من السلطة التشريعية للمحكمة، بل وصل الأمر إلى حد

مطالبات داخلية بأنه على الولايات المتحدة استخدام أية وسيلة بما فيها القوة لإطلاق سراح أى مواطن أمريكي تحتجزه المحكمة؛ وقد رأى الآخرون فيما تطالب به الولايات من معاملة خاصة لرعاياها كشرط للموافقة على تشكيل المحكمة إهانة بالغة وغير مقبولة.

وفيما يتعلق ببروتوكول كيوتو الخاص بالانبعاثات الحرارية، فقد وقفت الولايات المتحدة بصورة عدائية فى مواجهة الوصول إلى هذا الاتفاق على أساس أن المدافعين عن هذه القضية يسدون الطريق أمام التنمية الاقتصادية الأمريكية، بناء على دليل ناقص. وتفاقم الجرم أكثر أصبح المدافعون عن البيئة يمثلون أيديولوجية يسارية، ثم قال رجال بوش: إن البيئة هى المكان الذى ذهب إليه كل الشيوعيين بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، واشتد هجوم الكونجرس فقال أحدهم: إن هؤلاء المدافعين عن البيئة ليسوا أمريكيين ولم يكونوا قط أمريكيين، ولن يصبحوا أبداً أمريكيين. وقالت عضوة بالكونجرس: إن قضية البيئة تهدد أساس المجتمع الأمريكى؛ مما يجعل مبادئ الدستور الأساسية تتآكل.

العالم مهدد بالدمار، والولايات المتحدة هى المسئول الأساسى عما يصيب العالم من تلوث، غير أنها لا تبالى بشئ غير مصالحها الضيقة المحدودة، ويرى الأوروبيون وسكان الجزر أن السياسة الاقتصادية للولايات المتحدة أثنائية واستغلالية وتعرض البيئة للخطر، وتبحث دائماً عن مهرب حتى لا تنقيد بعقد أو التزام. ويراهم الكثيرون عدوا للبيئة.

ويقول المؤلف: إن أمريكا قد رفضت أو أضعفت معاهدات تعتبر علامات: حظر استخدام الألغام، والاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية، واتفاقية الحرب الكيميائية، واتفاقية الحرب البيولوجية، واتفاقية منع الانتشار، والمحكمة الجنائية الدولية، والأسلحة الصغيرة والأسلحة الخفيفة، واتفاقية وضع المرأة وأخرى.

وهناك انتهاك خطير لاتفاقية هى صاحبة الدور الرئيسى فى تحقيقها، وتلك هى منظمة التجارة العالمية. إن الولايات المتحدة ترى أن اقتصادها هو القاطرة

الوحيدة التي تدفع الاقتصاد الكونى، وهى تؤمن، كما تدعى، بأن التجارة الحرة تعزز حقوق الإنسان، وتساعد البيئة وتحسن المساواة الاقتصادية، وهى تعلن أنه يجب على البلدان النامية أن تفتح أسواقها للتجارة الحرة، وأن تلغى الضوابط المحلية وأن تمارس الخصخصة، وأن تفتح الطريق أمام الولايات المتحدة، وتطالب اليابان وكوريا وأوروبا بوضع حد للحماية والدعم، وضرورة فتح الأسواق أمامها، وتطلب من صندوق النقد الدولى الضغط على البلدان النامية لإلغاء القيود والقواعد المنظمة لأسواقها، وفتحها لكل اللاعبين الدوليين، وفى نفس الوقت الذى تقول فيه وتفعل كل ذلك، تدعم هى مزارعى القطن لديها مما يترتب عليه دمار مزارعى القطن فى أجزاء أخرى من العالم، وتفرض تعريفات جمركية على الواردات العديدة لمنتجات الصلب مما يصيب الآخرين بالضرر. وتحدد حصصاً مما يؤدى إلى منع غالبية سكر المكسيك من دخول أسواقها.

إنها تمارس فضيلة السوق الحرة لحسابها، ويتمتع فى ذات الوقت بالثمار المحرمة للحمائية. وتزداد عزلة الولايات المتحدة.

إنها ترى نفسها فى الجانب الصحيح من التاريخ. وأن استراتيجية ألتها العسكرية الضخمة تعمل على تشكيل المحيط العالمى فى الجانب الصحيح. وأن الدولار كالعملة العالمية وحجر الزاوية فى صندوق النقد الدولى، وقوتها العسكرية قد أجلستها فى مقعد سائق العولة، وأن النظام العالمى الجديد يجب أن يتشكل وفقاً للمصالح الأمريكية. وأن العولة، باعتبارها نوعاً من "القوة الناعمة" هى التى سوف تقنع الآخرين، بالوحدة، أى الخضوع لها، فى إطار الإمبراطورية بقوة "الرغبة الطوعية". فالعولة هى الأمركة. ويقول مستشار للعلاقات الخارجية الأمريكية: إننا على استعداد لأن نكون مواطنى العالم، لكن ذلك فقط، إن صار العالم امتداداً للولايات المتحدة.

وفى الوقت الذى ترى فيه أمريكا نفسها فوق الجميع، قيادة بلا منازع، يرى العديديون أن قيادة الولايات المتحدة للعولة لا تعمل لصالحهم، بل يرى البعض أن العولة كسب كبير للموت.

وتجىء رؤية من الصين تقول: إن الولايات المتحدة تفرض طريقها دون أن تدرى ما هى فاعلة، ورأى من روسيا بأن الممارسات الأمريكية: سوف تدمر النظام الكلى للمعاهدات. ومن المكسيك: إن الموقف الأمريكى يدعو للأسف. ومن كوريا الجنوبية: إن أمريكا عقبة أمام حل مشاكلها مع الشمال وهى تستخف بهم، وذلك أمر كالجحيم. ومن أصدقاء أمريكا الآسيويين: أن الولايات المتحدة تفكر فى نفسها باعتبارها حاملة المعايير العالمية للأخلاق والفلسفة السياسية والتنظيم. أو هى تحكم السلوك العالمى المتحضر، وتسعى إلى فرض رؤيتها على الآخرين. ومن الاتحاد الأوروبى أن الولايات المتحدة تميل إلى الحلول العسكرية، وأنه يرتاب فى العاطفة الأخلاقية التى تصبغ سياسة الولايات المتحدة الخارجية وكذا بالمثل التواءاتها وتحولاتها. وأن الولايات المتحدة غير متحمسة لأى شىء يمكن أن يجعل من أوروبا لاعباً حقيقياً، وهى تستخدم الناتو كوسيلة للتغلب على الاتحاد الأوروبى. ومن أمريكا اللاتينية فى سخرية: أمريكا محبة للسلام! إن أحداً فى أمريكا اللاتينية لا يؤمن بهذا الهراء. وحتى الأستراليين يقولون للأمريكيين: لا تسألونا أن نختار بينكم وبين الصين، أى إن كفة الصين هى الراجحة. ويقول رأى عالمى عام: لماذا تكون أمريكا مسؤولة عن كل شىء؟ من الذى عينها لذلك بمعاييرها المزبوجة؟

ويؤكد المؤلف: أن التوتر بين أمريكا وأصدقائها القدامى فى كوريا الجنوبية وأوروبا واليابان وجنوب شرق آسيا وأمريكا اللاتينية يتصاعد إلى مستويات خطيرة.

كما يقول: إن إحساسنا بأن لنا رسالة، واعتقادنا أننا أفضل خلقاً من الآخرين، جعل من العسير علينا أن نستمع، لأننا نؤمن أنه ليس لدى الآخرين الكثير مما هو جدير بالاهتمام. إنهم لا يفكرون كثيراً فى العالم، لأنهم يرون أنفسهم العالم الوحيد الذى يثير الاهتمام. إن بلدانا كثيرة لا تقبل بعالمية قيمنا، وغير راغبة فيها، وبصورة متزايدة. لا يبدو أن هنالك أحداً يوافق على انتشار العادات والأفكار

الأمريكية. يجب أن نرى أنفسنا كما يراونا الآخرون، وأن نعمل معا من أجل مصالح المجتمع الدولي ككل.

ورغم أنه تجب الإشارة إلى فضل المؤلف فيما جاء فى هذا الكتاب من بيانات مهمة للغاية، فإنه طبقاً لما ذكره عن نفسه، ينتمى للطبقة الحاكمة، ويحمل بصمتها، ويرى فى القنبلة الذرية، التى أطلقت على اليابان، رصاصة رحمة ولا أدرى كيف ذلك مع كل الدمار الذى سببته، وما زالت تسببه حتى اليوم. كما يقول إنه قد أحس لزمن طويل بأن عدم الذهاب إلى بغداد عام ١٩٩٢، أى بعد طرد صدام من الكويت، كان خطأ تاريخياً، فصدام، حسب رؤيته، هو أحد وحوش التاريخ الكبرى، وإن إسقاطه لن يكون شيئاً رديئاً. وهذا يعنى أنه مع التدخل الأمريكى، والوصاية الأمريكية على الآخرين، إنه فقط يرى، وذلك خلافه الأساسى مع المحافظين الجدد، أن يتم ذلك بصورة أكثر جاذبية، فى صحبة حلفاء، ويدعم من الأمم المتحدة، وأن ذلك سوف يؤدى إلى المشاركة فى الأعباء والمخاطر، فلا تكون المسئولية منفردة أحادية؛ مما يحافظ على الأرضية الأخلاقية العالية للولايات المتحدة. كما يرى أيضاً، بعد انهيار المعسكر الاشتراكى، أن النموذج الأمريكى الفريد للرأسمالية قد انطلق أخيراً من عقالة، بازغاً كالمنيار الذى لابد أن يتجه العالم إليه لا محالة. وأن "الناتو" قد تأسس على قيم عامة من الديمقراطية وحقوق الإنسان ومقاومة القهر، وهو الذى كسب الحرب الباردة.

والحقيقة أن القراءة المدققة لهذا الكتاب، ولما جاء به المؤلف من استشهادات وإحصائيات، توضح أن أمريكا ليست كذلك ولا الناتو أيضاً، وأن أمريكا التى اعتادت إطلاق المسميات المسيئة على الآخرين، مثل إمبراطورية الشر، أو محور الشر، أو البلدان المارقة هى فى الواقع "الأمة المارقة" حقاً.

فخرى لبيب

إهداء

من أجل أبنائي
آني، وكومي، وبريان

**"إننا على استعداد لأن نكون مواطني العالم،
ولكن فقط إن صار العالم امتدادا للولايات المتحدة"**

جيمس واربورج

مستشار للعلاقات الخارجية

الفصل الأول

فى خصام مع العالم - وأنفسنا

مارقة هى صفة - تعنى أنها لم تعد مطيعة، أو منتمية، أو مقبولة، كما لا يمكن التحكم فيها أو مساطقتها، إنها منحرفة، وحشية التصرف بصورة شاذة، أو لا يمكن التنبؤ بمزاجها.

قاموس ويبستر الشامل الكامل

أرى أننا سوف نكون مثل مدينة فوق تل، ترقبها عيون الشعب كله

الحاكم جون وينثروب

إن عنوان هذا الكتاب عنوان استفزازى عن عمد؛ لذا دعنى أعجل بتأكيد أننى لا أقصد، بأى صورة من الصور، مساواة الولايات المتحدة بصدام حسين العراق، أو أى نظام وحشى ديكتاتورى آخر. حقاً، لقد فضلت دوماً أن أفكر فى بلدى باعتبارها "مدينة فوق تل"، ربما أحياناً غائمة أكثر منها براقّة متألّقة. كلا، إن ما يثير قلقى، وما ألهمنى عنوانى هو أن أعداداً كبيرة من الناس، فى الخارج، بما فيهم العديد من أصدقاء أمريكا منذ زمن طويل، بدؤوا يروننا بصورة متزايدة، إن لم تكن تماماً مثل صدام، أو متوحشين آخرين، فإبنا يقينا مثل ما جاء من كلمات فى قاموس ويبستر، "لم نعد منتمين، متوحشين لا يمكن التحكم فىنا أو مساءلتنا، ونتصرف بطريقة لا يمكن التنبؤ بها". والحقيقة، أن واشنطن بوست، الصادرة اليوم (الاثنين، ٢٤ فبراير ٢٠٠٢)

تحمل في صفحتها الأولى قصة تقول: إن العديد من الناس في العالم يعتبرون الرئيس جورج دبليو بوش تهديدا لسلام العالم أخطر من صدام. أم أن هذا تطور حديث نتج عن الحوار الدائر عما يجب فعله بخصوص العراق. استمع إلى الجارديان الصادرة في لندن: "إن أمريكا، الأمة التي لا غنى عنها، قد بدأت تماثل الدولة المارقة بصورة جوهرية. إن أمريكا بوش بدلا من قيادة مجتمع الأمم، تبدو ميالة، بصورة متزايدة، إلى مواجهته. وبدلا من أن تكون مدينة براقة فوق التل، ترتفع جلجلة قومية. إننا نفعل ما نشاء ... فإن كنتم لا تحبون ما نفعل، حسنا، فلتك سياستنا الصارمة"^(١). إن هذا لم يكتب الأمس، لكنه كتب في ربيع عام ٢٠٠١، وقت أن رفضت الولايات المتحدة اتفاقية كيوتو، الخاصة بالاحتباس الحرارى الكونى.

في ذلك الوقت بدأت اكتشاف عمق العزلة الخارجية لأمريكا، والمدى المتسارع الاتساع لها، وذلك خلال سلسلة من الرحلات التي قمت أثناءها بعقد لقاءات مع قادة من أنحاء العالم. كنت، في الحقيقة، في آخر واحدة من تلك الرحلات، في الساعة ٣,٤٥ بعد الظهر، يوم ١٠ سبتمبر عام ٢٠٠١، عندما سمعت النداء الأخير الخاص بطائرة الساعة الرابعة، من سان فرنسيסקو إلى واشنطن دالاس، فأسرعت الخطى. كانت هذه هي رحلة الطيران الأخيرة، بعد الظهر، قبل "العين الحمراء" المروعة. كنت متعبا، لم أكن على خير حال، كما لم أكن راغباً في ألا ألحق بها. لذا جريت، وغطست في البوينج ٧٧٧ بالضبط وقت إغلاق بابها. لقد أخذتني أسفاري إلى طوكيو، وسنغافورة، وجاكرتا، وهونولولو للمشاركة في سلسلة من مؤتمرات ولقاءات تناوالت العولة والدور الأمريكى في العالم. وكان شأنى شأن من يقيم بعض الوقت في الخارج ويرأس معهد أبحاث السياسة الخارجية، فغدوت قلقا مما كنت أقرأ أو أسمع عن الفجوات التي تزداد اتساعاً بين أمريكا وأصدقائها منذ زمن طويل.

لم تهدأ الرحلة ما كان يشير قلقي. كانت صورة أمريكا، كما هي مرئية من الخارج، قبيحة على نحو متزايد. وسمعت في آسيا، كما سمعت من قبل في أوروبا وأمريكا اللاتينية، انتقادا متصاعدا، بل حتى خوفاً من الولايات المتحدة التي كانت

غالباً، فى نزاع مع باقى أنحاء العالم، وكذا، بالمثل، مع مثلها العليا المعلنة. إن الحركات الحديثة المنسحبة من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية، التى تزيد من نشر الدفاع الصاروخى الوطنى، وتعلن أن الصين "منافس استراتيجى"، قد أثارت المخاوف من حرب باردة جديدة. يضاف إلى ذلك أن البشارة التى بشرت بها الولايات المتحدة بعولة اقتصادية، غابت من أمام العديد من الآسيويين عندما حلت الأزمة المالية ١٩٩٧ - ١٩٩٨ وقد عانت البلدان النامية فى آسيا وأمريكا اللاتينية من التخريب، بينما أفلتت صناديق التغطية الأمريكية والبنوك سالمة دون أن يصيبها أذى، حتى بدأ البعض ينظر إلى العولة باعتبارها شكلاً جديداً من الإمبريالية. كما سمعت أيضاً نقداً للاتجاهات الأمريكية الأحادية، والتى جرى التدليل عليها من رفضها لكل من اتفاقية كيوتو الخاصة بالتحكم فى الاحتباس الحرارى الكونى، والاتفاقية الدولية التى تحظر استخدام الألغام الأرضية، فى مواجهة تصديق عليها، يكاد يكون عالمياً من كل البلدان، بما فيها حلفاء وأصدقاء أمريكا التقليديون.

وبينما أهرع إلى الوطن، وأنا أمعن التفكير فى تلك الانتقادات وغيرها، كانت أحداث مهمة جداً، غدتنا الآن لسوء الحظ معتادين عليها تماماً، تجرى فى سلسلة يمكن أن تزيد من حدة تلك المسائل الخاصة بالدور والسلوك الأمريكى فى العالم، وبينما طأترتى تصعد من مطار سان فرانسيسكو الدولى، كان هناك زائران غامضان يزوران الولايات المتحدة، هما محمد عطا وعبد العزيز العمرى، يندفعان من فندق ميلز فى وسط مدينة بوسطن إلى فندق كومفورت فى سووث بورتلاند - مين، وفى تلك الأثناء، كانت شخصية إدارية من الأمن القومى تطالب بعمليات عسكرية واستخباراتية ضد شخص هو أسامة بن لادن وتنظيم يدعى القاعدة، وواصلت تلك الشخصية البحث فى مكتب مستشارة الأمن القومى كونداليزا رايس فى انتظار موافقة رئاسية، ووصلت إلى مطار واشنطن دالاس حوالى الساعة ١٢,٣٠ قبل الظهر، صباح ١١ سبتمبر واتجهت إلى منزلى، فى الوقت الذى نام فيه عطا والعمرى وأصدقائهما.

فى الساعة ٩, ١٥ قبل الظهر تلمست طريقى إلى الهاتف الرنان، معتقدا أن المتحدث هو مساعدتى سونجاي هاريسون، لتخبرنى أنها قد حجزت لى موعدا مبكرا مع الطبيب. كانت بالفعل سونجاي، غير أنها لم تكن تطلبنى بسبب الطبيب. أمرتنى قائلة "افتح تلفازك". لم أستطع إلا أن أفكر، بعد الرعب الأول، فى أن العولة قد ذهبت بعيداً أكثر بكثير مما أدركت.

وقد سئل الرئيس جورج دبليو بوش، فى مؤتمر صحفى، بعد قليل من الهجمات، "لماذا هم يكرهوننا؟" وكانت "هم" فى السؤال تعود على الإرهابيين ومن يساندهم، بما فيهم، من كنا ندعوهم بـ "الأمم المارقة"، والذين صنفهم بوش فيما بعد بـ "محور الشر"، وجاءت الإجابة المباشرة عن السؤال، على أية حال، ممن "هم" مختلفون وأكثر أهمية بكثير، وأكثر عدداً بكثير، "هم" هؤلاء الذين أظهروا بوضوح درامى أنهم بعيديون عن الكراهية، وأنهم "يحبوننا". وكان الرئيس الروسى فلاديمير بوتين، عدونا، لمدة طويلة، فى الحرب الباردة، إنه أول من اتصل بالبيت الأبيض، ولحق به سريعا جيانج زيمين، وهو رئيس بلد آخر مضطرب العلاقات مع الولايات المتحدة، وطار جاك شيراك، الرئيس الفرنسى، سريعا إلى نيويورك، وأصبح أول رئيس أجنبى يشاهد "جراوند زيرو". ولحق آخرون. لا شك أن تلك التصرفات قد وصفت، وربما حسبت أيضاً، باعتبارها مجاملات دبلوماسية. لكن، ما كان من الممكن إنكار أصالة تعبيرات المشاركة الوجدانية، التى انهمرت من الناس العاديين على امتداد الكون. لقد غُمرت السفارات الأمريكية من لندن إلى موسكو إلى سنغافورة بالزهور. وفى باريس، رُفرف العلم الفرنسى عند نصف السارية على امتداد نهر السين، وصرحت جريدة الموند فى عنوان بارز "نحن جميعا أمريكيون"^(٢).

إن هجوما مماثلاً على أى بلد آخر، ما كان ليحقق مثل ذلك الشعور المتدفق، كان الأمر وكأن العالم كله، مثله مثل الأمريكيين، يحس نفس فقدان البراءة؛ إذ رغم كل الانتقادات التى سمعتها، فإن الناس فى أنحاء العالم كانوا ما يزالون يرون الولايات المتحدة باعتبارها "المدينة فوق التل"، وكانت كل العيون مصوبة إليها الآن؛ لأن لديها

الطاقة الكامنة، إن رغبت، وكما أظهرتها بوضوح طوال تاريخها، لتأكيد انتصار الأمل على الخوف. بدا وكأن الناس في كل مكان يرغبون، في استماتة، أن يكون هناك، على الأقل، مكان واحد منيع على الهولاء التي تطوف بقية الكون بحثاً عن فرائس؛ لذا لحق العالم بالأمريكيين، ليلبسوا معا ثوب الحداد، ويقررون أن ذلك الدمار لن يحدث مرة أخرى. كانت هذه هي البطانة الفضية لسحابة ١١ سبتمبر ٢٠٠١، والتي قدمت لأمريكا وأصدقائها فرصة من أجل محو مشاعر الماضي المثيرة للانتقاد والشكوى والضرر، من أجل "أن نعود إلى جادة الصواب"، كما جاء في كلمات الرئيس السابق ليندون جونسون والإنجيل، أن نعود إلى ذات الموجة، وأن نكون حضورا وقت خلق نظام عالمي جديد أفضل.

إن ذلك لم يحدث، واجتمع مجلس أمن الأمم المتحدة، بعد عام ونصف، لينظر في كيفية معالجة عدم إذعان العراق الكلى لقرار الأمم المتحدة ١٤٤١، والذي دعا العراق إلى إثبات أنها دمرت وأوقفت تطوير أسلحة الدمار الشامل الخاصة بها، والملاحظ أن القرار دعا العراق إلى تقديم الدليل، ولم يطالب مفتشى الأمم المتحدة بالبحث في كل صحارى العراق تعقبا لها. وحث كولين باول، وزير الخارجية، مجلس الأمن على الدفاع عن مصداقيته بتوجيه إنذار إلى صدام حسين كي يتعاون أو يواجه تدمير نظامه.

وتبع دومينيك دى فيليبين، وزير الخارجية الفرنسية، باول. وطالب بالمزيد من المفتشين، والمزيد من الوقت لهم، حتى يجوبوا الصحراء. وانفجر جمهور المراقبين بالتصفيق لفيليبين، في مظاهرة للمشاعر غير مسبقة عمليا، أو ممنوعة بصرامة، وسارت الملايين، في نهاية الأسابيع التالية، تتظاهر حول العالم ضد الحرب والولايات المتحدة، وهم يحملون لافتات تدعو أمريكا بـ"الأمة المارقة"، ولذا بدا أن فرصة بداية جديدة قد أفلتت، وبدلاً من أن "نعود معاً إلى جادة الصواب" وجدنا أنفسنا ننزل بصورة متزايدة، ونفقد ثقة الآخرين، ولا نتق نحن في الآخرين - إننا في خصام مع العالم ومع أنفسنا.

بينما كان الموضوع الحال، في شتاء ٢٠٠٢، هو العراق، فإن جذور أزمة "عزلة" أمريكا تذهب أعمق من ذلك بكثير، وسوف تظل طويلاً بعد ذهاب صدام. إن هدفي من هذا الكتاب هو محاولة أن أشرح للأمريكيين الحائرين والمضارين لماذا يبدو العالم وقد استدار ضدنا. ولأوضح للأجانب أيضاً، أنهم كثيراً ما يسيئون تفسير وتأويل النوايا الأمريكية الحسنة. وبينما أقدم وجهة نظر متزنة عن أمريكا، فإنني لا أهدف إلى ضربها بعنف. لقد أمضيت الكثير من حياتي في آسيا، وربما أشمئز، مثلاً، من كيم جونج إيل قائد كوريا الشمالية، أكثر مما يفعل الرئيس بوش، أنا لست اشتراكياً فرنسياً، ولست من شباب الستينيات الأمريكي المتمسك بالمبادئ في عناد، والذي لا يدخن، إنني في الحقيقة الشخص غير الملانم لكتابة هذا الكتاب، إنني نتاج الطبقة الوسطى، محافظ، جمهوري، يفتقد المرونة، صلب لا ينثني، مفرط في الوطنية، من عائلة مسيحية ولدت من جديد، التحقت بكلية سوارثمور؛ حيث أسست نادي الكلية المحافظ، في رد فعل للعقيدة الليبرالية السائدة في حرم الجامعة (والتي يمكن للبعض أن يقول عنها: إنها راديكالية معتدلة)، وذهبت للدراسة في اليابان، ولأصبح دبلوماسياً في الخدمة الخارجية؛ وتطوعت للخدمة في فيتنام، إلا أنني عينت في هولندا بدلاً من ذلك؛ وكنت هناك في سفارة الولايات المتحدة في لاهاي، الضابط المسئول للدفاع عن سياسة الولايات المتحدة في فيتنام، وظللت داعماً للحرب مدة طويلة بعد أن تخلى كثيرون من المحافظين الآخرين عنها، وعملت في العديد من الشركات متعددة الجنسيات، وعشت كرجل أعمال في بروكسل وطوكيو، بينما كنت كثير الأسفار عبر العالم، والتحقت عام ١٩٨١ بإدارة ريجان. وغدت أخيراً مستشاراً لوزير التجارة، وهو موقع مارست فيه إدارة المفاوضات في العديد من الاتفاقيات التجارية الدولية الأخرى؛ حيث اكتسبت سمعة "صقر التجارة"، وأسست - فيما بعد - منظمة بحثية لا تقوم على الربح، ويطلق عليها أيضاً "مصنع الفكر"، وهي تركز على تحليل القضايا الكونية.

إن مثل هذه الخبرة والتحليل الدولي هما اللذان جعلاني عميق القلق حول إلى أين نحن ذاهبون. ولم أومن لبرهه بأن الولايات المتحدة شر، أو أنها مارقة مثل صدام، إن

أمريكا يمكن أن تكون مثل "موجة مارقة"، انتفاخ كبير يجرى فى اتجاه عكسى للاتجاه العام للأمواج، وهى تفاجئ البحارة وتتسبب فى تدمير غير متوقع، إن أمريكا أمة كبيرة لا يمكن التنبؤ بما تفعل، وذات تاريخ طويل متعاقب من الكرم واللامبالاة قبل باقى العالم، وبينما نفكر فى أنفسنا باعتبارنا "الفتيان الطيبين"، فإننا نعلم عن سلوكنا المثير، أحيانا، بسبب قوة أساطيرنا وهيمنة ثقافتنا، إننى أخشى وجود هوة تزداد اتساعا بين أمريكا وأصدقائنا؛ حيث نحن الأمريكيين ننصت إلى، لكننا لا نسمع، ننظر إلى، لكننا لا نرى هموم ورؤى البلدان الأخرى. ونفشل، فى ذات الوقت، فى الاعتراف بأن بعضا من سلوكنا يهزأ من قيمنا، إننا نعزو الآن تحديدا ما يوجه إلى السياسات الأمريكية من نقد، إلى ما يلقاه نجاحنا وقوتنا من حسد، وإلى العداء المزمع للمبادئ الأساسية التى تركز عليها الثقافة الأمريكية، تلك يقينا بعض المتاعب، لكنها ليست كلها، ربما وجب علينا النظر أيضاً إلى الكيفية التى نتناول بها بعض الموضوعات الأساسية، وكيف يمكن لسلوكنا أن يتسق مع قيمنا.

إن قائمة همومنا تبدأ بالأحادية الأمريكية، وما يراه العالم فينا من "إمبريالية ناعمة"، كعلامة تجارية أمريكية خاصة بها، وترتبط بهذا مسألة العولة، كعملية أمركة، وإذا ما كانت تُحتضن أو تُقاوم. إن استخدام الطاقة، والاحتباس الحرارى الكونى موضوعان كبيران مرتبطان، لهما أهمية كونية، وتدور حولهما وجهات نظر تتباين بحدة. إن استخدام النفط الأجنبى خاصة أن له دلالات ذات علاقة بالحرب والسلام، يمكن أن يؤثر بطريقة درامية على بلدان أخرى، كذلك تشمل وجهات النظر الأمريكية حول السيادة وحرية الفعل والهيمنة العسكرية على دلالات كبرى ذات علاقة بالحرب والسلام، لا يمكن يقينا التهرب من موضوع إسرائيل وفلسطين، كما لا يمكن تجاهل النقاط الساخنة فى العراق وكوريا، وتسير مترددة مسألة إذا ما كانت أمريكا والصين سوف تصبحان صديقتين أم عدوتين، ويثور حقا السؤال عن من هم أصدقائنا ومن هم أعدائنا الآن، يثار أيضا بصورة متزايدة فى أماكن أخرى، إن العلاقات فى أعقاب الحرب الباردة، وبداية الحرب على الإرهاب، تبدو فى مرحلة انتقالية، مع تفاقم

التوترات بين الأصدقاء القدامى، واكتشاف الأعداء القدامى مفاتن كل منهما والتي كانت خافية حتى الآن. وفي النهاية، هنالك السؤال الطاغى عما تريد أمريكا أن تكونه: أن تكون الثور الجاهز لجر العربة، كما جاء فى كلمات كولين باول الذى كان حينذاك رئيس رؤساء الأركان المشتركة، أو كما يود غالبيتنا أن يروا الولايات المتحدة، يروا المدينة فوق التل.

وقد ناقشت تلك الموضوعات مع قادة أجنب، أثناء جولة أخرى فى أربع عشرة عاصمة عالمية فى أسيا وأمريكا اللاتينية، وأوروبا والشرق الأوسط، خلال صيف وخريف ٢٠٠٢. وقد وجدت فى كل مكان ذهبت إليه أن الولايات المتحدة تفصل ذاتها عمدا عن البلدان الأخرى، وتؤكد فى صخب حقها فى التفوق وعظم النفوذ، إن أفضل مثال على ذلك هو الوضع مع اتفاقية منظمة شمال الأطلسنى (الناتو). لقد كان هنالك الكثير من الانتقاد للناتو فى الولايات المتحدة بسبب معارضة بعض من أعضائه دعم سعى الولايات المتحدة الدافع لتغيير النظام فى العراق، غير أن الولايات المتحدة جعلت من الناتو حجر زاوية أمنها الاستراتيجى لأكثر من خمسين عاما، وحدث فى أعقاب ١١ سبتمبر أن وضع الناتو، لأول مرة فى تاريخه، المادة الخامسة من الاتفاقية موضع التنفيذ. إن هذه الفقرة تجبر كل الأعضاء على النظر إلى الهجوم على واحد منها باعتباره هجوما عليهم جميعا، ولذا يجب عليهم أن يدعموا رد فعل عسكرى، إذا كانت هنالك ضرورة لذلك، وكان القرار بالإجماع (إن تذكر هذا مهم؛ نظراً للغضب الأمريكى الجارى بسبب أفعال فرنسا وألمانيا)، ورغم هذا فإن العمل الإرهابى الصادر عن منظمة غير حكومية يمكن ألا يشكل بالفعل، من الناحية الفنية، هجوما فى ظل قواعد الناتو تلك. يضاف إلى ذلك أن فرنسا وبلجيكا وبريطانيا، وبولاً أخرى أعضاء فى الناتو لم يعرضوا فقط السماح لهم بإرسال قوات والمشاركة فى العمليات ضد طالبان والقاعدة فى أفغانستان، بل توسلوا حتى يتحقق ذلك، وأخذ البنتاجون قوات بريطانية خاصة قليلة العدد، وأبلغ الآخرين، "شكرا"، ولكن لا شكر، فالأمر أيسر دون حلفاء. إننا فى الواقع سنفعل ذلك بأنفسنا، ولسوف ندعوكم إن احتجنا إليكم، وقد تسبب هذا

الإعلان عن الأحادية الأمريكية، إلى جانب الانسحاب من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية ونشر الدفاع الصاروخي الوطني، في مقاومة كبرى لجهود الولايات المتحدة حول الكون. لقد قال لي، في الحقيقة، قائد ماليزي رفيع: "إن الطريقة التي تُسِير بها الأمور، سوف تجعل الولايات المتحدة، في القريب العاجل، ضد العالم". إن الحديث الأمريكي حول "انتلاف الإرادة"، والحرب الوقائية والاستباقية، مقترن باستراتيجية مقررّة لمنع صعود أية قوى منافرة للولايات المتحدة، يخيف الناس، ويجعلهم يفكرون في أنهم قد عادوا إلى ما وراء الدغل، أو أنهم لم يغادروه البتة. إن هذا الخوف من أمريكا الإمبراطورية، أو ما يسميه الصينيون الهيمنة الأمريكية، يفاقمه بيان "ناصرنا أو لا تكن لك بنا صلة"، والذي هو جزء مما يكمن وراء معارضة مجلس الأمن مجازاة مجادلات كولين باول التي تقوم على الإكراه. هنا، حقا، ما يثير السخرية الكبرى، فالجهد لإزاحة مارق متطرف مثل صدام، كان يُقوّض؛ لأن الخوف منه كان يقويه الخوف من الولايات المتحدة.

إن هذه المشاعر قد عبر عنها، منذ زمن طويل، أفضل تعبير، قائد أوروبي وصديق راسخ للولايات المتحدة، إيتين دافينون، الذي قال لي: "كانت أمريكا بعد الحرب العالمية الثانية قوية للغاية، وخلقت عالما جديدا، بتحديد مصالحها الوطنية تحديدا عريضا بطريقة جعلتها جذابة لبلدان أخرى فتحدد مصالحها في إطار احتضان تلك الأمريكية، وقد ناصرت الولايات المتحدة، بصورة خاصة، خلق مؤسسات كونية، كذا العمليات الشرعية لإرساء القواعد والمبادئ، وحكم القانون. الآن أنتم، ثانية، أقوياء للغاية، والعالم، مرة أخرى، في حاجة إلى إعادة بناء أساسية، ولكن وأنتم لا تتحدثون إلى أحد، تبديون وقد أدرتم ظهوركم لأشياء ناصرتموها نصف قرن، وحددتم مصالحكم بصورة محدودة وضيقة، وأساسا في مجال الأمن العسكري"⁽³⁾، ويضيف أطلسي آخر، هو نائب رئيس اللجنة الثلاثية والمدير السابق لمنظمة التجارة العالمية الجنرال بيتر سوثر لاند في حوار آخر: "لم تعوبوا تبديون الالتزام بالتعددية التي فعلتم الكثير لرعايتها". ومع ذلك، قال أوروبي آخر، هو السفير السابق للاتحاد الأوروبي في الأمم

المتحدة، هوجو بايمان: "إن لديكم فى الوطن نظاما رائعا للضوابط والتوازنات، غير أنه لا يمكن التنبؤ نهائيا بما ستفعلون فى سياستكم الخارجية. ويمكن لبندولكم أن يتأرجح من جانب إلى آخر فى سرعة شديدة، بينما هؤلاء الذين منا، والذين يمكن أن يتأثروا بعمق، ليس لديهم فرصة حتى لجعل أصواتهم مسموعة، فما البال أن يكون لنا أى نفوذ. إن هذا مثير للقلق حقا؛ لأنه بينما نواياكم فى العادة طيبة، فإن أفعالكم غالبا ما تشى بالجهالة والأيدولوجية، أو المصالح الخاصة. ويمكن أن يكون لها نتائج ضارة للغاية للبقية منا".

والغريب، كما يبدو للأمريكيين، أن العديد من الناس فى الخارج يحسون أنه بالرغم من كل حديثنا عن الديمقراطية وحقوق الإنسان والتجارة الحرة، فإن أمريكا تهدف حقا للسيطرة على أقدار الأمم الأخرى، سعيًا وراء مصالحها قصيرة المدى أو ما يشغلها فى قضايا أيدولوجية. والأمثلة وفيرة؛ حيث إننا نستثمر بصورة ما، فى كل بلد فى العالم تقريبا. خذ كوريا مثلا، الأمريكيون يميلون إلى النظر إليها باعتبارها بلدا يدين بالكثير للولايات المتحدة، لإنقاذها الكوريين فى باكورة الخمسينيات بثمن قدره ٢٦٠٠٠ قتيل أمريكى، ولتقديم الكثير من أسس المعجزة الاقتصادية الكورية. وقد رأى الأمريكيون أنفسهم، فى فترة أكثر قربا، المدافعين عن كوريا الجنوبية، بربطهم كوريا الشمالية بمحور الشر، وبإيقاف معونة الطعام والكهرباء إلى الشمال حتى يتخلى عن برامج أسلحته النووية.

ويمكن أن تبدو هذه الصورة مبهجة ومنطقية للأمريكيين، لكنها يمكن أن تبدو مختلفة تماما من الجانب الآخر. إن الكوريين ممتنون للتضحية الأمريكية دفاعاً عنهم، ويقررون بها، لكنهم يرون أن الفعل الأمريكى لم يكن ١٠٠٪ نكران ذات، إنه جزء من سياسة أكبر تستهدف منع انتشار الشيوعية، بهدف حماية المصالح الأمريكية، كما يقول الكوريون بأن الولايات المتحدة دعمت، بعد نهاية الحرب، سلسلة من الديكتاتوريات العسكرية الوحشية، والتي أساءت بانتظام إلى حقوق الشعب الكورى، دون احتجاج واضح من واشنطن. إن كيم داي - جونج، الذى كان قد أنهى لتوده فترته

كرئيس لكوريا، ما زال يسير بصعوبة بسبب سنوات التعذيب والسجن، وبينما ما زالت قوات الولايات المتحدة تواجهه، حقا، الكوريين الشماليين، عبر المنطقة منزوعة السلاح، فإنه حق أيضا أن قواتنا تتمتع بنوع من الوضع الإمبراطوري. إن واحدة من أكبر قواعد الولايات المتحدة العسكرية في العالم، تقع في وسط مدينة سيول؛ حيث تشكل عامل إثارة دائم، إن حوادث جنود الولايات المتحدة، التي يتكرر وقوعها، ويقتل فيها الكوريون، بصورة عرضية، في حوادث مرور، والتهجم على النساء المحليات، وارتكاب مخالفات للقوانين الكورية، قد أدت، نادراً، إلى إلقاء أمريكيين في السجن الكوري أو إلى المحاكمة أمام محكمة كورية، إن اتفاقية وضع القوات (سوفاف) بين الولايات المتحدة وكوريا تقول بأن سلطات الولايات المتحدة وحدها هي التي تتناول الإساءات التي يرتكبها جنود الولايات المتحدة أثناء عملهم (للسلطات الكورية السلطة القضائية على الجنود في غير أوقات عملهم، لكن هذا مقيد أيضاً في التطبيق).

أما فيما يتعلق بجهد الولايات المتحدة لإفقاد كوريا الشمالية استقرارها، فإن الكوريين الجنوبيين يؤكدون أنهم لم يطالبوا بذلك، وأنه يتعارض وسياسة "أشعة الشمس" التي ينتهجها الجنوب، والتي سعت إلى بناء جسور مع الشمال في محاولة لتحقيق تغيير تدريجي، وعندما التقيت في العام الأخير مع واحد من المسؤولين البارزين في السياسة الخارجية، توصل إلى أن أشرح لواشنطن، أن كوريا الجنوبية لا تستطيع تحمل انهيار مفاجئ للنظام الشمالي. قال: "إننا لسنا ألمانيا الغربية؛ ونحن غير قادرين على امتصاص الشمال، كما امتصت ألمانيا الغربية، ألمانيا الشرقية".

إن علاقات الولايات المتحدة مع الصين، وهو موضوع أكثر أهمية لآسيا والعالم، تكشف عن انفصال مماثل؛ إذ رغم التحسن في روابط الولايات المتحدة والصين، عبر التعاون في مقاومة القاعدة، مما يشكل نقطة مضيئة في الحرب ضد الإرهاب، إلا أن اتجاهات الولايات المتحدة تظل متضاربة. لقد عززنا، من ناحية، التجارة والاستثمار مع الصين، إلى حد أن أكبر عجز تجاري ثنائي لنا، لم يعد مع اليابان، ولكن مع

الصين، حيث صدرت عشرات البلايين من دولارات استثمارات الولايات المتحدة في البلد. وقد اتجهنا، من ناحية أخرى، بعد انهيار الاتحاد السوفيتي، إلى نقل بؤرة منشأتنا الدفاعية نحو الصين باعتبارها تهديداً محتملاً، بسبب اقتصادها المتنامي، وأسلحتها النووية، ورفع كفاءة قوتها العسكرية، وإصرارها، في النهاية، على أن ترفع العلم الصيني فوق تايوان، التي تعتبرها إقليماً مرتداً. لقد تحركت الولايات المتحدة جزئياً نتيجة تلك الهموم، تحركت في حالة من الشيزوفرانيا، بسبب النمو السريع في الحصص الاقتصادية، تحركت قدماً إلى الأمام، في عملية نشر الصواريخ الدفاعية، ووصفت الصين "كمنافس استراتيجي". إن اتجاهات الولايات المتحدة، فيما يتعلق بتايوان، اتجاهات متضاربة بصورة خاصة، ورغم أننا قطعنا علاقاتنا الدبلوماسية الرسمية مع تايوان، وأكدنا على سياسة "صين واحدة"، بعد فتح الرئيس نيكسون للصين عام ١٩٧٢، فإننا واصلنا الحفاظ على روابط اقتصادية وثيقة مع الجزيرة. يضاف إلى ذلك، أنه مع خروجها الحديث من الديكتاتورية إلى الديمقراطية، وحديثها عن إعلان استقلالها عن الصين، غداً دعم الولايات المتحدة لتايوان أقوى، مع إعلان بوش عن مبيعات أسلحة جديدة كبرى، وتأكيد أن الولايات المتحدة سوف "تفعل ذلك مهما اقتضى الأمر"^(٤)، حماية تايوان.

وقد وجدت أثناء أسفاري في آسيا، أن تلك الأفعال قد تسببت في إثارة المزيد من الذعر بدلاً من الراحة. إن القليلين يشاركون وجهة النظر القائلة بأن الصين بصواريخها الباليستية الثمانية عشر، وميزانية دفاعها التي تبلغ عُشر تلك التي للبنجاب، لديها النية، أو القدرة، على أن تصبح منافساً استراتيجياً للولايات المتحدة، في أي فترة زمنية ذات معنى حقاً، لقد كان القادة الصينيون الذين قابلتهم، يعبرون عن خوفهم من أن أمريكا تبغى الآن جعل الصين بعبع الأطفال، بدلاً من الاتحاد السوفيتي، وأن "تبقى على الصين إلى أسفل". إنهم يقولون: إن الصين ليست هي من طوق الولايات المتحدة، ولا هي من أرسل دوماً بطائرات التجسس إلى شواطئها. كما أشاروا أيضاً إلى أن الصين تؤكد أنها تقوم بتنمية اقتصادية بدعم

متحمس من الصناعة في الولايات المتحدة وحكومة الولايات المتحدة، والتي يمكن أن تعوقها الإنفاقات العسكرية الكبيرة. وكما قال مسئول في شنغهاي: "نحن نود أن نبيع إلى الولايات المتحدة، لا أن نهاجمها". وهناك آخرون، بما فيهم وزير دفاع الولايات المتحدة السابق، يقولون بخطر التحقق الذاتي للنبوءة، مشيرين إلى أننا إن عاملنا الصين كعدو، فإنه يحتمل أن تبدأ التفكير في أنها كذلك. أما فيما يتعلق بتايوان فقد عبر العديدين من الآسيويين عن صدمتهم، إذ بعد ثلاثين عاما من الاتباع الدقيق لسياسة "صين واحدة"، فإننا الآن قد نعرض للخطر استقرار المنطقة، بتغيير وضع تأسست عليه كل علاقاتنا مع الصين. وحتى في تايوان، فإن غالبية هناك لا تدعم الاستقلال، كما أنه ليس هناك ما يثير خوفا كثيرا من غزو شيوعي. إن التايوانيين هم، في الحقيقة، من يغزون الأرض الرئيسية، حيث استثمروا أكثر من ٦٠ بليون دولار. كما أن حوالي ٥٠٠,٠٠٠ شخص قد ذهبوا للحياة في شنغهاي وحدها. ويتسائل بعض الآسيويين الذين تحدثت إليهم، إن كانت الولايات المتحدة تحتاج إلى مجرد عدو.

وقد ذكر العديد من القادة الأجانب وجها آخر مثيرا للمتابع لأحادية الولايات المتحدة - وتقلبها وإهمالها، وقد أشاروا إلى أن أفغانستان كانت بالكاد موجودة بالنسبة للأمريكيين حتى عام ١٩٧٩، عندما غزاها الاتحاد السوفيتي وأسس نظام دُمى شيوعي. وكان رد فعل الولايات المتحدة هو مناصرة رد فعل إسلامي جهادي، وتمويل وتسليح المجاهدين، بما فيهم أسامة بن لادن، لمعارضة السوفييت. وما أن ترك السوفييت البلد حتى فقدت أمريكا اهتمامها، ولم تقل كلمة عندما أجبرت قوات طالبان النساء على الخروج من المدارس والوظائف، وأعادتهم مرة أخرى، إلى ما وراء الخمار. وأمريكا مهتمة الآن بـ "حماس" بالطبع. وبذا يمكن أن تظهر الولايات المتحدة، من خلال هذا المنظور، في صورة من لا يعتمد عليه، الأناني، الذي لا أخلاق له.

ويرى وجه آخر لـ"يانوس"^(*)، فيما يتعلق بالعملة. إن قوة أمريكا الاقتصادية قوة لا مهرب منها، مثل وجودها الجيوبوليتيكي، وقد غدت الولايات المتحدة، عبر الخمسين عاما الماضية، الكاهن الأعظم للعملة، تبشر بحرية التجارة والأسواق المفتوحة، والخصخصة، وإلغاء القيود والقواعد المنظمة، والاعتماد المتبادل. وعندما حلت المتاعب باقتصاديات مثل تلك التي لاندونيسيا، والبرازيل، وماليزيا، قامت الولايات المتحدة، والمؤسسات الدولية التي ترتبط بها، أوثق ارتباط (مثل صندوق النقد الدولي) بجعل قروض الطوارئ مشروطة، مع إنهاء الدعم، و "الرأسمالية الصديقة". وأصر المسئولون من الولايات المتحدة الأمريكية، في مفاوضات لا نهاية لها مع اليابان وكوريا وأوروبا على وضع نهاية للحماية، ودعم ما يسمى بالقطاعات الحساسة، وطالبوا بفتح الأسواق للأرز واللحم، وفواكه المالح، واستضافة منتجات أخرى. إن الولايات المتحدة وهي تبشر بشعار "تجارة لا معونة"، أكدت على الاتفاقيات التجارية الحرة، مثل "اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة" (النافتا) باعتبارها أفضل طريق للتنمية والنمو.

ولذا أحس العالم بخيبة أمل قوية عندما فرضت تعريفة طوارئ على واردات الصلب في الولايات المتحدة عام ٢٠٠١ وكان الأساس المنطقي هو الأكثر إزعاجاً. قالت حكومة الولايات المتحدة إن الصلب "قطاع حساس" يعاني من تدفقات الواردات. إن العديدين في العالم ممن عانوا غطرسة الولايات المتحدة المتسمة بالإرهاب صياحا، أثناء المفاوضات التجارية، يمكن فقط أن يضحكوا، وكانت قائمة المزرعة التي رفعت بحدة دعم سلسلة كاملة من المنتجات الزراعية الأمريكية، هي الأكثر أهمية، على أية حال. إن ذكر مثال عن التأثير، الذي وقع على بلد واحد فقط، نتيجة تعريفة الطوارئ والدعم، يوضح كيف أن ٧٥٪ من صادرات البرازيل، التي تعاني من الأزمة، لن تستطيع المنافسة في السوق الأمريكية، وعلق البرازيليون على ذلك بالإشارة

(*) إله الأبواب والبدايات عند الرومان (المترجم).

إلى شعار "الكثير للغاية للتجارة، لا للمعونة". وكان حال المكسيك أكثر رداءة. فرغم اتفاقية (النافتا) فإن الحصص الصارمة، منعت دخول غالبية السكر المكسيكي من دخول سوق الولايات المتحدة، وقد فقد عمال السكر المكسيكيين، في تلك الأثناء وظائفهم، حيث حلت أذرة الولايات المتحدة المحلاة، والمدعومة بكثافة، محل السكر، في المشروبات المكسيكية الخفيفة.

وكان الاحتباس الحرارى الكونى، مثله مثل التجارة، موضع مباحثات واسعة عبر السنوات العشرين الماضية. إن الولايات المتحدة، باعتبارها أكبر مصدر فى العالم لغازات الصوبات التى تساهم فى الاحتباس الحرارى، كانت لاعبا أساسيا فى هذه المحادثات. وبينما هنالك اتفاق عام حول الاحتباس الحرارى، فإن أسبابه، ومداه المحتمل، وما يتضمنه تظل أمورا يجرى النقاش حولها. وقد عبرت الولايات المتحدة عن قلقها الحذر؛ لأن تخفيض الانبعاثات يمكن أيضاً أن يخفض النمو الاقتصادى. لكنها قاومت الأهداف الكيفية، حتى يتم معرفة المزيد. وقد التزمت الولايات المتحدة عام ١٩٩٢، فى ظل اتفاقية ريو، ببذل الجهود من أجل تعويق الاحتباس الحرارى، غير أنها أبقت عمدا حصص تخفيض الانبعاثات خارج الاتفاقية، أو جعلت منها أهدافا بذاتها. ثم انصرفت إدارة بوش فى مارس ٢٠٠١ عن أى اتفاق، برفض التصديق النهائى على اتفاقية كيوتو الخاصة بالاحتباس الحرارى الكونى.

وقد حظى ذلك بشعبية فى الوطن، غير أن هذه الحركة أدينّت على أوسع نطاق فى باقى أنحاء العالم، خاصة ما ثار من جدل بأن أغنى أمة فى العالم، لم تستطع اللحاق بالبلدان الأخرى، فى محاولة لدرء تدنى بيئى حاد محتمل، وذلك بتخفيض الانبعاثات، بسبب احتمال حدوث تكاليف اقتصادية.

وعندما زار بوش، جوتنبيرج بالسويد، فى ١٤ يونيو ٢٠٠١ للقاءات مع رؤساء خمسة عشر بلدا من الاتحاد الأوروبى، حياه مئات المتظاهرين. وتحدث رئيس الوزراء السويدى جويران بيرسون، نيابة عن القادة الأوربيين، فقال للصحافة: إن الولايات المتحدة تنتج، سياسات خاصة سوف تعرض البيئة للخطر^(٥).

لا يوجد موضوع تتسع فيه الهوة بين أمريكا وباقي أنحاء العالم أكثر من المسألة الإسرائيلية الفلسطينية. إن إسرائيل بالنسبة للأمريكيين، صديق وثيق الصلة وحليف، إن ملايين الأمريكيين قد ذهبوا إلى إسرائيل كسائحين، ومئات الألوف إن لم يكن الملايين عاشوا هناك بأنفسهم أو لديهم أصدقاء وأقارب يعيشون هناك. إن إسرائيل بالنسبة للعديد من اليهود والمسيحيين الأمريكيين هي أرض ميعاد اليهود كما جاء في الكتاب المقدس، وقد قامت شركات تكنولوجيا أمريكية باستثمارات كبيرة في منشآت صناعية هناك. يضاف إلى ذلك أن الأمريكيين بدؤوا في أعقاب ١١ سبتمبر النظر إلى نضال إسرائيل ضد الإرهابيين الانتحاريين باعتباره مماثلاً لحربنا ضد إرهاب القاعدة، ولذا بدت مطالبة الرئيس بوش بإنهاء العنف الفلسطيني وإجراء انتخابات جديدة لاستبدال القادة الفلسطينيين المنتخبين حالياً (مثل ياسر عرفات)، طبيعية وشرعية تماماً في الولايات المتحدة، وقال العديد من حلفاء الولايات المتحدة في الخارج، على أي حال، إنه طبقاً لفهمهم الديمقراطية، فإنهم سوف يتعاملون مع من ينتخبه الفلسطينيون أياً كان، بما في ذلك ياسر عرفات، إن اقتضى الأمر ذلك. وبينما يدين باقي العالم التفجيرات الانتحارية، فقد لاحظوا أيضاً أن الفلسطينيين يعيشون في ظل الاحتلال منذ قرابة أربعين عاماً، وأن المستوطنات الإسرائيلية في الأراضي المحتلة قد تمت بطريقة عنيدة عبر السنوات العشر الماضية. إن هذا، كما يقول العديدون، يشكل نوعاً من العنف الزاحف الساكن. حقاً، لقد ربط البعض ذلك بمعاملة الولايات المتحدة للأمريكيين الأصليين خلال ترسيخ الحدود الأمريكية في القرن التاسع عشر وباكورة القرن العشرين، وقد أكد لى عدد من القادة الأجانب في لقاءات معى في صيف ٢٠٠٢ أن المطالبة بوقف العنف الفلسطيني دون ذكر الاستيطان الإسرائيلي أمر مجحف، ويؤدى إلى نتائج عكسية.

لقد تجاوز هذا الموضوع إسرائيل وفلسطين كثيراً، وهو يتسرب بصورة كبيرة تأثير القلق في سياستنا الخارجية، لقد وجدت خلال رحلة قريبة، عبر جنوب شرق آسيا - أن الاتجاهات في بلدان مثل أندونيسيا وماليزيا تتجه سريعاً إلى الراديكالية. إن

أصحاب هذه الاتجاهات لهم أهميتهم الاستراتيجية، وهم تقليديا أصحاب مهن مرتبطتين بالإسلام الليبرالي، وليس لأى من الأمتين روابط ذات بال مع الشرق الأوسط. ومع ذلك، فإن محادثات قليلة يمكن أن تذهب إلى ما وراء الوضع الإسرائيلي الفلسطيني المعقد. إنهم يرون كل ليلة على التلفاز، قادة الولايات المتحدة وهم يقومون بأعمال مشتركة نشطة مع القادة الإسرائيليين، والإسرائيليون يستخدمون أسلحة أمريكية لمهاجمة أهداف فلسطينية؛ والنتيجة استنتاج العديد من أصدقاء أمريكا القدامى أن أمريكا بذاتها تهاجم الإسلام. إن الوضع فى أوروبا ليس عاطفيا بهذا القدر. إلا أن رسميا أوضح لى، فى باريس، فى ضوء وجود أقلية إسلامية كبيرة فى فرنسا، أن سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط يمكن أن تنظر إليها حكومتى باعتبارها مخاطرة أمنية.

ولذا فإن العديد من أصدقائنا وحلفائنا يصبح لهم، بعد موضوع يليه آخر، وجهة نظر تكاد تتناقض كلية مع وجهة نظرنا. هل هم بلهاء؟ هل هم ضعيفو الشخصية؟ فاسدون؟ إن افتراض ذلك يبعث على الراحة، لكن الحقيقة هى أننا دوما ذلك الرجل الغريب حتى النهاية. إننا كأمة نعيش بعيدا عن وطننا الرئيسى. إننا غالبا ما لا ندرك ذلك بسبب حجمنا الفعلى، والذي يميل إلى وضع غمامة على رأينا فى الآخرين. وقوتنا تلك تسمح لنا بافتراض أن معيارنا أو وجهة نظرنا هى الوجهة المهيمنة كونيا، أو يجب أن تكون كذلك (ولذا فإننا نتمسك بشدة بالأميال والبوصات والدرجات الفهرتية، رغم أن باقى العالم قد اتجه منذ زمن بعيد إلى النظام المئوى الأكثر بساطة). إن الوجهة الحقيقى الفاسد فى هذه الظاهرة هو أن باقى العالم يجاملنا بسبب قوتنا، مما يمكننا من البقاء معصوبى العينين.

وبينما يراقب باقى العالم أمريكا بعناية، ويضع وجهات نظرها فى الحساب، فإن الأمريكيين لا يدركون فى غالب الأحوال، وجود وجهات نظر أخرى. وهم إن أدركوا ذلك، فإنهم لا يهتمون. إن ما يثير الأجانب أشد الإثارة، بخصوص الأحادية الأمريكية، ليس هو سياسة قراراتنا المتعمدة، ولكن عدم الوعى الكامن وراء تلك السياسات.

يضاف إلى ذلك، كما سنناقش، إحساسنا بأن لنا رسالة، واعتقادنا أننا أفضل خلقاً من الآخرين، مما جعل من العسير علينا أن نستمع. إننا، من ناحية، لا نستمع استماعاً جيداً للغاية؛ لأنه ليس علينا أن نفعل ذلك. ونحن نميل، على أية حال، إلى أن نؤمن أنه لا يوجد أحد آخر لديه الكثير، مما هو جدير بالاهتمام ليخبرنا به. ومن جهة أخرى، يتجنب باقى العالم إخبارنا بحقائق كريهة؛ لأنهم يخشون مضايقتنا. إن الدليل على الكيفية التي تُعصب بها عيوننا يجرى في نتائج اقتراع كبير، للرأى العام الكونى عام ٢٠٠٢، أجراه "مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة"^(١). وقد أكدت تلك النتائج ما كنت أسمعه فى أسفارى ولقاءاتى: وتحديداً هو، أنه رغم وجود مخزون من النية الحسنة تجاه الولايات المتحدة، فإن منسوبها فى هبوط. وقد كان للنتيجتين أهمية خاصة لمناقشتائى فى هذا الكتاب. كان السؤال عن إذا ما كان الأمريكيون، لا يضعون غيرهم فى الحسبان، وهم يصنعون سياستهم، وقد أجاب ٧٥٪ من الأمريكيين بنعم، غير أن أغلبية كبيرة من كل بلد آخر، تقريباً، قالت: لا. وكان السؤال الثانى، لمن تم سؤالهم، هو إعطاء رأيهم فى - أولاً - الأمريكيين كشعب، ثم أمريكا كبلد وأظهرت الإجابات وجهات نظر أكثر إيجابية، فيما يتعلق بالأمريكيين كأفراد أكثر من البلد ككل. مثال ذلك، الأردن، حيث قدم ٢٥٪ ممن سئلوا وجهة نظر إيجابية فى الولايات المتحدة، بينما قال ٥٣٪ أنهم يحبون الأمريكيين. وجاءت أرقام مماثلة عبر الشرق الأوسط، تؤكد غالبيتها، على ما يبدو، أن الناس فى الخارج يحبوننا أكثر مما يحبون ما نفعل.

إننا قادرون على ارتكاب أخطاء كريهة، رغم أن نوايانا جديرة بالاحترام. إن هجمات ١١ سبتمبر مثال نموذجى على ذلك. إن استعادة الأحداث الماضية، والتأمل فيها يوضح أن الأمر لم يكن بحاجة لشرلوك هولمز لاستنتاج الخطر الذى كان يوشك أن يحدث طبقاً للمعلومات الموثوق بها، والتي كانت تترقد هنا وهناك، حتى على مكتب مستشارنا للأمن القومى. غير أنه لم يكن فى وسعنا أن نسمع لأننا لم نفكر فى أنه علينا أن نسمع. أو أن نفكر فى فيتنام. لقد حظى الفرنسيون بهزيمة بشعة قبلنا لكنهم

كانوا الفرنسيين. ألم يستسلموا بمجرد أن تلقوا نفخة من رصاص ألماني، في الحرب العالمية الثانية؟ يضاف إلى ذلك أننا لم نكن نحاول إعادة تأسيس إمبراطورية ما. كانت دوافعنا نقية. كنا نحارب الشيوعيين الملحدين، ووقف الدومينو من السقوط. كانت هناك مشكلة واحدة فقط: لم يكن لدينا معلومة موثوق بها تدل على أنه ليس للشيوعية أية علاقة بذلك. كان الأمر كله عن الوطنية والاستقلال. شيء كان علينا نحن خاصة، من بين شعوب العالم، أن نفهمه، غير أننا لم نفعل ذلك؛ لأننا لم نعط الأمر انتباهنا. كان ذلك مثل تجربة شخصية مررت بها كطالب جامعي في اليابان في أوائل الستينيات. كنت أدرس اليابانية مدة عامين. وبينما لم أكن مثاليا، لم أكن رديئا أيضا. حدث ذات يوم، في مطار هانيدا بطوكيو، أن سألت القائمة بالعمل في كشك المعلومات سؤالا باليابانية، وأجابت بالإنجليزية قائلة إنها لا تعرف غير كلمات قليلة من الإنجليزية. ومن ثم، لم تستطع الإجابة على سؤالي، استدرت حينئذ إلى زوجتي الصينية والتي لم تتحدث اليابانية، وأخبرتها ماذا تقول. وكررت زوجتي السؤال باليابانية، وردت القائمة بالعمل، في الحال، باليابانية أيضا، بالمعلومات المطلوبة. إن ما أود قوله هو أن الموظفة تعرف أن الأجانب لا يستطيعون التحدث باليابانية، ولذا فإنها لم تستطع فهم لغتها هي عندما تحدث بها شخص آخر، لا يبدو شكله مثل شكل اليابانيين. ونحن الأمريكيون غالبا ما نفشل في الفهم لأننا نضع أنفسنا فوق الحالة.

ليس الأمر أننا دوما على خطأ، بينما البلدان الأخرى على صواب. ففي حالة اتفاقية كيوتو مثلا، هناك حجج جيدة يمكن طرحها لصالح إدارة بوش، كما سناقش. غير أن اتجاهنا للإعلان أكثر من الشرح، أو حتى الإقرار بالهموم الشرعية للآخرين، غالبا ما يقوض قضيتنا، حتى عندما تكون لدينا الحجة الصحيحة. في حالة كيوتو، وربما كان لمدخلنا الأحادي الأثر السيئ الذي جعل من المستحيل علينا، تقريبا، التوقيع على اتفاقية معدلة، هي مقبولة الآن تمام القبول. والأكثر أهمية، إن ذلك عقد بصورة كبيرة، جهودنا لنيل الدعم والتعاون في موضوعات أخرى أكثر حيوية، مثل العراق والحرب ضد الإرهاب. ولما كانت هناك أوقات يجب علينا التصرف فيها أحاديا، فإنه

يجب علينا، حقيقة، أن نلجأ للتعددية كلما استطعنا، حتى نقلل المقاومة عندما لا نستطيع فعل ذلك بصورة مطلقة.

ربما يتساءل البعض، لماذا يجب علينا، بأية حال، أن نبالي بما يفكر فيه الآخرون، طالما أنه ليس في مقدورهم إيذاؤنا. غير أن تلك تحديدًا هي القضية. إنهم يستطيعون إيذاؤنا بالآلاف السبل: بعدم التعاون، مثلاً، في الأعمال الاستخباراتية الخاصة بالنشاطات الإرهابية، وبعدم تقديم تسهيلات عسكرية أو حقوق مرور طائرات الحملات الأمريكية فوق أراضيهم، أو بمقاطعة المنتجات الأمريكية أو تشجيع بدائلها. الحقيقة هي أن العالم قد غدا من الصغر والخطورة بحيث لا يمكن لأمريكا أن تتجاهل حقيقة دورها في الشؤون الكونية، أو تسيء فهم شئون الآخرين. حان وقت الانتباه للحاجة إلى رؤية أنفسنا كما يراها الآخرون، وأن نقرر إذا ما كنا نريد حقًا أن نكون "غير منتمين أو مقبولين، لا يمكن التحكم فينا أو مساعتنا". أم أننا نريد أن نكون الشعب الذي نتصور أن نكونه، الشعب المثل الأعلى لجون وينثروب. والذي ذكره الرئيس ريجان.

احتفظ في ذهنك بهذا الاختيار وأهميته، بينما تقرأ الفصول التالية - ليس فقط من أجل العلاقات الخارجية الأمريكية، ولكن من أجل أمريكا ذاتها، من أجل المعنى الذي يجب أن تكونه المثل الأعلى الذي جعل سفاراتنا في الخارج تُغمر في الورد بعد ١١ سبتمبر. احمل في ذهنك أيضاً الجزء الثاني من موعظة وينثروب، والذي لا يُذكر عادة: "إن كنا سنتعامل، مع الإهنا، بطريقة مخادعة في هذا العمل الذي أخذناه على عاتقنا، فإننا سوف نجعله يسحب عونه الحالى لنا، مما يجعلنا نادرة، وموضع سخرة عبر العالم. إننا سنفتح أفواه أعدائنا ليتحدثوا بالشر عن سبل الله وكل السادة الذين في خدمته. سوف نجعل الخجل يصيب وجوه الكثيرين من خدام الله الأفاضل، ونتسبب في أن تتحول صلواتهم إلى لعنات تنصب علينا حتى نفنى من الأرض الطيبة أينما ذهبنا".

الفصل الثانى

الإمبراطورية غير المعترف بها

نحن الأمريكيون الشعب المختار المميز - إننا إسرائيل زماننا -
إننا نقود فلك حريات العالم.

- هيرمان ميلفيل

ترقد واشنطن العاصمة على ضفاف البوتوماك، حيث يتسع النهر بعد اندفاعه هائجة سريعة عبر جبال فرجينيا ومارى لاند، ثم استدارة فأنحدارة أخيرة ومثانية إلى الأطلنطى، إنها واحدة من أجمل المدن الأمريكية. تتشعب شوارعها الواسعة من صرة مركزية، تقاطعها طرق ملتوية غير مباشرة، ونصب تذكارية رشيقة، وساحات عامة تعطى المدينة هوى أوروبياً، يعكس ذوق مصممها الأصلى، مخطط المدن الفرنسى ببيير لانفانت. إن حجمها وتواضعها يميزها عن عواصم باقى الأمم العظمى. إن واشنطن بسكانها الذين يقلون عن ٦٠٠,٠٠٠ نسمة، ومساحتها التى تبلغ ٦٨,٢٥ ميلا مربعا فقط، وأمر رسمى قانونى بعدم إقامة ناطحات سحب، تعتبر مدينة صغيرة بالمعايير العالمية، وتفتقد التأثير القوى أو الامتداد الذى له رهبته لنيويورك أو لوس أنجلوس، تفتقد فخامة باريس، أو تعقيد طوكيو أو لندن الكثيف. إن النمط اليونانى - الرومانى للنصب التذكارية، وكذا للعديد من مبانيها العامة يوجد صلة مع أمجاد الماضى الكلاسيكى، خاصة مع الجمهوريات العظمى والمؤسسات الجمهورية، وليس مع الإمبراطوريات والتقاليد الإمبراطورية.

إن تماثيل المدينة ونصبها التذكارية تحيي ذكرى هؤلاء الذين لعبوا أدواراً رئيسية في تاريخ الولايات المتحدة. إن الكثيرين منهم ليسوا أمريكيين. المركز لافاييت، الصديق الكبير لجورج واشنطن، والإلهام القادم من فرنسا خلال الأيام السوداء للقضية الثورية الأمريكية، في وادي جورج، وأمامه أجمل منظر للبيت الأبيض من خلال حديقته عبرينسيلفانيا أفينو. ويحظى جيفرسون وواشنطن ولينكولن المؤسسين العظام للبلد ومخلصيها، بالطبع، بهياكل رخامية خاصة نقشت خطبهم على جدرانها. إن التقدير والولاء في واشنطن موجه نحو مبادئ وآراء رجال الدولة والفلاسفة الذين ناصروا الحرية وحقوق كل الناس غير القابلة للتصرف. هنا، لا توجد نصب تذكارية للقاتلين أو المنتصرين. لا يوجد في واشنطن قوس نصر، ولا بوابة براندنبرج، ولا قصر بكنجهام، أو مدينة محرمة. إن النصب التذكاري الذي يحظى بأكبر عدد من الزوار هو ذلك الذي يحيي ذكرى الحرب الوحيدة التي خسرتها أمريكا. كل يوم ينثال مجرى مثابر من أناس ارتسمت الكأبة على وجوههم، يهبطون المنحدر العام إلى نصب فينتام التذكاري قرب البركة العاكسة ليجد الواحد منهم اسم صديق أو ابن، أو ابنة أو زوج، أو زوجة أو حبيب محفور على الجدران الجرانيتية السوداء. ويستمتع إلى المنادة على أسماء من سقطوا. لا يوجد بينهم جنرال أو أدميرال يشد انتباه مثل هذا السيل الذي لا ينتهي من الزوار. إنك لا يمكنك في بكين أو فيينا أو أوروبا تفادي الاحساس بالتقليد الإمبراطوري الذي يتسم بالفخار. ولكن واشنطن ذات طلعة أكثر تواضعا وبساطة. إنها لم تصمم قط باعتبارها صرة إمبراطورية.

وإن أنت تجولت من نصب فينتام التذكاري بضع مبان حتى شارع الدستور نحو الكابيتول فإنك تصل إلى الأليس إلى يسارك؛ حيث يمكنك من هناك رؤية خلفية البيت الأبيض. ورغم أنه، دون شك، أفضل مقر لنائب رئيس في العالم، إلا أنه ليس مؤثرا كما يجب أن تكون مثل تلك الأشياء. إنه يصبح باهتا عند مقارنته بقصر بيل جيتس، رئيس ميكروويف، الذي تبلغ مساحته ٦٦٠٠٠ قدم مربع، والذي بناه بنفسه على ضفاف بحيرة واشنطن في سياتل. إن الأراضي والحدائق مليحة، وتلقى العناية

الواجبة، لكنها ضئيلة إن قورنت بعزبة روكفلر فى تلال بوكانتيكو، أو قلعة الإمبراطور التى يحيط بها خندق مائى، وتغطيها الأشجار فى قلب طوكيو. بل إن مكاتب البيت الأبيض أقل مما يجب أن تكون عليه بصورة لافتة للأنظار، وقد دهشت عند زيارتى الأولى للمكتب البيضاوى من المدى الصغير الذى هو عليه. إن لكثير من المديرين التنفيذيين فى الشركات حيز عمل أكبر، وتثير مكاتب أخرى فى البيت الأبيض الضحك بكل ما فى الكلمة من معنى. إن حجرة مستشار الأمن القومى مثلاً تتسع بالكاد لمنضدة قهوة وكرسى واحد لزانر، ويتسع مكتب نائبه أو نائبته بالكاد لمكتب واحد. من الواضح أنه لم تكن هنالك البتة نية أن يكون قصراً.

إننا نحن الأمريكيين قد تعلمنا فى إطار تقاليد مضادة للإمبريالية، مضادة للعسكرية وفساد سياسات القوة التى كانت تتبعها الأنظمة الملكية والإمبراطورية الأوربية، إن كتاب رالف والدو إمرسون "المزارعون الذين أُعدوا للمعركة"^(١)، الرجال الذين يتميزون باهتمامهم البالغ، من كونكورد وبوسطن، والمتطوعون الذين اقتطعوا الوقت من الزراعة والصيد ليلحقوا بجورج واشنطن فى مونمثرث ويوركتون، والذين كسبوا الاستقلال من الإمبراطورية البريطانية، كان ابن فرانكلين الذى يتحدث فى سهولة وبساطة هو من تحاشى ملابس وسلوكيات بلاط القصور الأوربية، وهو الذى تفوق بدهائه وحيلته على كل من الفرنسى والبريطانى ليوسع حدود الولايات المتحدة الأمريكية الجديدة، وهو الذى كفل تقدم الحرية. وجاءت كلمة إخلاص ووفاء لهؤلاء الأمريكيين الأوائل تقول: إن الجيوش القائمة على النمط الأوروبى، جنباً إلى جنب مع الأخلاق المعقدة (جيفرسون) والتى يبدو أنها تأتى بعدها كنتيجة لها، إنما هى خطر يجب تفاديه، إن التقليد الأمريكى، وهو تقليد منذ زمن طويل، كان لجيوش من مواطنين نهضوا لمواجهة حالة طارئة، وهى جيوش تُسرح حال انتهاء الأزمة. إن الإمبراطورية، تظل بالنسبة للأمريكيين، كلمة تعنى إخضاع واستعباد شعوب أجنبية ضد إرادتها. إنها تمثل نقىض المثل العليا التى تروى عليها الأمريكيون، والجوهر المحدد لشر العالم القديم، والذى أمل الأمريكيون أن يتلاشى فى ضوء مثالنا نحن.

وكما نمت القوة الأمريكية فى القرن العشرين، نما كذلك أيضا مفهوم "القوى العظمى المعارضة"^(٢)، وقد بيّن المؤرخ أرنست ماى هذا المفهوم على أفضل وجه عندما قال: إن "بعض الأمم تحقق العظمة. الولايات المتحدة يلقى بالعظمة على كاهلها"^(٣). إن أمريكا، من وجهة النظر هذه، لا تسعى إلى القوة أو الأرض. إنها تؤكد قوتها فقط مكرهة، ومن أجل أغراض نبيلة لضمان السلم والدفاع عن الديمقراطية، ولقد أوضح القادة الأمريكيون من الحزبين هذا المعتقد، فقال ستروب تالبوت نائب وزير خارجية كلينتون: "إن الولايات المتحدة، طبقاً لما هو دارج، ولزمن متفرد فى تاريخ القوى العظمى، تحدد قوتها، ليس بلغة قدرتها على تحقيق أو تأكيد هيمنتها على الآخرين، ولكن بلغة العمل مع الآخرين من أجل مصالح المجتمع الدولى ككل"، وأضاف نائب وزير الخزانة، لارى سومرس: إن الولايات المتحدة هى "القوة العظمى الأولى غير الإمبريالية"^(٤)، وحتى لا يتفوق عليه أحد، قال حاكم تكساس حينذاك، جورج دبليو بوش، فى جمهور من المستمعين فى كاليفورنيا فى خريف عام ١٩٩٩: "إن أمريكا لم تكن البتة إمبراطورية. حقيقة، ربما تكون القوى العظمى الوحيدة فى التاريخ التى كانت لديها الفرصة ورفضتها، مفضلة العظمة على القوة، والعدالة على المجد"^(٥). لقد كان بوش متناغماً، فى هذه النقطة، مع الغالبية الكبرى من سكان الريف^(٦).

وبعد أعوام ثلاثة، تحدث، على أى حال، فى ١ يونيو ٢٠٠٢، نفس جورج دبليو بوش، كرئيس الآن، إلى فصل دراسى من خريجي الكلية العسكرية، فى الأكاديمية العسكرية للولايات المتحدة، فى وست بوينت، وطرح رأياً مغايراً يمكن أن يقلب مائتى عام من العقيدة الاستراتيجية الأمريكية رأساً على عقب. بدأ بما يمكن التنبؤ به تماماً، بقوله "ليس لدى أمريكا إمبراطورية كى تمد رقعتها، أو يوتويها حتى تؤسسها". وأكد، "أننا نتمنى للآخرين، فقط ما نتمناه لأنفسنا. السلامة من العنف، وجوائز الحرية، والأمل فى حياة أفضل". ثم أكد بوش، على أى حال، إنه بينما العقيدة الدفاعية الأمريكية القائمة منذ زمن طويل عقيدة ردع ومنع انتشار ، فإنها ما تزال ممكنة

التطبيق فى بعض الحالات، "إن التهديدات الجديدة تقتضى أيضاً تفكيراً جديداً".
وواصل، " يجب أن نأخذ الحرب إلى العدو، وأن نواجه أسوأ التهديدات قبل أن تبزغ.
إن الطريق الوحيد إلى السلام، فى العالم الذى دخلناه، هو طريق العمل"^(٧).

وجاء الفصل الأول فى غضون أقل من أسبوعين، عندما انسحبت الولايات المتحدة رسمياً من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية فى ١٣ يونيو. واستكملت تماماً، وبصورة أكبر، فى ٢٠ سبتمبر، ما تعد الآن عقيدة جديدة هى "الحرب الاستباقية"، فى استراتيجية الأمن القومى السنوية للولايات المتحدة، والتى هى وثيقة يجب على كل رئيس أن يطرحها على الكونجرس. بدأ التقرير بتأكيد أنه يجب على الولايات المتحدة ألا تستخدم قوتها العسكرية التى لا نظير لها للضغط طلباً لميزة أحادية، ولكن يجب عليها، فى الواقع، السعى لخلق توازن قوى يكون فى صالح الحرية البشرية، وأكد أهمية أن الأمم الملتزمة وحدها "بحماية حقوق الإنسان الأساسية، وضمان الحرية السياسية والاقتصادية، سوف تكون قادرة على ضمان رفاهية مستقبلها". واستمر يقول :

"إن الشعب فى كل مكان يرغب فى أن يقول ما يفكر فيه، وأن يختار من يحكمه، ويتعبد كيف شاء، ويعلم أبناءه -ذكورا وإناثا - ويحوز الملكية، ويتمتع بفوائد عمله
إن قيم الحرية تلك شرعية وحقيقية لكل شخص، فى كل مجتمع - وواجب حماية تلك القيم ضد أعدائها، هو دعوة عامة للشعوب المحبة للحرية. إن الولايات المتحدة سوف تنتهز هذه الفرصة لتوسيع فوائد الحرية عبر الكون. إن على أمريكا أن تقف بقوة إلى جانب مطالب الكرامة البشرية غير القابلة للتصرف أو التفاوض: حكم القانون، حدود على السلطة المطلقة للدولة، حرية التعبير، حرية العبادة، العدالة المتساوية، احترام المرأة، التسامح الدينى والإثنى، واحترام الملكية الخاصة"^(٨).

ليس فى ذلك شىء غير عادى، غير أن الورقة تناولت، بعد ذلك، بطريقة لا لبس فيها كيفية السعى إلى تلك الأهداف. قال الرئيس: إن الولايات المتحدة، "لن تتردد فى العمل منفردة"، وسوف تدافع عن نفسها، إن كانت هنالك ضرورة، بواسطة "العمل

الاستباقى"، واختتمت الوثيقة بتأكيد أنه فى حالة أن أحدا لم تبلغه الرسالة، فإن، "قواتنا سوف تكون قوية بما يكفى، كى يعدل أى أعداء محتملين عن السعى لبناء عسكرى، بأمل التفوق، أو التساوى، مع قوة الولايات المتحدة. وفى كلمات أخرى، نحن على القمة، ونستحق أن نكون هناك، وننوى البقاء هناك".

إن هذه العقيدة الدرامية الجديدة للتفوق والهجوم الاستباقى، لم تنقض فقط سنوات من سياسة الأمن القومى الأمريكى، لكنها ضربت فى القلب اتفاقية ويستفاليا، التى عززت، بالشواهد، النظام الدولى الحديث لنول الأمم، لأكثر من ثلاثمائة عام. إن هذه الاتفاقية التى وقعت عام ١٦٤٨ لإنهاء حرب الثلاثين عاما، أقرت كمبدأ أساسى فى العلاقات الدولية، قداسة السيادة الوطنية، وعدم تدخل دولة فى شئون دولة أخرى، كما بدت عقيدة بوش منافية أيضا لدستور الأمم المتحدة، الذى يجرم "التهديد أو استخدام القوة ضد سلامة الأراضى أو الاستقلال السياسى لأى دولة"، كما ناقضت تلك العقيدة نتائج محاكمات نورمبرج التى تعاملت مع "الحرب الاستباقية" باعتبارها جريمة حرب.

ورغم أن العقيدة الجديدة بدت كمفاجأة للعالم، غير أنها خضعت بالفعل للنقاش لبعض الوقت، فبعد انهيار الاتحاد السوفيتى، عند نهاية إدارة بوش الأولى، واجهت منشأة دفاع الولايات المتحدة، فجأة سؤالا خاصا بالوجود: ما المنطق تحديدا، بدون وجود إمبراطورية الشر، فى الحفاظ على قوات أمريكية كبيرة منتشرة على نحو واسع، والميزات التى تدعم هذه القوات؟ وطلب ديك تشينى، ثم وزير الدفاع، من وكيل وزارة الدفاع بول ولفويتز، أن يعمل مع رؤساء الأركان المشتركة، من أجل إعداد خطوط إرشادية لاستراتيجية دفاع جديدة للولايات المتحدة. وقد أشار بول إلى الاستراتيجية الجديدة خلال شهادة أمام لجنة القوات المسلحة بمجلس النواب فى باكورة ١٩٩٢. قال: إن الولايات المتحدة تحتاج إلى "قوة كافية" كى "تحول دون أى تحد من أى حالم بتحدينا على المسرح العالمى. وأضاف: "إننى أود أن أكون الثور الجاهز لجر العربة"، حتى، "لا يكون هناك مستقبل لأى محاولة تحد لقوات

الولايات المتحدة المسلحة^(٩). إن الخطوط العريضة للتخطيط الدفاعي الجديد، كما سُربت إلى النيويورك تايمز في مارس ١٩٩٩، قالت: إن الهدف لاستراتيجية الولايات المتحدة للدفاع كانت "لمنع عودة ظهور منافس جديد"، ومن أجل تحقيق ذلك، فإنه على الولايات المتحدة أن تقنع حلفاءها، وأعداءها بالمثل، "إنهم ليسوا في حاجة للطموح إلى دور أكبر"، إن القوة الاستباقية كانت خياراً، وأن الولايات المتحدة، سوف تحتفظ بمستودع نووي أساسي، في الوقت الذي تشجع فيه الآخرين على تخفيض ما لديهم من أسلحة نووية، أو التخلي عنها، وفي النهاية، ترى الخطوط الإرشادية أنه يجب أن تكون تحالفات المستقبل "جمعيات لغرض بذاته"، لا تدوم، في الغالب، بعد مواجهة الأزمة، وتحمل فقط، في حالات كثيرة، اتفاقاً عاماً حول الأهداف التي يجب إنجازها.

وقد أدى تسريب المسودة إلى إثارة عاصفة ساخنة من النقد، وحاول المتحدث باسم البنتاجون أن يبعد تشينى عن الوثيقة بتسميتها "مسودة منخفضة المستوى"، حتى إن الوزير لم يرها بعد. وطرح البنتاجون، على نحو عام، نسخة جرى تخفيف تأثيرها في يناير ١٩٩٣، لكن الأمر كان، عند هذه النقطة، أكثر بقليل من إيماء وداع؛ حيث أخلى بوش الأب الطريق أمام إدارة كليفتون، التي وضعت تلك الخطوط الإرشادية الجديدة فوراً على الرف، والآن، بعد تسع سنوات أنزلتها إدارة بوش الثانية من على الرف، ونفضت عنها الغبار، وتبنتها باعتبارها استراتيجية الأمن القومي الأمريكى الجديدة.

إن الحركة، على الأرجح، ما كان يجب أن تكون مثيرة للدهشة؛ حيث إن مجموعة مؤثرة من الرواد كانت تحدد مجرى إمبراطورية أمريكية جديدة، خلال العقد السابق، ومن ثم طالب المحرر السابق لـ "ول ستريت جورنال" ماكس بوت، بالاحتلال الأمريكى لأفغانستان والعراق، واحتمال أماكن أخرى، وفرض الديمقراطية الليبرالية عليها، تماماً مثلما حدث في طوكيو ويون بعد الحرب العالمية الثانية. وكتب ريتشارد هاس، وهو عالم في معهد بروكينجز وسوف يصبح فيما بعد، مدير إدارة تخطيط سياسة

الدولة، كتاباً بعنوان "العمدة المعارض" عام ١٩٩٧، وفي صيف عام ٢٠٠٢ قال: إنه لو كان عليه أن يكتب هذا الكتاب من جديد فسوف يشطب الصفة^(١٠). وأكد المعلق المحافظ، أرفينج كريستول أن "الشعب الأمريكي سوف يستيقظ ذات يوم من الأيام، على حقيقة أننا قد غدونا أمة إمبراطورية، رغم أن الرأي العام، وكل تقاليدنا السياسية معادية للفكرة"^(١١).

ربما تكون أفضل صورة للنظام الجديد، هي تلك التي رؤيت في المكسيك، في أواخر أكتوبر عام ٢٠٠٢، بعد نشر وثيقة الاستراتيجية الجديدة؛ فقد اجتمعت رؤوس القوى الاقتصادية، التي تشكل منتدى التعاون الباسفيكي الاقتصادي، في لوس كابوس من أجل محادثاتهم السنوية التي تنعقد في اتحاد مع قمة المديرين التنفيذيين، لقادة رجال الأعمال الأساسيين، من أنحاء الباسفيكي، وقد حدث في العشاء الختامى الذى استضافه الرئيس المكسيكى - فيسنت فوكس - أن جلس رؤساء الدول ورؤساء الوزارات إلى منصة، فى طرف قاعة كبيرة، بينما جلس فنانون يغنون ويرقصون على خشبة مسرح عند الطرف الآخر، وجلس رجال الأعمال إلى مناضد مستديرة، فيما بين الاثنين، ولم يبدأ الحدث حتى التاسعة مساءً، فقد كانت هذه هي المكسيك. أدركت، عندما أُلقيت نظرة على المنصة أن العديد من الرؤساء يعانون. الرئيس الصينى جيانج زيمين، والذي يبلغ من العمر ستة وسبعين عاماً، كان قد وصل بالأمس فقط من بكين، كانت طائرته، كما هو واضح، قد تخلفت. وكان ذلك حال، أيضاً، رئيس الوزراء اليابانى جونيشيرو كوزومى، وكان الآخرون يعانون درجات أخرى من التعب، وبدأ الرئيس بوش، الذى كان قد قضى ثلاث ساعات طيران فى القوة الجوية ١، من مزرعته فى كراوفورد، تكساس، مبكراً فى ذات اليوم، بدأ فى هيئة جديدة. كان قد أجلس، فى النهاية، بعد رئيس الوزراء الفيتنامى. لم يكن واضحاً أنهما يتبادلان حديثاً مثيراً. ولم يكن الطعام قد قدم بعد. كنا نحن الجالسين إلى موائد رجال الأعمال نمضغ آخر البسكويتات الهشة الرقيقة اليابسة السابقة على العشاء، ونأتى على آخر ما فى قوارير المياه، وبينما كنت اتسائل إن كان بوش (والمشهور عنه ذهابه المبكر إلى الفراش)

سوف يظل طوال العشاء، نهض واقفا وغادر، كان عليه أن يكون في الفراش حتى يكون مستعدا لجريه البطيء في السادسة صباحاً على الشاطئ، صباح اليوم التالي كنت واثقا أن المسؤولين المكسيكيين قد عرفوا مقدما عن احتمال مغادرة الرئيس، غير أن رجال الأعمال لم ينبههم أحد دون شك. وقد لاحظوا أن جيانج وكوزومي والآخرين يتحملون المشقة، حتى وإن لم يتحملها الرئيس، وعلق أحد التنفيذيين المكسيكيين "بوش، من يظن نفسه، الإمبراطور".

شكل الإمبراطورية

كان السؤال أفضل مما أدركه رجل الأعمال، كنت على يقين أن بوش لم يفكر في نفسه كإمبراطور، الإمبراطوريات شيء حازه الأوروبيون أو الصينيون أو اليابانيون، لكن لم يحزه الأمريكيون. وعلى أية حال، فإنه لو نظر أو سار أو بطبط مثل البط، فإن الفرصة هي ببطته. كان لأمريكا، بالطبع مستعمرات مباشرة قليلة، أو ممتلكات من أرض على النمط الكلاسيكي لبريطانيا وياپان الماضي. غير أن الإمبراطوريات تقاس أيضا بقدرتها على إبراز القوة لإخضاع الآخرين أو إغرائهم على ما تصدره من أوامر، وعلى وضع القوانين وفرضها، وعلى تأسيس معايير اجتماعية. ونحن إن نظرنا إلى الكيفية التي ترتب بها الولايات المتحدة الأوراق، فيما يتعلق بهذا الصدد، فسوف، تبدأ سيماء البطة التي لا تخطئها العين في الظهور.

إن حاملة الطائرات يو إس إس، "كيتي هوك"، عادة ما تخفر الباسفيكي الغربي من مرفئها في يوكوسوكا اليابانية، إنها أقرب إلى مدينة عدة نوويا طافية، منها إلى مجرد سفينة - إن طولها أكثر من ١١٠٠ قدم، وهو طول يضارع مبنى من عشرين طابقا - كما تحمل سطح انطلاق يمتد ٢٥٠ قدما، من جانب إلى آخر. إن هذا الحيوان القوى الضخم يأوى ٦٠٠٠ من الملاحين والطيارين والميكانيكيين، بالإضافة إلى طائراتها السبعين المتطورة طبقاً لأحدث الأساليب. يرافقها، حيث ذهبت، طراد

إيجيبس للحماية، وهو مجهز لإسقاط الصواريخ القادمة، وعدة فرقاقات ومدمرات، وواحدة أو اثنتين من الغواصات الصيادة القاتلة، وسفن إمداد، ويمكن للكي تي هوك أن تبجر بسرعة تزيد عن ٢٠ ميلاً في الساعة، وهي دعم لهجوم الولايات المتحدة على أفغانستان، غطت ٦٠٠٠ ميل من يوكوسوكا إلى المحيط الهندي في اثني عشر يوماً، إن ذلك حقاً، تركيز مربع للقوة العسكرية.

إن لدى الولايات المتحدة ثلاث عشرة وحدة من مجموعات حاملات المراك تلك، ولا يوجد بلد آخر لديه حتى مجموعة واحدة^(١٢)، وسواء كانت تلك قاذفات قنابل، أم صواريخ باليستية عاملة، أم غواصات استراتيجية، أم قنابل ذكية يوجهها الليزر، أم صواريخ كروز مثبتة إلى الأرض، أم طائرات بلا طيارين، أم سفن حربية، فإن هناك هيمنة على امتداد أكثر من ٧٠٠ منشأة عسكرية للولايات المتحدة عبر الكون^(١٣)، مع ١٢٠٠٠٠ جندي أمريكي في أوروبا، و٩٢٠٠٠ في شرق آسيا والباسفيكي، ٣٠٠٠٠ في شمال إفريقيا والشرق الأوسط وجنوب آسيا، و١٥٠٠٠ في النصف الغربي من الكرة الأرضية خارج الولايات المتحدة^(١٤)، إن نصيب الولايات المتحدة، من إنفاق الدفاع الكلي لكل بلدان العالم هو ٤٠٪ أخذة في الزيادة، إنها تنفق أكثر مما تنفق البلدان التسعة مجتمعة^(١٥)، وفي لغة الهيمنة العسكرية المطلقة، فإن العالم لم ير مثيلاً لهذا.

وتلوح الولايات المتحدة على وجه التقريب بهذه الضخامة الاقتصادية، إن الناتج المحلي الإجمالي للولايات المتحدة هو ١٠ تريليون دولاراً، وهو يصل إلى أكثر من ٣٠٪ من الناتج المحلي الإجمالي الموحد لجميع بلدان العالم، وضعف ذلك الذي للبلد رقم ٢، اليابان، وبينما الناتج المحلي الإجمالي الموحد للاتحاد الأوربي ٩ تريليون دولار، بما في ذلك البلدان التي التحقت به حديثاً، فإن الاتحاد الأوربي ليس دولة بعد، ويعمل كنظير للولايات المتحدة في مناطق محدودة فقط. ومع ذلك فالولايات المتحدة أكبر اقتصادياً من أوروبا كلها، وأربعة أضعاف ألمانيا، الأكبر اقتصادياً في أوروبا. ويعادل اقتصاد الصين، طبقاً لأسعار السوق عشر حجم اقتصاد الولايات المتحدة فقط،

وروسيا أقل من نصف ذلك. وحتى بعد خسارة سبعة تريليون دولار، من قيمة سوق الولايات المتحدة، نتيجة انهيار الفقاعة التكنولوجية الحديثة، فإن رسملة بورصات الولايات المتحدة تقدر بـ ٣٦٪ من قيمة السوق الكونى^(١٦). إن نمو إنتاجية الولايات المتحدة بـ ٥٠٪ أسرع من نمو الدول المتطورة، هو الأمر الأكثر أهمية ودلالة، يضاف إلى ذلك أن كل الأرقام تتحرك فى صالح الولايات المتحدة. إن اقتصاد الولايات المتحدة ونصيبه من الناتج المحلى الإجمالى الكونى، وتقييم أصوله، ونمو إنتاجيته تواصل الصعود، ولذا فإنه يبدو، على الدوام، أكبر، والنتيجة أنه سوف يكون بالفعل قادرا على زيادة حجم وقوة قواته العسكرية الساحقة، بينما ينفق من ناتجه المحلى الإجمالى نسبة أقل على الدفاع.

كذا لا يمكننا إنكار قيادة أمريكا فى مجال التقنيات الأساسية، ولا هيمنتها الفكرية، ويقدر إنفاق الولايات المتحدة، فى مجال البحث الطبى والبيوتكنولوجى - أكثر من باقى العالم مجتمعا^(١٧). إن أكثر من ٨٥٪ من الحاسبات الآلية فى العالم تعمل بنظم تشغيل "ميكروسوفت ويندوز" أو "يونيكس"، وتدار بواسطة "إنتل" أو "موتورولا ميكرو بروسيسورز"، إن "السوفت وير"، ونظم دمج الأعمال تسيطر عليها شركات مثل "ميكروسوفت"، و"أوراكل"، و"إى دى سى"، و"إى بى إم". وتنتج الولايات المتحدة قدرا ضخما من العقاقير الجديدة والأدوية. وما يقارب ٧٥٪ من كل اتصالات الإنترنت كونيا تمر عبر الولايات المتحدة عند نقطة أثناء إرسالها. وتقدر عائدات الأفلام الأمريكية بحوالى ٨٥٪ من إيرادات شبكات تذاكر السينما فى أوروبا، وأكثر من ٨٠٪ من السوق الكونى الكلى. وقد وجد فى مسح حديث لأفلام القمة العشرة، فى اثنين وعشرين بلدا، إن ١٩١ فيلما من ٢٢٠ فيلما يحتمل بيعها هى أفلام أمريكية^(١٨).

إن هيمنة كهذه غير مسبوقة. إن الناتج المحلى الإجمالى للفرد، فى بريطانيا العظمى، فى ذروة إمبراطوريتها، فى أواخر القرن التاسع عشر، كان أقل من ذلك الذى فى الولايات المتحدة، وكان إنفاقها الدفاعى أقل من ذلك الذى لكل من روسيا وفرنسا^(١٩)، بل وحتى بريطانيا لم تهيمن ثقافيا بما يقارب ذلك القدر، إن الفرنسيين لم

يتناولوا فى الغداء أو العشاء سمكا ورقاقات بطاطس، أو يحتشدون للتسليّة البريطانيّة، بل وحتى الإمبراطوريّة الرومانيّة تبتهت عند المقارنة، لقد كانت عظيمة، لكنها إقليميّة بصورة محدّدة، وكانت الإمبراطوريّة الفارسيّة منافسا كفئا، ويحتمل أن الناتج المحليّ الإجماليّ للصين كان أكبر، وأن تكنولوجيّتها القابلة للجدل والمناقشة أكثر تقدما.

أن تكون كبيرا وقويا وذا سلطة، لا يساوى بالضرورة الإمبرياليّة، وإن ساوتها، فربما تكون الإمبرياليّة مسألة إغراق أكثر منها مسألة إكراه، إن قوة أمريكا تعبّر عن نفسها فى الحقيقة، عبر ثلاثة سبل على الأقل: الإكراه، والإغواء، والإقناع، إن الإكراه، بالطبع، هو الأكثر مباشرة، وقد رأينا منذ زمن قريب مثالا لافتا للنظر، على نحو خاص، فى الاستيلاء الذى يسببه، ففى ١٣ يونيو عام ٢٠٠٢، كان اثنان من ضباط جيش الولايات المتحدّة يدفعان بمركبة تطهير ألغام من القاعدة العسكريّة الأمريكيّة، وسط سيول، إلى أراضى التدريب خارج المدينة، وبينما يستديران فى منحى مستقرّ بسرعة كبيرة - على طريق ضيق، كان أيضا أقل الطرق التى يحبونها وصولا إلى غايتهم - صدما فتاتين مراهقتين كانتا تسيران على حافة طريق المشاة، وسحقاهما تحت عجلاتهما، وطبقا لاتفاقية وضع القوات مع كوريا، فإن السلطات الكوريّة لا تجرى التحقيق مع الجنود، لكنهما يحاكمان أمام محكمة الولايات المتحدّة العسكريّة، وفى أواخر نوفمبر، وُجد أن الاثنتين غير مذنبين، ونقلا إلى خارج كوريا.

يكاد ذلك الحدث أن يكون متفردا فى تاريخ الوجود الأمريكى العسكريّ فى كوريا، غير أن تلك الحادثة كانت بارزة نتيجة لتوقيتها، لقد تمت تبرئة الضابطين قبل أسبوعين من انتخابات الرئاسة فى كوريا الجنوبيّة، وقد احتشد خمسون ألفا بعد فترة قصيرة من إعلان القرار، فى شوارع سيول، وحفز غضبهم حملة روه مو هيون الانتخابيّة، كان روه محامى حقوق مدنيّة، علم نفسه بنفسه، وكان يدير منبرا معارضا لسياسة الولايات المتحدّة نحو الشمال، ويدافع عن مراجعة الشروط المجحفة للتحالف مع الولايات المتحدّة، وكان خصم روه هو لى خوى شانج، والذى كان ينطلق كمدافع

قوى، عن التحالف التقليدي، وعن خط الولايات المتحدة، وقد صوت حوالى ٦٠٪ من الكوريين الذين فى العشرينيات أو الثلاثينيات لروه، مانحين إياه هامش الفوز، مشيرين القلق فى واشنطن من العداء الكورى للولايات المتحدة الأمريكية^(٢٠). لقد أُنْتُخِبَ روه فى الأساس لأن شباب كوريا مستاء من كونه دولة تابعة للولايات المتحدة.

وتلك هى النقطة الأساسية؛ إذ بينما يفكر غالبية الأمريكيين فى أن كوريا حليف شجاع، مجد، كادح، مستقل، فإنها بالفعل، من نواح عديدة قمر صناعى تابع، وهى ليست الوحيدة فى ذلك. فاليابان ترقد على بعد ٩٠ ميلا عبر المضائق الكورية، وحدث منذ أعوام عدة مضت أن أثار أحد سياسى اليابان القادة إيشيرو أوزاوا نقاشاً متواصلاً مع نداء أن تصبح اليابان بلدا طبيعياً^(٢١). يقينا، لم يكن غالبية الأمريكيين واعين إلى أن اليابان بلد غير طبيعى، إلا أن قضية أوزاوا كانت تحديدا أن اليابان، أيضا تابعة للولايات المتحدة، إنها مثل كوريا تستضيف العديد من قواعد الولايات المتحدة، وهناك، كما فى كوريا، حوادث متواصلة - الناس تدهسهم المركبات، ومعارك بين المواطنين والجنود الأمريكيين، واغتصاب النسوة المحليات وهلم جرا، ومع ذلك، فإن قدرة السلطات المحلية على التحقيق ومحاكمة الأشخاص العسكريين من الولايات المتحدة مقيدة، إن المثل الأكثر تماسكا بالنسبة لى، والخاص بطبيعة العلاقة، حدث عندما صاحبت نائب الرئيس بوش، حينذاك، فى رحلة إلى طوكيو، فى منتصف الثمانينيات، كانت طائرة نائب الرئيس تحتاج، عند أحد النقاط، إلى منطقة يجب أن تطير عبرها خارج اليابان، وسأل أحدهم إن كنا فى حاجة إلى إذن يابانى من أجل طريق الطيران، ورد الضابط المسئول على الفور: إن الترخيص غير ضرورى لأن ذلك هو مجالنا الجوى.

إن دستور اليابان، الذى كتبته أمريكا، يحظر عليها القيام بحرب ما، كما تعمل قوات الدفاع الذاتى طبقا لإطار شديد التقييد، إن اتفاقيات أمن اليابان وكوريا مع الولايات المتحدة تقوم على ترتيبات فى اتجاه واحد، إن الولايات المتحدة تأخذ على عاتقها مهمة الدفاع عن هذين البلدين حال الهجوم عليهما، ولكن ليس هناك من التزام

عكسى بالدفاع عن الولايات المتحدة، إن جيش كوريا تحت قيادة الولايات المتحدة، وكذلك اليابان فى ذات الوضع فعليا .

إن موضوع السيادة هذا، يذهب إلى أبعد من الأمور العسكرية، فقد حاولت اليابان، أثناء الأزمة المالية الآسيوية عام ١٩٩٧ - أن تقوم بعملية إنقاذ مستقلة لأمم جنوب شرق آسيا، غير أن معارضة وزارة خزانة الولايات المتحدة أوقفتها، وقد أُجبرت كوريا على إعادة هيكلة اقتصادها، فى ظل وصاية صندوق النقد الدولي، الذى يخضع بشدة لنفوذ وزارة خزانة الولايات المتحدة، إن ما ألقى "أوزاوا" الضوء عليه هو أن اليابان عندما تجلس الدول، فإنها تجيء دون مجموعة كاملة من أوراق اللعب.

إن الشيء الوحيد الباعث على الراحة هنا هو أن اليابان ليست بمفردها، وكما لاحظ إرفينج كريستول: "إنها الآن حقيقة، فلا يزال هناك قصور فى الاعتراف الدبلوماسى الصريح، حتى إنه لا يمكن لأمة أوروبية أن يكون لها - أو ترغب حقاً فى أن يكون لها سياستها الخارجية الخاصة بها. إنها أمم غير مستقلة، رغم أن لديها درجة كبيرة من الحكم الذاتى المحلى^(٢٢)."

إن القوة الأمريكية مغرية أيضا - بطريقتين: الأولى ذات علاقة بامتيازات ومكافآت المشروعات، ورغم أن هناك الكثير من المشاكل المرتبطة بالنظام التعليمى فى الولايات المتحدة، غير أن لديها، دون شك، أفضل الجامعات فى العالم، وهى مفتوحة لكل القادمين بغض النظر عن بلد الأصل، والعديدون منهم فى الحقيقة قادمون جدد من الخارج، والنتيجة أنه فى أية لحظة معينة، هناك حوالى ٦٠٠٠٠٠ طالب أجنبى يدرسون فى جامعات الولايات المتحدة، وهناك عبر السنين، وبصورة واقعية ملايين الطلاب الأجانب، الذين حصلوا على درجات علمية^(٢٣). كما أن هناك العديد من البرامج الرئيسية لخريجى الجامعات فى العلوم والهندسة فى مدارس النخبة، مثل بيركلى أو معهد ماساشوستس للتقنية، والتى جذبت غالبية طلابها من عبر البحار.

إن أمريكا أيضا هي مكة العالم بالنسبة لأصحاب المشاريع، إن الأصل الوطنى لوادى السيليكون مستتر غير ظاهر، إن جاء الأمر إلى تمويل وتنشئة الأفكار الجديدة، وقد بدأت عام ٢٠٠٠ مثلا أكثر من ٤٠٪ من الشركات الجديدة التى تأسست فى الوادى بواسطة أصحاب مشاريع هنود، أقاموا بعد ذلك عمليات كبرى فى أوطانهم^(٢٤)، إن هذا الترتيب موات لصاحب المشروع، وموات للولايات المتحدة، وموات للهند، إن كان لديك شخص لا يبدأ فى تكوين شركات، لكنه يضرب البيسبول، أو يقذف كرة السلة عبر السلة، فإن أمريكا - مرة أخرى - هى المكان الذى يناسبك.

الطريقة الثانية للإغراء تعطى أقل فيما يتعلق بالامتياز وأكثر فيما يتعلق بالإقناع، خذ شركات الكوكاكولا، وهى الأكثر نجاحا فى كل الشركات الدولية، إنها بمبيعاتها التى تبلغ ٢٠ مليار دولار، وإيراداتها التى يجىء ثلثاها من الأسواق العالمية قد تبدو أن لديها القليل الذى يثير قلقها، غير أنها تعاني بالفعل قلقا كبيرا، إن عليها، كى تحافظ على جذب المستثمرين، وجعل الشركة قادرة فى هذا الحقل أن تبقى على عملية النمو، إنك عندما تكون كبيرا، مثل شركة الكوكاكولا، فإنك سوف تضيف بلايين الدولارات للمبيعات كل عام، وأنت عندما تكون قد اخترقت بالفعل الكثير من السوق العالمى، فإنك تبدأ فى التساؤل، من أين سيأتى نموك، ولحسن الحظ فإن هناك عددا كبيرا من الناس فى أماكن مثل الهند أو أندونيسيا، ما زالوا يشربون الشاي أو الماء، وبينما لا يمكن صناعة العطش، فإنه يمكن صناعة التذوق^(٢٥)، ومن ثم، تستثمر شركة الكوكا بعضا من دخلها الهائل فى الدعاية (مستخدمة فى الغالب صور النجاح الأمريكى) لإقناع الهنود والإندونيسيين بأن الكوكاكولا هى المشروب الكوزموبوليتانى العالمى، وربما يكون الشاي أفضل لك، غير أنه لا يمتلك صورة النجاح تلك، ولذا يظل الناس على امتداد الكون يختطفون الكوكاكولا، وتظل الكوكاكولا فى نمو.

لقد أسست أمريكا عبر القوة العسكرية، والاتفاقيات غير المتكافئة، والتفوق الفكرى، ومكافآت المشروعات، والإقناع الودى، سيادة مشتركة غير مسبوقة على

الكون، والإجابة على سؤال صديقي رجل الأعمال المكسيكي، أنه مهما كان تفكيره، فإن بوش هو الإمبراطور.

صنع إمبراطورية

ولدت أمريكا في ثورة ضد الإمبراطورية، غير أنها أخفت بنورها الخاصة بها منذ البداية، لقد غامر نوعان من الناس بالذهاب إلى العالم الجديد لتأسيس مستعمرات، في باكورة القرن السابع عشر، بحثا عن قدرهما، ذهب المغامرون والحرفيون إلى فرجينيا مع الكابتن جون سميث بحثا عن الثروة. وذهب إلى ماساشوستس، مع الحاكم جون وينثروب، الحجاج والمتطهرون بحثا عن الجنة، وقام هذان الباحثان بدفع التوسع الأمريكي منذ ذلك الحين.

كان هناك - بداية - ازدواجية معينة في عقول مؤسسي البلاد، فقد حذر واشنطن وجيفرسون، من ناحية، من التحالفات المعقدة، وقال جون كوينسي آدمز قولته الشهيرة: إن أمريكا لا تذهب إلى الخارج بحثا عن هولات تدمرها ... إنها قد تصبح ديكتاتور العالم، إنها لن تكون بعد ذلك، حاكمة لروحها ذاتها، ومع ذلك كان جيفرسون هو من حلم بإمبراطورية للحرية، وهو الذى ضاعف حجم البلاد بجسارة، وبشرائه أراضى لويزيانا، وبتصوره زمنا، "سوف يغطى فيه تضاعفنا كل القارة الشمالية، إن لم يكن القارة الجنوبية"، وردد آدمز كلامه قائلا: "يبدو أن العناية الإلهية قد قررت قدر أمريكا الشمالية، لتسكنها أمة واحدة"، وكان الاتجاه الأحادي نحو البلدان الأجنبية، والروح التوسعية، من الناحية العملية، حدى سيف يدعى الاستثنائية الأمريكية^(٢٦).

لقد رأى الأمريكيون أنفسهم منذ البداية استثناء بالنسبة للأمم التى تدار بطريقة طبيعية، لقد رأوا وقد شكلوا أول جمهورية منذ الأزمنة الكلاسيكية أنهم بداية لتاريخ بشرى جديد بالكامل، أما الأمر كذلك، فإنهم يجب ألا يلوثوا بالاعتماد

على، أو تبني، سبل شعوب التاريخ القديم، وقد أقنع الأمريكيون بأنهم منارة للبشرية، وبدؤوا يفكرون في أنفسهم، كما جاء في كلمات الفصل المقتبسة، "الشعب المختار المميز - إسرائيل زماننا" - فإن كان الأمريكيون هم الشعب المختار، إذن كانت أمريكا هي "أرض الميعاد"، ويكون "بيان القدر" هو المصطلح الذي يعبر عن العقيدة القائلة بأنه يجب على الأمريكيين خلق أمة واحدة تمتد عبر القارة من البحر إلى البحر، وفي عام ١٨٨٥، غدا ذلك حقيقة. بالطبع، جاءت تلك الحقيقة على حساب المكسيك، التي فقدت نصف أراضيها في حرب أثارتها أمريكا، وعلى حساب الأمريكيين الأصليين الذين أبعادوا على وجه التقريب، ومرت تلك الحقيقة دون أن يلتفت إليها أحد في ذلك الوقت، فقد كستها بلاغة ما أسماه الرئيس أندرو جاكسون، "توسيع مساحة الحرية".

وكادت هذه المساحة أن تحظى بقفزة كمية، عند نهاية القرن التاسع عشر؛ إذ إن الروح الأمريكية التوسعية، وهي تجسد "بيان قدرها" استدارت نحو الشواطئ الأجنبية، ولم تكن الولايات المتحدة، في الحقيقة، غريبة على الخارج، فقد حاربت عبر البحار في مائة مناسبة، كان أسطول الولايات المتحدة، يقوم بدوريات في نهر اليانجتسى الصينى منذ أربعينيات القرن التاسع عشر، غير أن الرئيس ماكنيلى طلب من الكونجرس إصدار تفويض باستخدام القوة لحماية المصالح الأمريكية، ولوقف القهر الإسباني لكوبا، قال ماكنيلى: "إننا نتدخل ليس من أجل الإخضاع. إننا نتدخل من أجل الإنسانية، وحتى "ننال ثناء محبى الحرية فى العالم أجمع"، ولكن عندما تركت نهاية الحرب الفلبين الإسبانية سابقا، فى أيدي أمريكية، اختتم ماكنيلى بعد الكثير من "النضال الذى اتسم بالورع والتقوى" (ورغم إعلان الفلبين الاستقلال) اختتم بقوله "لم يترك لنا شئ نفعله، غير أن نأخذهم جميعا، وأن نعلم الفلبينيين، وننهض بهم، ونحضرهم، وننصرهم"^(٢٧). وهكذا غدت الفلبين مستعمرة أمريكية بعد أن كانت مستعمرة إسبانية مدة أربعمئة عام.

ولم يطرح وود رو ويلسون التوجه إلى توسعات كبرى تخضع للتحكم الأمريكي، لكنه رغم ذلك عبر بوضوح عن حاسة ماكنيلى التبشيرية بطريقة جديدة ذات دلالات عميقة يمكن أن يكون لها صداها في زماننا. أولاً: انتظر حتى "دفعت" هجمات الغواصات الألمانية الأمريكيين إلى الحرب العالمية الأولى، وعندما قاد البلاد إلى الحرب، كان ذلك بغرض جعل العالم مكاناً "آمناً للديمقراطية"، لقد فشلت عصبة الأمم، بسبب الانعزاليين في مجلس شيوخ الولايات المتحدة، كما قيل. والحقيقة، على أية حال، إن أعضاء المجلس المعارضين كانوا داعمين متحمسين للتوسع الكولونيالى للولايات المتحدة، لم يكونوا انعزاليين، كما أنهم لم يرفضوا العصبة لأنهم كانوا أحاديين، لقد كان ذلك على نحو ما هو الاستثنائية الأمريكية ضد الاستثنائية الأمريكية، ولو كان ويلسون، قد فقد الجولة الأولى، فإنه، على أية حال، قد أسس أسلوب السياسة الخارجية الأمريكية وإطارها حتى بقية القرن.

إن السياسة والأهداف الأمريكية، في الحرب العالمية الثانية، كانت تكاد أن تكون ويلسونية كلية، وقد قال الرئيس روزفلت عند إعلان الحرب: "إننا لا نحارب من أجل الإخضاع، ولكن من أجل عالم تكون فيه هذه الأمة، وكل ما تمثله هذه الأمة من أمان، من أجل أطفالنا"^(٢٨)، وخرجت أمريكا، بالطبع، كالقوة المهيمنة بصورة شاملة، ومع ذلك، فإنها فعلت شيئاً لم تفعله قوة مماثلة من قبل، شيئاً يقوم على التعددية، إنه لأمر أسر أن تتأمل كيف كان يمكن للعالم أن يبدو، إن لم تكن هناك حرب باردة، لكن كانت هناك الحرب الباردة، واختار الرئيس ترومان أن يستجيب في إطار الطريقة المعتادة حالياً، قائلاً: "نحن إن ترددنا في قيادتنا، فإننا ربما نعرض سلام العالم للخطر، ونحن يقيناً سوف نعرض رفاهية هذه الأمة للخطر"^(٢٩).

إن سياسة وقف الانتشار، التي جعلت أمريكا وحلفاءها يتفوقون على الشيوعية، في الحرب الباردة، كانت مبنية على عدة دعائم. أولاً: حددت الولايات المتحدة مصالحها الوطنية، في إطار تشابكها في تحالفات ومؤسسات متعددة الجنسيات، تستهدف منع انتشار الشيوعية والحفاظ على الديمقراطية وتعزيزها، والحكم الكونى

للقانون، وعدم العدوان، ومجرى شرعى للقواعد والمبادئ المؤسسية حيثما كان ذلك ممكناً. ثانياً: المحافظة على قوى عسكرية كبيرة للغاية، ودائمة بوضوح وجلاء، ويستلزم ذلك إنفاقاً على الدفاع يتراوح من ٢ إلى ١٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى، وخلق مجمع صناعى عسكرى، هائل وقوى^(٢٠). وثالثاً: كانت عادة من عادات الملاسة؛ إذ غالباً ما دعمت الولايات المتحدة حكاما ديكتاتوريين وسلطويين، طالما نهجوا نهج معاداة الشيوعية (وهنا يجىء إلى الذهن شاه إيران، وفرديناند ماركوس فى الفلبين، وديكتاتوريين عسكريين متعاقبين من أمريكا اللاتينية، وجنوب كوريا، وباكستان وتايوان) بالرغم من معرفتها الكلية أن ذلك يدمر مصداقيتها كمدافع عن الحرية، وفى النهاية، غدت التجارة الحرة والأسواق المفتوحة مجدولة بطريقة لا فكاك منها مع تعزيز الديمقراطية، كانت وجهة النظر تلك تقول: إن السياسات الاقتصادية للسوق الحرة، سوف تقود إلى التحرر السياسى، وكانت تلك السياسات، بالطبع، جيدة، أيضاً، للمصالح التجارية للولايات المتحدة. ومن ثم، تم كسب الحرب الباردة عبر البحث الكلاسيكى الأمريكى عن كل من الثروة والجنة اللتين ذكرتهما فيما سبق.

وكاد يبدو مع الغياب المفاجئ لأى تهديد لأمن الولايات المتحدة، ومع اندفاع غالبية العالم لتبنى سياسات ديمقراطية، وللسوق الرأسمالية، مع حرية التجارة، إنه لم يعد هنالك أى شىء للمناقشة، وقد بشر فرانسيس فوكوياما فى "نهاية التاريخ" بحقبة جديدة يجرى فيها تبنى القيم العالمية للولايات المتحدة، أو بصورة أكثر اتساعاً، القيم الغربية، والرفاهية والسلم الكونيين. والآن، وقد انتصرت القيم الأمريكية بوضوح وجلاء، جاءت اللحظة التى يمكن فيها للدولة أن تخطو إلى وراء، وتخفف بطريقة درامية منشأتها العسكرية، وتطلق العديد من قواعدها واسعة الانتشار، وتعديل التزاماتها الأمريكية الخارجية، وتقود العالم بتقديهما النموذج، وكان فى وسع الولايات المتحدة أن تقف سريعاً باعتبارها "المدينة فوق التل"، سعيدة أن تجد "عيون كل الشعوب عليها"، كما تخيل الحاكم جون وينثروب منذ قرون مضت.

ولكن بينما خُفضت قوات الولايات المتحدة والإنفاق، فإن وجودها فى الخارج ظل كبيرا، ونمت بالفعل نسبتها فى قوة العالم العسكرية وإنفاقها، بينما ذابت القوات السوفيتية السابقة وغيرها. إن السيطرة التى مارستها أمريكا، خلال الحرب الباردة، بدأت تتجه نحو التفوق، كانت أمريكا خلال الحرب الباردة، الأولى بين النظراء، كانت القائد لمختلف حلفائها، ولكن كان ما يزال عليها أن تتشاور، وأن تحقق إنجازا ما بالإجماع، إنها تتحرك الآن نحو الهيمنة الكاملة. كانت تدفعها قوى القصور الذاتى والعادة، ومصالح عسكرية كبرى تقوم على الاحتراف، وبعث النزعة الوليسونية لفعل الخير الذى تقوم عليه الاستثنائية والأحادية الأمريكية، وحرب الخليج عام ١٩٩١، وأجندة اقتصادية تحظى بالتعزيز والمساندة.

وما زالت تطفو إلى السطح تناقضات بذاتها، فى غياب قوى معارضة قوية. إن كان نموذجنا قويا إلى هذا الحد، فلماذا نحتاج إلى كل هؤلاء الجنود، وإلى كل تلك المدافع؟ وكانت الإجابة الأساسية التى قدمها الاستراتيجيون أن الاتحاد السوفيتى الذى تم إضعافه، يمكن أن يطلق العنان لعدم الاستقرار، والنزاعات الإقليمية التى فى وسع الولايات المتحدة وحدها إدارتها، إن على قوات الولايات المتحدة أن تظل متفوقة لضمان تشكيل النظام الجديد طبقا للمصالح الأمريكية، وقد دعمت حرب الخليج هذا التفكير وقوته، كان يكمن خلفه منطق أكبر: إن التاريخ لو كان قد انتهى، فقد ترك كاسبين وخاسرين، وقد عنف الرئيس كلينتون الصين فى مؤتمر صحفى عام ١٩٩٧؛ لأنها تقف على الجانب الخطأ من التاريخ^(٣١). وقال فى حديث له فى هونج كونج فى يوليو ١٩٩٨ إن أمريكا قد حددت "الجانب الصحيح للتاريخ"^(٣٢). وفى كلمات المتحدث باسم البيت الأبيض، نيتو جينجريش، وهو جمهورى من جورجيا، إن أمريكا الآن، أمام لحظة هى فيها ذات "ثروة وقوة وفرصة لا نظير لها". كى تدير مصير العالم، ويجب ألا تبدد تلك الفرصة^(٣٣)، وقد كررت مستشارة الأمن القومى المستقبلية، كندوليزا رايس، كلام كلينتون، فقالت فى مجلس لوس أنجلوس للشئون الخارجية عام ١٩٩٩: إن المسألة الأساسية هى إن كانت الولايات المتحدة سوف "تقبل مسئوليتها ككونها على الجانب الصحيح من التاريخ"^(٣٤).

إن جزءاً كبيراً من "الجانب الصحيح للتاريخ" هو العولة، وإزالة كل الحواجز أمام حركة السلع والمعلومات، والنقود، والناس، وخلق نظام عالمي واسع موحد للتجارة، وكما قال توم فريدمان، محرر عمود بنويويورك تايمز: "إننا نبغى توسعاً، فى كل من قيمنا، والبيتزاهت الخاصة بنا"^(٢٥). إن دور الأمريكیین، كان يجب أن يكون، طبقاً للرئيس كلينتون "فى القلب من كل شبكة كونیة حیویة"؛ مما "یزید بطریقة درامیة فعالیتنا فى العمل مع الناس من أجل السلام، وحقوق الإنسان والاستقرار". إن استراتیجیة الآلة العسكریة الأمریكیة الضخمة قد غدت فى هذا السیاق استراتیجیة "ارتباط" لـ "تشكیل المحیط العالمی" بطرق توصل إلى تقدم "الجانب الصحیح من التاريخ"^(٢٦)، وقد طرحت انتخابات بوش، عام ٢٠٠٠، فى البدایة، اتجاهاً جديداً؛ إذ قال بوش أثناء الحملة: "إن كنا أمة متعجرفة، فإنهم سوف یروننا هكذا، ولكن إن كنا أمة متواضعة، فإنهم سوف یحترمونا". كما دافع أيضاً عن تخفیض العدید من التزامات أمریكا الخارجیة، وحذر من بناء الأمة^(٢٧). لكن المصطلح الخاص بالصین تغیر من شریك إلى "منافس استراتیجی"، فى أوائل إدارته الجدیة. وأُعید وبالإحاح تأکید الحاجة إلى التخلص من الاتفاقیة المضادة للصواریخ البالیستیة، وبناء دفاع صاروخی وطنی وأیا كان احتمال وجود اتجاهات جدیة كامنة، فقد محتها أحداث ١١ سبتمبر بصورة حاسمة. وقد قال الرئيس وهو یتحدث إلى الكونجرس فى ٢٠ سبتمبر: "إن الحرية ذاتها تحت الهجوم" وتكلم فى حدیثه فى وست بویت، فى یونیو عام ٢٠٠٢، عن تعزيز نموذجنا للتقدم البشرى، وهو "القائم على مطالب الكرامة الإنسانية غیر القابلة للتفاوض أو التداول، وحكم القانون، وحدود لسلطة الدولة، واحترام المرأة، والملکیة الخاصة، وحرية التعبير، والعدالة المتساویة، والتسامح الدینی"، وأضاف: "إن لدینا فرصة عظمی لتوسیع سلام عادل، باستبدال الفقر والقهر والاستیاء من كل العالم، بأمل فى یوم أفضل، ومن ثم، أعلن بوش نفسه عن غیر قصد إمبراطوراً لمستعمرة مستقلة، یجىء "الاعتراف" بها فى كلمات رجل الدین البروتستنتى رینهولد نیبوه: "إن ذلك ما نتجنبه بغضب شدید"^(٢٨).

روح إمبراطورية

"لقد كان قدرنا كامة ألا تكون لدينا إيديولوجيات ولكن أن نكون نحن أمة واحدة".

ريتشارد هوفستادر

إن أمريكا هي البلد الوحيد الملحق باسمها "نية"؛ "الأمريكانية" كلمة مألوفة (وتُسمع أكثر، عادة، في التعبيرات السلبية، "المضاد للأمريكانية"، غير أننا لا نسمع أبداً "المضاد لليابانية أو المضاد للألمانية). إن البلدان الأخرى مجتمعات بكورية^(*) بصورة نموذجية، تشتق هويتها من التاريخ العام والميراث، غير أن أمريكا أسست على مجموعة من المبادئ، ويصبح المرء أمريكياً بالاهتداء إلى الآراء التي طالب فيها إمرسون بـ "خبرة دينية". وكما قال الكاتب الإنجليزي ج.ك. شيسرتون: "إن أمريكا هي الأمة الوحيدة في العالم التي تأسست على عقيدة دينية"^(٢٩)، ويتقدم ريتشارد هوفستادر خطوة أبعد بالتعليق الذي اقتبسناه في هذا الفصل^(٤٠)، إن المبادئ الأساسية لهذه الأيديولوجية هي الحرية، والمساواة والفردية والشعبية والحكومة المقيدة^(٤١)، إن الأمريكيين، وهم يرون أنفسهم كشعب مختار يعمل في حقل نشاط الرب من أجل خلق مجتمع جديد مثالي، وجدوا دينهم الحقيقي في تلك القيم. إنهم قد يختلفون بقوة حول كل شيء، من الله حتى كرة القدم، غير أن أحداً لن يرتاب في صحة أو عالمية تلك الآراء.

وقد انتشرت الأعلام الأمريكية، في أعقاب ١١ سبتمبر، في كل فضاء متاح. وانتهى كل حديث بالكلمات "فليبارك الله أمريكا"، كنت قد عدت للتو من الخارج، وأدركت كيف أن هنا، لا بد وأن يكون غريباً ومثيراً للأجانب، إذ عندما قام إرهابيو

(*) حق المولد، حق بسبب ولادة المرء في بلد معين (المترجم).

الجيش الجمهورى الأيرلندى بهجمات فى بريطانيا، أو الإرهابيون الجزائريون فى فرنسا، أو إرهابيو أوم فى اليابان، فإن تلك الأمم لم تتزين فجأة بالرايات، ولم يستدع رؤساء وزرائهم المباركة الإلهية الخاصة بهم. هل يعتقد الأمريكيون أنهم، بصورة ما، أكثر قداسة من الآخرين، كلا - لكنهم كانوا على ثقة من أن لديهم فكرا أفضل، وأكثر قداسة من الآخرين؟ وقد عبر الرئيس عن ذلك بطريقة مثالية عندما قال "إن الحرية ذاتها قد هوجمت"، وليس برجا التجارة العالميين، أو البنتاجون أو أمريكا، ولكن شيئا أكثر أهمية بكثير: الحرية، العقيدة الدينية، الدين الحقيقى، الشئ الوحيد الذى يعطى أملاً فى عالم أفضل^(٤٢).

إن الأمريكيين يؤمنون بعالية الأمريكية، ولذا فإنهم لا يرون أنفسهم الأفضل أو الأكثر قداسة، بصورة كبيرة، لكونهم فى الطليعة. إن الشئ اللطيف فيما يتعلق بهذا الدين، إنه نوع من كنيسة أعلى يمكن لأى أحد أن يلتحق بها، بغض النظر عن معتقداته، أو ارتباطاته. حقا، إن السبب الذى يجعل الأمريكيين لا يرون إمبراطوريتهم الخاصة، هو إيمانهم الضمنى بأن كل إنسان هو أمريكى محتمل، وأن انتسابه الوطنى أو الثقافى الحالى إنما يرجع إلى سوء الحظ، وإن كان قابلا للانعكاس، كتب إيمرسون: إن أمريكا سوف تكون "الأمة الأولى للرجال" - الأمة الأولى للأفراد، أكثر منها الأمة الأولى للملوك أو الطبقات، لكنها لن تكون الأخيرة^(٤٣)، إن الأمريكيين يرون أنفسهم يقولون الآخرين إلى الطريق وهم يرون أن باقى العالم راغب فى أن يتبعهم، وعندما وعد القادة الأمريكيون بتعزيز انتشار الحرية كونييا، فإن ما كان فى عقولهم هو الأمريكية، الولاء للولايات المتحدة الأمريكية.

إن هذه العقيدة الدينية جذابة بقوة من أوجه عدة - إنها لا شئ أكثر من تأكيد المساواة، إن المساواة فى العقيدة الدينية لا تعنى وضعا اجتماعيا متساويا، أو مكافآت متساوية، إنها تعنى فرصة متساوية، لقد جاء الكولونىاليون الأوائل إلى العالم الجديد سعيا وراء الثراء، وقد وعدت العقيدة الدينية كل المشايعين لها نفس الفرصة، الآن وإلى الأبد، وكما قال المؤرخ الأمريكى فريدريك جاكسون تيرنر، "كانت أمريكا، منذ الأيام

التي أبحر فيها أسطول كولومبس في مياه العالم الجديد هي الاسم الآخر للفرصة، وأخذ شعب الولايات المتحدة طابعه من التوسع الدائم، الذي لم يكن فقط مفتوحاً أمامه، بل فرض عليه. إن الطاقة الأمريكية تتطلب بصورة متصلة، مجالاً أوسع لممارستها^(٤٤). لقد كانت أمريكا بالنسبة لغالبية تاريخنا، مفتوحة أمام القادمين الجدد. كانت المكان الذي يمكن أن تتوقع فيه الموهبة، ومهارات أعمال المشروعات، والعمل الجاد، وعائداً عادلاً (أو أفضل) ولا شيء مستحيل. لقد كتبت ذات يوم، مقارناً بين اليابان والولايات المتحدة، إن كل شيء محظور في اليابان، ما لم يسمح به بصورة واضحة، بينما كل شيء في الولايات المتحدة مسموح به، ما لم يُمنع بصورة واضحة، إنها الحرية التي يمكن أن تكون أكثر بكثير من الحرية السياسية، هي التي تجعل من أمريكا قوة جذب للمهاجرين، ومصدر أمل للعديد من الناس حول الكون. أضف إلى تلك الجاذبية تسامحنا، وشمول مجتمعنا القائم على الهجرة، إنك طالما تلتزم بالعقيدة الدينية، ففي وسعك تقريباً، أن تكون أي شيء تبتغيه.

إنك حر بصورة خاصة، بقدر ما يخص الأمر دينك الآخر. ورغم المخاوف من النقيض، فإن الإصرار الأساسي على فصل الدولة عن الكنيسة، كان ضربة عبقرية لضمان قوة الكنائس ونشاطها، ولقد أصبحت الكنائس في أوروبا مضفرة ومرادفة للارستقراطيات، والحكومات السلطوية، وبدأت تموت تدريجياً، بينما نمت الكنائس المستقلة في أمريكا وازدهرت، وقد قال توكوفيل في ثلاثينيات القرن التاسع عشر، إن الأمريكيين هم الأشد تديناً بين الشعوب، وقد بقي ذلك حقيقياً حتى يومنا هذا. إن أكثر من نصف الأمريكيين جميعاً يذهب في نهاية كل أسبوع إلى مكان للعبادة، وذلك مقارنة بـ ١٠٪ إلى ٢٠٪ في أغلب البلدان الأوروبية وكندا. إن أمريكا أكثر شبهاً، في هذا الصدد بالمجتمعات الإسلامية.

إن طابع الحياة الدينية في الولايات المتحدة، وضعته يوماً، الطوائف البروتستانتية التي أكدت على العلاقة الفردية الشخصية بالرب، ومن ثم أكدت

الالتصاق الصارم بمجموعة المبادئ الأخلاقية التي تسرى عبر التاريخ الأمريكي، وخاصة عبر وجهة نظر الأمريكيين في الأمم الأخرى.

إن اتحاد هذا التدين المفرط - مع أى شئ - يفضى إلى روح الفرصة المتساوية، وقد أدى ذلك إلى نتائج مختلطة، وكانت النتيجة الأكثر درامية وقوة هي ازدهار الموهبة التي أنتجت ثروة أمريكا الكبرى، وقيادتها فى التكنولوجيا، والدواء، والفنون، والتعليم الجامعى، إن لدى أمريكا أعلى مستوى معيشة فى العالم، والأغلبية الساحقة من أغنياء العالم، وهى أيضا قائدة العطاء الخيرى إلى حد بعيد، إن الجامعات الكبرى مثل ستانفورد وهارفارد ويال، تدين بوجودها لسخاء المحسنين. إن أندرو كارنيجى هو الذى أعلن أن الرجل الذى يموت غنيا، يموت وقد لحقه الخزي والعار، وقد استمتع بحياته طبقاً لكلماته، إن الأمريكيين الذين تصل ثروتهم إلى عشرة ملايين دولار يهبون ٩٪ سنوياً، ويعطى الأمريكى المتوسط إلى الكنيسة والأعمال الخيرية أكثر من ٢,٢٪ إلى ١٪ من الدخل القومى مقارنة بحوالى ٠,٥٪ لأوروبا وأقل من ذلك فى أماكن أخرى^(٤٥)، وكان التحسن المطرد فى العدل الاجتماعى عبر السنوات جزءاً من السبب الذى أدى إلى هذا، وأدى إلى نجاح الفرصة المتساوية، ورغم دوام هذا لزمان طويل، فإن تناقض شديدى التدين، الذين كرسوا أنفسهم لقضية المساواة، بينما يمارس التمييز العنصرى، قد جعل الإبقاء على هذا، فى النهاية، أمراً غير ممكن، إن ذلك لم يحدث فقط بالتخلى البطيء عن الممارسات التمييزية (وهى عملية ما زالت تعمل للاكتمال)، لكن هذا الحل وقع، دون عنف، إلى حد كبير؛ لأن الفضيلة الأمريكية لا يمكنها، فى النهاية، قبول الوحشية.

إن أساطير الأقدمين الجيدة يمكن، من ناحية أخرى، أن تغطى على العديد من الآثام، إن بلدا قيدت أراؤه الدينية الإجهاض، ويستخدم عقوبة الموت بصورة متكررة، يطرح تناقضاً مثيراً للاهتمام، إن هذا اللغز يلقي الضوء على أوجه خاصة بمجتمع الولايات المتحدة، إن أكثر من خمسة عشر ألفاً من الناس يقتلون فى الولايات المتحدة كل عام - أعلى بكثير، بالنسبة لكل شخص أو فرد، من أى بلد صناعى آخر، وهو

معدل يمكن ربطه أولا بحقيقة أن المدنيين من العامة مسلحون حتى الأسنان في الولايات المتحدة^(٤٦)، كما أن سجون الولايات المتحدة أيضا أكثر امتلاء من تلك التي في أى بلد كبير آخر، إن رجلا من كل ثمانية رجال أمريكيين أدين بجناية كبرى، وواحد من كل عشرين سجن (بالنسبة للرجال السود فإن النسبة هي واحد إلى خمسة)^(٤٧)، إن الولايات المتحدة التي يعادل سكانها ٥٪ من سكان العالم، بها ربع مساجين العالم^(٤٨).

وتلفت التناقضات الاقتصادية النظر بنفس القدر، إن الفجوة بين الأغنياء والفقراء في الولايات المتحدة كبيرة للغاية، بالنسبة لبلد بهذا الثراء. كان يعيش مثلا، في عام ١٩٩٨، واحد من كل ثمانية تحت خط الفقر، وحوالي ٢٠٪ منهم كانوا أطفالا - ويوجد حوالى ضعف هذا العدد في أوروبا الغربية، ارتباطا بكل حالة^(٤٩)، إن افتقاد خطة للصحة الوطنية يعنى أن أكثر من ٤٠ مليون أمريكي يفتقدون التأمين الصحى، وفى نفس الوقت فإن الأثرياء يحسنون العمل بطريقة رائعة، إن نسبة ال ٨٪ التى على قمة أهل البيت قد راكموا ثروة أكثر من كل القاع البالغ ٩٥٪. وفى هذا أيضا تقود أمريكا العالم المتطور، والمثير للاهتمام أن لا أحد فى هذه البلدان يعمل على أن يكون مواطنوه تعساء للغاية، إن أسطورة الفرصة المتساوية قوية إلى حد أن الأمريكيين لا يخططون لإنزال الأثرياء إلى أسفل، لكنهم يركزون على الكيفية التى يمكن أن تجعلهم هم أنفسهم أثرياء.

ولذا فإنه عندما يتحدث القادة الأمريكيون عن توسيع عالم الحرية، فما معنى ذلك فيما يتعلق بالامتدادات الخارجية للإمبراطورية؟ إن العقيدة الدينية الأمريكية كريمة بالفطرة، إن الأمريكيين يودون الفرصة طبقا للمدى الذى يفكرون فيه، ليس لأنفسهم فقط، ولكن للعالم، ولسوء الحظ فإن الأمريكيين لا يفكرون كثيرا فى العالم؛ لأنهم يرون أنفسهم كالعالم الوحيد الذى يثير الاهتمام، ولم تكن مصادفة أثناء حرب فيتنام أن كان الجنود يتحدثون عن العودة إلى الوطن، باعتباره العودة إلى العالم، الأمريكيون عامة لا يتعلمون لغات أجنبية (خَرَجَت جامعات الولايات المتحدة، تسعة يتحدثون

العربية عام ٢٠٠٢)^(٥٠)، أو يسافرون إلى الخارج، وغالبيتهم لم يستطيعوا العثور على بلدان "محور الشر" (العراق، إيران، شمال كوريا) على الخريطة، إن أمريكا موجودة حيث الفرصة، والأفكار الجديدة، ونجوم المهن والحرف أينما كانوا، وكل ما هو خارج ذلك هامشي كما هو مُحدد ومُعرف تقريبا، إن وجهها مهما للإمبراطورية الأمريكية هو أن الأمريكيين لا يرونها هكذا، إن القليلين منهم ينظرون نظرة كلية، أو يفكرون إلى أين هي ذاهبة، أو ما الذى تحتاجه، وبقينا، لا أحد مسئول، إن هذه الغفلة تخلق الإهمال، وعدم التماسك، وغالبا مبادرات سياسية متناقضة.

إن أندونيسيا، مثلا، ليست فقط أكبر بلد إسلامي في العالم، لكنها أيضا واحدة من البلاد الإسلامية القليلة ذات حكومة علمانية ديمقراطية، رغم أنها قليلة الخبرة، عندما قابلت قادتها في صيف عام ٢٠٠٢، كانوا يحاولون في استماتة خلق البنى الأساسية للديمقراطية - أشياء مثل الدستور، ومجالس المدن، وقوات الشرطة غير العسكرية، وقضاة ومأمير قضائيين مستقلين، وقد طلب بعض المسئولين الأندونيسيين الكبار المساعدة الأمريكية، فقدم رالف ل. بويس، سفير الولايات المتحدة، أفضل ما لديه استجابة لذلك، ولكن منذ الحرب الباردة خفضت الولايات المتحدة تمثيلها الدبلوماسي بأكثر من ٥٠٪. وقيد ما يستطيع بويس القيام به بشدة.

إن هذا ليس صحيحاً فقط بالنسبة لأندونيسيا، وقد كتبت النيويورك تايمز في يوليو ٢٠٠٢ - أن المواقع الدبلوماسية للولايات المتحدة في بلدان تمتد من العربية السعودية إلى الصين إلى روسيا وباكستان، قد خفضت هيئاتها تخفيضاً شديداً^(٥١). وكانت التايمز قد نشرت منذ بضعة أشهر، عن النمو السريع لمدارس الإسلاميين الأصوليين في باكستان، تملأ الفجوة التي تركها انهيار ميزانية الحكومة. وقد قامت كندا بالتنازل عن الديون المستحقة لها طرف الحكومة، مقابل إنفاقها على التعليم، وذلك رداً على هذا الانهيار، في حين لم تفعل الولايات المتحدة شيئاً^(٥٢)، ونشرت التايمز في ٢٠٠٢ قصة أخرى احتفظت فيها الولايات المتحدة بـ ٢٤ مليون دولار من الاعتمادات المخصصة لصندوق سكان الأمم المتحدة، لخوفها من أن يساعد هذا المال حكومة

الصين فى تحقيق برامجها الخاصة بالإجهاض القسرى^(٥٣). لا عليك، إن كل ما كانت تحتاج الصين إلى إنفاقه هو ثلاثة ملايين فقط، أم أن الولايات المتحدة كانت تريد تحديدا، مقاومة الإجهاض القسرى وذلك بإظهار فعالية التخطيط الأسرى الطوعى، لا بأس، ففى ذات الوقت كانت إدارة الصحة والخدمات البشرية فى الولايات المتحدة تعلن عن برامج تعاونية مع نفس وزارة الصحة الصينية التى حُرمت من صناديق السكان، إن الحرمان من صناديق الأمم المتحدة ما يزال بلا معنى، غير أن يكون لعبة سياسية للتأثير فى نفوس المشاهدين، وقد تساعل الكاتب الأمريكى جارى ويلز كيف يمكن إخبار البلدان الأخرى أنه ليس فى وسعها القيام بعملية الإجهاض بينما هى شرعية هنا؟^(٥٤) فى وسعنا فعل ذلك، حيث إن الإجهاض فى الولايات المتحدة موضوع مثقل بمغزى دينى؛ ونحن ننظر إلى كل تلك البلدان باعتبارها راغبة فى أن تكون كأمريكا، إن أحدا لا يفكر فيهم كثيرا، على أى أساس غير ذلك الأساس.

إن اعترض طريق الفرصة شىء ما، أو وقع ما هو كرهه، فإن حدوث أى من هذين سوف يثير يقينا رد فعل مركز، بطريقة لا يمكن تفاديها، وفى حالة حصار الفرصة، فإن الرد يمكن أن يكون ضغطا شاملا، حدث فى منتصف التسعينيات مثلا، عملية نسخ كثيف غير قانونى لميكروسوفت ويندوز سوفت وير فى الصين، وكان ذلك قتلا لأعمال ميكروسوفت هناك، وفى أماكن أخرى. وقامت حكومة الولايات المتحدة التى خففت تمثيلها الدبلوماسى فى أندونيسيا إلى النصف، ولم تبالى قيد أنملة بحالة المدارس فى باكستان، باقتلاع كل الموانع، وطلبت من الحكومة الصينية اتخاذ إجراءات صارمة ضد القراصنة، أنا أعرف ذلك؛ لأننى كنت مستشار حكومة الولايات المتحدة فى ذلك الوقت، إن رد الفعل فى حالة حدوث شىء كرهه قد يكون مميتا.

أوضح صمويل هنتجتون أن العقيدة الدينية الأمريكية والهوية قد تطورا وهما فى تعارض مع "آخر" غير مرغوب فيه، عُرف دوما باعتبارها خصما للحرية^(٥٥)، وكان ذلك الآخر، فى الأساس، هو القهر البريطانى الأرستقراطى، ثم القهر الأكثر اتساعا، القهر

الإقطاعى الملكى لأوروبا الإمبريالية، وتحولت الولايات المتحدة فيما بعد إلى قائد الحضارة الأوروبية الأمريكية ضد تهديدات وجهت إلى هذه الحضارة من الإمبراطورية الألمانية، النازية، والفاشية، والعسكرية اليابانية. ثم عرّفت الولايات المتحدة نفسها، فيما بعد، باعتبارها قائد العالم الحر ضد الاتحاد السوفيتى والشيوعية الدولية، وكان تأثير التدين الأمريكى الشديد هو الذى جعل النزاع، فى كل مرحلة، حملة صليبية أخلاقية، كان المتوقع من الأمريكين التصرف طبقا لضمائرهم، ولهذا وجدوا أنه من الصعب عليهم دعم حرب تبدو غير عادلة، أو حربا لأسباب أرضية أو مصالح ذاتية، يجب على الأمريكين حتى يصادقوا على حرب ما أن يروا أنفسهم إلى جانب الرب، يحاربون من أجل الخير ضد الشر، ولأن الحرب ضد الشر؛ لذا يجب أن يكون النصر مطلقاً، والتسليم غير مشروط.

هذا هو رد الفعل الذى أطلقته أحداث ١١ سبتمبر، هذا هو السبب الذى جعل الرئيس يقول: "أنتم معنا أم ضدنا" و"أنا سوف نقاتلهم أمواتا أو أحياء"، ولماذا يكرر مقولة رونالد ريجان : "إمبراطورية الشر" مع مقولته هو "محور الشر". إنك حتى تكون جديرا بالقتال، يجب أن تكون خسة العدو أيضا مطلقة.

ويجىء ضد هذه الخلفية ما تسعى الولايات المتحدة إليه، والذى يطلق عليه مدير إدارة تخطيط سياسة الدولة، ريتشارد هاس عقيدة التوحيد. وهى عقيدة تستهدف توحيد البلدان الأخرى والمنظمات فى اتساق تدعم عالما متناغما مع مصالح وقيم الولايات المتحدة، ومن ثم يتعزز السلم والرفاهية والعدالة. يجب أن تقوم العقيدة بإقناع الحكومات والشعوب للتوقيع على "مطالب الكرامة البشرية غير القابلة للتفاوض أو التداول: حكم القانون، وقيود على سلطة الدولة، واحترام المرأة، والملكية الخاصة، والعدل المتساوى والتسامح الدينى". إن تلك القيم ليست قيما أمريكية ضيقة تعود على الأمريكين فقط، لكنها قيم عالمية تفيد الناس فى كل مكان^(٥٦).

وتطرح مثل تلك البيانات أسئلة واضحة، السؤال الأساسى فيها هو كيف يمكن تحقيق كل ذلك؟ ويبدو أن الإجابة سوف تكون من خلال تعزيز متواصل للعولة، مقترن

بائتلافات الإرادة، وذلك لإحداث تغييرات فى الأنظمة التى تُعتبر أنظمة خطيرة. وفى هذا السياق فإنه يُنظر إلى العولة باعتبارها نوعاً من "القوة الناعمة"^(٥٧)، التى سوف تغرى الآخرين بالوحدة فى إطار الإمبراطورية بقوة الرغبة الطوعية، لفعل ما نريدهم أن يفعلوه. هناك اقتناع بأن الناس سوف يرون هذا التوحيد باعتباره الطريق إلى الرفاهية، وأن الرفاهية سوف تؤدى إلى التحرر والمقرطة. وإن تلك بدورها سوف تؤدى إلى سلم واستقرار دائمين، إن هذه القوة الناعمة التى تمارسها الأسواق، والثقافة، والمؤسسات الأمريكية - يراها الحكيم نوعاً من الأسرار، سلاحاً منفرداً يتناقض حتى مع النماذج الرومانية والبريطانية، جاعلاً الإمبراطورية الأمريكية إمبراطورية طوعية، تظل طويلاً غير معترف بها؛ لأنها تقوم على أنساق تعاونية تقودها الولايات المتحدة، وتتماسك معاً بغراء القوة الأمريكية الناعمة. ورغم أن خبرة الأعوام الخمسين الماضية تقدم دليلاً يدعم هذا السيناريو المغرى، فإن هناك تحذيرين. الأول، هو أن التناقض مع الإمبراطوريات الأخرى، يشكل إساءة فهم للتاريخ. إن الإمبراطورية الرومانية لم تحكم أساساً بالقوة، ولكن بتمديد نظامها القانونى والثقافى، بل وحتى حقوق وواجبات المواطن الرومانى إلى الشعوب الأخرى. لقد فضلت روما، الحكم غير المباشر فى غالب الأحوال. وعادة ما استخدمت القوة كملجأ أخير فقط. وكما قال مونتسكيو، أن تلك "كانت وسيلة بطيئة للإخضاع"^(٥٨). وقد اشتهرت الإمبراطورية البريطانية، بما اكتسبت للسبب ذاته، "فى نوبة من نوبات غياب العقل"^(٥٩). وكان جورج كانينج رجل الدولة البريطانى هو من قال: "التجارة دون قوة حيثما استطعنا، والتجارة بالقوة إن كان علينا فعل ذلك"^(٦٠). لقد رأى الرومان ثم البريطانىون أن القوة الخشنة لم تقدر فقط القوة الناعمة بل لحقت بها أيضاً.

ويلى التحذير الثانى، التحذير الأول. لقد أطلق توماس فريدمان على العولة، النظام العالمى الذى حل محل الحرب الباردة، ومما لا شك فيه أن فى وسع العولة خلق الثروة والاستقلال، وتحدى المفاهيم القديمة بقوة، ونشر الآراء الجديدة، وكما قال هوبرت فيدرين، وزير خارجية فرنسا: "يمكن لأمريكا أن تلهم أحلام الآخرين ورغباتهم،

شاكرين لها هيمنتها على الصور الكونية^{٢٠}، ولكن أى أحلام للآخرين وأى رغبات، وعلى أية قيم تقوم، وداخل أى إطار سياسى واجتماعى. (عندما أدت منذ زمن قريب التلغاز فى حجرة فندق جاكركتا، وجدت أن القناة الأولى تعرض مسلسل الجميلة^(*)). وكما قال لى مدير الأسهم والبورصة بهونج كونج، أندرو شينج، منذ زمن قريب: "إن القيم الأمريكية يمكن أن تزدهر، فقط، مع وجود موارد ضخمة رهن إشارتك، وإذا افترضنا أن ما لديكم فى الولايات المتحدة يمكن أن يحصل عليه الجميع، فإننا نكون مجانين. بداية، فكر فقط لو أن كل واحد استهلك كما يستهلك الأمريكيون، فسوف يكون ذلك كارثة بيئية".

تدفع الأسواق العولة، غير أن الأسواق لا أخلاقية وداروينية، والاستهلاك عدو ربها، ويقول ميتشيل بروس: "إن زيادة الاستخدام إلى حده الأقصى، والذي لا يوجد فيه مكان للأخلاق، قد غدا بالنسبة للكثيرين فلسفة كلية للحياة، إلا أن ذلك لا يتسق والسلوك الاجتماعى الجيد"^(٢١). إن الوهم الذى ساد فى العقد الأخير بأن بلدين توجد بهما مطاعم مكدونالد لن تحارب الواحدة منهما الأخرى - قد تبخر مع القهر الصربى فى كوسوفو، والجنود الأطفال فى سيراليون، والذين يرتدون قمصانا عليها رموز فرق الولايات المتحدة الرياضية المفضلة لديهم، بينما يبترون أيدى السجناء، إن دولة الأمة الديمقراطية الحديثة، هى وعاء للقيم، يتفوق فيه النفع العام، على المصلحة الخاصة، غير أن الرأسمالية غير مهتمة. بصورة متناصلة، بالأمم وقيمها، لقد روضت الأمم، الرأسمالية حتى الآن، بفرض قيود معينة تقوم على القيم، غير أن العولة تهاجم وتدمر دولة الأمة وقيمها، ومما يثير السخرية، أن العولة تعزز الاعتماد المتبادل والتعاون الدولى، بصورة ما، رغم أنها تقوى أيضا تشظية القوى التى يدعوها الكاتب بنجامين باربر، "الجهاد". حقا، إن قوى الإرهابيين قد تعولت بصورة فاعلة للغاية، بصورة أكثر من هؤلاء الذين ينتمون إلى قوى التوحيد الجارية، والنتيجة تثير السخرية، من ذلك

(*) مسلسل درامى تلفازى يقوم على الحركة (الترجم).

العالم المفتوح الذى تدعمه الولايات المتحدة؛ حيث جعلها ذلك أقل أمنا، بدلا من أن تكون أكثر أمنا.

إن للجهد صدى، بطريقة خاصة وإن كانت مهمة، فى منطقة مركزية وحيوية من الإمبراطورية، لقد غدا التعليم الوطنى مزدهرا فى الولايات المتحدة؛ إذ يوجد حاليا مليون ونصف طالب فى مختلف البرامج. وهم يزدادون بنسبة تتراوح من ٧ إلى ١٥٪ سنويا^(٦٢). إن مرجع هذا الارتفاع، فى الأساس، رغبة الوالدين المتدينين تجنيب أطفالهما تشرب القيم المادية للعولة، لقد أحيط اللغز بإطار محكم، بواسطة الرئيس بوش، وإن كان دون عمد، عندما أخبر الأمريكين أنهم الآن فى حرب، وأن واجبهم هو الإبقاء على الاقتصاد جاريا، وذلك بالمزيد من الاستهلاك. وقد رأى توماس فريدمان أن، "النظام الكونى البازغ فى حاجة إلى من يقويه"، وأن هذا "هو عبء أمريكا الجديد"^(٦٣). لكنه لم يقل أبدا ما الذى سوف تقويه أمريكا بالضبط أو كيف. هل سوف تستخدم الولايات المتحدة القوة لتبيع مسلسل الجميلة؟ وهل سوف تفعل ذلك بمفردها أم مع حلفاء لها؟

قد يكون الجواب هو أنها سوف تفرض المطالب العالمية التى لا تقبل التفاوض أو التداول، بمساعدة "ائتلافات الإرادة". لكن يثير هنا السؤال الخاص بالعالمية الحقيقية لتلك المطالب. إن مطالب بوش، فى الغالب، نظير مثالى لمطالب وودرو ويلسون عام ١٩١٨، مع إضافة لافتة للانتظار هى احترام المرأة. لقد اكتشف الأمريكين هذه القيمة العالمية الجديدة منذ عهد قريب فقط. وهل التعريف الأمريكى لاحترام المرأة هو، فى الحقيقة، قيمة عالمية، وأن تحقيقها مسألة غير قابلة للتفاوض أو التداول؟ أو تقتضى قيودا على السلطة. إن كل دول العالم لا تتفق، عمليا، مع الكيفية التى تضع بها الولايات المتحدة تلك القيود. إنها قد تزيد من سلطات الدولة فى حالات عديدة - مثل، التنظيم الصارم للأسلحة - وجعلها أكثر آدمية فى نواحى أخرى - مثل، إلغاء عقوبة الموت. وإن كنا نبحث عن ائتلافات الإرادة، فإن الدليل يقول إن بلدانا كثيرة لا تقبل بعالمية قيمنا، وهى غير راغبة فيها بصورة متزايدة.

العاطفة فى الإمبراطورية

حدث فى شتاء عام ١٩٤٨ القارس أول مواجهات كبرى للحرب الباردة فى برلين الغربية، كانت غرب برلين، الواقعة فى قلب منطقة الاحتلال السوفيتية، مقاطعة للحرية تحتلها قوات الولايات المتحدة والقوات البريطانية والفرنسية، فى قلب الجيوش السوفيتية، وفرضت السلطات السوفيتية الحصار عليها؛ لأنها لم ترغب فى الهجوم مباشرة، لكنها كانت تنتوى تولى أمر برلين كلها، إنهم لن يزودوا المقاطعة، ولن يسمحوا بأن تشحن إليها المؤن من الغرب، مروراً بالأراضى التى تحتلها، وأطلقت قوات الولايات المتحدة، فى عمل مرتجل يائس، الجسر الجوى الذى يعرف الآن بجسر برلين الجوى الأسطورى، حاملة آلاف الأطنان من المؤن يومياً إلى مطار تمبلهوف، بينما تتحدى السوفيت أن يقوموا بإيقافهم، ونجحوا. وظلت برلين الغربية منارة الحرية لأربعين عاماً، حتى جاء سقوط حائط برلين أخيراً ليعيد توحيد شطرى المدينة. لقد كان رؤساء برلين وأمريكا دوماً على علاقة خاصة. وقد قال الرئيس كينيدي للمدينة بالألمانية عام ١٩٦٣: "أنا برليني"، ليحظى بهتاف صاخب. وحدث عام ١٩٨٧ أن سمع الرئيس ريجان ذات الهماتفات، عندما طالب القائد السوفيتى جورباتشوف "بهدم السور"، ولكن عندما زار بوش المدينة، فى مايو ٢٠٠٢، قوبل بالسخرية وليس بالهتاف. ما الذى كان قد حدث؟

لقد أجرى مركز بيو للأبحاث من أجل الشعب والصحافة مسحاً ضخماً للرأى العام الكونى حول الولايات المتحدة، لاكتشاف ما الذى حدث، فعقد لقاءات مع أكثر من ٢٨٠٠ شخص فى ٤٤ بلداً، فى ربيع وصيف ٢٠٠٢، وكانت النتائج، بالنسبة للأمريكي، إيجابية ومثيرة للانزعاج أيضاً، فقد أظهرت - من ناحية - مخزوناً هائلاً من النية الحسنة نحو الولايات المتحدة والإعجاب بها على امتداد الكون، كما كشفت فى ذات الوقت عن أن تلك العواطف فى هبوط، بينما يتصاعد فقدان الثقة والكراهية للولايات المتحدة، وربما كان الأكثر أهمية هو آراء الأمريكيين فى عدد من المناطق؛ إذ كانت متباينة بطريقة درامية عن تلك التى كانت عملياً لكل الناس الآخرين، وكشف

هؤلاء الذين يعرفوننا أفضل من غيرهم، عن صور من الهبوط الأشد انحدارا في العاطفة الإيجابية، كان الناس في كل مدينة جرى مسحها، باستثناء الأرجنتين، وتلك التي في الشرق الأوسط وجهة نظر مواتية كلية للولايات المتحدة تصل إلى ما يزيد عن نصف المشاركين في المسح، وهبطت النسبة المواتية - في نفس الوقت، هبوطا فعليا عبر اللوحة. ففي عام ١٩٩٩ مثلا، قال ٧٨٪ من الألمان: إن لديهم وجهة نظر إيجابية، بينما انخفضت تلك النسبة عام ٢٠٠٢ إلى ٦١٪، وكانت النسبة المواتية في بريطانيا العظمى ٨٣٪، هبطت إلى ٧٥٪. وفي أندونيسيا كانت النسبة ٧٥٪ نزلت إلى ٦١٪، واليابان ٧٧٪ هبطت إلى ٧٢٪، والأرجنتين ٥٠٪ انخفضت إلى ٣٤٪. وذهب قليلون إلى الطريق الآخر؛ إذ صعدت فرنسا بطريقة مثيرة للدهشة من ٦٢٪ إلى ٦٣٪، بينما انتقلت روسيا من ٣٧٪ إلى ٦١٪، ونيجيريا من ٤٦٪ إلى ٧٧٪. لقد اتجه الميل عموما إلى أسفل. وفي بلدان مثل تركيا وباكستان والأردن ومصر، قيمت الولايات المتحدة سلبيا بحوالي ٧٠٪ من المشاركين في المسح، وكما اتضح في الفصل الأول، فإن العديد من المشاركين ثمنوا شعبنا بصورة أكثر مواتاة بكثير من بلدنا. ولذا فإن ٢٥٪ مثلا من الأردنيين ثمنوا أمريكا إيجابيا، غير أن ٥٣٪ ثمنوا الأمريكيين إيجابيا.

إن أمريكا وجيرانها يختلفون اختلافا كبيرا في وجهات النظر حول الأخطار الأشد التي تواجه العالم. إن رقم (١)، بالنسبة للأمريكيين هو الأسلحة النووية، وبإستثناء اليابان، لا يوجد بلد واحد يضع هذا على قمة قائمته، وهذا أمر مفهوم. إن التلوث والبيئة يجيئان في أسفل هموم الولايات المتحدة، بينما هما عاليتان في كل مكان آخر، وخاصة في آسيا. إن الإيدز والأمراض المعدية تشكل أيضا هموما كبرى في أي مكان آخر. لكن الأمر ليس إلى هذا الحد في الولايات المتحدة، إن الكراهية الدينية والإثنية هي المرشحة الأساسية في أوروبا والشرق الأوسط، والكثير من جنوب شرق آسيا وإفريقيا، ولكن مرة أخرى ليس الأمر كذلك في الولايات المتحدة.

إن أمريكا تتلقى أكثر الإعجاب لما تقدمه من تكنولوجيا وعلوم، مع أغلبيات، فى كل بلد، تسجل هنا انطبعا مواتيا، إن ثقافة البوب رابح كبير أيضا، مع ثلثى الأوربيين والأمريكيين اللاتينيين وأكثر من نصف الآسيويين الذين يقولون: إنهم يحبونها، مع استثناءات قليلة فى الهند وبنجلاديش وبلدان شرق أوسطية عديدة، وفى تناقض ظاهر، على أية حال، لا يبدو أن أحدا يوافق على انتشار العادات والأفكار الأمريكية، كما يرى أكثر من نصف الكنديين وثلث الأوربيين والآسيويين، وأكثر من ثلاثة أرباع هؤلاء الذين فى الشرق الأوسط، إنها غير مرغوب فيها. إن الآراء الأمريكية حول الديمقراطية تلقى ردود فعل أكثر اختلاطا، وإن كانت أكثر إثارة للقلق من بعض الوجوه، وتلقى تلك الآراء فى إفريقيا وآسيا خارج الهند، قبولا إيجابيا تماما، غير أن الرأى فى أمريكا اللاتينية وأوروبا منقسم بالعدل كذلك، ففي بريطانيا مثلا، يحب ٤٣٪ آراء الولايات المتحدة حول الديمقراطية، بينما لا يحبها ٤٢٪، ويقف فى كندا من ٥٠ - ٤٠٪ ضدها.

كانت هنالك ثلاثة أسئلة: هل فشلت الولايات المتحدة فى حل المشاكل، ووسعت الفجوة بين الأغنياء والفقراء؟ هل تضع الولايات المتحدة آراء الآخرين فى الحسبان، عندما تضع السياسات العالمية؟ وهل يكون العالم أفضل بوجود قوة عظمى ثانية؟ وكان الرد فيما يتعلق بالسؤال الأول شاملا، وهو أن الولايات المتحدة لا تحل المشاكل، وأنها مع استثناءات مهمة مثل مصر وباكستان، وغالبية إفريقيا، توسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء، وفيما يتعلق بالسؤال الثانى، فإن أغلبيات كبرى، كما جاء فى الفصل الأول، تقول فى كل مكان: إن أمريكا لا تلقى بالا لوجهات نظر الآخرين - باستثناء المشاركين فى المسح من الولايات المتحدة، حيث قال ٧٥٪ منهم : إن أمريكا تبتدى انتباها هاما لهموم الآخرين. إن هذه الفجوة يجب توقعها بشكل ما، غير أن حجمها وعالميتها قوية ومعبرة، وقد قالت أغلبيات كبرى فى غالبية البلدان: إن العالم سوف يصبح مكانا أكثر خطراً، إن كان هنالك بلد واحد مساو للولايات المتحدة فى قوتها العسكرية، وإن كان ذلك باعثاً على الراحة، فإنه يجب ألا تخفى دلالة النفور

والاستياء. هناك نقطة أخيرة مثيرة للقلق، بشكل خاص، وهى أن هؤلاء الذين يعرفون الولايات المتحدة أفضل من غيرهم - هم فى الغالب الذين يقيمونها التقييم الأشد هزلا، أو هم الذين يظهرون أكبر انخفاض فى التقديرات الإيجابية^(٦٤).

إن هذه الإحصائيات تحدد فقط الموضوعات الموجودة فى الإمبراطورية والتى نصرخ بها فى وجه الأمريكين، وكذلك ما سمعته فى آلاف المحادثات حول العالم. إن "اجتماع بيلدبرج هو حشد سنوى للولايات المتحدة، والحكومة الأوربية، ورجال الأعمال، والأكاديميين، وقادة الوسائط الإعلامية، الذين يناقشون العلاقات عبر الأطلنطية، بطريقة غير رسمية فى نهاية أسبوع ربيعى طويل. وقد انعقد اجتماع ٢٠٠٢ فى واشنطن، فى نهاية أسبوع خطاب الرئيس فى وست بوينت. وقد عبر الأوربيون عن مشاعر تتراوح ما بين الإنكار والغضب إلى خيبة الأمل وإحساس بالخيانة والإهانة، وكما قال ممثل فرنسى سابق فى الناتو، فإن الولايات المتحدة كانت تقول بصورة فعالة: إنها سوف "تعتنى بأوروبا"، فى صورة علاقة تقوم على "الحماية"، وقد أكد ذلك، مفوض أوروبى سابق، "إن الولايات المتحدة ترى أن الإجماع عملية اختيارية غير ملزمة؛ وأن ذلك سوف يؤدى إلى التآكل العميق للنظام العالمى الذى ناضلنا خلال الخمسين سنة الماضية لخلفه. إن هذه الفكرة ليست معادية للعولمة فقط، لكنها متناقضة فعليا مع النموذج الأمريكى نفسه"، وقد أضاف واحد من أثرى الخبراء الماليين فى العالم، "إن الأحادية الاختيارية تدمر كل ما ترمز له الولايات المتحدة، وذلك بإبطال الضوابط والتوازنات وحكم القانون. إن الولايات المتحدة تقول بصورة أساسية: إن القوة صائبة، سواء كان ذلك بوعى أو بدون وعى"، وأكد سفير حليف رئيسى للولايات المتحدة ومقيم فى واشنطن أن عقيدة الحرب الاستباقية تضع سابقة خطيرة، وتسأل: "ماذا ستفعلون عندما تقرر الهند أو باكستان المسلحة نوويا أنه يتوجب عليهما أيضا تبنى هذه الاستراتيجية؟".

لم يكن هذا رد فعل أوروبى خالص. كنت أتناول العشاء، بعد فترة قصيرة من اجتماع بيلدبرج مع عدد من سفراء فى الأمم المتحدة، من المكسيك، والبرازيل،

وفرنسا، وسويسرا، والاتحاد الأوروبي، وسنغافورة، واليابان، ومصر، ونيجيريا، لقد وصلوا بالفعل بعد موعد اللقاء، فى الثامنة بعد الظهر، لقد تأخروا جميعا فى مناقشة مجلس الأمن حول المطالب الأمريكية بمعاملة خاصة لمواطنى الولايات المتحدة كشرط لموافقة الولايات المتحدة على تشكيل محكمة العدل الدولية، وهى مؤسسة كانت الولايات المتحدة، فى الأساس، قد اقترحتها، كانوا ما يزالون هائجين عندما وصلوا إلى مسكن مضيفنا، فى الجانب الغربى العلوى، فبعد أن وافقوا بالفعل على ما اعتبروه إجراءات وقائية محكمة، ضد مقاضاة الأمريكين لدوافع سياسية، قدمت الولايات المتحدة المزيد من المطالب من أجل معاملة استثنائية، مطالب مهينة وغير معقولة، وقد قال سفير من أمريكا اللاتينية: إن الولايات المتحدة لا تثق فى العالم كله. إنها تعتمد فقط على القوة العسكرية، وليس لديها رؤية لنفسها وهى تعمل مع الآخرين، إن كل شىء يدور دوماً حول نفسها فقط". وعبر واحد من السفراء الأوربيين عن الشعور العام عندما قال: "لقد كانت الولايات المتحدة فى الماضى منارة للعالم، لكن يبدو أنها تعمل أكثر فأكثراً، ليس فقط بون النظر إلى الآخرين، ولكن أيضاً بون اعتبار للمبادئ ذاتها التى جعلت منها منارة، إن هذا يوقع الكآبة فى النفس، ويخيب آمالنا جميعا بصورة رهيبة"، لقد عبروا لى كإنسان، عن معارضتهم الشخصية، بل وحتى تقززهم من وضع الولايات المتحدة، لكن أغلبهم أقر بأن حكومتهم قد توجههم للموافقة على المطالب الأمريكية - لماذا؟ لأن لدى الولايات المتحدة طرقاً عديدة لجعل حياة تلك البلدان كريهة، ولا أحد يرغب فى إغضاب أكبر قوة فى العالم لأى سبب إلا المسائل الحاسمة، وإذا فإنه عندما عرض الاقتراح للتصويت، فى مجلس الأمن، أمسكوا جميعا بأنوفهم، وصوتوا بنعم، لكنهم لن ينسوا تلك المعاملة المهينة.

وقد وُجد امتعاض مماثل فى دوائر أوسع أيضاً، وحددت قمة المديرين التنفيذيين، فى اجتماع التعاون الاقتصادى لآسيا والمحيط الهادى فى لوس كابوس، فى أكتوبر ٢٠٠٢ معالم نظام للتصويت الفورى يقدم تقدير احتمالات بصرى سريع لردود فعل المستمعين لمختلف الأسئلة التى وضعها موجه البرنامج، وقد حظى ردان من هذه الردود بأهمية خاصة، فقد لوحظ فى إحدى الحالات أن هناك ١٠.٠٠٠ من قوات

الولايات المتحدة منتشرة في اليابان وكوريا وباقي آسيا لأكثر من خمسين عاما، وطلب من المستمعين ما إذا كانوا يتوقعون بقاء تلك القوات لعشر سنين أخرى، أو خمس وعشرين سنة، أو خمسين سنة، وقد اختار ثلثاهم تقريبا خمساً وعشرين أو خمسين. وسئل المستمعون، فيما بعد كي يصوتوا بخصوص أكثر التهديدات خطورة على أمن المنطقة، هل هي الإرهاب؟ أم قوة الصين الصاعدة، أم إعادة تسليح اليابان، أم الحركة الضخمة للناس عبر الحدود، أم النقص في المياه، أم الإيدز، أم الهيمنة الأمريكية؟ وبينما اختار ٦٠٪ من المستمعين تقريبا الإرهاب، فقد جاءت الهيمنة الأمريكية في الموقع الثاني بنسبة ٣٠٪، سابقة كل الاختيارات الأخرى^(٦٥). لم يكن هؤلاء مجموعة من الجناح اليساري الراديكالي، كانوا ثمانمائة من قمة رجال الأعمال من مختلف أنحاء منطقة آسيا - الباسيفيكي، يقولون: إنهم يخافون الهيمنة الأمريكية أكثر من أي شيء آخر ما عدا الإرهاب.

إن ما يتوق العالم إليه، هو ما أسماه ميتشيل هيرس الرؤية الأمريكية "للمثالية الشاملة"^(٦٦)، ولايات متحدة مهتمة بماهية المشاكل الحقيقية، وما تقع فيه من أخطاء، كما جاء في كلمات توماس فريدمان. إن ما يحدث بدلا من ذلك هو "أن الولايات المتحدة تفرض طريقها، وهي تفعل ذلك دون أن تدري ما هي فاعلة"، كما قال أحد الدبلوماسيين الصينيين: إن مثلاً حيا على ذلك هو القصة التي نشرتها نيويورك تايمز في ٢٢ ديسمبر ٢٠٠٢ عن ثروة النفط في نيجيريا. تتناول القصة التناقض بين ثراء منازل مديري محطة شيفرون/تكساكو في أوجبورودو، نيجيريا، وأكواخ عمال حقل النفط على الجانب الآخر من الوادي الضيق، والذين استولوا على المنازل الثرية واحتلوها كجزء من احتجاج سلمى. إن الوضع معقد وله علاقة بالكثير من فساد الحكومة النيجيرية وعدم كفاءتها. ولكن فيكتور أوموتو، وهو موظف في البلدية المحلية عبر عن العواطف أفضل تعبير عندما قال: "نعم، لقد فشلت الحكومة النيجيرية، غير أننا نعرف أن الأمريكيين يؤثرون على سياسات هذه الحكومة. فلو كانت مصالح المجتمع في القلب من اهتمامهم، فلماذا لا يبنهون الحكومة النيجيرية؟ إن الأمريكيين

الذين يزعمون أنهم المدافعون عن الحرية، الأمريكيون الذين يزعمون الرغبة في تحسين البشرية - هم الشيطان بالنسبة لنا. هل يمكنك أن تقول لي: إنهم ليسوا أسوأ من صدام حسين، أو أسامة بن لادن؟ إنهم يجيئون، يأخذون، ويتركون، دون أن يعيدوا شيئاً".

إن موظفا في إدارة الدولة، منذ زمن طويل، وسفيرا سابقا في العربية السعودية، هوشاس فريمان، وضع الأمر بصورة أكثر دبلوماسية قائلاً : إن "الولايات المتحدة مدينة فوق التل، لكن الضباب يلغها بصورة متزايدة". وأضاف: "إننا في حاجة إلى حرب على الغطرسة مثل الحرب على الإرهاب".

الفصل الثالث

لعبة أمريكا

ليس عدلا أن تجعل الأسواق المالية البرازيل
تدفع ثمنها اقتصاديا لإجراء انتخابات ديمقراطية

- روينزمان باربوسا

سفير البرازيل في واشنطن دي.سى.

سوباشاي بانيتشباكدي رجل سعيد، مستدير الوجه، يحيطه جو الأستاذ الأكاديمي الذي كانه يوما ما، كان قد قاىض الجامعة بالسياسة، وغدا نائبا لرئيس وزراء تايلاند في منتصف تسعينيات القرن العشرين، وهو الآن المدير العام لمنظمة التجارة العالمية (دبليو تي أو)، وقد تغدينا معا في فندق شانجرى لاي، في شنغهاي، في أكتوبر ٢٠٠١، قبل أن يحتل مركزه في دبليو تي أو؛ حيث كنا نحن الاثنين مشاركين في اجتماع "منتدى التعاون الاقتصادي الآسيوي الباسفيكي"، وبينما كنا ننظر إلى سفينة رشيقة عابرة قبالة رصيف الميناء على نهر هوانج بو، استمتعنا بذكريات على نحو غير متوقع، بدا أن كلينا قد عاش في مدينة روتردام في الستينيات من القرن العشرين، دون أن تكون لدينا بالطبع فرصة اللقاء، وحاولنا تبادل الحديث بهولنديتنا الصداة (والتي كان يتحدثها أفضل مني)، وكانت تايلاند، كما علمت، قد أرسلته لدراسة الاقتصاديات تحت إشراف الشهير جان تينبرجن من

جامعة روتردام، وظل يعمل هناك كأستاذ مدة عشر سنوات، قبل العودة إلى تايلاند، كنت أنا نائب القنصل، في قنصلية الولايات المتحدة في روتردام من عام ١٩٦٦ إلى عام ١٩٦٨.

وانتقلت مناقشتنا من الماضي البعيد إلى الماضي الأكثر قرباً، وعدنا للحديث بالإنجليزية، وفجأة صار جادا للغاية، وتحدث في التطورات الاقتصادية الحديثة: "إن أثر الأزمة المالية الآسيوية كان مدمراً لتايلاند وجنوب شرق آسيا، وتسبب في تساؤل العديدين، إذا ما كان لدى الولايات المتحدة وصندوق النقد الدولي فهم جيد للكيفية التي أثرت بها العولمة على الاقتصاديات الآسيوية".

انتهاء عام ٩٧

كان سوياشاي يشير إلى أحداث بدأت تتكشف في بانكوك في خريف ١٩٩٦. لقد انتشرت، خلال تسعينيات القرن العشرين، المعجزة التي بدأت في اليابان، في ستينيات القرن الماضي، عبر كوريا، وتايوان، وهونج كونج، وسنغافورة، وماليزيا، وأخيراً جاءت إلى تايلاند، كان الوقت بالنسبة لجنوب شرق آسيا هو أفضل الأوقات، كانت الرأسمالية الديمقراطية بانتهاء الحرب الباردة، هي النظام الوحيد الذي بقي على قيد الحياة، وتسيد كل ما عاينه. وتجاوز، ببساطة، الشيوعية في سباق خلق الثروة. كانت "العولمة" - وهي توحيد الاقتصاديات الوطنية والكيانات المتحدة من خلال التجارة، وعبر الاستثمار العابر للحدود على نطاق عالمي واسع، هي كلمة السر الجديدة. وجاءت أفضل الكتب مبيعاً بقلم كتاب مثل الياباني كينيشي أوهما الذي غنى تمجيداً لـ "عالم جديد بلا حدود"، تغدو فيه الحدود الموقعة على الخرائط بلا معنى، وأفضل ما يمكن أن تفعله الحكومات هو حث السادة الشركاء في العالم على الاستثمار في بلدانهم، ثم يفسحون الطريق، وظهرت وجهة نظر عامة بين كبار قساوسة الاقتصاد العالمي، ووزارة خزانة الولايات المتحدة، وصندوق النقد الدولي،

والبنك الدولي، وجامعات النخبة حول الطريق إلى المستقبل، وغدت تلك معروفة باسم "إجماع واشنطن"، وقد بسط فريدمان الفكرة ليجعلها في متناول مدارك الجمهور، تحت عنوان "السترة الذهبية"، وهي معادلة دعت إلى ميزانيات متوازنة، وضرائب منخفضة، وانسياب حر لرأس المال، والبضائع، والخدمات، والخصخصة، ورفع القيود والقواعد المنظمة، وحماية حقوق الملكية، خاصة حقوق ملكية المفكرين، وحكومة صغيرة، وتحرير أسعار الفائدة، وقال البعض: إن تطبيق تلك الإجراءات سوف يجيء بالرفاهية، ويضيق الهوة بين الأغنياء والفقراء، وأن بذورها سوف تجيء بالمقرطة، التي سوف تجيء بدورها بالاستقرار والسلام، وقدم فريدمان مزيداً من الإيضاح بأن الآلة الرئيسية لحدوث كل هذا كانت "غريزة القطيع الإلكتروني، التي ستجمع أقزاماً خرافيين بلا سمات يحملون في شاشات الكمبيوتر في أوكار نسور ساكنة هادئة في وول ستريت، وكابوتوشو، والمدينة، وأماكن أخرى، يرسلون تريليونات الدولارات تعدو حول الكون، مع تكتكة فاز".

واكتشف القطيع الإلكتروني، في التسعينيات، جنوب شرق آسيا. وابتدع وصلة معينة لتايلاند، وما رُئي، فيما بعد، على أنه واحد من القطاعات المالية الكبرى في التاريخ، كان بخارا يتجمع، في تلك الأثناء، في الولايات المتحدة. لقد أطلقت أسعار الفائدة المنخفضة، واقتصاد مزدهر - موجة مد من نقود تسعى وراء عوائد عالية - كذلك - كان مستثمرون من اقتصاديات أوروبا واليابان - بطيئة النمو، يبحثون عن مراعى أكثر خضرة. وبدأ جنوب شرق آسيا، بنموه العالي، وأسعار فائدته المرتفعة

والمخاطرة المنخفضة بسبب قوة عملاته المرتبطة بالدولار، نيرفانا^(*) المصرفيين، وأقرضت البنوك الأوربية واليابانية والأمريكية المنطقة ما بين عام ١٩٩٣ وعام ١٩٩٦، أكثر من ٧٠٠ مليار دولار، وقد بلغت القروض الأجنبية قصيرة الأمد لتايلاند

(*) السعادة القصوى في البوذية (المترجم).

وحدها قرابة ١٠٪ من الناتج المحلى الإجمالى لكل من تلك السنوات^(١)، وصب
"الاستثمار الأجنبى المباشر" (إف دى أى) أيضا مع جنرال موتورز وفورد وتيوتا
وديمر كريسler، وجميعهم يعلنون عن مصانع سيارات جديدة فى تايلاند، بينما أظلمت
السماء بناطحات السحاب الجديدة. واحتضن قادة آسيا - الباسفيكى، عام ١٩٩٤،
فى اجتماع فى أندونيسيا عقيدة العولة، بإعلانهم تكوين منتدى "التعاون الاقتصادى
لآسيا والمحيط الهادى" (إيه بى إى سى)، والالتزام بتحقيق تجارة حرة كاملة فى
المنطقة حتى عام ٢٠٢٠. وفى مؤتمرات المشاهير كونيا من سنغافورة، ودافوس،
وواشنطن، أشار كل الأساتذة الدارسين، ومئات المصرفيين، والقادة السياسيين
الأذكياء، إلى جنوب شرق آسيا باعتباره الجزء الأكثر ديناميكية فى الاقتصاد العالمى،
والذى كان يقود الطريق إلى اليوتوبيا^(*).

إن قليلين هم الذين لاحظوا، فى أواخر أغسطس عام ١٩٩٦ - انهيار بنك بانكوك
للتجارة، وارتفعت بعض الحواجب فى فبراير ١٩٩٧، عندما عانت شركة سومبرا
سونج للأراضى عجزا فى سندات اليورو، مرسله أول الإشارات بأن فقاعة المنطقة
الحقيقية قد تكون على وشك الانفجار، وفجأة فى أواخر ذلك الشهر، بدأت فينانس ون،
وهى أكبر شركة مالية فى تايلاند، فى البحث عن شريك تندمج معه، وبذلك بدأ القطيع
الإليكترونى الفرار من السياج، وبدأ المصرفيون الأجانب فى المطالبة بقروضهم قصيرة
الأجل، بينما باعت صناديق التغطية العملة التايلاندية بسعر منخفض، معتقدين أن
الربط بالدولار لا يستطيع أن يتماسك وأن العملة لا بد أن تنخفض قيمتها، وبدأت
شركات تايلاند، وقد خشيت أن يحل بها نفس الشئ، وكانت قد اقترضت قروضا
باهظة من الخارج، بدأت فى إغراق "الباهت" بدلا من الدولار فى محاولة شاملة لدعم
سعر الصرف، وصب البنك المركزى التايلاندى احتياطياته من الدولارات، ٢٦ مليار
دولار جملة، باذلا جهدا يائسا للشراء.

(*) المدينة الفاضلة (المترجم).

فى الساعات القليلة من صباح يوليو ١٩٩٧، استدعى مسئولو البنك المركزى، وزير المالية ثانونج بيدايا، برسالة كئيبة: لن يكون هناك فى القريب أى احتياطات من الدولارات، إن تايلاند سوف تفلس بطريقة فعالة، وأوقظ قادة مصرف بانكوك باستدعاءات هاتفية، قام بها مسئولون بدعوتهم إلى اجتماع طارئ. واجتمعوا فى السادسة والنصف صباحا، فى مبنى منخفض يبدو كمن يجلس القرفصاء، على الجانب الآخر من قصر بانخوم بروم المنمق المزخرف، والذي يوجد به بنك تايلاند، قيل لهم: إن احتياطات الحكومة قد نفذت، ومن ثم لم يعد لديها دولارات يمكن أن تشتري بها الباهت لتبقى على قيمته مربوطا عن ٢٥ باهتا للدولار، ولم يكن أمام الحكومة خيار غير ترك السعر المحدد، وأن تدع الباهت يطفو - أو يغرق - بحرية، وفُتحت سوق الصرف فى التاسعة، وللحال انخفض الباهت ١٥٪، كما أنه سوف يخسر، فى النهاية، ٦٠٪ من قيمته، وأغلقت الحكومة حتى أوائل ديسمبر ستا وخمسين مؤسسة مالية من ثمان وخمسين واحدة، هى قمة المؤسسات المالية فى البلاد. وأصبح فى الإمكان رؤية ملوك المال وهم يبيعون الساندوتشات فى شوارع بانكوك؛ إذ ارتفعت البطالة إلى ٢٠٪، وأضاف سائقو سيارات الأجرة لحة جديدة إلى جولة مشاهدة رئيسية: قيادة السيارة إلى شارع أسوك، وول ستريت بانكوك، لرؤية البنوك الميتة، لقد انفض الحفل، لكن مهلا، فتلك فقط كانت تايلاند، إننى أتذكر حديثى فى مؤتمر حضره قادة المسؤولين الرسميين للولايات المتحدة، واقتصاديون أكدوا، إنه بينما كان انهيار تايلاند خزى وعار على تايلاند ومؤلم لها، فإنه يجب علينا ألا ننسى أن كل اقتصاد تايلاند يصل فقط إلى ١٨٥ مليار دولار، وهو أقل من مدينة سان دييجو، من الواضح أن العملية لم تكن صفقة كبيرة، ويبدو أنه لم يكن من موافق غير الرئيس كلينتون؛ حيث كان المجتمع الدولى بقيادة اليابان يناضل حتى يضعوا معا خطة تمويل طارئة لتايلاند، ومال كلينتون إلى أن تشارك الولايات المتحدة، قائلا: إن المشكلة برمتها كانت مجرد "حوادث قليلة مؤسفة على الطريق إلى الرفاهية الكونية"^(٢)، ولكن لو كان الأمر بالنسبة لكلينتون، إصابة بالفواق، فقد كان بالنسبة لتايلاند إصابة بسرطان المعدة. وتذكرت تايلاند أنه عندما عانت المكسيك مشاكل مماثلة عام ١٩٩٤، حرك كلينتون السماء والأرض

ليضعوا معا خطة إنقاذ، كما تذكرت تايلاند أيضا المساعدة التي قدمتها للولايات المتحدة في فيتنام، وأن الولايات المتحدة هي التي كانت تضغط عليهم طوال الوقت؛ ليتحولوا إلى بشارة التجارة الحرة والأسواق المالية المفتوحة. إن تايلاند، كما قال سوباشاي، في تعليقه لي في شنغهاي، لن تنسى سريعا هذه الحوادث المؤسفة على الطريق"، وافتقاد الولايات المتحدة الاستجابة بها.

لكن الأمر لم يعد فجأة مقصوراً على تايلاند وحدها، ففي يوليو، بعد سقوط الباهت بفترة قصيرة، بدأ سقوط الرينجيت الماليزي، والروبية الأندونيسية، بينما قدم صندوق النقد الدولي ١,١ مليار دولار إلى القلبين. وسعى صانع السيارات الكوري "كيا"، في ذات الوقت، للحصول على مساعدة طارئة، كحركة وقائية، وعندما جاء أكتوبر كان الرينجيت قد فقد ٢٥٪ من قيمته التي كانت في يناير، وكانت الروبية قد فقدت ٢٨٪. وأوقف مهاتير، رئيس الوزراء الماليزي بيع الأوراق المالية الماليزية بالنسيئة، وفرض ضوابط مقيدة على تدفق النقود من وإلى البلاد، في محاولة لمنع انهيار مثل ذلك الذي حدث في تايلاند، وواجه عمليا بسبب هذا نقدا شديدا من كل النخبة المالية العالمية، بما في ذلك قمة المسؤولين الرسميين في حكومة الولايات المتحدة، الذين قالوا: إن مثل تلك الحركة سوف تدمر كلية، وبصورة دائمة، ثقة المستثمر العالمي في الاقتصاد الماليزي، وإدانوه للنمو البطيء إلى ما لا نهاية، ولم يكن هو خجولا البتة، فأطلق العنان لنقد ساخر عنيف ضد المضاربين الدوليين، وسمى المالي جورج سوروس بالأبله، وانتقد بشدة الولايات المتحدة، وصندوق النقد الدولي للسياسات التي مكنت للهجمات المضاربة تلك، والتي دمرت قدرة البلدان النامية في اللحاق بهم. وقد أخبرني مهاتير فيما بعد أن المسؤولين في مجلس وزرائه والمستشارين طلبوا منه أن يلتزم الصمت؛ لأن الرينجيت يهبط أكثر، كلما فتح فاه، وقال: "لكن واجبي هو أن أقول الحقيقة"، كما قال لقمة رجال البنوك، في الاجتماع السنوي، لصندوق النقد الدولي، والبنك الدولي في هونج كونج في سبتمبر إن تجارة العملة، غير أخلاقية، ويجب حظرها، وهبطت عملة أندونيسيا، التي كانت تسير في أعقاب الرينجيت، بسبب ما كان يصدر عنه من تعليقات، بينما تتصاعد البطالة في إصرار.

وبدأ القادة الماليون، فى اجتماع هونج كونج، فى تناغم مع كلينتون، رغم الاضطراب فى جنوب شرق آسيا، وحتى بينما كان القطيع الإلكتروني يتجه إلى التلال، طلب قادة صندوق النقد الدولي إجراء تغيير فى دستور المنظمة يسمح لها بممارسة المزيد من الضغط على البلدان النامية، من أجل إلغاء القيود والقواعد المنظمة لأسواقهم، وفتحها لكل اللاعبين الكونيين. ووضعوا معا، بالفعل، أموال إنقاذ لتايلاند وأندونيسيا، ولكن لا شيء بالطبع لماليزيا الولد الردىء، ولم يكن هناك، فى الحقيقة، قلق كثير، كما عبر عن ذلك بوضوح التقرير السنوى المتوهج لصندوق النقد الدولي حول الاقتصاد الكورى، والذي كان، طبقا لسادة صندوق النقد الدولي - يؤدى تقريبا دوره بدقة، بالقدر الممكن أن يقوم به اقتصاد ما. هنا كانت توجد بوضوح حالة هى الأقرب إلى تنفيذ حكم مثالى بالإعدام.

وانفجرت العاصفة بكل قوتها، عندما أخذ سادة العالم فى تفرغ محتويات حقائبهم فى دورهم، بعد العودة من هونج كونج، وأصبح دولار هونج كونج، لارتباطه الوثيق بدولار الولايات المتحدة - هو هدف واحدة من أشد هجمات المضاربة عدوانية فى التاريخ، وأوجدت صناديق التغطية الكونية الضخمة نسخا منها، أبراج محصنة وتنانين، إنهم يبيعون دليل هونج كونج للأوراق المالية، هانج سينج، بسعر منخفض، بينما يبيعون أيضا دولارات هونج كونج. إن بيع الدولارات كما قدروا سوف يجبر الحكومة على رفع الأسعار العالمية؛ للاحتفاظ بالربط بدولار الولايات المتحدة، غير أن رفع أسعار الفائدة، يمكن أن يدفع بأسعار الأوراق المالية إلى أسفل؛ مما يجعل أوضاع دليل الأوراق المالية مربحة. حقا لقد كانت عمليات مربحة للغاية، واضطربت هونج كونج، وأجبرت أندونيسيا على قبول خطة كفالة صندوق النقد الدولي، الذى طالب بتقشف محلى؛ مما كان سيدفع، دون شك، بالبطالة إلى ذروتها، وعمت اليابان فكرة تشكيل صندوق نقد آسيوى، يُمول إلى حد كبير من احتياطات اليابان الهائلة، ويُستخدم لدعم وتعزيز اقتصاديات المنطقة المريضة. كنت واحدا من هؤلاء الذين شرح لهم اليابانيون الفكرة، لكننى عندما عرضتها على المسؤولين المناسبين فى واشنطن،

كان رد الفعل سلبيًا حادًا، وماتت الفكرة في هدوء لنقص الأوكسجين، وبينما كانت الفكرة تخمد كان يخدم أيضا الاقتصاد الكورى، نموذج الأداء الجيد.

كان الكسب الذى حققه الاقتصاد الكورى، خلال أكتوبر، فى هبوط، وفى نوفمبر أجبر عدد من الشركات الكورية الكبرى على إعلان تأخير أو تعليق استثمارات محلية وبولية، وفى عام ١٩٩٦ ناصرت الولايات المتحدة كوريا لتصبح أحدث عضو فى "منظمة التعاون والتنمية الاقتصادية"، نادى البلدان المتطورة، ورغم أن تلك كانت طريقة للحصول على عضو أسوى ثان (بعد اليابان)، وإلا فإن الكل جماعة غريبة، كما سهل ذلك لمفاوضى الولايات المتحدة الضغط على كوريا كى تفتح أسواقها المالية، وما أن التحقت كوريا بهم حتى غمرتها النقود الأجنبية، حيث جاء إلى البلاد ١٣,١ مليار دولار زيادة فى قروض البنوك الأجنبية، والآن غدت البنوك الأجنبية، بما فيها عدد من مؤسسات الولايات المتحدة الكبرى، عصبية، وبدأت تتجه نحو الباب. ما كان فى الإمكان حدوث ذلك فى ظروف سيئة، كانت كوريا فى قلب الانتخابات الرئاسية، ولم يكن هناك أحد يراقب المخزون، وكررت كوريا، فى محاولة يائسة للإبقاء على قيمة عملتها، تجربة تايلاند حتى آخر ديسمبر ١٩٩٧، كان على مسئوليتها أن يبلغوا الرئيس، أنه لا تكاد توجد أية احتياطات.

وعند هذه النقطة استبد بواشنطن مزاج جديد، إن كوريا رغم كل شىء، ليست حدثًا مؤسفًا على الطريق، إنها اقتصاد العالم الأكبر الحادى عشر، والحليف الاستراتيجى الكبير للولايات المتحدة، إنك لا تستطيع أن تترك دولة مثل تلك فى الأنابيب، ووضعت هونج كونج، فى نوفمبر ١٩٩٧ حدا لهجمات المضاربة، وذلك بجعل "هيئة النقد" تشتري ببساطة جزءا كبيرا من الأنصبة البارزة فى دليل هانج سينج، كانت هذه مناورة مركبة، لكنها لا تختلف فى الواقع اختلافا كبيرا عن تحكم مهاتير فى تدفقات النقود من ماليزيا وإليها، ولأن هونج كونج فعلتها، وهى تعتذر، وليس كما فعلها مهاتير متحديا، فإن المسئولين الرسميين الأمريكيين والدوليين، أصابتهم غصة، غير أنهم تجرعوها، ولذا فإن سفارة الولايات المتحدة فى سيول، كوريا الجنوبية،

وزارة خزانة الولايات المتحدة في واشنطن، بدؤوا اتصالات ساخنة مع وول ستريت، برسالة تقول: إن واشنطن سوف تقدر إن لم تقم بنوك الولايات المتحدة بأخذ نقودها خارج كوريا، وهى حقا سوف تكون ممتنة للغاية إن تم تمديد القروض، كان هذا شيئا جميلا، فى إطار العروض التى لا يمكنك رفضها، بالطبع بلغت تلك الإجراءات ذات صنف الإجراءات التى فرضها مهاتير، غير أن كوريا كان لديها اقتصاد حقيقى، وكانت حليفا حقيقيا.

لقد نجحت تلك الإجراءات بالفعل، وإن لم تكن بالسرعة الكافية. وفى ربيع ١٩٩٨، كان النزيف قد أوقف إلى حد كبير فى آسيا، غير أن روسيا التى كانت على الحد لفترة زمنية ما، تخلفت عن سداد سندات حكومتها، وقد أرسل ذلك بقشعريرة عبر أسواق الائتمان الدولية، التى جمدت فعليا إقراض بلدان مثل البرازيل والأرجنتين، وحتى الأسواق المالية فى الولايات المتحدة أحست بالآثار، وقد عُصرت مجموعة معينة عصرا خطيرا - "إدارة رأس المال طويل المدى" (إل تى سى إم) وهى صندوق تغطية مقره ويستبورت، كونيتيكت. كان هذا واحدا من تلك المؤسسات التى جرى تفصيلها بما يناسب الأثرياء للغاية فقط، إنها تأخذ نقودك فقط إن أنت وافقت على أن يكون الحد الأدنى الذى تضعه ١٠ مليون دولار، وأن تبقىها هنالك مدة ثلاث سنوات، وبعد الصندوق إنه فى مقابل هذا الالتزام، سوف يحقق لك، على الأقل، من ١٥ إلى ٢٠٪ سنويا بالاستثمار بطرق مركبة، أنت لا ترغب فى معرفتها، ليس لأن هنالك أى خطأ فى تصرفاتهم، ولكن فقط لنلا تستطيع، حقا، فهمها. إنك إن كنت تبحث عن أقزام خرافيين يجرسون الكنوز، فإنك ما كنت لتفعل أفضل من هؤلاء الأشخاص - إنهم مجموعة من وول ستريت عالية الثراء، مزودة بخميرة من اقتصاديين حاصلين على جائزة نوبل.

إن الفكرة الأساسية بالفعل، فكرة بسيطة نسبيا، رغم هذا التعقيد، إن أسعار الفائدة للأنواع المتماثلة من السندات تتجه، بمرور الوقت، إلى التماثل. إن الأمور سوف تكون مثيرة للدهشة، إن كانت غير ذلك. إن مثل تلك الأسعار يمكن، على أى حال أن تتباعد فى السنوات قصيرة المدى، بسبب نواعى عرضية طارئة، ولذا فإنك

إن استثمرت وهى متباعدة، وراهنـت على التقارب بمرور الوقت، فإنك لا شك رابـح فى غالب الأحوال، هذا ما كانت تفعله إدارة رأس المال طويل المدى، هناك مسألتان أساسيتان، واحدة هى الفعالية المالية، فالتفاوتات أو هوامش الأرباح على استثمارات تلك السندات محدودة للغاية، ولذا عليك كى تكسب مالا أن تشتري كمية منها، ويفضل فعل ذلك بأموال مقترضة، والمسألة الأساسية الثانية هى الاحتمالات؛ حيث يتدخل إخصائيو الرياضيات، أنت فى حاجة إلى فكرة جيدة جداً عن مدى طول الوقت الذى سوف تأخذه عمليات التباعد كى تتقارب؛ لأنها إن طالت أكثر مما توقعت، فإنك يمكن حقاً، أن تخسر سريعاً قدرأً من المال. إن إدارة رأس المال طويل المدى لديها أفضل المتخصصين فى الرياضيات، وأفضل نماذج الكمبيوتر، وهى تقتضى أغلب النقود وتراهن بها كلها، وقد عمل المشروع، كما يفترض له أن يعمل، وحققت إدارة رأس المال طويل المدى فى خلال ثلاث سنوات كسباً قدره ٢٤٪ سنوياً فى المتوسط لمستثمريها، بينما جعلت شركاءها من بين أثري الناس فى العالم^(٢).

وفى ربيع ١٩٩٨ كان المستثمرون يتوسلون كى يضعوا المزيد من النقود فى الصندوق، وضاعف الصندوق رهانه بمبلغ إجمالى أكثر من تريليون دولار من صناديق ذات فعالية مالية، لكن كانت هناك مشكلة. كان العالم يتصرف بطريقة هزلية، كل الاقتراضات التى قام عليها نموذج الكمبيوتر ثبت خطأها، التقارب لم يحدث طبقاً لبرنامج المواعيد المحددة، وبدأت إدارة رأس المال طويل المدى تنزف نقوداً، وكان هذا النزيف صادر من خرطوم حريق. كان ذلك بالطبع سيئاً لإدارة رأس المال طويل المدى، ومستثمريها، غير أنه كان هناك أناس آخرون هامون قلقون أيضاً، وكان ألان جرينسبان واحداً منهم، وهو رئيس النظام الاحتياطى الفيدرالى للولايات المتحدة، وأكثر المصرفيين المركزيين أهمية فى العالم (وقد يقول البعض: إنه أهم رجل فى العالم)، لقد أكد جرينسبان، وهو واحد من حوارى آين راند المؤيد المتطرف لمبادئ الحرية، والكاهن الأكبر لفضائل الأسواق المتحررة من الأغلال، أكد أمام كونجرس

الولايات المتحدة، فى شهادة شاملة، إنه لم يكن هنالك حاجة لتنظيم صناديق تغطية مثل إدارة رأس المال طويل المدى؛ لأنهم كانوا كمحترفين يعرفون المخاطر، وكانوا على استعداد لتقبلها. لكن الآن، فإن الخطر الذى كان يحق فى وجه جرينسبان هو انهيار النظام المالى الكونى كله، كانت إدارة رأس المال طويل المدى قد اقترضت أموالا طائلة، وقامت بمثل تلك المراهقات الخطرة التى إن انهارت هددت بأن تأخذ معها البنوك الكبرى وربما النظام ذاته، وعندما واجه جرينسبان تلك المخاطرة، طرف بعينه، ونظم كفاءة لإدارة رأس المال طويل المدى، لقد فرض فى الواقع ضوابط على رأس المال، وكان يحتمل بما فعل أن يكون قد أنقذ النظام المالى العالمى، لقد أنقذ دون شك لحم بعض كبار اللاعبين فى وول ستريت، وكان يمكن فى كوالالمبور أن تسمع مهاتير وهو يضحك.

هذا، إذن، وجه واحد من أوجه العولة، إن صندوق النقد الدولى والكثيرين من الرسميين المسؤولين فى الولايات المتحدة قد اعترفوا بأخطاء وسياسات غير مناسبة، إلا أن الولايات المتحدة أفلتت من أسوأ أزمة مالية كونية منذ الركود الكبير، غير مصابة بأذى إلى حد كبير، إن الأندونيسيين، والتايلانديين، وصينى هونج كونج، والكوريين - ما زالوا يحملون الندوب، وما زالوا يتذكرون لا مبالاة وتقلب وجهالة الولايات المتحدة ومؤسسات العولة، ورؤيتها نفسها باعتبارها أقوم أخلاقاً من الآخرين.

افعل كما أقول، ولا تفعل كما أفعل

وقع الرئيس جورج دبليو بوش، فى ٦ أغسطس عام ٢٠٠٦ قانون هيئة تعزيز التجارة الذى صُمم لتحسين قدره إدارته على التفاوض حول اتفاقيات تجارية دولية حرة، قال بوش: "إن أمريكا تعود إلى العمل لتعزيز التجارة المفتوحة"، وقد وعد بأبعد من ذلك، وهو أنه سوف "يستخدم هذه السلطة الجديدة لتوفير المزيد من الوظائف،

ومستويات أعلى للحياة للأسر الأمريكية، وكان قد أكد فى ملاحظات سابقة "لمجلس أمريكا" أن "التجارة المفتوحة ليست مجرد فرصة اقتصادية، إنها أساس أخلاقى لا يمكن تجنبه"، وقد قام كولين باول بتوسيع وجهات النظر هذه، فقال: "الحقيقة أن التجارة الحرة والعودة تدعم العامل وحقوق الإنسان على المدى الطويل، إنها تساعد البيئة، وتحسن المساواة الاقتصادية، من أجل ثروة أكبر للجميع"^(٤)، وأضاف أن إدارة بوش مصرة على "السعى للتجارة الحرة، فى كل فرصة، لسبب بسيط، وهو أن للتجارة فعلها، إنها تعطى الناس الأمل، وتساعدهم على إطعام أطفالهم، ووضع أسقف فوق رؤوسهم، لقد بدؤوا صعود السلم، ولن يعودوا للوراء أبداً"^(٥)، لم يكن بوش أو باول يقول أى جديد أو متفرد، لقد كانت التجارة والأسواق المفتوحة هى سياسة كل رئيس أمريكى منذ فرانكلين روزفلت وتعويدته الروحية.

ولكن حاول أن تقول هذا لمودى سانجار، وهو من كوروكورو، مالى، من غرب إفريقيا، لقد ربط، كما جاء فى وول ستريت جورنال، قبل حفل توقيع بوش بقليل، محراثه، ذا النصل الواحد، وبدأ اليوم الأول من أيامه الأربعة عشر الأولى، حتى يحرث الخمسة عشر أكراً من القطن، التى يمتلكها. وبينما يكبح فى عمله القاصم للظهر، كان لديه أمل قليل فى أن يعود عليه ذلك بالخير الوفير، كانت الأسعار التى قدمت هذا العام لزراعى القطن فى مالى، تقل ١٠٪ عن أدنى أسعار قدمت فى العام الماضى؛ وكان قد حدث فى العام الماضى أنه بعد أن دفع كل تكاليف الإنتاج تبقى لعائلة سانجار مال يقل عن ٢٠٠٠ دولار عما تحتاجه دستتان من الأفراد، نفقة، ومع هبوط الأسعار ثانية، وارتفاع تكاليف المخصبات والمبيدات المستوردة، فإن العائلة قد تكون غير قادرة على الإنفاق على تعليم بعض أطفالها.

وكتب نفس "الجورنال": إنه بينما يعرق مودى ويقلق، على الجانب الآخر من الكون، فإن كين هود، من جونيسون، مسيسيبي، خطا إلى جواره المكيف الهواء، وجلس فوق مقعد مزود بوسادة هوائية، وضبط نظام القمر الصناعى، المنظم الكونى؛ ليعرف المخصب الذى يحتاجه ليضخه على النباتات الصغيرة، التى بدأت تتدفع

بالفعل من التربة، على امتداد العشرة آلاف أكر التي يمتلكها، ورغم هبوط أسعار القطن بوليا، فإن هود وعائلته يواصلان شراء الأرض، إن هود، وهو مدير "المجلس الوطنى للقطن" يقول: "هنالك أسباب عديدة للتفاؤل". إن الحصول على ٨٠٠٠٠٠ دولار، فى المتوسط، كقيمة صافية للأسرة التى تزرع القطن، يجعل من السهل فهم ثقة هود.

غير أنه من الهام فهم ماذا يكمن وراء تلك الثقة، والفجوة الواسعة بين سانجار وكين هود، إن تفسيراً منطقياً ومقبولاً للحال سوف يكون التنافسية والإنتاجية، وفى حديث آخر أكد الرئيس بوش أن "المزارعين الأمريكيين، وأصحاب مزارع تربية الحيوانات هم الأكثر إنتاجية فى العالم"، وتلك حقيقة يمكن أن تفسر بسهولة رفاهية السيد هود، فى مواجهة فقر السيد سانجار. إن عشرة آلاف أكر، ومعدات حديثة، فى مواجهة ثور ومحراث مفرد، على قطع أرض بالغة الصغر، لا يمكن أن تبدو محل جدل كبير، ربما كما قال السيد هود، إنه "يجب على مزارعى إفريقيا ألا يزرعوا القطن". إلا أن مزارعى القطن فى دلتا المسيسيبي، ليسوا بالفعل أقل المنتجين تكلفة، إنهم أعلى المنتجين تكلفة فى العالم، إنهم ينفقون حوالى ٦٠٠ دولار لينتجوا أكرًا من القطن، إن كل تلك المعدات عالية التقنية باهظة الثمن، إن أرض الدلتا تروى، والبذور أعلى أسعاراً؛ لأنها معدلة جينياً لمقاومة الحشرات، ثم إن هنالك المخصبات والسوائل الكيميائية الخاصة بأوراق الشجر - مرتفعة الأسعار؛ لذا لماذا كل هذا التفاؤل فى جونيسون؟ الأمر بسيط: الدعم والإعانات المالية. لقد وقع الرئيس بوش، قبل أيام قليلة من تقييد مودى سانجار لثورته إلى المحراث، وقبل أن يتسلق كين هود جراره، وقع قانوناً هو جزء آخر من التشريع الذى كان من المتوقع له أن يزداد فعلياً، فى العام الماضى، ٤, ٣ مليار دولار، دعماً للقطن، إن كين هود يتوقع أن يحصل من هذا المبلغ على مليون دولار تقريباً^(٦).

غير أن ثروة مستر هود الجيدة، وثروة باقى ال ٢٥٠٠٠ مزارع من مزارعى القطن الأمريكيين - لم تجئ فقط على حساب دافعى الضرائب الأمريكيين، بل إنها تجيء

أيضا على حساب الاقتصاد الكلى لبلدان مثل مالى، وربما، أخيرا، على حساب الأمريكيين والأمن القومى، إن أمريكا رغم تكاليف إنتاجها العالية، هى أكبر مُصدر للقطن، وهى تنافس مالى فى الأسواق الكونية، إن غرب إفريقيا، كمنطقة، هى المُصدر الثالث الأكبر، إن الدعم الذى تقدمه الولايات المتحدة يؤكد للمزارعين الأمريكيين أنهم سوف يربحون ٧٠ سنتا لكل رطل من القطن، بغض النظر عن السعر العالمى (٥٥ سنتا للرطل فى يناير ٢٠٠٣)^(٧). يضاف إلى ذلك أنهم لا يضعون حدودا للأكترات المنزرعة، وليس هناك ما يثير الدهشة فى أن مزارعى الولايات المتحدة حصدوا محصولا قياسيا، بلغ حوالى عشرة مليار رطل فى العام الماضى، محققين إغراقا هائلا للسوق العالمى دفع بالأسعار بعيدا أسفل نقطة الخروج من البيع دون مكسب أو خسارة، بالنسبة لأغلب مزارعى العالم، وفى إيجاز، فإن دعم الولايات المتحدة يعنى أن منتجى القطن الأعلى تكلفة فى العالم، يفرقون القطن فى الأسواق الدولية، ويكسبون نصيبا من السوق أكبر وأكبر، بينما يدفعون بالمنتجين قليلى التكلفة إلى خارج نطاق الأعمال، ليست هذه هى الطريقة التى يفترض أن تعمل بها الرأسمالية، لكن هذه هى الكيفية التى تبدو عليها فى مالى، وهى واحدة من البلدان العشر الأقل تطورا فى العالم، ومكان يعجز حتى عن تزويد شعبه بالعناية الصحية والتعليم الأساسيين، دع جانبنا القدرة على مجاراة ما تقدمه الولايات المتحدة من دعم، وقد قدم تقرير حديث للبنك الدولى حسابا وضح أن إلغاء الدعم الذى تقدمه الولايات المتحدة سوف يخفض إنتاج الولايات المتحدة، ويؤدى إلى ارتفاع أسعار القطن العالمية؛ مما سوف يحقق مبلغ ٢٥٠ مليون دولار من الدخل الزائد إلى غرب ووسط بلدان إفريقيا - وهى ثروة فى منطقة يعيش فيها الكثيرون على دخل يقل عن دولار واحد فى اليوم^(٨).

إن ما يسببه الدعم من تدمير يتجاوز تدمير مزارعى القطن الدوليين، إنه يدمر أيضا جهود الولايات المتحدة فى محاربة الفقر الكونى كعنصر أساسى فى الحرب على الإرهاب، لقد بدأت حكومة الولايات المتحدة تأكيد معونة التنمية المفتوحة، فى محاولة

لكسر حلقة البؤس وعدم الاستقرار التى تجعل العالم النامى قابلاً لاستضافة مجموعات إرهابية، إن الولايات المتحدة تنفق، فى مالى مثلاً، ٤٠ مليون دولار سنوياً على التعليم والصحة وبرامج تنموية أخرى^(٩)، لكن هذا المبلغ تكاد تبطله كلية خسائر شركات القطن الحكومية، التى تصل إلى ٢٠ مليون دولار، سببها هبوط أسعار القطن الدولية، والنتيجة زيادة المراتة فى هذا البلد المسلم الخاضع للسيطرة، الذى يتكون من ١١ مليون شخص، يقول مودى دبالو، وهو قائد فى اتحاد المزارعين: "هذا هو ما تتجه إليه أمريكا، إنها تود أن تهيم على العالم اقتصادياً وعسكرياً". ولحسن الحظ فإن مثل تلك العاطفة لم تنفجر بعد فى موقف عملى، لكن مواطنى غربى إفريقيا الذين يجرى إفقارهم يحتشدون بصورة متزايدة فى البلدان الأوروبية، وهؤلاء الذين يتخلفون يرون المزيد من الملالي من باكستان والشرق الأوسط فى جوامعهم، وفى مدارس تحفيظ القرآن، بينما توجد تقارير عن مالىين وآخرين يذهبون إلى الخارج للتدريب الدينى، إن وجه العولة، طبقاً للنمط الأمريكى وحرية التجارة - ليس هو الأمل الذى يلهمه كولن باول لغرب إفريقيا، إنه وجه خشن مرء، يلهم بالانجراف إلى الراديكالية وربما إلى الإرهاب، بالطبع تتجاوز تكلفة التعامل مع ذلك، إلى حد بعيد، أى شىء ينفق فى الدعم أو المعونة.

إن بكارى تراور مواطن من مالى يعمل رئيساً لشركة الدولة للأقطان، وهو يطرح حلاً خلافاً، إنه يقول: "قد يكون من الأفضل للولايات المتحدة أن تدفع لمزارعيها حتى لا يزرعون القطن". يقينا إنه على صواب، إن مزارعى الدلتا فى الحقيقة يمكن أن يزرعوا الأذرة وفول الصويا أو القمح بأسعار رخيصة إلى حد كبير للغاية، أكثر مما يزرعون القطن، إنهم يمثل تلك المحاصيل يستطيعون المنافسة فى الأسواق العالمية دون دعم، غير أن لدى إدهستر الإجابة على ذلك، "إننى أستطيع فقط، زراعة القطن وجنيه دون عائد"، وحيث إن لدى إد وزملائه، من مزارعى القطن، أصدقاء أقوياء فى لجنة قطن مجلس الشيوخ ومجلس نواب الولايات المتحدة: لذا فهناك قليل من شك فى أنه سوف يزرع القطن ويقطفه دون عائد، لفترة من الزمن قادمة. كم سيكلف ذلك الولايات المتحدة والعالم، فى نهاية الأمر، الزمن وحده هو الذى سوف يقول ذلك.

الصلب للأيد

إن تكاليف التعريفية الجمركية الطارئة التي فرضها بوش على الواردات العديدة لمنتجات الصلب، فى مارس ٢٠٠٢، ثم من ناحية أخرى، تعريفها وتحديد، فى الحال وبدقة، إن نسبة ٣٠٪ تعريفية جمركية سوف ترفع التكاليف على من يستخدمون صلب الولايات المتحدة بقدر ٢ مليار دولار، بينما تخفض مبيعات وأرباح منتجى الصلب الأجنبى والمصدرين بقدر ٢٠٪^(١٠). ويجىء ذلك فى الوقت الذى تبذل فيه الجهود لبدء جولة جديدة من المفاوضات حول تحرير التجارة، تستهدف بداية جديدة للاقتصاد الكونى المنهار حينذاك، إن هذا الفعل القائم على حماية الإنتاج الوطنى أطلق العنان لعاصفة مشتتة من النقد فى كل أركان المعمورة، فقد نُظر إليه باعتباره انتهاكاً لمبادئ التجارة الحرة تحديداً، التى كانت الولايات المتحدة تدفع إليها من أجل محادثات تحرير التجارة الجديدة، وكذلك كمثال آخر ترفض فيه الولايات المتحدة طلب حلفائها، وتعمل بطريقة أحادية خدمة لمصالحها الأنانية الخاصة بها. تلك كانت فعليا حالة يقوم فيها الرئيس بفعل الشيء الخاطئ من أجل أسباب صحيحة.

وقد أخذت صناعات بذاتها نتيجة ديناميكيات لا يمكن فى الغالب سبر غورها، أهمية رمزية خاصة، وصناعة الخطوط الجوية مثال جيد على ذلك. إن شركات الخطوط الجوية نادرا ما تحقق أرباحاً، لكن كل بلد لديه عمليا شركة سواء كان لذلك مغزى اقتصاديا أم لا، إن الأمر يبدو وكأنك لن تكون بلداً حقيقيا إن لم يكن لديك شركة طيران، والأمر كذلك فيما يتعلق بالصلب، لقد كان الصلب، جنبا إلى جنب، مع قوة البخار والسكك الحديدية - واحداً من عمُد الثورة الصناعية، وقد قادت بريطانيا العظمى العالم، خلال الجزء الأكبر من القرن التاسع عشر، فى إنتاج الصلب، وكانت تقيس تفوقها الصناعى، بقدر قيادتها مجال هذه السلعة الحيوية، وكانت ألمانيا هى أول من عملت على حماية صناعاتها، ثم جاءت الولايات المتحدة، حتى تتمكن من اللحاق بتلك البريطانية، وعندما تحقق ذلك، نُظر إليه كعلامة على ظهور قوى جديدة، وعلى الهبوط البريطانى، ودخلت اليابان اللعبة فى أوائل القرن العشرين، وعمل مجتمع

الحديد والصلب، بعد الحرب العالمية الثانية، كرائد فى تكوين السوق الأوروبية المشتركة، وأخيرا، الاتحاد الأوروبي اليوم، وقد وعد رئيس الوزراء السوفيتى نيكيتا خروشوف، أثناء الحرب الباردة، بأن تدفن الشيوعية، الرأسمالية، بأشياء من بينها التفوق عليها فى صناعة الصلب، وتكاد كل دولة نامية من كوريا وماليزيا إلى المكسيك وبولندا - أن تكون قد أحست بضرورة قيام صناعة صلب كجزء من استراتيجيتها للتصنيع، وتبع ذلك استخدام العالم لقدر كبير من الطاقة الإنتاجية للصلب عبر المائة سنة الماضية.

ليس من اليسير إغلاق مصنع صلب إن كان قد بدأ الإنتاج، إن مصانع الصلب التى قد تصل تكلفة الواحد منها من ١ إلى ٢ مليار دولار - هى مصانع كثيفة رأس المال إلى أقصى حد، وهى صناعة ذات تكاليف محددة تصل من ٢٥ إلى ٤٠٪ من التكلفة الإجمالية لإنتاج الطن، ولذا فإنه بسبب معدل التكلفة الثابت المرتفع هذا، يكون إنتاج الصلب ويبيعه عملا اقتصاديا، حتى لو كان ذلك بخسارة طفيفة، ما دام الدخل يغطى على الأقل جزءاً من التكاليف الثابتة، وتكمن وراء هذا حقيقة أن مصانع الصلب توظف العديد من الناس مباشرة، بل وأكثر، بصورة غير مباشرة، فى الصناعات التى تغذى وتخدم المصانع، من الشائع الحديث عن "مدن الصلب"؛ لأن مصنع الصلب غالبا ما يكون هو دم الحياة لمدينة أو منطقة بكاملها، يضاف إلى ذلك أنه باعتباره صناعة قديمة ذات جنور فى الحرب الطبقيّة خلال أواخر القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، فإن الصلب فى كل مكان قوى نقابيا، فعال سياسيا، وبينما أضيفت مصانع جديدة فى مختلف الأماكن، عبر السنين، فإن المصانع القديمة لم تتجه إلى الإغلاق، إنها بدلا من ذلك ناضلت، وغالبا ما باعت بالخسارة، وشكلت فى كثير من أنحاء العالم، خارج الولايات المتحدة، كارتلات (اتحادات للمنتجين) حتى تدعم الأسعار، بينما تصبح أيضا المتلقى الحقيقى لدعم الحكومة، وأصبحت النتيجة تراكما للطاقة الإنتاجية يفيض بكثير عن الطلب الفعلى، وقد قدرت بعض التحليلات أن ثلث طاقة الإنتاج العالمى، التى تبلغ مليار طن من الصلب هى فائض عن الطلب^(١).

إن غالبية هذا الإنتاج الفائض قد وجدت، خلال العشرين سنة الماضية، طريقها إلى سوق الولايات المتحدة، وقادت تلك الحقيقة إلى العشرات من عمليات إفلاس مصانع الصلب بالولايات المتحدة، وإلى خسارة ١٨ مليون طن من الطاقة الإنتاجية القصوى، وتقليص قوة العمل في صناعة الصلب الأمريكية من ٤٥٩.٠٠٠ عامل في عام ١٩٨٢ إلى ١٢٩.٠٠٠ عامل اليوم^(١٢)، ويمكن وراء هذه الإحصائيات المؤلمة عوامل ثلاثة كبرى: الانتفاخ النسبي لسوق الولايات المتحدة، والافتقار النسبي لمساعدة حكومة الولايات المتحدة للصناعة، وخصوصيات نظام المعاش والرعاية الصحية، ورغم النقد الكثير لحمائية الولايات المتحدة، فالحقيقة أن الولايات المتحدة هي سوق النخبة للتصدير، إن دخولها حتى بخصوصياتها، أيسر بكثير من أى سوق آخر كبير، إن الإحصائيات التجارية تكشف عن ذلك بطريقة درامية، فبينما تحظى الواردات بـ ٢٤,١٪ من سوق الولايات المتحدة، فإن تلك النسبة تصل إلى ١٩,٢٪ فقط من سوق الاتحاد الأوروبي، و١٠٪ تافهة من السوق اليابانية^(١٣). هناك سبب لهذا، وهو أن أوروبا واليابان وبلدان أخرى تسيطر عليها ترتيبات عمل حميمة تستهدف التحكم في الواردات، وتعمل من خلال اتحادات صناعية، ومجموعات من الشركات ذات علاقات تبادلية، وهناك عامل آخر هو المساعدة الحكومية الكثيفة التي تقدم للعديد من صناعات الولايات المتحدة، غير صناعة الصلب، في شكل حُقن من رأس المال العام، وامتصاص الديون، أو تدبير بنية تحتية ذات أهمية - كل ذلك بهدف تجديد القدرة التنافسية للشركات - وعامل أخير هو "تكاليف إرث" التقاعد والرعاية الصحية.

إن العديد من منتجي الصلب الولايات المتحدة، حتى بدون الحماية والمساعدة العامة التي يتلقاها منافسهم الأجانب - يخفضون التكاليف بصورة درامية، ويحسنون الإنتاجية لتظل ذات قدرة تنافسية للمستهلكين في سوق الولايات المتحدة (ازداد إنتاج الولايات المتحدة للعامل في الساعة من ٧٠,٥ طناً عام ١٩٨٠ إلى ١٤٢,٩ عام

٢٠٠٢، مقارنة بـ ٦٧ و ١٢٧،٩ فى ألمانيا، و٦٣،٢ و ١٤٣،٢ فى اليابان^(١٤)، تم تخفيض الإنتاج وتخفيض عدد العمال، غير أنهم كانوا يحملون عبء صكوك المعاشات والرعاية الصحية، التى ترتفع قيمتها أكثر فأكثر، مما جعلهم غير قادرين على المنافسة، إن الرعاية الصحية، والمعاشات تمول فى أغلب البلدان المنتجة للصلب، تمويلًا عامًا، إن أصحاب العمل، فى الولايات المتحدة هم الذين يوفرّون برامجها، بالطبع، وكانت تلك تشكل، فى صناعة الصلب جزءاً كبيراً من العقود التى جرى التفاوض حولها بين الشركات و "عمال الصلب المتحدّين"، ويواصل المتقاعدون فى ظل تلك الاتفاقيات، وكذا العمال الذين سرحوا هم وعائلاتهم تلقى معاش ذى مؤشر تضخمى، وفوائد الرعاية الصحية طوال حياتهم، إن مثل تلك الاتفاقيات، وتكلفتها الموروثة، غالباً ما تُحدد تحت ضغط ثقيل من حكومة الولايات المتحدة، حتى إن صناعة يعمل بها ١٣٩٠٠٠ عامل تكون محملة بصك معاش ورعاية صحية يعادل حجمها ضعفى أو ثلاثة أضعاف حجم صناعة أخرى، إن تلك التكاليف ليست فقط عبئاً ثقيلاً، لكنها تتجه أيضاً إلى كبح خطى يمكن أن تجعل الصناعة أكثر قدرة على المنافسة. كان الاتجاه الكونى يسير نحو اندماج مؤسسات فى أخرى، وتوفير تسهيلات إنتاج على مدى كبير للغاية، غير أن هذا لم يحدث إلى حد كبير للغاية فى الولايات المتحدة؛ حيث لا يمكن لشركة أن تضطلع بتكاليف أى شركة يمكن أن تنالها، ومن ثم، فإنه بينما يمكن أن يكون لاندماج "صلب الولايات المتحدة" و"صلب بيت لحم" مغزى اقتصادياً، فإنه لا يمكن حدوثه، ما دامت مشكلة تكاليف الإرث موجودة.

كان لدى حكومة الولايات المتحدة منذ زمن طويل، عند التعامل مع مشاكل تكيف صناعة الصلب - اختيار أن تتحرك لإدخال تعديلات متقدمة، لتأخذ على عاتقها تكاليف الإرث تلك، كما فعلت حكومات أخرى، أو أن تفرض تعريفية جمركية طارئة على الواردات الموجودة فى ظل قانون تجارة الولايات المتحدة لتكون سبباً كبيراً للضرر الذى يقع على صناعة الولايات المتحدة، يجب على صناعة الولايات المتحدة أن تقدم،

فى ظل القانون، خطة إعادة تنشيط حتى تصبح مؤهلة للتعريفة الجمركية، إن مثل تلك الخطط تاريخيا لم تنجح عادة، على أى حال، وقدمت التعريفة الجمركية فقط نجدة مؤقتة من المنافسة منخفضة السعر. كان رفع التكاليف على من يقومون بالاستخدام، مثل شركات أنوات السيارات والآلات - مساعدا على جعل تلك الصناعات غير قادرة على المنافسة بالمثل، كما وقع الضرر أيضا على الاقتصاديات المصدرة، ومع ذلك لم يُفعل شىء يجعل الصناعة المحلية أكثر فاعلية.

كان من الواضح فى مارس ٢٠٠٢ أن الطريق المفضل كان يجب أن يكون أخذ حكومة الولايات المتحدة بعض تكاليف الإرث على عاتقها وجعل الصناعة أكثر قدرة على المنافسة، وقد قيل لى، فى اجتماع مع رئيس مجلس إدارة واحدة من شركات الصلب الكبرى بالولايات المتحدة: إن ذلك كان أيضا هو الطريق الذى يمكن أن تفضله الصناعة؛ لأنه سوف يسمح باندماج الشركات فى بعضها البعض، وإجراءات أخرى يمكن أن تضع الصناعة فى مصاف الأعلى منزلة ومكانة فى العالم، كما أخبرنى أيضا باسكال لامى، المفوض التجارى للاتحاد الأوروبى، وكذا مسئولون رسميون متعددون يابانيون أن أوروبا أو اليابان لا يمكن لهما أن تعترضا على مثل تلك السياسة للولايات المتحدة، إن قرار إدارة بوش بفرض رسوم ضد الإغراق بدلا من ذلك، كان يرجع إلى رغبتها فى إدخال السرور على اتحادات الصلب، التى فضلت هذا الاختيار، كما يرجع إلى فلسفة سوقها الاقتصادية المتشددة الخاصة بتجنب أى شىء له نكهة سياسية اقتصادية. كان صحيحا، بصورة مؤكدة، إن هناك استجابة لمشاكل الصناعة، إلا أن أسلوب الفعل تسبب فى رد فعل سلبي هائل فى الخارج، وأضر بمصداقية الولايات المتحدة التى كانت تطالب، فى ذات اللحظة، بمفاوضات جديدة لتحرير التجارة، وقد استجابت الولايات المتحدة لمشكلة سياسية بانتهاجها الطريق السهل للخروج، وتحميل التكاليف للبلدان المصدرة، فى انتهاك مباشر بعقيدها هى عن حرية التجارة^(١٥).

مصدر المعجزات

هناك وجه آخر للعولة، إنه ذلك الوجه الذى عرفته بطريقة حميمية، لقد تصادمت معه أولا عام ١٩٥٨، عندما أبحرت من نيويورك إلى أمستردام لقضاء وقت فى أوربا كطالب تبادلى، واستغرقت رحلتنا عشرة أيام، وتلك تعادل تقريبا سبع أو ثمانى ساعات سفر بالطائرة اليوم، أتذكر دهشتى وأنا أرى آلاف الدراجات الهوائية وهى تقف فى كل بقعة يمكن تصورها فى شوارع أمستردام وقنواتها، كنت فى السادسة عشرة من عمري، وكنت قد حصلت للتو على أول سيارة لى منذ أشهر قليلة مضت. ومع ذلك، فحتى الجدد هنا كن يركبن دراجات هوائية، أخذت القطار من أمستردام إلى بازل فى سويسرا، وكنت باعتبارى حفيد رجل شارك فى إنشاء السكك الحديدية سعيذا أن أرى القطار تجره قاطرة بخارية، شئ لم أره البتة من قبل فى بلدى، واعتدت فى القرية السويسرية الصغيرة التى تقع عند سفح جبال الألب، حيث كان على أن أقيم، على المياه الساخنة وهى تنقطع وسط حمامى وأنا أغتسل، وتعلمت الذهاب إلى البقال للتسوق كل يوم؛ لأن الثلجة كانت من الصغر الشديد بحيث لا تستطيع احتواء أكثر من التزود بغذاء يوم. لم تكن أوربا فى تلك الأيام فقيرة على شاكلة بلد نام، لكنها لم تكن كذلك غنية على شاكلة الولايات المتحدة.

وصلت اليابان لأتابع دراساتى الجامعية عام ١٩٦٤، تقريبا فى الوقت الذى أعلن فيه نورمان ماكبرى، لأول مرة، عن "المعجزة" اليابانية فى الإيكونوميست؛ لم تكن دون شك تشبه معجزة بالنسبة لى، كان الانتقال، مرة أخرى، بالدراجة الهوائية أكثر منه بالسيارة. استأجرنا أنا وزوجتى ما دعاه أصدقاءنا اليابانيون بالطابق "المترف". لم يكن به ماء ساخن، ولا حمام، ولا موقد مسطح، وكان التسخين يجرى بموقد يُشعل بالكبروسين، نمنا على فراش يفرد على الأرض بالليل، وذهبنا إلى الحمامات العامة، وغلبنا حفاضات طفلنا فى دلو فوق شئ ما يشبه موقد بنسن. وارتدينا أقنعة من شاش لحماية أنفسنا من هواء طوكيو الضار بالصحة، لم نر البتة جبل فوجى حتى دُفعنا إليه فى جولة للمشاهدة، وكان أصدقاءنا اليابانيون يعملون ستة أيام فى

الأسبوع، ولا يأخذون إجازة البتة، ويعيشون فى أحوال تماثل تلك التى يدعوها الأمريكيون بالمخيمات. مرة أخرى، لم تكن اليابان فقيرة حقاً، لكنها لم تكن ثرية مثل أوروبا تقريباً، فما البال بالولايات المتحدة.

وعدت بعد سنتين إلى هولندا باعتبارى نائب القنصل، فى قنصلية الولايات المتحدة فى روتردام، لقد أوجدت ثمانى سنوات فرقاً مثيراً للدهشة، كانت الدراجات الهوائية قد خرجت، وبخلت الدراجات البخارية الصغيرة والسيارات، وتحولت كل القطارات إلى قاطرات ديزل أو كهربائية، وكان النمو الصناعى السريع يعمل على توفير تدفئة مركزية فى المنازل، بعد تطوير حقول الغاز فى أوروبا الشمالية، وكانت مخازن البقالة الصغيرة الجذابة تفسح الطريق للسوبرماركتات، وسرعان ما أدركت العامل الكبير الكامن وراء هذا التطور السريع للثروة، وقد أخبرنى "القنصل العام"، أن مهمى سوف تكون تعزيز الاستثمار الأمريكى فى الأراضى الواطنة، والصادرات الهولندية إلى الولايات المتحدة، محافظاً على متابعة التطورات فى ميناء روتردام، لم تكن تدعى عولة حينئذ، وكان الكتاب الأفضل بيعاً للكاتب الفرنسى جان جاك سرفان سكريبير وعنوانه "التحدى الأمريكى"، ويغض النظر عما كانت تُسمى، فقد كانت روتردام أكبر ميناء فى العالم؛ حيث أدى تدفق رأس المال الاستثمارى إلى أوروبا، إلى خلق مصانع امتصت المواد الخام، وشحنت بالسفن، سلع كاملة إلى سوق الولايات المتحدة الهائل، إن التجارة والاستثمار الدوليين قد جعلوا الهولنديين، وأوروبيين آخرين أثرياء حقاً - على منوال الولايات المتحدة.

كنت أعيش فى بروكسل، بلجيكا، عام ١٩٧٢، كمدير للتسويق الأوروبى لشركة سكوت للورق وبينما كنت أناضل لوضع خطة تسويق موحدة للعمليات الوطنية المختلفة لشركة سكوت فى أوروبا، أحسست بتعاطف وإعجاب شديد بالقادة الأوروبيين الذين كانوا يستخدمون قوة الرأسمالية الكونية لتشكيل قوة اقتصادية أوروبية جديدة كلية، وعدت ثانية إلى اليابان عام ١٩٧٦ حيث اكتشفت أن فكرى كان على صواب، فيما يتعلق بالمعجزة، على أى حال كان المرور مستحيلاً، الحمامات العامة كانت تخرج من

نطاق الأعمال، حيث ركب الناس حماماتهم الخاصة فى منازلهم، وانخفضت ساعات العمل الأسبوعى إلى خمس ونصف يوماً. وقد علق جون فورستر دالاس، وزير الخارجية السابق، بأن اليابانيين لم يستطيعوا صناعة أى شىء يمكن أن يشتريه الأمريكيون، ولكن كان لليابان فائض تجارى كبير ومتنامى مع الولايات المتحدة، وقد تباهى أحد أصدقائى فى سفارة الولايات المتحدة فى طوكيو، بأنه قام بعمل عزز الصادرات اليابانية إلى سوق الولايات المتحدة أفضل من ذلك الذى قمت به لتعزيز الصادرات الهولندية.

وأصبحت بمرور الوقت مفاوضات تجارية فى إدارة ريجان، لقد نما العجز التجارى مع اليابان إلى ١٥,٨ مليار دولار وكان العجز التجارى الكلى للولايات المتحدة يتجه إلى مستوى غير مسبوق، مستوى ٢٧ مليار دولار سنوياً^(١٦)، وقد قال العديد من المحللين : إن هذا العجز لا يمكن بقاؤه طويلاً. وأخبرنى سكرتير كوميرس مالكوم بالدريج : إن وظيفتى هى تخفيض هذا العجز. وفى عام ١٩٨٦، عندما بلغ العجز مع اليابان ٥٥ مليار دولار، كان العجز الكلى قد صعد إلى ١٥٠ مليار دولار سنوياً، وكان من الواضح أننى قد فشلت. وتركت الإدارة لأجرب حظى فى كتابة كتاب عن المفاوضات التجارية، لم أكن أتصور أن يصل العجز التجارى للولايات المتحدة (فنيا عجز الحساب الجارى) إلى معدل سنوى يقارب ٥٠٠ مليار دولار عند نهاية عام ٢٠٠٢، إن لهذا الرقم أهمية هائلة من عدة أوجه، لكنه قبل كل شىء مقياس كيف ساهمت أمريكا، وهى تعمل من خلال العولة فى إثراء جزء كبير من العالم.

إن هذا لم يحدث صدفة، فقد صممت الولايات المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية، على تجنب الأخطاء التى جاءت فى أعقاب الحرب العالمية الأولى، وتبنت خطأ سياسياً يمكن أن يسمى اليوم "بناء الأمة"، وقدم "مشروع مارشال" ما يعادل أكثر من ٩٠ مليار دولار، قياساً على أسعار اليوم، وذلك للمساعدة فى إعادة بناء أوروبا، وكان "مشروع دوج" قد وُضع ببراعة لتقف اليابان من جديد على قدميها^(١٧)، وقد شكّل صندوق النقد الدولى، وكان الدولار هو حجر الزاوية فيه، لضمان أسواق مالية عالمية

مستقرة، بينما تأسس البنك الدولي ليقدم التمويل الأساسي للبلدان النامية، وكانت الولايات المتحدة وستظل المساهم الأكبر في المؤسستين، وربما كانت الأكثر أهمية هي "الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة" (الجات) التي ألزمت أمريكا وحلفائها الكبار بتخفيض التعريفات وتحقيق التجارة الحرة على أسس كونية حقيقية، وقادت الولايات المتحدة، بدأب "جولة جنيف" الخاصة بالمحادثات التجارية عام ١٩٤٧، وتواصلها حتى "جولة أوروغواي"، التي اختتمت عام ١٩٩٤، وقادت الولايات المتحدة العالم الصناعي من أجل تخفيض التعريفات والحواجز التجارية الرسمية إلى حد ضئيل وتافه، وغدت التجارة الحرة، خلال هذا الوقت، تبادلية إلى حد كبير، على الأقل بين الدول المتطورة، غير أن الولايات المتحدة خفضت تعريفاتها بشدة في البداية، دون أن تطلب من شركائها في التجارة، في أوروبا واليابان - التبادلية أو التعامل بالمثل - إن الولايات المتحدة، وهذا أمر هام للغاية، أبقت على قيمة الدولار ثابتة مدة خمسة وعشرين عاما، بينما خفض التعافى السريع وتطور شركائها التجاريين من الدور القيادي للإنتاجية الأمريكية الهائلة، فيما بعد الحرب مباشرة. وأخيرا، حثت حكومة الولايات المتحدة الصناعة الأمريكية على المساعدة في الجهود التنموية، وذلك بالاستثمار في الخارج، من خلال تخفيض سعر التقنية وزيادة الواردات، ويقول روبرت جالفين، الرئيس السابق لموتورولا: إن الرئيس إيزنهاور حثه عام ١٩٥٧ على محاولة زيادة الواردات من اليابان، وذلك للمعاونة في تقوية اقتصادها، ومن أجل توطيد تحالفها مع الولايات المتحدة.

وكانت أوروبا نجم التصدير المبكر؛ حيث حصلت سيارة "البيتل" من صنع شركة فولكس فاجن الشهيرة، على نسبة غير مسبقة من سوق سيارات الولايات المتحدة عام ١٩٥٨، وهي نسبة ٥٪، وكذلك أي دراجة ذات مبدل للسرعة وإطارات نحيلة، التي كانت تعرف بـ "الدراجة البريطانية"^(١٨). غير أن اليابان استطاعت، بمعاونة أناس مثل جالفين أن تلحق بالركب سريعا، وتبنت بشكل خاص استراتيجية نمو يقوده التصدير، وفي عام ١٩٦٤، عندما وصلت إلى طوكيو، كان للشركات اليابانية بالفعل

أنصبه كبيرة فى أسواق استهلاك الإليكترونيات الأمريكية، كانوا يتحركون بسرعة نحو السيطرة، وجاءت السيارات اليابانية فيما بعد، لكن النسيج والصلب وعناصر مكونات واردة من اليابان - كانت تلحل محل مصانع الولايات المتحدة؛ مما تسبب فى نزاعات تجارية حادة.

وباقى القصة معروف جيداً - أدركت اليابان الركب، وتفوقت على الولايات المتحدة، فى قطاعات صناعية وتكنولوجية أساسية وعديدة، وهى تتمتع اليوم بدخل لكل فرد؛ اعتماداً على سعر الصرف، أكبر أحياناً من ذلك الذى فى الولايات المتحدة، وسرعان ما تعلمت كوريا وتايوان وهونج كونج وسنغافورة وماليزيا تقليد اليابان، ثم أضافت تلك البلدان وسيلة جديدة، توددت إلى المستثمر الأجنبى، وأغرت الشركات الأجنبية وغيرها بأن تستفيد من التكلفة المنخفضة بوضع المصانع داخل حدودها، وسرعان ما بدأ العالم يتحدث عن "النمور الآسيوية" و"التنانين"، وقد أدت "اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة" (النافتا)، وهى الاتفاقية الأكثر قرباً، إلى ١٢٧٪ زيادة فى صادرات المكسيك، وجعلتها الشريك التجارى الأكبر الثانى (بعد كندا)، وهدف كبير لاستثمارات الولايات المتحدة^(١٩). ونحن إن أخذنا الاقتصاد العالمى ككل، خلال الخمسين سنة الماضية، فإن التجارة المحررة كانت عاملاً كبيراً للنمو، مع زيادة الصادرات والواردات أكثر من مائة ضعف، بينما زاد الناتج المحلى الإجمالى ٤٪ سنوياً^(٢٠). يضاف إلى ذلك أن صعود الصين والهند إلى مراتب الاقتصاديات التصنيعية الجديدة - قد أحدث أثراً كبيراً فى مستويات الفقر العالمية، إن ملايين الناس فى هذين البلدين اللذين يعتبران من أكثر بلدان العالم كثافة سكانية، تحركوا إلى أعلى، عن الدخل اليومى المقدر بدولارين، وهو الدخل الذى يحدد أقصى حالات الفقر، لا يمكن التأكيد بما يكفى أن مساهمات أمريكا إلى هؤلاء كانت أساسية ولا غنى عنها: إن الولايات المتحدة تمتص ٢٥٪ من الصادرات الآسيوية، ٦٠٪ من أمريكا اللاتينية، مع عجزها التجارى الهائل، وهى السبب المباشر أو غير المباشر لـ ٣٥٪ من إجمالى الاستثمار الكونى فى مصانع من البلدان النامية^(٢١). هل يمكن للعولة أن تكون جيدة لغير الأمريكيين؟ دون شك. هل هى منظمة لتصل بالرفاهية الكونية إلى أقصاها؟ دعونا نرى.

غير أن أمريكا تملك صندوق الرمال

وُضعت أسس النظام الاقتصادي الكوني اليوم، عام ١٩٤٤، في منتجع بريتون وودز في نيوهامبشاير؛ حيث توصل الحلفاء إلى اتفاق حول العناصر الرئيسية للهيكل المالي الذي سيقام عند نهاية الحرب العالمية الثانية، كان تفادي تكرار السياسة التجارية الحمائية "سياسة إفقار الجار"، وتخفيضات قيمة العملة التنافسية التي جاءت بكارثة "الركود الاقتصادي العظيم"، ونهوض الفاشية، وأصررت الولايات المتحدة وبريطانيا في بريتون وودز على ضرورة اعتماد النظام العالمي الجديد على قواعد عالمية من أجل غرض الانفتاح، وردود فعل تبادلية يتم الاتفاق عليها، في حالة صعوبات بذاتها، ومن هنا جاء إنشاء صندوق النقد الدولي كحكم للنظام الجديد، وإنشاء البنك الدولي كآلية تمويل متعددة الأطراف لتنمية بلدان العالم الثالث، وأصررت الولايات المتحدة على أن تحظى بحقوق تصويت حاسمة في المؤسستين، وقد مُنحت لها تلك الحقوق.

وثار نقاش حائق كبير حول طبيعة نظام الدفع العالمي الجديد، وفيه حث الاقتصادى البريطانى الكبير جون مايتارد كيتس على إيجاد عملة عالمية جديدة يمكن دعمها بالذهب وتدعى "بانكور"، وكان منطق كيتس أن مثل تلك العملة سوف تحل محل كل أعضاء النظام، على قدم المساواة، كان الهدف هو جعل النظام يعمل في توازن، ومن ثم، فإن بدأ بلد في مواجهة عجز تجارى، فإنه بدلا من تخفيض قيمة عملته، سوف يجبر على تبني إجراءات صارمة في وطنه يمكن أن تجعله قادراً على شق طريقه خروجاً من الصعوبة، التي واجهها، يمكن لصندوق النقد الدولي أن يسهل هذه التسوية، بتقديم قروض انتقالية بدلا من البرامج الصارمة، كما اقترح أيضا أن البلدان التي تحقق فائضا تجاريا تتبنى سياسات تحرك اقتصادياتها، وفرض تعريفات مؤقتة على صادراتها، يجب تنظيم تدفق رؤوس الأموال بين البلدان بصرامة حتى يمكن لسياسات سعر الفائدة الوطنى أن تعمل على تكيف الاقتصاديات المحلية بصورة فاعلة.

وفى النهاية، أصررت الولايات المتحدة على أن يكون الدولار وليس البانكوك هو العملة العالمية؛ إذ يمكن أن يكون قابلاً للتحويل بحرية إلى ذهب عند سعر محدد، فى حين أن كل العملات الأخرى يمكن ربطها بالدولار عند سعر محدد. إن تغييرات فى أسعار العملة يمكن أن تحدث فقط من خلال اتفاقية مع صندوق النقد الدولى، وذلك يعنى مع الولايات المتحدة فى الواقع. إن ضوابط رأس المال (والتي قيدت فرص العمل المصرفى العالمى) كانت أيضاً جزءاً من الاتفاقية النهائية، غير أن التعريفات المؤقتة، على البلدان التى لديها فائض تجارى، ثم التخلّى عنها. يجب على البلدان التى تعاني عجزاً، أن يفرض عليها التكيف بطريقة أوتوماتيكية، ما دامت تحتاج إلى تمويل عجزها بالحصول على قروض انتقالية من صندوق النقد الدولى - أو هكذا بدا الأمر فى ذلك الوقت.

ونجح النظام الجديد متجاوزاً كل التوقعات، وحلقت التجارة العالمية عالمياً عندما هبطت التعريفات بنسبة ٧٣٪ ما بين عامى ١٩٤٧ و ١٩٦١ وتعافت أوروبا واليابان سريعاً إلى حد بدا إعجازياً^(٢٢)، وتحولت فوائض التجارة الأمريكية الهائلة، فى أوائل الستينيات، فى سنوات ما بعد الحرب مباشرة إلى عجز متنام بطريقة لا رحمة فيها، فى الوقت الذى جعلت فيه الإنتاجية الصاعدة للاقتصادات الأوروبية واليابانية البضائع التى تنتجها تمتلك قدرة تنافسية فى سوق الولايات المتحدة المفتوح الآن نسبياً، لقد أصررت أمريكا على الدولار كالعملة الدولية؛ لأن هذا يعطينا ميزة الدفع لكل ما نريده بعملتنا نحن - ومع ذلك كشف العجز عن بعض الصعوبات غير المتوقعة - لم يكن هنالك، بدون التعريفات على فائض صادرات البلدان التى اقترحها كيتس، أى ضغط عليها لرفع قيمة عملاتها أو تخفيض الصادرات، وبدأت تلك البلدان فى تكديس أكوام كبرى من الدولارات فى صناديقها.

لقد حققوا بفاعلية احتياطات إضافية فى الأنظمة المصرفية لبلدان الفائض، فاتجهت تلك الدولارات لإطلاق الإمدادات النقدية وتحريك التضخم، وقد ثمن العجز التجارى للولايات المتحدة بالدولار، وكان ذلك فى الحقيقة تصديراً للتضخم، ومثالاً على

هروب الولايات المتحدة من الترتيبات التي تُطبق على كل الآخرين داخل النظام، لكن كان هناك علاج، كان مقابل قبول الدولار كالوحدة الدولية للدفع هو وعد من الولايات المتحدة أن تحافظ على قيمته في مواجهة الذهب، وأن تجعل من الممكن تحويله بحرية إلى الذهب بسعر محدد، وبدأت بعض البلدان بقيادة فرنسا تحويل دولاراتها إلى ذهب، وذبلت احتياطات الولايات المتحدة من الذهب خلال الستينيات، ووجهت الولايات المتحدة بالاختيار شديد الألم ما بين الحفاظ على النظام بإذعانها لذات القواعد، مثلها مثل البلدان الأخرى، وتبنى إجراءات صارمة محلية، أو التخلص من النظام، واختارت الولايات المتحدة التخلص من النظام، يضاف إلى ذلك أنها استمدت من قوتها العظمى ميزة أن تفعل ذلك بطريقة أحادية، وكان السعى لسداد تكاليف الحرب في فيتنام والبرامج المحلية "للمجتمع العظيم"، دون زيادة في الضرائب؛ مما أدى إلى تضخم اقتصاد الولايات المتحدة، دون إمكانية تجنب ذلك، وغدا الضغط على المدفوعات الدولية غير محتمل. وفي ٢ مارس ١٩٧١، علق الرئيس نيكسون، ببساطة، إمكانية تحويل الدولار إلى ذهب، وأوجد هذا كأمر واقع قاعدة الدولار بدلا من قاعدة تبادل الذهب، وجعل الدولار عملة العالم الإلزامية، دون أن تتحمل الولايات المتحدة أى التزامات أمام باقى العالم، إن عملات بلدان أخرى يمكن أن تعوم في مواجهة الدولار، ويمكن لاقتصادياتها أن تتكيف طبقا لأهواء السياسات الاقتصادية للولايات المتحدة، ورفعت على أى حال الضوابط التي على رأس المال، في يوم رأس سنة ١٩٧٤، وأصبح في وسع الولايات المتحدة بحق أن تشتري كل ما تريد بنقودها هي دون نتائج عليها أو التزاما لغيرها، وكانت هذه حرية حقيقية، أما بالنسبة لباقي العالم فإن جون كوناى، وزير الخزانة، أمسك بطريقة مثالية، بوجهة النظر الأمريكية عندما قال: "كان لدينا مشكلة ونحن نتقاسمها مع باقى العالم - تماما مثلما تشاركنا في رفاهيتنا، ذلك هو ما وجد الأصدقاء من أجله".

إن القدرة غير المحدودة عمليا، لطباعة نقود العالم منحت أمريكا ميزات هائلة في تشكيل إطار العولة - والأكثر أهمية أنها سمحت لأمريكا كى تصبح المستهلك الدولي

لآخر ملاذ ومأوى: إن في وسعنا نسيان ما يخص الادخار، وتحقيق عجز تجارى متواصل، فحيثما يتوجب على البلدان الأخرى المحافظة على تجارتها متوازنة، عبر الوقت، بصورة أم أخرى، وأن تستهلك، تقريبا، بنفس قدر ما تنتج، فإن الولايات المتحدة ليس عليها أن تباع أى شىء حتى تشتري. إن في وسعها ببساطة طبع دولارات، إن قاعدة الدولار يسرت أيضا وبصورة كبيرة استثمارات شركات الولايات المتحدة عبر البحار، وسمحت للولايات المتحدة أن تقع فى عجز تراكمى فى الحساب الجارى بحوالى ٦ تريليون دولار، بينما تستثمر تراكما حوالى ١,١ تريليون دولار فى الخارج، عند نهاية القرن العشرين^(٢٣).

غير أن الدولار لم يكن هو أداة أمريكا الوحيدة، إن الحجم الكلى للسوق الأمريكى، وانتشار اللغة الإنجليزية باعتبارها لغة الفرنجة، والقوة العسكرية الضخمة، قد عملت جنباً إلى جنب مع الدولار لتضع أمريكا فى مقعد سائق العولة، خذ صناعة السينما وإذاعة التليفاز، لو كنت صانع أفلام أمريكية أو مديعاً، فإنك تبدأ بمستمعين محليين محتملين يبلغون ٢٨٠ مليوناً من الناس، مقارنة بحوالى ٦٠ مليوناً إذا كنت فرنسياً، و٨٠ مليوناً إن كنت ألمانيا. بالطبع، لو كنت صينيا أو هندياً، فإن فى وسعك الاعتماد على البلايين. غير أن المستمعين إليك سوف يكونون محليين بصورة تامة. وأنت باعتبارك أمريكياً، يمكنك على أى حال، الاعتماد أيضاً على البلايين، أناس من كل أنحاء العالم، لغتهم الثانية هى اللغة الإنجليزية، وهم جزء من سوقك المحتمل، بالإضافة إلى المشاهدين من الولايات المتحدة. ليس هناك ما يثير الدهشة فى صناعة الأمريكيين لأفلام، وعروض تلفازية وتسجيلات أكثر من أى أناس آخرين، وقد أصبحت ثقافة البوب الأمريكية منتشرة كونياً.

وتطبق ديناميكيات أخرى، فى مناطق أخرى، إن قوة الولايات المتحدة العسكرية تعنى أن أمريكا تتجاوز، بما لا يقاس، قمة موردى السلاح فى العالم. إلا أن ذلك قد وفر أيضاً تدفقاً هائلاً من الموارد ليدعم القيادة التكنولوجية الأمريكية، إن الإنترنت مثلاً نشأت فى الأصل كشبكة وكالة مشروعات البحث المتقدم (إيه آر بى إيه) شبكة

لإدارة الدفاع، إن هذا التطور الوحيد الذى بدأ منذ خمسة وعشرين عاما مضت، يعنى أن ٧٥٪ من مرور الإنترنت الكونى اليوم، يحول عبر الولايات المتحدة، ويوجه فى نقطة ما بواسطة شركات تشغيل أمريكية^(٢٤)، وأخيراً فإن القوة العسكرية للولايات المتحدة تقوى دور الدولار بجعل أمريكا هى الملاذ الأكثر أماناً، ورغم أنها تسبح فى الدولارات، فإن العالم يواصل الاحتفاظ بها؛ لأنه أين لك أن تضع نقودك، وقت الشك وعدم اليقين؟

إن المفاوضات الأمريكى، مثلى، يحدد مجال اللعب، من موقع القوة هذا. لقد كسبت الولايات المتحدة، مبكراً فى اللعبة، كسبت إعفاءات من قواعد التجارة الحرة، للحساسية السياسية لأسواقها الزراعية، وأسواق المنسوجات، مما سمح لها، بصورة مؤثرة أن تظل محمية للغاية، وقد افترض مفاوضو الولايات المتحدة، فى العشرين سنة الأولى، بعد تأسيس الجات - أن صناعاتها الأخرى هى الأعلى تنافسية، وأن أسواقها مفتوحة بحرية، دون فتح تبادلٍ من الشركاء التجاريين، وتدفقت الواردات - على أى حال - فى أواخر السبعينيات، فتصلب الدبلوماسيون الأمريكيون فى موقفهم، وطلبوا صناعات مثل السيارات والتلفاز الملون بقيود "طوعية" من المصدرين مثل اليابان، وأوضحوا بقوة أن إقامة مصانع فى الولايات المتحدة سوف يكون اتجاهها حكيماً للعمل، كانت هذه طريقة فظة ومراثية لمواصلة ممارسة فضيلة السوق الحرة التى تتمتع بالثمار المحرمة للحمائية، بالطبع، غضب شركاؤنا التجاريون إلا أن الخيارات التى كانت أمامهم قليلة، كان المستهلك الأمريكى حتى وإن بدا مقيداً هو الشارى الرئيسى فى المدينة، وكان كل المصدرين، على أى حال، فى حاجة إلى قوى الولايات المتحدة المتجمعة عبر الأفق لحمايتهم، وخدمت هذه الأحجية بصورة أكبر فى كبح ضغوط الجمهور السياسى الأمريكى الذى كان يفقد وظائفه حتى يستورد ضغوطاً من أجل إجراءات حمائية.

كان الطريق المفضل لمفاوضى الولايات المتحدة هو الدفع بقوة من أجل فتح الأسواق الأجنبية، ووضع قواعد تخدم بشكل خاص الصناعات الأمريكية والشركات

القادرة على التنافس (أو ذات قوة مؤثرة)، كانت هذه سياسة عاقلة، غير أن تحقيقها يمكن أن يقود إلى نتائج غريبة متنقلة، الولايات المتحدة ترفض كموقف مبدئى أى مفهوم عن السياسة الصناعية أو الاستراتيجية الاقتصادية، ولذا فإن أجندتها التفاوضية مصممة، إلى حد كبير، على نحو يقوم على المصادفة أو تحت ضغط كثيف للشركات، ومن ثم، فإن صناعة الطباق، فى الولايات المتحدة، ومنتجاتها ذات قدرة تنافسية عالية، وهى تحت الممثل التجارى للولايات المتحدة ، على فتح الأسواق الكونية أمام الطباق الأمريكى، حتى وإن كان المحامى العام يقاضى تلك الصناعة، لتضليلها الرأى العام عن الآثار السرطانية للتدخين، ويعجب بعض المعلقين: لماذا تود الولايات المتحدة تصدير السرطان.

وقد شكلت الملكية الفكرية مجالا آخر لتشدد كبير، إن هذا المفهوم كله غربى بشكل واضح، إن وجهة نظر الكثير من بلدان العالم الأخرى هى أننا نقف فقط فوق أكتاف هؤلاء الذين ذهبوا من قبلنا، ومن ثم، فإنه يُنظر إلى فكرة أنه يمكننى بمفردى تماما أن أخترع وأمتلك فكرة بذاتها، باعتبارها فكرة أنائية. ومع ذلك، فإنها قوام حياة الصناعة عالية التكنولوجيا فى الولايات المتحدة، وقد جعلها مفاوضو الولايات المتحدة ذات أولوية عالية، من أجل دمج الحماية القوية لبراءة الاختراع، وحق التأليف والنشر، فى قواعد التجارة الدولية وفرضها بصرامة، ولناخذ مثالا آخر عن الشركات التى تصنع منتجات استراتيجية مثل الطائرات وشبه الموصلات، والتى هى هدف لاحتياجات الاستثمار حتى إن بعض البلدان النامية تحاول فرضها كشرط للبيع فى أسواقها، وقد نجح مفاوضو الولايات المتحدة فى حظر تلك الحاجيات المندمجة فى قواعد التجارة الكونية، ووقعت حالة أخرى أظهرت فيها دبلوماسية الولايات المتحدة مهارتها، فى أواخر الثمانينيات، عندما بدت البنوك اليابانية، وكأنها سوف تهزّب ومعها المخزون العالمى - إذ قادت خزانة الولايات المتحدة مفاوضات "اتفاق بازل" الذى طلب فيه من البنوك زيادة رأس المال الأساسى فى ميزانياتها العمومية، إن هذا لم يسو فقط ملعب بنوك الولايات المتحدة والملتصقة إلى حد نموذجى بالحاجات الأعلى لرأس

المال، أكثر من البنوك اليابانية، كما أغرت أيضا عملية شراء حقيقية لأوراق الخزنة المالية، في وقت كانت فيه الولايات المتحدة في حاجة ملحة لتمويل عجزها.

جاءت لحظة في الثمانينيات بدا فيها أن اليابان توشك على أخذ اللعبة من الولايات المتحدة؛ إذ بالإضافة إلى بنوكها، أمسكت إلكترونياتها وسياراتها وصلبها ومصانع الآلات فيها، بزمام القيادة في الأسواق العالمية الأساسية، ولكن حدث في "اتفاق بلزا" عام ١٩٨٥ (فندق بلزا بنيويورك، حيث اختتم الاتفاق) أن أقنعت الولايات المتحدة، اليابان، بإعادة تقييم الين، وإدخال سلسلة من الأحداث المتلاحقة التي أنتجت في النهاية الفقاعة اليابانية عام ١٩٩٢. ذلك جنبا إلى جنب مع نهاية الحرب الباردة، والصعود البراق لأسواق الأوراق المالية الأمريكية في التسعينيات؛ مما حدا بأي شك فيمن كانت اللعبة لعبته، إن النزاع الذي أثاره فوكوياما بمقولته عن نهاية التاريخ التي ربطتها الديمقراطية الليبرالية بالسوق الرأسمالي - قد برهن أنها ذاتها هي النموذج الوطني الذي قدم نتيجة طبيعية هامة: إن الشكل الأمريكي للسوق الرأسمالي هو تحديدا الذي يمكن أن يخدم كمثال يمكن أن يتجاهله الآخرون فقط، عندما يحيق بهم الخطر، إن الغرض الطاغى للشركة، في هذا النموذج، هو الوصول بعوائد حملة الأسهم إلى أقصى حد، إن مصالح الإدارة، تقف جنبا إلى جنب، مع تلك التي لحملة الأسهم عبر منح سخية لخيارات الأوراق المالية، التي ترفع مكافأة الإدارة إلى أكثر من ٤٠٠ ضعف عمال الإنتاج (مقارنة بـ ٤٠ ضعفا عام ١٩٨٠)؛ ذلك لأن المديرين الكبار هم نظراء كبار نجوم الرياضة في عالم العمل^(٢٥)، إن دور الحكومة هو إلغاء القيود والقواعد المنظمة، والخصخصة، وإفساح الطريق. وفوق كل شيء يُنظر إلى السوق الحر غير المقيد باعتباره أفضل موزع للموارد، ووسيلة للتنمية.

وقد حقق هذا النموذج، نموا إنتاجيا قدر بـ ٢٢٪. وبدا أنه قد أبطل دورة عمل التسعينيات، وأمد "إجماع واشنطن" السابق ذكره، بدعم قوى، ظهر كوجهة نظر مهيمنة، لأفضل طريق لثراء البلدان النامية. يجب على البلدان النامية أن تفتح من هذا المنظور أسواقها للتجارة الحرة، وتحرر أنظمتها المالية لتشجع التدفق الحر

لرأسمالها، وتخصص وتلغى القيود والقواعد المنظمة، وتحافظ على مستويات عالية من الادخار والاستثمار، وتبقى على أسعار الصرف مستقرة حتى يمكن جذب الاستثمار الأجنبي، وعندما ثارت الأزمات، مثل تلك التي حدثت في آسيا عام ١٩٩٧، فإن رد فعل صندوق النقد الدولي الغريزي الأول، كان محاولة الحفاظ على قيمة العملة بغرض التقشف، وأسعار صرف عالية، كشرط لمنح قروض طوارئ، وبعيدا عن توفير الاستقرار للنظام، فإن صندوق النقد الدولي، غدا الواضع لوجهات النظر المتشددة لـ "إجماع واشنطن"، موضع التنفيذ، وغدت العولة تعنى بوضوح الأمركة، وما الذى كان خطأ فى ذلك؟ وقد كتب فريدمان عام ١٩٩٦ أن البلدان التي كانت لديها مطاعم مك دونالد- لم تتحارب البتة^(٢٦)، (هذا بالطبع لم يعد صحيحا)، إن العولة باعتبارها الأمركة كان المفروض فيها أن تقود إلى معايير صاعدة تؤدي إلى الديمقراطية، التي يجب أن تقود إلى السلم والاستقرار الكونيين.

رد فعل معاكس قوى

حدث فى سياتل، خلال أسبوع ٢٩ نوفمبر ١٩٩٩، عدة أشياء، غير أن السلم والاستقرار لم يكونا من بينها، وقفت فى "سبرينج ستريت" منفعلا إلى حد الاختناق من الغاز المسيل للدموع، وأنا أراقب المحتجين ضد العولة يحطمون نوافذ الحوانيت، ويويخون الشرطة بطريقة ساخرة، كان أغلب وزراء التجارة فى تلك الأثناء يحتشدون فى اتفاقية سياتل، والمركز التجارى، يحاولون عقد دورة جديدة من محادثات التجارة الدولية، كان هذا هو الاجتماع الأول الكبير لـ "منظمة التجارة العالمية" (دبليو تى إيه)، التي أنشئت خلفا للجات فى نهاية الجولة الأخيرة للمحادثات التجارية عام ١٩٩٤.

كان عدد قليل فقط من المتحمسين يعرفون، عندما كانت تجرى محادثات تجارية، غير أن العولة غدت موضوعا هاما، حتى إن حوالى ٥٠٠٠٠٠ محتج

اتجهوا إلى نقطة واحدة بمناسبة هذا الاجتماع، ليعبروا عن همومهم، مر أمامي حشد يأس من حلفاء غير واعدين، عمال يتسمون بالفظاظة من أحواض السفن، وقرب مصانع البوينج، يصرخون "سائقو الشاحنات يحبون السلاحف"، والمدافعون عن البيئة يرتدون أردية جماعة "أنقذوا السلاحف"، وطلبة الكليات الذين يبحثون عن قضية التحقوا بيساريين محترفين في إدانة استغلال الشركات، حتى عندما فضحت أحذيتهم "النايكي" (*) انتماهم، وكان هنالك على الجانب الآخر ممثلو البلدان النامية الذين يشكون من أن الكونى يميل بطريقة جائرة صوب خدمة مصالح الدول المتطورة، وقد قال وزير تجارة من العالم الثالث فى مرارة: إنه والكثيرون من زملائه لم يستطيعوا حتى أن يدخلوا فى غالبية دورات المفاوضات، وقد أخفق الاجتماع، فى النهاية، فيما يتعلق بموضوع الدعم الغذائى فى البلدان المتطورة، غير أن ذلك الإخفاق لم يحدث إلا بعد أن جعل الاجتماع العالم يتنبه إلى أن الطريق إلى العولة قد يكون صخورا للغاية.

ورغم أن هنالك تفكيراً واسعاً يقول: إن البلدان المتطورة هى أكثر المستفيدين بالعولة، فإن بعضاً من المعارضين لها يجيء من التنظيمات العمالية، إن النقابات العمالية ترى فى العولة ما يهدد مكاسبها التى تحققت بنضال صلب، وذلك لتمكين الرأسمالية من التهرب من القواعد والمؤسسات التى أنشأتها الحكومات الوطنية، عبر السنين، لترويضها، إن حقيقة إمكان استفادة بلد ما من العولة، بمعنى عام، لا يعنى أنه ليس هنالك خاسرون. ومثال ذلك، واردات الملابس الرخيصة إلى الولايات المتحدة تشكل هبة للمستهلكين وللإقتصاد الكلى، إلا أنها تجيء على حساب عمال الولايات المتحدة فى صناعة الملابس، إنهن إلى حد كبير نساء، يشكلن أقلية مثل ماريا كونسيلو جارسيا، الذى فقدت عملها الذى تحصل منه على ٤,٧٥ دولار

(*) الهة النصر عند الإغريق (المترجم).

فى الساعة، بعد خمسة عشر عاما من حياكة جينز بولو^(٥) فى مصنع الشمس للملبوسات فى الباسو، تكساس، عندما أعلنت الشركة أنها سوف تنقل الكثير من العمل إلى المكسيك؛ حيث يدفع للخياطات حوالى دولار واحد للساعة، ورغم أن المستهلكين الأمريكيين يستفيدون من الانتقال، فإنه لا توجد وسيلة فعالة لدى الولايات المتحدة لتعويض النساء مثل ماريا لخسارتهم وظائفهم، فإنه ليس مثيرا للدهشة أنها وزملاؤها ونقابتهن لسن من قادة الهتاف للعولة، إن الحقيقة التى تثير الحنق، بشكل خاص، إن تلك الوظائف غالبا ما تذهب إلى أماكن مثل مصنع كين شى فى الصين؛ حيث تقوم "لجنة العمل الوطنية" بإيجاد حراس يضربون العمال إن تأخروا فى تجهيز حقائب يد "كاتى لى جيفورد" من أجل "وال مارت"^(٢٧). ومن ثم، فإن العمل فى البلدان المتقدمة يتطلب تعويضا عن تكاليف العولة، ودمج حقوق العمل فى اتفاقيات التجارة الدولية.

ويرى أنصار البيئة فى العولة، مثلهم مثل العمال عودة إلى حقبة الرأسمالية الظالمة، إنهم يخشون أن يؤدى الضغط العنيد من أجل تخفيض التكاليف إلى انتقال الإنتاج، بصورة لا مفر منها، إلى مناطق غير منضبطة بيئيا، إن هذا الخوف غير مبرر، لقد شاركت فى كثير من الحالات التى كان فيها قرار موقع المصنع متأثرا، إلى حد ما، بطبيعة النظم البيئية، ووضعها موضع التنفيذ، ذكر بعض المحللين أن النمو الصينى الذى يقوده التصدير جاء على حساب تدنى بيئى يعادل ٨ إلى ١٢٪ من الناتج المحلى الإجمالى للصين^(٢٨)، وقطع الأشجار الاستوائية فى أندونيسيا بمساحة تصل إلى حجم كونيكتيكت كل عام من أجل تغذية صناعة أرضيات الحجرات والأثاث، وأدوات الكتابة من ورق وأقلام للمكاتب، فى أسواق اليابان والصين والولايات المتحدة وأوروبا، إن هذه التجارة غير الشرعية بنسبة ٨٠٪ سوف تجتث كليا غابات أراضى سومطرة

(٥) بنظولونات الجينز (المترجم).

المنخفضة، جنباً إلى جنب مع الأورانجوتان والنمر السومطريين، في خلال السنوات العشر القادمة^(٢٩)، وفي البرازيل تتلاشى غابات خشب الماهوجنى لأسباب مماثلة، ثم إن هناك السلاحف ومخزون الأسماك، التي طبقاً لما يقوله علماء البحار - يعاني بالفعل انهياراً أساسياً على امتداد العالم نتيجة دعم صيد السمك الجائر^(٣٠). وبينما الجهود الطوعية مثل "الميثاق الكونى" الذي تسانده الأمم المتحدة أو الذى حقق تقدماً فى جعل شركات متعددة الجنسيات تصادق على المبادئ البيئية، فإن المدافعين عن البيئة يظلون متشائمين فى مواجهة تعليقات مثل تلك التى للرئيس بوش الأول، الذى قال قبل "قمة الأرض" فى ريو دي جانيرو عام ١٩٩٢: "إن طريقة حياة الأمريكين ليست مطروحة للتفاوض"، وقرار ابنه بقاء الولايات المتحدة خارج اتفاقية كيوتو حول الاحتباس الحرارى الكونى؛ لأنه "سوف يكون ضاراً باقتصاد الولايات المتحدة"، الذى أكد فقط للمدافعين عن البيئة وجهة النظر القائلة بأن العولة تحتاج أن تُغير بطريقة عنيفة^(٣١).

لقد فقدت الشيوعية والاشتراكية الآن طابعهما المميز، بالنسبة ليسار المحترف وطلبة الكليات الذين يبحثون عن قضية، وأصبح العداء للعولة مجرد سبيل آخر لمهاجمة نفس الهدف الرأسمالى، هناك عامل آخر هو عنصر التجانس النظامى الذى يسبب الحنق والاستياء، وهو كذلك - فى الغالب - نتيجة الخضوع المتأرجح للإغراء، إن بامبانج راشمادى يعرف الكثير عن هذا، إنه مالك لـ ٨٥ مطعمًا من مطاعم مكدونالد المنتشرة عبر أندونيسيا، لقد وضع سريعاً، فى أعقاب ١١ سبتمبر، لافتات تقول: "بسم الله الرحمن الرحيم، إن ماكدونالد أندونيسيا مملوك لمسلم محلى"، ويؤمن السيد بامبانج أن مطاعمه مفيدة لأندونيسيا، لكنه يعرف أيضاً أنها ترمز إلى تغيير فى نمط حياة مستقر يمكن التنبؤ به، وهناك الكثير من الحنين إليه^(٣٢). يضاف إلى هذا الإحساس بالفقدان، إحساس من قبل عديدين بأن ذلك التغيير يحدث بطريقة غير ديمقراطية للغاية. وكما يقول أستاذ الاقتصاد الهندى كاوشيك باسو: إن العولة تعنى أن إجمالى الديمقراطية الكونية يتقلص حتى لو أصبحت بلدان بمفردها أكثر ديمقراطية؛ حيث

مارست الشعوب والأمم نفوذا غير متماثل في ظل العولمة^(٣٣)، إن كوريا مثلا كانت فرصتها في الاختيار قليلة، خلال الأزمات المالية لعام ١٩٩٧، لكنها حتى تقبل برنامج الإنقاذ الماكر من الولايات المتحدة، فتحت قطاعها المصرفي كي تمتلك البنوك الأجنبية، إن لدى البلدان الفقيرة والبلدان الصغيرة القليل الذي تقوله عن شروط العولمة، التي اجتثت حريتهم في الاختيار بصورة متزايدة.

إن المشكلة الأكبر ببساطة هي أن العديدين لا يرون القيادة الأمريكية للعولمة، باعتبارها تعمل من أجلهم، وبينما رفعت العديد من بلدان شرق آسيا والباسفيكي، بما في ذلك الصين الأكثر حداثة، مستويات معيشتها، خلال الخمسة عشر عاما الماضية، فإن أكثر بقية العالم النامي لم تفعل ذلك. إن الناتج المحلي الإجمالي للفرد في الشرق الأوسط، وشمال إفريقيا، وأمريكا اللاتينية قد نما فقط بحوالى ١٠ ٪ في السنة، وفي جنوب الصحراء الإفريقية ووسط وشرق أوروبا ووسط آسيا فإن الناتج المحلي الإجمالي للفرد قد تقلص بالفعل^(٣٤)، وبينما يعود قدر كبير من هذا الفشل إلى السياسات المحلية غير الملائمة، وإلى افتقاد الانفتاح على الخارج، فإن العولمة لعبت دوراً أيضاً.

يضاف إلى ذلك أن بعض البلدان الهامة يصيبها الفشل رغم اتباع الظاهر لنظام العولمة كما يؤمر به، خذ المكسيك مثالا على ذلك، إن نتيجة اتفاقية النافتا هو مجيء المكسيك كلية داخل الاقتصاد العالمي، مع إنقاص للحواجز التجارية، وأسواق مالية مفتوحة، والاتصاق الكلي بإجراءات مثل حماية الملكية الفكرية، التي يُظن أنها تجذب الاستثمار الأجنبي، وغدت المكسيك ديمقراطية أيضا بعد واحد وسبعين عاما من حكم الحزب الواحد، ليس للنافتا بالطبع شروط لبناء البنية التحتية أو تمويل خاص للتنمية أو سهولة حركة العمال مثلما فعل الاتحاد الأوروبي، بطريقة نموذجية، عندما أدخل بلدانا أقل تطورا في الاتحاد الأوروبي، غير أن إيمان أمريكا بالحلول التي تقدمها السوق الحرة جعلت تلك الحلول تبدو أكثر تكلفة ولا ضرورة لها، وحفزت النافتا من ناحية أخرى زيادات درامية في صادرات المكسيك، وفي الاستثمار الأجنبي في

المكسيك، فقد زادت الصادرات المكسيكية ما بين عامى ١٩٩١ و ٢٠٠١، ١٢٠ مليون دولار. وزاد الاستثمار الأجنبى المباشر (إف دى آى) ب ١٦ مليار دولار، ومع ذلك فإن قليلين فى المكسيك هم الذين أحسوا بأنهم أفضل حالا، فبعد عشرين سنة من إصلاحات السوق الحرة، وعشرة أعوام من النافتا فإن ٥٠٪ من المكسيكيين يعيشون على حوالى أربعة دولارات لليوم الواحد^(٢٥)، عندما عملت فى المكسيك، فى السبعينيات، كان يمكن اعتبار حوالى ٦٠٪ من السكان طبقة وسطى وعمالاً، اليوم النسبة هى ٣٥٪، وهى فى هبوط، هناك مشكلة كبرى، من بين مشاكل محلية كثيرة - هى أن الوظائف تغادر المكسيك؛ لأن المصانع تغلق، وتنتقل إلى بلدان تكاليفها العمالية أقل، وقد نقص "كالاداي جوف كلوب"، فى صيف عام ٢٠٠٢، مثلاً، عمالته المكسيكية إلى النصف، عندما نقل إنتاجه إلى الصين^(٣٦)، وفشل ذلك فيما بعد، وقابلت ماير زاجا وهو واحد ممن يقودون صناعة المنسوجات المكسيكية فأخبرنى أنه من الصعب للغاية منافسة المنسوجات الصينية المستوردة فى السوق المكسيكى.

والبرازيل مثال آخر. ضُغط عليها كى تمقرط سياساتها، وتعلم أسواقها، وعانت من أزمة اقتصادية وسط انتخاباتها الرئاسية فى خريف عام ٢٠٠٢؛ حيث سحب المستثمرون الأجانب أموالهم خشية نجاح المرشح اليسارى، لويس إيناسيو، "لولا دى سيلفا"، وتكرهه لالتزامات الدين، وكما قال لى روبنز باربوسا سفير البرازيل فى واشنطن فى وقت ما، "لا يبدو أنه من العدل أن تطلب منا دفع ثمن لنجرى انتخابات ديمقراطية، والأسوأ أن تجعل من الصعب علينا كسب نقود لنسد التزاماتنا، بإقامة حواجز تجارية ضد نصف منتجاتنا اننى نريد بيعها لكم: فول الصويا، السكر، عصير البرتقال والصلب".

إن موضوع الحواجز هذه والقيود الضارة، لها صدى فى أماكن كثيرة، الباكستان تشعر بالمرارة؛ لأن الولايات المتحدة قدمت زيادة رمزية فى الحصص المحدودة التى وضعتها لواردات المنسوجات الباكستانية، رغم دعمها القوى لها فى أعقاب ١١ سبتمبر، وقد اشتكت نيوزيلندا وأستراليا والفلبين من القيود الصارمة على واردات

الولايات المتحدة الزراعية، وتجيء شكاوى مختلفة من إفريقيا والهند؛ حيث للإيدز تأثير مدمر، ورغم وجود العقاقير واستخدامها في البلدان الغريبة الثرية، ليتمكن مرضى الإيدز من ممارسة حياة إنتاجية مع المرض، فإنها غالية الثمن للغاية بالنسبة للعالم النامي، المشكلة هنا أن قواعد منظمة التجارة العالمية، التي تحمي براءات الاختراع جعلت من المستحيل على منتجي العقاقير الجنسية في البلدان النامية عرض الأدوية بأسعار رخيصة، والنتيجة أن البعض في تلك البلدان يرى في العولة فعليا سببا كبيرا للموت.

ويمكن وراء هذه الشكاوى - على أى حال - موضوع أشد عمقا عن صحة نظرية العولة، وقد قال لى جورج سوروس منذ زمن قريب: "إن الحكمة التقليدية تعتبر أن الأسواق دوما على صواب، ولكن من خبرتي فإنها في الغالب الأعم، على خطأ، رغم أنها تستطيع تصحيح نفسها"، إن مشكلة الصين مع المكسيك تقدم مثالا معبرا، إن عقيدة العولة ترى أن البلدان لو فتحت أسواقها للتدفق الحر للسلع والنقود، وخصصت، وأبطلت القيود والقواعد المنظمة، ووضعت قاعدة قانونية صارمة، وصانت الشفافية، ومارست حصافة مالية ونقدية، فإن العالم سوف ينجى متزاحما على أبوابها، إن الصين في الحقيقة تمتص نصيب الأسد من الاستثمار الأجنبي المباشر؛ حيث يحتشد منتجو العالم على شواطئها، وليس عند الصين، حتى الآن، قاعدة قانونية، وقليل من الشافافية، مثقلة بالإجراءات المنظمة، ولديها نظام مصرفي هو الثاني فقط، بعد اليابان في الهشاشة، إن الحقيقة، كما لاحظ البنك الدولي تكمن في "معجزة شرق آسيا: النمو الاقتصادي والسياسة العامة"، المعادلة التي اتبعتها البلدان الآسيوية، وفي طليعتها اليابان، معادلة تحمل شبها قليلا للعقائد المعيارية للعولة، إنها تطالب بمعدلات ادخار عالية جبرية (سنغافورة مثلا تحجز قرابة نصف الحساب الذي يدفع العامل، لصندوق ادخاره)، ووضع حد للاستهلاك المحلي، وشروط على الاستثمار الأجنبي المباشر بنقل التكنولوجيا، والتدخل الحكومي في توزيع رأس المال، وحماية غالبية الأسواق المحلية والتأكيد على التصدير، باعتباره قائد النمو.

ومع ذلك، فهناك شك حتى فى إمكان نجاح هذه المعادلة فى وجه ظاهرة الصين. فى الماضى، كان النموذج الذى يحتذى هو البدء بصناعة منتجات كثيفة العمالة مثل الملابس، ثم التحرك صعوداً على السلم إلى صناعة أكثر تطوراً، لكن فى وسع الصين إنتاج الأقل والأعلى، وهى فى الحالتين المنتج الأقل تكلفة، إن هذا يترك مكاناً ضئيلاً للبلدان النامية الأخرى.

العمل على نجاحها

إن العولة يدفعها تقلص مكان وزمان التكنولوجيا، مسألة لا يمكن وقفها، وهى قد غدت تعويذة مقدسة، ومع ذلك فإن هذا قد قيل من قبل، فقد كتب أنجل نورمان عام ١٩١٠ "الوهم الكبير"، وهو كتاب نادى بأن تكون الحرب شيئاً من الماضى؛ لأن الاقتصاد العالمى كان مندمجاً إلى حد كبير فى ذلك الوقت، واقتضى الأمر أكثر من ستين عاماً بعد نهاية الحرب العالمية الأولى؛ ليعيد العالم اكتساب مستوى العولة الذى كان قد تمتع به عام ١٩١١. وحتى تنجح العولة هذه المرة، يجب مخاطبة الشكاوى والمسائل الاقتصادية التى ذكرتها سابقاً، بأسلوب عملى وغير أيديولوجى، إن الدعوة إلى التجارة الحرة والانفتاح لا تكفى، إن الناس لا تكره العولة التى تقودها أمريكا فى ذاتها، إن مئات الملايين، إن لم تكن البلايين، تحبها فى الحقيقة، ولكن إن كان على ذلك أن يدوم، فإنه يجب أن تنشر القوائد وبصورة عريضة ومتساوية، بينما تكون حساسة للحاجيات الاجتماعية والسياسية للعديد فى المجتمعات المختلفة.

الفصل الرابع

الركض وراء باطل

اثنتا عشرة ياردة طولاً وزقاقان اتساعاً

وخمسة وستون طناً من الزهو الأمريكى

كانيو نيرو، كانيو نيرو

- ذى سيمبسونس

(محاكاة ساخرة لإعلان عن سيارات الدفع الرباعى)

كان الحدث الإخبارى الرئيسى فى صحافة اليوم والبرامج الإذاعية والتلفازية، ١ مارس ٢٠٠٢ هو أفغانستان، لقد خُلعت طالبان، والمطاردة تجرى للإمساك بأسامة بن لادن فى فكى مصيدة عملاقة، تُعرف باسم "عملية أناكوندا"، والتي انطلقت فى جبال تورا بورا المكالحة، وشغلت حوالى نصف الصفحة الأمامية من الواشنطنجتون بوست، صورة تبين القصف الكثيف للحواجز الدفاعية للجبل، جنباً إلى جنب مع قصة عن تفاصيل تقدم العملية، والإشارة إلى أن الإصابات التى حلت بالأمريكيين يصل إجمالى حجمها، بصورة ما، إلى ثمان وخمسين حالة، كانت قصة أخبار هامة ومثيرة ويلزم قراءتها.

وكانت هنالك مقالة أخرى أقل لفتاً للأنظار، فى الصفحة أ ١٢، حول حديث مجلس الشيوخ هذا الأسبوع عن تطبيق رسوم على استهلاك الجازولين طبقاً لسرعة

السير بالميل على سيارات الدفع الرباعي (إس يو في)، لقد أدخلت هذه الرسوم على السيارات عام ١٩٧٥، بعد الصدمات النفطية لعامي ١٩٧٣ - ١٩٧٤، عندما كان متوسط سرعة السيارات في الولايات المتحدة هو ١٣ ميلا للجالون الواحد من الغاز، وقد عُرِفَت تلك بمعايير "كافية"، التي اقتضت أن تكون سرعة سيارات الركاب الجديدة، التي ينتجها صناع الولايات المتحدة، تحقق متوسطا اقتصاديا للوقود قدره ٢٧,٥ ميلا للجالون الواحد عام ١٩٧٩^(١).

وكانت النتيجة الرئيسية درامية، ففي غضون سبع سنوات ارتفع متوسط سرعة السير بالميل من ١٣ ميلا للجالون الواحد، إلى ٢٥,١ ميلا للجالون الواحد، وبلغ هذا المتوسط ذروة ٢٦,٢ ميلا للجالون الواحد عام ١٩٨٧^(٢)، ومنذ ذلك الحين غدت سيارات الدفع الرباعي والشاحنات الخفيفة شعبية للغاية، كعربات يومية الاستعمال للعائلات، حتى تجاوز عددها عام ٢٠٠٢ أكثر من العدد الكلي للعربات المبيعة، وبينما كان ذلك مريحا للغاية لمنتجي السيارات، الذين حققوا أرباحا من سيارات الدفع الرباعي والشاحنات أعلى بكثير من تلك التي حققتها السيارات الأخرى، فقد لعب هذا التغير في السبوق دوراً مدمرا بالنسبة لاقتصاد الوقود، كان متوسط سرعة السير بالميل عند استخدام الغاز للعربات الجديدة، وقت أن تناول مجلس الشيوخ الأمر قد انحدر إلى ٢٤,٠ ميلا للجالون الواحد، وكان استهلاك الجازولين الأمريكي وواردات النفط تخلق عاليا، كان مجلس الشيوخ، في محاولة منه لتصويب هذه الحالة، ينظر بعين الاعتبار في مشروع يمد تطبيق المعايير من السيارات العادية إلى سيارات الدفع الرباعي، بغرض زيادة السرعة الكلية على أسناس الميل بمقدار ثلاثة أميال، أي إلى حوالي ما كانت عليه عام ١٩٨٧^(٣).

وقد اقتبست مقالة "البوست"، مقولة ترنت لوت، زعيم الأغلبية بمجلس الشيوخ، بأن زيادة المعايير لن يكون مقبولا؛ لأن هذه ما تزال أمريكا، وإن حدث، فإنه لن يتمكن، بعد ذلك، من أخذ أحفاده في جولة بالسيارة حول المزرعة^(٤)، هذه مسألة يمكن أن تمزق قلب كل أمريكي، ما لم يكن قد جرى تضخيمها دون حياء، ومع ذلك يبدو أن

لا أحد قد رأى العلاقة بين تعقيبات لوت، وقصة عملية أنا كوندرا، الموجودة على الصفحة الأولى، كم عدد الحيوانات التي نود دفعها من أجل برميل واحد من النفط، ودورة سريعة حول المزرعة في سيارة دفع رباعي؟ ذلك، سؤال ظالم بالطبع، إلا أنه من الصعب تجنب النتيجة التي يعتقد بها لوت، وهي وجوب أن يكون الغاز رخيصا؛ لأن هذه هي أمريكا، وأن للأمريكيين الحق في جعل سعر الغاز رخيصا. وحيث إن التكاليف المادية والبشرية لعملية الأنا كوندرا هي نتيجة جزئية لهذه العاطفة، فإنه يبقى عليها مخفية بصورة جيدة.

إن المرء يرى أعدادا قليلة من سيارات الدفع الرباعي في لندن، أو باقي أوروبا واليابان، إن ذلك يرجع إلى سبب رئيسي هو أن الجازولين يباع في كل تلك الأماكن من المضخة بسعر يتراوح من ٣,٩٧ دولار للجالون (في اليابان) و٤,٦٦ دولار (في المملكة المتحدة)^(٥). إنه أعلى سعر فيما قبل الضريبة، ١,٢ دولار للجالون الواحد، مقارنة بمتوسط حوالى ١,١ دولار في البلدان المتقدمة الأخرى^(٦). غير أن الولايات المتحدة تضيف حوالى ٣٨ سنتا ضرائب فقط، في حين يفرض باقى العالم المتطور ضريبة أكبر من تلك بستة أمثالها^(٧)، وليس هناك ما يثير الدهشة في أن أوروبا واليابان تنتج سيارات تقطع حوالى ٢٤,٠ ميلا للجالون الواحد - أو عشرة أميال، للجالون الواحد، أفضل من الولايات المتحدة^(٨)، ولو حصلت عربات الولايات المتحدة على ذات اقتصاد الوقود كما في أوروبا واليابان، لما احتاجت البتة إلى استيراد نفط الخليج الفارسي.

إن الفرق في فاعلية الطاقة لا يقف عند حد العربات والشاحنات؛ إذ يمكنك أنت السفر في القطار عالى السرعة، بعد التحسين الذى أدخله الأوروبيون على قطارات الطلقة اليابانية ذات السمعة الشهيرة، من بروكسل إلى باريس في حوالى ساعة وعشرين دقيقة، إن المسافة تكاد تكون مثل تلك التي بين واشنطن ونيويورك، ومع ذلك فإن هذا السفر يعادل تقريبا نصف طول "خط مترو امتراك"، ونتيجة ذلك أن أعدادا أكثر من الناس تأخذ القطار، بدلا من الطائرة، من باريس إلى بروكسل والعودة. إن

أوروبا بإقامتها نظاما للسكك الحديدية حديثا وعالى السرعة - قد خفضت بطريقة درامية من الحاجة إلى طاقة فاعلة للطيران، لحساب سكك حديدية فاعلة للغاية.

إن الجازولين، خارج الولايات المتحدة، أكثر تكلفة، وكذلك الكهرباء، وليس فى هذا ما يثير الدهشة، فاستخدام الكهرباء للفرد الواحد، داخل الولايات المتحدة، ضعف ذلك الذى فى اليابان، التى هى الثانى الأكثر استخداما^(٩)، إن اليابانيين قد شددوا فى الحقيقة بقوة، على فعالية الطاقة، حتى غدا فى وسعهم إنتاج ما قيمته دولار من إجمالى الناتج المحلى، بأقل من نصف طاقة الولايات المتحدة^(١٠)، إن اليابان بالطبع بلد صغير، ويقع غالبية شعبه وصناعته على شريط ضيق يمتد من طوكيو إلى أوساكا، ولذا فإن المسافات والتفاوتات أقل مما هى فى الولايات المتحدة، لكن الاتحاد الأوروبى منطقة كبيرة ذات اختلافات طقسية وطوبوغرافية كبيرة، وعدد سكان أكبر من ذلك الذى فى الولايات المتحدة، وإجمالى ناتج متماثل، مما يجعل القصة واحدة، وقد استخدم الأوروبيون ٢/٣ الطاقة التى استخدمها الأمريكيون فقط، من أجل تحقيق معادل للدولار من إجمالى الناتج المحلى^(١١)، كان فى إمكان أمريكا، لو كان لديها نفس فعالية الطاقة كما فى الاتحاد الأوروبى، ليس فقط أن تعمل دون واردات النفط من الخليج الفارسي، بل كان فى إمكانها أن تعمل دون حقبة واردات نفطية، إن هذا كان سيؤدى إلى خفض ١٠٠ مليار دولار سنويا من عجز الولايات المتحدة التجارى، ويوقف تدفق نقود الولايات المتحدة التى يعاد تدويرها خلال الدول المنتجة للبتروى فى الشرق الأوسط لتمول الإرهاب ولتنشر الإسلام الراديكالى، كما كان سيؤدى أيضا إلى خفض حاجة الولايات المتحدة للانتشار العسكرى فى الخليج الفارسى بصورة كبيرة، إن أعمال الانتشار تلك التى تتكلف ٦٠ مليار دولار سنويا، رفعت التكلفة الحقيقية لنفط الخليج إلى حوالى ٢٠٠ دولار للبرميل الواحد^(١٢)، إن الكثيرين من المراقبين فى أنحاء العالم يتساءلون: لماذا لا تكون أمريكا أكثر جدية فيما يتعلق بالطاقة خالصة فى نطاق مصالحها هى. إن السبب، كما سأشرح، له علاقة بحاسة وعى أمريكا لاستحقاقاتها، كما لذلك علاقة أيضا بحبنا للحرية الفردية، غير أن ثمن هذا

الاستقلال كان هو الاعتماد الذى جعلنا عرضة للهجوم، وقاد تعرضنا للهجوم بدوره إلى الحرب والتدمير والموت، وأخيرا إلى لمحة بحث عن الروح.

حق بكورية بوبا

إن التعريف النمطى لبوبا هو أنه شخص يحس أن الله منحه حق قيادة شاحنة خفيفة، على الطريق السريع، بسرعة ٨٠ ميلا فى الساعة، وقد فُتحت نوافذها وأداة تشغيل الـ سى دى، وهواء مكيف بأقصى طاقة، وعلبة جعة مفتوحة فى حجره، وبينما يُعتقد أنه رجل أبيض من الجنوب، فإن الناس من نوع البوبا يمكن العثور عليهم، فى الحقيقة، من كونيتيكت إلى كاليفورنيا، بين كل السلالات والجنسين، هنالك شىء ما من بوبا داخل كل منا نحن الأمريكين (لا أسرار البتة: فأنا نفسى أقود سيارة دفع رباعى)، دع جانباً للحظة الأمور غير الأساسية التى تتكرر بلا تغيير - الموسيقى، علبة البيرة، الكلب الكبير فى مقعد الراكب، بندقية الصيد فى حامل البندقية وراء النافذة الخلفية، والمصقات الوطنية - انتبه للسيارة المفرطة فى التزود بالطاقة، المفرطة فى التزود بالكماليات (والتي توفرها الصناعة الأمريكية فى غالب الأحوال) والطريق (الذى جهزته الحكومة الأمريكية، والإحساس بالاستحقاق (الذى يزود به التاريخ الأمريكى). من أين جاءت تلك الأشياء، وإلى أين تأخذنا؟

إننا غالبا ما نرسم لأمريكا صورة بلد بدأ فقيرا، وأنه بعمله الشاق والمغامرة جعل نفسه الدولة الأكثر تطورا بين الدول، والحقيقة - على أى حال - أن أمريكا كانت ثرية منذ البداية تقريبا. كانت تكنولوجيا أوروبا، فى القرن السابع عشر، متاحة تماما لمستوطنى "العالم الجديد" كانت موارد الطاقة فى ذلك الوقت هى، فى المقام الأول، الأخشاب والرياح والمياه بشكل خاص، ولم يكن هنالك فى أى مكان أخشاب ورياح ومياه أكثر من تلك التى فى المستعمرات الجديدة، لقد اكتشف الحجاج ومستوطنون

آخرون العربية السعودية التي كانت فى زمانهم؛ حيث كان لدى السعودية أكبر احتياطات الطاقة وأقلها تكلفة فى تلك الأيام، وهذا ما فعلته أيضا أمريكا الشمالية فى ذلك الوقت؛ لذا، فإن الأمة تمتعت، منذ ميلادها بطاقة رخيصة، وجاءت أجيال المستقبل لتستهلكها باعتبارها حق بكوريتها.

عندما ارتبط المستوطنون بالأساليب الفنية والأدوات التى أحضروها معهم من أوروبا، أمدت هذه الطاقة الرخيصة الوفيرة نموا اقتصاديا، بقدرة متدفقة؛ مما يمكن مستويات المعيشة أن تكون فى سُرعة ندا لتلك التى فى العالم القديم، أو تزيد عنها، كانت الولايات المتحدة عام ١٨٢٠ أغنى رابع بلد فى العالم، ذات إجمالى ناتج محلى قدره ١,٢٥٧ دولار (بدولار عام ١٩٩٠) للفرد الواحد، كان ترتيبها يجرى فقط بعد الأراضى الواطنة التى كان نصيب الفرد فيها ١,٨٢١ دولار، والمملكة المتحدة ١,٧٠٧ دولار، وبلجيكا ١,٣١٩ دولار، كانت فرنسا مثل الولايات المتحدة تقريبا، بينما كانت ألمانيا وإيطاليا إلى وراء عند حوالى ١,١٠٠ دولار، وكانت اليابان حوالى نصف مستوى الولايات المتحدة، وكانت الولايات المتحدة هى الثالثة فى متوسط العمر عند ٣٩ سنة، وهى تجىء تالية لألمانيا ٤١ سنة، والمملكة المتحدة ٤٠ سنة^(١٣).

وتقدم القرن التاسع عشر والثورة الصناعية معا، وتحولت مصادر الطاقة العالمية من الأخشاب والرياح والمياه إلى حقبة جديدة من البخار والفحم وزيت الحوت، ومرة أخرى، كانت الولايات المتحدة هى العربية السعودية لذلك الزمان، ارتفع إنتاج الولايات المتحدة من مستويات لا تستحق الذكر عام ١٨٢٠ إلى ٢٠٠ مليون طن متري تقريباً عام ١٩٠٠^(١٤)، وبلغ أسطول صيد الحيتان، الذى بدأ فى نيويورك فوردماساشوسيتس عام ١٧٥٥ ذروة قدرها ٣٢٩ سفينة عام ١٨٥٧^(١٥)، كانت هذه الطاقة الرخيصة والوفيرة عاملا كبيرا فى منح اقتصاد الولايات المتحدة، فى منتصف القرن الثامن عشر، أسرع معدل نمو بين اقتصاديات العالم الكبرى، وصعدت عام ١٨٧٠ إلى أكثر

من ضعف مستويات معيشتها عبر الأربعين سنة التالية؛ لتحل أعلى موقع فى إجمالى الناتج المحلى للفرد^(١٦)، وسوف يقدم ما تم العثور عليه، منذ سنوات قليلة سابقة، فى أويل كريك^(*) قرب تيتوسفيل، بنسلفانيا، المساعدة لارتفاع هذا المستوى فى المعيشة بصورة كبيرة.

كان قد تم تسجيل تسرب مادة سوداء لزجة من الأرض فى مملكة ما بين النهرين، منذ زمن بعيد يصل إلى ٣٠٠٠ عام قبل الميلاد، لقد عثر عليه مصادفة إلى جوار الفرات، غير بعيد عن بابل وبغداد اليوم، وعُرف باسم البيتيومين (القار)، والذي استخدم فى البناء كملاط حوائط فى أريحا وبابل، وهناك احتمال كبير فى استخدامه لتغطية ألواح فلك نوح، وسلّة موسى، حتى لا ينفذ الماء منها أو يؤثر فيها، كما استخدم أيضا لإنشاء الطرق، والإضاءة، والدواء، وبالطبع الحرب، وقد كتب هوميروس فى الإلياذة أن أهل طرواة كانوا يطلقون لها على سفن اليونانيين لا ينطفئ، واستخدم الفرس النار فى غزواتهم، واستخدم البيزنطيون النيران اليونانية، وهى خليط من البيتيومين والجير، الذى يظل مشتعلا حتى إن تلامس مع الماء، ونُسى البترول وتطبيقاته فى الغرب إلى حد كبير بعد سقوط روما، واستخدم فى خمسينيات القرن التاسع عشر، الكيوسين المستخرج من النفط الخام الذى عثر عليه فى جاليسيا ورومانيا للإضاءة فى فيينا، وأُدخل فى حينه إلى الولايات المتحدة.

كان هذا التطور هو الذى جعل النفط المتسرب ينطلق فى نافورات وأبار ملح حول أويل كريك؛ الأمر الذى كان مثيرا للغاية بالنسبة لحام من نيويورك، هو جورج بيسل ومجموعة صغيرة من المستثمرين كان قد جمعهم، كان النفط الذى يغطى سطح الخليج (كريك) يجمع، لفترة من الزمن، كما تجمع القشدة، أو بخرق تُنقع فى المياه المشبعة بالنفط ثم يتم عصرها، ومن ثم، فإن القدر القليل من النفط الذى يُجمع استخدم فى

(*) خليج النفط (المترجم).

غالب الأحوال فى صناعة الأدوية، غير أن مجموعة بيسل رأت مستقبلها فى بيعه منافسا للكبروسين وزيت الحوت لاستخدامه فى المصابيح، إن الجمع كالقشدة والنقع لم يستطيعا - على أى حال - إنتاج الحجم من المنتج الذى يتصورونه للبيع على وجه التقريب، كما لم تكن للحفر قدرة على تحقيق ذلك، وحتى يمكن الوصول إلى مصدر النفط اقتصاديا قرروا تبنى الأساليب الفنية المستخدمة، حينذاك، فى حفر آبار الملح. وابتدأ العمل فى ربيع ١٨٥٨، وبعد عام من العمل المرهق لم يكن هناك على الإطلاق ما يبشر بوجوده، وتنامى اليأس، وواصلت المجموعة العمل بقوة عبر الصيف حتى أغسطس، وبعث المستثمرون، عندما بدأت النقود فى النفاذ، بطلبية النقود النهائية إلى الكولونيل أ.ل. دريك المشرف على الحفر، ومعها تعليمات بإيقاف العمليات، ووقع الحفر فى صدع، بعد ظهر يوم السبت ٢٧ أغسطس عام ١٨٥٩، ولم يكن دريك قد تسلم الخطاب بعد، كان العمل متوقفا بمناسبة الراحة الأسبوعية، وجاء يوم الاثنين، والخطاب لم يجرى بعد، ووصل دريك إلى الموقع ليجد الحفارين يقفزون فوق أنابيب وبراميل مليئة بسائل أسود، ولا ح فجر عصر النفط^(١٧).

كان امتداد الطاقة الأمريكية "بوانزا" غير واضح فى البداية، كانت الصناعة لربيع قرن مضى هشة، غامضة، وتعتمد اعتمادا كليا على حقول نفط بنسيفانيا، وحذر جيولوجيو ولاية بنسيفانيا عام ١٨٨٥ من أن النفط كان "ظاهرة مؤقتة تتلاشى"، وأصاب القلق واحدا من القمم التنفيذية فى شركة ستاندار أويل فباع بعضا من أنصبته فى الشركة بتخفيض قدره ٢٥٪، ومضت فترة على فعلته هذه حتى تم اكتشاف نفط جديد فى ليما وأوهيو، فى حقل نفط يمتد على حدود أوهيو - أنديانا، وكان هذا الحقل جيد الإنتاج، حتى إن إنتاجه بلغ ثلثى الإنتاج الكلى للولايات المتحدة عام ١٩٨٠.

واختفى خلال الستين سنة التالية، كل ما كان ماثرا من قلق حول وجود إمدادات كافية، وذلك بعد اكتشاف المزيد من حقول البترول العملاقة، وفى عام ١٨٨٢ بدا مواطنو المدينة الصغيرة كورسيكانا، تكساس حفر آبار جديدة ليزيدوا من ما يحتاجون

إليه من مياه كانت تتضاغل، فوجدوا - على أى حال - بدل الماء نفطا، كان هذا مجرد مقدمة، وفى خريف ١٩٠٠، بدأ الحفر على قمة تل ملح مخروطى قرب بيومونت، تكساس، يدعى سبيندل توب، وفى عيد الكريسماس ظهر بعض النفط، وقُدِّر أن البئر يمكن أن ينتج خمسين برميلا فى اليوم، لم يكن ذلك بالشئ السيئ، لكنه لم يكن ذلك الشئ الذى يوشك حقا على الحدوث، بعد إجازة الكريسماس، استأنف العمال العمل فى يوم رأس السنة، وفى ١٠ يناير عام ١٩٠١ انفجرت الأرض، مرسلّة أنابيب الحفر والصخور والنفط لمئات الأقدام فى الهواء، كان البئر البترولوى الأول الأغزر تدفقا فى الولايات المتحدة. انساب انسيابا هائلا بلغ خمسة وسبعين ألف برميل فى اليوم، ولحقت به أبار أخرى: سيجنال هيل فى كاليفورنيا وسمينول العظيم(*) فى أوكلاهوما، ثم جدهم جميعا داجوينرز بلاك جاينت(**) فى شرق تكساس. حقا كانت أمريكا هى العربية السعودية لتلك الحقبة، كيف يمكن لأى أحد أن يشك فى أن الطاقة الرخيصة كانت - حقيقة - حق بكورية أمريكية؟

كانت المشكلة - فى الحقيقة - هى أن النفط كان كثيراً للغاية، كان يظهر فى كل وقت - تدفق غزير جديد - وانهارت الأسعار، وهددت المنتجين بالإفلاس، وقد ثارت هذه المسألة مباشرة بعد أول إضرابات فى أويل كريك، كان برميل النفط يباع مبكرا عام ١٨٦١ بعشرة دولارات، انخفضت إلى عشرة سنتات فى نهاية العام^(١٨)، واستطاع جون د. روكفلر ضبط التوزيع والنقل عبر الاتحاد الاحتكارى لستاندارد أويل نيوجيرسى؛ مما جعله يستفيد من الأسعار المخفضة ويحقق أرباحا هائلة، كما وضع أيضا إجراء نظاميا للسوق. وتقهقرت حقول تكساس الشاسعة، وخاصة البلاك جاينت، بل وحتى إستاندرد أويل، وانخفض سعر النفط الذى كان يباع فى تكساس عام ١٩٢٦ بمبلغ ١,٨٥ دولار للبرميل إلى ستة بنسات للبرميل فى نهاية مايو ١٩٣١، حتى إن

(*) أحد الأمريكين الهنود فى فلوريدا (المترجم).

(**) الأب العملاق جوبيز الأسود (المترجم).

أكبر المنتجين كان في وسعه أن يشم رائحة الإفلاس، وأخذوا يبحثون عن طريق يحد من الإنتاج ويحقق استقرار الأسعار.

أنشئت لجنة سكك حديد تكساس عام ١٨٩١، كمحاولة شعبية لتحقيق بعض التحكم في السكك الحديدية الاحتكارية، ومُنحت أيضا تلك اللجنة عام ١٩٣١، بعض النفوذ لتنظيم "الفاقد المادي" من إنتاج النفط، وتم التوصل من خلال تلك القاعدة الضيقة. وعبر الكثير من الالتواءات والمنعطفات، إلى الاقتصاد في الإنتاج، وجعل الأسعار مستقرة كونيًا، حتى تأسست "منظمة البلدان المصدرة للبترول" (أوبك) بقيادة السعودية عام ١٩٦٠ وكانت لجنة سكك حديد تكساس هي - في الحقيقة - أوبك الأمريكية في زمانها.

إن الإمداد الأمريكي الضخم لطاقة رخيصة، زود أمريكا بقوة القيادة الكونية، وقد بلغ دخل الفرد في الولايات المتحدة عام ١٩١٣، ٥,٣٠١ دولار، كان ذلك أعلى من الـ ٤,٩٢١ دولار التي في بريطانيا العظمى، القوة العظمى في ذلك الحين، وأصبحت الولايات المتحدة أكبر منتج في العالم للصلب، ولمنتجات أساسية أخرى عديدة^(١٩)، وواجهت صناعة النفط، اللحظة في الثمانينيات، صعوبة، عندما بدأت مصابيح توماس أديسون للإضاءة الكهربائية تحل محل مصابيح الزيت، غير أن اختراع "العربة بلا حصان" عام ١٨٨٥ أنقذ هذا الزمن، وغير نمو صناعة السيارات وجه أمريكا والعالم، كان هناك بالفعل زمن أن دخلت أمريكا الحرب العالمية الأولى، ٣,٥ مليون سيارة على طرق الولايات المتحدة، ونما هذا العدد إلى أكثر قليلاً من ٢٣ مليوناً عند نهاية عام ١٩٢٩، وأصبح الأمريكيون يمتلكون ٧٨٪ من كل سيارات العالم^(٢٠).

لم يكن النفط هاما فقط كقوة اقتصادية. لقد بدأت الحرب العالمية الأولى عام ١٩١٤ بقطارات تدار بالبخار، تحمل قواتنا إلى المعركة، والخيول تجر المدفعية وعربات الإمداد، وانتهت بعد أربع سنوات بدبابات بريطانية تدار بالجازولين وتسحق الخنادق الألمانية، والقوارب "يو" الألمانية تختنق من نقص وقود الديزل، وكما قال مدير "اللجنة الفرنسية العامة للبترول": كان النفط "دم النصر"، وقد جاء ٨٠٪ منه من الولايات

المتحدة^(٢١)، وكانت المشاركة المبكرة، والمتواصلة، للنفط الأمريكى هى التى منحت النصر للحلفاء أكثر من القوات الأمريكية التى دخلت الحرب متأخرة.

وإذا كان النفط جزءاً أساسياً من اللعبة فى الحرب العالمية الأولى، فقد كان اللعبة كلها فى الحرب العالمية الثانية، وعند اندفاع اليابان بعيداً داخل الصين عام ١٩٤٠، بدأت مناقشة داخل الولايات المتحدة حول إذا ما كانت تفرض حظراً على صادرات النفط التى كانت أساسية للألة الحربية اليابانية، وخشية حدوث ذلك غزت اليابان الإنديز الشرقية الهولندية لتسيطر على حقول نفطها، وأخيراً أدت سيطرة اليابان، فى يوليو ١٩٤١، على الهند الصينية إلى الحظر، كأمر واقع، فى ٢٥ يوليو، ومنذ تلك النقطة غدا الهجوم على بيرل هاربور، والحرب فى الباسفيكى، مجرد وقت فقط، كان اليابانيون رغم وجود أبار نفط الهند الشرقية فى أيديهم، فى حاجة إلى نقل حاجياتهم إلى جزائر وطنهم، كان خط الإمداد طويلاً وعرضة للهجوم، وخسرت اليابان الحرب؛ لأنها لم تستطع الإبقاء على خط ناقلات البترول جارياً، وفى النهاية، كانت ناقلات البترول اليابانية تُغرق بنفس السرعة التى كانت تُنزل بها إلى الماء. وغدا الأسطول اليابانى غير فاعل لنقص الوقود، ربما تكون القنبلة النووية قد قدمت رصاصة الرحمة، لكن النقص فى النفط هو الذى أدى إلى هزيمة اليابان.

وقد جرت ذات القصة فى أوروبا بعد فشل هتلر أساساً فى الاستيلاء على موسكو؛ لأنه كان يتوجب عليه أن يحول جزءاً كبيراً من قواته، فى محاولة لوضع اليد على حقول نفط باكو، التى كانت أساسية لاستمرار مجهوده الحربى الكلى، وفى نفس الوقت جعلت النوعية الفقيرة للطرق الروسية القوات الألمانية تستهلك ضعف الوقود الذى كان مقدراً استخدامه، وفشل الألمان فى الاستيلاء على باكو، وبدأت جيوش هتلر تعاني بصورة واقعية قبل موسكو بحوالى عشرين ميلاً نقصاً فى الغاز.

وفشل هتلر مرة أخرى فى معركة بواجى، التى كانت محاولته الأخيرة لدفع الحلفاء إلى وراء البحر، بسبب نقص الوقود، حقاً ما أن بدأت الولايات المتحدة وبريطانيا العظمى العمل على هزيمة أسطول الغواصات الألمانى فى شمال الأطلنطى

عام ١٩٤٣، وهو الذى كان يهاجم قوافل ناقلات البترول إلى إنجلترا، حتى كان مصير المحور قد تقرر نهائيا، وتدفق النفط دون أن يعترضه أحد من أمريكا ليمنح القوة لقوات الحلفاء التى كانت تستهلك إجمالا حوالى ٧ مليار برميل من النفط للقتال فى الحرب، وكانت تجيء ستة مليارات منها من أمريكا^(٢٢).

عندما ألغيت عملية ترشيد الجازولين التى اتخذت أثناء الحرب، فى الولايات المتحدة، ارتفعت الصيحة بعد تسليم اليابانيين بقليل، "املا حتى النهاية"، وغدت تلك هى الشعار الوطنى الجديد، وانفجرت مبيعات السيارات ما بين نهاية الحرب فى أغسطس ١٩٤٥ ونهاية عام ١٩٥٠، وكانت قد هبطت أثناء الحرب، وبدأ الأمريكيون يطرحون نمط حياة جديدة كلية^(٢٣)، لقد بنى الأمريكيون البلاد عبر قرون ثلاثة، ثم مروا بعقد ونصف من الركود، عانت البلاد فيها التقتير وقد أنكرت ذاتها، والآن جاء وقت الاستمتاع بحق بكورية الأمة من الطاقة الرخيصة.

بوبا يرهن حريته

إن فلات بوش بروكلين ضاحية نموذجية، شُيّدت على مسافة ٢٠ دقيقة من القطار فى وسط مانهاتن، إنها تتكون من مجموعة منازل سكنية، منخفضة ومستقيمة، ذات أرصفة، منازل متقاربة حتى إنه يمكن للجيران تبادل الحديث بعضهم مع بعض من شرفاتها، بها مخازن ومدارس ومحطات قطارات، على مسافات يسهل قطعها سيرا على الأقدام، العربات ليست ضرورية هنا حقا، إنها فقط تسبب الإزعاج بضجتها فى الشوارع، إن فلات بوش قد جرى بناؤها دون وضع مسألة السيارات فى الحسبان، إن ازدهار أمريكا بعد الحرب كان يدفعه، إلى حد كبير تشييد نوع مختلف للغاية من الضواحي، ونبتت وترعرعت تطورات إسكان جديدة فى سرعة بعيدا عن المدن الرئيسية، فى تلك الأماكن التى يعتبرها الناس مناطق ريفية، غير أن ذلك الريف قدم نوعا جديدا من الضواحي مكونا من مجموعات منازل مرتفعة ذات

منعطفات، دون أرصفة، مقامة على قطع أرض مساحتها نصف أكر أو أكثر، المسافات فيما بينها سيرا على الأقدام بعيدة، دون حوانيت فى الجوار أو محطات قطارات، لقد بدأت المنازل كبيرة، ثم كبرت أكثر مع الزمن، وقد غدت الحجرات العائلية، والمطابخ الريفية، وحجرات الخلوات ضرورية، إن تلك المنازل كانت بالطبع منضبطة طقسيا بصورة كاملة، ومتخمة بآخر طراز من الأدوات الكهربائية، وقد انتقل إلى الضواحي التى تماثل تلك خلال العشر السنوات التى تلت الحرب أكثر من تسعة ملايين شخص، وفى عام ١٩٧٦ أصبح عدد السكان الأمريكين فى الضواحي أكثر من عدد سكان البلدان الريفية والمدن^(٢٤).

إن على كل هؤلاء الناس بالطبع أن يحصلوا على ما يريدون تسوقه من مكان ما. وقام مول الضاحية استجابة لهذا الطلب، مرة أخرى اختلفت تلك الضواحي اختلافا بيئيا عن حى المال القديم فى وسط المدينة؛ إذ بدلا من صفوف المتاجر فى أبنية عديدة الطوابق، أمامها طوار عام، قامت مناطق مقسمة فى الضواحي، طبقا للقانون المحلى بأوامر شرعية، مناطق من مجموعات متاجر منخفضة الارتفاع، وسط الباحات المخصصة لوقوف السيارات؛ مما يجعل السير من متجر إلى الآخر الذى يليه مسألة غير عملية، فى تلك الأثناء كان وجه وسط المدينة يتغير أيضا، وغدت المدن المركزية، مع حياة أعداد كبيرة للغاية من الناس فى الضواحي، مجمعات من أبنية مكتبية عالية الارتفاع، غير أن تلك المباني لم يكن يستخدم القرميد والحجارة فى تشييدها كما كان الحال فى الأيام الخالية، كانت أبراجا زجاجية براقه تعمل كمفاطس حرارية صيفا، وكثلاجات شتاء، وحتى تكون صالحة للسكنى، كان ذلك يتم فقط بأنظمة تتحكم فى درجات الحرارة تعمل بالطاقة الرخيصة.

لم يكن يعيش فى الضواحي النموذجية، فى البداية، تركزات من الناس كبيرة، تبرر الاستثمار فى خط خاص للسكك الحديدية، فوضعت فى إطار سلطة المدن التى يمكنها وضع أنظمة نقل عامة؛ لذا كانت السيارة هى الوسيلة الوحيدة للوصول إليها أو حولها، وكان هناك عامل آخر يعمل، كان على الشركات الخاصة أن تستثمر فى

خطوط السكك الحديدية، وتقوم بصيانتها، وتدفع عنها الضرائب، بينما كانت الحكومة هي التي تعد الطرق إعداداً جيداً، وغدت إقامة الطرق جنبا إلى جنب مع بناء المنازل، صناعة مزدهرة، كان النموذج الأصلي لكل هذا هو لوس أنجلوس؛ حيث تم هناك تحطيم نظام نقل عام، كان ريشه قد نبت منذ عهد قريب، عندما اشترى كونسورتيوم(*) مكون من شركات السيارات والوقود والإطارات، شركات الترام، وأغلقها واقتلع مساراتها، وحول طرق الترام إلى طرق للسيارات، كانت الفكرة هي زيادة سوق الأوتوبيسات والسيارات والإطارات والوقود، ونجح الكونسورتيوم.

أخذت كاليفورنيا على عاتقها، عام ١٩٤٧، بناء نظام طرق ضخم يمكن أن يرتبط كشبكة إقليمية واحدة، وسرعان ما تبعها نيوجيرسي بجاردين سيتي باركواي(**)، ونيوجيرسي تيرن بايك(***)، وتوالت غالبية الولايات بعد ذلك بقليل، وافتتح الرئيس إيزنهاور عام ١٩٥٦ كل مشروعات تلك الطرق بتوقيعه قانون الطرق العام ما بين الولايات، والذي استهدف إنشاء شبكة وطنية من الطرق الأوتوستراد وقدرها ٤١٠٠٠ ميل، وقد تم دعم المشروع أساساً باعتباره إجراء أمن قومي، يمكن أن ييسر الإخلاء السريع للمدن في حالة هجوم نرزي، لكن الأمر لم يكن - على أي حال - أمراً عسكرياً، كان أقرب إلى ممارسة مجموعة واسعة من صناعات السيارات، والنفط، والمطاط، والعقار، والشاحنات الكبيرة، والباحات المخصصة لوقوف السيارات، ضغطا حتى يشق هذا المشروع طريقه، وقد قال إيزنهاور عنه: إنه سوف يغير وجه أمريكا^(٢٥). وقد فعل.

إن الناس لم تنتقل سكناها فقط إلى الضواحي، بل بدؤوا نقل مكاتبهم إلى هناك بالمثل، إن زيادة السفر بالطائرات جعل وجود المكاتب، إلى جانب المطارات أمراً

(*) اتحاد مالي (المترجم).

(**) الشارع العريض المزدان بالأشجار وريقات العشب حديقة للولاية (المترجم).

(***) الطريق الرئيسي لنيجيرسي (المترجم).

جذابا، إن الخطوط الجوية والمطارات، مثلها مثل الطرق، تشييدها الحكومة وتصونها، وتحول المسافرون في أسراب إلى النقائث الجديدة، ليس فقط لأنها تقلل وقت الطيران، ولكن أيضا لأنها خفضت الأسعار نتيجة تكلفة الوقود المنخفضة، وتضاعل في تلك الأثناء النقل العام والسكك الحديدية؛ إذ أقبل الأمريكيون على الطرق والسموات المدعومة.

وفي عام ١٩٧٥، كانت البلاد قد صممت وشيدت لتكون في صالح السيارات والطائرات أكثر من القطارات والأوتوبيسات، والنقل الخاص أكثر من النقل العام، وعاشت الغالبية منا في منازل كبيرة واسعة المساحة، بعيدة عن أعمالنا، أو أى مكان آخر يمكن أن نذهب إليه، إن نمط الحياة الذى أعطته لنا الطاقة الرخيصة لم يعد اختيارا؛ إنه أسلوب بناء البلاد تحديدا هو الذى تطلب ذلك.

كان السبب التقريبى لهذا التحول هو السيارة، التى تغيرت هى أيضا، إن الناس يقضون الكثير للغاية من الوقت فى سياراتهم، ويرون فيها تعبيراً عن شخصياتهم؛ لذا غدت السيارات بالتدريج أكبر، وأكثر قوة، وأكثر رفاهية. إن الأطراف الخلفية والغطاء والمصدات المدهونة بالكروم زينت السيارات التى نما طولها إلى ٢٥ قدما، وأصبح التغيير الآلى والتكليف معيارا، كذا فعل المحرك ٧-8 الذى بلغت قوته أكثر من ٢٥٠ حصانا\ أى فرق أحدثه ذلك الذى حدث، فى الوقت الذى كان استهلاك السيارة فى عام ١٩٧٣، ١٣ ميلا فقط للجالون الواحد؟ لم يكن الغاز يشكل أى مشكلة.

صدّات

كان الوضع يتجه بالفعل إلى أن يكون مشكلة لبعض الوقت، وقد كتب هارولد أيكس وزير الداخلية، مبكرا عام ١٩٤٣، مقالا بعنوان، "إننا عرضة لنفاذ البترول"، إن اكتشافات العشرينيات والثلاثينيات لم تعد تتكرر، مع ارتفاع الاستهلاك. وأصبح لا مفر من احتمال تحول الولايات المتحدة إلى مستورد خالص. وتجسدت هذه الحالة

بصورة أسرع مما كان متوقعا عام ١٩٤٨، عندما تجاوزت واردات الولايات المتحدة صادراتها من النفط^(٢٦)، لم تكن أمريكا، مع وصول أول مستوطنين إلى جيمس تاون تعتمد على الغير، فيما تحتاجه من طاقة، لكنها الآن غدت كذلك.

لكننا لو وضعنا جانبا تمثيل ذلك لتغير تاريخي، فإن التحول لم يكن مثيرا لكثير من القلق في حينه، لقد قامت لجنة سكك حديد تكساس بالحفاظ على استقرار الأسعار، وذلك بالإبقاء على الإنتاج الفعلي أقل من الطاقة القصوى، ودفعت هذه الممارسة، كنتاج ثانوي، بقدرة متدفقة وقت الأزمات، كانت هذه القدرة المتدفقة هي التي وفرت هامش النصر في كل من الحريين العالميتين، وظلت تلك القدرة، منذ عام ١٩٤٨ حتى أواخر الستينيات، عند حد ملايين عديدة من البراميل في اليوم الواحد، غير أن الاستهلاك تصاعد رغم كل التوقعات، ليس فقط في الولايات المتحدة، ولكن في كل أنحاء العالم، فقد تعافت أوروبا واليابان، وبدأت بلدان أخرى عملية التصنيع، وقد ارتفع استهلاك النفط في العالم الحر من ١٩ مليون برميل يوميا إلى أكثر من ٤٤ مليون برميل^(٢٧) في اليوم، وفي عام ١٩٧٠، عندما بلغ إنتاج الولايات المتحدة ذروة قدرها ١١,٣ مليون برميل في اليوم، انخفضت الطاقة المتدفقة إلى مليون برميل يوميا^(٢٨)، ومن هناك سار الكل إلى انحدار، وفي عام ١٩٧١ رُخص للجنة السكك الحديدية بالإنتاج حتى الطاقة القصوى، ورغم ذلك صعدت الواردات سريعا من أكثر من ٢ مليون برميل يوميا عام ١٩٦٧ إلى ٦ مليون، أي أكثر من ٣٥٪ من استهلاك الولايات المتحدة عام ١٩٧٣^(٢٩)، وفي عام ١٩٦٨، أبلغت "إدارة الدولة"، "منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية" (أو أي سي دي) في باريس أنه في حالة حدوث أزمات مستقبلية فإنه لن يكون هناك تدفق للإمداد من الولايات المتحدة^(٣٠). إن العالم والولايات المتحدة يعتمدان الآن، ونشدة، على إنتاج الشرق الأوسط، والذي يعد واحداً من أكثر المناطق غير الآمنة في العالم، وهذا الاعتماد سوف يتزايد.

ورغم أن النفط كان معروفا منذ قديم الأزمان، فإنه لم يصبح مركز اهتمام تجارى في الشرق الأوسط حتى عام ١٩٠٠، عندما اقترح شاه فارس المفلس على

دبلوماسى بريطانى متقاعد إمكانية بيع امتياز للتنقيب عن النفط فى فارس، وذلك فى محاولة منه لدعم وضعه المالى الذى كان يعانى دوماً من عدم الاستقرار، وبعد عدة مغامرات اشترى ويليام كنوكس دأركى الامتياز وهو صاحب مشروعات بريطانى، حقق ثروة من استخراج الذهب فى أستراليا، وفى صباح ٢٦ مايو عام ١٩٠٨، وبدعم مالى من الحكومة البريطانية، حقق البئر تدفقاً غزيراً، كما حققت شركة دأركى عام ١٩٠٩، ما أسمته الأجيال اللاحقة من أصحاب المشاريع الأمريكيين "أى بى أو" (التقديم العام الأصلى)، الذى أصبح اسماً عاماً مثل أنجلو برسيان أويل كومباني^(٥). واشتدت المنافسة البريطانية مع ألمانيا، عبر السنوات الخمس التالية بثقل، بناء على دفع قوى من الشاب وينستون تشرشل، من أجل إحلال السفن الحربية التى تعمل بالنفط كوقود محل تلك التى تدار بالفحم كوقود، وفى يونيو عام ١٩٤١، اشترت حكومة صاحب الجلالة ٥١٪ من أنصبة الأنجلو برسيان، وكانت النتيجة صفقة اتسمت بالحكمة؛ حيث أنتجت الأنجلو برسيان أويل كومباني ٢٠٪ من النفط الذى استهلكه أسطول صاحب الجلالة، أثناء الحرب التى كانت قد بدأت من أغسطس من ذلك العام^(٣١).

إن قصة اكتشاف وتنمية حقول نفط الشرق الأوسط العظمى حكاية أسرة ومركبة، وطويلة للغاية، لنسردها هنا تفصيلاً، يكفى القول أنه بعد ضربة دأركى فى فارس، كان السباق قد بدأ، وأصبح المشايخ المعدمين على امتداد الشرق الأوسط فجأة موضع ود ومحبة من أصحاب مشروعات النفط الغربيين، بحثاً عن امتيازات حفر، وحصل البريطانيون نتيجة وضعهم الإمبراطورى على أكثر تلك الامتيازات فى البلدان التى غدت إيران والعراق والكويت، غير أنهم عملوا - بصورة ما - على إقناع أنفسهم بعدم وجود نفط فى شبه الجزيرة العربية. ولذا فإنه عندما توجهت ستاندار أويل أوف

(*) الشركة الإنجليزية الفارسية للنفط (المترجم).

كاليفورنيا (سوكال) إلى الملك بن سعود للحصول على امتياز للتنقيب في العربية السعودية، أخبر دبلوماسي بريطاني الملك الذي كان مممتعا عن السماح لأجانب بشق ثقب في مملكته أن يأخذ النقود لأنه لا يوجد نفط لديه، وأنه بذلك يحصل على النقود، وسرعان ما سيفادر الأجانب، ولكن في مارس عام ١٩٣٨ تدفق الدمام رقم ٧، والباقي تاريخ.

كانت الشركة التي عثرت على النفط في العربية السعودية شركة أمريكية، تحولت فيما بعد إلى شركة هامة للغاية، رغم طرد حكومة الولايات المتحدة في ذلك الوقت عندما تقدمت سوكال باقتراح لم يكن له ضرورة، للتمثيل الدبلوماسي للولايات المتحدة في المملكة. وعند بداية الحرب العالمية الثانية، عرف الجميع بوجود كميات كبيرة من النفط في الشرق الأوسط وخاصة في شبه الجزيرة العربية وأثناء مجرى الحرب، قامت الولايات المتحدة، بعد أن صرفت النظر عن الاقتراح باعتباره غير هام، باستخدام "تمويل الإعارة والتأجير" لدعم صيانة حقول نفط السعودية، ورغم ذلك، كان إنتاج الشرق الأوسط هامشي الأهمية، فقط، أثناء الحرب.

وتغير ذلك سريعا عندما أصبحت الأربعينيات خمسينيات؛ ففي عام ١٩٤٦ جاء ثلاثة أرباع النفط الأوربي من أمريكا، وفي عام ١٩٥٣ جاء أكثر من النصف من الشرق الأوسط^(٣٢)، إن التحول إلى إنتاج الشرق الأوسط، ونهاية الكولونيالية، ونهوض الوطنية في المنطقة، وتأسيس دولة إسرائيل الذي أوجد وضعاً مركباً مصحوباً بموضوعين رئيسيين. الأول: صراع متصل (قدر له أن يكون ناجحاً) قامت به حكومات البلدان المنتجة من أجل انتزاع السيطرة على النفط وتسعيه بعيداً عن شركاتها. وكان الثاني وما زال غير ناجح هو محو إسرائيل أو تقييدها بشدة.

وثارت أزمة النفط الأولى عندما أمتت إيران (فارس سابقاً) الأنجلوبرسيان أوليل كومباني؛ مما أثار اضطراباً كبيراً، ومقاطعة فعلية من بريطانيا ضد الشركة المؤممة حديثاً، والتي قلصت تدفق نفط الشرق الأوسط إلى الأسواق العالمية، وملأت لجنة سكك

حديد تكساس، ذات القدرة الهامة المتدفقة، الفجوة بسهولة، على أى حال، ولم يصب المستهلكين ضرراً، واثارت الأزمة الثانية عام ١٩٥٦، عندما تحرك الرئيس المصرى جمال عبد الناصر وأمم شركة قناة السويس المملوكة للبريطانيين والفرنسيين، وتحكم فى الحركة عبر الممر المائى، وفى رد فعل على ذلك، هبطت قوات بريطانية فرنسية، فى تحالف مع إسرائيل، فى محاولة للسيطرة على منطقة القناة.

وبالطبع، أغلق ذلك القتال انسياب النفط من الشرق الأوسط إلى أوروبا وأوقفه، كان البريطانيون والفرنسيون يعتمدون على دعم الولايات المتحدة فيما قاموا به من عمل، غير أن الرئيس إيزنهاور، الذى بوغت بما حدث، كان مقتنعا بأن ذلك سوف يدفع العرب، فقط نحو السوفيت؛ ولم يطلب من البريطانيين والفرنسيين أن يغادروا فقط، لكنه رفض أيضا أن يجعل الطاقة المتدفقة متاحة لهم، ما لم يفعلوا ما طلب، كان ذلك تهديدا حاسما، وما أن ترك الغزاة مصر، حتى قدمت لجنة سكك حديد تكساس ما أنقذ أوروبا من الخسارة والأذى.

ونشأت الأزمة الثالثة فى حرب الأيام الستة التى بدأت فى ٥ يونيو عام ١٩٦٧، عندما وجهت إسرائيل ضربة استباقية ضد القوات المصرية والسورية التى كانت تهددها، ودار الحديث عن سلاح النفط فى الدوائر العربية لوقت ما، والآن استل هذا السلاح من غمده، وأعلن وزراء البلدان العربية الحظر فى السادس من يونيو. وفى ٨ يونيو كان الشحن بالسفن قد انخفض بنسبة ٦٠٪^(٣٢)، وغدت الحالة حرجة؛ إذ إن أوروبا تحصل الآن على ثلاثة أرباع حاجاتها المتنامية بسرعة من النفط من الشرق الأوسط، وهبت لجنة السكك الحديدية، على أى حال، مرة أخرى إلى الإنقاذ، مطلقة العنان للمليون برميل يوميا من قدراتها المتدفقة. وفى يوليو كان من الواضح أن سلاح النفط كان سيفاً من مطاط.

وتغير سوق النفط بطريقة حاسمة عام ١٩٧٣ لم تعد الولايات المتحدة هى ممول الملاذ الأخير، كانت العربية السعودية هى ذلك الملاذ، وحتى الولايات المتحدة كانت

تعتمد عليها من أجل برميل النفط الأخير، وتشكلت الأوبك(*) عام ١٩٦٠ كجزء من تضال البلدان المصدرة لتتنزع العائد والتحكم بعيدا عن شركات البترول، لم تكن بعد اسما مألوفاً، وقد أحرزت بعض النجاح، غير أن حالة السوق فيما يتعلق بفائض الإمداد والقدرة المتدفقة للولايات المتحدة دمرت جهودها بصورة متواصلة، وقد شجعتها الظروف الجديدة، على أى حال، على اتخاذ خط متشدد فى اجتماع مفاوضاتها السنوية مع الشركات، الذى انعقد فى ٨ أكتوبر ١٩٧٣، فى فيينا، وفى ٧ أكتوبر، يوم كيبور فى إسرائيل، شن القائد المصرى أنور السادات هجوما مفاجئا على قوات إسرائيل التى تحتل سيناء وغزة، وقدمت الشركات، على مائدة المفاوضات، فى فيينا زيادة فى الأسعار قدرها ١٥٪ ليصل سعر البرميل إلى حوالى ٣,٤٥ دولار^(٣٤)، وضحك وزراء النفط فى الأوبك، كان ردهم الضعف أو لا شىء، وفى تلك الأثناء كان السادات يتوسل إلى إخوته العرب: كى يجربوا سلاح النفط مرة أخرى، فى محاولة للضغط على الولايات المتحدة وأوربا لإجبار إسرائيل على التراجع، وترددت العربية السعودية وقد تمزقت بين عدم رغبتها فى عزل الولايات المتحدة، والإحساس بالظلم الذى تشارك فيه باقى العرب حول خلق إسرائيل، لكنها وافقت حينذاك، وفى ٧ أكتوبر أعلن الحظر، وقد أثبت سلاح النفط هذه المرة أنه سيف من صلب توليدو(**).

وربط الناس بالفعل فى بلجيكا حيث كنت أعيش فى ذلك الوقت، خيولهم وثيرانهم إلى سياراتهم لنقص الغاز، وزودت أنا سيارتى المؤجرة، خلال رحلة إلى المقر الرئيسى لشركتى فى فيلادلفيا، بالكتب والمجلات لقتل الوقت فى خطوط الغاز، وبلغ سعر النفط الخام فى ١٦ أكتوبر ٥,٤٠ دولار للبرميل، وأصبح السعر فى منتصف ديسمبر ١٧ دولارا للبرميل، وارتفعت الأسعار فى المضخات فى الولايات المتحدة

(*) منظمة البلدان المصدرة للبترول (المترجم).

(**) السيف الطليطى - نسبة إلى طليطلة بالأندلس (المترجم).

٤٠٪^(٣٥)، وأخيرا تفاوض هنرى كسينجر من أجل إنهاء الأعمال العدائية، ويتطلع السادات الآن إلى إقامة روابط جديدة مع الولايات المتحدة، ودعا العرب إلى غمد السيف، الأمر الذى فعلوه فى ١٨ مارس.

وظل بنيان القوة الجديد قائما، رغم انتهاء الحظر، كان ذلك هو العصر الذهبى للأوبك؛ وعاد الاستقرار إلى الأسواق خلال الخمس سنوات التالية، رغم ارتفاع الأسعار أكثر مما تصوره أى أحد. ثم جاء خلع شاه إيران، وصعود أية الله الخميني، وإغلاق حقول النفط فى أواخر عام ١٩٧٩، مرة أخرى حطت الأسعار، وحل الذعر، كان الأثر على الاقتصاد العالمى هائلا؛ ودخلت البلدان الصناعية فى ركود عميق، وانخفض إجمالى الناتج المحلى فى الولايات المتحدة ٦٪، وتضاعفت البطالة إلى ٩٪^(٣٦). وتوقف الاقتصاد اليابانى عن النمو لأول مرة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وكان الأسوأ هو مازق البلدان النامية التى لا تنتج، ولديها قدرة محدودة على تحمل عبء الأسعار العالية، وأصاب الركود الاقتصاد الكونى، غير أن سيل النقود تدفق فى خزائن الأوبك، ليعاد تشغيله إلى حد كبير من خلال بنوك الولايات المتحدة وأوروبا، فى شكل قروض للبلدان النامية التى كانت مدينة بصورة متزايدة، وطالب الرأى العام الكونى بمعرفة إن كان هنالك سبيل أفضل.

العلاج بالصدمة

كان نفس السؤال قد سئل بالفعل، منذ ثلاثين عاما على وجه التقريب؛ إذ ثار الكثير من النقاش حول البدائل لضمان أمن الإمداد، عندما غدا واضحا فى منتصف الأربعينيات أن احتياطات نفط الولايات المتحدة يحتمل أن يكون لها حدود، وقد دافع البعض عن زيادة الواردات زمن السلم حتى يمكن الإبقاء على الاحتياطات المحلية لحالات الطوارئ، ولم تنفذ هذه الفكرة قط، ولكن فرضت بالفعل حصص نسبية على الواردات، فى محاولة للإبقاء على المنتجين المحليين رابحين، ونظريا للبحث عن المزيد

من النفط. وبدأت الولايات المتحدة، مع وجود كميات كبيرة من الفحم والزيوت الحجري في جبال روكي، في وضع مثالي لتحقيق صناعة نفط بطريقة تركيبية تصنيعية، يمكن أن تضمن إمدادات لا نهائية، وفي عام ١٩٤٧ اقترحت الإدارة الداخلية مشروعاً على نمط - مانهاتن بتكلفة قدرها عشرة مليارات من الدولارات لإنجاز صناعة وقود تركيبية تصنيعية خلال السنوات الأربع أو الخمس التالية ... وأخيراً اعتمدت ٨٥ مليون دولار للبحث، لكن البرنامج مات حيث اتضح أن الزيت المصنع سيكلف عملياً أكثر من النفط الأجنبي الرخيص، الذي كان متاحاً للحال حينذاك^(٣٧).

وأوجد النجاح في معالجة أزمات النفط المبكرة، خلال العقدين التاليين - إحساساً بالأمن منع من طرح السؤال الخاص بـ"السبيل الأفضل"، يقينا، لم يسأل أحد من مستشاري الأمن القومي للأمة هذا السؤال، عندما باع إيزنهاور، في واحدة من سخریات التاريخ العظمى، مشروع الطريق العام ما بين الولايات؛ الأمر الذي يمكن أن يفاقم بصورة كبيرة، تعرض أمريكا لهجوم موردي النفط الأجانب، باسم الأمن القومي^(٣٨)، عندما كتب دين أتشيسون - وزير الخارجية السابق - سيرته "حاضر وقت الخلق" بعد حرب الأيام الستة، علق أنه لو وُضع جزء من استثمارنا في برنامج الفضاء، في عملية تطوير سيارة كهربائية عملية، ومصانع طاقة نووية، هنا وفي أوروبا، لكننا فعلنا الكثير لحل مشكلة تلوث هوائنا، وحررنا أوروبا من الاعتماد على الشرق الأوسط، والاتحاد السوفيتي من دوافعه لاختراقه"^(٣٩)، ولم ينتبه أحد حينذاك، لكن السؤال عاد الآن وأكثر إلحاحاً من أي وقت مضى.

وكان رد طوكيو وأوروبا على أزمة ١٩٧٨ مباشراً وعنيفاً، أخرجت الوزارة اليابانية القوية للتجارة الدولية والصناعة (ميتي) المصاعد التي في مباني مراكزها الرئيسية من الخدمة فخفضت الحرارة شتاءً، وتكيف الهواء صيفاً، كنت كما أتذكر، أتصبب عرقاً، بالمعنى الحرفي للكلمة، أثناء دورات التفاوض في تلك الأيام، أو أرتجف بدلاً من ذلك، في وجود زملائي اليابانيين الذين يرتاحون في صدريات صوفية، تلك الإجراءات كانت بالطبع رمزية، لكنها وضعت الأسلوب الذي مكن اليابان من تبني سياسات جديدة

صارمة. والتزمت اليابان، من ناحية الإمدادات، ببرنامج ضخم لإقامة مصنع للطاقة النووية، وتوفير إمدادات من الغاز الطبيعي السائل من جنوب شرق آسيا وروسيا، والتحول من النفط إلى الفحم حيثما كان ذلك ممكنا، وكانت الأكثر أهمية، على أي حال، هي الجهود التي تبذل لتخفيض الطلب عن طريق صيانة الطاقة، ووضعت معايير عالية الفاعلية من أجل تطبيقات جديدة، ورفعت الضرائب على الجازولين وأسعار الكهرباء، وعملت الحكومة والصناعة على خلق عمليات ومعدات أكثر فاعلية، وربما كان الأكثر أهمية هو إقناع الحكومة اليابانية للامة أن مستقبل اليابان متوقف على صيانة الطاقة، ومن ثم، حبزت القدرة الأسطورية لليابانيين على أن يحصلوا حتى على جزء صغير أكثر، من لا شيء، في ذلك الوقت، بدأت وزارة التجارة الدولية والصناعة في رسم خطط لتحويل بنية الصناعة اليابانية من الطاقة - الكثيفة إلى المعرفة - الكثيفة بقطاعات التقنية العالية، التي يمكن لليابان أن تتحدى بها، بطريقة درامية، الولايات المتحدة في الثمانينيات، وقد قال لي ناوهيرو أمايا، الذي كان حينذاك نائب وزير التجارة الدولية والصناعة: إن التجربة كلها كانت هبة إلهية مقنعة، لاشك أن سياسات تخفيض استخدام النفط، وزيادة فاعلية الطاقة - نجحا بصورة أفضل مما توقعه أحد، وفي عام ١٩٨٥، كانت اليابان تستخدم طاقة أقل بـ ٢١٪ لإنتاج بولار واحد من إجمالي الناتج المحلي و ٥١٪ كاملة نفطا أقل^(٤٠).

لكن الأمر لم يقف عند هذا الحد، فالسلطات اليابانية بفرضها ضرائب ثقيلة على الوقود والعربات، ضرائب كان يخصم جزء منها لصالح الوصول إلى نماذج طاقة فاعلة، قد أدخلت فاعلية هائلة في أسطول سياراتها وشاحناتها، إن كل الضرائب اليابانية، مثلا، تكاد تكون قد ذهبت إلى الغاز الطبيعي السائل، لقد باعت تويوتا وهوندا ٣٦٠٠٠ عربية هجين تدار بمزيج من الغاز والكهرباء، في الولايات المتحدة عام ٢٠٠٢، وكان استهلاكها أكثر من ٥٠ ميلا للجالون الواحد^(٤١). في حين لم يبيع منافسوها شيئا في تلك الأثناء، وقد خفضت اليابان منذ عام ١٩٨٥ اعتمادها على النفط اللازم للاحتياجات الكلية للطاقة من ٦٠٪ إلى حوالي ٥٠٪، وكذا خفضت استخدامها للطاقة

لكل دولار من إجمالي الناتج المحلي ليكون هو الأقل بين البلدان الصناعية الكبرى، يضاف إلى ذلك أن لديها سياسة طويلة المدى تضعها على طريق تحسين فاعلية الطاقة بحوالي ٣٠٪ أخرى عام ٢٠١٠.^(٤٢)

وقلّدت أوروبا بقيادة فرنسا اليابان، وذلك برفع ضرائب الجازولين وأسعار الكهرباء، المرتفعة بالفعل، بل سارت حتى أبعد من اليابان فالتزمت بالطاقة النووية، مع تبني فرنسا سياسة جادة للغاية، كما قلّد الأوروبيون أيضاً تأكيد اليابان على أعمال الصيانة، ومرة أخرى قادت فرنسا الطريق. أصبحت تدفئة المباني لا تزيد عن ٢٠ درجة مئوية. ويقوم مفتشون بزيارات مفاجئة للتأكد من الإذعان والتنفيذ، بل حظر الفرنسيون أيضاً أية دعاية يمكن اعتبارها تشجيعاً على استخدام المزيد من الطاقة^(٤٣)، واستحثت أسعار الطاقة العالية، وكذلك برامج الحكومة اكتشاف وتنمية حقول نفط بحر الشمال، والجهود (التي عارضتها الولايات المتحدة بمرارة) لإحضار الغاز الطبيعي من الاتحاد السوفيتي إلى أوروبا الشمالية، وأثبتت تلك السياسات، كما حدث في اليابان، كفاءتها، بأكثر مما كان متوقعا منها، وبينما كان يغذى النفط والغاز الطبيعي والفحم متحدين ٦٣٪ من كهرباء فرنسا عام ١٩٧٣، فإن ٧٥٪ من الكهرباء اليوم نووية، بينما يصل النفط إلى أقل من ١٪^(٤٤). لقد حولت أوروبا غالبية السيارات من الجازولين إلى طاقة الديزل؛ مما زاد اقتصاد وقود أسطولها المرتفع بالفعل إلى أنماط جديدة من ٢٨ ميلا للجالون الواحد إلى ٣٥ ميلا للجالون الواحد^(٤٥)، إن أوروبا فعليا مستهلك منخفض نسبيا للطاقة التي بلغت ٨٤٠٠ بى تى يو^(*) للدولار الواحد من إجمالي الناتج المحلي، وانخفضت بصورة مثابرة إلى ٧٤٠٠ بى تى يو عام ٢٠٠٢ وأوقف استهلاك الفرد للكهرباء في أوروبا، عند أقل من نصف ذلك الذي هو في الولايات المتحدة^(٤٦)، إن لأوروبا - مثلها مثل اليابان - خطة واضحة نحو المزيد من التنوع والصيانة، خطة تؤكد أيضا على بديل لمصادر الطاقة.

(*) وحدة حرارية بريطانية (المترجم).

وكان رد الفعل الأمريكي، من ناحية أخرى، متقلب، مرتبك، وفي الغالب منقسم، ففي عام ١٩٧٣ أعلن الرئيس نيكسون "مشروع الاستقلال": باسم روح مانهاتن ومشروعات "أبوللو" التي سوف تحقق للولايات المتحدة استقلال طاقتها حتى عام ١٩٨٠^(٤٧)، غير أن نيكسون سرعان ما اختفى في فضيحة ووترجيت، ولم يرتق المشروع أبداً حتى إلى مرحلة التخطيط، ولم يحظ - على أي حال - بغير دعم شعبي قليل، لقد رأى الرأي العام أن طريق الحياة الأمريكية مهدد، وأقنعت جلسات الاستماع في الكونجرس، في ذلك الوقت، العديدين أن ما يحدث بهم من قصور إنما هو من خلق شركات النفط الكبرى، كان الناس يريدون من واشنطن أن تفعل شيئاً، لكن هذا الشيء بدا وكأنه التخلص من خطوط الغاز، وإعادة الأسعار القديمة الجيدة، بينما تحمل الشركات على الدفع، واتباع الرئيس فورد، نيكسون، فاقترح خطة لمدة عشر سنوات لبناء ٢٠٠ محطة نووية، و٢٥٠ منجماً كبيراً للفحم و١٥٠ مصنعا يدار بالفحم، ٢٠ مصنعا لإنتاج النفط المصنوع^(٤٨)، ورفع نائب الرئيس نيلسون روكفلر حفيد مؤسس صناعة النفط الحديثة، رفع الرهان باقتراح برنامج يكلف ١٠٠ مليار دولار لتأمين الوقود المصنوع ومصادر طاقة أخرى لا تقبل المنافسة اقتصادياً^(٤٩)، ورأى المعارضون من كل نوع أن لا شيء من هذا قد وجد طريقه حتى إلى طاوولات الرسم.

واتخذت خطوتان، على أي حال، وسط كل هذا الخلاف والجدل، منحت ترانس الإسكان بيب لاين^(٥٠) سلطة التمكّن من تنمية حقول نفط ألاسكا، كذا سن تشريع عام ١٩٨٥ خاص بفاعلية الوقود، اقتضى أن يكون استهلاك السيارات في المتوسط هو ٢٧,٥ ميلاً للجالون الواحد^(٥٠)، وقد جعل الرئيس كارتر من الطاقة موضوعه رقم (١) عندما تولى السلطة عام ١٩٧٧، وأدخل سياساته باعتبارها "المنظر الأخلاقي

(٥٠) خط الأنابيب عبر ألاسكا (المترجم).

للحرب^(٥١)، وقد أشار بعض الهازلين إلى أن الكلمة المناسبة هي "مواء"؛ إذ لا شك كان لهذا النقاش، أحيانا، صدى أشبه بأنين القطط، وبعيدا عن متطلبات فاعلية وقود السيارات، كان هنالك تأكيد على أهمية الصيانة. كان النفط في الحقيقة ما يزال خاضعا لإجراءات تسيطر على الأسعار مما أبقاه أرخص، بصورة زائفة، حتى يسعد الناس، لقد أعطى كارتر لهذا الأمر الأولوية حتى ترتفع أسعار النفط المحلي إلى أسعار السوق العالمي، فقط، حتى لا يعتقد الناس أن هنالك أزمة، وقد ربح في النهاية فيما يتعلق بهذا، لكنه دفع ثمنا سياسيا غاليا، وقد اشتملت اقتراحات كارتر الأخرى على ضريبة "الإسراف في استخدام الغاز" على سيارات تستخدم وقودا بذاته لا يتسم بالكفاءة، وضريبة تخصم لصالح السيارات ذات السرعة العالية على أساس الميل الواحد، وسلسلة من حوافز الضرائب والقواعد المنظمة تستهدف فرض التحول إلى مصانع منتجة تدار بالفحم، وخطة لمضاعفة محطات الطاقة النووية العاملة، وائتمان ضريبي للاستثمار في معدات الطاقة الشمسية والمادة العازلة، وتغيير من المعايير الطوعية إلى تلك الإجبارية للإذعان بفاعلية، ومعايير أداء إجبارية للمباني الجديدة، وزيادة كبيرة في تمويل البحث والتطوير، وحوافز لتنمية الطاقة من موارد متجددة، وإزالة الحواجز لاستخدام الكهرباء المنتجة صناعيا في الشبكة العامة، وتكوين "احتياطي بترولي استراتيجي" لتوفير إمداد النفط لتسعين يوما، وذلك المشروع البديل، مشروع الوقود المصنع بـ ٢٠ مليار دولار حتى يتم في النهاية إنتاج ٢,٥ مليون برميل يوميا من النفط من الطفل الصفحي بـ "جبل روكي"^(٥٢).

ومما يثير الانتباه أنه لم يكن هنالك ذكر للنقل على نطاق واسع أو السكك الحديدية، ولكن لو كان هنالك ذكر، فالمحتمل أنه ما كانت تكتب له حياة، وانتهى الأمر إلى إلغاء الكونجرس لضريبة الغاز، وإلى تخفيض الرسم على أساس السرعة العالية في الميل الواحد، بينما قتلت الحادثة النووية التي وقعت في "جزيرة ثري ميل" عام ١٩٧٨، بشكل أساسي أى توسع للطاقة النووية يجعل بناء محطة نووية في الولايات

المتحدة محرماً لارتفاع تكلفته نتيجة المقتضيات البيئية الجديدة الصارمة للغاية، هذا فضلاً عن احتمال دعاوى قضائية، ومع ذلك، فإن برنامج كارتر أضاف بالفعل حوافز هامة للفاعلية الأعلى، وللتحول من النفط إلى مصادر أخرى للطاقة، وكانت هناك نتائج، وقد استفدت أنا، جنباً إلى جنب، مع ملايين آخرين أمريكيين من الانتماء الضريبي لمضاعفة المادة العازلة في منزلي، ولتزويده بسخان مياه شمسي، واتخذت الشركة التي أعمل بها خطوات هامة لزيادة الفاعلية، وتضاعفت الرسوم على السيارات طبقاً للسرعة بالميل عام ١٩٨٥، وانخفض استهلاك الطاقة الكلية لكل دولار من إجمالي الناتج المحلي من ١٨,٤٠٠ بى تى يو إلى ٢١,٤٠٠ بى تى يو (مقارنة بالهبوط فى اليابان من ٥,٠٠٠ إلى ٣,٩٤٦)^(٥٣)، وزادت - فى نفس الوقت - الإمدادات بمجىء، نفط ألاسكا على الخط، ونشطت الأسعار المرتفعة - والحوافز - المزيد من اكتشافات النفط والغاز الطبيعي فى الولايات المتحدة.

غير أن إدارة ريجان بدأت - عند مجيئها - تحولاً فى سياسات الولايات المتحدة، التى كانت أكثر قرباً من الخط الذى يتماشى مع الأخلاقيات الشعبية الأساسية للبلاد، كنت فى ذلك الوقت مستشار وزير التجارة، وأتذكر السعار للتخلص من أشياء مثل مشروع "الوقود المصنع"، الذى كان يُشتهر به أثناء الحملة الانتخابية باعتباره فيل الحكومة الأبيض (كندا دولة مصدرة للنفط، وقد احتفظت بمشروعها، واليوم فإن ٢٠٪ من النفط الذى تنتجه مُصنع)^(٥٤)، وتم تخفيض التمويل الفيدرالى للمحافظة على الطاقة ٧٠٪، وخفضت الأبحاث الخاصة بالطاقة وتنميتها تخفيضاً كبيراً بنسبة ٦٤٪، وأسقطت الاقتراحات الساعية لمعايير فاعلية أعلى للعربات الجديدة^(٥٥)، وكان كل التركيز موجهاً إلى عملية العرض: استخدمت الحوافز الضريبية والقواعد المنظمة حثاً للحفز وتعزيز الإنتاج، وازداد المعروض بالفعل، لكن كان ذلك فى الغالب بسيطاً بسبب خط أنابيب ألاسكا، وسياسة السعودية فى إبقاء الأسعار منخفضة بما يكفى لجعل الاستثمار فى طاقة بديلة مسألة تفتقد الجاذبية، وللتوسع الكبير فى الإنتاج من بحر الشمال وماليزيا ونيجيрия والمكسيك، وأماكن أخرى.

وبانخفاض الأسعار سخر القادة من الحاجة إلى أى نوع من السياسات الصناعية الحكومية، وبدأت اتجاهات الاستهلاك سيرها فى الاتجاه المعاكس، وواصلت الطاقة اللازمة لإنتاج دولار من إجمالى الناتج المحلى الهبوط، وذلك للاستبدال التدريجى للسيارات القديمة بأخرى جديدة، ولأن آثار معايير التشييد الجديدة والعمليات الصناعية الجديدة واصلت شق طريقها عبر الاقتصاد، إلا أن الهبوط كان يتباطأ، حتى مع بقاء الولايات المتحدة ذات طاقة أقل فاعلية، إلى حد بعيد، من بلدان صناعية أخرى، وهبط استخدام الطاقة بالنسبة للفرد الواحد من ٢٦٦ مليون بى تى يو عام ١٩٧٣ إلى ٢١٤ مليون بى تى يو عام ١٩٨٣، إلا أنها عادت إلى ٢٥٢ مليون عام ١٩٩٧ - أى أكثر من ضعف معدلات اليابان وأوروبا، التى كانت ١٦٥ مليوناً و ١٧٠ مليون بى تى يو على التوالي^(٥٦)، إن حساب السرعة بالميل، عند استخدام الغاز فى السيارات الجديدة والشاحنات الخفيفة وسيارات الدفع الرباعى وصلت إلى ذروة ٢٥,٦ عام ١٩٨٨، ثم انخفضت، حيث الأسعار الحقيقية، للبيع بالتجزئة، هى ١,٠٨ دولار للجالون الواحد من الجازولين عام ١٩٧٢، ثم ارتفعت إلى ٢,٠٥ دولار عام ١٩٨١، ثم انخفضت إلى ١,١٥ دولار عام ١٩٩٧^(٥٧)، واستعادت واردات النفط صعودها الثابت، بعد الهبوط من عام ١٩٧٧ إلى ١٩٨٧ وبلغت عام ١٩٩٧ الذروة التى كانت قد بلغت عام ١٩٧٧^(٥٨)، وارتفع متوسط القوة بالحصان للعربات الجديدة بثبات بعد عام ١٩٨٢^(٥٩). وهبط استخدام الطاقة المتجددة من حوالى ١٠٪ من إجمالى استهلاك الطاقة فى الولايات المتحدة عام ١٩٨٤، إلى ٧,٦٪ كما كان فى عام ١٩٧٧، بينما كان السعر الحقيقى لبيع الكهرباء بالتجزئة، والذى كان قد ارتفع ٥٣٪ ما بين ١٩٧٣ و ١٩٨٢، ثم انخفض ثانية فى عام ١٩٩٧، إلى حوالى مستوى عام ١٩٧٣^(٦٠)، وحققت الثلجات، مصادفة أو غير ذلك، تحسناً فى فاعلية الطاقة قدرة ٢٩٤٪ ما بين ١٩٧٢ و ١٩٩٣ وما أن تم بلوغ المعايير الإجبارية، حتى تحول المنحنى ليكون مسطحاً تماماً^(٦١)، ولم يصدر أى أمر بإقامة محطات طاقة نووية منذ عام ١٩٧٨، فى حين كانت تهرم المحطات القائمة، وهبط احتياطى النفط الاستراتيجى، فى تلك الأثناء، من ارتفاع قدره ١١٥ يوماً من الإمداد فى عام ١٩٨٥ إلى ٥٢ يوم إمداد فى نهاية عام ١٩٩٩^(٦٢).

وباختصار، فإن صورة طاقة الولايات المتحدة، وهي تدخل القرن الحادى والعشرين، كانت تماثل بشكل متزايد تلك التى كانت عليها عام ١٩٧٣.

إلى الخليج والعودة: التسعينيات

احتشد وزراء الأوبك، فى ٢٢ سبتمبر عام ١٩٨٠، فى فيينا، ليخططوا لتنظيم الاحتفال بالذكرى العشرين فى أواخر العام فى بغداد، المدينة التى تأسست فيها الأوبك. ولم ينعقد الحفل البتة، إذ انفجرت فى ذات اليوم كراهية كانت تجيش، منذ زمن طويل، بين العراق وإيران الثورية الجديدة، إيران آيات الله، حرب بدأت بهجوم عراقى كبير على خدمات النفط الإيرانى، وتوقع العراقيون، بقيادة الرئيس صدام حسين، الذى سوف يعرف العالم عنه المزيد فيما بعد نصرا سريعا، غير أن الحرب دامت سبع سنوات طوال، أزالته خلالها عمليا كل الإنتاج الإيرانى والعراقى من الأسواق، كان ذلك مقياسا على أن الكيفية التى عالجت بها الأسواق والآليات اللازمة قد تغيرت، حتى إن العالم تجنب ذعرا آخر، رغم الارتفاع الفعلى للأسعار، والأكثر أهمية على أى حال هو أن الولايات المتحدة أجبرت على وضع علمها فوق السفن الكويتية ومرافقتها لمنع الإيرانيين، الذين يكرهون الشيطان الأكبر، من الهيمنة على الخليج، وعندما استخدمت العسكرية العراقية الغازات السامة (التي أطلق عليها فيما بعد أسلحة الدمار الشامل) فى ربيع عام ١٩٨٨، لكسب السيطرة، وفرض الهدنة، لم تحتج واشنطن، ولا الأمم المتحدة، ولا وسائل الإعلام على ذلك، ورغم تجنب صدمة نفطية أخرى فإن هذه الحرب حددت بداية إنشاء قوة بحرية كبيرة للولايات المتحدة فى الخليج الفارسى، وفى عام ١٩٨٥ كانت الولايات المتحدة تتكلف ٥٠ مليار دولار سنويا لمجرد الحفاظ على ممرات الإبحار مفتوحة^(٦٣).

وبدا بعد خمس سنين أن الأيام السعيدة تعود ثانية إلى هنا، حُطم سور برلين وكذلك أسعار النفط، كان الأمريكيون يدفعون ثمنا للغاز أقل من أى وقت مضى، منذ

الأربعينيات^(٦٤)، كما لم يكن هناك ما يشير إلى قلق طويل المدى، ازدادت إمدادات العالم من النفط بحوالى ٥٠٪، من حوالى ٦٠٠ مليار برميل عام ١٩٨٥ إلى أكثر من ٩٠٠ مليار عام ١٩٩٠^(٦٥)، وتوقف القليلون فقط ليلاحظوا أن الزيادات التى أُضيفت للاحتياطيات جرت غالبيتها بين المنتجين الكبار العاملين فى الخليج الفارسي^(٦٦)، إنك إن نظرت فى الحقيقة، عن كثب فإن الصورة تشبه صورة السبعينيات أكثر مما تشبه الثمانينيات، كان الطلب العالمى يتنامى فى سرعة، واستدارت إلى أعلى كل الخطوط البيانية لاستهلاك الولايات المتحدة، كان الإنتاج الأمريكى مسرفا غير فقير، ولم تكن هناك موارد نفطية كبرى تنتظر دخول النظام، غير أنه لم يكن هناك من ينظر عن كثب.

كان ذلك حقا باستثناء شخص أساسى واحد، ففى الثانية من صباح ٢ أغسطس ١٩٩٠، أعلن حليف أمريكا السابق صدام أنه قد أرسل ١٠٠,٠٠٠ من قواته المسلحة لتحتل جارته الكويت، التى كانت منذ قريب داعمة له فى المعركة ضد إيران، وبعد أسبوعين، فى مصادفة كشفت وجود شيء آخر مجاور لذلك الذى يجرى، حملت الصفحة الأولى لـ دول ستريت جورنال، فى ١٧ أغسطس قصة تقول: إن إدارة بوش كانت تقاوم بقوة محاولة كبرى للمحافظة على الطاقة خشية تذكير الناهيين بسنوات كارتر عندما أطفئت الأنوار فى البيت الأبيض^(٦٧).

ورغم أن الولايات المتحدة اشترت فقط ١٢٪ من نفطها، فى ذلك الحين من الخليج، فإن السيطرة على الكويت كانت ستمنح صدام القدرة على التحكم فى ٢٥٪^(٦٨) من احتياطيات نفط العالم، وتضعه فى وضع يهدد العربية السعودية، التى تمتلك ٢٦٪ أخرى، وربما يتحرك حينئذ لتسوية حساباته ضد إيران، التى لديها ٩٪ أخرى من احتياطيات العالم، وبينما لم يشكل صدام تهديدا مباشرا على الولايات المتحدة أو حلفائها، وأن عليه بيع هذا النفط - على أى حال - ليكسب أى فائدة منه، فإن الرئيس بوش رد بأشد الأساليب قوة، وأعلن أن "أعمالنا، ونمط حياتنا، وحرقتنا، وحرية البلدان الصديقة فى العالم سوف تعاني كلها إن سقط التحكم فى احتياطيات النفط

الكبرى فى أيدى صدام حسين^(٦٩)، وحشد الرئيس - بالطبع - انتلafa كبيرا، وبدأ عملية عاصفة الصحراء المكونة من ٥٠٠,٠٠٠ من القوات المسلحة تحت قيادة الجنرال "ستورمين" نورمان شوارزكوف، الذى أهلك عدداً عظيماً من قوات صدام، خلال مائة ساعة، مستعيداً استقلال الكويت، وسلماً مضطرباً فى الخليج، ومما يثير الدهشة أن النصر تحقق بعدد يزيد بصعوبة عن ٦٠٠ جريح وقتيل، ورغم أن الحرب كلفت ٦١ مليار دولار، فإن اليابان وحلفاء آخرين دفعوا منها ٥٤ مليار دولار بدلاً من إرسال قواتهم^(٧٠)، بالطبع لابد للخليج أن تجرى حراسته الآن بصورة أكثر يقظة وحذراً، إن أياً من هذه لم يحقق أى تغيير فى سياسات الولايات المتحدة أو اتجاهاتها فيما يتعلق بالطاقة، وظلت منحنيات الاستهلاك البيانية تصعد فى رشاقة إلى أعلى، ورغم أن وزير الخارجية جيمس بيكر أبلغ مجلس النواب، فى فبراير ١٩٩١ بأنه، "لا بد أن نفعل أكثر لاعتمادنا على الغير فى مجال الطاقة"^(٧١)، فإن الرئيس عند تقديمه استراتيجيته الجديدة الخاصة بالطاقة فى مارس - لم يأت على ذكر للمحافظة أو الفاعلية - وطالبت الخطة بالحفر بحثاً عن نفط جديد فى الأركتيك ناشيونال وويلد لايف ريفيوج^(٧٢)، لكنه خفض الإنفاق على النقل على نطاق واسع، ورفض أى زيادة فى معايير فاعلية وقود السيارات^(٧٣)، وقد قاوم كلينتون الدفع إلى الحفر فى القطب الشمالى وأى أراض وطنية، وشدد العديد من إجراءات التحكم البيئية، لكنه لم يغير بصورة هامة سياسات الأمة وممارساتها فيما يتعلق بالطاقة.

وجاءت حرب الخليج بالفعل بواحد من التغييرات الهامة للغاية، فقد انزعج سليل الأسرة السعودية الثرية أسامة بن لادن انزعاجاً شديداً، لإقامة قاعدة جوية ضخمة، ونشر قوة كبرى للولايات المتحدة جنوب الرياض، على أرض العربية السعودية المقدس، واعتبر هذا إهانة فاضحة، ليس فقط للعربية، ولكن أيضاً للإسلام ذاته، فأعلن الجهاد (الحرب المقدسة) على الولايات المتحدة، ومن غير المحتمل حتى لرجل ثرى للغاية أن

(*) القطب الشمالى الوطنى مأوى الحياة البرية (المترجم).

يتصور، كما يشاء صدى هذا الكلام، أنه فى وسعه هزيمة القوة العظمى الوحيدة المتبقية فى العالم، لكن خبرة ابن لادن، مع حرب أمريكية أخرى، منحته سببا للثقة، ففى عام ١٩٧٩ غزا الاتحاد السوفيتى القديم أفغانستان واحتلها، وساعدت الولايات المتحدة خشية انتشار النفوذ الشيوعى على تنظيم وتسليح المجاهدين، المقاتلين المسلمين فى سبيل الله، الذين فى وسعهم شن الجهاد ضد الجيوش السوفيتية الشيوعية، الكافرة، وهزيمتها بمساعدة الله والنقود الأمريكية وصواريخ ستينجر، وكان ابن لادن واحداً من هؤلاء المقاتلين، وغدا مقتنعا بأن السقوط الذى تلى ذلك للاتحاد السوفيتى كان نتيجة مباشرة لأعمال الإذلال التى باشرها فى أفغانستان، وقد أقنعه ذلك أيضا أن الله كان معه، وما دام الأمر كذلك فإن أحدا لن يستطيع الوقوف ضده بنجاح. ولذا، فإنه عندما قرر، فى أعقاب حرب الخليج، تقبل تحدى القوة العظمى المتبقية غير المنهزمة، كان على ثقة تامة فى النجاح النهائى.

إن صدام حسين - وهو مارق حقيقى - دون التباس البتة فى غموضه، قد عاد دون شك، اليوم مرة ثانية، أو ربما نحن الذين عدنا مرة أخرى؛ حيث إن صدام لم يذهب بعيدا، إننا نقول: إن الموضوع اليوم، على أى حال، ليس هو النفط، لكنه أسلحة الدمار الشامل. وبينما كان لذلك حقيقته، فإنه عليك أن تتساءل: إن كان على صدام أن يبالى كثيرا سواء لم تمتلئ خزائنه بحاجات العالم من نفطه، أو سواء لم يجلس على قمة الـ ٧٠٪ من احتياطات بترول العالم، أو يجلس بعد القمة مباشرة. إن منحنا يذكرنى بتعريف الجنون - شخص ما يكرر ذات النهج مرة بعد أخرى، وهو يتوقع نتيجة مختلفة فى كل مرة، من المتوقع من الدول النامية، بما فيها الصين والهند، بعدد سكانهما الهائل، وهما على طريق الصناعة كثيفة الطاقة - أن يتضاعف طلبهما على الطاقة ثلاث مرات خلال السنوات الخمسين القادمة^(٧٣)، وفى نفس الوقت فإن تخفيض الإنتاج فى بحر الشمال وألاسكا وأماكن أخرى، باكتشافات جديدة فى الشرق الأوسط، يعنى فى الغالب الاعتماد العالمى المتزايد، دون شك، على نفط الخليج الفارسى، إن ذلك يتضمن نزاعا إلى مدى أبعد وتشابكا فى السياسات الخطرة للمنطقة.

سبل بوبا المتغيرة

بينما أكتب هذا الفصل فى خريف ٢٠٠٢، كان جارى قد أدار لتوه نافخ أوراق الشجر؛ ليبعد الأوراق التى تساقطت مؤخرا عن مرجه الأخضر فى عيد الشكر، إن له كرشا بعض الشيء، وربما كان جمع الأوراق أفضل له، غير أن استخدامه النافخ أيسر فهو رغم كل شيء، لا يكلفه غير بنسات فقط، إن الشعب الأمريكى، وقد اقتنع أن الطاقة الوفيرة الرخيصة هى من حقوق بكوريته، فإنه يقاوم أى قيد على "حريته" فى الاستهلاك، وهو ينكر أى قول عن الأزمة والحاجة حتى لتغييرات ضئيلة فى نمط الحياة الأمريكية، واستعاد استخدام الطاقة بالنسبة للفرد صعوده، دافعا بنصيب الولايات المتحدة فى استهلاك الطاقة الكهربائية إلى أعلى مرة أخرى، دافعا وارادات الولايات المتحدة نحو ١٥ مليون برميل فى اليوم الواحد، وهى المرادف للنتاج الكلى لكبر منتجين فى العالم، روسيا والعربية السعودية، وينمو العجز التجارى للولايات المتحدة، وهو الآن ٥٠٠ مليار دولار، ويتزايد بطريقة لا سند لها، غير أن قليلين هم الذين يبدون قلقين، إن قادة كل من الحزبين السياسيين يركزون على ما هو ضرورى أيا كان، لإبقاء الأشياء على حالها لأطول فترة ممكنة.

لذا أعلن الرئيس فى أعقاب ١١ سبتمبر عن خطة جديدة للطاقة الوطنية تقوم كلية على سياسة العرض، وقد طالب فيها بإجراء حفر فى القطب الشمالى الوطنى مأوى الحياة البرية، واسترخاء القيود المفروضة على الاستكشافات فى أراضٍ وطنية أخرى، وإقامة ألف مصنع طاقة خلال العشرين سنة القادمة، تدار أساساً بالفحم، وحوافز لتطوير الغاز الطبيعى^(٧٤)، وفى نفس الوقت خفض تمويل البحث حول تقنية طاقة جديدة، تخفيضاً كبيراً، ورفض نائب الرئيس أية فكرة تقوم على أنه فى وسع الأمريكيين القيام بفعل أكثر بإمكانيات أقل، وقال: إنه بينما يمكن أن تكون الصيانة فضيلة خاصة، فإنه ليس فى وسعها حل مشاكل طاقة الأمة^(٧٥)، ولم تشتمل الخطة على ضرائب على الغاز، ولا رسوم على سرعة السير بالميل، ولا أية إجراءات أخرى خاصة بالصيانة من أى نوع، وبينما كان يُقدم هذا البرنامج، كانت الإدارة أيضا تزيد

وزن وقوة القوات العسكرية للولايات المتحدة على امتداد العالم، وبشكل خاص في الخليج الفارسي بسبب الحاجة لضمان انسياب النفط دون عائق، وسار الكونجرس في مناقشاته على هذا النحو، اعترض على أى زيادة في المعايير الاقتصادية للوقود، وقالت السيناتور بربارا ميكولسكى، ديمقراطية، من ماريلاند: إن فرق الأمهات لكرة القدم تحتاج إلى شاحنات نقل كبيرة لتكون آمنة من عثرات الطريق^(٧٦)، وقال السيناتور زيل ميلر، ديمقراطي، من جورجيا: إن "الشاحنة الخفيفة هي الشاحنة المرجوة في أمريكا الريفية"^(٧٧)؛ حيث تحل الكثير من المشاكل، عند نهاية كل يوم عمل، أكثر مما تحل في كل قاعات واشنطن دي سي، واختار الكونجرس ألا يفعل شيئا فيما يتعلق بسرعة السير بالليل عند استخدام الغاز، وكأنه يحاول دعم جانبه الخاص من معادلة ميلر، في الوقت الذي صوت فيه بصورة ساحقة لتفويض الرئيس في الذهاب إلى الحرب مع العراق.

وكان النموذج الذي يحتذى حينئذ هو أن نستخدم بقدر ما نريد، وأن ننتج بقدر ما نستطيع، وأن نقاتل من أجل الحق في فعل الشينيين أيًا كانت القوة العسكرية اللازمة لذلك، إننا عندما ندعو حلفاءنا للقتال معنا، فإننا نُعرِّف أى تردد منهم بأنه عدم الرغبة في القتال معنا، وبالعداء لأمريكا، غير أن العديد من أصدقائنا الأجانب يتسائلون: إذا ما كان هناك ضرورة للقتال إن تصرفنا نحن بمزيد مما يشابههم، ويأقل مما يشابه مارقا تالفا.

هنالك على أية حال مشكلة حقيقية مع التوجه التقليدي للولايات المتحدة إلى الطاقة: إنها تهدد بارتفاع ثمنها بطريقة تدفع إلى الخطر، فكر في الوضع الكوني خلال العشر إلى الخمسين سنة القادمة، إن سكان العالم الحالي ٦ مليار فرد، والمتوقع وصول العدد إلى ٩,٣ مليار حوالى عام ٢٠١٥^(٧٨)، إن هذا النمو سوف يتضاعف مع التصنيع الكوني المتزايد؛ مما سيدفع إلى زيادة سريعة في الطلب على النفط الكوني من ٧٧ مليون برميل في اليوم الواحد حاليا إلى ١٢٠ مليون عام ٢٠١٢^(٧٩)، إن الشرق الأوسط يحتوى حاليا على ٦٣٪ من احتياطات نفط العالم، وما

لم يتم العثور على حقول جديدة ضخمة، فإن انحدار إنتاج الولايات المتحدة وبحر الشمال سوف يدفع ذلك الرقم إلى ٧٠٪ في غضون عشر سنوات^(٨٠)، إن العربية السعودية وحدها تحتوى على ٢٥ - ٣٠ ٪ من احتياطات العالم^(٨١)، إن الزيادة في الطلب سوف تتحقق، ومن ثم سيتم الوفاء بها كلية في الغالب من الشرق الأوسط، وأساساً من العربية السعودية، وحيث إنها اللاعب الذى لديه سعة فائضة، بشكل عملى، فإن العربية السعودية، مثلها مثل لجنة سكك حديد تكساس القديمة، سوف يكون لديها فاعلية سوق هائلة، وقد أطلق جيمس وولسلى المدير السابق لوكالة المخابرات المركزية (سى آى إيه) على هذه الفاعلية إنها "المرادف لسلح نووى"^(٨٢)، إن اليابان تعتمد بالفعل كلية على هذا النفط، وسوف تصبح أوروبا والولايات المتحدة والصين والهند وآخرين هكذا قريباً.

إن للولايات المتحدة مع العربية السعودية تلك العلاقة الخاصة منذ سنين، إن السعوديين لا يبيعون فقط النفط إلى الولايات المتحدة بدولار أقل، من أى أحد آخر، للبرميل الواحد^(٨٣)، لكنهم يسعون أيضاً نطفهم بالدولار؛ مما يساعد الولايات المتحدة على الإبقاء على الدولار باعتباره الوحدة الأساسية للحساب، إن هذه ميزة عظمى، إن كان لا بد من تسعير النفط باليورو، مثلاً فإنه يكون على الولايات المتحدة أن تدفع باليورو بدلاً من الدولار، وسوف يكون ما يتضمنه ذلك أمراً بشعاً، سوف ينفذ ما لدينا من يورو بسرعة فائقة، إذا وضعنا فى الاعتبار عجزنا التجارى الهائل، لقد كان السعوديون هنالك أيضاً عندما احتاجت الولايات المتحدة نقوداً لإعداد المجاهدين فى أفغانستان، أو الكونتراس فى نيكاراغوا، أو لضخ المزيد من البراميل عندما احتاج السوق إلى الاستقرار، وقد قامت الولايات المتحدة فى المقابل بحماية العربية السعودية، وضمنت ملاذاً آمناً لاستثماراتها.

ولكن، فيما يتعلق بالمستقبل، هل يشعر الصينيون والهنود وغيرهم بالراحة وأسطول الولايات المتحدة هو الضامن الأساسى لاستقرار الخليج، ضع فى حسابك أن الولايات المتحدة قد تجد نفسها، من موقف إلى آخر، ولأسباب أيديولوجية

وجيوبوليتيكية، فى نزاع مع الموردين الذين لهم علاقات جيدة تماما مع زبائن آخرين، هل سيكون فى وسع الولايات المتحدة الإبقاء على النوعية الخاصة لعلاقتها مع العربية السعودية فى المستقبل؟ لقد توترت تلك العلاقات فى أعقاب ١١ سبتمبر؛ حيث أبدى الأمريكيون تذمرهم من تعزيز المملكة للتطرف الإسلامى، وافتقادها للديمقراطية، وحقوق المرأة والحرية الدينية، وصدم الكثيرون من السعوديين وأحسوا بالاذى من العدوانية الأمريكية الجديدة، وكان فى وسعهم أن يردوا المعاملة بمثلها، إن التدفق الهائل للأموال - على أى حال - إلى الأنظمة التى يمكن أن تكون عدائية للمصالح والقيم الأمريكية، ليس بالأمر المرغوب فيه، وأخيرا فإن القيمة الجارية للدولار يمكن ألا تكون قابلة للبقاء، فى ظل ما تستورده الولايات المتحدة من كميات يجرى التكهّن بها لعام ٢٠١٢، كل هذا بالطبع، فضلا عن النتائج البيئية لحرق كل ذلك النفط.

لذا تواجه أمريكا اختياراً، إن عدم فعل شيء هو اختيار للعجز التجارى الأكثر ارتفاعاً، ويا للسخرية؛ إذ هو اختيار تقوم به أمة تقدر الاستقلال والحرية فوق كل شيء، اختيار يقوم على الاعتماد الأكبر اقتصاديا واستراتيجيا على الغير، وحتى نوازن، يكون علينا الإبقاء على قوتنا العسكرية بل وزيادتها؛ لأنه إن كان علينا أن نفعل ذلك فى النهاية، ففى وسعنا أخذ ما نحتاجه فقط، ويوجد أسفل هذا الطريق المزيد من التشابك مع أشكال مختلفة من الجهاد، والمواجهة مع الإسلام، والاشتراك البغيض فى سياسات بلاط الأسرة الملكية السعودية.

إن بدا لك هذا مثل وعاء ديدان، فهناك بديلان: أن تكون جادا فيما يتعلق بالحفاظ على الطاقة، وأن تكون جادا فيما يتعلق بتطوير الطاقة التى لا تقوم على البترول، إن الاثنين ليسا تبادليين بصورة مطلقة، والولايات المتحدة، على أية حال، لا تفعل أيا منهما فى اللحظة الحالية.

إن أى جهد جاد للحفاظ على الطاقة يجب أن يجرى تقديره مع البنية التحتية للطاقة الكثيفة للولايات المتحدة، ليس فقط فيما يتعلق بالأمريكيين، ولكن أيضا

فيما يتعلق بالاعتماد الخاطئ للاقتصاد الكونى على تلك البنية التحتية، إن اقتصاد الولايات المتحدة هو القاطرة الوحيدة التى تدفع الاقتصاد الكونى، عندما تسمع شكاوى النقاد من أن أمريكا لديها ٥٪ من سكان العالم، لكنها تستخدم ٢٥٪ من طاقتها، فإن الرد الملائم هو أنها تنتج أيضا ٢٥٪ من إجمالى الناتج المحلى للعالم، وبدون هذا الإنتاج فإن أجزاء كثيرة من العالم تمتلك بالكاد أى إجمالى ناتج محلى يمكن أن تتحدث عنه، ربما تكون منازل أمريكا الكبيرة ذات طاقة غير فعالة، لكنها لا تحتوى على جهاز تلفاز واحد فقط، ولكن على اثنين بل وحتى ثلاثة، وإستريوهات، وحواسيب وسيارات، إن أى تغيير سريع ودرامى فى نمط هذه الحياة سوف يصيب العالم أجمع وليس الأمريكين وحدهم.

ربما تكون أكبر احتياطات الطاقة فى العالم ما تزال فى السيارات والمنازل والمصانع والمباني الإدارية الأمريكية، إن المطلوب ليس الكثير للغاية من التصميمات بحجم أصغر، عندما تعاد الهندسة مرة أخرى، وقد حدث أثناء مناقشات مجلس الشيوخ سيئة السمعة، حول سيارات الدفع الرباعى، والتشريع المقترح لاقتصاد الوقود - أن قال السيناتور جون كيرى، ديمقراطى، من ماساشوسيتس: إن إعلانا لشركة فورد للسيارات جاء فيه أنه يمكنك أن تحظى فى مستقبلك بسيارة دفع رباعى توفر كل الحيز والقوة التى تريدها، بينما تستخدم فقط نصف كمية الجازولين الحالية^(٨٤)، كما تحدث أيضا عن دراسة مقدمة من "الأكاديمية الوطنية للعلوم" تنتهى إلى أن التقنيات المتاحة حاليا، والتحسينات فى سرعة السير بالميل عند استخدام الغاز لأكثر من ٤٠٪، قد تحققت لسيارات الدفع الرباعى وعربات النقل الصغيرة على أسس اقتصادية تنافسية دون تضحية فى الحجم أو القوة بالحصان^(٨٥)، إن مثل تلك التحسينات وحدها هى التى سوف تخفض واردات نفط الولايات المتحدة، كما هو مخطط لها بـ ٦ مليون برميل فى اليوم، وذلك تقريبا هو نفس القدر الذى تنتجه العربية السعودية، والأكثر أهمية أن تلك التقنية سوف تغير بصورة درامية كل التصورات، لو تم تبنيتها بصورة واسعة على امتداد العالم.

ومما يثير الإعجاب أكثر أن مكتسبات الحفاظ على الطاقة يمكن أن تكون ممكنة مع الكهرباء، إن الاستخدام الأكبر للطاقة الكهربائية إنما هو فى المحل الأول من أجل الفضلات، إن فواقد هائلة تحدث عندما تحول الكهرباء إلى شبكة القوة. وكما يشرح أمورى لوفينس من "معهد جبل روكى"، فإن مصانع الطاقة الصغيرة القائمة على اللامركزية يمكن أن تخفض تلك الفواقد كثيرا، بينما تجعل الإمداد بالطاقة، أيضا- أقل عرضة بكثير جدا لأعمال التخريب الإرهابية، إن المثال الذى ذكره لوفيتس، عن التناقض بين سياتل وشيكاغو، فى الفترة من ١٩٩٠ إلى ١٩٩٦ أكثر بساطة وقوة، لقد انخفض الاستخدام السنوى للكهرباء بأربعة آلاف ضعف تقريبا فى سياتل عنه فى شيكاغو، رغم أن الكيلورات - ساعة يكلف ضعف ما يكلفه فى شيكاغو^(٨٦)، وكان السبب أن المرافق فى سياتل ساعدت الناس على التوفير، بينما تلك التى فى شيكاغو تثبط همهم عن فعل ذلك، وقد لاحظ لوفينس أيضا أن تسع ولايات من الولايات المتحدة كافأت منذ عقد مضى المرافق لمساعدتها الزبائن على تخفيض الاستخدام بدلا من أن تبيع لهم المزيد من الطاقة، وقد تخطت اليوم العديد من الولايات عن التجربة، غير أن توجهها إقليميا فى نيو أنجلند، يبنى على أساس قيام المرافق بأعمال التفتيش فى الموقع، وتقديم تخفيضات على تركيب معدات أكثر فاعلية؛ مما منع فترات التعتيم التى كان وقوعها يكاد يكون مؤكدا. ويسمح للأعمال فى المملكة المتحدة بالحصول على تخفيض ضريبي على استثمارات توفير الطاقة بالقدر الذى تخفض به تلك الأعمال من فاقد الطاقة، وإن طبقت تلك الممارسة فى الولايات المتحدة فيمكن أن تكون لها نتائج درامية، كذلك قدر لوفينس أن تبنى الولايات المتحدة لمصانع النمط الأوربي التى تتحد فيها الحرارة والطاقة يمكن أن تخفض استخدام الوقود فى الولايات المتحدة بمقدار الثلث. فى وسعى أن أواصل، لكن النقطة أنه حتى دون إجراءات شديدة القسوة، فإنه يمكننا تخفيض استخدام الطاقة بطريقة درامية كذلك تخفيض أهمية النفط، ليس فقط بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة، ولكن أيضا بالنسبة للاقتصاد الكونى.

وتوجد تقنيات واعدة يمكنها بواسطة ذات الصلة المميزة - أن تزيد كثيرا من إمداد الطاقة دون استخدام الوقود الحفري على وجه الإطلاق، لقد برهنت أوروبا واليابان على أن الطاقة النووية يمكن أن تكون آمنة واقتصادية، وتبشر التقنيات الجديدة لمعالجة الفضلات النووية بتخفيض كبير لأخطارها، إن الدانمارك تحصل بالفعل على قرابة ٢٠٪ من طاقتها من قوة الرياح، وتحصل مصانع الاتحاد الأوروبي على ٢٢٪ كاملة من كهربائها من قوة الرياح عام ٢٠١٠ في الغالب^(٨٧)، إن قوة الرياح يمكن أن تلبي أيضاً جزءاً كبيراً من احتياجات الولايات المتحدة بأسعار تنافسية، ولقد ثبت في السنوات القليلة أنه في وسع المحفزات الإحيائية المعدلة وراثياً أن تنتج إيثانول (الكحول الإيثيلي) من نوع من مادة نباتية خشبية، إن احتمال الحصول على كميات كبيرة من الطاقة الصديقة للبيئة من الفضلات النباتية وأجزاء من جنوع الشجر المتخمرة تخمراً بسيطاً، احتمال قائم، إن إنهاء البلمرة^(*) حرارياً يحول الفضلات أيضاً، مثل جيفة الحيوان، والإطارات المستعملة إلى وقود ديزل عالي الجودة^(٨٨)، وربما كمن الاحتمال الأكثر درامية في استخراج الطاقة من الهيدروجين عبر استخدام خلايا الوقود، هذه التقنية يمكن أن توفر الطاقة للمصانع والمباني والمساكن، وكذلك الحلول بالمثل محل الجازولين في السيارات والشاحنات، إن الأوتوبيسات تستخدم الهيدروجين بالفعل الآن، في بعض المدن، كما تفعل ذلك أيضاً بعض المباني، مثل بناية كوندية ناست في مانهاتن^(٨٩)، إن كل شركات السيارات تجري تجارب على العربات التي تعمل بطاقة الهيدروجين، وقد عرضت جنرال موتورز منذ فترة قريبة نموذجاً أصلياً يدعى "هاى واير" في معرض باريس للسيارات، إن النقطة مرة أخرى هي أن الكثير يمكن تحقيقه بالتقنية من أجل الحل الفوري للعديد من المشاكل، وتعمل حكومة الولايات المتحدة، في اتحاد مع شركات السيارات، حول تقنية خلية الوقود، التي عزز الرئيس

(*) البلمرة هي تحويل مركب إلى مركب آخر (المترجم).

بوش دعمها بـ ٢ مليار دولار^(٩٠)، بينما التباين مع بنائنا العسكرى الحديث قوى شديد الأثر، لقد أقر الكونجرس، للحال، فى أعقاب سبتمبر ميزانية تكميلية قدرها ٤٠ مليار دولار، زيادة، ذهب الكثير منها إلى البنتاجون، مع اقتراح من إدارة بوش بـ ٤٦ مليار دولار، زيادة إضافية عام ٢٠٠٢، وهى أكبر زيادة سنوية منفردة منذ عام ١٩٨٢^(٩١). وكانت الـ ٦٠ مليار دولار التى أنفقناها كمسألة طبيعية على حراسة الخليج الفارسى، فى طريقها للزيادة أيضا لمعالجة مشاكل العراق، ومهما كان ذلك ضروريا، فإننا لا ننفق ٥٠ أو ٦٠ مليار دولار على تطوير موارد طاقة بديلة، ومع ذلك، فإن هذا الوقت يبدو وقتا مناسباً لإعادة التفكير فى الاقتراحات التى طرحت عبر السنوات لإطلاق مشروع نمط أبوللو أو مانهاتن للطاقة، يقتضى تطوير بعض التقنيات، مثل خلايا الوقود الهيدروجينية، بالطبع، بعض الوقت بغض النظر عن قدر الاستثمار، ولكن هذا تحديدا هو السبب، لماذا يجب أن نبدأ الآن، وفى تلك الأثناء، فإن التقنيات المؤقتة، مثل السيارات الهجين، يمكن أن تحظى بدعم قوى كبرى للغاية.

إذا لم يكن فى وسع بوبا تغيير أساليبه، وأن يصبح مواطنا كونيا طيبا، فإنه يغامر بأن يصبح، أكثر فأكثر، مثل المارقين الذين يحاولون فرض النظام عليهم.

الفصل الخامس

من الذى خسر كيوتو؟

"تعال لترانا ونحن ما نزال هنا"

- وزارة السياحة

جزر المالديف

إن كنت تبحث عن بقعة نموذجية، تبتعد فيها عن البقع كلها، فأنت تبرم صفقة أسوأ من صفقة جزر المالديف، إنها مجرد بقع فى المحيط الهندى، على بعد ألف ميل تقريبا من الهند، ومناخ تلك الجزر المرجانية الرملية مناخ جميل شبه استوائى، وشواطئها عظيمة، وعدد سكانها يبلغ الـ ٢٧٥٠٠٠ نسمة، هدفهم فى الحياة هو التأكد من راحتك التامة ورضاك، إن كان ذلك يغريك فاحجز تذكرة الآن بالطائرة؛ إن أعلى نقطة فى هذه الجزيرة يبلغ ارتفاعها خمسة أقدام فوق سطح البحر، ويبدو أنها تختفى بشكل واضح، مع موت شعابها المرجانية، وارتفاع البحر وتجريف الشواطئ، كادت موجة غربية عام ١٩٨٧ أن تكتسح سيارة الرئيس مأمون عبد القيوم، ومنذ ذلك الحين، أصبح سكان الجزر أكثر اهتماما بموضوعات مثل الاحتباس الحرارى، وذوبان قمم تلوج القطب الشمالى.

وقد أخبر الرئيس قيوم، الرئيس الأمريكى حينذاك جورج هـ. دبليو. بوش، فى قمة الأرض بربو عام ١٩٩٢- أن ارتفاع أقدام قليلة سوف يكون نهاية بلدنا، وحتى لا

يقلق، أجاب بوش وهو يقلد، عن غير قصد، الملك كاثوت، "إن الولايات المتحدة لن تسمح بحدوث ذلك لجزر المالديف"^(١). ثم لحق الرئيس بكل قادة العالم، تقريبا، فى إلزام بلده بأخذ الخطوات التى تقلل انبعاثات غازات ما تسمى بالصوبات، وتنقص الاحتباس الحرارى الكونى.

تصور الصدمة التى أصابت وسط المحيط الهندى، فى ٢٨ مارس ٢٠٠١، عندما أعلنت إدارة بوش الأصغر أن الولايات المتحدة لن تدعم التصديق على بروتوكول كيوتو الساعى لتخفيض الاحتباس الحرارى الكونى، انتهى بروتوكول كيوتو، اليابان، فى ديسمبر ١٩٩٧، بعد مفاوضات شاقة، بدعوة الموقعين إلى تخفيض انبعاثاتهم من غازات الصوبات التى تغير المناخ حتى عام ٢٠١٠ بنسبة ٧٪، أقل من مستويات عام ١٩٩٠، ورغم أن هذا التخفيض كان، من الناحية العملية، أقل من نسبة ٦٠ إلى ٨٠٪ اللازمة لإنقاذ جزر المالديف من الغرق، فإن المالديفيين ومواطنى البلدان المنخفضة اعتبروا ذلك أفضل من لا شئ، وقالت كريستين تود هوايتمان رئيسة وكالة بوش لحماية البيئة: "إن معاهدة كيوتو كانت "ميتة"، بالنظر إلى ما يهم الإدارة، وأنه على الأوروبيين واليابانيين، إن أرادوا عقد اتفاقية - أن يتخذوا توجهاً آخر"^(٢)، وإذا كانت هذه الأخبار قد أثارت المالديفيين، فإن أجزاء كثيرة من باقى أنحاء العالم، وخاصة أوروبا، قد سخطت أشد السخط.

ولم يكن التوقيت معاوناً، جاء بيان هوايتمان قبل يومين من قيام جيرهارد شرويدر رئيس وزراء ألمانيا، الذى كان يحكم عبر تحالف مع "حزب ألمانيا الأخضر"، بزيارته الأولى لبית بوش الأبيض الجديد (هل يمكن أن يكون لهذا علاقة ما بممانعة شرويدر الأخيرة لدعم بوش فى العراق)، كما جاء البيان أيضا بعد أسبوع فقط، من إرسال الاتحاد الأوروبى خطابا يستحث فيه بذل جهود متجددة للاتفاق حول موضوعات الاحتباس الحرارى الكونى، وقبل شهرين ونصف من تحديد بوش موعدا لمشاوراته الأولى مع القادة الأوربيين فى استوكهولم، السويد، جاء الإعلان

كصفعة فى الوجه. كما لم يؤد حديث الرئيس فى ١١ يونيو، الذى أدلى به مباشرة قبل ساعات قليلة من سفره إلى إستوكهولم، إلى إحساس أحد بالهدوء أو السكينة، فقد وصف بروتوكول كيوتو بأنه اتفاقية يشويها "خلل قاتل" وأهداف غير واقعية لا تقوم على العلم"، وقال الرئيس: إنه لن يستجيب لأية تكليفات يمكن أن تكون لها أثر اقتصادى سلبى، مع تسريح العمال وزيادة فى الأسعار على المستهلكين^(٣).

وكان رد فعل العالم الدبلوماسى؛ حيث يُنظر إلى "التعبير عن القلق" كتوبيخ ما، جاء الرد خشنا بصورة غير عادية، وصفت الحكومة السويدية فى إستوكهولم قرار الولايات المتحدة، بأنه "مروع واستفزازى"، ووصف ميشيل ميشر، وزير البيئة البريطانى - الإعلان الأمريكى بأنه "خطر للغاية" وأنه "موضوع يخص السياسة عبر الأطلنطية والكونية والأجنبية" - بينما قال الاتحاد الأوروبى: إنه كان "مثيرا للقلق للغاية". وذهب البرلمان الأوروبى إلى أبعد من ذلك قائلا: "إننا مروعون للتضحية بمصالح غالبية سكان العالم طويلة المدى، من أجل الجشع قصير المدى لشركات الولايات المتحدة". واستحثت اليابان واشنطن أن تعيد التفكير، وأكدت أستراليا أنه بالنظر إلى استهلاك أمريكا الهائل للموارد، فإن عليها مسئولية تخفيض انبعاثات غازات الصوبات^(٤). وصرخت الجارديان، وهى أقل تقيدا بصورة ما، بأن التخلّى عن المعاهدة هو "فعل على نمط ما تقوم به طالبان من أفعال تدمير وحشية"^(٥).

وقد قال المرشح بوش بالفعل، خلال الحملة الرئاسية عام ٢٠٠٠: إنه سيكون أكثر صرامة، فيما يتعلق بانبعاثات مصانع الطاقة، ومن ثم أعطى الانطباع بأنه كرئيس سوف يكون مهتما بالبيئة، وبالكاد بعد ستة أسابيع من تقلده منصبه، سحبت الإدارة الجديدة، على أية حال - إعلانها الخاص بحماية أسماك سليمان والسالمون المرقط المعرضة للخطر، ثم قام بوش فى ١٣ مارس عام ٢٠٠١، بصورة معاكسة لما تعهد به خلال حملته بتخفيض التلوث بالكربون، وذلك بتخفيف، لا تشديد، الإجراءات المنظمة

لانبعاثات مصانع الطاقة، لقد فعل ذلك رغم مذكرة لمديرة "وكالة حماية البيئة" هوايتمان التى تقول: "إننى أركى بقوة أن نواصل الاعتراف بأن الاحتباس الحرارى الكونى موضوع خطير بحق"، وأضافت: "السيد الرئيس، إن الموضوع موضوع مصداقية الولايات المتحدة أمام المجتمع العالمى"، وهو موضوع له صدها هنا فى الوطن، إننا فى حاجة للظهور مترابطين"^(٦)، وقال الرئيس مجادلا بأن لدينا حالة طوارئ اقتصادية بسبب النقص فى الكهرباء، ومن ثم فإن الحصول على طاقة إضافية، أكثر أهمية من معالجة الانبعاثات، فى الوقت الراهن، وتبع ذلك، فى ٢٠ مارس، بأوامر تخفف الإجراءات المنظمةة للزرنخ فى مياه الشرب.

وبدا قرار كيوتو، فى أعقاب تلك الحركات، وكأنه يمثل روحا معادية بعمق للبيئة داخل الإدارة، وغدا مثلاً للتبذير واللامبالاة والغطرسة الأمريكية، لقد كانت أمريكا، حتى الآن قائد الأمور البيئية، حقا، كانت هى من اخترع البيئة. والآن، يرانا الآخرون، فجأة، كالفتيان السيئيين بسياستنا البيئية، التى هى بصورة ما رمز لكل ما هو خطأ فى أمريكا، إننى أتساءل: كيف وصلنا إلى هذا الحد؟

البيئة: صنعت فى أمريكا

قاتل الأمريكيون الأوائل الفرنسيين والهنود، ثم البريطانيين، غير أن ما حاربوه أكثر كان الأشجار، لقد اصطفت الفأس جنبا إلى جنب مع البندقية كأداة أساسية للتخوم والحدود، ورائحة الأخشاب المحترقة تطلق فوق المستوطنات الجديدة، كان شارلز ديكنز هو أول من جذب الانتباه للتدمير الذى تقوم به أعمال القطع تلك، كعمل انتقامى فى: مذكرات أمريكية"، وهى رواية سفر على "الطريق الوطنى" عام ١٨٤٢، وأصبح القلق من القطع الجائر للأشجار خطيراً، وغدا جورج بريكينز مارش، أول محافظ على البيئة مع نشر كتاب "الإنسان والطبيعة"، وهو كتاب يقول بأن لقطع الأشجار نتائج كارثية على التربة والطقس المحلى، وصدر فى نفس العام كتاب "غابات

مين لهنرى دافيد ثورو، نشر بعد وفاته، دعا فيه إلى إقامة حدائق وطنية، وتقدم الكونجرس بتشريع يمنح به "يوسيمات فالى" إلى ولاية كاليفورنيا كحديقة عامة - ثم أعد الكونجرس عام ١٨٧٢ "يلوستون"، كالحديقة الوطنية الأولى - الأولى فى العالم، وهو قانون قلده الكثيرون فى أنحاء العالم، منذ ذلك الحين، لكن المقلد الأكبر لم يكن أحد غير الرئيس تيودور روزفلت الذى جعل من نفسه الرئيس المحافظ على البيئة، وذلك بإقامة ١٧ حديقة وطنية ونصبا تذكارية. ووضع أساس تأسيس "خدمة الحدائق الوطنية"، وتبعه، فى ذلك، ابن عمه فرانكلين روزفلت، اتبع خطى تيدى بإنشاء "فرقة المحافظة المدنية" خلال "الركود العظيم"، لتوفر وظائف بإعداد الكثير من البنية التحتية البيئية التى سنعتمد نحن عليها.

وبرزت فجأة على المشهد، عام ١٩٦٢، راشيل كارسون بكتابتها "الربيع الصامت"، وهو كتاب انفجر انفجارا أطلقت عليه الحركات البيئية "الطلقة التى دوت فى العالم كله"، لقد قدمت دراسة محكمة تقوم على أن العناصر الكيميائية التى اعتدنا النظر إليها كأساس لنمط حياتنا الحديثة التقدمية كانت، فى حقيقتها، تقوم بتسميم أجزاء كبيرة من السلسلة الغذائية، بما فيها البشر، وقد تابعت كارسون - بصورة خاصة - الانتشار القاتل للددى دى تى من عملية رش أشجار الدردار للتحكم فى المرض، إلى قتل الطيور، إلى إصابة الأسماك بالأمراض الخبيثة، إلى الإضرار بالكبد والجهاز العصبى المركزى فى البشر، وعندما ماتت كارسون بالسرطان، عام ١٩٦٤، كانت قد بدأت حديثا ظل دائرا حتى قاد إلى تأسيس الرئيس ريتشارد نيكسون لأول "وكالة لحماية البيئة" فى العالم، عام ١٩٧٠.

فى وسعى المواصلة بتقديم المزيد من الأمثلة، لكن النقطة هى أنه لاكثر من قرن كانت الولايات المتحدة هى التى قادت الطريق حول القضايا البيئية، كان تركيزها الأساسى محليا، غير أنها أمسكت بالقيادة بالمثل فى الموضوع الكونى الدقيق لثقب الأوزون.

ثقب فى السماء

جاءت فى طبعة "الناتشر"، فى يونيو عام ١٩٧٤، مقالة بقلم ف. شيرود رولاند، بروفيسور فى الكيمياء، بجامعة كاليفورنيا، إيرفين، وماريوج. مولينا زميل ما بعد الدكتوراه فى معمل رولاند، تدور حول مجموعة من الكيماويات تسمى كلورو فلورو الكربون، وبالنظر إلى تكوينها الاثنى، فهما الغازان اللذان اخترعا فى الثلاثينيات للاستخدام فى التلجيات، وأجهزة تكييف الهواء والبرامج التلفزيونية الجذابة، وقد حدث "هبوط ستراتوسفيرى" (*)، لأن مجموعة كلورو فلورو الميثان - الكلور الذرى، حفزت تدمير الأوزون، ومما لا يثير الدهشة أن غالبية الناس لم تلتفت إلى ذلك، بدأت الورقة، على نحو لا ضرر منه، بذكر ما يعرفه كل فرد بالفعل، وهو أن الميزة الأساسية لهذه المركبات هى أنها فى الغالب هامة كيميائيا، ومن ثم ليست سامة، وكانت تنطلق إلى الجو فى كميات متزايدة، بطريقة مطردة، حتى إن استقرارها فى حده الأقصى، كان يعنى بقاءها هنالك من ستين إلى مائة عام، وأن الطريقة الوحيدة التى يمكن أن تتحطم بها تلك الكيماويات، كما لاحظ المؤلفان، هى انجرافها فى طبقات الجو العليا، وتحطيمها إلى أجزاء عن طريق الأشعة فوق البنفسجية، وهى عملية تعرف باسم "الفصل الضوئى"، ثم أطلق المحرران العنان لضربتهما القاصمة فقالا: "إن عملية الفصل الضوئى لمجموعة كلورو فلورو الكربون من الستراتوسفير تنتج كميات لها وزنها من ذرات الكلور، وتؤدى إلى تدمير الأوزون الجوى" (٧).

حسنا، وماذا بعد؟ اهتم - فى ذلك الوقت - قليل من الناس بالأوزون، الذى هو شكل من الأوكسجين غير المستقر بصورة كبيرة، يميل لونه إلى الزرقة، وله رائحة لاذعة، وهو سام، وهو يستخدم عند مستوى البحر فى عدد من المنتجات مثل المواد اللازمة لتبييض الألوان، وإبادة الجراثيم، وإزالة التلوث، إنه يشكل، أيضا، وبصورة طبيعية،

(*) الجزء الأعلى من الغلاف الجوى (المترجم).

حوالى ٢٠ ميلا فوق الأرض فى الستراتوسفير، من خلال تفاعل الضوء الشمسى فوق البنفسجى مع الأوكسجين^(٨). ورغم أن أوزون الستراتوسفير هذا نحيل ورقيق للغاية فإنه حاسم وخطير بالنسبة للغالبية أشكال الحياة؛ لأنه يعترض، كطبقة، سبيل غالبية الأشعة الشمسية فوق البنفسجية، وهى أشعة تضر النبات والحشرات والطيور، وتسبب السرطان للبشر، إن ما كان يقوله رولاند وموليننا حينذاك هو أن طبقة غير مرئية مكونة من جزيئات، هى بصورة أو أخرى ضرورية للحياة على الأرض، هذه الطبقة كانت تتاكل بفعل الإشعاع فوق البنفسجى على مجموعة كلورو فلورو الكربون فى الستراتوسفير.

غير أن كل هذا كان كلاما نظريا إلى حد كبير، لم ير أحد أيا من تلك الأشياء التى تحدث، كان رد الفعل الشامل للصناعة، وعند العامة والقادة السياسيين - أنه إن لم يحدث تغير ملحوظ قلن يكون هنالك علاج، ويبدو أنه لم يحدث تغير ملحوظ.

وجاء العام ١٩٨٥، ونشرت "ناتشر"، فى ١٦ مايو من هذا العام، ورقة أخرى حول الأوزون بقلم جوزيف فارمان عضو "المسح البريطانى للأنتاركتيكا"^(*)، وهو عضو كلية بجامعة كامبريدج، وكان قد زار أنتاركتيكا سبعا وعشرين سنة متتالية دون انقطاع، ما بين عام ١٩٥٧ وعام ١٩٨٤، وكانت واحدة من مهامه كل عام، قياس مستوى الأوزون فى السماء فوق الرأس، ورغم أنه كان عارفا بمقالة رولاند وموليننا، فإنه كان متشككا، حتى بينت قراءاته عام ١٩٨١ وجود هبوط فعلى فى طبقة الأوزون، فكر حينئذ أن المعدات قد تكون غير معايرة، وأنه يتوجب عليه إعادة ضبطها، غير أنها أظهرت نفس الشيء عام ١٩٨٢، ومرة أخرى عام ١٩٨٣، وفى عام ١٩٨٤ هبطت القراءات عن المتوسط بنسبة ٤٠٪، واتسع ثقب الأوزون ليصل إلى تييرا ديل فوجو عند

(*) قارة غير مأهولة حول القطب الجنوبي (المترجم).

طرف أمريكا الجنوبية، وكشف المزيد من مراجعة قراءاته أن الهبوط قد بدأ فعليا
حوالي عام ١٩٧٧^(٩).

ونشرت "الأكاديمية الوطنية للعلوم"، في ذات الوقت تقريبا - ورقة مثل ورقة
فارمان، تقدر فيها أن طبقة الأوزون يمكن أن تهبط بصورة متوسطة فقط، أو لا
تهبط البتة، في القرن القادم^(١٠). غير أن "ناسا" تدخلت، كان قمرها الصناعي
"نيمبوس ٧"^(*) يدور حول الأرض فوق القطبين كل ساعة ونصف منذ عام ١٩٧٨،
وكان المفروض فيه أن يرصد طبقة الأوزون، لكنه لم يجد شيئا ناقصا، لكن الناسا بعد
مقالة فارمان فحصت معداتها، ووجدت أن القمر الصناعي قد تمت برمجته ليتجاهل
أى أرقام أسفل مستوى معين باعتبارها أرقاما واضحة الخطأ، وأعدت الناسا
برمجته، فأكد القمر الصناعي أن القراءات الخاطئة كانت صائبة، بل وأسوأ مما
قاسها فارمان، كان هناك بالطبع جهد أساسى للتقليل من أهمية النتائج، وأوصى
وزير الداخلية الرئيس ريجان أن يضع الناس فقط قبعات، ونظارات داكنة، وستائر
واقية من الشمس، ولكن عندما سلط الأطباء الضوء على ١٢٠ حالة إضافية من
سرطان الجلد، وهى مسألة تعلو فوق كل شئ آخر، وعلى أضرار أخرى تنبأ بها علماء
آخرون^(١١)، كان من العسير أن يحس المرء بالسعادة.

كانت السماء تعاني، فى الحقيقة، تغيرا ملحوظا، وكان لا بد من إصلاح هذا
التغير سريعا، وبدأت المناقشات الفعلية الدولية حول استنزاف الأوزون عام ١٩٧٦
تحت رعاية "برنامج الأمم المتحدة للبيئة" "يونيب"، وبدأت مفاوضات ١٩٨١ بهدف
الوصول إلى اتفاقية تضع خطة للوقف التدريجى لاستنزاف مواد الأوزون، وانتهت عام
١٩٨٥ بتبنى اتفاقية جنيف التى شجعت التعاون ما بين الحكومات، فى بحث وملاحظة
طبقة الأوزون وتبادل المعلومات، وفى كلمات أخرى، كان ذلك الاتفاق نمراً دبلوماسيا

(*) السحابة الممطرة فى طول السماء وعرضها (المترجم).

بلا أسنان ولا أهداف، ولا أساليب ضبط وتحكم، ولا التزامات مقيدة، إننى أتذكر، بوصفى عضواً فى إدارة ريجان، فى ذلك الوقت، القلق الذى ساد بين العاملين حول خطورة الوضع، وقد فكر الكثيرون أن ذلك يرجع إلى المعارضة العامة للإدارة للإجراءات الحكومية للضبط والتقييد، وعلاقتها الوثيقة بالصناعة؛ مما يجعلها تتفادى أو ترفض أى فعل علاجي، غير أن مدير وكالة حماية البيئة لى م.توماس يصر على أن ذلك شيئاً يتوجب على الولايات المتحدة أن تمسك بقيادته، وهو قد عمل عن قرب مع المنتجين الأمريكيين الكبار لكلورو فلورو الكربون، وقاد "نوبونت" الطريق للالتزام ببدائل، ووضع خطة للوقف التدريجي لإنتاج كلورو فلورو الكربون، وأرسل فى نفس الوقت السفير ريتشارد أ.بنيديك إلى مونتريال فى صيف عام ١٩٨٧ لقيادة وفد الولايات المتحدة فى التفاوض حول اتفاقية بولية مقيدة حول تخفيض استخدام وصناعة كلورو فلورو الكربون، والتخلص منه فى النهاية، وتم التوصل فى ١٦ سبتمبر إلى اتفاقية حول "بروتوكول مونتريال"، طالبت بتخفيض ٥٠٪ من مستوى استهلاك كلورو فلورو الكربون عام ١٩٨٦ حتى عام ١٩٩٩^(١٢)، كانت النية أن تكون الاتفاقية عالمية، غير أن الدول النامية مُنحت فترة إعفاء من شروطها، مدة عشر سنوات، بسبب كل من المستوى المنخفض نسبياً من الاستهلاك وصعوبات التحول إلى التقنية التى تحل محله، وجاء الإذعان، فى الحقيقة، أسرع بكثير مما كان مقدراً، كان أغلب الخبراء يرون عام ٢٠٠٣، أن طبقة الأوزون يمكن أن تعود إلى وضعها الطبيعى فى منتصف القرن الواحد والعشرين^(١٣).

ارتفعت التحذيرات عالية وعديدة من مشكلة ثانية مع الغلاف الجوى، وتوقع كثيرون أنها سوف تحل مثلما حلت مشكلة الأوزون، باتفاقية واضحة وفعالة تتمتع بدعم عالمى واسع، تقودها الولايات المتحدة مرة ثانية، إنهم على الأقل لم يروا، لماذا لا يكون هذا ممكناً؟ كان تناول ثقب الأوزون، كما يجرى تناول الموضوعات الكونية، متفرداً من نواح عديدة: كان وراءه سبب واحد، مصادره قليلة، ويمكن تحديدها بسهولة، كما كان من الممكن تقدير نتائج التراخى بسهولة، مع وجود فعلى لبديل

نموذجى وملائم كى يحل محل كلورو فلورو الكربون، ومع تغير المناخ، والدور المفترض لثانى أكسيد الكربون فى رفع درجات حرارة العالم على اتساعه، فإن لا شىء مما هو سابق كان حقيقيا. إن المصادر لا نهاية لها، أنت تخرج ثانى أكسيد الكربون، وكذلك كلبك وبراعيته، والبكتيريا فى مصرف حمامك. هذا فضلا عن سيارتك والفرن الخاص بك. وكل الأسئلة الكبرى - عن نتائج الاحتباس الحرارى الكونى، وكم منها ناجم عن النشاط الإنسانى، بل وحتى إذا ما كانت تحدث أصلا - ما تزال فى عملية البحث عن إجابة.

من الأوزون إلى غازات الصوبة

لم يتساعل أحد، قبل عام ١٨٢٠، عن سبب ازدياد حرارة الأرض، حدث فى ذلك العام أن جين بابتيست - جوزيف فوريير هاجم السؤال الخاص بالكيفية التى تحتفظ بها الأرض بحرارة الشمس بدلا من عكسها مرة أخرى فى الفضاء. كان فوريير قد أصيب بعدوى "الميكسيديما" (*)، بينما كان يخدم فى "هيئة العلماء" التى رافقت نابليون فى حملته على مصر، وهو مرض يجعل المرء يحس دوما بالبرد، وبعد عودته إلى فرنسا، كان يرتدى معطفا طوال العام، وكرس جزءا كبيرا من الوقت لدراسة الكيفية التى تنتشر بها الحرارة. كان قد توصل إلى أنه بينما يرتد بالفعل الكثير من الحرارة مرة ثانية، فإن الغلاف الجوى يمسك ببعضها ويعيد عكسها مرة أخرى إلى سطح الأرض، وقارن هو هذا بجرس عملاق يصدر صوتا لا تستسيغه الأذن، قبيته سحب وغازات تمسك بما يكفى من حرارة لجعل الحياة ممكنة، وصدرت مقالته: "ملاحظات عامة حول حرارة الكرة الأرضية والفضاءات الكونية"،

(*) أديما مخاطية، مرض جلدى ناشئ عن قصور فى الغدة الدرقية، ويتميز بجفاف الجلد وفقدان النشاط العقلى والجسدى (الترجم).

التي نشرت عام ١٨٢٤، ولم يعتبر هذا العمل فى الحقيقة أفضل أعماله، ونُسيت حتى نهاية القرن^(١٤).

وطور الفيزيائى السويدى سفينت أرهينيوس، عام ١٨٩٥ وكان قد قرأ عمل فوريير أول نموذج نظرى لحساب تأثير ثانى أكسيد الكربون على درجة حرارة الأرض^(١٥). وتوصل إلى أن نقصا يصل إلى حوالى ٤٠٪ من ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى، سوف يؤدى إلى انخفاض درجات الحرارة من ٤ إلى ٥ درجات مئوية (٩-٧ درجات ف). ويطلق عصرا جليديا جديدا، وأن مضاعفة هذه المستويات سوف يرفع، لنفس السبب، درجات الحرارة من ٥ إلى ٦ درجات مئوية (٩-١١ درجات ف). وقدّر، فيما بعد، أن ذلك سوف يقتضى حوالى ثلاثة آلاف عام من حرق الوقود الحفري لتحقيق هذه المضاعفة، إن مرحلة ترتفع فيها درجات الحرارة ارتفاعا رقيقا، بالنسبة لرجل اعتاد فصول الشتاء الشمالى القاسى لعصر الجليد الصغير، لا بد أن تبدو مشهدا يبعث على السعادة.

بعد سنوات قليلة، من نشر حسابات أرهينيوس جاء "سبيندلنوب" على غير توقع، تتبعه اكتشافات حقول النفط الأخرى فى تكساس وأوكلاهوما. وحلّ نموذج هنرى فورد T " محل الخيول بصورة أسرع بكثير مما توقع أى أحد، بينما دفع ضوء أديسون الكهربى الطلب لإنتاج الطاقة الكهربائية، وتسارع حرق الوقود الحفري كثيرا أكثر مما توقع أرهينيوس، لكن أحدا لم يكن يهتم، إذا ما كان ذلك سوف يؤثر على الطقس، باستثناء جورج كاليندر الذى نشر فى عام ١٩٢٨ مقالة بعنوان: "الإنتاج الاصطناعى لثانى أكسيد الكربون، وأثره على درجة الحرارة"^(١٦)، وحسب كاليندر، بناء على بيانات جمعها من مائتى محطة خاصة بحالة الجو، على امتداد العالم، ما بين عام ١٨٨٠ - ١٩٢٤، أن الأرض قد ارتفعت حرارتها بحوالى درجة واحدة فهرنهايتية (٥٥، ٠ م) فى ذلك الوقت، وتنبأ بارتفاعها درجتين (١٠، ١ م) خلال القرن القادم، نتيجة إطلاق ثانى أكسيد الكربون فى الغلاف الجوى، وأصدر فى عام ١٩٥٦، بعد ثمانية عشر عاما من جمع المزيد من البيانات، حسابات توضح أن تركيز ثانى

أوكسيد الكربون فى الغلاف الجوى يتزايد من ٢٩٠ جزءا لكل مليون (بى بى إم) عام ١٩٠٠ إلى ٣٢٥ جزءا عام ١٩٥٦ وكان هذا المستوى قريبا للغاية من الـ ٣١٥ جزءا لكل مليون التى أعلن عنها تشارلز كيلينج، وهو دارس شاب فيما بعد الدكتوراه فى "معهد كاليفورنيا للتكنولوجيا" فى ذات العام. إن هذه الأرقام والمنحنىات أطلقت مقالة تمثل نقطة تحول، فى السنوات التالية، بقلم روجر ريفيل وهانز سوس، وكلاهما من "معهد سكريبس لعلم المحيطات"؛ إذ لاحظا أن "البشر ينفذون خطة تجربة جيوفيزيائية واسعة المدى، وذلك بأن يعيدوا الكربون العضوى المركز المختزن فى الأرض خلال مئات السنين إلى الغلاف الجوى فى أقل من قرون قليلة^(١٧). إن قياسات كيلينج، خلال العشرين سنة القادمة، أكدت فقط هذه النقطة. وقد ارتفع منحنى كيلينج بثبات من ٣١٥ جزءا لكل مليون عام ١٩٥٦ إلى ٣٦٥ جزءا لكل مليون عام ١٩٩٧^(١٨).

وارتفع القلق أيضا بارتفاع منحنى كيلينج؛ لما لذلك من دلالات، وبدأ الناس وقد غدوا حساسين بالفعل للمخاطر البيئية، مثل تلوث المياه، والمبيدات، يتنبهون إلى حالة الجو، وبدأ جون مك جوان، من معهد سكريبس، بداية بالسستينيات فى ملاحظة أن المياه قبالة شواطئ كاليفورنيا قد أخذت حراراتها فى الارتفاع تدريجيا، وكانت درجات الحرارة عام ١٩٩٥ تزيد بحوالى ٣ درجات فهرنهيتية عن تلك التى فى عام ١٩٦٠، وبدأ الثلج الذى يغطى "مونت كينيا" فى الاختفاء بصورة واضحة حوالى عام ١٩٦٣، وتضاؤل بحوالى ٤٠٪ حتى عام ١٩٨٧ وبدأ صيف القطب الشمالى يصبح أكثر دفئا بـ ٦ درجات فهرنهيتية خلال عشرين عاما، وضاعفت ثلاثيات "الأنديز البيرونية"^(١٩) معدل ذوبانها ثلاث مرات بين عام ١٩٦٠ وأوائل الثمانينيات^(٢٠)، وقد أثارت تلك النذر مناقشة واسعة حول الاستنتاجات المحتملة وسياسة الإجراءات، وذكر تقرير صدر مبكرا عام ١٩٦٥^(٢١) عن البيت الأبيض حول الموضوعات البيئية والنتائج المحتملة

(*) نسبة إلى بيرو (المترجم).

للاحتباس الحرارى الكونى، ونظم ويليام كيلوج، من "المجلس الوطنى المعنى ببحث الأحوال الجوية" مؤتمرا فى إستوكهولم حول ما أسماه "تعديل المناخ المهمل"^(٢١).

وتضاعفت التحاليل والإرشادات عبر العقدين التاليين، وكتب والاس س. برويكر، من جامعة كولومبيا عام ١٩٧٥، فى مجلة ساينس، متنبئا بتسارع حقيقى فى اتجاه زيادة الحرارة خلال السنوات العشر التالية^(٢٢)، وأطلقت "الأكاديمية الوطنية للعلوم"، بعد عامين تقريرا بعنوان "الطاقة والمناخ"، توصل إلى أن الاحتباس الحرارى الكونى يجب ألا يثير ذعرا أو رضاء عن الذات، ولكن بحثا مكثفا، ونشر ويليام كايلاج ومارجريت ميد، فى ذات العام، "الحالة الجوية: عرضة للخطر وتهدد بالخطر"^(٢٣)، وفيه طالبا "بقانون الهواء"، توافق كل الأمم فيه على تخفيض انبعاثات ثانى أوكسيد الكربون، الخاصة بها، إلى مستوى يتم التفاوض حوله. وعندما تلاشت السبعينيات فى الثمانينيات، بدأ أن الحالة الجوية تتجه إلى تحقيق ما تم التنبؤ به، وزاد معدل تراجع ثلاجات خطوط العرض - الوسطى تسارعا من ٣٠ إلى ٤٢ مترا كل عام^(٢٤). وقد بينت "بحيرة توليك" أسفل "سلسلة بروكس" على "المنحدر الشمالى القارس لالاسكا" ارتفاع ٣ درجات فهرنهايتية (٤, ٥ م) فى درجات حرارة الصيف ما بين عام ١٩٧٩ وعام ١٩٩٤^(٢٥)، وتقلص لوح جليد القطب الشمالى بنسبة ٦/١^(٢٦)، وواصل حد الجليد تراجع، وقد تنبأت نماذج الحاسوب الخاص بالحالة الجوية أيضا، بالمزيد من الاحتباس الحرارى، وانهقد عام ١٩٨٧ مؤتمر كانت ترعاه الأمم المتحدة وكندا وجمعية الأرصاد الجوية الدولية، ضم ٣٣٠ عالما وصانع قرار من ست وأربعين أمة، وأصدروا بيانا يقول: "إن البشرية تخوض، دون عمد، تجربة هائلة وشاملة كونيا. ونتائجها النهائية يمكن أن تجيء فقط بعد حرب كونية ذرية"^(٢٧)، واتجهوا إلى حث أمم العالم المتقدم أن تعمل فى الحال على تخفيض انبعاثات غازات الصوية، لكن عام ١٩٨٨ كان العام الذى دقت أجراسه إنذارا من الاحتباس الحرارى الكونى، كان بالنسبة لمن شاركوا منذ البداية أشد الأعوام المسجلة حرارة، ويقف على قمة أعوام ثلاثة أخرى فى الثمانينيات، كلها فى إيجاز أعوام مسجلة، إن تسعة وتسعين مدينة فى الولايات

المتحدة سجلت أعلى درجات الحرارة على الإطلاق ليوم واحد، كذلك فعلت موسكو، وفي لوس أنجلوس انفجر أريعمائة محول كهربى فى يوم واحد عندما بلغ الزئبق ١١٠ درجة فهرنهايتية (٤٢م)^(٢٨)، وعانى "الميدويست" أسوأ جفاف منذ أيام سحابة الغبار الأشبه بالكرة، بينما احترقت حرفيا "حديقة بلوستان الوطنية"، وفى وسط هذه المحرقة انتصب جيمس هانسن مدير "معهد جودارد لدراسات الفضاء" الخاص بالناسا، فى مواجهة لجنة مجلس شيوخ الولايات المتحدة "المعنية بالطاقة والموارد الطبيعية" وقال: إنه "قد تم الكشف عن تأثير الصوبة، وهو يغير الآن مناخنا". كان هانسن متاكدا ٩٩٪ أن درجات الحرارة الحالية تمثل اتجاها حقيقيا للاحتباس الحرارى فى مواجهة التغير الطبيعى، وأضاف: "إننا نرهق ما لدى المناخ من جدوى"^(٢٩). وعندما يجىء ذلك من خبير مثل هانسن فى حجرات مجلس شيوخ الولايات المتحدة المهيبة، فإنه يمكن القول: إن ذلك قد حدد البداية الحقيقية للمعركة حول الاحتباس الحرارى الكونى، وأسس برنامج الأمم المتحدة للبيئة فى اجتماع، فى تورنتو فيما بعد، فى ذلك الصيف الطويل، "هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ" (آى بى سى سى)، وبدأ الإعداد لمؤتمر كونى حول البيئة والتنمية (والذى غدا معروفا باسم "قمة الأرض") لينعقد فى ريودى جانيرو فى يونيو ١٩٩٢، وسوف يصبح ذلك المؤتمر واحدا من الاجتماعات التى تضع البذور للعقد الأخير من القرن العشرين.

وحتى تدرك ما حدث وما لم يحدث فى ريو، فأنت فى حاجة لفهم بعض القوى والاتجاهات الأساسية التى كانت تظهر فى أواخر الثمانينيات وأوائل التسعينيات، إن أحد العوامل الأساسية كان النقاش الذى دار حول العلم، إذ بينما لم ينازع أحد بيانات كيلينج عن ارتفاع محتوى الكربون فى الغلاف الجوى، كان هناك كثير من النقاش حول الأثر، كان هناك من ناحية هؤلاء أمثال هانسن الذى استنتج تشابها مع تجربة ثقب الأوزون وأكدت فى هذه الحالة، بيانات القياس الفعلية النبوءات العلمية السابقة، واتخذت للحال الخطوات اللازمة لعلاج المشكلة، من خلال تخفيض انبعاثات كلورو فلورو الكربون المتفق عليها عالميا، هنا جادل مرة أخرى هؤلاء الناس بأن

الطقس غير العادى هو الذى يثبت صحة النظرية العلمية، وإن شيئا دراميا ومشابها لبروتوكول مونتريال يحتاج إلى التحقق الآن، وكان هناك من ناحية أخرى أناس مثل ريتشارد ليندزن، اختصاصى علم المناخ من الـ "إم.أى.تى". الذى قال: إن ذلك السبب والأثر ليسا واضحين تماما، ولا يمكن التكهّن بالمستقبل بسهولة^(٢٠). إن العديد من الأحداث المناخية الحديثة كانت، فى المحل الأول، هى "درجة الحرارة الأعلى منذ" أو "العاصفة الأسوأ منذ". غير أن "منذ تلك تعنى أنه كان هناك حدث درامى مبكر قبل تراكم كربون الغلاف الجوى، والبداية المفترضة للاحتباس الحرارى، يضاف إلى ذلك أن فترة الاحتباس الحرارى أكبر من تلك الحادثة اليوم، قد وقعت فى العصور الوسطى، عندما استقر الفايكنج فى أيسلاند وجرينلاند، وتبع ذلك "عصر الجليد الصغير" فى حوالى عام ١٣٥٠ - ١٨٥٠، بسبب ارتفاع الحرارة المتجدد، كل ذلك حدث بون انبعاثات غازات الصويبات، بل حتى حدث الأسوأ، عندما سجل علماء الأرصاد الجوية تبريدا واضحا ما بين ١٩٤٠ - ١٩٧٠، رغم أن هذه الفترة يجب أن تكون - طبقا للنظرية - ضمن زمن تسارع الاحتباس الحرارى، كما أنه معروف أيضا، منذ زمن طويل - أن الأحداث الطبيعية مثل تذبذب قطب الأرض، وظلام وسطوع الشمس - تؤثر فى درجة الحرارة والمناخ، ربما تكون تلك مسئولة جزئيا أو كليا، عن التغيرات؛ ثم كانت هناك حقيقة أنه بينما أوضحت التسجيلات على السطح ارتفاع درجة الحرارة، لم توضح بالونات حالة الجو أى تغيير فى درجات حرارة الغلاف الجوى، عند ارتفاعات عالية، وحتى يتناولوا تلك الموضوعات قام علماء "هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ" بإقامة نماذج حواسيب تحاكي المناخ.

وقد انتهى التقرير الأول لـ "هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ"، الذى نشر فى عام ١٩٩٠ بتأكيد أن التركيزات فى الغلاف الجوى لغازات الصوية كانت فى ازدياد، وتكهّن بأنه فى ظل سيناريو "العمل كالمعتاد" فإن القرن الواحد والعشرين سوف يرى زيادة فى درجة الحرارة كل عقد، جنبا إلى جنب، مع ارتفاع فى مستوى البحر قدره ستة سنتيمترات كل عقد، وبذا فإن متوسط درجات الحرارة، فى نهاية

القرن الحادى والعشرين، سوف تكون أعلى من الحاضر بـ ٢-٤ درجات مئوية (٥,٤ - ٧,٢ ف)، وسوف تكون مستويات البحر قد ارتفعت ٦٠ - ٧٠ سنتيمترا، أى حوالى قدمين، وانتهت هيئة ما بين الحكومات المعنية بالتغير المناخى إلى أنه يلزم لاستقرار التركيزات الحالية لثانى أوكسيد الكربون، تخفيض انبعاثات غاز الصوبات الحالية بمقدار ٦٠-٨٠٪، بما يعنى، فى الأساس، إغلاق أغلب المصانع ووسائل النقل الهامة^(٣١)، ورغم أن هذه النتيجة تحظى بدعم ووزن ألفين من كبار علماء العالم، فقد كانت هناك مشكلة، لقد قال الحاسوب: إنه كان من الضرورى بالفعل وجود احتباس حرارى خلال المائة سنة الأخيرة بحوالى درجة واحدة مئوية (١,١٨ ف)، غير أن قياس الاحتباس الحرارى الفعلى أعطى حوالى ٥,٠ درجة مئوية (٩,٠ ف) يضاف إلى ذلك أن الحاسوب عجز عن تفسير التبريد الذى حدث من عام ١٩٤٠ إلى عام ١٩٧٠، واعترفت هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ أنها عانت من سلوك أشبه بغمامة فى حاسوبها، وأنه كان هناك مستويات من التفاصيل لم يستطع الحاسوب، ببساطة الوصول إليها، واحتدمت معركة العلماء.

كانت البيئية، فى تلك الأثناء، فى صعود، ورغم أنه ليس لأوروبا تاريخ فى البيئية مثل ذلك الذى للولايات المتحدة، فإن ضباب لندن القاتل عام ١٩٥٢ أدى إلى تشريع عام ١٩٥٦ بهواء نظيف، وكان الناس، فى القارة، يلاحظون أن الأنهار ومجارى المياه والهواء بالمثل يزداد قذارة أكثر فأكثر، كنت أعيش، فى أواخر الستينيات، فى الأراضى الوطنية، وأتذكر مناقشات فى الصحافة الهولندية حول فقر نوعية مياه الرين عندما تصل فى النهاية إلى روتردام، بعد اجتيازها أوروبا طولا. وربما كان الأكثر أهمية هو الأمطار الحمضية التى بدأت تصبح مشكلة فى أوروبا، كما كانت فى الولايات المتحدة، وفى إبريل عام ١٩٧٤ قيست حمضية الأمطار فى إسكوتلندا فبلغت ٥٠٠ ضعف للحموضة الطبيعية^(٣٢)، وفى عام ١٩٨٢ ماتت أو كانت فى طريقها للموت ٧٪ من أشجار "الغابة السوداء" فى ألمانيا، وارتفع الرقم فى غضون ثلاث سنوات إلى ٥٠٪^(٣٣)، وفى السويد ماتت أربعة آلاف بركة حتى عام ١٩٨٠، وهناك خمسة آلاف

فى طريقها للموت^(٢٤)، وقد قادت الهموم البيئية فرنسا إلى تشكيل وزارة للبيئة عام ١٩٧١^(٢٥)، وسرعان ما تبعتها بلدان أخرى.

وقد تداخل القلق العام، ارتباطا بموضوعات بيئية مع اتجاه سياسى آخر؛ إذ رغم أن أوروبا، تاريخيا، يهودية - مسيحية، فإن الكثيرين اعتنقوا ديانات مثل الشيوعية اللادينية، والفاشية والاشتراكية فى القرن العشرين، الفاشية سقطت، بالطبع، فى الحرب العالمية الثانية، وكانت الشيوعية تعاني الفشل فى السبعينيات، وكانت الاشتراكية تتعاون مع البورجوازية السائدة، حتى إنها كانت تختلف قليلا عن مبادئ المحافظين، لقد فقد اليسار المعادى للرأسمالية موطنه وقضيته ووجد قضية الخضر، كانت البيئة نموذجية من نواح عديدة، إن حماية البيئة تجعل من المرء حليفا بصورة آلية مع ما هو جيد وحسن، لقد اكتسبت شرعية من كونها معادية للشركات، ومعادية للعولة، وهى، بالطبع، تقتضى حكومة كبرى ونظماً وقواعد كى تفرض نمطا جديدا للحياة فى المجتمع الغربى، إن الكثيرين من اليسار الأوروبى اعتنقوا "حركة الخضر" الناهضة، التى غدت فى سرعة حركة سياسية هامة ودخل الخضر البرلمان الألمانى يمثلون حوالى ٦٪ من التصويت الوطنى، وأخيرا شكل الألمان الخضر جزءا من الائتلاف الألمانى الحاكم، وتقلدوا منصب وزير الخارجية فى شخصية جوشكافيشر، وهو متظاهر شوارع يسارى راديكالى سابق، كان هذا الجهد للبيئة جهدا أيديولوجيا أكثر بكثير من المجموعات البيئية الأمريكية السائدة، وأقل اهتماما بالحلول العملية، أقل من اهتمامه بالأجندات، والسياسات الثورية الكبرى، وقد هيمنت وجهات نظر الخضر على وزراء البيئة فى البلدان الأوروبية، إن لم يكونوا هم أنفسهم من الخضر، لقد كانوا هم الممثلين الرئيسيين لأوروبا فى مختلف هيئات الأمم المتحدة العاملة، وفى ريو.

وسارت سياسات الولايات المتحدة فى تناقض مع ذلك، سارت وييدا إلى اليمين مع إدارتى ريجان، ثم إدارة بوش الأولى عام ١٩٨٨، إن واحدا من التعبيرات الأساسية عن فلسفة المحافظين الجديدة هذه، كان الشك فى الحكومات الكبيرة

ومعارضته القواعد والنظم، خاصة تلك التى كان يعتقد أنها سوف تقيد الأعمال المنتجة على أيدي بيروقراطيين غير منتجين، فقد خفض جيمس وات، وزير داخلية ريجان - تمويل برنامج حماية الأنواع المعرضة للخطر، ودفع لفتح المناطق البرية لتراخيص النفط والغاز، ونقل عدد من المسؤوليات المنظمة للبيئة من اختصاص قضاء الحكومة الفيدرالية، لكن الأكثر أهمية كانت وجهات نظر جون سونونو، الذى لعب دورا أساسيا باعتباره رئيس العاملين فى البيت الأبيض، فى إدارة بوش الأولى، فى التحضير لريو، كان حاكما سابقا لنيوهامبشاير، وكان المتزعم لوضع قواعد ونظم للتحكم فى الأمطار الحمضية، وكان يعتبر نفسه مدافعا عن البيئة، غير أنه أحس أن أوضاع المدافع عن البيئة غالبا ما تكون أيديولوجية، وتسد الطريق أمام التنفية الاقتصادية على أساس دليل علمى ناقص عن خطر الضرر، أو إثبات أن العلاج المقترح سوف ينجح، ويرى سونونو فيما يتعلق بحالة الاحتباس الحرارى الكونى - أن تخفيض الوقود الحفري سوف يكون مكلفا للغاية، من الناحية العملية، وأن الدليل العلمى لم يثبت بعد أن المشكلة خطيرة بما يكفى ليجيز الإنفاق، وقال: "إن كنت تصدر قرارا بتريليون دولار، إن كنت سوف تصدر قرارا يؤثر على مليون وظيفة، فيجب عليك أن تصدره على أساس ما تعرفه وليس على أساس ما تقودك مشاعرك للإحساس به"^(٢٦)، ويحتمل أن سونونو يعكس فيما يقول وجهات نظر مجلس شيوخ الولايات المتحدة، الذى عليه أن يصادق على المعاهدة الدولية، وبخلت إدارة ريجان الإعدادات لريو بحذر، وهى تنظر بالكم إلى معادلة التكلفة / الفائدة.

كانت الصناعة أيضا تتطلع إلى الدليل والتكاليف المحتملة، وحارب أصحاب المصانع، فيما يتعلق بثقب الأوزون، ضد استبدال كلورو فلورو الكربون، ما دام الخطر نظريا فقط، ولكن ما أن غدا الدليل على ثقب الأوزون واضحا، وطبيعة الخطر مؤكدة حتى تحركت الصناعة بخفة ونشاط لإجراء التغييرات اللازمة، كان الاحتباس الحرارى أكثر تعقيدا، إن أى نظم وقواعد سوف تضرب صناعات كبرى وآلاف الشركات عبر الاقتصاد، كان الدليل غير مؤكد، والضرر المحتمل غير

واضح (حتى إن البعض قال: إن الأثر قد يكون مفيدا)، وتكاليف العلاج سوف تكون عالية للغاية، ومن ثم، أعدت الصناعة الأمريكية مجموعة ضغط ضد الكل، ما عدا القرارات الأكثر مرونة.

واتخذت الصناعة الأوروبية منحى آخر، مختلفاً إلى حد ما، لم تكن قلقة، لكن لم يكن لها تاريخ الشركات الأمريكية، ولا قدرتها على تشكيل مجموعات نشطة للضغط على حكوماتها، يضاف إلى ذلك أنها كانت تواجه مشكلة أقل تكلفة، إن عملية استخدام الطاقة النووية الثابتة باستمرار في فرنسا، تعنى أنها سوف تخفض انبعاثات الوقود الحفري بصورة كبيرة على أى حال، ولذا فإنه لم يكن مطلوباً من الصناعة الفرنسية عملياً أن تفعل الكثير جداً، وكان الوضع مماثلاً في بريطانيا وألمانيا، إن بريطانيا قد قدمت العون المالى لمناجم فحمها لعقود، ولذا أبقت على الفحم حياً بصورة زائفة باعتباره وقودها الأساسى المولد للطاقة، غير أن حكومة تاتشر اتخذت مبكراً قراراً بوقف العون المالى، وفى نفس الوقت، أدنى اكتشاف احتياطيات كبيرة من الغاز الطبيعى فى القطاع البريطانى من بحر الشمال، إلى جعل التحول من الفحم إلى الغاز الطبيعى الأكثر نظافة عند استخدامه - مسألة مريحة اقتصادية، ومن ثم، فإن بريطانيا أيضاً كانت مقدمة على تغيير كبير للانبعاثات كمجرى طبيعى، وكان للصناعة الألمانية القدر الأفضل من الجميع، وبإعادة توحيد ألمانيا، ورثت مصانع الشرق القديمة غير الفاعلة التى تدار بالفحم والخُث^(*)، والتى كانت تغلق بانتظام وتستبدل بمصانع حديثة، كانت مصانع الشرق القديمة رديئة إلى حد أن شركات ألمانيا الغربية زادت بالفعل انبعاثاتها، بينما كانت تنخفض بطريقة درامية كل انبعاثات البلاد، أما بالنسبة لباقي أوروبا، فقد استفادت من تخفيضات الانبعاثات فى بريطانيا وفرنسا وألمانيا؛ حيث إنها كلها متطابقة تحت مظلة الاتحاد الأوروبى، كان فى وسع العديد من البلدان

(*) نسيج نباتى نصف متفحم (المترجم).

الأوروبية أن تزيد من انبعاثاتها الفردية؛ حيث إن الاتحاد الأوربي ككل يمارس رغم ذلك تخفيضاً ما.

وفى النهاية، كانت هنالك البلدان النامية، وقد رأت الكثير منها على أية حال أن "قلق" الغرب، بخصوص البيئة - إنما هو مؤامرة لكبح نموها، وهم راغبون على أية حال، فى أن تدفع لهم مقادير كبيرة من معونة التنمية، مقابل أى التزامات يمكن أن يأخذوها على عاتقهم، وقدمت بلدان الأوبك، مجموعة، كل عنصر فيها هو عنصر فى مجموعة شاملة من البلدان النامية - ومما يثير الدهشة - أن تلك البلدان غير راغبة فى السماع عن قيود على الانبعاثات.

كانت هذه القوى معدة لرقصة التانجو فى ريو، فشككت الأمم المتحدة لجنة للتفاوض فيما بين الحكومات (آى إن سى) لتضع الأجندة، وتعتقد مباحثات أولية حول الاتفاقيات التى سيقعها رؤساء الحكومات فى "قمة الأرض" الكلية، المخطط لها أن تنعقد فى يونيو ١٩٩٢، وقد اشتملت الأجندة النهائية على معاهدة لحماية التنوع البيولوجى، وبرنامج للحفاظ على الغابات، وإطار أجندة ٢١ طموحة لتكون مرشداً فيما يتعلق بالبيئة شاملة، وبسياسة التنمية الاقتصادية وإطار معاهدة الأمم المتحدة حول تغير المناخ، كان هذا البند الأخير هو مركز المناقشات الكبرى، التى قادت فى النهاية إلى كيوتو، كان التوجه متأثراً بشدة بتجربة بروتوكول مونتريال، واختصرت كل المناقشات أساساً فى مسألتين: هل ستكون هنالك أهداف وجداول زمنية لتخفيض انبعاثات غاز الصوبات مثل بروتوكول مونتريال، حول الأوزون؟ وهل سيطلب من الدول النامية المشاركة؟

وبدأت اللعبة فى شتاء ١٩٩١، عندما عقدت لجنة التفاوض فيما بين الحكومات اجتماعاتها التحضيرية حول معاهدة تغير المناخ المقترحة، كان الذى حدد الأسلوب هو مصطفى طلبة مدير مشروع الأمم المتحدة للبيئة، الذى قال: إن الناس فى كل مكان، تنظر إلى عام ١٩٩٢ باعتباره أفضل فرصة لنا، وربما تكون فرصتنا الأخيرة، لإنقاذ أرضنا^(٣٧)، ورغم أن علماء هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، قد انتهوا إلى

أن هنالك حاجة إلى تخفيض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون بنسبة ٦٠-٨٠٪؛ لتثبيت تركيز كربون الغلاف الجوى، فإن القليلين كانوا على استعداد للنظر فى مثل تلك التخفيضات فى مواجهة الواقع الاقتصادى، وكان أقوى اقتراح تم النظر فيه هو تجميد انبعاثات ثاني أكسيد الكربون فى عام ٢٠٠٠ عند المستويات التى كانت عليها عام ١٩٩٠، كان ذلك الاقتراح مقدما من المجتمع الأوروبى يدعمه تحالف دول الجزر الصغيرة، وكندا وأستراليا، والدول الشمالية، لم يكن ذلك هدفا يقوم على أسس علمية واقتصادية، كان ببساطة هو الاقتراح الأفضل الذى فكروا فى إمكان تحقيقه، وعارضت الولايات المتحدة، فى تحالف نادر مع بلدان الأوك، أى أهداف لها علاقة بالانبعاثات أو الجداول الزمنية، وأوضحت البلدان النامية تقودها الصين والهند أنها لن تقبل بالتزامات يمكن أن تقيد نموها.

وفى صيف ١٩٩١، غدت الحرب حرب خنادق قاسية، وطالب المجتمع الأوروبى وكندا واليابان فى اجتماع السبعة الكبار فى لندن فى يوليو، طالبوا الولايات المتحدة أن تلحق بهم فى الالتزام بتجميد الانبعاثات، وكان الرفض الأمريكى مستشهدا بنقص الدليل العلمى الكافى؛ مما أثار نقدا ندر تسجيل مثيله من القادة الأوربيين، قال أحد قمم المسؤولين: "إن الولايات المتحدة تود أن تتفادى أى شىء غير التعميم، إن كل شخص آخر يود أن يكون ملتزما"^(٢٨)، وكان وضع بريطانيا لافتا للنظر بشكل خاص، إنها لم تلتزم فقط بتخفيض الانبعاثات، لكنها أوضحت وجهة نظرها القائلة بأن أكبر باعث على التلوث فى العالم هو الولايات المتحدة التى يتوجب عليها القيام بدورها، كما لوحظ أيضا أن نزوع الولايات المتحدة إلى الشك، جعل من السهل على ملوثة المستقبل مثل الهند والصين - تجاهل الأمر برمته، وكأن الدور قد حان للظهور على المسرح؛ إذ أصدرت مجموعة من البلدان النامية - بعد شهر من ذلك - بياناً تتنصل فيه من مسئولية المشاكل البيئية، وتطالب بمعونة مالية كبيرة فى مقابل التعاون البيئى، وذهبت ماليزيا بعيدا فهددت بمقاطعة المؤتمر إن ركز كثيرا للغاية على مسئوليات البلدان النامية.

وفى الأشهر التالية وقع بوش الذى كان قد قال: إنه سوف يكون "رئيس البيئة"، تحت ضغط متزايد من المجموعات البيئية المحلية، لإثبات ما قال، وغدت ريو سببا للشهرة، قال الممثل جيمس إيرل جونس لمشاهديه: "إن الجنس البشرى كله على المحك"^(٢٩)، ونظم "نادى سيرا" حملة شعبية ليستحث الرئيس كى يمسك بقيادة المؤتمر، بالموافقة على التوقيع على اتفاقيات قوية، وأعلن "المعهد العالمى للموارد"، أن الرئيس إن لم يتصرف بطريقة قوية فهو عرضه للاتهام بالعداء للبيئة فى حملة الانتخابات القادمة؛ وقدم قادة الحزب الديمقراطى فى الكونجرس تشريعا يدعو للعمل على استقرار انبعاثات الولايات المتحدة فى عام ٢٠٠٠ عند المستويات التى كانت عليها عام ١٩٩٠ - وهو ما كان المجتمع الأوروبى يضغط داعيا للالتزام به.. ورغم هذا الضغط، وترك سونونو منصب رئيس العاملين، تمسك بوش بصلاية بعدم تحديد أهداف أو جدول زمنى للالتزامات، وأصر مفاوضو الولايات المتحدة، فى الأمم المتحدة على تحديد مقادير وأسس علمية مناسبة لاتخاذ ما يمكن أن يكون التزامات مكلفة للغاية، وتقوى موقفهم عندما نشرت "الجمعية الأمريكية لتقدم العلم" تقريراً يحتوى على نتائج مختلطة حول التأثيرات المحتملة لانبعاثات غاز الصوبة، ونصحت باتخاذ فعل يخفض الانبعاثات، لكنها قالت: إن المعلومات المتاحة لا تسوغ فعلاً قاسياً.

وإذا كان ذلك الكلام جيداً بما يكفى للعلماء، فقد كان جيداً أيضاً بما يكفى لبوش، وتمسكت إدارته بموقفها - وحبذت الولايات المتحدة معاهدة تلزم الموقعين بتخفيض الانبعاثات، ولكن على نحو - وفى وقت - يقوم على نتائج عملية جيدة التأسيس، ومتناغمة مع الحاجيات الأساسية ومؤسسات كل بلد، وهددت الدول الصناعية الأخرى، مع اقتراب موعد اجتماع ريو، بإنهاء معاهدة تقوم على الالتزام بتجميد الانبعاثات دون الولايات المتحدة، وهدد بوش بدوره بعدم حضور الاجتماع إذا بدا أن الولايات المتحدة سوف تكون معزولة وهدفاً للهجوم، وفى النهاية، انتهى المجتمع الأوروبى أنه من الأفضل الحصول على معاهدة ضعيفة، والولايات المتحدة داخلها، من الحصول على معاهدة قوية، والولايات المتحدة خارجها، واتخذت موقفاً لنا من المطالبة

بالأهداف والجدول الزمني، وقد أقرت الاتفاقية الأخيرة لمعاهدة إطار الأمم المتحدة المعنى بالمناخ^(٤٠)، بالآثر الضار لانبعاثات غاز الصوبة البشرية، وألزم الموقعين بتخفيض تلك الانبعاثات إلى مستوى عام ١٩٩٠ حتى عام ٢٠٠٠، غير أن الاتفاقية لم تكن مُقيّدة، وكان من المتوقع أن تقدم الدول المتطورة المساعدة المالية والتقنية إلى البلدان النامية، التي لم يكن مطلوب منها غير حسن النية.

وأخيرا انضم بوش للحفل حرقيا - فى قمة الأرض بـريو - فى ١٢ يونيو، كان هناك تيد تيرنر وجين فوندا، جنبا إلى جنب مع شيرلى ماكلين وجيرى براون، وغنى جيمى كليف بينما الأمريكيون المحليون حول نار مخيم وهم يدقون الطبول بنعومة، وأعلن الأوروبيون حزمة أربعة مليار دولار معونة للبيئة، وأوقع ذلك العرض الصغير الولايات المتحدة فى حرج، وأصدروا بيانا يؤكدون فيه التزامهم بتخفيض الانبعاثات، وعندما سئلوا إن كان المجتمع الأوروبى يتخذ لنفسه دورا قياديا جديدا، قال لورنس جان برينكهورست المدير العام للبيئة فى المجتمع الأوروبى "إن تحركنا فى ذلك الوضع أمر منطقى"، وأصر بوش، على أى حال، "إننا القادة ولسنا التابعين"^(٤١)، غير أن هذه لم تكن جماهيره ليبدأ بها، وفقد أى تعاطف عندما قال: "إن طريقة الحياة الأمريكية ليست مطروحة للتفاوض"^(٤٢). وكحقيقة لا مفر منها، كان ذلك تحديدا هو المطروح للتفاوض.

من ريو إلى كيوتو

أصبح الطريق من ريو إلى كيوتو متعرجا، وجاء أحد المنحنىات الأولى سريعا عندما هزم بيل كلينتون - مرشح الحزب الديمقراطى - بوش فى انتخابات عام ١٩٩٢، بعد خمسة أشهر فقط من ريو، كان الديمقراطيون يلقون دوما دعما أكبر من المهتمين بالبيئة أكثر من الجمهوريين، وكان السيناتور السابق آل جور نائب الرئيس، فى هذا الوقت، يعد نفسه من بين المهتمين بالبيئة، المؤمنين بها بحق، كان جور وهو طالب

متأثراً ببحث كيلينج واستنتاجاته، وكان بطل التشريع للبيئة فى مجلس الشيوخ، وقد طرح جور فى كتابه الأفضل مبيعاً "الأرض فى الميزان" اقتراحات تفصيلية لسياسة بيئية جديدة تشتمل على نوع من ضريبة الكربون، ومتطلبات أعلى لسرعة السير بالميل عند استخدام الغاز فى السيارات، ورسم على أصحاب المصانع الذين يستخدمون مواد غير قابلة للتجدد^(٤٢)، كان لدى نائب الرئيس فرصة للتطبيق العملى لتلك الآراء؛ لذا أصبح كابتن الفريق البيئى فى الإدارة الجديدة، ولم يضيع وقتاً، ووضع "خطة عمل لتغير المناخ"، وأعلن عنها فى أكتوبر عام ١٩٩٣، وقد ألزمت تلك الخطة الولايات المتحدة، من بين أشياء أخرى، بالوصول بمستوى انبعاثات الكربون إلى ما كانت عليه عام ١٩٩٠، وتحقيق ذلك حتى عام ٢٠٠٠، تماماً مثلما طالب باقى العالم الولايات المتحدة فى ريو، وبعد أشهر قليلة وضعت معاهدة ريو فى التطبيق، بعد أن صادق عليها العدد الضرورى من البلدان، بما فيهم الولايات المتحدة التى أصبحت داعمة كل الدعم.

غير أن الطريق كان يوشك أن يكون وعراً، فقد كسب الجمهوريون التحكم فى مجلس النواب، لأول مرة خلال اثنين وأربعين عاماً، فى نوفمبر، وانتخبوا العنيف نيوت جينجرش متحدثاً رسمياً، وهو دون جدل الموقع الثانى الأكثر قوة فى حكومة الولايات المتحدة، وظهر اتجاهه نحو البيئة، فى أفضل صورة جذبا للانتباه، فى لقاء مع صحيفة قال فيه: "إننى أحب البيئة"، لكننى قليل القيمة لمحبتى للبيئة"^(٤٣)، كانت مجموعة الـ ٩٤ هى المجموعة الأكثر محافظة من الجمهوريين الذين رأتهم واشنطن أو العالم منذ العشرينيات، كانوا يكرهون الحكومة الكبيرة، وكانت البيئة بالنسبة إليهم حكومة كبيرة، وفى إيجاز، قال جيم هانسن ممثل أوتاه: "ليست المسألة إذا ما كان الأمر هو إغلاق الحدائق (الوطنية)، ولكن كيفية إنجاز هذا العمل"^(٤٤)، وقال دون يونج رئيس لجنة الموارد بالمجلس، وهو جمهورى من ألاسكا: "عندما أرى شجرة، فإننى أرى ورقة تفجر أنفك"^(٤٥)، وأضاف: "إن المهتمين بالبيئة مجموعة اشتراكية من الأفراد هم أداة للحزب الديمقراطى، إنهم ليسوا أمريكيين، لم يكونوا قط أمريكيين، ولن يصبحوا

أبداً أمريكيتين^(٤٦)، وتحدثت السيدة هيلين شينوت فى الكونجرس، وهى من إيداهو بصوت موسيقى: "إن السياسات البيئية يدفعها نوع من الروحانية العاطفية التى تهدد بالتحديد أساس مجتمعنا؛ مما يجعل مبادئ دستورنا الأساسية تتآكل"^(٤٧)، وسواء كان هؤلاء الجمهوريون على صواب أم على خطأ، فذلك أمر يمكن مناقشته، لكن الشيء المؤكد أنهم ليسوا فى شك من أمرهم.

ورأى الجانب الآخر من الأطلنطى فى تلك الأثناء ديناميكية سياسية مخالفة، جاءت الحكومات الاشتراكية إلى السلطة فى بريطانيا وألمانيا وفرنسا، وكذلك بالمثل فى بعض البلدان الأوربية الأصغر، كانوا متعاطفين منذ زمن مع قضية البيئة، والآن وجدوا أنفسهم يعتمدون أكثر فأكثر على الخضر، من أجل الدعم السياسى، كانت الحكومة فى ألمانيا الآن، ائتلافاً اشتراكياً - أخضر، وكان جزء من دعوى الخضر أنهم يحدون المشاكل مثل الأمطار الحمضية والتلوث، تلك التى كانت تثير القلق اليومى، كانوا مدينين أيضاً - بشيء ما - لحاسة الفضيلة عند الناس، التى استخلصوها أثناء نضالهم من أجل هواء وماء نظيفين وطعام صحى، ووراء هذا، على أى حال، نشأت أيضاً وتغذت حلقة استرجاعية إيجابية بإحساس بازغ بالهوية الأوربية، وكما تشكل المجتمع الأوربى فى الوحدة الأوربية، وركز على "تعميق" تداخله الاقتصادى والسياسى، فإن سياسات معينة غدت أدوات للتعبير عن الأوربية، وكان أحد تلك بالطبع هو اقتراح بعملة أوربية واحدة، وكان الآخر سياسة بيئية، كان هنا شيء جيد يجعل الأوربيين جميعاً يتفاخرون بأنفسهم وقد أمسكوا بوضع قيادى، كان ذلك أيضاً وسيلة للتعبير عن استيائهم من الولايات المتحدة، وبمعنى ما أصبحت البيئية وخاصة سياسة تغير المناخ تعبيراً عن الوطنية الأوربية، وإعلاناً عن استقلال أوربا.

وواصل الطقس تعاونه الرقيق مع أنبياء يوم الحساب، ووجد يناير ١٩٥٩ د. رودولفو ديل فالى، مدير قسم علوم الأرض فى "المعهد الوطنى الأرجنتينى للقطب الجنوبى"، وهو يتأثر محطة رقابية على جزيرة "جيمس روس" قبالة شبة جزيرة

القطب الجنوبي للقيام ببحث أثناء صيف القارة القصير القارس، وقد أرسل في منتصف الشهر زملاء بقاعدة أرجنتينيه فوق "رف لارسن الجليدي" رسالة لاسلكية تقول إنهم يعانون من الاهتزاز بسبب هزات ثلجية دائمة، وفي ٢٢ يناير اتصلوا ثانية ليقولوا: "رودى، هناك شيء يحدث، الرف الجليدى يتحطم"^(٤٨)، وطار فى طائرة خفيفة فوق رف بحجم "جزيرة رود" التى يبلغ سمكها آلاف الأقدام؛ ليشاهد ديل فالى ما لا يمكن تصديقه، لقد انهار الرف الجليدى أمام عينيه، وقال "إنه كان مشهدا أخاذاً".
"ما كان يوماً رصيفا من جليد لأكثر من أربعين ميلا اتساعا - بدا مثل أجزاء من رغوة البوليسترين"^(٤٩) حطمها طفل - الشيء الأول الذى استطعت فعله هو الصراخ"^(٤٩)، ونظر حينئذ إلى الجزء الشمالى من الرف الناتى فى "بحر ويديل"، وتنبأ ديل فالى وزملاؤه بأنه سوف يتصدع أيضا فى غضون عشر سنوات.

كان ذلك هو الحادث المناخى الأشد إثارة لهذا العام، لكنه لم يكن الحادث الوحيد، وبعد شتاء خامس متعاقب دون صقيع، اجتاح الناموس والصراصير والنمل الأبيض نيو اورليانز، وكان الإسبان عبر الأطلنطى يعانون للسنة الرابعة من أسوأ جفاف تم تسجيله، وفى روسيا ذاب الأسفلت فى مطار شيريميتيفو^(٥٠).

كانت تلك هى ستارة المسرح الخلفية عند افتتاح "المؤتمر الأول للأطراف" (كوب ١) فى برلين، فى أعقاب ضمانات معاهدة ريو، كان هدف هذا الاجتماع هو تحديد إذا ما كان الموقعون قد أعلنوا خططا لتخفيض الانبعاثات يحتمل أن تكون ملائمة، وأن يوصوا بالمزيد من الخطوات إن لم تكن تلك ملائمة، وبالنظر إلى الاتجاهات المتشددة فى الاتحاد الأوروبى، والاتجاهات المتغيرة فى الولايات المتحدة، مع وصول إدارة كلينتون، لا بد أن يكون الأمر مثيرا للدهشة أن وجد "الكوب" أن كل شيء كان متالفا.

(*) مركب كيميائى متبلر للاستيرين، وهو مادة هيدروكربونية سائلة، عطرة غير مشبعة تستخدم فى صنع المطاط والدائن المترجم).

كان تفويض برلين قد قرر في الحقيقة أن الخطط والعمليات لم تكن ملائمة، ودعا إلى مزيد من تقوية الالتزامات، ربما من خلال بروتوكول مقيد أو أى وسيلة قانونية أخرى، وقد فتح هذا الإعلان بصورة فاعلة مفاوضات ريو مرة ثانية.

وقد بدأ الاحتياج الأكثر لفعل ذلك، بتأكيد إطلاق التقرير الثانى الذى أصدره الآن ٢٥٠٠ عالم من علماء هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، كانت نماذج حواسيبهم تتحسن، إنهم يستطيعون الآن التنبؤ بالماضى، بمعنى أن ما تقوله الحواسيب لا بد أن يكون قد حدث، فى السنوات الماضية، مثيلاً له إلى حد كبير، وقد اتجهت النتائج الجديدة إلى تقوية تلك التى لعام ١٩٩٠، وتقول الجملة الأساسية: "إن توازن الدليل يطرح تأثيراً بشرياً على مناخ الكون يمكن إدراكه"، وقد تنبأ العلماء بذفء من ١ إلى ٣,٥ درجة مئوية فى العام ٢١٠٠، وقالوا: إن ذلك سوف يؤدى إلى ارتفاع متواصل لمستويات البحر، وزيادة فى الترسيب، والمزيد من العواصف العنيفة فى بعض الأماكن، وجفاف حاد فى البعض الآخر، إن التقرير المصوغ بحذر يعترف بأن الشكوك لها بعض الحسنات عندما تشير إلى ضعف النماذج عند التعامل مع السحب، وموجات المحيط، والأجزاء الصغيرة^(٥١). ومع ذلك، فإن صورة مستقبل الأرض التى رسمت لوفود "الكوب ٢"، فى جنيف، فى يوليو عام ١٩٩٦، لم تكن بالصورة الجميلة، تحرك وفد الولايات المتحدة بقيادة تيم ويرث، وكيل الوزارة، ليمسك بالقيادة؛ كى يفعل شيئاً ما بهذا الخصوص، كان "إعلان جنيف" يقوم أساساً على بيان سياسة الولايات المتحدة، وفيه جرى إقرار تقييم هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ، والتصديق عليه، ودعوة الأطراف لوضع أهداف مقيدة قانونياً، هنا، لم تكن الولايات المتحدة تصعد فوق خشبة المسرح، لكنها كانت تقود الهجوم، من أجل أهداف وجدول زمنية، وبقي فقط الموافقة على التفاصيل، وتخفيض المقدار الفعلى فى "كوب ٢"، الذى كان مقدراً له أن يلتقى فى طوكيو العام القادم.

وحظى ويرث، والإدارة، بشعبية عند الاتحاد الأوروبى، لكن ليس عند آخرين عديدين، فقد رفض الأستراليون، والنيوزيلنديون والروس الدعوة إلى أهداف مُقيدة،

بينما راوغ الكنديون واليابانيون، كان هؤلاء سيواجهون على غير مثال الأوربيين زمناً صعباً لتحقيق الأهداف التي تمت مناقشتها وأكدت مجموعة الـ ٧٧ من البلدان النامية، تقودها الصين، مرة أخرى، على أنها لن تدفع لآثام انبعاثات الدول المتطورة، ولن تسمح لهم باستخدام تغير المناخ كآلية كولونيالية عصرية، للإبقاء على الدول النامية إلى أسفل، إنهم سوف يجيئون إلى كيوتو فقط كمتفرجين مهتمين، وكمُتلقيين محتملين للمساعدة، غير أن أعلى اعتراضات جاءت من رجال أعمال الولايات المتحدة، الذين رأوا أن أوراق اللعب تتراكم ضدهم، وحتى نبداً فإنه لم يكن لديهم أى شيء يشابه الغاز الطبيعي البريطاني أو الاستخدام النووي الفرنسي، أو الإغلاق الألماني لمصانع الطاقة الألمانية الشرقية القديمة؛ ليساعدهم ذلك فى تحقيق أهدافهم، وفى الحقيقة، كان المجتمع البيئى يعارض بعنف أى نموذج فرنسى لاستخدام الطاقة النووية فى الولايات المتحدة، واقترح أحد الرؤساء التنفيذيين مازحاً، إلحاق المكسيك بهم، وإغلاق بعض مصانع الطاقة القديمة بها، وفوق ذلك، كان عام ١٩٩٠، سنة الأساس، عام ركود، بينما كانت الانبعاثات منخفضة بصورة غير عادية، البلاد الآن تعيش توسعاً اقتصادياً كبيراً، وتعانى أيضاً هجرة قوية، ونمواً فى السكان؛ لذا كانت هنالك زيادة كبيرة فى انبعاثات الولايات المتحدة منذ عام ١٩٩٠، الأمر الذى لم تمارسه الاقتصاديات الأوربية واليابانية الراكدة، والسكان المتناقصين عدداً، إن تحقيق بعض أهداف الانبعاثات، تحت مستويات عام ١٩٩٠، كان سيضر بالأعمال فى الولايات المتحدة أكثر كثيراً من الآخرين، وأخيراً، فكروا أن المقاييس المعيارية كانت خاطئة حتى إنها لم تحظ بالثقة، رغم أدائها الجيد بالفعل، كانت صناعة الولايات المتحدة، خلال السنوات الخمس عشرة السابقة، قد خفضت الانبعاثات لكل وحدة من الناتج، بأكثر كثيراً من غالبية باقى دول العالم، وبأكثر من ٥٠ ٪ من بريطانيا وفرنسا^(٥٢)، وبدا أن التركيز على أطنان الانبعاثات أكثر من التركيز على الانبعاثات لكل طن من الناتج، يشكل عقاباً على المنتجين والاقتصاديات الأكثر نمواً، والأكثر فاعلية، لذا شكلت الأعمال الأمريكية "ائتلاف المناخ الكونى" لمحاربة ما خشيت أن يكون اتفاقاً غير موات فى كيوتو.

وقد أثار الائتلاف جدلين، كان الأول أن المقدار المطلوب سيخفض النمو الاقتصادي ويكلف فُقْد وظائف، وقامت الإدارة بعمل تحليل اقتصادي أوضح أن الإجراءات المناظرة لكل ١٠٠ دولار ضريبة، لكل طن من الكربون، سوف تخفض انبعاثات الولايات المتحدة في عام ٢٠١٠ إلى مستويات عام ١٩٩٠، بينما تخفض إجمالي الناتج المحلي بأقل من ١٪ في العشر السنوات الأولى، بعد سن القوانين، وتؤدي فعلياً إلى زيادة النمو فيما بعد، غير أن عدداً من المحللين المستقلين طلبوا من الإدارة أن تعمل بطريقة بطولية من أجل افتراضات متفائلة، وقد أظهرت دراسة قامت على النموذج المعروف حينذاك بنموذج "زملاء وهارتون للتنبؤ الاقتصادي" أنه بدلاً من مائة دولار مناظر ضريبة على الكربون، فإن الأمر يحتاج إلى ما يناظر ٢٠٠ دولار لتحقيق هدف مستوى الانبعاثات، إن هذا سوف يؤدي إلى تخفيض إجمالي الناتج المحلي بأكثر من ٢٪، وفقدان مليون وظيفة، أما الجدول الثاني للأعمال، فقد كان أنه حتى لو تم تحقيق المقادير المقترحة، فإن ذلك لن ينجح لأن النمو المستقبلي الأكبر للانبعاثات سوف يكون في البلدان النامية، وهي التي تم بالفعل إعفاؤها من أي التزامات، وأن الأسوأ، في مسألة الاتفاق هو أن ذلك يمكن أن يكون جاذباً لشركات الولايات المتحدة التي تنتقل إلى الخارج مما يفاقم خسائر الوظائف في الولايات المتحدة، بينما لا يخفض البتة الانبعاثات الكونية.

وقد أشار المهتمون بالبيئة إلى أن كل تلك الحسابات لم تشتمل على التكاليف المحتملة في حالة عدم القيام بشيء، تكاليف يمكن أن تكون كارثية إن ثبتت صحة نصف نبوءات هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغيير المناخ، ربما جعل ذلك القادة الأوروبيين وكذا دون شك قادة "جمعية دول الجزر"، يفهمون، غير أن الكونجرس الأمريكي لم يكن يستمع، وقد انعكس ذلك بوضوح في اتجاه الكونجرس، خلال جلسة استماع في "لجنة فرعية لمجلس النواب حول الطاقة والبيئة"، بخصوص مستويات البحر، برئاسة عاشق أمواج الشاطئ الصخري روبرابشر، جمهوري من كاليفورنيا، وعندما قيل له: إن العلماء يتصورون ارتفاعاً قدره ثلاثة أقدام في مستويات

البحر مما سيفرق ما يصل إلى ٦٠٪ من أراضي الولايات المتحدة المشبعة بالرطوبة، ويغمر منطقة بحجم كونيكتيكت خلال القرن التالي، رد روهراباشر، "هناك ما يعزى بأن أسأل ما الذى سيفعله ذلك فى شكل الأمواج، وصلاحيّة أمواج الشاطئ الصخري للركوب، غير أننى لن أفعل ذلك، سوف أنتظر حتى فيما بعد، عندما نصبح خارج السجل"^(٥٣)، وكانا الأكثر خطورة هما روبرت بيرد، وهو ديمقراطى من فرجينيا الغربية، والسيناتور شوك هاجيل، جمهورى من نبراسكا، فقد تقدما فى يوليو ١٩٩٧، عشية اجتماع كيوتو بقرار يؤكد أن مجلس الشيوخ لن يضع فى اعتباره الموافقة على أية معاهدة يمكن أن تضر باقتصاد الولايات المتحدة أو تستبعد البلدان النامية، وقد ووفق على هذا القرار بتصويت بلغ ٩٥ صوتا إلى صفر، كنوع من رسالة، برحلة سعيدة، من مجلس الشيوخ، إلى مفاوضات الولايات المتحدة، حول تناولهم لخططهم فى كيوتو.

وقد احتشدت فى كيوتو، فى ديسمبر ذاك، ثلاث مجموعات، أكثر من مائة مندوب جاءوا من البلدان النامية - جاءوا أساسا كما أظن لزيارة المعابد العتيقة ورؤية معالم اليابان القديمة؛ حيث كانوا قد أوضحوا بالفعل أنهم لن يوافقوا على أى تخفيض للانبعاثات؛ والمجموعة الثانية كانت من الأوربيين وحلفائهم وثيقى الصلة بهم من أمم الجزر الصغيرة، الذين كانوا يسعون إلى تخفيضات حقيقية تحت مستويات ١٩٩٠؛ وكان قلب المجموعة الأخيرة هم الأمريكيين مع الأستراليين والكنديين والنيوزيلنديين واليابانيين على الحد الخارجى، كان الأمريكيون تحت أعلى درجات الضغط حتى لا يتخذوا إجراءات تخفيض مؤلّة، غير أن الآخرين فى المجموعة الأمريكية كانوا، أيضا، يتسألون: كيف يمكنهم تحقيق الأهداف، ويأملون فى حماية الأمريكيين لهم من ألم اقتصادى وسياسى شديد للغاية، كان النقاش أساسا بين الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى، كانت عيون المفاوضين تبرز بطريقة معقدة، وانتهوا فى حوالى الرابعة صباحا بعد آخر موعد لإنجاز أعمالهم، غير أنه لم يكن هناك، حقيقة، غير أربع موضوعات - الغازات التى يجب تناولها، والتخفيضات، وتجارة الانبعاثات والأهداف والمواعيد النهائية.

الغازات

ركزت المناقشة العامة لغازات الصوبة على ثاني أوكسيد الكربون، المنبعث من الوقود الحفري، غير أن ثاني أوكسيد الكربون يشكل حوالى ٦٥٪ من تركيز غاز الصوبة فى الغلاف الجوى، أما الـ ٣٥٪ الأخرى فتتكون من الميثان (وهو يصدر بصورة أساسية من حقول الأرز فى البلدان النامية)، ومجموعة كلورو فلورو الكربون، ومجموعة هيدرو فلورو الكربون، وأوكسيد النيتروز، كانت انبعاثات مجموعة كلورو فلورو الكربون، وأوكسيد النيتروز، وكانت انبعاثات كلورو فلورو الكربون قد خُفضت بالفعل فى بروتوكول مونتريال؛ لذا رغبت المجموعة الأمريكية فى وجودها ضمن الغازات كطريقة لجعل الوصول إلى الهدف النهائى أيسر وأسهل.

الانخفاضات

تمتص الغابات والمحيطات حوالى ٥٥٪ من ثاني أوكسيد الكربون المنبعث حالياً فى الغلاف الجوى، ومن ثم تشكل تلك "انخفاضات فى الكربون"، تساعد على تخفيض التزايد فى تركيز الغلاف الجوى، وكذا تساهم إعادة زراعة الغابات التى تجرى فى شمال شرق الولايات المتحدة، بصورة هامة فى خفض الانبعاثات النهائية. حقا، هناك دليل ما من الاتحاد المالى الذى يصوغ نموذجاً للكربون، بأنه لو تم أخذ تلك الانخفاضات بعين الاعتبار فى الحسابات فإن الولايات المتحدة قد لا تكون مصدر انبعاث خالص، لقد أرادت المجموعة الأمريكية على أية حال حساب الانخفاضات بغرض الوصول إلى أهداف نهائية.

تجارة الانبعاثات

إن تجارة الانبعاثات تشكل آلية لتسخير قوى السوق من أجل تحقيق أعلى تخفيضات بأقل تكلفة، قد يكون ذلك معقدا للغاية، إلا أن الفكرة بسيطة، ما أن ينشأ

هدف للانبعاثات، حتى يمنح من صدرت لديهم الانبعاثات رخصا أو كويونات بكمية الانبعاثات المسموح بها لهم، فإن وجد واحد ممن تصدر لديهم الانبعاثات أنه من غير الضروري استخدام كل الكويونات، فإنه فى وسعه أو وسعها، بيعها إلى آخر ممن تصدر لديهم انبعاثات، ويواجهون خطر تجاوز حدودهم، إن هذه الحيلة سوف تتج بصورة جيدة، خاصة إن تم ضم الدول النامية، إن إغلاق مصنع للطاقة موجود بالفعل قبل برنامج تحديد المواعيد، حتى تتم الاستجابة لهدف تخفيض الانبعاثات، فى بلد متطور، مسألة مكلفة للغاية، تصل إلى حد إلقاء جزء من رأس المال المستثمر، غير أن البلدان النامية تضيف مصانع جديدة لأول مرة، وهى يبيعها رخص الانبعاثات الخاصة بها يمكنها الحصول على النقود اللازمة للاستثمار فى مصانع أعلى أسعارا لكنها أكثر نظافة، فى حين أن مصنع البلدان المتطورة يستطيع العمل حتى نهاية حياته المالية القابلة للنمو، وهذه يمكن أن تكون حالة كسب، غير أن لاعبين أكثر يلعبون أفضل، وخاصة إن كان العديون منهم بلدانا نامية، ولما كان الأمريكيون يريدون التجارة، بالطبع، فإنهم بدؤوا يحثون البلدان النامية كى تشارك، لو كانت المشاركة فقط على أسس طوعية.

الأهداف والبرامج الزمنية

إن الأمريكيين ما زالوا راغبين فى استهداف مستويات عام ١٩٩٠، لكنهم لا يرغبون فى الذهاب إلى ما دونها، كان واضحا أن لا أحد بما فى ذلك الأوروبيون، يمكنه تحقيق هذا الهدف حتى عام ٢٠٠٠ كما جرى التخطيط لذلك فى ريو أساسا، وهكذا أصبح الموضوع هو إن كان خط نهاية المدة يجب أن يكون عام ٢٠١٠ لتخفيض قدره ١٥٪ أقل من مستويات الانبعاث عام ١٩٩٠، من غازات ثلاث صويات (الوضع الأوروبى)، أم عام ٢٠٠٨ - ٢٠١٢ لتحقيق تخفيض إلى مستويات انبعاثات عام ١٩٩٠ من غازات ست صويات (وضع الولايات المتحدة). كان من الواضح أن تاريخا متأخرا

يعطى وقتا أكثر لتكنولوجيات جديدة حتى تدخل اللعبة، وكان ذلك بالطبع هو ما يريده الأمريكيون.

وبدأ الأوروبيون ودول الجزر بطرح وجهة نظر حول نمط الحياة الأمريكية باعتبارها حياة متلافة، مليئة بالغرور، وحول السياسة الاقتصادية للولايات المتحدة باعتبارها أنانية واستغلالية لميزة الوضع المالى الدولى الأمريكى، وهم قد رأوا كل تلك الانخفاضات والغازات، ونظم التجارة كوسائل مراوغة مأكرة حتى تتخلص أمريكا من مسؤولياتها قبل المجتمع الكونى، هنا كانت الخلاصة الحقيقية لنفاق الولايات المتحدة التى تدعى أنها قيادة العالم عفة وطهارة، بينما تبحث عن مهرب مما يلزمها بعقد أو التزام، إن أمريكا وهى تشكل ٤٪ من سكان العالم، تصدر أكثر من ٢٥٪ من التلوث الكونى، لقد حان الوقت لأمريكا حتى تقف أو تلزم الصمت، ولذا عارضت أوروبا المرونة التى يسعى الأمريكيون إليها، ومرة أخرى تلقى بهم باعتبارهم الشيء الوحيد الذى يقف بين جماهير العالم المتواضعة، وبين خلاصها البيئى.

وقد وضع كلوس كينكل، وزير خارجية ألمانيا، أسلوب الدورات، فى ملاحظاته الافتتاحية، بدا بمدح الأمريكيين لما لهم من تقليد إبداعى، ثم انزلق إلى محاولة هزيمة خصمه بأساليب مأكرة بقوله: "إن المتوقع من الرواد أن يضعوا معايير عالية، إن الأجيال القادمة يجب ألا تتقل بتكاليف إهمالنا"^(٥٤). ثم اقترح باعتباره المتحدث باسم الاتحاد الأوروبى تخفيضاً قدره ١٥٪ من مستوى انبعاثات عام ١٩٩٠، فى عام ٢٠١٠، كان ذلك أقل من الـ ٢٠٪ التى اقترحتها دول الجزر، لكنه أعلى بكثير مما كان يتوقعه المعسكر الأمريكى، كان هناك ازدهار فى اقتصاد الولايات المتحدة، ولذا فإن مثل ذلك الهدف كان يعنى على وجه التقريب، تخفيض ٣٥٪ فى المستوى الحالى لانبعاثات الولايات المتحدة.

وحتى لا يتفوق أحد عليهم، دعا ميتشيل ميشر - وزير البيئة البريطانى - زملاءه الأمريكيين ليقوموا "بجهد أكبر"، واقترح لمساعدتهم ٢٠٪ من انبعاثات النقل

والصناعة دون مستوى عام ١٩٩٠، فى عام ٢٠١٠. يضاف إلى ذلك أن الأوروبيين لم يكونوا راغبين فى السماع عن الانخفاضات أو التجارة أو الغازات، فقط مسألة غازات الصوبات الثلاثة الأساسية، كانوا يريدون تخفيضات حقيقية لانبعاثات فعلية، ولا تزييف، وأدرك ستورت إيزنستادت - نائب الوزير - الذى كان يقود فريق الولايات المتحدة أنه سوف يعدم دون محاكمة إن عاد إلى واشنطن بصفقة مثل تلك، كان قد قال قبل الوصول إلى كيوتو: "إننا نريد اتفاقية، لكن ليس بأى ثمن" ^(٥٥). والآن، يقاطع جور، نائب الرئيس، الحديث قائلا: "إننا مستعدون تماما لأن نجو سالمين من اتفاقية لا نعتقد بنجاحها" ^(٥٦)، غير أن خداع نائب الرئيس هو الذى لم ينجح، رفض الأوروبيون التسوية، وبعد أسبوع، بدا أن المؤتمر قد فشل، وفى محاولة يائسة لإنقاذ المؤتمر والمهتمين المعتمدين بالبيئة، طار جور إلى كيوتو ليخاطب المنووين المحتشدين، والأكثر أهمية أنه وجه العنيد إيزنستادت كى "يبدى المرونة"، وكانت النتيجة نوعا من التسوية اليابانية، حصل المعسكر الأمريكى على غازاته، بما فيها الميثان وأوكسيد النيتروز (غاز الضحك) وثلاثة من مركبات الهالوكربون التى تستخدم كبدايل لمجموعة كلورو فلورو الكربون، كما حصل المعسكر الأمريكى أيضا على تخفيضات، ولكن مع تنفيذ التحديدات والمعايير المحاسبية للامتصاص، فيما بعد (الله دوما فى التفاصيل)، ولكن لن تكون هناك تجارة انبعاثات، وفيما يتعلق بالأهداف الهامة كلها والتوقيت، فإن الاتفاقية كانت مع تخفيضات الانبعاثات تحت مستويات عام ١٩٩٠ ب ٨٪ للاتحاد الأوروبى، و ٧٪ للولايات المتحدة، و ٦٪ لليابان، ويتم إنجاز ذلك ما بين عام ٢٠٠٨ وعام ٢٠١٢، وأعفيت الدول النامية من أية التزامات، لكنها دُعيت لـ "مشاركة" على أساس طوعى، ويصبح البروتوكول نافذا بعد تصديق خمس وخمسين بلدا على الأقل، بحيث تصل انبعاثاتها مجتمعة إلى ٥٥٪ من ثانى أوكسيد الكربون ^(٥٧)، وفرقت سدادات الشمبانيا كما ينبغى، واحتفل المفاوضون المرهقون وغالبية المؤسسات البيئية بالصفقة، غير أنها لم تكن صفقة بهذا القدر المماثل لتذكرة إلى لاهى.

فى لاهائى

كانت نوعية المناقشة كلها فى كيوٲو سريالية؁ هنا كانت الولايات المتحدة وأوربا؁ واللتان ربما تكونان أقرب حلفاء فى العالم؁ تمارسان النذالة مع بعضهما البعض حول فرق قدره ١٥٪ من تخفيضات الانبعاثات المستهدف؁ غير أن هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ؁ كانت تقول لزمان طويل؁ إنه من أجل استقرار تركيزات كربون الغلاف الجوى عند مستويات عام ١٩٩٠؁ وتفادى المزيد من الإغراء البشرى بزيادة الحرارة حتى عام ٢١٠٠؁ فإنه يجب التخفيض الفورى للانبعاثات بنسبة ٦٠ إلى ٨٠٪؁ ولم يقترح أحد فى كيوٲو أية نسبة قريبة من هذه؁ يضاف إلى ذلك أنه قد صار واضحا بالفعل أن العالم النامى سوف يتجاوز العالم المتطور باعتباره قائدا لانبعاث غاز الصوبة؁ إن الاحتباس الحرارى كان إغراء بشريا على طول المدى؁ ومن ثم فإنه سيستمر؁ فى حين أن كيوٲو سوف تحقق فقط فرقا بأعشار قليلة من درجة حرارة العالم عام ٢١٠٠؁ إذن ما الذى يحدث؟

كان الكل فى الغالب يتخذ وضعا خاصا؁ باستثناء دول الجزر؁ ولا شك أن هناك الكثير من الإخلاص عند الجانب الأوروبى؁ إلا أن تلك كانت حالة يمكن لأوربا أن تفعل ما هو جيد؁ وأن تبدو جيدة على حساب أمريكا؁ كان إيزنستادت وآخرون مقتنعين أن الأوربيين والدول النامية وجدوا فرصة يضعون فيها الولايات المتحدة فى وضع محف فى مجال المناقشة الاقتصادية؁ أما بالنسبة للبلدان النامية؁ فحيث إنها الخاسر الأكبر فى أغلب سيناريوهات الاحتباس الحرارى؛ لذا فإن تكتيكها لتوجيه اللوم إلى المستغلين الكولونىالين القدامى؁ وتحديثهم يمكن أن يكون مرضيا من الناحية العاطفية؁ غير أن ذلك كان فى النهاية تحطيما للذات؁ كانت بلدان الحدود الخارجية للمعسكر الأمريكى تحاول أن تكون محبوبة من الجميع - من مكوناتها المحلية من الأمريكيين والأوربيين؁ كان اليابانيون فى النهاية هم سماسرة الصفقة؁ ووقع الأمريكيون فى النهاية فى فخ معاهدتهم وسياساتهم؁ وهم على غير مثال القادة الأوربيين؁ وديمقراطيات برلمانية أخرى؁ لم يستطيعوا مجرد التوقيع على

صفقة، وأن يكونوا على يقين من أنها إما أن تمر تشريعيا، أو أنها، وقد أجيّزت، لا يمكن لأحد تحديها في المحاكم، كان عليهم أن يظهروا للكونجرس أنهم كانوا يحمون مصالح الولايات المتحدة، بينما يُظهرون أيضا لمساندى البيئة أنهم أيضا كانوا يفعلون ما هو صواب.

غير أن الاقتصادات كانت ذات صفة مشتركة عامة، لا أحد حقا أراد لنظام الولايات المتحدة أن يتغير، رغم شكواهم حول نمط الحياة الأمريكية المتسم بالغرور، والنقد الذى ذكر سابقا بأن أمريكا وهى تمثل فقط ٤٪ من سكان العالم، تصل نسبتها فى الانبعاثات الكونية إلى ٢٥٪، وكما ذكر سابقا، فإن الرد الملائم للهجوم الأخير، كان هو أن الولايات المتحدة تصل أيضا إلى أكثر من نسبة ٢٥٪ من إجمالى الناتج المحلى الكونى، وكانت هى الآلة المنفردة التى تدفع نمو الاقتصاد العالمى، هل يود أحد أن تبطل تلك الآلة؟ كلا، يضاف إلى ذلك أنه حتى المؤمنين بالصدق الأكثر إخلاصا، كان يجرون حسابا عن التكلفة - والفائدة، إن كنت تتوقع حقا كارثة لأطفالك، عليك أن تقبل نسبة الـ ٦٠ - ٨٠٪ التى أوصى بها العلماء، ما لم يكن ذلك يعنى - دون شك - كارثة الآن، لكنها حدثت، وذلك هو الذى جعل الأوروبيين يرون أن التخفيضات كانت بطيئة للغاية. ثم إنه بدون البلدان النامية فإنها لن تنجح؛ مما أدى إلى المزيد من خفض الثمن الذى كان يرغب أى أحد فى دفعه من أجل فائدة غير مؤكدة، ولذا فإنه لو كان لكيتو وجهة نظر، على أية حال، فإنها كانت حقا عن كسب الوقت لتمكين العلاج العملى الوحيد - تأثير التكنولوجيا الجديدة، غير أن ذلك أثار نقاشا حول إقامة نظام يقوم على مظلة كبيزة يمكن لأى أحد أن يرتاح تحتها، بل وحتى يكون متحمسا، الكل وافق فى كيتو من ناحية المبدأ، لكن النظام الفعلى ظل يعمل بنجاح.

وكما تم بناء الصفقة، فإنها ماتت عند وصولها إلى الولايات المتحدة، إن عددا من الدراسات حدد تكلفتها، بنسبة تتراوح من ١ إلى ٤٪ من إجمالى الناتج المحلى، تجنبنا لكارثة احتباس حرارى، كان يؤمن عدد قليل باحتمال حدوثها^(٥٨)، وكما أوضح أحد الاقتراحات، فإن أكثر من ٥٠٪ من الأمريكيين كانوا يعتقدون أن الاحتباس

الصرارى الكونى مشكلة كبيرة، لكن ١٧٪ فقط أبدوا رغبتهم فى دفع ٥٠ سنتا زيادة، عن كل جالون من الجازولين لتجنب ذلك، وعلى رأس التكلفة، فإن هذه الصفقة، ما كان لها أن تذهب إلى أى مكان فى مجلس شيوخ الولايات المتحدة، بون التزام من البلدان النامية.

ولكن، ما بين كيوتو والتصديق عليها، كان هناك عدد من الدورات التفاوضية على فترات لوضع التفاصيل، حتى يكون لأى مفاوض له وزنه إبداء تحفظه أو تحفظها، وتشكل تلك "الدورات التفصيلية" على النوام فرصة جيدة لإعادة فتح الصفقة، انعقد الاجتماع فى العاصمة الهولندية لاهاي من ١٣ إلى ٢٤ نوفمبر عام ٢٠٠٠، كان هذا، فى ظل طرح نتيجة انتخابات الولايات المتحدة أمام القضاء الآن، وربما تكون تلك هى فرصة العالم الأخيرة للتفاوض، مع إدارة للولايات المتحدة، كانت ملتزمة أساسا بقضية البيئة كان فريق الولايات المتحدة التفاوضى تحت قيادة فرانك لوى، نائب الوزير، وهو متمرس فى القضايا البيئية، والمفاوضات الدولية، كان لوى فى حاجة ماسة لمساعدة الأوربيين، كان فى حاجة لأن يُنظر بتقدير كريم إلى تخفيضات الغابات، وإلى الكثير من تجارة الانبعاثات، كما أورد قدر استطاعته، وأمل كذلك فى أن يضغط بركة على البلدان النامية التى تعانى من انبعاثاتها هى، فى شكل سحببات، هى مزيج من ضباب ودخان يغطى المناطق كلها لأيام، فى كل مرة.

وقد اعترف لوى فيما بعد بأن الولايات المتحدة لم تساعد قضيتها بعمل القليل للغاية لتخفيض الانبعاثات خلال عقد من المفاوضات، وهو يعتقد من ناحية أخرى - أن العديد من مفاوضات الاتحاد الأوربي، أرادوا فرض تغيير فى نمط حياة الولايات المتحدة، بل وحتى أرادوا معاقبتها - لقد كان المفاوضون الأوربيون جميعا من وزارات البيئة، وقد لاحظ لوى أنه عندما التقى مع مسئولين من وزارة الخارجية أو وزارات التجارة فى أوربا، كانوا يديرون أعينهم، وهم يتحدثون عن أوضاع وزارات البيئة لديهم.

كان المفاوضون الأوروبيون - من ناحية أخرى - يخافون حقيقة الانتهاء إلى صفقة تثير السخرية، يمكن أن تبطلها الثغرات، واعتقدوا أن أى زيف من البلدان المتطورة سوف يقتل آمالهم فى الحصول على التزام من البلدان النامية، وعلى أية حال، فإنه بعد أيام من المساومات القاسية توصل جون بريسكوت - نائب رئيس الوزراء البريطانى - إلى اتفاق لم يعط لوى ما أراد، لكنه أعطاه على الأقل ما كان يحتاج إليه فيما يتعلق بالتخفيضات والتجارة، وفى الساعة الرابعة قبل الظهر من يوم عيد الشكر، وقّعت ورقة عمل من ثلاث صفحات بالأحرف الأولى، ومرة أخرى طرقت سدادات الشمبانيا، غير أنه كان على بريسكوت أن يؤكدما بالإجماع مع باقى مندوبى الاتحاد الأوروبى، وسقط الأمر كله مفككا عندما حاول فعل ذلك، فى اليوم التالى، وبعد شهر، أصبح للولايات المتحدة رئيس جديد لم يكن اسمه آل جور.

إلى مراکش

كان فى وسع جورج دبليو بوش أن يسمح لكلب كيوتو النائم أن يواصل ببساطة غفلته اللذيذة، وإن وضعنا فى الحسبان مقاومة كل من كندا واليابان وروسيا وأستراليا، فقد كان تحقيق الخمسة والخمسين توقيعاً، التى تغطى الـ ٥٥٪ من الانبعاثات من أجل التصديق على المعاهدة تجاوزاً للمستحيل، ومن ثم لم يكن فى الإمكان قط تنفيذ المعاهدة، وما كان فى وسع بوش القيام بإعادة التفاوض، إنه بدلا من ذلك، حقق الرضا، بإعلانه إعلانا عاما أن الولايات المتحدة لن تصدق أبدا على الاتفاقية.

كان هنالك ثلاثة أسباب لذلك. الأول: أن بوش كان يتعاطف تعاطفا ضئيلا مع الجمهور البيئى، سواء كان فى الولايات المتحدة أو أوروبا، وهو كرجل نפט، ورجل أعمال، يؤمن بالحفر والنمو، ويرتاب فى النظم والقواعد الحكومية، وقد طالبت خطته للطاقة بالحفر بحثا عن النفط فى "المنطقة الوطنية للقطب الشمالى بحياته البرية"،

معززا التمويل الفيدرالى، داعما البحث والتنمية فى تكنولوجيا الفحم، ومخفضا النظم والقواعد على المصانع التى تدار بالفحم، وكما أخبرنى موظف فى إدارة الدولة أن البوشيين يعتقدون أن البيئة هى المكان الذى ذهب إليه كل الشيوعيين بعد انهيار الاتحاد السوفيتى، إنهم يكرهونهم. ثانيا: إن بوش لا يؤمن بالعلم فيما يتعلق بالاحتباس الحرارى الكونى، وهو يعتقد حقا أن إجراءات كويتو سوف تغير اقتصاد الولايات المتحدة وكان مستشاروه الاقتصاديون من الذين يؤمنون بتنظيم الاقتصاد على أساس العرض وصناعة الألومنيوم. ثالثا: كان بوش قد قدم وعودا فى حملته إلى شركات الفحم والطاقة والنقط والصلب حتى يكسب ولايات ذات وضع دقيق مثل ويست فرجينيا. الآن، حان وقت السداد، إن مجيء إعلان هذا بالضبط قبل رحلته الرسمية الأولى إلى أوروبا، كان له ميزة مضافة بجعل المتذمرين الأوربيين يعرفون أن ريحا جديدة بدأت تهب من واشنطن، وكان رفض بوش مثل صدمة كهربائية، وأثار عاصفة نارية دبلوماسية وإعلامية، واستثار الأوربيين كى يمسكوا بالقيادة كما لم يفعلوا البتة من قبل، لقد صمموا على أن يظهروا للولايات المتحدة أنها لم تكن أساسية، أو لا غنى عنها، وأن يضغطوا قدما باستخدام التصديق على المعاهدة، لقد صلب بوش فقط تصميمهم، عندما قرصهم خلال زيارته، بعدم الموافقة على أهدافهم، إذ إنه بدون توقيع الولايات المتحدة، يتوجب على الاتحاد الأوربى أن يكسب كل الآخرين من بلدان الحدود الخارجية لمعسكر الولايات المتحدة، إلى خشبة المسرح، اقترحوا مناقشة اعتمادات تخفيضات الغابات فى كل بلد على حدة، بدلا من توزيعها على أساس معايير محددة؛ مما أدى إلى اعتمادات غاية فى الكرم، خاصة بالنسبة لكل من كندا وروسيا، وأراد اليابانيون والأستراليون المزيد من تجارة الانبعاثات، وتلك أيضا تم توسيعها، وفى النهاية، ومن أجل كسب المزيد من كل الآخرين الذين تحت المظلة، وافق الاتحاد الأوربى على كل شئ طالب به فرانك لوى وستو إيزنستادت، بل وأكثر، وتم التصديق على بروتوكول كويتو المعدل، ووضع فى حيز التنفيذ فى ١٠ نوفمبر عام ٢٠٠١ فى مراكش، وجلس باولا دوبريانسكى، وكيل الوزارة

يراقب، بينما باقى الوفود توقع، ورأى الكثيرون من العالم الآن الولايات المتحدة مخترع البيئية كعدو لها.

ما الذى يجب عمله

نشرت هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغيير المناخ، فى مارس عام ٢٠٠١ - تقييمها الثالث، الذى أكدت فيه وقوت إلى حد كبير نتائج التقييمين السابقين، إن التقرير يقرر باعتباره صادرا عن سلطة مختصة أن درجات الحرارة، خلال القرن العشرين قد ارتفعت بـ ٠,٦ درجة مئوية، وأن الارتفاع قد حدث فى الثمانى كيلو مترات الأكثر انخفاضاً فى الغلاف الجوى (مقدمين حلا لتعارض السابق بين بيانات درجة حرارة السطح وبيانات درجة حرارة الغلاف الجوى). وأن سطح البحر قد ارتفع بـ ٠,١ - ٠,٢ مترا، وأن درجات حرارة المحيط قد زادت أيضا، كان هنالك المزيد من الترسيب، والمزيد من أحداث الترسيب الثقيل، وزيادة فى غطاء السحب، وقد واصلت الانبعاثات الناجمة عن نشاطات بشرية تغييرها للغلاف الجوى بطرق من المتوقع أن تؤثر على المناخ، وهنالك دليل جديد وقوى على أن غالبية الاحتباس الحرارى، خلال الخمسين سنة الأخيرة - يمكن أن يعزى إلى النشاطات البشرية، كانت النغمة الواثقة لهذا التقرير تقوم على تحسينات فى نماذج كمبيوتر المناخ، وفى قدرتها على التنبؤ بالماضى والإمساك بعناصر، مثل النشاط الشمسى، الذى لم يكن متضمنا فيما مضى، فى الحسابات، وقد اعترف العلماء أنهم - على أية حال - يستطيعون التنبؤ بثقة بزيادة درجة حرارة السطح بـ ١,٤ - ٥,٨ درجة مئوية، خلال القرن القادم، إن هذا يعد أكبر مما مارسه العالم فى القرن العشرين، ويحتمل ألا يكون مسبقا فى السنوات العشرة الآف الأخيرة، إن كل هذه التقديرات تفترض أن ممارسة الأعمال أمر معتاد صوره عن البشر، بمعنى الزيادة المتواصلة لتركيزات الكربون فى الغلاف الجوى، إن الاستنتاجات، بناء على تلك القاعدة، هى الارتفاع المتواصل لمستويات البحار، والمزيد من أحداث الطقس الحادة، والمزيد من الجفاف الكثيف، والتراجع المتواصل للثلجات وخطوط الجليد،

هناك أيضا احتمال نقطة ذروة، أو نقاط ذروة، تجعل تلك التغيرات مفاجئة وعنيفة أكثر منها تدريجية.

لا أحد يعرف حقا، كم من هذا سوف يحدث؛ إذ إن كلا من النشاط البشرى والطبيعى سوف يتغير بدون شك، ربما حسن ذلك النشاط من وضع المشكلة، لكنه يستطيع أيضا زيادة خطورتها وحدتها، إن نظرنا إلى المعرفة اليوم، فإن تجاهل الأمر سيبدو كمقاومة كاملة، وحتى نكون من ناحية أخرى واثقين من منع المشكلة فإن ذلك يعنى التخفيض المباشر للانبعاثات بمقياس لا يستطيع أحد تأمل نتائجها الاقتصادية، بصورة عاقلة، هنالك فى مكان ما فى خلفية عقولهم، يعتقد أغلب المراقبين أن التكنولوجيا الجديدة، أو تغييرات أخرى فى السلوك البشرى، سوف تحدث لتلطف من المشكلة، وحيث إننا لا نستطيع حقا إنقاذ طريق خلاصنا، فإنه يتوجب علينا - على الطريقة الأمريكية وبأفضل حس - أن نخترع طريقنا هناك، إلا أن ذلك سوف يستغرق وقتا وسوف تسوء المشكلة فى تلك الأثناء، إن عملا ما يستهدف الإنقاص، وكسب الوقت يبدو حكيما مثل بوليصة تأمين، إن السؤال الوحيد حينئذ هو تكلفة البوليصة وفعاليتها، إن البوليصة عالية الثمن للغاية، وهى إن أدت إلى إنقاص قليل وكسب وقت قصير، لن تكون جذابة ما لم تكن خطوة نحو بوليصة أقل ثمنا أو أكثر إنقاصا، أو كليهما معا، إن كيوتو الأصلية كانت - دون شك - بوليصة غالية الثمن للولايات المتحدة، وواحدة استهدفت إنقاصا أقل، وهنالك سؤال آخر، إذا ما كانت تلك خطوة على الطريق، غير أن النقطة الأكثر أهمية هى أن كيوتو على طريقة مراكش مختلفة للغاية، وأقل ثمنا بكثير، إن الولايات المتحدة تستطيع تحملها بسهولة، وكان يجب أن توقع عليها فى مراكش، كان ذلك سيحقق حسا اقتصاديا، وتجنب إدارة عالمية هائلة وريئة؛ حيث إننا فقدنا الفرصة فى مراكش، كان من الممكن أن تكون حركة ذكية منا إن نحن فى أعقاب ١١ سبتمبر، وقعنا المعاهدة كعلامة عن تضامن الولايات المتحدة مع الأصدقاء الذين كانوا يعبرون عن دعمهم لنا فى ذلك الوقت بطريقة درامية، لقد فقدنا تلك الفرصة أيضا، غير أن الوقت لم يفت بعد.

الفصل السادس

نحن نشق في الأسلحة

"إن أمريكا تبشر دوماً بحكم القانون، لكنها
في النهاية تضع نفسها دوماً فوق القانون"

- سفير بريطاني

الولايات المتحدة هي بلد القانون المثالية، المحامون ينجحون هنا ليس مثل أى مكان آخر، نحن لدينا محامون أضعاف أضعاف أى بلد آخر، بالنسبة للآلاف من السكان: لقد قيل حقاً: إن هنالك مثلاً محامين فى أية مدينة أمريكية متوسطة الحجم، أكثر من كل محامى اليابان، إن كل ما هو مرتبط بأعمال دولية، يعرف أن وضع الأوجه القانونية لأية صفقة تجارية فى الاعتبار - مسألة أكبر شمولاً فى الولايات المتحدة منها فى أى مكان آخر، كما أن هنالك للتسجيل عدة أوامر خاصة بالحجم والقدر أكثر عدداً، إن أغلب المشرعين وموظفى القمة فى أمريكا فقط محامون. إن القانون فى أمريكا وحدها هو بصورة روتينية، الطريق إلى قمة الشركات الكبرى، إن الولايات المتحدة فى الحلبة الدبلوماسية أيضاً هي بطله حكم القانون، والتبشير به بصورة خاصة، باعتباره شيئاً لا بد منه للتجارة الحرة والتنمية الاقتصادية (إننى أعرف ذلك لأننى كثيراً ما كنت المبشر)، وبالطبع فإن التوسع فى حقوق الإنسان وحمايتها دولياً يشكل جزءاً من أساس السياسة الخارجية الأمريكية، لقد كانت أمريكا منذ زمن وودرو ويلسون هي قائد تحييز التفاوض حول معاهدات دولية.

ومع ذلك، فقد ذكر تقرير صدر فى إبريل عام ٢٠٠٢ بعنوان "حكم القوة أم حكم القانون"، كان يستعرض ربود فعل الولايات المتحدة على ثمانى اتفاقيات دولية كبرى، إن المحرر نيكول ديلر قد لاحظ أن الولايات المتحدة ساومت أو عمدت إلى تفجير حاسم، بصورة ما، لكل معاهدة قمنا بدراستها تفصيليا، إن أمريكا بالطبع طرف فى آلاف الاتفاقيات الدولية، ومن الخطأ القول بأنها لم تحافظ البتة على هدفها من الصفقة غير أن أمريكا رفضت، فى السنوات الحديثة، أو أضعفت معاهدات تعتبر علامات، منها حظر استخدام الألغام، والاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية (إيه بى إم)، واتفاقية الحرب الكيميائية، واتفاقية الحرب البيولوجية، واتفاقية منع الانتشار، والمحكمة الجنائية الدولية، وأخرى. ولما كان ذلك واحدا من العوامل الكبرى التى تسبب العزلة عن أمريكا فى عالم اليوم، فأتت فى حاجة لدراسة كل من مقاومتنا للحد الدولى من مجموعة من الأسلحة، وكذلك ماذا يعنى اعتمادنا على الوسائل العسكرية من أجل اقتصاد الولايات المتحدة.

زراعة الحقول بالألغام

تحفر فى الأرض وتقع أحيانا بالسنوات، تنتظر طفلا بريئا يلعب، أو أما تبحث عن الطفل، أو شبابا يلعبون كرة القدم، أو مزارعين يحرقون حقولاً جديدة، إنها دوما فى انتظار أحد غافل، غير متنبه، وما أن يصبح الذين لا يرتابون، فى النهاية فى النقطة الصحيحة تماما، حتى تنفجر دون إنذار، تنتزع أحشاء الضحايا أو تمزق أذرعهم وأرجلهم.

ورغم أنها وجدت أول ما وجدت خلال الحرب الأهلية الأمريكية؛ حيث استخدمت الألغام الأرضية استخداما محدودا حتى الحرب العالمية الأولى، عندما ازدهرت باعتبارها المضاد للدبابات التى اكتشفت حديثا، والتى كانت تثير قلق جندى الحرب الطويل، وقد نشر الأعداء فى الحرب العالمية الثانية أكثر من ٢٠٠ مليون لغم

مضاد للدبابات، غير أنها كشفت في الحرب مبكرا، عن ضعف خطير؛ إذ كان يمكن للعدو إخراجها من الحفر وإعادة توزيعها، ولمواجهة ذلك سريعا، صُنعت أنواع من ألغام جديدة مضادة للأفراد، كانت توضع على نحو نموذجي حول الألغام المضادة للدبابات لمنع تحريكها، وربما كان النوع الأكثر فاعلية هو ألغام "الحساء النشطة" الألمانية، التي كان يمكن أن تقفز بارتفاع أعلى الفخذ عند تفعيلها، متقيئة آلاف من شذرات الصلب القاتلة في الجنود، في حدود قوس حولها، كانت الألغام فعالة إلى حد أنها سرعان ما استخدمت في الأغراض الهجومية، تماما مثلما تستخدم في الأغراض الدفاعية.

وقد تقدمت تكنولوجيا الأسلحة سريعا بعد الحرب العالمية الثانية، وصنعت في الستينيات ألغاماً أطلق عليها "الألغام الأرضية المتناثرة"، التي يمكن إسقاطها من الطائرات، فتتشتت أليا بمجرد اصطدامها بالأرض، وبدلا من زرع كل لغم باليد بطريقة مجهدّة، أصبح في وسع قوة جوية أن تنشر سريعا أعداداً كبيرة من الألغام، لقد أدخلت الألغام المتناثرة أولا بواسطة الولايات المتحدة خلال الحرب الفيتنامية، وغدت سلاحا كبيرا يَدْفَعُ بأسافين بين القوات المقاومة وقواعدها، وحصرهم في حقول غير ملائمة، وكانت تُستخدم أيضا بواسطة كل من الجانبين لإزاحة قرى، ولجعل الأرض الخصبة غير صالحة للاستعمال، وتحطيم الطرق والكبارى ومصادر المياه، وكانت لها في بعض الأحيان نتائج شريرة، كانت قوات الولايات المتحدة غالبا ما تجد نفسها تتقهقر عبر حقول ألغامها هي، وهناك تقدير بأن حوالى ثلث كل ضحايا الولايات المتحدة، خلال الحرب، كانوا بسبب ألغام صديقة^(١).

انتشرت خلال الستينيات والسبعينيات حروب منخفضة الحدة، استخدمت فيها الألغام على نطاق واسع، ليس فقط بواسطة القوات الحكومية، ولكن أيضا بواسطة قوات شبه عسكرية، والشرطة، وفي حرب العصابات.

وغزا الاتحاد السوفيتي أفغانستان، عام ١٩٧٩، ومعه ألغام جديدة، بعد تحسين تلك المحسنة المتناثرة، تدعى "لغم الفراشة"، التي يمكن إسقاطها بكثرة كبيرة

فوق كل بلد، ورغم أن حقول ألغام الحرب العالمية الثانية كانت قد حددت بدقة شديدة، ووضعت على خرائط حتى يمكن تجنبها، وفي النهاية إزاحتها، فإن مجيء الألغام المتناثرة واستخدامها الواسع، دون تمييز، جعل عمل الخرائط المناسبة وتحديد مواقعها مستحيلا، لم يكن ذلك صحيحا فى أى مكان آخر، بقدر ما كان فى أفغانستان؛ إذ إنه رغم إزاحة السوفيت فى النهاية، عام ١٩٨٩، بواسطة المجاهدين، ظلت الألغام باقية.

وقد غدت هذه الحقيقة واضحة بصورة مؤلمة، للمقدم كولن ميتشيل "ميتش المجنون"، الضابط بالجيش البريطانى، فى الثمانينيات، عندما أرسل إلى أفغانستان ليعاون الأفغان على إعادة العافية إلى إنتاجهم الزراعى، فقد وجد العديد للغاية من الألغام، حتى إنه كان من المستحيل القيام بأية زراعة جادة، حتى يمكن تطهيرها، وكان الشروع فى ذلك خطيرا للغاية؛ نظرا لعدم وجود خرائط أو علامات محددة لحقول الألغام، وواظب ميتشيل رغم كل شىء، وأطلق "هالة الأمل" مع بعثة تقوم ببرنامج إنسانى لإزالة الألغام.

كانت أفغانستان بعيدة من أن تكون البلد الوحيد الذى يعانى من مشكلة الألغام الأرضية، كانت هنالك كمبوديا وفيتنام وحوالى سبعين بلدا أغلبها بلدان نامية، ما تزال تستضيف ١١٠ مليون لغم تركت بعد نشاطات توقفت منذ زمن بعيد، إن تلك الألغام كانت تقتل أو تصيب حوالى ٢٦٠٠٠ شخص سنويا^(٢)، وفى يناير عام ١٩٩١، بعد أشهر من الاعتناء بضحايا الألغام الأرضية على امتداد الحدود التايلاندية - الكمبودية، دعت قائدات "لجنة المرأة من أجل النساء اللاجئات والأطفال" إلى حظر الألغام المضادة للأفراد، فى شهادة أمام كونجرس الولايات المتحدة، وافتتح فى ذلك الصيف "قدماء محاربو المؤسسة الأمريكية المعنية بفيتنام"، أول عيادة للجراحة الترميمية فى كمبوديا، وفى سبتمبر نشرت "الهيومان رايتس ووتش" و"أطباء من أجل حقوق الإنسان"، "حرب الجبناء - الألغام الأرضية فى كمبوديا"، وأضافوا أصواتهم إلى هؤلاء الداعين للحظر، وقد التقى فى النهاية هؤلاء ومجموعات أخرى فى خريف

عام ١٩٩٢؛ ليكونوا "الحملة الدولية لحظر الألغام الأرضية" (آى سى بى إل)، واختاروا جودى ويليامز لرئاسة هذا الجهد، وهى امرأة تتسم بالتصميم والنشاط من قدماء محاربى المؤسسة الأمريكية المعنية بفيتنام.

وألقت ويليامز بنفسها فى حملة غير مسبقة؛ لتجىء فى النهاية بـ ١٢٠٠ منظمة حكومية من أكثر من خمسة وثمانين بلدا تحت لواء الحملة الدولية لحظر الألغام الأرضية، وقد أكدت الحملة تأكيدات كبرى على بناء تحالف كبير قدر الإمكان، والتقوا مبكرا، وغالبا مع قادة دينيين، وعمال، ورجال أعمال، وأكاديميين، وعسكريين وسياسيين، وكان من المنضمين للقضية مبكرا، والأكثر أهمية، السيناتور باتريك ليهى، ديمقراطى من فيرمونت - وقد أدخل ليهى جنبا إلى جنب مع رجل الكونجرس لات إيفانز، من إلينوى - تشريعا وافق الكونجرس عليه عام ١٩٩٢، لوقف نشاطات الصادات الأمريكية من الألغام المضادة للأفراد لمدة عام^(٣)، وقد أثبت هذا التشريع أنه عامل محفز قوى؛ إذ بدأ السياسيون فى كل مكان التفكير فى أنه لو استطاعت الولايات المتحدة أخذ مثل هذه الخطوة، فإنه فى الإمكان حقا تحقيق تقدم هام. وقد أعلن الرئيس الفرنسى فرانسوا ميتران، خلال رحلة له إلى كمبوديا - أن فرنسا سوف تحظر تصدير الألغام، وسرعان ما تبع هذا إعلانات مماثلة من أكثر من ستة من البلدان، ثم دعا البرلمان السويدى، فى يونيو عام ١٩٩٤، إلى حظر كلى للألغام الأرضية، وفى أغسطس، كان الدور على مجلس الشيوخ الإيطالى الذى أمر حكومته بأن تعمل على حظر كل صادرات الألغام، ثم جاءت المدفعية الأكبر من الجميع، عندما دعا الرئيس كلينتون فى الافتتاح السنوى للجمعية العامة فى سبتمبر إلى "الإزالة النهائية" للألغام الأرضية^(٤). وتلا كل ذلك بيان حول سياسة جديدة فى مايو عام ١٩٩٦، بأن الولايات المتحدة سوف تنهى استخدام الألغام "البكماء" عام ١٩٩٩، باستثناء كوريا، التى سوف تواصل استخدام "الألغام الذكية" (الألغام ذات التدمير الذاتى بعد زمن محدد سلفا) إلى ما لا نهاية حتى يتم التوصل إلى اتفاقية دولية، والتفاوض بغية الوصول إلى اتفاقية دولية لحظر الألغام المضادة للأشخاص^(٥).

وأعد ذلك المسرح لمؤتمر أوتاوا الدرامي فى أكتوبر عام ١٩٩٦، ودعت كندا كل تلك الحكومات من أجل حظر كلى للألغام، دعتهم للالتقاء، ومناقشة استراتيجية خاصة بذلك، وقد شاركت فى الاجتماع خمسون حكومة، بالإضافة إلى مراقبين من أربعة وعشرين دولة، ومشاركين آخرون من مجتمع المنظمات غير الحكومية والأمم المتحدة، وأعلن للويد أكسورثى، وزير الخارجية، فى نهاية المؤتمر، نية الحكومة الكندية دعوة ذات البلدان، بالإضافة لى آخرين قد يرغبون فى الانضمام بعد عام واحد فى ديسمبر ١٩٩٧، بغرض توقيع معاهدة تحظر تماما، وفورا، الألغام الأرضية المضادة للأفراد من كل نوع، وقد أسست هذه، بصورة فاعلة، بديلا، هو عملية تعقب سريع لمباحثات الأمم المتحدة المثيرة للقلق حول ذات الموضوع.

لكن بينما كانت عملية أوتاوا تحشد القوة الدافعة، بدأ يُسمع صدى بيانات الولايات المتحدة، مثل صدى صبى متردد، قال كارل ف. اندرفورث، نائب سفير الولايات المتحدة، فى الأمم المتحدة: "إننا لسنا مستعدين لتحديد موعد، لكننا مستعدون لبدء العمل فورا، إن كانت عملية أوتاوا يمكن إجراؤها فى غضون هذا الوقت، وإن كان من الممكن تحقيق ما يشغلنا، فإننا سنكون داعمين دعما تاماً^(٦) هذا موقف إيجابى، ولكن هنالك كمية من "إن" تلك كانت الولايات المتحدة تدمر الألغام فعليا، فقد حطمت من مخزونها الاحتياطى ثلاثة ملايين لغم، وقدمت المزيد من الدعم المالى، أكثر من أى بلد آخر، من أجل إزالة الألغام على امتداد العالم^(٧)، وقد وسعت الولايات المتحدة أيضا من وقف نشاط التصدير، وكفلت قرارا للأمم المتحدة يدعو كل الأمم إلى "متابعة أنشطة حظر الألغام، وعندما بدأت عملية أوتاوا تتحرك إلى الأمام، بدأ مسئولون من الولايات المتحدة التعبير عن تفضيلهم عملية الأمم المتحدة الأكثر بطأ.

وكان مرجع ذلك إلى أن إدارة دفاع الولايات المتحدة، طلبت ثلاثة استثناءات فى محاولة تسوية اتفاقية تتفق مع احتياجات الدفاع الأساسية، بوجوب السماح بالألغام الأرضية

فى "المنطقة منزوعة السلاح" (دى إم زد) بين شمال كوريا وجنوبها، ووجوب السماح للولايات المتحدة أن تواصل استخدام الألغام فى الأنظمة المختلطة المضادة للدبابات، كما يجب أن تحتفظ الولايات المتحدة بالحق فى استخدام الألغام "الذكية"، قيل: إنه يجب استثناء كوريا؛ لأنها كانت المعركة الأرضية الأخيرة للحرب الباردة، كانت الألغام هى كل شىء وقف حائلا بين الـ ٢٧٠٠٠ من قوات الولايات المتحدة، التى تحرس سيول، والمليون جندى الكورى الشمالى على الجانب الآخر من المنطقة منزوعة السلاح^(٨)، لم تكن الألغام الذكية، على أى حال، مشكلة، طالما أنها تدمر ذاتها؛ لذا يجب ألا يتم حظرها.

وقد أثار هذا الوضع وابلا من النقد، من ليهى، ومن قادة آخرين من الكونجرس، وكذا من الكثير من صحافة العالم، وقد انتقدت الأميرة ديانا، من بريطانيا العظمى، انتقدت ضمينا وضع الولايات المتحدة أثناء زيارتها ضحايا الألغام الأرضية، أثناء جولة لها فى أنجولا، ورد كلينتون على ذلك، مغيرا التوجه الجارى، معلنا الموافقة على الانضمام إلى محادثات أوتاوا، التى كانت ستجرى فى أواسط خلال أسبوعين تقريبا، حول إعداد المعاهدة فى صورتها النهائية، والتوقيع فى أوتاوا فى ديسمبر، غير أن الولايات المتحدة، رغم موافقتها على المشاركة فى عملية أوتاوا فإنها واصلت المطالبة بالاستثناءات، على الأقل بصورة مؤقتة، وازداد الضغط بغرض الحفاظ على ذلك الوضع فقط، ب خطاب تسلمه كلينتون من عشرة جنرالات معتزلين من الولايات المتحدة، من نوى النجوم الأربعة، والذين وصفوا الاتفاقية بأنها "معيبة بوضوح، ولا يمكن تأكيد صحتها، كما لا يمكن وضعها موضع التنفيذ، إنها غير فعالة"^(٩)، وأعلن كلينتون، بعد أسبوع آخر شديد العذاب، فى ١٧ سبتمبر ١٩٩٧، أن الولايات المتحدة لن توقع معاهدة حظر الألغام، كما كانت فى حينها، ومن ثم، عندما احتشدت ١٢٢ أمة، بما فيها أقرب حلفاء أمريكا جميعا، فى أوتاوا، فى أوائل ديسمبر، لتوقيع اتفاقية حظر الألغام، راقبت الولايات المتحدة الأمر عن بعد.

وقال الرئيس كلينتون: "إن لأمتنا مسئولية متفردة ... وباعتباري القائد الأعلى للقوات المسلحة، فإننى لن أرسل جنودنا لحماية حرية شعبنا، وحرية الآخرين، دون فعل كل ما نستطيع فعله حتى نجعلهم فى أمان قدر المستطاع"^(١٠)، غير أن تلك لم تكن الكلمة الأخيرة. فبعد توقيع الاتفاقية بفترة قصيرة مُنح جودى ويليامز جائزة نوبل للسلام، بهدف إنهاء استخدام كل الألغام الأرضية خارج كوريا عام ٢٠٠٢، وتوقيع اتفاقية حظر الألغام عام ٢٠٠٦، وفى مايو عام ٢٠٠١، كتب ثمانية قادة عسكريين معترلين من الولايات المتحدة، بما فيهم قادة عديدون سابقون فى كوريا، والمدير السابق لويست بوينت، إلى الرئيس الجديد بوش يحثونه على التوقيع على اتفاقية حظر الألغام، وقد أكدوا، من بين أشياء أخرى، على أمرين: أن الألغام، بعيدا عن كونها حاسمة فى الدفاع عن كوريا، كانت - على الأرجح - تبطئ وتعوق تحركات قوات الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية. والألغام الأرضية - على أية حال - فى المنطقة منزوعة السلاح، الخاضعة للسلطة القضائية لحكومة كوريا الجنوبية، وإذا فإنها لا تتأثر بموافقة الولايات المتحدة على المعاهدة، وبصورة أكثر عمومية، قال خطابهم: إن الألغام المضادة للأفراد إنما هى أسلحة عتيقة تسبب ضررا لقوات الولايات المتحدة، أكثر من إفادتها، ولقد لحقت بتلك البيانات مشاعر عاطفية من أناس مثل كابتن الجيش السابق إدميلز، الذى فقد رجله فى لغم أرضى فى فيتنام وقد قال: "إن السلاح قد عاش أكثر مما نفع، أيّا كان نفعه بأية حال من الأحوال"^(١١)، وأعلن الرئيس بوش، فى أغسطس، إعادة البيت الأبيض النظر فى سياسة الألغام الأرضية، وقد أكد العديد من المسؤولين أعباء الأمن الأمريكى الخاصة، وأولوية حماية قواتنا وحلفائنا (الذين كانوا قد وقعوا جميعا على الاتفاقية بالفعل، ودمروا ألغامهم)^(١٢)، وأصدر قدامى محاربى المؤسسة الأمريكية المعنية بفيتنام، فى نهاية فبراير عام ٢٠٠١ سلسلة إعلانات فى صفحة كاملة، وفترات تلفازية تستحث الرئيس للتوقيع على المعاهدة^(١٣)، وبينما أكتب يظل الأمر قيد المراجعة.

إننا نثق في مدافعنا، وصواريخنا، وقنابلنا، وغازاتنا، وميكروباتنا

الأسلحة الصغيرة فئة أخرى من الأسلحة، تتردد الولايات المتحدة في كبح استخدامها، إن البلدان المتطورة تعطي اهتماما كبيرا للأسلحة الكيميائية والبيولوجية والنووية، بينما الأسلحة الصغيرة هي أسلحة الرجل الفقير من أجل التدمير الشامل؛ وتقدر الأمم المتحدة تداول ٥٠٠ مليون من مثل تلك الأسلحة على امتداد العالم، وقد كانت تلك الأسلحة هي الأسلحة المفضلة في ست وأربعين حربا من تسعة وأربعين نزاعا مسلحاً هاماً خلال الاثنتي عشرة سنة الماضية^(١٤)؛ إذ يمكن الحصول عليها بسهولة، سواء بالقانون أم بغير قانون، إنها سهلة الإخفاء، بسيطة الاستخدام، يصعب التحكم فيها إلى حد أن سعر ٤٦ - AK، في السوق السوداء، أصبح مؤشرا رئيسيا للمنازعات، إن السعر الطبيعي يتراوح من ٢٣٠ إلى ٤٠٠ دولار، فإن قل عن مائة دولار، فتلك إشارة إلى انتشار السلام، بعد فترة عنف كثيف، وإن كان عكس ذلك؛ أي تجاوزت الأسعار ١٠٠٠ دولار، فذلك يشكل تحذيرا قويا بقدوم المتاعب^(١٥).

إن التكرار يخرننا، ولذا فإننا نراقب النتائج كل ليلة على شاشة التلفاز دون أن نراها، لقد قتل أربعة ملايين في حقول سيراليون القاتلة، وفي أدغال شرق تيمور، وفي صحارى الصومال، وفي كل مكان آخر، بواسطة تلك الأسلحة الصغيرة؛ خلال العقد الماضي، كان ٩٠٪ منهم مدنيين، و٨٠٪ من النساء والأطفال^(١٦).

وقد شكلت الجمعية العامة للأمم المتحدة، في محاولة لضبط عملية التشويه الدائم تلك - هيئة خاصة عام ١٩٩٥، للنظر في مشكلة الأسلحة الصغيرة، وأدى عمل الهيئة، في النهاية، بعد عشر سنوات - إلى الدعوة إلى "مؤتمر للأمم المتحدة حول التجارة غير المشروعة في الأسلحة الصغيرة، والأسلحة الخفيفة، في كل أشكالها"، يعقد في نيويورك، في نهاية يوليو عام ٢٠٠١. كان مجرد عقد المؤتمر في ذاته إنجازا كبيرا

فى مواجهة مقاومة عدة بلدان من كبار مصدري الأسلحة، بما فى ذلك الولايات المتحدة، وكشف التركيز على "التجارة غير المشروعة" فى نفس الوقت، عن التسويات التى كانت ضرورية لىتحقق عقد الاجتماع، كانت غالبية المشاركين تؤمن أن المشكلة أبعد بكثير جدا من مجرد تجارة غير مشروعة، لكن الكل كان يعرف أن أى جهد لتناول أى أمر آخر سوف يتبدد أمام المعارضة العنيدة للولايات المتحدة، بل حتى تناول التجارة غير المشروعة سوف يتحول إلى قضية صعبة للغاية، كان هدف المؤتمر قد تقرر بصورة عريضة على أساس أنه سوف يتناول كل العوامل وثيقة الصلة بالموضوع التى تؤدى إلى التراكم المفرط للأسلحة الصغيرة والأسلحة الخفيفة - فى سياق تجارة الأسلحة غير المشروعة، الذى يسبب عدم الاستقرار^(١٧)، كان الهدف الأساسى والمباشر هو صياغة اتفاقيات سياسية - لا تكون قيدا قانونيا - يمكنها أن تقصر إنتاج هذه الأسلحة والتجارة فيها، فقط على الصناع والسماسرة المسجلين، وأن ذلك سوف يوفر تحديدا للأسلحة، ومتابعة لخطوط إمدادها، والتحقق منها، وجمع وتحطيم الأسلحة فى "نقاط ساخنة"، ونزع السلاح، وتسريح الجيوش، وإعادة توحيد المتنازعين السابقين. كان هاما بصورة خاصة للعديد من البلدان مثل جنوب إفريقيا والنرويج - وجود إجراءات ممكنة للحد من امتلاك المدنيين لمثل تلك الأسلحة، ومنع بيعها لكيانات غير حكومية.

ولم يضع جون بولتون وكيل وزارة الولايات المتحدة لضبط الأسلحة والأمن الدولى؛ أى وقت لمنح مندوبى المؤتمر جرعة من الحقيقة، قال وهو يتحدث مبكرا فى المؤتمر: إن أهداف المؤتمر وغاياته جديرة بالثناء، لكنه استمر مؤكدا أنه كان يتحدث فقط عن الأسلحة العسكرية وليس عن بنادق الصيد أو مسدساته، كما أنه يتحدث فقط عن التجارة غير المشروعة، "إننا ... لا نبدأ بافتراض أن الأسلحة الصغيرة والخفيفة كلها متماثلة أو أنها كلها صعبة الحل"، وردا على قلق مواطنى جنوب إفريقيا والنرويج وآخرين، من وجود بندقية فى كل خزانة - أكد بولتون أنه "تماما مثل التعديل الأول والرابع (من دستور الولايات المتحدة) والذان كفلا حقوق الأفراد فى التعبير والأمن

على التوالي، فإن التعديل الثانى يحمى حق الفرد فى الاحتفاظ بالأسلحة وحملها؛ لذا فهناك الكثير لحصر مبيعات الأسلحة على الكيانات الحكومية المعترف بها، وأضاف بولتون حتى لا يسىء أحد فهمه: "إننا لن ندعم إجراءات يمكن أن تقيد التجارة القانونية، والصناعة القانونية للأسلحة الصغيرة والخفيفة"، إننا لا ندعم تشجيع النشاط الدفاعى العالمى للمنظمات غير الحكومية، إننا لن ندعم إجراءات تحظر امتلاك المدنيين للأسلحة الصغيرة، إننا لن ندعم إجراءات تقصر التجارة فى الأسلحة الصغيرة على الحكومات فقط، والولايات المتحدة لن تدعم أيضا مؤتمرا إجباريا للمراجعة^(١٨). وفى رأيه، إنه خلافا لكل ذلك يمكن وجود بعض الفائدة فى الاقتراحات.

وانتهى المؤتمر بإعلان النصر، ونشر "مجموعة من القواعد" المخففة، حتى تكون مرشدا لما تقوم به الحكومات لمعالجة هذه المشكلة^(١٩)، ولم تشمل تلك القواعد على أى قيد على امتلاك المدنيين للبنادق، وأحس الأمريكيون بالسعادة، وقال جين دو بريز مندوب جنوب إفريقيا: "يجب على الولايات المتحدة أن تخجل من نفسها"، وأطلق لويس الفونسو دى ألبا مندوب المكسيك، على وضع الولايات المتحدة: "إنه يدعو للأسف". ونفس كاميليو ريز من كولومبيا ورئيس المؤتمر عن إحباطه بقوله: "يجب أن أعبر عن خيبة أملى لعجز المؤتمر لسبب يتعلق بدولة واحدة"^(٢٠)، إن كثيرين من اليساريين يؤمنون أن حق الأمريكى المقدس، فى امتلاك AK - ٤٧ سوف يقود على الأرجح إلى ملايين عديدة من القتلى فى العقد التالى، غير أن الأمريكيين يرون أنهم سوف يكونون على ما يرام.

كانت الألغام الأرضية والأسلحة الصغيرة اتفاقيات للحد، اختارت الولايات المتحدة أن تتجنبها، لكن الرئيس بوش، أبدى فى ١٣ ديسمبر ٢٠٠١ ملاحظة لروسيا مفادها أن الولايات المتحدة يمكن أن تلغى فعليا اتفاقية - الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية، النافذة حينذاك بين البلدين - مدة ستة أشهر منذ الآن، يونيو ٢٠٠٢^(٢١)، وكان هو الاقتراح الذى قدمته الولايات المتحدة لأول مرة، حول الاتفاقية، فى يونيو ١٩٦٧، للحد بطريقة مشتركة من انتشار الدفاعات المضادة للصواريخ، التى انتهت

فى مايو ١٩٧٢، وكان المعتقد أنها توفر الأمن بتأكيد شعور كل من البلدين بأنها ليست عرضة إلى حد كبير، لإغراء هجوم صاروخى، فى محاولة لتوجيه الضربة الأولى، باقتناع أنها يمكن أن تتجو من ثأر تدميرى، وبدت المعاهدة باعتبارها توفر إجراءات وقائية من المأزق النووى تحديدا، ولذا صممت - وقد نوقشت أولا فى الأيام الأولى لإدارة بوش - لتحقيق إمكان إلغائها، الذى تسبب فى عاصفة نارية عالمية، ارتباطا بخطط الإدارة، لتدفع قدماً بالدفاع الصاروخى الوطنى، الذى يتضارب مع شروط الاتفاقية، وقد تحدث إيجوز سيرجيف، وزير الدفاع الروسى، على نحو واقعى أمام كل قادة أوروبا والصين واليابان وكوريا الجنوبية قائلا: "إن هذا سوف يدمر النظام الكلى للمعاهدات الدولية التى تستهدف ضمان الاستقرار الاستراتيجى" (٢٢).

إلا أن ثلاثة تطورات خففت من رد الفعل هذا، فقد أدرك الروس أولا أنهم لأسباب مالية سوف يواجهون صعوبات كبرى لصيانة مخزونهم الكلى من رؤوس الصواريخ النووية؛ لذا كانوا مستعدين للتخفيض المتبادل لرؤوس الصواريخ، كما أنهم عرفوا أن أى نظام للدفاع الصاروخى الوطنى، الذى يحتمل أن تقيمه الولايات المتحدة لن يشكل تهديدا لهم؛ لأنهم سوف يحتفظون دوما، بما هو أكثر مما يكفى من رؤوس الصواريخ لقهرها، كما أنهم أراونا علاقات أوثق مع الغرب لتساعد فى تنميتهم الاقتصادية، ولذا وصلوا إلى اتفاقية مع الولايات المتحدة، بخفض كل من الجانبين، فى ظلها، ثلثى ترسانته النووية إلى ١٧٠٠٠ - ٢٢٠٠ رأس صاروخى (٢٣)، وأخذت الولايات المتحدة على عاتقها تحقيق تعاون أوثق للروس مع الناتو، وتيسير تنمية تلك الأمة اقتصاديا؛ فوافق الروس، فى المقابل، على ابتلاع إلغاء الولايات المتحدة للاتفاقية المضادة للصواريخ.

وكان الحدث الثانى هو الهجمات الإرهابية فى ١١ سبتمبر ٢٠٠١ التى قدمت المبرر للولايات المتحدة لما تقوله حول نشر الدفاع الصاروخى الوطنى؛ تحديدا لأنه ضرورى للدفاع ضد هجمة "الأمم المارقة"، وأخيرا يمكن للصينيين بسبب ترسانتهم

النوية الصغيرة نسبيا، وتصنيف الإدارة الأمريكية لهم باعتبارهم "منافساً استراتيجياً" - أن يروا في أنفسهم، وذلك أمر يمكن تبريره، الهدف الحقيقي، للدفاع الصاروخى الوطنى، لكنهم قرروا مسaire الانتشار، على الأقل، فى الوقت الحالى؛ لأن العلاقات مع الولايات المتحدة، فى أعقاب ١١ سبتمبر، أصبحت تعاونية إلى حد كبير للغاية، وأقل عدوانية بكثير، وقد فضل الصينيون أن يبقوا الوضع على هذا النحو، ومن ثم، فإنه عندما أصبح الإلغاء أخيراً رسمياً، فى ١٢ يونيو ٢٠٠٢، جرى كبح النقد، وكرر الروس والأوريبيون أن الإلغاء تصرف طائش، لكنهم قالوا: إن فى وسعهم الحياة معه، الصينيون فقط قالوا بهدوء: إنه فعل طائش.

كان رد فعل بولتون، وكيل الوزارة، مختلفاً تماماً عندما تحدث فى مؤتمر صحفى فى جنيف فى ٢٤ يناير عام ٢٠٠٢، قال: إن الولايات المتحدة تعارض معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، إن الجهد الذى بذل لحظر التجارب النووية قديم، بالطبع، قدم التجارب النووية ذاتها، والتاريخ الحديث للجهد ولمعاهدة حظر التجارب النووية بدأ بإعلان الرئيس السوفيتى جورباتشوف فى ٥ أكتوبر عام ١٩٩١، إن الاتحاد السوفيتى سوف يتقيد بوقف التجارب النووية لعام واحد، وأنه يدعو الولايات المتحدة إلى أن تكف عن التجارب النووية بالمثل، وبدأت الأمم المتحدة، بعد فترة قصيرة، الإعداد لمفاوضات نهائية لمعاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية، وأعلنت فرنسا فى العام التالى وقف التجارب من جانب واحد، وأقر كونجرس الولايات المتحدة "تعديل هاتفيلد إكسون" مطالبا بوقف التجارب مدة تسعة أشهر، ومفاوضات لحظر التجارب، وحظر كل تجارب الولايات المتحدة بعد سبتمبر عام ١٩٩٦، ما لم تقم أمة ما بتجربة، ووقع الرئيس جورج دبليو بوش على التشريع على مضض، وأخذت إدارة كلينتون الجديدة، عام ١٩٩٣ على عاتقها عهداً أن تتقيد بالتوقيف، وأن تسعى إلى استكمال معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية حتى نهاية عام ١٩٩٦، وتبع الكونجرس هذا بقرار داعم، تمت الموافقة عليه بأغلبية ساحقة، وقد هدد الإعلان الفرنسى، فى منتصف عام ١٩٩٥، بسبب التجارب الجديدة، والتحفظات الهندية حول معاهدة حظر التجارب النووية، هدد

بوقف التوقيف، غير أن الصين أسقطت حينئذ إصرارها على ما سمي بـ "التفجيرات السلمية"، وفي نهاية سبتمبر عام ١٩٩٦، كانت معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية قد اكتملت، وعرضت للتوقيع في الأمم المتحدة بنيويورك، وكانت الولايات المتحدة من أوائل الموقعين، جنبا إلى جنب مع سبعين بلدا آخر، بما فيهم روسيا والصين، وسرعان ما عرضت المعاهدة على مجلس شيوخ الولايات المتحدة للتصديق السهل عليها كما وعد.

غير أن الداعمين لم يضعوا في حساباتهم جيسى هيلمز، رئيس لجنة مجلس الشيوخ للعلاقات الخارجية، الأمريكي المتطرف المعارض، وهو جمهوري من نورث كارولينا، احتجز هيلمز الاتفاقية في اللجنة مدة سنتين، ولم تعرض على بساط البحث للدراسة حتى خريف عام ١٩٩٩. وكان أكثر من ١٥٠ بلدا قد وقعها في تلك الأثناء^(٢٤)، وقد صادق عليها الجنرال هنري شيلتون رئيس رؤساء الأركان المشتركة، وأربعة رؤساء سابقين، منهم الجنرال كولن باول، وكذلك فعل عدد كبير من القادة العسكريين المعتزلين والدبلوماسيين والعلماء، وطالب بول نيتز، مفاوض ضبط الأسلحة في إدارة ريجان، بنزع أحادي السلاح النووي الأمريكي، على أساس أن تفوقنا في الأسلحة التقليدية جعل من الأسلحة النووية خطرا فعليا على قواتنا^(٢٥)، وقد دعم العامة المعاهدة بنسبة بالغة هي ٨٢٪^(٢٦).

ورغم ذلك، كان ولا يزال هناك جدل ضد المعاهدة، قال ترنت لوت، قائد أغلبية مجلس الشيوخ، إن التحقق منها غير ممكن، ومن ثم فهي مفتوحة للغش، كما ذكر أيضا أن هناك بدائل زائفة للتجارب لا يمكن إثباتها، ومن ثم، هناك مخاطرة في الحفاظ على فاعلية أسلحة الولايات المتحدة، وإمكان التعويل عليها، وكان هناك جدل أخير أن الاتفاقية ليست غير خطوة على "المنحدر الزلق" نحو نزع السلاح النووي، وقد طالب هنري كيسينجر وبرينت سكوكروفت المستشارين السابقين للأمن القومي، بتأخير التصويت، على أساس أن المعاهدة لم تكن مؤكدة بما يكفي، وفشلت في ضم بلدان مثل العراق وإيران^(٢٧)، غير أن سياسيين مشايعين كانوا يعملون أيضا، كان القادة

الجمهوريون فى مجلس الشيوخ مقاومين لعرضها للمناقشة والدراسة، ورغم رسالة من اثنين وستين سيناتورا يطالبون بالمزيد من الوقت للنقاش، فإن يوما واحدا فقط خصص للمناقشة^(٢٨)، وعندما وصلت المعاهدة للتصويت أخيرا فى ١٣ أكتوبر عام ١٩٩٩، هزمت بموقف حزبي بعدد ١٥ - ٤٨، وعبرت غالبية البلدان عن خيبة أملها، وقد أمل البعض أن تحاول إدارة بوش الجديدة، مرة أخرى، وأن يكون حظها أفضل مع مجلس الشيوخ الجمهورى، ولكن لم تكن هناك كما أوضح بولتون فى جنيف فرصة البتة.

وكان تركيز الإدارة على نشر الدفاع الصاروخى الوطنى، (الذى كان يشكك العديد من العلماء فى قابليته للحياة والتطبيق) نابعا من كل من استراتيجيتها للضربة الاستباقية وهيمنتها المسيطرة، ورغبتها فى تجنب التعرض للهجوم الذى يلزم مفهوم "التدمير المؤكد المتبادل" (م أ د)، إن الدفاع الصاروخى الوطنى محاولة لانطلاق الولايات المتحدة لتتدخل عسكريا فى أى مكان فى العالم على وجه التقريب، يضاعف هذا الرغبة فى إعداد قوات أكثر مرونة، وخاصة إعادة صياغة الأسلحة النووية لاستخدامها ضد الغرف المحصنة الصلدة تحت الأرض، وفى الانتقام للهجمات البيولوجية والكيميائية.

إن ذكر الأسلحة الكيميائية والبيولوجية يجيء بنا إلى الاتفاقية النهائية التى رفضتها الولايات المتحدة، إن محاولات التحكم فى تلك الأسلحة يعود تاريخها إلى "بروتوكول جنيف" عام ١٩٢٥، الذى تم تبنيه كرد فعل لاستخدام الغازات السامة فى الحرب العالمية الأولى على نطاق كبير، وفى عام ١٩٦٢ قدمت كل من الولايات المتحدة والاتحاد السوفيتى اقتراحات إلى الأمم المتحدة للتخلص من كل الأسلحة الكيميائية والبيولوجية، وقد جرت المحادثات الدولية ببطء حتى خريف عام ١٩٦٩، وأعلن الرئيس نيكسون أن سياسة الولايات المتحدة تقوم على التخلي عن الحرب البيولوجية من طرف واحد، وسياسة أن لا ضربة أولى باستخدام الأسلحة الكيميائية^(٢٩)، وقررت الولايات المتحدة، فى منتصف الثمانينيات - أن امتلاك الأسلحة الكيميائية ليس من اهتماماتها

الوطنية، وفي نوفمبر عام ١٩٨٥ أمر الكونجرس رسمياً بتدمير المخزون الاحتياطي من الأسلحة الكيميائية التكاملية^(٢٠)، وفي أعقاب حرب الخليج، فى مايو عام ١٩٩١، أعلن الرئيس بوش أن الولايات المتحدة سوف ترفض بشدة استخدام الأسلحة الكيميائية لأى سبب، بما فى ذلك الثأر والانتقام، ما أن تنتهى مباحثات الأمم الجارية إلى اتفاق حول الأسلحة الكيميائية^(٢١) (سى دبليو سى)، وقد انتهت تلك المفاوضات بالفعل فى يناير عام ١٩٩٣ باتفاقية صريحة وصارمة، دعت إلى تحطيم المخزون الاحتياطي من الأسلحة الكيميائية، وحظر أى مزيد من تلك الصناعة، وتكوين هيئة للتفتيش الرسمى والتحقق^(٢٢)، ووقعت الولايات المتحدة فى الحال، غير أن الشكوك من أن تقوم دول أخرى بالغش، وقلق الكونجرس من التخلي عن الحق فى اختيار الأسلحة آخر تصديق الولايات المتحدة حتى إبريل عام ١٩٩٧، وقد لعبت الصناعة الكيميائية فى الولايات المتحدة دوراً أساسياً فى الضغط لتصديق الولايات المتحدة، لخوفها من فقدان الأعمال إذا ما نفذت الاتفاقية بون عضوية الولايات المتحدة.

ما أن صدقت الولايات المتحدة على الاتفاقية حتى تحركت لتدميرها من الداخل بالموافقة على تشريع يسمح للمسئولين من الولايات المتحدة برفض التفتيش على المواقع، وحظر نقل عينات كيميائية من أراضي الولايات المتحدة للتحليل المستقل، والحد بشدة من عدد المرافق المعرضة للإعلان والتفتيش الروتينى فى الولايات المتحدة، كما رفضت الولايات المتحدة دفع نصيبها من تكاليف الاتفاقية، وأهملت توفير التمويل الملئمة لمساعدة روسيا على تدمير مخزونها الاحتياطي الكبير.

وقد عامل نيكسون الأسلحة البيولوجية، فى بيانه عام ١٩٦٩، بطريقة منفصلة عن الأسلحة الكيميائية، وقادت مناقشات الأمم المتحدة عام ١٩٧٢ إلى الانتهاء من "اتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة" (بى دبليو سى)، التى ألزمت كل طرف، "ألا يطور أو ينتج أو يخزن احتياطياً البتة فى أى ظرف من الظروف، أو يحصل على، أو يحتفظ، بطريقة أخرى بمنتجات بيولوجية أو سامة لأغراض عسكرية، وقد وضعت هذه المعاهدة موضع التطبيق عند تصديق الولايات المتحدة عليها عام ١٩٧٥، وظلت الاتفاقية

الحاكمة منذ ذلك الحين، لكن لم يكن بها، للأسف، شروط تضعها موضع التنفيذ أو التحقق منها، وقد أعلن الرئيس الروسى، بوريس ياتسين، عن برامج سوفيتية غير شرعية لمرض مهلك هو الجمرة، كذلك أدى القلق من القدرات العراقية فى حرب الجرائيم، إلى تشكيل لجنة فى الأمم المتحدة لإعداد بروتوكول جديد يضع للاتفاقية أسنانا فى شكل نظام للتأكد، ويكون مقيدا بصورة قانونية، وقد أملت اللجنة فى الحصول على وثيقة معدة للتوقيع عام ٢٠٠١، وقدمت الولايات المتحدة دعما هاما، وقالت عن الخطة: "إنها خطوة كبرى للأمام"، وفى ديسمبر عام ٢٠٠٠ بدأ يتردد صدى نغمة جديدة من واشنطن، عندما اقترح محللون خاصون، وبعض المسئولين فى دفاع الولايات المتحدة فى مجلة نيوساينتست "أن الاتفاقيات التى تحظر الأسلحة الكيميائية والبيولوجية يجب أن تعاد كتابتها ليسمح فيها باستخدام الأنواع "غير المميتة" التى فى وسعها أن تجعل جيوشا بكاملها نائمة، أو أن تصيب العربات والأسلحة بالعجز بأكل ما بها من بلاستيك أو جعل إطاراتها هشة"^(٣٢)، ومع ذلك فحين قدمت الوثيقة، فى صورتها النهائية للتوقيع فى مارس عام ٢٠٠١، ظلت المشكلة الكبرى بالنسبة للولايات المتحدة هى مشكلة التفتيش والتحقق غير الملائمين، وقد ضغط حلفاؤها بقوة من أجل أن تقبل بالنظام المقترح، والخاص بالتقارير المنتظمة والتفتيش، بما فى ذلك أعمال التفتيش التى تتسم بالتحدى، لكنها وقد تظاهرت بتطبيق النظام المقترح على مواقعها العسكرية الكيميائية والبيولوجية، كانت الولايات المتحدة قد انتهت ليس فقط إلى أنها لم تنجح، بل وإنها يمكن أن تقود إلى المزيد من الشك، وفى ٢٥ يوليو عام ٢٠٠١، أخبر دونالد ماهلى سفير الولايات المتحدة، لجنة الأمم المتحدة - أن الولايات المتحدة كانت قد أوقفت المفاوضات؛ لأن "مسودة البروتوكول، فى تقديرنا، سوف تضع الأمن القومى ومعلومات الأعمال الخاصة والسرية فى خطر"^(٣٤)، وتحدث سيشيرو نوبورو، السفير اليابانى، باسم المجتمع الدولى عندما قال: "لقد اندهشت فى الواقع من حجة الولايات المتحدة فى هذه المرحلة"^(٣٥).

وفى اجتماع لاحق، فى نوفمبر لمراجعة اتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة، قدم بولتون وكيل الوزارة اقتراحات عدة لدعم اتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة، التى

زعم أنها لم تدرس البتة، وكانت كلها فى الحقيقة، ما عدا واحدا، متضمنة فى البروتوكول الذى كانت الولايات المتحدة قد رفضته للتو، لكن لا شىء من ذلك أعاق بولتون، الذى اقترح ببساطة، فى آخر يوم للمؤتمر تسريح اللجنة، وأصرت الولايات المتحدة، بعد أشهر قليلة، على عزل رئيس وحدة تفتيش اتفاقية الأسلحة الكيميائية، على أساس سوء الإدارة المالية، هذا ما قلناه^(٣٦). إلا أن أحدا لم يصدق ذلك، وكما أشار لورد ريا من بريطانيا أن كثيرا من المصاعب المالية يعود إلى رفض الولايات المتحدة دفع ما عليها من التزامات^(٣٧)، كان السبب الحقيقى - كما يعتقد الكثيرون - أن مدير أعمال التفتيش كان يخطط للقيام بأعمال تفتيش غير معلنة فى الولايات المتحدة.

أبواق السيادة تعلن حقوق الإنسان

رفضت الولايات المتحدة على نفس النهج بروتوكولا لتقوية الاتفاقية ضد التخريب عام ١٩٨٧، (ويؤمن العديديون أن ذلك بسبب الممانعة فى السماح لأعمال التفتيش على حال سجناء طالبان فى خليج جوانتانامو)، وبالاتفاقية المعنية بالتخلص من كل أشكال التمييز ضد النساء، والاتفاقية المعنية بحقوق الطفل (بسبب المخاوف المحافظة من إمكان تدخلها فى قيم العائلة).

غير أن العنصر الرئيسى فى مقاومة تلك الاتفاقيات والمعاهدات الدولية هو النضال حول "المحكمة الجنائية الدولية" (آى سى سى)، هنا نتحد معا، كل الصعوبات المفاهيمية والدستورية المختلفة التى واجهتها الولايات المتحدة فى تعاملاتها مع المجتمع الدولى، فى صورة درامية واحدة، صورة موحية.

كان للمحكمة الجنائية الدولية أصولها فى اتفاقية الإبادة الجماعية عام ١٩٤٨، التى تعززت بما كشف عنه الهولوكوست بعد الحرب العالمية الثانية، وقد دعا قرار الأمم المتحدة المطالب بتبنى الاتفاقية، "لجنة القانون الدولى بالأمم المتحدة"، أيضا للنظر فى الرغبة لتأسيس محكمة دولية لمحاكمة الأشخاص المتهمين بالإبادة الجماعية.

وحتى تجعل القصة الطويلة قصيرة، فإن الفظائع التي حدثت في يوغوسلافيا ورواندا، في أوائل التسعينيات، أدت إلى حدوث تطورين، تأسيس "محاكم جنائية دولية"، بناء على طلب الأمم المتحدة، خاصة بيوغوسلافيا ورواندا، لمقاضاة من ارتكبوا جرائم الإبادة الجماعية في هذين البلدين، وأعدت لجنة القانون الدولي، في نفس الوقت مسودة تشريع لإنشاء "المحكمة الجنائية الدولية"، التي طال النقاش حولها، وقدمت الأمم المتحدة هذا التشريع لتبنيه أمام مؤتمر خاص في روما، في يونيو ويوليو عام ١٩٩٨.

إنه لأمر مهم أن يتم فهم الموضوعات الأساسية التي على المحك في هذا المؤتمر الذي اشتمل على بذور التطور، أولاً: كان هناك السؤال حول استقلالية المحكمة، وهل يتطلب سلطانها القضائي موافقة مجلس أمن الأمم المتحدة، على القضايا التي تنظر فيه قضية بعد قضية، ومن ثم يكون عرضه لسلطة الفيتو التي يتمتع بها أعضاؤه الدائمون (الولايات المتحدة، روسيا، الصين، المملكة المتحدة، وفرنسا)، أم هل ستكون لها درجة من السلطة المستقلة؟ وكان السؤال الثاني خاصاً باستقلال المدعى، وهل سيقدم هو أو هي الدعاوى بناء على إرادته، ثم كان هناك ما سمي بموضوع نظام الموافقة أو القبول، وهل ستكون هناك سلطة قضائية عالمية بحيث تكون للمحكمة سلطة مقاضاة أى جريمة، وثيقة الصلة بالموضوع، ارتكبت في أى مكان من العالم؟ أم هل تقتضى السلطة القضائية موافقة البلد الذي ارتكبت فيه الجريمة، أو بلد الجنسية التي ينتمى إليها المتهم، الموافقة على القضايا قضية بعد قضية؟ هل ستكون للمحكمة سلطة قضائية على الجرائم التي ارتكبت خلال الحروب الأهلية؟ وكان السؤال الرابع حول، المقابل الوطني للسلطة القضائية للمحكمة الجنائية الدولية، وهل يمكن للمحكمة الجنائية الدولية أن تقاضى أحداً إن كانت المحاكم الوطنية قد بدأت اتخاذ إجراءاتها الجنائية؟ وأخيراً كان هناك سؤال عن الماضي، هل ستكون المحكمة قادرة على مقاضاة هنرى كيسينجر، مثلاً، عن المسؤولية المدعاة عن انقلاب شيلي عام ١٩٧١؟ كان كل سؤال من تلك الأسئلة منشحوناً بالدلالات الخاصة بالسيادة، تقوم به الأنظمة المعادية لأمريكا.

وقد دفعت مجموعة تدعى، "مجموعة العقول المتماثلة"، والمكونة من ستين بلدا برئاسة كندا، وتشتمل على غالبية حلفاء الولايات المتحدة فى العالم، بجهد لتأسيس المحكمة، وبينما أصرت الولايات المتحدة على المعارضة المطلقة لمحكمة يمكن أن تتهم مواطنى الولايات المتحدة دون الموافقة السابقة للولايات المتحدة، فإنها دعمت المحكمة الجنائية الدولية من ناحية المبدأ، إنها تمقت بصورة خاصة، مفهوم السلطة القضائية العالمية، الذى قدمته ألمانيا، وهددت بنشاط مضاد إن اشتمل التشريع على ما يخالف ذلك، كان قلق الولايات المتحدة قويا للغاية، حتى إن كوهين وزير الدفاع أبلغ بأن يربط بين نشر قوات الولايات المتحدة فى ألمانيا بهذا الموضوع^(٢٨)، كانت الولايات المتحدة، فيما يتعلق بالجدل الذى دار حول الأسئلة الخمسة الكبرى، ضد مجموعة العقول المتماثلة تقريبا، وقد وقف باقى العالم يراقب، ورغم ذلك، سجل الأمريكيون العديد من النقاط مخفضين من فاعلية الكثير مما جاء فى مسودة التشريع، أرادت الولايات المتحدة بخصوص مسألة الاستقلال موافقة مجلس الأمن على القضايا، قضية بعد قضية، وقد ساند الأعضاء الدائمون الآخرون موقف الولايات المتحدة فى الأساس، ولكن عندما تخلت المملكة المتحدة عن هذا الموقف، باعتباره موقفا لا يمكن الدفاع عنه قانونيا أو أخلاقيا، انهار السد وتركت الولايات المتحدة، فى النهاية، معزولة، وكان القرار أنه لضمان مصداقية استقلالية المحكمة، يجب أن تكون المحكمة الجنائية الدولية قادرة على المقاضاة دون موافقة سابقة من مجلس الأمن، ومنعا لإثارة دعاوى عابثة وراءها حوافز سياسية، تمت الموافقة على أية حال أنه على المدعى - للقيام بتحقيق ما - الحصول على موافقة هيئة من قضاة المحكمة الجنائية الدولية، كما تمت الموافقة أيضا على أنه فى إمكان مجلس الأمن تبني قرار بوقف أى تحقيق تجريه المحكمة الجنائية الدولية، وحققت الولايات المتحدة مكسبا جزئيا فى مسألة السلطة التشريعية، شطبت السلطة القضائية العالمية، وجاء فى الصياغة النهائية للتشريع أنه يمكن للمحكمة التى تحمل المتهمين جنسيتها، أو أن تكون طرفا فى اتفاقية المحكمة الجنائية الدولية، بأن تكون لهما سلطة تشريعية، وتلك هزيمة صغيرة لموقف الولايات المتحدة، وحققت الولايات المتحدة فيما يتعلق بالمقابل الوطنى إزاء السلطة التشريعية للمحكمة الجنائية

الدولية، كسبا كبيرا، باعتبار أنه يمكن فقط للمحكمة الجنائية الدولية أن تقاضى، إذا فشلت المحاكم الوطنية فى العمل، كما تمت الموافقة أيضا على أن تكون هناك مرحلة قدرها سبع سنوات، غير قابلة للتجديد، يمكن فيها للدول أن تختار السلطة التشريعية للمحكمة الجنائية الدولية، فيما يتعلق بجرائم الحرب^(٢٩)، وقد سعت الولايات المتحدة، فى الدقيقة الأخيرة، من أجل استثناء خاص لمواطنى الدول غير الأعضاء الذين يقومون بمهام رسمية، وكان هذا يعنى السماح لحكومة ما بأن تعوق مقاضاة مواطنيها ساعة تشاء؛ مما سيؤدى إلى تدمير مصداقية المحكمة وهزمت غير أن الولايات المتحدة نجحت فى أن تجعل من الأمن القومى أساسا لرفضها التعاون مع المحكمة، وفى أن تجعل من الأوامر العليا أساساً للدفاع، وبذا تحققت أيضا فرصتان للدول لتحدى السلطة التشريعية للمحكمة أو الاحتكام إليها.

ولم يكن أى من هذا كافيا، على أية حال، للولايات المتحدة، وصوتت ضد إقامة المحكمة، جنبا إلى جنب مع الصين والعراق وليبيا واليمن وقطر وإسرائيل، وكان التصويت النهائى ١٢٠ صوتا فى صالح القرار ٧ ضده وامتنع ٢١، وسوف تصبح المحكمة فاعلة عندما تصدق الستون بلدا، على الاتفاق.

إن تحدى المجتمع الدولى لرغبات الولايات المتحدة قد أدى إلى جهاد حقيقى للولايات المتحدة ضد إنشاء المحكمة، وقد وقع الرئيس كلينتون الاتفاقية تحديدا فى اليوم الأخير من إدارته، ولكن فقط لإعطاء الرئيس القادم بوش فرصة اختيار العمل مع الأمم المتحدة لتشكيل جهاز المحكمة، وقد أعطت إدارة بوش - على أية حال - إشارة مبكرة بأنها قد تذهب بعيدا فى مسألة عدم توقيع الاتفاقية^(٤٠)، وفى خريف عام ٢٠٠١، تبنى مجلس الشيوخ قرار حماية أفراد القوات المسلحة الأمريكية، الذى قدمه هيلمز، والذى يحظر على الولايات المتحدة التعاون بأية صورة مع المحكمة الجنائية الدولية، ومنع أى مساعدة عسكرية من الولايات المتحدة لأى بلد يدعم المحكمة الجنائية الدولية، ووجه القرار الولايات المتحدة لاستخدام أية وسيلة، بما فيها القوة، لإطلاق سراح أى مواطن أمريكى تحتجزه المحكمة، وكانت تلك الفقرة هى التى أعطت للقرار

اسمه المجرد "قرار غزو لاهاي"، إنه لم يصبح قانونا، غير أن الإجراءات المقيدة للتعاون مع المحكمة الجنائية الدولية وضعت موضع التنفيذ.

وعندما أصبح واضحا، فى شتاء وربيع عام ٢٠٠٢، أن الستين بلدا اللازمة للتصديق سوف تتوافر قريبا، مارست حكومة الولايات المتحدة حملة ضغط عالية متزايدة لتعوق التصديق، لكن دون جدوى، وفى ١١ إبريل أضيف التوقيع الستون، وبذا غدت المحكمة فى حيز التنفيذ، وعند تلك النقطة اتجهت الولايات المتحدة إلى مضاعفة سرعتها، وأرسل بولتون وكيل الوزارة خطابا غير مسبوق إلى السكرتير العام للأمم المتحدة كوفى عنان يخبره فيه أن الولايات المتحدة ترفع بحق. توقيعها من اتفاقية المحكمة، وشرح أن للولايات المتحدة "نورا متفردا فى مساعدة الحرية والدفاع عنها، وتقدم قضية البشرية"، ومن ثم فإن الأمريكيين يصبحون أهدافا لدعاوى مسبقة؛ لذا فإن الولايات المتحدة ترفض أن تكون طرفا فى الاتفاقية^(٤١).

غير أنه كانت هناك مشكلة لا تزال قائمة؛ إذ بينما قد لا يكون للمحكمة سلطة قضائية فى الولايات المتحدة، فإن المواطنين الأمريكيين قد يعملون فى بلدان، هى أطراف فى المحكمة الجنائية الدولية، وأن المحكمة ما يزال فى وسعها ممارسة سلطتها التشريعية على أمريكيين دون موافقة حكومتهم، وجادل المسئولون فى الولايات المتحدة، بأن ليس من العدل تعريض أمريكيين، فى أى مكان للسلطة التشريعية لاتفاقية لم تكن حكومتهم طرفا فيها، وقد أشار المعارضون إلى أن الأمريكى الذى يرتكب جريمة عادية فى الخارج - يحق للحكومة الأجنبية مقاضاته دون موافقة الولايات المتحدة، وفى حالة حدث فظيع، فإنه يكون لذات الحكومة، فى إطار حقوقها، تفويض المحكمة الجنائية الدولية فى توجيه الاتهام، يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة يمكن أن تكسب نفوذا كبيرا على مجرى أى من تلك الادعاءات القضائية إذا صدقت، ببساطة، على اتفاقية المحكمة الجنائية الدولية، وقد لوحظ أيضا أنه بينما تلعب الولايات المتحدة نورا أساسيا فى نقاط كونية ساحقة، فهى ليست بمفردا كلية؛ إذ إن لفرنسا وبريطانيا وآخرين قوات وأفراد فى نقاط بها متاعب مختلفة، ويبدو أنهم

لا يعانون مشكلة مع المحكمة. وأخيرا فإنه، حتى فى حالة توجيه اتهام لأمريكى فى بلد آخر، خاضع لقواعد المحكمة، فإنه يكون للولايات المتحدة حق الادعاء أولا، ويكون للمحكمة الجنائية الدولية القدرة على التدخل إن هى فقط رفضت التحقيق، ويكون نقيض هذا إن كان لدى الولايات المتحدة أسباب جيدة ألا تجرى التحقيق لاعتقادها أن الاتهام يقوم على الاحتيال.

غير أن هذا النزاع لم يكن يدور حول النقاط محل النقاش، لكنه كان يدور حول السلطة، وشن مسئولون فى الولايات المتحدة حملة للضغط على العديد من البلدان التى صدقت على الاتفاقية كى توقع معها اتفاقيات ثنائية تستثنى مواطنى الولايات المتحدة من السلطة التشريعية للمحكمة الجنائية الدولية، فى المناطق الخاضعة لنفوذها، ووضع ذلك حكومة الولايات المتحدة، فى أوروبا، فى طريق التصادم مع الاتحاد الأوروبى، الذى أخبر البلدان مثل رومانيا وبولندا أن قبولهم بضغط الولايات المتحدة يمكن أن يعرض ترشيحهم لعضوية الاتحاد الأوروبى للخطر.

وفددت الولايات المتحدة باستخدام الفيتو عند تجديد كل بعثات الأمم المتحدة الحالية، للحفاظ على السلام، وأنها سوف تبدأ بالبوسنة، إن لم يمنح مجلس الأمن كل المحافظين على السلام، من قبل الأمم المتحدة - حصانة دائمة من المحكمة، وفى النهاية، منح مجلس الأمن - على كره منه - حصانة عام واحد للمواطنين الأمريكين، وكان هذا حفاظا على ماء الوجه. إنه حل اللقاء فى منتصف الطريق غير أن مجلس الأمن عبر أيضا عن نيته تجديد الاستثناء سنويا، وهكذا بدا أن الولايات المتحدة قد كسبت، غير أن أدولفو أجويلارزينسر السفير المكسيكى تحدث باسم العديدين عندما قال، "الفكرة العامة عند المجتمع الدولى، أن هذا عمل خاطئ"^(٤٢)، وقال لى سفير آخر، من أقدم وأوثق حلفاء أمريكا، بصورة شخصية، الكلمات التى جاءت فى صدر هذا الفصل: "إن أمريكا تبشر دوما بحكم القانون، لكنها، فى النهاية تضع نفسها دوما فوق القانون".

إن جون بولتون وجيسى هيلمز اللذين ظهرا مرات عديدة فى هذا السرد، يمثلان خصوصية دستورية خطيرة، إن كليهما ممن يعرفون بـ "الجمهوريين المحافظين"، اللذين يعنيان عامة أنهما مكرسان لـ "الحرية"، ويشكان فى الحكومة، إنهما يريان الولايات المتحدة باعتبار أن حكومتها هى الشكل الأكثر ديمقراطية، إنهما رائدان صلبان للعقيدة الأمريكية، ويريان أن القوة الأمريكية، ونمط الحياة الأمريكية هما النموذج النهائى الذى سيتجه العالم إليه عبر الزمن، ورغم أن هيلمز كان فى "لجنة العلاقات الخارجية"، وخدم كرئيس لها سنوات عدة حتى اعتزاله عام ٢٠٠٠، ورغم أنه كان لبولتون أوضاع عالية المستوى فى الإدارة الخارجية، فإنهما كان يشكان فى الحكومات الأجنبية، ويؤمنان بأنها أقل ديمقراطية وأكثر توجهها للحرب من حكومة الولايات المتحدة، وهما يميلان أيضا لرؤية البلدان الأخرى باعتبارها بلدانا تحسد الحرية الأمريكية، وأنها لا تستفيد من الأمم المتحدة، ولا من أية مؤسسة تقوم على التعددية، إنهما يرونها فاسدة، غير ديمقراطية، مكرسة لتقييد أو تعويق قوة الولايات المتحدة الخيرية، إنهما يضعان ثقتهم الكاملة فى القوة الأمريكية، ويضعان الأولوية الأولى للحفاظ على السيادة المطلقة وحرية العمل.

إن نفوذ مثل تلك الآراء يتعزز كثيرا بفصل القوى فى حكومة الولايات المتحدة، إن الاتفاقيات يجب أن يصدق عليها مجلس الشيوخ قبل أن تصبح قانونا، ويتوجب على رئيس لجنة العلاقات الخارجية أن يضعها فى الجدول، ويدير حولها عمليات استماع ونقاش، قبل أن يجرى التصويت عليها فى مجلس الشيوخ. ويمكن لرئيس أن يعوق اتفاقية لسنوات دون اتخاذ إجراء ما، أو فى وسعه أن يصر على فعل آخر كتمن لتقديم الاتفاقية للتصويت، وغالبا ما يكون الرئيس وغالبية الشعب الأمريكى داعمين لاتفاقية ما أو لجزء من تشريع، لكنهم لا يستطيعون عرضها للتصويت بسبب معارضة رئيس اللجنة القوى، إن هذا الدمج بين وجهات النظر الأيديولوجية والسلطة الدستورية، هو واحد من الأسباب التى تضع أمريكا كثيرا فى خصام مع العالم.

الاقتصاد المسلح

إن الوجه الثالث الهام للعسكرية الأمريكية هو الاقتصاد، لقد سعت الولايات المتحدة كي تبقى البلدان الأساسية دولا شبه موالية لها، وهي قد سعت بالمثل تماما للهيمنة على الأسلحة الأساسية والتكنولوجيا العسكرية، كان الإنفاق الدفاعي للولايات المتحدة عام ١٩٤٨، ٩,١ مليار دولار، وتلك حوالى ٣,٦٪ من إجمالي ناتجها المحلى، بعد أن هبطت إلى ما يزيد عن نصف إجمالي الناتج المحلى عام ١٩٤٥^(٤٣)، وأدى انفجار الحرب الكورية إلى مضاعفة سريعة للميزانية العسكرية، وغدا الإنفاق الدفاعي، خلال الحرب الباردة، حوالى ٦-٧٪ من إجمالي الناتج المحلى، كنوع من الحساب التقريبي، وإن نحن وضعنا اقتصاد الولايات المتحدة فى الاعتبار، فإننا سوف نرى أن ذلك قد أدى إلى قدر هائل من الإنفاق على الأسلحة - زيادة على الحرب الباردة كلها، بما يعادل ١٥,٨ تريليون دولار بسعر دولارات اليوم^(٤٤)، لم يكن هذا هو العبء الذى لا يحتمل بالنسبة لاقتصاد الولايات المتحدة، والذى ثبت فى النهاية أنه عبء على الاتحاد السوفيتي، ومع ذلك فإن وجود انفجارات نعر منتظمة خشية السقوط إلى وراء، والانتعاش الوقتي بنظام أسلحة الطلقات الفضية الذى يمكن أن يجعل الولايات المتحدة حصينة، قد أطلق العنان، خلال هذه الدورات، لفيضان جديد من الإنفاق.

جاء الذعر الأول عام ١٩٤٥ عندما بدا أن صور الاستعراض العسكرى السوفيتي، فى أول مايو، تظهر أسطولا كاملا من قاذفات القنابل السوفيتية، غير المستمدة، من تصميمات أمريكية أو بريطانية، وقادرة على الوصول إلى الولايات المتحدة القارية، ثم ظهر فيما بعد أنه لم يكن لديهم - فى الحقيقة - غير عدد قليل فقط، من تلك الطائرات، لكنهم طيروها فى دوائر متواصلة، خلال الاستعراض العسكرى الأول من مايو، حتى يجعلوا مخزونها يبدو بلا نهاية، كان هنالك قلق كبير، فى ذلك الوقت، بسبب "فجوة القاذفات"، وضغط كبير لإعداد المزيد من ب - ٥٢ "للحاق" بالسوفيت، وتواصل هذا الضغط حتى أظهرت طائرة التجسس الأولى يو - ٢ من خلال تحليلها فوق الاتحاد السوفيتي عام ١٩٥٦ أن تلك الفجوة كانت فى صالح

الولايات المتحدة، غير أن هذه الحقيقة لم توقف جون ف. كنيدي، المرشح للرئاسة، من تأكيد الحاجة، خلال عام ١٩٦٠، إلى سد "فجوة الصواريخ" التي تزداد اتساعاً، وذلك بإنشاء قوة ثأرية حصينة هي "صواريخ باليستية عابرة للقارات" (آى سى بى إم) بتكلفة ٢٠٠ مليار دولار^(٤٥)، وبعد انتخاب كنيدي اكتشف أنه لم تكن هناك حقاً فجوة صاروخية، غير أن تلك الحقيقة أيضاً لم توقف تخصيص البلايين من الدولارات لمزيد من توسع قوات الولايات المتحدة الصاروخية، من المستحيل القول إن كنا نحن أم السوفيت، السبب الدافع لسباق الصواريخ والرؤوس النووية من الستينيات إلى السبعينيات.

وبدا أن قليلاً من الاستقرار قد تحقق فى السبعينيات مع الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية والتعهدات المختلفة بالحد من التجارب النووية، غير أن انتخاب ريجان كرئيس عام ١٩٨٠ أطلق مرة أخرى عنان البحث الأمريكى لجعل البلاد حصينة، وقال ريجان إن عقيدة الـ "ماد" (التدمير المؤكد المتبادل)، التى كانت حينئذ المرشد لاستراتيجية الولايات المتحدة للردع النووى، كانت هى نفسها مجنونة، إن مفهوم القبول الطوعى بأنك عرضة للهجوم/ مفهوم غير أمريكى، ورصد ريجان ٥٠ مليار دولار لمبادرة الدفاع الاستراتيجى (إس دى آى)، والتى عرفت بصورة أفضل بـ "حرب الكواكب"، لتطوير نظام قادر على إسقاط أى صواريخ موجهة إلى الولايات المتحدة قبل وصولها، غير أن عدداً قليلاً من العلماء هم الذين قالوا بأن هذا النظام يمكن أن يعمل دوماً بفاعلية، لكن الشكوك أو التكلفة لم تكن شيئاً يذكر إن كان الهدف هو التحصين، وأبطأت الحرب الباردة هذا البرنامج، لكنها لم تقض عليه، ولم يتحول البرنامج إلى نظام الدفاع الصاروخى الوطنى الجارى، الذى ألغت، من أجله، الولايات المتحدة، الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية عام ٢٠٠١، وقد جرى تعزيزه، كما سبق وأشرنا، باعتباره مضاداً لضربات صواريخ قادمة من "أمم مارقة"، لكنه بدا مثيراً للشك، وكأنه استهدف الصين، وهناك مرة أخرى، شكوك كبرى حول فاعليته، وكما قال لى جاكس جانسلر، وكيل وزارة الدفاع السابق للتمك والتكنولوجيا، فى أغسطس

عام ٢٠٠٢، أن النظام لم ينجح في ظل أشد الأوضاع الحكومية بساطة، كما أنه حساس للغاية للخدع والشراك ولتدابير أخرى مراوغة.

بالطبع، إذا كان في استطاعته حقا توفير الحماية ضد تدمير مراكز السكان الكبرى في الولايات المتحدة، فهو جدير باستثمار حقيقي، غير أن هناك العديد مما يثير السخرية في الوضع. أولاً: أن النظام المقترح، رغم سنوات البحث وإنفاق مليارات الدولارات لن تكون له جدوى ضد أنواع من الصواريخ مثل تلك التي ضربت برجى التجارة العالمية في ١١ سبتمبر، كما أنه عديم الجدوى أيضاً، ضد صواريخ ستينجر المحمولة باليد، التي عاوت على تحقيق النصر للمجاهدين في أفغانستان، وهى تقريبا التي أسقطت طائرة إسرائيلية فوق نيروبي في ٢٨ نوفمبر عام ٢٠٠٨ ويقدر أن هناك ٧٠.٠٠٠ من تلك الصواريخ متاحة في أنحاء العالم، وأن الولايات المتحدة هي التي قامت بإمداد بلدان عديدة، ومجموعات ذات صلات إرهابية بالعديد منها^(٤٦). تلك هي حقا أسلحة المارقين: رخيصة، سهلة الحمل والإخفاء، قادرة على الوقف التام لرحلات الطيران، ومع ذلك لم يبذل أى جهد فعلى، لا شيء دون شك يقارن بمبادرة الدفاع الاستراتيجى، أو الدفاع الصاروخى الوطنى، للتحكم فى تلك الأسلحة أو الدفاع ضدها.

وهناك رؤية أخرى ترى أن محاولات الدول المسماة بـ "محور الشر"، مثل كوريا الشمالية وإيران للحصول على أسلحة نووية وصواريخ، ربما تكون على الأكثر، للدفاع ضدنا لا تهديدنا، إن اتجاهاً لاستبدال الأنظمة، وتأكيدنا على القوة العسكرية الساحقة، كان بمثابة رسالة واضحة عن الخطر إلى العديد من الحكومات، وأن تجربتنا الحديثة عن كوريا الشمالية لا يمكن أن تذهب دون أن نلاحظها، كان لديها أسلحة نووية وصواريخ قليلة، وتمسك بسيول رهينة، وأجبرنا نحن على التراجع عن تهديداتنا هنا، بينما واصلنا تهديد العراق بالهجوم عليها فى أية لحظة، لا يمكن للرسالة أن تكون أكثر وضوحاً من ذلك، احصل على الأسلحة النووية، وسوف يصبح الأمريكيون أكثر

عقلانية، إن الدفاع الصاروخي الوطني إن يغير هذا التكتيك؛ لأنه ليس من الضروري توجيه الأسلحة النووية إلى الأرض الأمريكية.

إن الإصرار على هذا، وعلى أنظمة أخرى، يشكل وجها محبطا للنظام السياسى الأمريكى، أنت لا تستطيع قتل نظام أسلحة أو قاعدة، ما أن يطرح مشروع ما، حتى يلتقطه أبطال بيروقراطيون، وكونجرسيون يوجهون الأموال إلى مناطق كونجرسية أساسية، إن صناعة الأسلحة تعتمد نشر أعمالها باتساع، على امتداد البلاد لتحقيق دعم لأكبر عدد ممكن من أعضاء الكونجرس، وخاصة هؤلاء الذين يرأسون لجان أساسية، مثال ذلك نجح نيوت جنجرش، وهو جمهورى من جورجيا، والمتحدث باسم مجلس النواب فى الحصول على ٢,٥ مليار دولار، إضافة إلى ميزانية الدفاع لمشتريات الطائرات، رغم أن سلاح الطيران قال بأنه لا يريد هذه الطائرات؛ لأن الطائرات كانت تنتج فى ولايته^(٤٧)، إن مناطق مختلفة اقتصاديا وسياسيا تحتاج إلى دوام انتشار أنظمة الأسلحة؛ مما يفرض بالتبعية ضغطا لنشرها واستخدامها، ولذا فإنه رغم ما توصف به غالبا الـ إف - ١٥ بأنها الطائرة الأكثر تقدما فى العالم، ولدى الولايات المتحدة منها أكثر من ألف طائرة، غير أن مؤسسة دفاع الولايات المتحدة تخطط لاستبدالها بـ إف - ٢٢ الأكثر تقدما، ومثال آخر على هذه العملية هو اقتراح بنشر أسلحة فضاء يكون فى وسعها دفع أى هجوم على معدات عسكرية أمريكية، موقعها فى الفضاء، وتدمير الأقمار الصناعية والمعدات العسكرية الفضائية للبلدان الأخرى، ليس هناك من تهديد معروف ضد أمريكا فى الفضاء، إلا أن هناك إغراء بعسكرته؛ لأن ذلك فى وسعنا، ولأن المشروع بالنسبة لشخص ما يعنى منح أبحاث ووظائف وأصوات انتخابية.

إن صناعة السلاح أيضا مُصدر ومُورد كبير للوظائف، إن قانونا جديدا لاقتصاديات الأعمال، يسعى إلى استهلاك رأس مال واستثمارات البحث والتنمية من أجل تحقيق إنتاج كبير قدر الإمكان، ومن ثم تخفيض تكلفة تلك الاستثمارات بالنسبة للوحدة، إن الولايات المتحدة تقوم بإنفاق حوالى ٧٠٪ من الأبحاث العسكرية والتنمية

العسكرية على امتداد العالم، ولذا فإنه ليس مثيرا للدهشة أن تكون صادرات السلاح هي من الأعمال الأمريكية الكبرى، إن إدارات التجارة والخارجية والدفاع مزودة ببيئات كبيرة لبيع وتسهيل تصدير الأسلحة الأمريكية إلى العالم، وقد ارتفعت تجارة السلاح في العالم، في عام ١٩٩٩، وهو العام الأخير الذي تتوافر إحصائياته، إلى حوالي ٥٢ مليار دولار بعد أن انخفضت من ٧٠ مليار دولار عام ١٩٨٩ إلى حوالي ٤٠ مليار دولار عام ١٩٩٤، وقد استوردت البلدان المتطورة أكثر من نصف هذا القدر بقليل، واستوردت البلدان النامية، ما تبقى، إن صادرات الولايات المتحدة، التي تصل إلى ٦٤٪ من تلك المبيعات، يحتمل أن تتقدم إلى ٧٠٪ في المستقبل، وذلك بناء على اتفاقيات مبيعات تم توقيعها بالفعل^(٤٨)، إن الذين يحتلون القمة في شراء أسلحة الولايات المتحدة هم العربية السعودية، وتايوان، واليابان، وبريطانيا، وتركيا، وإسرائيل، وكوريا الجنوبية، ومصر واليونان، وإن بدا لك، وكأن الولايات المتحدة تسلع في بعض الأحيان طرفي النزاع، فأنت على حق.

وتستخدم تلك المبيعات في أغراض أكثر بكثير من مجرد البيع، إن الولايات المتحدة تستخدم ترتيبات الأسلحة لتوثيق علاقاتها بالبلدان الرئيسية لتوحيد قياس المعدات والمناهج كونيا، ولتكتسب أيضا درجة من التحكم في سياسات الحكومات الأجنبية، مثال ذلك أعلنت بولندا في يناير عام ٢٠٠٣ أنها سوف تحصل على ثمان وأربعين طائرة مقاتلة جديدة إف - ١٦ من الولايات المتحدة كجزء من برنامجها، وحتى تزيد من قوة قواتها، ولتفى بالتزاماتها كعضو جديد في الناتو^(٤٩)، إن هذا جيد بصورة واضحة للدinاميكيات العامة التي تصنع إف - ١٥، ولاقتصاد الولايات المتحدة، لكن له أيضا دلالات أخرى كثيرة، إن ذلك يحقق المزيد من ضعف القدرة التنافسية لصناع الطائرات الأوروبية؛ إذ يحرمهم من عمليات بيع، ومن ثم يرفع من تكاليفهم، ويجعل الزبائن الآخرين أكثر إقبالا على شراء إف - ١٦. (وهذا مضاد لضغط الولايات المتحدة من أجل المزيد من إصلاح الدفاع الأوربي). إن ذلك يجعل سلاح الطيران البولندي قابلاً للتعامل مع السلاح الجوي للولايات المتحدة، لكنه ليس

بالضرورة متناغما مع قوات الناتو الأخرى، وحيث إن أجزاء يجب أن يتم الإمداد بها من الولايات المتحدة؛ لذا يعطى ذلك مسئولين من الولايات المتحدة نفوذا وقوة على ما تود بولندا أن تفعله بهذه الطائرات؟ إن الناتو أو بولندا لا يواجهان أى تهديد له ثقله، يمكن أن تتعامل معه طائرات إف - ١٦، ربما فكر المرء فى أن بولندا كبلد نام يمكنها استخدام النقود بطريقة أفضل، كان ذلك يقينا، هو وضع البرازيل، التى أعلن رئيسها الجديد "لولا"، فى ذات الوقت تقريبا - أنه سوف يلغى تسلم طائرات مقاتلة من الولايات المتحدة، طلبتها الإدارة السابقة؛ لأن البرازيل لديها سبل أفضل لإنفاق النقود، إن هذا النوع من السلوك يسم رأس الدولة بوصمة "يسارى خطر".

ربما تتوقع بولندا ترتيبات مستقبلية، مثل تلك التى انتهت إليها الولايات المتحدة مع اليابان وكوريا وعدد من البلدان الأخرى، التى يمكن إنتاج الأسلحة معا فى ظلها، بل وحتى يمكن تطويرها معا، إن صفقات الولايات المتحدة لبيع أنظمة الأسلحة، وخاصة الطائرات - غالبا ما تعزى إلى النهاية المعروفة باسم ترتيبات "التوازن"، وهذه تعنى أن البلد المشتري - كوريا مثلا - سوف يتسلم رخصة لإنتاج جزء أو كل الطائرة فى مصانعها المحلية، وأن التكنولوجيا اللازمة لفعل ذلك سوف تُنقل إليه من المنتج الأصلي فى الولايات المتحدة، إن عددا من البلدان قد استخدم توريدات من طائرات الولايات المتحدة بهذه الطريقة ليطور صناعة طائرات محلية، لم تكن موجودة من قبل، إن اليابان قد أثبتت بصورة خاصة مهارة بقيامها بعمل تدريجى لصناعة طائرة، تزايد أكثر فأكثر، حتى أصبحت فى النهاية شريكا كاملا فى تطوير الأجيال التالية. إن هذه العملية ترفع بالفعل تكلفة المنتج النهائى؛ حيث يتم الإنتاج فى أمد أقصر، من ذلك الذى تستهلكه لو تمت صناعتها كلية فى الولايات المتحدة، وتم تصديرها من مخازنها، إن المقاتلة اليابانية الجديدة إف إس إكس سوف يصل ثمنها إلى ١٥٠ مليون دولار للوحدة، بينما شراء نظيرتها من مخازنها سوف يكلف أقل من نصف ذلك^(٥٠)، إن نقل التكنولوجيا، بالإضافة إلى التكلفة المباشرة، لا يقلل فقط من القيادة الصناعية للولايات المتحدة، لكنه أيضا يجعل أنظمة الأسلحة الحاسمة متاحة بصورة أكبر سهولة، وكل ذلك يتم تحت اسم تحسين أمن الولايات المتحدة.

إن قيامها حقا بذلك أمر غير واضح، لكن الأمر المؤكد أنه يخفض إنتاجية اقتصاد الولايات المتحدة، إننا بإنفاقنا من ٢ إلى ٥٪ من إجمالي ناتجنا المحلي على الدفاع - إنما نأخذ في الواقع هذا القدر الكبير ونستثمره في منتجات وخدمات لن نستخدمها البتة في غالب الأمر، ولذا فإننا، على المستوى الأول، نفقد عوائد يمكننا الحصول عليها إن نحن استثمرنا في مصادر قوة منتجة، وعلى المستوى الثاني، فإنه في وسعنا أن نكسب أكثر إن قمنا ببساطة بالتصدير من مخزوننا، لكننا نفقد الكثير من ذلك الكسب عبر ترتيبات "التوازن" وصفقات التطوير المشترك. وفي النهاية، وعلى المستوى الثالث، فإن نقل الملكية التكنولوجية، بأسعار رخيصة، يستخدمه المنافسون الأجانب لتحقيق تحسن كبير المدى في المنتجات والخدمات التي تنافس تجاريا عروض الولايات المتحدة، إننا ننتحب قائلين: إنه يتوجب علينا فعل ذلك، بسبب ما علينا من مسؤوليات وأعباء خاصة، ونشكو من أن حلفاءنا لا ينفقون على صيانة قدرات القوة المماثلة، غير أن الحقيقة هي أننا من يريد تلك المسؤوليات، إننا نستدعيها، وصفقات "التوازن" هي الدليل على ذلك، إن القصة الرسمية هي أننا نعقد تلك الصفقات للدفاع عن حلفائنا، غير أن الحلفاء يطلبون رشاً ليقبل تلك الصفقات، إنهم بوضوح لا يرون التهديدات بنفس الطريقة التي نراها نحن بها، إنهم يستفيدون من حاجتنا لتحمل أعباء خاصة، وحتى نتوصل إليهم أن يقوموا بها.

إننا أيضاً نجعل تعاونهم معنا صعباً للغاية حتى إن أرادوا هم ذلك. إن البنتاجون بعيد وناء، إنه أكبر مشتر للسلاح في العالم، ربما تتجاوز مشترياته نصف المشتريات الكونية، إنك كمورد إن لم تستطع البيع إلى البنتاجون فإنك لن تستطع البقاء قادراً على المنافسة، إنك لن تستطع الحصول على أحجام الإنتاج، أو الدولارات الكثيرة الخاصة بالبحث والتنمية، التي تسمح لك بالبقاء عند الناحية الرئيسية، إن البنتاجون يُصعب الأمر تماماً على المنتجين الأجانب حتى يبيعوا إليه.

وقد مرت أواسط التسعينيات بلحظة محددة في بنية صناعة الأسلحة الأمريكية، إذا كان هناك هبوط في الإنفاق على الأسلحة، وتقلص ضروري لصناعة الدفاع، مع

نهاية الحرب الباردة، وعقد ويليام بيرى وزير الدفاع ما عرف فيما بعد، بـ "العشاء الأخير"، وهو غداء مع المسؤولين التنفيذيين لصناعة الدفاع، لينصحه بأن يبدأوا التفكير فى الاندماج، وفى كساد اقتصادى صغير، كان هذا هو الوقت الذى يجب النظر فيه لعولمة صناعة السلاح، عبر اندماجات دولية، غير أن ذلك لم يحدث، جزئيا بسبب المقاومة فى الخارج، وجزئيا لأن ذلك سوف يضعف من سيطرة أسلحة الولايات المتحدة، ويقلل من النفوذ الإمبريالى.

علمهم كيف يقاتلون - لا كيف يكتبون

إن الولايات المتحدة ليست فقط المصدر الأول للأسلحة فى العالم، لكنها أيضا المعلم الأول للحرب، إن "المدرسة الأمريكية"، مثلا، التى تأسست أولا عام ١٩٤٦ فى منطقة قناة بنما التى تتحكم فيها الولايات المتحدة، قد تخرج فيها منذ ذلك التاريخ أكثر من ستين ألف من الضباط، وتلميذ حربى وصف ضابط من كل بلدان أمريكا اللاتينية والولايات المتحدة كذلك، هنالك عدة أهداف، وأحد تلك الأهداف هو إقامة علاقات بين الشخصيات العسكرية من أمريكا اللاتينية، وتلك التى من الولايات المتحدة، وكان من المعتقد أن ذلك لن يغرس فقط مفاهيم الولايات المتحدة عن تحكم ما هو مدنى، فيما هو عسكرى، لكنه يجعل فى الإمكان أيضا التدريب على حقوق الإنسان والديمقراطية - جنبا إلى جنب مع تعليم أشياء مثل العمليات الخاصة، والعمليات المدنية العسكرية، وهلم جرا، تلك كانت النظرية، لكن المدرسة صنعت فى التطبيق باعتبارها "مدرسة الديكتاتورين"، بسبب العدد الكبير من ديكتاتورى أمريكا اللاتينية السابقين، والذين تخرجوا فيها، وبسبب الرقم المرتفع من الشكاوى الخاصة بحقوق الإنسان التى تسببوا منها، وحتى نكون منصفين، فإنه صحيح أيضا أن بعض خريجي المدرسة مثل باز جارسيا، من هنداروس كان فاعلا فى نقل السلطة إلى سابق عهدها، حكما مدنيا ديمقراطيا، وأن كل بلدان أمريكا اللاتينية والجنوبية قد أصبحت

ديمقراطية خلال العقد الماضى، مع سقوط الديكتاتوريين، غير أن هذا التطور مدين بالقليل للمدرسة الأمريكية.

إن نفس الحقيقة المختلطة يمكن التعرف عليها فى برنامج متنوع أكثر حداثة، كانت المهمة العسكرية الأمريكية فيما بعد مناخ الحرب الباردة بصورة جزئية وهامة هى "صناعة المناخ الدولى"، وكان ذلك يعنى نشر العلاقات العسكرية، مشتملة على التدريب العسكرى والبرامج المضادة للمخدرات، والنشاطات المعادية للإرهاب، وبرامج التعليم ونقل المعدات، إن تلك النشاطات تقوم بها أساساً "قوات العمليات الخاصة" (إس أو إف)، والتي تنتشر الآن فى أكثر من ١٤٠ بلداً، بميزانية تزيد عن ٣ مليار دولار، وتعمل تلك القوات فى إطار قانون "التدريب المشترك الموحد المتبادل" (جى سى إى تى) لعام ١٩٩١، والذي يسمح لقوات العمليات الخاصة بالتدريب الخارجى مع قوات أجنبية، كما يسمح أيضاً لقوات العمليات الخاصة للولايات المتحدة بالحصول على نفقات القوات الأجنبية، إن هى عجزت عن الدفع، بطرقها الخاصة، لقد كان الهدف الظاهرى لهذا القانون هو توفير تدريب هام لأفراد قوات العمليات الخاصة بالولايات المتحدة، إنها ربما تحتاج إلى فعل ذلك حقاً، لكنها تشكلت أيضاً فى إطار برنامج عريض، تدرب الولايات المتحدة فى ظله، وبصورة عملية كل جيوش العالم، هناك حوالى ٤٥٠٠ من قوات الولايات المتحدة منتشرة فى أنحاء الكون، فى أى وقت؛ لذا فإن عدد أفراد التدريب المشترك الموحد المتبادل يتجاوز ٤٠٠٠ ضابط فى الخدمة الأجنبية للإدارة الخارجية.

إننا عندما ننظر إلى الجانب الآخر من الجسر، فإن ذلك يُمكننا فقط من رؤية مدى ثقتنا فى الأسلحة بصورة أكثر وضوحاً، كان إنفاق الولايات المتحدة عام ١٩٤٨ العام الأول للحرب الباردة، على المعونة، وعلى برامج أخرى دبلوماسية وغير عسكرية يصل إلى إجمالى قدره ٦ مليار دولار، بسعر دولار عام ١٩٤٨، أى أكثر من ٣٪ من إجمالى الناتج المحلى، وحوالى نفس قدر الميزانية العسكرية للولايات المتحدة فى ذلك الوقت^(٥١)، أو ١٠٤ مليار دولار بسعر دولار عام ٢٠٠٥، إن الإنفاق غير العسكرى

للولايات المتحدة اليوم، قيما وراء البحار، بما فى ذلك تكلفة السفارات، والمعونة، والتعليم وكل شىء آخر، تصل إلى أقل من ١٧ مليار دولار، أى حوالى ٠,١٧٪ من إجمالى الناتج المحلى، يضاف إلى ذلك حوالى ٤ مليار دولار للمعونة العسكرية، وهى غالبا ما تكون عبر برنامج "التمويل العسكرى الأجنبى"، الذى يعمل كبرنامج للمنح مساعدة للحكومات الأجنبية على شراء معدات الولايات المتحدة العسكرية^(٥٢)، وبذا فإن حوالى ١٢ مليار دولار فقط أو ١٢٪ من إجمالى الناتج المحلى هى معونة بالمعنى العادى، تذهب منها حوالى ثلاثة مليارات دولار إلى إسرائيل، واثنى مليار دولار إلى مصر (ما يزال ذلك جزءا من الوفاء لصفقة السلام بين مصر وإسرائيل عام ١٩٧٩)، مع تقسيم الباقي بين كل الآخرين^(٥٣)، إن تلك الأرقام التى تثير الشفقة - رغم انتهاء الحرب الباردة، وجدوى السلام، والانفجار الكونى إصابة بالإيدز، وانتشار المجاعة فى إفريقيا - أقل فعليا مما كانت عليه عام ١٩٩٠؛ مما جعل من الولايات المتحدة أصغر مانح للمساعدة نسبة إلى إجمالى الناتج المحلى للبلدان المُنصّعة^(٥٤).

إننا أيضا أكثر المساهمين إهمالا مع المنظمات النولية، ففى ٣١ ديسمبر عام ٢٠٠١، مثلا، كان ما يزال علينا مستحقات مدينة، واجبة الأداء للأمم المتحدة حوالى ٩٠٠ مليون دولار، حتى بعد أن دفعنا جزءا مما كنا مدينين به سابقا^(٥٥)، هل هناك ما يثير الدهشة فى إصابة حلفائنا بالتعب من كل حديثنا عن الأعباء الخاصة؟

ولكن إن قررنا بالفعل إنفاق بعض النقود، فإنه من الصعب وجود أى أحد لينفقها، والكثيرون من الذين ما زالوا موجودين، لا يستطيعون الحديث، على أية حال، مع المتلقين، فقد خفضت إدارة الخارجية، خلال العقد الماضى عدد قنصلياتها ومكاتبها عبر البحار، إن لدينا الآن عدداً أقل من القنصليات فى الصين أقل مما كان الوضع عليه عام ١٩٣٩، وما زالت الإدارة الخارجية "مكتب المحاسبة العامة" تواجه نقصا خطيرا فى الأشخاص، فى العديد من المواقع الحاسمة، والأفراد الذين يعملون هناك، هم فى الغالب غير مؤهلين، ومثال ذلك ما وجده مكتب المحاسبة العامة فى مسح قام به

من أن ٦٢٪ من موظفي الخدمة الأجنبية المعيّنين في الصين، ليست لديهم البراعة اللغوية اللازمة لوظائفهم، وكذا ٤١٪ ممن يعملون في روسيا، وفي العربية السعودية لم يستطع رئيس "قسم الدبلوماسية العامة" الكلام البتة باللغة العربية، إن وكالة معلومات الولايات المتحدة، التي أنشئت أثناء إدارة "إيزنهاور"، بالطبع، بغرض الإخبار، عن تاريخ أمريكا في الخارج، قد تم تفكيكها عام ١٩٩٩، وقد أنشئت إدارة بوش، في أعقاب ١١ سبتمبر شيئاً ما اسمه "مكتب الاتصالات الكونية"، واستأجرت تنفيذي إعلامي من ماديسون أفينيو لإدارته، ويظل ما سوف يكون عليه هذا المكتب مبتذلاً وذكياً أم مبتذلاً فقط - أمراً محل ترقب، على أية حال. يجب ألا يكون أى من هذا مثاراً للدهشة، عندما ترى أن ١٤٪ فقط من الأمريكيين يحملون جوازات سفر، وأن العديد من الجامعات لم يعد يُضمّن دراساته لغة أجنبية كضرورة للتخرج، وفي اقتراح حديث، لم يستطع ٨٧٪ من الأمريكيين تحديد موقع العراق على الخريطة^(٥٦).

كان لدى أمريكا بعد نهاية الحرب الباردة فرصة مثل تلك التي جرى تخيلها، لفترة وجيزة، بعد الحرب العالمية الثانية مباشرة، عندما كان في وسعها أن تضع في حساباتها نظاماً عالمياً جديداً يقوم على مجتمع من الأمم تتشارك المسؤولية بحق من أجل صيانة السلام، ومع وفاة الاتحاد السوفيتي، وتحول الصين إلى اقتصاد السوق بصورة متزايدة، مندمجة في التجارة الكونية ونظام الاستثمار، غدت الأمم المتحدة هيئة يحتمل أن تكون أكثر قابلية للعمل، كما كان هناك وقت أيضاً لمراجعة الأساس المنطقي لتحالفات أساسية مثل الناتو، ومعاهدة الأمن اليابانية الأمريكية، وكذلك بالمثل قواعد الانتشار العسكري الأمريكي في الخارج، ولم يتم القيام بشيء من هذا، وحتى تكون متأكداً، فقد هبط الإنفاق على الدفاع أخيراً، مرة أخرى إلى ٣,٥٪ من مستويات إجمالي الناتج المحلي لأواخر الأربعينيات، وتقلص حجم الخدمات العسكرية إلى حد ما، غير أنه مع الانخفاض السريع للقوات السوفيتية، وحجم نمو اقتصاد الولايات المتحدة، نمت قوات الولايات المتحدة نسبياً بصورة فعلية، إلى حد ما، وظلت أعمال الانتشار والبعثات الأساسية كما هي، وقد لاحظ صمويل هنتنجتون ميل أمريكا

لتعريف نفسها باعتبارها تقاوم تهديدات خارجية، وتبحث عن أعداء، ومع غياب أعداء محددين بعد عام ١٩٩٢، فإن الولايات المتحدة ما تزال ترى تهديدات تكفى تبرير الاحتفاظ بأكثر من ٢٠٠٠٠٠ من قواتها فى الخارج.

من الغريب على بلد رأسمالى دائم التغير، مثل الولايات المتحدة - أن يصبح "عدم الاستقرار عدوا له، إن أى تغير فى التحالفات، أو أعمال الانتشار الموجودة - يمكن أن يقود إلى عدم استقرار خطر، يتوجب تجنبه مهما كان الثمن، إن أحداث ١١ سبتمبر وظهور الحرب ضد الإرهاب، جنبا إلى جنب مع التركيز على تغيير النظام فى العراق - قد وفر أعداء جددا أقل خطرا بصورة ما، إلا أنهم ألقوا الضوء أيضا على نقطة أخرى، لاحظها إيمانويل والرستين: إن الولايات المتحدة تعتمد بشدة على ورقة واحدة من أوراق لعبة البوكر العالمية، الورقة العسكرية. إننا لا نحب التفكير فى أنفسنا باعتبارنا شعباً محباً للحرب، ولكن هل نتوقع أن يقبلنا الآخرون كمحبين للسلام، بينما نحن حقا لا نثق إلا فى الأسلحة.

الفصل السابع

شعب مسالم، وحرب بلا نهاية

توقف الرئيس بوش، في فبراير عام ٢٠٠٢، وفي وجه توترات متصاعدة مع كوريا الشمالية، ليجري محادثات مع رئيس كوريا الجنوبية، كيم دى جونج، بينما كان مسافرا في الشرق الأقصى، وألقى بوش، خلال زيارة إجبارية له لقوات الولايات المتحدة، في المنطقة منزوعة السلاح، شمالي سيول تماما، بكلمة أكد فيها بقوة: "إننا شعب مسالم"^(١).

لم يكن البيان مثيرا للانتباه؛ لأنه كان حقيقيا، فالأمريكيون لا يفكرون في أنفسهم على أساس أنهم يحبون الحرب، أو أن لهم أطماعا إقليمية أو إمبراطورية، إن القليل من الحروب الأمريكية هي التي حظيت بحماس شعبي كبير، وقد أظهرت استطلاعات للرأي العام كيف أن الأمريكيين كأفراد لا يهتمون بما يحدث فيما وراء البحار إلا قليلا، وإن حدث وجرى استفتاء شعبي حول ما تقوم به الولايات المتحدة من انتشار والتزامات في الخارج، فإن أكثرية الشعب الأمريكي قد صوتت ضد غالبية هذه الأشياء، ومع ذلك فإن بوش قد ألقى بحديثه ذلك في سياق تصاعدت فيه التواترات، جزئيا على الأقل، بسبب معارضة حكومة الولايات المتحدة لسياسة "ضوء الشمس" لكوريا الجنوبية نحو الشمال، وذلك لممارسة ضغط أكبر لإجبار النظام الشيوعي المكروه على السقوط، وقد أوضح هذا الوضع وجها آخر لأمريكا، هو تحديدا أن هذا البلد لم يؤسس فقط في ظل الحرب، لكنه كان، في غالب الأحوال، مرتبطا على الدوام بالحرب، أو بالاستعداد للحرب، منذ مولده، رغم الطبيعة المحبة للسام للشعب

الأمريكي، وطبقا لما لدى من إحصاءات، منذ توقيع الدستور عام ١٧٨٩، حتى اليوم، فإنه من النادر مرور عام لا تكون الولايات المتحدة فيه مرتبطة بعملية عسكرية ما، عبر البحار، إن تلك باعتراف الجميع تشتمل على عدد من المصادمات الصغيرة، وعمليات الحماية والحراسة، غير أنها تصل إجمالا إلى ٢٢٥ عملية محددة منفصلة - قد تكون من ٢٥ إلى ٣٠ عملية منها هي التي يمكن وصفها باعتبارها حربا كلية شاملة.

لقد كان الأمريكيون، حتى قبل الحرب الثورية - منهمكين في محاربة الهنود الأمريكيين المحليين، ومنذ تأسيس البلاد، حتى إنهاء وضع الحدود، أى مدة مائة عام لاحقة، كان بالكاد يمر عام دون نزاع بين الولايات المتحدة ومختلف القبائل، كان واحد من واجبات جورج واشنطن الأولى كرئيس هو قمع ثورات الهنود فى الشمال الغربى (ثم فى أوهميو وميتشيغان)، رغم ما كان يعانيه من اضطراب بسبب ضرورة فعل ذلك، كان يأمل فى "إمكان التوقف الكلى مستقبلا للحاجة إلى عمليات القسر والإجبار"، وحث الكونجرس على تبني نظم وقواعد محبة للإنسانية فيما يتعلق بالقبائل، وقد ناضل توماس جيفرسون أيضا مع المشكلة، وبينما كان يتفجع لمصير الهنود، عزز التوسع نحو الغرب أيضا؛ مما أحكم إغلاقه، وكان أندرو جاكسون هو من ترك بصمته بدفعه "السيمينوليين" إلى خارج فلوريدا، لم يكن يحس بوخز ضمير النبلاء، مؤمنا بأن الهنود "لا يستطيعون العيش مع مجتمع متحضر مزدهر"، وما يثير الحزن أنه أثبت صوابه، ولكن ربما لأسباب خاطئة، وفى عام ١٨٩٠ كان كل الهنود - على أية حال - قد ماتوا، أو وضعوا فى أماكن للحفظ والحجز^(٢).

لقد حاربت أمريكا، بالإضافة إلى الحرب الأهلية، وحرب عام ١٨١٢ التى عززت استقلال الولايات المتحدة عن بريطانيا - نوعين من الاشتباكات مع أعداء أجنبية، خلال القرن التاسع عشر، كانت هنالك حربان كاملتا العدة مع بلدان أجنبية، والعديد من الغزوات والغارات، والمصادمات والمشادات، والتدخلات فى أنحاء الكون، ناشئة عن الوعى بالحاجة لحماية الأمريكيين وتجارتهم، وكان العديد منها بمبادرة من الولايات المتحدة وحققت كلها تقريبا كسبا للبلاد، إن أمريكا المصممة على أن تكون أحادية،

حاربت دون تحالف مع بلدان أخرى، كانت الصدامات الأولى مع قراصنة دول المغاربة فى شمال إفريقيا، التى رفضت الولايات المتحدة أن تدفع لهم الرشاوى، التى غدت جزءا من تكلفة ممارسة الأعمال فى البحر المتوسط، وفى عشرينيات القرن التاسع عشر، كانت هناك دوريات بحرية أمريكية فى البحر المتوسط، والباسفيكى، ودوريات بحرية إفريقية، وفى جنوب الأطلنطى، تفعل كل شىء، من تأمين حقوق صيادى الفقمه الأمريكیین، فى جزر فوكلاند، إلى تأديب السومطريين لسرقتهم الأفیون من التجار الأمريكیین. وكانت هناك حوادث ثلاث ذات أهمية خاصة فيما بعد، فقد حصلت أمريكا فى أربعينيات القرن التاسع عشر - على امتیاز للتجارة مع الصين فى شنغهاى، وبدأت عصرا من دوريات نهر اليانجتسى، تستهدف دعم فتح أسواق الصين وحماية المبشرين، ووصل العمید البحرى ماثيو بيرى، عام ١٨٥٢ إلى خلیج طوكيو بأسطوله الشهير من "السفن السوداء"، وطلب من اليابان أن تفتح سوقها وتحمل الآم القذف بالقنابل والغزو المحتمل، وحاول الأدميرال جون رودجرز، عام ١٨٧١ نفس الأمر لكنه حظى بنجاح أقل.

كانت الحروب الحقيقية هى تلك التى جرت مع المكسيك عام ١٨٤٦، وتلك التى مع إسبانيا عام ١٨٩٨، ثارت الحرب مع المكسيك، بعد ضم وإلحاق الولايات المتحدة لتكساس، عندما أرسل الرئيس جيمس بولك جيش الولايات المتحدة بعيدا إلى الجنوب فى الأراضى المكسيكية، وكسبت الولايات المتحدة، ليس فقط تكساس، ولكن أيضا نیو مكسيكو، وأغلب أريزونا وكاليفورنيا، بأقل الضحايا، أما بالنسبة للحرب الإسبانية - الأمريكية، ردا على الوحشية الإسبانية المدعاة، بقمعها مقاتلى كوبا من أجل الاستقلال، وفى أعقاب الانفجار الغامض للسفينة الحربية "ماين" فى هافانا، أرسلت الولايات المتحدة قواتها إلى كوبا، وقد دعاها جون هاى، وزير الخارجية، تلك الحرب الصغيرة الرائعة، وقد سقط من الولايات المتحدة مرة أخرى عدد قليل من الضحايا، وكسبت إمبراطورية تشتمل على بورتوريكو، وجزر فيرجين، والفلبين وجوام، ومما يثير السخرية أن التحكم الأمريكى فى الفلبين استتبعه رفض الاعتراف بـ "الإعلان الفلبينى

للاستقلال، الذى اتخذ من النمط الأمريكى نموذجا له، وقُمع مقاتلو الفلبين من أجل الاستقلال بوحشية عالية تماثل على الأقل تلك التى استخدمها الأسبان فى كوبا، غير أن ذلك أعطانا فرصة، كما قال الرئيس ويليام ماكينلى "من أجل تنصير" الفلبينيين الذين كانوا كاثوليكين رومانين منذ ٣٥٠ عاما.

وقد ركز تاريخ أمريكا، خلال القرن العشرين، على ثلاثة حروب صليبية لإنقاذ العالم من العسكرية، والفاشية التى تقوم على الإبادة الجماعية، والشمولية الشيوعية، كانت الأولى بالطبع هى دخول أمريكا الحرب العالمية الأولى، ولقد طُرح للنقاش موضوع إن كان على الألمان حقا تحمل اللوم أكثر من الروس والفرنسيين والبريطانيين، غير أنه لا شك فى أن تدخل الأمريكين أنقذ فرنسا وبريطانيا والكثير من باقى البلدان الأوربية من الهيمنة العسكرية الألمانية.

كما حدد ذلك أيضا انتقالا كبيرا فى عقلانية السياسة الخارجية الأمريكية، فبينما كانت حروب أمريكا، فى القرن التاسع عشر (باستثناء الحرب الأهلية) تدور بصورة كبيرة حول التوسع الإقليمى، وحماية طرق التجارة، أو الدفاع عن مفهوم غامض عن "الشرف"، فإن دوافعها فى الحرب الكبرى كانت أكثر مثالية، إن وودرو ويلسون، الواسع الأفق المنتمى للكنيسة المشيخية ما كان يسمح للولايات المتحدة أن تخوض حربا من أجل مجرد كسب مادی، إن الأجدر بها هو "الحفاظ على مبادئ السلم والعدالة فى حياة العالم" وجعل العالم ذاته فى النهاية حرا^(٣)، وإن اعتقدت أن لذلك أصداء عند بوش، فأنت على صواب، لقد دخلت المثالية السياسة الخارجية للولايات المتحدة بصورة دائمة .

لقد تأسست مثالية ويلسون فى معركته الخاسرة للحصول على تصديق مجلس شيوخ الولايات المتحدة على محبوبته "عصبة الأمم"، ففى سيناريو يمكن أن يتكرر كثيرا، قامت الولايات المتحدة بتصوير خطة ودستور للعالم، وباعته له، ثم قامت الولايات المتحدة ذاتها، فى النهاية، برفضهما، إن السيناتور ويليام بوراه، والسيناتور هنرى كابوت لودج، اللذين قادا التصويت ضد العصبة فى مجلس شيوخ الولايات - قد صنفا

فى التاريخ، ففما بعد، باعتبارهما انعزالفان؁ وهو تعبفر غدا منذ ذلك الالف فففى
الازدراء؁ والأصح أنهما؁ كما ذُكر فى الفصل الثانف؁ كانا أحاففن؁ فففران على
سفاة أمرفكا؁ متاكفن من فضفلتهما العلفا؁ ففشكان فى فوافع الأمم الأفرى؁
وإمكان التعفل فلفها؁ كانا فففقان أنه من الأففل لأمرفكا أن فسفر بمفرها كما
سارت فوما.

إن كانت هناك حرب عافلة؁ فى أى وقت مضف؁ ففلك هى الحرب العافلة الثانية؁
لفس هناك من شك فى أن أمرفكا قد أنقذت العالم مما كان حقا إمبراطورفة شر؁
كانت تلك الحرب أيضا؁ من أجل الفرة والعافلة وإنهاء كل الحرب؁ ومن ثم كان
الهدف هو التسلف فون قفء أو شرط؁ وقد أخضعنا نحن للعلل اسفأخدام بعض
الأسلحة الرهفبة من أجل فافقف هذا الهدف؁ إن الولايات المتحدة؁ وقد خرجت كالفقة
الفولة المهمفة عسكرفا؁ وففنولوجفا؁ واقتصادفا؁ صممت ألا ففكر مثافلة ولفسون؁
وفعلت ما لم ففعله البفة من قبل؁ قافد إنشاء الففئات المشتركة بالفعل؁ كالأمم المتحدة؁
وصندوق النقد الفولى؁ والبنك الفولى وهفئات فولة أفرى فمكن أن فدخلها؁ مع بلدان
أفرى؁ فى افافقاف طوفلة الماف؁ مما ففققها فرة الفعل؁ وقد ظلت الولايات المتحدة
بالطبع هى الشرفك الأعلى؁ ولفها قوة الففو الفافلة على كل تلك الففئات؁ ففر أن
إنشاءها مثل فصورا هاما فى فكر السفاة الفارفة الأمريكية.

إن كل البلدان فسعى؁ بففبها؁ وراء مصلفها الوطنفة؁ إن السؤل الحاسم هو
كف ففء تلك المصلفة؁ لقد فء هفلر المصلفة الألمانية فى هزفمة الكففر من بلدان
العالم واجفأأ الففوء؁ بفأأ الولايات المتحدة؁ الفف كففرا ما ركزت على السعى
المنفرد وراء فرففها هى؁ وسفاافها هى؁ بفأأ الآن فافقف مصلفها فى فءو ففسفن
الأوضاع الاقفصاففة الكونفة؁ وإعادة بناء البلدان الفف فُمرت؁ وفأسفس مجفمع على
أسس الحكم الكونف القانونف؁ وإرساء القواعد والمبافى؁ إن الولايات المتحدة ففءت؁
فى الواقع مصلفها؁ فى فءو ففجانسة مع النظام العالمف القائم على إجماع مجفمع
الأمم؁ وكانت الولايات المتحدة ففءةة الفوانب؁ فى ذلك الوقت؁ إلى فء أنها اففرفف

تحكما فى الطاقة النووية تحت إشراف الأمم المتحدة الجديدة، ربما لأول مرة فى التاريخ تدعم قوة مهيمنة، بنشاط، التخفيف من قوتها هى، وقبل أن تمضى التجربة بعيدا جدا دخلت الحرب الصليبية الثالثة القرن عنة.

الحرب الباردة

تضاءلت القوات الأمريكية، فى أقل من عام، بعد نهاية الحرب فى ١٩٤٥، إلى حوالى ١,٥ مليون، بعد أن كانت تضم ١٥ مليون فرد، وكانت النية أن يتحقق المزيد من التقلص، لقد تم كسب الحرب، والآن حان الوقت لعودة الأولاد إلى البلاد، لم يكن هنالك من يخطط لإمبراطورية، وأنهت الحرب الباردة ذلك كلية.

ابتدأت الحرب مبكرا عام ١٩٦٤، بصورة جادة، فقد تحدث جوزيف ستالين، فى ٩ فبراير ١٩٤٦، معلناً أن التعاون بين إمبريالى الغرب والشعوب المحبة للسلام فى البلدان الاشتراكية - أمر مستحيل - وأرسل الدبلوماسى جورج كينان برقيته الطويلة الشهيرة، من سفارة الولايات المتحدة فى موسكو، يشرح لواشنطن وجهة نظر قادة موسكو، من أنه لا يمكن وجود سلام دائم مع الولايات المتحدة، ولذا فإنهم يرون ضرورة تحطيم السلطة الدولية للولايات المتحدة، حتى يمكن ضمان سلطة السوفيت، وأكد كينان، فى ذات الوقت - أن السوفيت ليسوا بمخططين ولا لديهم ميل للمخاطرة، وتحدث وينستون تشرشل، فى فولتون، ميسورى، قائلا: "من ستيتين على بحر البلطيق إلى تريستا على البحر الأدرياتيكي، هبط ستار حديدى عبر القارة"، ووقع الحدث الرئيسى، فى ٢١ فبراير، عندما أعلن السفير البريطانى لدى الولايات المتحدة أن بريطانيا العظمى قد تحطمت، وليس فى وسعها الحفاظ على دعمها لحكومتي اليونان وتركيا اللتين تحاربان عصيانات شيوعية مسلحة، ولا فى وسعها مواصلة الحفاظ على العديد من مواقعها الأخرى فى الشرق الأوسط.

وواجهت إدارة ترومان قرارا هاما للغاية، هل تضع على عاتقها عباءة بريطانيا العظمى وتتحمل مسئوليات خارجية لتشكيل العالم؟ وأجاب ترومان، فى ٢١ مارس، أمام دورة مشتركة للكونجرس:

يجب فى اللحظة الحالية من تاريخ العالم أن تختار كل أمة على وجه التقريب ما بين طرق للحياة بديلة ... إن طريقنا فى الحياة يقوم على إدارة الأغلبية، وهى طريقة تتميز بالمؤسسات الحرة، وحكومة تمثيلية، وانتخابات حرة، وضمانات لحرية الفرد، وحرية الكلام والعقيدة، والحرية من القهر السياسى، ويقوم الطريق الآخر للحياة على إرادة الأقلية المفروضة قسرا على الأغلبية، إنه طريق يعتمد على الإرهاب والقهر، إننى أؤمن أنه يجب على الولايات المتحدة أن تدعم الشعوب التى تقاوم محاولات الإخضاع التى تقوم بها الأقليات المسلحة أو الضغوط الخارجية ... إننا إن ترددنا، فإننا قد نعرض سلام العالم للخطر - وبقينا سوف نعرض رفاهية هذه الأمة للخطر^(٤).

ما كان فى وسع جورج بوش أن يقولها بأفضل من ذلك، وفى تعاقب سريع اقترحت الولايات المتحدة "مشروع مارشال"، وطرحت اتفاقية "منظمة شمال الأطلنطى"، وفى أعقاب التفجير النووى الأول للاتحاد السوفيتى، تحركت صناعة القنبلة الهيدروجينية، وبدأت الولايات المتحدة، فى عام ١٩٤٩، عملية إنشاء كبرى للقوات، التى سوف تدوم حتى الحاضر.

لم تكن السياسة التى طرحها ترومان استباقية أو وقائية، لكنها كانت سياسة منع انتشار طبقا للمقدمة المنطقية "للماديسونية" القائلة: إن "القضية السيئة لا تقصر أبدا فى الكشف عن خططها الحقيقية"^(٥)، غير أنها دامت طويلا، دامت مدى هائلا حتى إنها غدت أكثر بكثير من مجرد منع الانتشار. فقد أخضعت كل الأوليات الوطنية للهدف الذى طغى - هدف منع تسرب النفوذ السوفيتى والصينى، وأى شيوعيين آخرين،

أيضا كانوا، إن بشارة جديدة بالأمن القومي^(٦) تقود الأمة إلى عقيدة جديدة وحدت بروعة كل تقاليدھا القديمة والجديدة فى السياسة الخارجية. وقد غذت هذه العقيدة المشاعر الوطنية المفرطة ومشاعر نحن - ضدهم، التى لم تكن بعيدة البتة عن سطح الشخصية الأمريكية، وأقنعت البلد بأن أكثر القيم قداسة، ألا وهى "الحرية" كانت عرضة للهجوم، كما فتحت فرصة جديدة للحياة أمام النزعة الأمريكية الأحادية، التى كانت عالقة لفترة وجيزة بعد الحرب العالمية الثانية، إن الولايات المتحدة ما تزال تتحمل التزامات نحو الآخرين، وقد دخلت تحالفات متشابكة، لكنها تعمل دائما للحفاظ على حريتها فى العمل، وقد وفرت لها عقيدة عدم الانتشار أيضا مبررا ومنطقا للسمة التقدمية للإمبريالية، التى وظفتها أمريكا فى الحرب الإسبانية الأمريكية، ونزاعات أقل، وذلك بإضفاء شرعية على الحاجة إلى قواعد متقدمة - بعيدة، حولت أجزاء كبيرة من العالم إلى زبائن وعملاء للولايات المتحدة. لو جسدت الويلسونيانية مستشهادة بقيم تحررية دولية، واستخدمتها كأسلحة، خدمت فى النهاية حدود التجارة التوسعية، بمعارضتها كل من الإمبراطوريات الكولونيالية والشيوعية، والدفع نحو الأسواق المفتوحة، وكما قال تونى سميت "إن الهيمنة الأمريكية قد أنشأت شكلا من الإمبريالية، المعادية للإمبريالية"^(٧). وأطلق عليها جيمس واربورج الانعزالية المقلوبة ظهراً لبطن، وقال: "إننا نرغب فى أن نكون مواطنين عالميين، لكن فقط إن غدا العالم امتداداً للولايات المتحدة"^(٨).

يجب ألا يكون هنالك شك فى أن الحرب الباردة كانت حربا صليبية نبيلة جرت بأفضل النوايا، دون أمل فى كسب مادى أو هزيمة، ضد أعداء ارتكبوا شرورا عظمية، وإن كان علينا أن نواجه نفس القرار ثانية، فيجب علينا، فى تقديرى - أن نقوم بذات الاختيار دون تردد، ولكن ربما كان علينا النظر فى أساليب جديدة للتطبيق، إننا ندفع الآن ثمن أخطاء جسيمة صدرت عن الجهل وجنون العظمة والثقة الزائدة فى أسلحتنا وقوتنا، ليس هذا مكان تاريخ الحرب الباردة، بل الحرب الكورية، وسلسلة من

التدخلات الأمريكية التي توضح لماذا رغم كل تضحياتها، في سبيل قضية الحرية والعدالة، ينظر إلى أمريكا في الخارج غالبا نظرة خوف وارتباب.

الحرب الكورية

كانت أول حرب حامية في الحرب الباردة هي الحرب الكورية، بدأت عندما قامت قوات كوريا الشمالية التي دربها السوفيت وأمدوها بالسلاح بغزو الجنوب في يونيو عام ١٩٥٠، وبينما كان هذا الفعل العدوانى، الذى لم يصدر بسبب استفزاز أحد له - قد حدث جزئيا بسبب إغراء بيانات الولايات المتحدة وأفعالها، التي تشير إلى أن كوريا كانت خارج نطاق المحيط الدفاعى للولايات المتحدة، فإن ترومان أعلن عن حق أنه لا يمكن لهذا الأمر أن يمر دون تحد، خاصة في سياق التهديدات السوفيتية، في مناطق أخرى حينذاك، وقد التزمت قوات الولايات المتحدة وقاتلت بياس من أجل وقف نزيف مد كوريا الشمالية، لقد فعلت ذلك في سرعة، ثم قامت بهجوم مضاد بطريقة رائعة بإنزال "إنشون"^(*) الشهير خلف خطوط كوريا الشمالية، وفي سبتمبر كانت قوات الولايات المتحدة قد أمنت كل كوريا الجنوبية، واحتلت الكثير من كوريا الشمالية، بما في ذلك العاصمة بيونج يانج، وتحطم وتبعثر ما تبقى من قوات كوريا الشمالية، وكان الضحايا عند هذه النقطة ٣٦١٤ قتلى و٤٢٦٠ مفقودين و١٦٢٨٩ جرحى^(١).

وأصبحت هزيمة الكوريين الشماليين واضحة، فحذرت الصين من أن أى تقدم أمريكى إلى حدودها مع كوريا الشمالية عند نهر "اليالو"، لم يكن مثل هذا التقدم ضروريا: لقد تم كبح الشيوعيين، وكان الحلفاء متحكمين بصورة فاعلة في كوريا، غير

(*) اسمها بالكورى عملية كرومايت من ٩/١٥ إلى ٩/٢٨/١٩٥٠ (المترجم).

أن الجنرال دوجلاس ماك آرثر، قائد القوات المتحالفة، كان يؤمن بالنصر الكامل، وكذا الحاجة إلى استبدال النظام الشيوعي في الصين بحكومة شانج كاي شيك الصينية الوطنية والتي كانت قد هربت منذ عهد قريب إلى تايوان، وكما أمر قوات الولايات المتحدة بالتوجه إلى كوريا، وجه الأسطول السابع كى يضع نفسه فى "مضايق تايوان"، بين الأرض الرئيسية للصين وتايوان، متدخلا فى الحرب الأهلية الصينية إلى جانب شانج كاي شيك الفاسد، ويدون اتخاذ أى قرار بالحرب مع الصين، زار ماك آرثر، تايوان، لينسق جهوده العسكرية مع محاولات شانج المتواصلة لكسب موطن قدم على الأرض الرئيسية كما وجه ماك آرثر قوات الولايات المتحدة التى يقودها للاندفاع إلى الياو، وكما قالوا فعلوا، وهاجمهم الصينيون، وبعد ثلاثة أعوام، وضريبة موت بلغت ٥٤٢٤٦ هجرى ١٠٣٢٨٤^(١٠)، وقوات الولايات المتحدة التى يقودها، وقد غدت غير متحركة فى كوريا الشمالية، وانتهى الوضع إلى هدنة هشة، وإقامة منطقة منزوعة السلاح ما زال على النظام وضبط الأمن فيها مسئولية قوات الولايات المتحدة وحلفائها الكوريين الجنوبيين، ومن ثم، فإن جهلنا بعدونا، وجنون الارتياح فى شيوعية الصين، وارتباط ذلك باستعدادنا للجوء إلى السلاح لإطالة أمد الحرب، بالإضافة إلى قوائم الضحايا، أضعفت بالفعل وضع الولايات المتحدة، هنالك، أيضا، سقطات أخرى ما نزال نحس بآثارها.

لم يكن مقدرا أن يصبح الشيوعيون الصينيون عدوا كبيرا للولايات المتحدة، لقد قدموا عروضاً صديقة لرسميين من الولايات المتحدة، خلال الحرب ضد اليابان، وحاربوا بالفعل بصلابة ضد اليابانيين أكثر من قوات شانج، وكان استياؤهم من دعم الولايات المتحدة لشانج أثناء الحرب الأهلية الذى ظهر بعد هزيمة اليابان - أمرا طبيعيا، كانوا غاضبين لأن الولايات المتحدة واصلت الاعتراف ببقايا قوات شانج فى تايوان كحكومة للصين (سأتناول المزيد عن تايوان فى الفصل الثامن)، بينما اعترفت بريطانيا وغالبية دول العالم بالنظام الشيوعي فى بكين، غير أن الصين لم تكن تبحث عن القتال مع الولايات المتحدة، كانت هنالك فروق كبيرة بين الشيوعيين

الصينيين والشيوعيين السوفيت، وقد حاول بعض ضباط الخدمة الخارجية مثل جون سيرفيس وجون باتون دافيس أن يوضحا ذلك لواشنطن، ولصحافة الولايات المتحدة حينذاك، لكن تم تجاهلهما في ظل الهيستيريا حول الشيوعية، التي استحوذت على البلد حينئذ، وسرعان ما دُمر مستقبلهما المهني بحلول المكارثية. إن الزحف إلى الياو قد جعل الولايات المتحدة مشتبكة، بصورة أو أخرى، بتدخل دائم في الحرب الأهلية الصينية، وبصورة تقوم على شك وعدوانية صارمين، لم يكن من الممكن حتى السبعينيات لريتشارد نيكسون الرئيس حينذاك، أو لهنري كيسينجر - مستشاره للأمن القومي - الاستفادة من الفروق بين الصين والسوفيت ليقوما بافتتاح الصين. ورغم التسوية المؤقتة التي حكمت علاقات الولايات المتحدة والصين حينذاك، ظلت هنالك أبار من الشك على كل من الجانبين؛ مما هدد، على نحو دوري، بالعودة إلى العلاقات العدوانية القديمة وهو الأمر الذي ما كان يجب أن يكون على هذا النحو.

أوقفت الهدنة القتال، ووطدت ديكتاتورية سيجمان رى في السلطة، وهو الذي تدخلت الولايات المتحدة، في كوريا الجنوبية لمساندته، ويا للسخرية، كانت هيئة العاملين معه مثقلة بالمتعاونين السابقين مع اليابانيين، ورغم أنه أنقذ الكوريين الجنوبيين من مستقبل شيوعي قاهر، سرعان ما أجرت الولايات المتحدة استفتاء، يمكن أن يُحل زمنا محل زمن آخر، ومرة أخرى حدث - خلال الحرب الباردة - انتقال من ديكتاتورين يعتمد عليهم إلى ديمقراطيات تتسم بالفوضى، وفي عام ١٩٦٠ أطاح كوريون بـ "رى"، محاولين إقامة ديمقراطية، غير أن المحاولة باءت بالفشل؛ لأن الولايات المتحدة دعمت تولى الجنرال بارك شونج - هي السلطة، في عام ١٩٧٩، لم تشجع الولايات المتحدة فقط انقلابا قام به الجنرال شون دوهوان، بل أذنت له أيضا باستخدام القسم "العشرين" من الجيش الكوري (الذي كان في السابق تحت قيادة الولايات المتحدة)؛ ليقمع في عام ١٩٨٠ ثورة للطلبة في "كوانجو"، وقبل أن

تنتهى كان المئات من المدافعين عن الديمقراطية فى كوريا الجنوبية قد قتلوا فيما عرف باسم "مذبحة كوانجو"، وهو حدث سوف يربطه الكوريون دوما بالولايات المتحدة، وقام شون، من بين أشياء أخرى، بالحكم بالإعدام على المدافع عن الديمقراطية، منذ زمن طويل، كيم داي - جونج، بتهمة التعاون مع كوريا الشمالية، وحثت إدارة ريجان شون، على تغيير الحكم بالإعدام، وقد قامت الولايات المتحدة بالفعل بتعزيز التنمية الاقتصادية فى كوريا الجنوبية، عن طريق الترحيب بالآلاف الطلاب الكوريين، وفتح أسواقها وتكنولوجياها أمام كوريا، ونجح الكوريون المدافعون عن الديمقراطية، فى النهاية، فى أواخر الثمانينيات، فى تحقيق تغيير إلى حكومة ديمقراطية، وعاد كيم داي - جونج كلية من منفاه فى الولايات المتحدة ليكون الرئيس، إنه هو الذى قدم مبادرة سياسة "ضوء الشمس" التى تهدف إلى بث الدفء تدريجيا فى العلاقات مع كوريا الشمالية، وإكمال الروابط الاقتصادية، كوسيلة لإرخاء القبضة الحديدية لحكام بيونج يانج.

إن الأمريكيين الذين يشعرون بأن الكوريين الجنوبيين - يجحدون كل ما فعلناه من أجلهم، يجب أن يضعوا فى أذهانهم ما سبق من أحداث، عليهم أيضا أن يفكروا فيما بدأ عام ١٩٩٤، عندما أوقفت إدارة كلينتون تهديدا كوريا شماليا بصناعة أسلحة نووية، وذلك من خلال "إطار تفاهمي"، فى صفقة تقوم فيها الولايات المتحدة بإحلال مفاعلى ماء - خفيف (لا يستطيعان إنتاج بلوتونيوم مرتبة الأسلحة) ويقدمان لكوريا الشمالية نفس القدر من الكهرباء محل مفاعلين كوريين شماليين ينتجان البلوتونيوم، وكان على الولايات المتحدة أن تقدم أيضا كمية معينة من وقود النفط، كما تعهدت بعدم استخدام الأسلحة النووية فى كوريا، وفتح التجارة، وشكل ما فى العلاقات الدبلوماسية، وتعهدت كوريا الشمالية بالإضافة إلى إغلاق مفاعلاتها القديمة - أن تظل طرفا فى معاهدة حظر الانتشار (إن بى تى)، وأن تسمح للوكالة الدولية للطاقة النووية (آى إيه آى إيه) بإجراء التفتيش، وواجهت الولايات المتحدة صعوبات فى كل النقاط.

قامت بتسليم النفط، لكن ليس طبقا للجدول الزمني، ولم تفتح أية علاقات دبلوماسية أو اقتصادية، رغم أنها قدمت بالفعل مواد غذائية كافية، حتى تبقى الكوريين الشماليين بعيدا عن المجاعة، وتخلف مفاعلا الماء الخفيف اللذان جرى الوعد بهما بعيدا عن الجدول الزمني، وبدأ كيم، وهو يقظ لكل تلك المشاكل، يخشى احتمال انهيار كوريا الشمالية، فتغرق كوريا الجنوبية باللاجئين الجوعى - أو ما هو أسوأ، حدوث هجوم ناجم عن اليأس، فبدأ فى تقديم مساعدة اقتصادية إلى الشمال، وبقدوم إدارة بوش عام ٢٠٠١، تغيرت سياسة الولايات المتحدة من تقارب يتسم بالذبذبة إلى السعى لإسقاط النظام الشمالى، وغدا واضحا بصورة سريعة أن الكوريين الشماليين قد نكثوا بالعهد أيضا، فيما يتعلق بالصفقة، وكانوا يواصلون تطوير أسلحتهم النووية، وقد قدمت تلك الأخبار تبريرا لموقف الإدارة، فى نظر البعض، غير أن الثار العسكرى لم يكن واردا لأن سيول كان يحتل تدميرها فى أى حريق يشتعل، وأجبرت الولايات المتحدة على الارتداد إلى نسخة من سياسات كلينتون - كيم، لكن مع عقبة مضافة هي مشاعر عدائية قوية لأمريكا نمت حاليا فى كوريا الجنوبية، حتى إن رئيسها الجديد انتخب على أساس مراجعة الـ "سوفاف" (*).

وردا على ذلك، طالب بعض الأمريكيين، الذين يؤمنون بأن قواتنا موجودة فى كوريا، فى المقام الأول لحماية الجنوب ضد الشمال، بانسحاب الولايات المتحدة، إن على هؤلاء أن يتنبهوا إلى بيان ويليام كوهين، وزير الدفاع، فى إبريل ١٩٩٧، بأن الولايات المتحدة تنوى إبقاء قواتها فى كوريا حتى إن اتحدت الكوريتان^(١١)، إن قوات الولايات المتحدة موجودة فى كوريا، بقدر كبير، لأغراض أمريكية، كما هي لحماية كوريا، إن الكوريين يعرفون ذلك، حتى لو لم يكن غالبية الأمريكيين يعرفون.

(*) اتفاقية وضع القوات (المترجم).

تدخل الولايات المتحدة: من أندونيسيا إلى العراق

تبعث الحرب الكورية سلسلة طويلة من التدخلات الأمريكية لتغيير أنظمة انتخبت ديمقراطيا، وذلك لصالح حكومات فاشستية أكثر إذعانا لرغبات الولايات المتحدة، ففي عام ١٩٥٢ لعبت وكالة المخابرات المركزية دورا رئيسيا في طرد رئيس الوزراء الإيراني، محمد مصدق، وإعادة الشاه، وفي عام ١٩٥٤ انتخبت حكومة، جاكوب أريينز لتحل محل حكام ديكتاتوريين دمويين من الجناح اليميني، استمروا يحكمون جواتيمالا مدة ثلاثين عاما. لقد أطيح بهذه الحكومة بعد شكوى من "شركة موز شيكتيا" على أساس أن الحكومة الجديدة حكومة خطيرة من الجناح اليساري، وكانت النتيجة خمسين عاما أخرى من ديكتاتوري الجناح اليميني الدمويين، وفي عام ١٩٥٥ شجعت حكومة الولايات المتحدة حاكم جنوب فيتنام - نجو دينه ديم - على تجاهل الاتفاقية التي تمت تسوية الحرب الفرنسية - الهندو الصينية على أساسها، والتي دعت إلى انتخابات لتوحيد شمال وجنوب فيتنام، كان كل شخص يعرف أن ديم سوف يسقط أمام هوشي منه، قائد فيتنام الشمالية، ولذا وقفت أمريكا مع عدم إجراء الانتخابات، إن نظرية الدومينو، التي كانت كتاب واشنطن المقدس، كانت تقول: إنه لو ذهبت فيتنام الجنوبية إلى الشيوعية، فإن كل جنوب شرق آسيا سوف يتبعها أوتوماتيكيا، ما الذي يمكنه بالضبط جعل هذه النظرية صامدة، مسألة لم تحظ بالشرح بصورة جيدة البتة، لكنها قادت سياسة الولايات المتحدة نحو الحرب مع فيتنام الشمالية، كنا مصممين في الحقيقة على "حمل أى عبء ودفع أى ثمن" حتى إننا صنعنا ما يبرر ذهابنا إلى الحرب، إننا نعرف الآن أن "هجوم" شمال فيتنام على المدمرة مادوكس، الذي استخدم كمبرر لقرار من الكونجرس بتفويض استخدام القوة، قد تسبب في ضرر محدود، ووقع فقط بعد أن أطلقت مادوكس النار أولا والبقية بالطبع قضية محزنة.

فى ١١ سبتمبر ١٩٧٣ (هذا هو ١١/٩ الذى نتذكره شيلى) عاونت الولايات المتحدة فى إرسال شرر الإطاحة بحكومة سيلفادور الليندى الاشتراكية المنتخبة

ديمقراطيا، ووضع ديكتاتورية عسكرية تحت قيادة الجنرال أوجستو بينوشيه، وقد اختفى ببساطة فى ظل هذا النظام آلاف الأشخاص فى ظروف عرفها العالم فيما بعد، ظروف بربرية مروعة، إن زانير، وإندونيسيا، وجمهورية الدومينيكان، ولبنان، واليونان، والفلبين، وتايوان، وتاييلاند وأفغانستان تشكل قائمة البلدان التى قلدت فيها الولايات المتحدة الحكم لديكتاتوريين، أو قدمت لهم دعما حيويا ليس هنا هو مكان مراجعة كل تلك الأحداث بالتفصيل. غير أن أربعة بلدان، تعود إلينا، تلازمنا بشكل خاص: إندونيسيا، إيران، أفغانستان والعراق.

أندونيسيا

إن أندونيسيا هى أكبر رابع بلد فى العالم، وأكبر البلاد الإسلامية، إنها تأتى كثيرا فى الأخبار اليوم نتيجة الحرب على الإرهاب، والهجمات الإرهابية فى "بالي"، كما يأتى ذكرها فى الأخبار أيضا، فى نهاية الخمسينيات وأوائل الستينيات نتيجة خوف الولايات المتحدة من أنها قد تذهب إلى الشيوعية، وأنها فى حاجة للحماية ضد الصين، وكان الأندونيسيون الصينيون أقلية صغيرة تعاني التمييز ضدها، وكانت الصين توفر بالكاد الغذاء لنفسها، وبدا مثيرا للدهشة أن يخاف أى أحد من الصينيين الذين فى أندونيسيا، لكن الحكومة كانت تخاف لأن سوكارنو، القائد الذى حصل على الاستقلال فى حرب مريرة ضد الهولنديين، رأى فى الرأسمالية نظاما يمتلك فيه الهولنديون كل شىء، والأندونيسيون لا شىء، فى بلادهم، فتبنى الاشتراكية، جنبا إلى جنب مع عدم الانحياز فى الصراع الأمريكى - السوفيتى المانوى^(*)، وقد أدى هذا التطور إلى ارتعاشات خائفة على امتداد "البوتوماك"، وقامت المخابرات

(*) أحد أتباع مانى الفارسى (٢١٦-٢٧٦م) الذى دعا للإيمان بعقيدة قوامها الصراع بين النور والظلام. (المترجم).

المركزية، فى عام ١٩٥٨، بتدريب أندونيسيين منشقين ومرتزقة فى قواعد فى القلبين، وجعلتهم يتسللون إلى أندونيسيا؛ حيث أسسوا، فى إيجاز، حكومة متمردين فى اتحاد مع بعض قادة جيش محلى منشق^(١٢)، وفشلت - فى النهاية هذه المناورة، وقوى سوكارنو وضعه، وجعل من نفسه رئيسا مدى الحياة، كذلك أمم بعض ممتلكات الولايات المتحدة، وأخرج أندونيسيا من الأمم المتحدة، ولم يضطرب عندما هاجم الرعاع بعثة "المعونة الأمريكية".

وفى سبتمبر ١٩٦٥، وقعت حادثة ضبابية غيرت اللعبة كلها، تقدمت فرقة من سلاح الطيران الأندونيسى، يشك فى أن لها روابط شيوعية، وأغار على منازل القيادة العليا للجيش، وقتلت ستة جنرالات، واستولت على محطة الإذاعة، وأعلنت أنها تنفذ البلاد من أن تستولى عليها وكالة المخابرات المركزية، وقد نجا، بصورة ما، الجنرال سوهارتو قائد الاحتياطى الاستراتيجى للجيش، وقاد هجوما مضادا، سحق به محاولة الاستيلاء على الحكم، وقد لاحظ مارشال جرين، سفير الولايات المتحدة، فى ذلك الوقت - "أن الجيش الأندونيسى يضم العديد من الناس الذين كانوا أصدقاءنا"^(١٣). وكان سوهارتو ضمن هؤلاء، وقد أمده أشخاص من السفارة بقوائم من الأسماء ساعدت الجيش على توقيع عقوبته، فى كل مكان^(١٤)، وأدى حمام الدم الذى تلا ذلك إلى قتل ٢٠٠٠٠٠ إلى ٥٠٠٠٠٠ ، وفى تعاقب سريع أعيدت ممتلكات الولايات المتحدة، ودُعى البنك الأمريكى للدخول، وحثت الولايات المتحدة صندوق النقد الدولى على توفير تسهيل ائتمانى لأندونيسيا قدره ٢٠٠ مليون دولار^(١٥)، وحطم سوهارتو، خلال الاثنى والثلاثين عاما التالية كل معارضة محتملة، وأقام حكما عسكريا صارما ممزوجا بمحاباة الأقارب، وتعلمت أجيال من ضباط الجيش الأندونيسى كيفية الإبقاء على المخالفين تحت السيطرة فى المدارس العسكرية الأمريكية، وأصبحت زوجة سوكارنو وأبنائه وبناته أثرياء ثراء خرافيا، وقد حصلوا على صناعات ورقعات عزب حقيقية ممتازة، لقد ترك الهولنديون أندونيسيا دون مؤسسات، ولم يُدخل سوكارنو أى شىء غير الجيش، ودربت الولايات المتحدة الجنود الأندونيسيين، لكنها فعلت القليل لتعزيز

مفاهيم مثل حكم القانون والديمقراطية، وفى عام ١٩٧٥، وخلال زيارة لأندونيسيا أخبر الرئيس جيراالد فورد وكيسنجر، سوهارتو أن غزوا لشرق تيمور، التى منحتها البرتغال الاستقلال حديثا، لن يلقى معارضة من الولايات المتحدة، ولم يكن مثيرا للدهشة أن تتحرك قوات سوهارتو فى الأسبوع التالى، إن المؤسسة الوحيدة التى كان يمكن أن يصدر عنها شىء مخالف، فى ذاك الوقت، كانت هى الجامع، كان الإسلام الذى تموله دولارات النفط العربى يتزايد، وكذلك تزايد انتشار الأصوليين.

وضُربت أندونيسيا، فى عام ١٩٧٧، بذات الأزمة المالية التى دمرت تايلاند، كانت الأزمة سيئة، غير أن وصفة البنك الدولى، الذى تقوده الولايات المتحدة، كانت أسوأ، طلب صندوق النقد الدولى، كشرط لتقديم قروض طارئة أساسية أن توقف أندونيسيا دعم الغذاء، وأن ترفع أسعار الفائدة، فى محاولة لحماية العملة من انخفاض قيمتها، كما أصدر توجيهاته أيضا بإغلاق العديد من البنوك، كانت الوصفات فى تعارض تام مع حاجيات الاقتصاد الاندونيسى، وللحال أغرق كل واحد ما لديه من روبايات (*)؛ مما جعل العملة تهبط بشدة رغم السقف العالى لمعدلات الفائدة، وسقط أكثر من ٢٠٪ من السكان فى الفقر بين عشية وضحاها، تقريبا، وأصبحت واشنطن قلقة، فى تلك الأثناء، من سوهارتو خاصة، وأن جيشه واصل إرهاب تيمور الشرقية، وأخيرا استدعت الأمم المتحدة القوات الأسترالية والنيوزيلندية لتهدئة الوضع الذى أوجده الجيش الأندونيسى، ومع إذعان الأساتذة المختصين فى واشنطن، وقادة حزب سوهارتو، دُفع به خارج المكتب فى مايو ١٩٩٨، وجرى هندسة تحول إلى إدارة مدنية، أجرت فى النهاية انتخابات، وبدأت فى تحقيق ديمقراطية.

وأدت التجارب السيئة للولايات المتحدة مع الجيش الأندونيسى إلى إنهاء تدريبها وبرامجها للاتصال المتبادل عام ١٩٩٨، لكن مع تطور الديمقراطية الجديدة، غدا

(*) العملة الاندونيسية. (المترجم)

واضحاً أن الأحزاب الإسلامية سوف تصبح قوية حتى إن الحكومة الأندونيسية سوف تواجه المتاعب، وهى ترسى دعائم النظام، وفى أعقاب ١١ سبتمبر بدأ بعض المسؤولين فى الولايات المتحدة الدفع من أجل العودة للتدريب ودعم العلاقات مع العسكريين. كنت فى ذلك الوقت تقريباً مسافراً فى أندونيسيا، وتناولت العشاء ذات ليلة مع سفير الولايات المتحدة ومجموعة من حوالى ثلاثين أندونيسياً، سياسيين، وأكاديميين، وقادة إعلاميين، وقد تأثرت بصورة خاصة بطلبهم من السفير الأمريكى عدم إعادة الارتباطات العسكرية، وأكفوا "أن ما نريده هو تدريب عمْد وضباط شرطة، وقضاة ومدرسين، وليس تدريب جنود"، كما طالبوا أيضاً الولايات المتحدة أن تتحمل عناء فهم احتياجاتهم، وبعد عدة أشهر تجددت على أى حال بعض الارتباطات العسكرية، وعندما التقيت بمسئول أندونيسى عالى المقام فى واشنطن، قال فى يأس إن الولايات المتحدة تنظر إلى أندونيسيا عبر منشور الإرهاب فقط، قال: "إنهم يودون منا أن نوقف غسيل الأموال، ولكن كيف يمكن فعل ذلك بينما نحن عاجزون حتى عن جمع الضرائب".

وبعد أشهر قليلة، قتل تفجير إرهابى لنادى ليلى عدة مئات من السياح؛ مما أوضح حاجة أندونيسيا إلى مواجهة الإرهاب جنباً إلى جنب مع حاجاتها الأخرى، ومع ذلك تردد الإندونيسيون فى العمل لأن الكثيرين منهم كانوا يؤمنون بأن عملية التفجير تلك قد نظمتها الوكالة المركزية للمخابرات كوسيلة لحث الرئيس، ميجاواتى سوكارنو بوتري، لاتخاذ إجراءات صارمة ضد النشاطات الإسلامية، وقد قال عضو برلمانى، فى حزب ميجاواتى: "سوف يكون فى مقدور الشرطة فقط تحديد الفاعلين فى الواقع، لكنها لن تكون قادرة على الكشف عن العقل المدبر وراء الهجوم، غير أننى أعتقد أن وكالة المخابرات المركزية متورطة فى هذه القضية"^(١٦)، وقد ردد آخرون لهم أهميتهم وجهة النظر هذه، قائلين: إن هناك احتمالاً أن تكون مخابرات أجنبية قد نظمت هذا الهجوم بفرض خلق "صورة معينة عن أندونيسيا"، بدا الأمر للأمريكيين جنونيا، لكن من الذى يستطيع لوم الأندونيسيين بالنظر إلى خبرتهم السابقة بوكالة المخابرات المركزية، والتلاعب الأمريكى؟

إيران

قاد محمد مصدق عام ١٩٥١ حركة سياسية إيرانية، عُرفت باسم الجبهة الوطنية، كان وطنيا غيوراً فلعب دوراً كبيراً في دفع السوفيت خارج إيران الشمالية بعد الحرب العالمية الثانية، والآن اقترح وهو رئيس لجنة برلمانية معنية بصناعة النفط - أن تدفع "شركة النفط الأنجلو إيرانية" رسم امتياز قدره ٥٠٪ من أرباحها، وكان هذا مماثلاً للتسويات بين شركات النفط الكبرى والعربية السعودية وفنزويلا، لكنه كان أكثر مما تدفعه الشركة، ورفضتها الأنجلو إيرانية، التي كان نصفها مملوكاً للحكومة البريطانية، مع ترتيبات تسويق خالصة مع "أكسون" و"مويل"، اللتين كانتا تحتكران إمدادات الشرق الأوسط، ولم يكونا يسمحان بأن يغير الإيرانيون الصفقة، وحث مصدق حينئذ البرلمان على تأميم الشركة، حركة لاقت قبولا عاما وجامحا عند الشعب الإيراني، غير أن شركات النفط الكبرى فرضت الحصار على إيران، ورفضت شراء أو تسويق النفط الإيراني، وعلقت الوضع على نوع ما من التسوية، وحاول مصدق بيع نفطه مدة عامين دون نجاح، وهبط الاقتصاد الإيراني، ومارست الولايات المتحدة ضغطاً على إيران بقطع المعونة عنها، رغم أنها كانت تواصل قضية ضد احتكار النفط محلياً، إن إيران وقد عجزت عن بيع نفطها، وتخبطت أحوالها المالية، بدأت تستدير إلى السوفيت طلباً للعون، كان المتوقع بالنظر إلى تاريخ الولايات المتحدة أن تقف صفاً واحداً مع الوطنيين الإيرانيين ضد الإمبرياليين البريطانيين، غير أن الخوف من النفوذ الشيوعي في إيران علا فوق كل اعتبار، ونظمت وكالة المخابرات المركزية انقلاباً، وثورة رعاع في طهران، وأعادت سلطة الشاه ريزا هليفي إلى عرش الطاووس، وتسلم للحال من واشنطن منحة قدرها ٤٥ مليون دولار لمساعدته في إعادة تثبيتته^(١٧)، و٨٥٠ مليون دولار أخرى خلال الست السنوات التالية جنبا إلى جنب مع مساعدة وكالة المخابرات المركزية والموساد في تنظيم وتدريب السافاك المروع، وهو الشرطة الإيرانية السرية^(١٨).

وقد رد الشاه هذا العطف بأن لعب دوراً أساسياً في أول رفع لسعر نفط الأوك في اجتماع طهران عام ١٩٧١؛ مما وضع أساس قاعدة الحظر ومضاعفة الأسعار أربع مرات في عام ١٩٧٣ - ١٩٧٤، والآن ومع النظر فجأة إلى النفط كسلعة استراتيجية، ومع تخفيض البريطانيين المطرد لوجودهم في الخليج الفارسي، بدأت واشنطن تحس القلق، فيما يتعلق بالمحافظة على استقرار المنطقة، وحيث إنها لم تكن راغبة في نشر قوات عسكرية أمريكية كبيرة، فقد استدارت إلى صديقها القديم، وثرى البترول الآن، الشاه باعتباره المحتمل القادر على التنفيذ الإقليمي، وأحب الشاه الفكرة، وطلب معدات عسكرية من الولايات المتحدة بمبلغ قدره ٨٠ مليار دولار (بسعر دولارات اليوم)^(١٩)، بدأ الأمر وكأنه صفقة كبرى، أصبح الشاه عميل أمريكا في الخليج، وحصلت الولايات المتحدة على صفقات بيع الأسلحة، يضاف إلى ذلك قول وكالة المخابرات المركزية من أن "مددا متواصلا ومتناميا من نفط إيران يبدو مؤكداً، مثل أى شيء آخر في عالم بلا يقين"^(٢٠).

كانت وكالة المخابرات المركزية، التي كتبت تلك الكلمات الباعثة على الراحة، لا بد أن تعي (وإن كانت لا تعرف بصورة خاصة) أن انفجاراً كان يستفحل في إيران؛ لأن شعبها المسلم الورع أصبح مستاءً، بصورة متزايدة من وحشية الأمريكيين الذين يدعمونه، وحدث في عام ١٩٧٩ أن قاد آية الله الخميني ثورة قوية أطاحت بالشاه، وطردت الأمريكيين، الشيطان الأعظم، وقبضت على سفارتهم والعاملين بها، وأسست جمهورية إسلامية باسم الله.

والآن على الولايات المتحدة أن تقلق من الإسلام الإيراني الراديكالي ونفوذه المعادي لأمريكا في الخليج الفارسي الجديد غير المستقر، تماماً مثل الوضع الإسرائيلي - الفلسطيني، الذي يتعقد بصورة متزايدة، وعندما قام الديكتاتور العراقي صدام حسين بغزو عبر المجري المائى شط العرب، ثم حقول النفط الإيرانية، في سبتمبر ١٩٨٠، رحبت الولايات المتحدة بالهجوم باعتباره شيئاً ما أرسلته العناية الإلهية، كما سأتناول في إيجاز.

أفغانستان

تبدأ قصة أمريكا وأفغانستان ليلة ٢٧ ديسمبر ١٩٧٩، عندما قعقت الدبابات والمدفعية وعربات النقل السوفيتية تحمل حوالى ١٠٠٠٠٠ من القوات إلى أفغانستان لتدعم نظاما شيوعيا مترنحا أشبه بالدمية، وقد فُسر هذا الغزو فى واشنطن، فى أعقاب سقوط الشاه وصعود آيات الله، ليس باعتباره مسيرة كارثية فى رمال متحركة، ولكن باعتباره تهديدا لمصالح الولايات المتحدة الحيوية، لقد خطا السوفيت خطوة نحو الخليج الفارسي ومضايق هرمز، التى يبلغ عرضها ٣٠ ميلا، ويضيق ممر الإبحار فيها إلى حد أن ناقلة بترول كبيرة غارقة يمكن أن تسد القناة التى يمر عبرها ٦٠٪ من النفط الذى تستخدمه الولايات المتحدة، وأوروبا واليابان، وقد وصف الرئيس جيمى كارتر، فى حديث أذيع فى التلفاز الوطنى، الغزو السوفيتى بأنه الأزمة الأخطر منذ الحرب العالمية الثانية، لم يكن واضحا سبب قوله ذلك؛ حيث لو أراد السوفيت وقف الملاحة حقا عبر المضائق لكانوا ببساطة أرسلوا غواصة كى تفرق ناقلة بترول، لكن دعك من هذا، فقد كان ذلك هو وقت مؤتمرات الحجرات حول الوضع المتوتر، والمشاورات الدولية على مستوى عال.

لم يكن هناك من سبيل للولايات المتحدة للتورط مباشرة مع القوات السوفيتية - كان احتمال التصعيد احتمالا خطرا للغاية، وكان للمشكلة من حسن الحظ حل أكثر يسرا، كانت أفغانستان بجبالها الوحشية وشعبها الجامع - مقبرة الجيوش منذ زمن الإسكندر الأكبر حتى زمن الملكة فيكتوريا، إن الأفغان الذين لم يهزمهم الأجانب قط، لم يعودوا يرحبون بالقوات السوفيتية، كما لم يرحبوا بالآخرين، لقد بدؤوا الرد بالحرب على نمط العصابات مستخدمين كل شىء من الفئوس إلى بنادق الأنفيلد، بنادق القرن التاسع عشر؛ حيث كانت النفس أكثر من راغبة، لكن الأسلحة كانت ضعيفة.

كانت تلك مشكلة يمكن لواشنطن أن تواجهها بسهولة، كما كان في وسعها المساعدة في الجانب الروحي، كان يحفز الأفغان، بالإضافة إلى رفضهم العنيف للأجانب، عقيدتهم الإسلامية، التي لم يكن ينكرها فقط الشيوعيون الملحدون من الاتحاد السوفيتي، لكنهم كانوا يشوهونها أيضا، وقد بذلت الولايات المتحدة جهدا في اتحاد مع باكستان؛ لتعزيز مقاومة المجاهدين المسلمين في مواجهة السوفيت، بدأ الأمر بشحنات أسلحة محدودة في يناير ١٩٨٠، وأخيرا أنفقت الولايات المتحدة ٥ مليار دولار على أسلحة للأفغان، بما في ذلك صواريخ مضادة للطائرات تطلق من الأكتاف، وبنادق مقاومة للدبابات^(٢١)، وطبعت آلاف الكتب المدرسية، وكتيبات التدريب، المزودة بالصور للطلبة الإسلاميين المناضلين وهم يهاجمون الأهداف السوفيتية، وأقاموا قواعد تدريب في باكستان للمقاتلين الإسلاميين في العربية السعودية، وأماكن أخرى، وقد اندفع هؤلاء أفواجا للدفاع عن العقيدة بالحرب مع الأفغان، وكان من بين هؤلاء أسامة بن لادن، واستجابت الحكومة السعودية أيضا لنداء واشنطن للمساعدة المالية، ووضعة في اعتبارها ألا يحتاج المقاتلون الأفغان إلى التمويل.

وغدت أفغانستان بالنسبة للسوفيت جرحا داميا هائلا، نالوا فيها ما يكفي، بعد عشر سنوات، فانسحبوا في فبراير عام ١٩٨٩، كمقدمة لانتهاء الاتحاد السوفيتي ذاته، وفرقت سدادات زجاجات الشمبانيا في البيت الأبيض، وفي المقر الرئيسي لوكالة المخابرات المركزية في لانجلي، فرجينيا، كانت تلك الحرب نجاحا تكتيكيا كبيرا، حتى إن كانت غير ضرورية.

لكن الاحتفال كان مبسرا، قاد النصر، بدعم من باكستان والولايات المتحدة، ضمنا على الأقل، إلى نظام طالبان القمعي الذي ينتمي إلى القرون الوسطى، في أفغانستان، كذلك أمد المقاتلين الإسلاميين العرب بالثقة، فعزوا نصرهم على واحدة من القوتين العظميين إلى تدخل إلهي، إنهم والله معهم لن يعجزوا عن فعل أي شيء، بما في ذلك هدم القوة العظمى الأخرى.

وبعد عامين، فى أعقاب حرب الخليج عام ١٩٩١ (فيما بعد بكثير) كان هناك ثلاثون ألف جندي من الولايات المتحدة فى العربية السعودية، كان الكثيرون منهم يقيمون فى القاعدة الكبرى "للأمير سلطان" جنوب الرياض، عاصمة السعودية، وقد أثار وجودهم، الذى بدا على ما يعتبره الكثيرون من المسلمين أرضا مقدسة، غضبا حادا بين المقاتلين الإسلاميين، ورغم أن أسامة بن لادن كان سليل أسرة سعودية ثرية، فإنه رأى فى الملكية السعودية وحكومتها عقبتين فاسدتين أمام طهارة الإسلام واستعادة أمجاد الثقافة القديمة، كانت الولايات المتحدة هى سند الحكومة السعودية ودرعها، كما يرمز إليها ذلك الوجود الهرطقى للقوات الأمريكية فى بلد مولد محمد، وصمم على ضرورة رحيل هذا الشيطان الثانى من القوى العظمى أيضا، وأنه بوجود الله إلى جانبه سوف يحقق ذلك، وولدت القاعدة، وحفرت اسمها فى صفحات التاريخ فى ١١ سبتمبر.

العراق

كان صدام حتى عام ١٩٨٠ معروفا بأنه شخصية غير مستساغة تماما، وكانت إدارة الخارجية قد وضعت العراق عام ١٩٧١ على قائمة الدول التى ترعى الإرهاب، وفى أواخر صيف ١٩٨٠، تم احتجاز ٥٠٠٠ عراقى كردى، لم يرههم أحد بعد ذلك مرة أخرى، وكتبت "إندبندانت لندن": "إنهم قتلوا فى تجارب غاز وأسلحة كيميائية"^(٢٢). كانت هذه الحادثة متناغمة مع وثائق وكالة مخابرات دفاع الولايات المتحدة، التى كانت تقول بحصول العراق على أسلحة كيميائية منذ منتصف السبعينيات^(٢٣)، لكن هذا لا يبعث على القلق، فالذين يقتلون هم فقط الاكراد والمتعصبين الإسلاميين الإيرانيين، يضاف إلى ذلك أن الحرب لا بد سوف تنتهى سريعا، لأن غالبية الأسلحة الإيرانية، مأخوذة من الولايات المتحدة، زمن الشاه، وهى الآن عاجزة لافتقادها قطع الغيار، غير أن الإيرانيين قاتلوا بهجمات من أمواج بشرية، وفى عام ١٩٨٢ لم يدفعوا بالعراقيين فقط خارج العراق، بل كانوا يندفعون إلى داخل العراق، وأمر الرئيس ريجان، وقد

خاف الآن من تهديد "جيش الله" أن يطيح بصدام، ويستولى على حقول النفط العراقي، أمر إدارته للدفاع ووكالة المخابرات المركزية بإمداد العراق بالمخابرات العسكرية بما في ذلك صور القمر الصناعي الجاسوس الخاص بالولايات المتحدة، وبالأسلحة الكافية لضمان ألا تخسر الحرب، وافتح الطريق أمام معونة الولايات المتحدة العسكرية، ورفع العراق من قائمة الدول الراعية للإرهاب رغم أن الإدارة الخارجية كانت تفيد بوجود دعم عراقي قوى لمجموعات إرهابية^(٢٤)، وفي نوفمبر عام ١٩٨٢ عرف جورج شولتز وزير الخارجية أن قوات العراق كانت تستخدم، على وجه التقريب أسلحة كيميائية يوميا^(٢٥).

ورغم ذلك، أرسلت الولايات المتحدة، في ١٩ ديسمبر - دونالد رمزفيلد - مندوبا عنها إلى بغداد ليخبر صدام بنية الإدارة استئناف العلاقات الدبلوماسية مع العراق، كذلك نقل رمزفيلد رسالة من إسحق شامير، رئيس الوزراء الإسرائيلي يعرض فيها المساعدة في الحرب ضد إيران^(٢٦)، وخلال السنوات التالية أعادت الولايات المتحدة فتح سفارتها في بغداد، وأرسلت وكالة المخابرات المركزية ضباطا عسكريين من الولايات المتحدة لمساعدة العراق في مختلف أوجه جهوده الحربية، وشحنت في مايو عام ١٩٨٦ دفعتين من "عصية الجمرة الخبيثة" جنبا إلى جنب مع شحنتين من "الجراثيم السامة" إلى وزارة التعليم العالي العراقية^(٢٧)، وقد علمت مخابرات الولايات المتحدة، في ذات الوقت تقريبا، بجهود العراق لصناعة صواريخ باليستية، لكن هذا لم يحل دون صادرات كمبيوتر، مرتبط بتطوير الصواريخ، من الولايات المتحدة إلى مركز البحوث العراقي.

ونقفز رأسا إلى عام ١٩٨٨ لنجد أن الإدارة التجارية للولايات المتحدة قد رخصت في يناير وفبراير بتصدير معدات إلى العراق لبرنامجها الصاروخي سكود، بينما استخدمت في مارس طائرات الهليكوبتر - بل -، التي أمدتها بها الولايات المتحدة في رش كيميائيات قاتلة على الأكراد العراقيين، سكان قرية "حلابجا"؛ مما تسبب في موت خمسة آلاف شخص^(٢٨)، وردا على التقارير المتزايدة عن استخدام العراق للأسلحة

الكيميائية خلال الصيف، قال الوزير شولتز: لم يكن هنالك دليل مقنع، وكتب ريتشارد مورفي مساعد وزير الخارجية أن "العلاقات الأمريكية العراقية هامة لأهدافنا السياسية والاقتصادية بعيدة المدى، إننا نؤمن أن العقوبات الاقتصادية لن تكون مجدية أو مضادة للإنتاجية في تأثيرها على العراقيين"^(٢٩)، وفي سبتمبر أقر مجلس الشيوخ بالإجماع قانون ١٩٨٨؛ لمنع الإبادة الجماعية جاعلا العراق غير جديرة بالحصول على قروض من الولايات المتحدة، وأية مساعدة عسكرية أو غير عسكرية، كما جعل أيضا استيراد النفط العراقي غير مشروع، غير أن إدارة ريجان بذلت مجهودا كبيرا لتقتل مشروع، القانون في مجلس النواب، ونجحت^(٣٠)، وفي مارس عام ١٩٨٩ أخبر ويليام ويبستر، مدير وكالة المخابرات المركزية، الكونجرس - أن العراق هو أكبر منتج للأسلحة الكيميائية في العالم^(٣١)، غير أن ذلك لم يمنع المصدر المتواصل لرخص تصدير معدات ثنائية الاستخدام إلى العراق، وقد وافقت إدارة بوش الأولى، منذ عهد قريب في يوليو ١٩٩٠ على مبيعات بحوالى ٥ مليون دولار، من معدات تكنولوجيا متقدمة إلى مراكز البحوث العراقية، وهي المعروفة بانغماسها في تطوير الأسلحة الكيميائية والنووية^(٣٢)، وكان واضحا أيضا أن صدام قد قرر في يوليو الحرب على الكويت، وقبل أن يتحرك حاول أولا أن يعرف كيف سيكون رد فعل الولايات المتحدة، فتقابل في ٢٥ يوليو، مع إيريل جلاسى، سفيرة الولايات المتحدة، التي زعمت له أن الرئيس بوش "يريد علاقات أفضل وأعمق، وأنه ليس لدينا فكرة عن النزاع العربي - العربي مثل الاختلاف على الحدود بينكم وبين الكويت"^(٣٣)، وتبع ذلك في أغسطس، الموافقة على بيع ما قيمته ٧٠.٠٠٠ دولار أمريكي تقريبا من أدوات نقل البيانات المتقدمة إلى العراق^(٣٤)، وفي ١٢ أغسطس اقتحمت القوات العراقية الحدود إلى داخل الكويت.

تصور دهشة صدام، عندما ردت الولايات المتحدة على عدوانه، وتشبيهه بهتلر، وتنظيم ائتلاف كوني، والقيام بعملية عسكرية، عُرِفَت باسم "عاصفة الصحراء" لوقفه تحت رعاية الأمم المتحدة، وعليك أن تتخيل أيضا ما الذي فكر فيه بالضرورة عندما

أوقفت قوات الائتلاف تدميرها لجيوشه في ٢٧ فبراير ١٩٩١ تنفيذاً لأوامر بوش، بل وأكثر من ذلك، تصور تفكير صدام عندما لم تفعل الولايات المتحدة وقوات ائتلافها شيئاً لوقفه من استخدام طائرات الهليكوبتر التي أمدته بها الولايات المتحدة كسفن حربية ليضع حداً للثورة التي حرض عليها الائتلاف كلا من الأكراد الشماليين والشيعة الجنوبيين، إن سبب هذه الخيانة التي اتسمت بالجبن كان واضحاً، إنه خوف الائتلاف من أن انهيار نظام صدام يمكن أن يقوى النفوذ الإيراني في المنطقة، وبذا استمر صدام حياً؛ لأن الائتلاف كان ما يزال يحتاجه كدرع ضد "آيات الله"، كذلك بقيت القاعدة الجوية الهائلة قاعدة الأمير سلطان ومنشأتها الإشرافية حية، مع الآلاف من قوات الولايات المتحدة التي كانت إدارة بوش قد وضعتها في العربية السعودية باعتبارها القاعدة الأجنبية الكبرى الأولى في هذا البلد، إن هذا الوجود ذاته هو الذي أثار أسامة بن لادن، فعاد ليزعجنا في ١١ سبتمبر وما بعد ذلك، وقد طلب قرار الأمم المتحدة ٦٨٧، بعد انتهاء حرب الخليج، من صدام تدمير أسلحته الكيميائية والبيولوجية، وبالمثل معدات تطوير الأسلحة النووية، وأن يسمح بالتحقق الخارجي من أنه قد نفذ ذلك بالفعل، وأقيم نظام للتفتيش تقوم به الأمم المتحدة جنباً إلى جنب مع مناطق مُنع الطيران فيها في شمال البلد وجنوبه، في جهد متأخر لحماية الأكراد والشيعة ولم تنجح أعمال التفتيش البتة نجاحاً تاماً في العثور على كل الأسلحة وتدميرها. وفرضت الأمم المتحدة؛ رداً على عدم التعاون العراقي عقوبات اقتصادية أدت إلى إفقار الكثيرين من السكان العراقيين، لكنها لم تحطم المزيد من الأسلحة، كما تمت تسوية أعمال التفتيش أيضاً بإدخال عملاء مخابرات الولايات المتحدة، وكذا بالمثل الزيادة التدريجية للعوائق العراقية، التي لم يفد تجسس الولايات المتحدة إلا في جعلها منطقية، وكانت الولايات المتحدة منفردة تطلق من وقت إلى آخر صاروخ كروز على المواقع التي تشتبه في وجود أسلحة عراقية بها، ولكن حدث وأبعد جمع المفتشين في عام ١٩٩٨ وظلوا بعيداً عن العراق مدة أربع سنوات.

أثارت أحداث ١١ سبتمبر قلقاً من أن سياسة وقف الانتشار، ربما لم تعد صالحة، إذا كان هناك تحالف بين صدام والمجموعات الإرهابية، التي يمكن للعراق في ظلها أن تنقل أسلحة الدمار الشامل إلى القاعدة، وسلطت إدارة بوش الجديدة التي احتوت العديد ممن احتفظوا بمفاهيمهم من إدارة بوش القديمة، سلطت الضوء بسرعة على صدام، وضرورة تغيير نظامه على أساس أن تحطيم نظام طالبان، في أفغانستان، في طريقه إلى النهاية، صدام يجب أن يذهب، هكذا قالوا لأنه استخدم من بين أشياء أخرى الأسلحة الكيميائية ضد الإيرانيين، بل وحتى استخدم الغاز مع شعبه هو. بدا واضحاً للغاية أن مثل هذا المثل الرديء يجب التخلص منه، حتى إن كبار مسئولى أمن إدارة بوش، قالوا له: ليس هناك حاجة لدعم من الكونجرس للقيام بفعل كهذا، وأخذ دونالد رمزفيلد نفس الرجل الذي سأل صدام، متوسلاً عام ١٩٨٢، إن كان هناك المزيد الذي يمكن أن تقدمه له الولايات المتحدة، يحث الآن وهو وزير للدفاع على هجوم فوري منفرد للولايات المتحدة، لتزيع هذه الشوكة من جانبنا بأسرع ما يمكن، وأدعى كأساس للهجوم ذريعة انتهاك العراق لقرارات التفتيش التي صدرت عن الأمم المتحدة، واتفاقية إنهاء أعمال العدوان عام ١٩٩١ وجادلت الإدارة بأن التهديد كبير حتى إنه يقتضى حرباً استباقية، ورداً على احتجاج كوني عنيف ضد مثل هذه الحركة، وكذا بالمثل معارضة محلية حقيقية، سعت الإدارة للحصول على القرار ١٤٤١، وحصلت عليه بتصويت إجماعي من مجلس الأمن، كما ذكر في الفصل الأول، وقد طالب هذا القرار صدام بتقديم بيانات كاملة عن كمية أسلحة الدمار الشامل، وأماكن وجودها، وأن يجعل معلوماته متاحة حتى يتحقق منها فريق جديد من مفتشى الأمم المتحدة.

وقد عكس الاحتجاج العنيف عدداً من الهموم، كانت هناك في الولايات المتحدة، معارضة شعبية كبيرة للذهاب إلى الحرب منفردين، ودون دعم من الأمم المتحدة، وكان هناك في الخارج خوف متنام من القوة الأمريكية مطلقة العنان، وأحس كثير من المراقبين في كل من الداخل والخارج أن العراق كان تهديداً أقل مما تحث عليه الإدارة؛

إن ليس لديه أسلحة نووية أو صواريخ باليستية، والدليل على روابطه بالقاعدة ضعيف للغاية، كان هناك قلق أيضا من أن غزو العراق سوف يسبب مشاكل أكثر مما يقدم حلولا، مثيرا اضطرابا كبيرا فى المنطقة، وربما فى العالم الإسلامى الأكبر، كما يقتضى احتلالا طويلا ومكلفا.

كانت البلدان العربية والإسلامية تؤمن - بشكل خاص - أن موقف الولايات المتحدة - كان مثالا آخر على المعايير الغربية المزدوجة، وهو قد وضع عربة العراق أمام حصان إسرائيل وفلسطين، لماذا من غير المقبول تجاهل العراق قرارات الأمم المتحدة، لكن ذلك حسنا تماما إن فعلت إسرائيل هكذا؟ لقد قالوا قبل الهجوم على العراق: إنه يجب القيام بجهد حقيقى لحل الموضوع الإسرائيلى - الفلسطينى، حتى إن كانت هناك، فى النهاية، ضرورة للهجوم على العراق، لا ينظر إليه فى العالم الإسلامى باعتباره هجوما على الإسلام لصالح المحتلين الإسرائيليين للضفة الغربية وغزة^(٢٥)، وفى مواجهة مثل ذلك النوع من الهجوم، كان تطبيق القرار ١٤٤١ مثيرا للنزاع بصورة رهيبة، وتقدم باول بطلب إلى مجلس الأمن لإصدار إنذار إلى صدام، عندما أوضحت النتائج النهائية أنها دون الإذعان العراقى التام، وبدلا من ذلك قدمت عدة بلدان بقيادة فرنسا وألمانيا خططا من أجل أعمال تفتيش مكثفة، غير أن الولايات المتحدة رفضتها. وعندما جرت محاولة تسوية فى مجلس الأمن وفشلت أصبح المؤكد هو تصميم الولايات المتحدة على الحرب منفردة، وفى صدام مع الآخرين من أنحاء العالم.

وكملاحظة أخيرة، فى هذا الجزء من الحكاية، فى إيران؛ حيث خشيت الولايات المتحدة أن تطأها مدة عشرين عاما، كان حكم "آيات الله" يترنح فى وجه المطالبات بالحرية من محبى الإنترنت، وشباب الجمهورية الإسلامية، الذى يغنى الروك، كما فى فيتنام تماما، كلما بعدت قواتنا وبنادقنا، كلما أحبونا أكثر.

الفصل الثامن

تأرجح الكلب: حكايتان

لقد ترددت طويلا قبل أن أبدأ الكتابة؛ لأن موضوعات هذا الفصل هي موضوعات ذات نشاط إشعاعي سياسى، غير أنه لا يمكن تجنب الأهمية الكبرى لإسرائيل وتايوان، لكل من السياسة الخارجية الأمريكية، وللمدارك الخارجية للولايات المتحدة، ورغم أن عددهما ضئيل للغاية - ٦,٢ مليون و٢٢ مليون على التوالي - فقد أحسست فى غالب الأحيان أن خلافات أمريكا مع العالم يمكن تناولها، إلى حد كبير، فى أربع كلمات: إسرائيل، تايوان، الدين، جماعات الضغط.

إسرائيل

لا يوجد موضوع تختلف فيه وجهات نظر الولايات المتحدة فعليا مع كل البلدان الأخرى، أكثر من ذلك الذى يدور حول إسرائيل ونزاعها الذى لا ينتهى مع الفلسطينيين، ولا يوجد أكبر منه مصدراً للعزلة بيننا وبين الآخرين، وأصبح الاختلاف واضحا للغاية فى ربيع وصيف ٢٠٠٢، عندما أمر أرييل شارون رئيس وزراء إسرائيل جيشه - أن يقوم بأعمال انتقامية فى غزة والضفة الغربية؛ ردا على تصعيد التفجيرات الانتحارية الفلسطينية، وقد أثار ما سببه من دمار ضجيجا عالميا، ورغم تحدى رئيس الوزراء للطلبات الرئاسية المتكررة بانسحاب إسرائيلى، فإن بوش قال: إنه يواصل دعمه لشارون، وأطلق عليه اسم "رجل السلام"، وفى ٢٤ يونيو ألقى الرئيس حديثا.

عامرا بالتوقع دعا فيه إلى إقامة نهائية لدولة فلسطينية إلى جوار إسرائيل، غير أنه جعل هذا الحدث مرهونا بوقف الهجمات الإرهابية، وعلى إجراء الفلسطينيين لانتخابات لاختيار قيادة جديدة، القادة الحاليون (مثل ياسر عرفات) يشتهب فيهم كإرهابيين، ورغم أن الحديث أشار، بالمناسبة إلى انسحاب إسرائيلي، نهائي، فإنه كان واضحا أن المسؤولية تقع على الفلسطينيين للتغيير، إن شاعوا مساعدة الولايات المتحدة لتعزيز عملية السلام، واصطف قادة الكونجرس وراء الرئيس، ويقول ريتشارد جيفاردت القائد الديمقراطي: "سوف نقف مع إسرائيل"، ويقترح ميتش مك كونييل، السيناتور الجمهوري إصدار تشريع يصنف، منظمة التحرير الفلسطينية، رسميا، كمجموعة إرهابية، وأنهى الرئيس حديثه نهاية ذات مغزى، بفقرة من الكتاب المقدس "لقد وضعت أمامك الحياة والموت، ومن ثم، اختر الحياة".

إن بوش وهو يستخدم مرجعا توراتيا إنما يعكس تفكير غالبية الأمريكيين الذين تجسدت أراؤهم بقوة عن إسرائيل وفلسطين من "العهد القديم" أو قصة "التوراة" عن الأرض التي وعد الرب بها اليهود، إن الأمريكيين مسيحيون ويهود يميلون إلى النظر إلى إسرائيل كورثة لذلك العرف، مع حق تاريخي قديم في أرض إسرائيل الحالية، على الأقل، وربما في أي شيء آخر تضمنته الخريطة التوراتية.

كما يرى الأمريكيون أيضا أن إسرائيل جملة أشبه بأمريكا - أمة مهاجرة، ملاذ للمقهورين، مجتمع من المستوطنين الرواد، بلد قوى وشجاع يرغب في القتال من أجل الحق، ديمقراطية يحكمها القانون (الوحيدة هكذا في الشرق الأوسط) وواحة من مستهلكي الثقافة الغربية، بطريقة أو أخرى، في صحراء معزولة، وهناك بالطبع أيضا العديد من الأمريكيين في إسرائيل، إن الارتباطات وثيقة بما يكفي حتى إن إسرائيل بالنسبة للكثيرين من الأمريكيين شيء ما مثل الولاية الحادية والخمسين، إن الهجمات الإرهابية تتناولها وسائل الإعلام، في الولايات المتحدة بصورة واسعة، وسرعان ما تقارن، كما جاء في حديث بوش بهجمات القاعدة على "المركز التجاري العالمي" والبنيتاجون، رتفسر باعتبارها تهديدا موجودا بالفعل، إن وسائل الإعلام في الولايات

المتحدة حساسة للغاية، فيما يتعلق بالنقد الذي توجهه إسرائيل لأعمال التغطية التي يقومون بها، حتى إن سى إن إن، اعتذرت بالفعل في أول موقف تاريخي لها؛ استجابة لشكاوى من أن تقاريرها عن المعارك الإسرائيلية الفلسطينية في مدينة "جنين" كانت موالية للغاية للفلسطينيين^(١)، وتحظى الهجمات الإسرائيلية على الفلسطينيين بانتباه أقل، وتقبل بسهولة باعتبارها دفاعا شرعيا عن النفس، إن الحرب الإسرائيلية ينظر إليها باعتبارها حربا أمريكية.

أما رؤية البلدان الأخرى فهي مختلفة تماما؛ إذ بينما يدينونهم، فإن القليلين، خارج الولايات المتحدة، يرون أن الهجمات الإرهابية الفلسطينية على إسرائيل ذات صلة بالقاعدة، إن خوف بعض المحللين في أوروبا من أن الضغط الإسرائيلي المتواصل على المناطق الفلسطينية، يمكن أن يولد تحديدا انصهار أعمال الإرهاب؛ الأمر غير المرغوب فيه إلى أقصى حد، وقد قال مطران أورشليم اللوثرى؛ تعليقا على أعمال إسرائيل الثأرية: "يبدو أن هذه ليست حربا ضد الإرهاب، إن هذه تبدو حربا ضد أمل ومستقبل الشعب الفلسطيني"^(٢)، ثم ذهب إلى حد إضافة أن الاستخدام الإسرائيلي لأسلحة الولايات المتحدة، وتقارب ارتباطات الولايات المتحدة - إسرائيل تعطي أحيانا الانطباع بدعم الولايات المتحدة لهذه الحرب.

هذه هي الرؤية السائدة في الكثير من أنحاء العالم، كنت مسافرا في آسيا أثناء أعمال إسرائيل الانتقامية، والمشاهد المعروضة في التلفاز، في اليابان، في سنغافورة، في ماليزيا، وفي أندونيسيا - جعلت الـ سى إن إن تبدو أحادية الجانب، منحازة إلى إسرائيل، إن صور الهليكوبترات التي أمدتها بها الولايات المتحدة وغيرها من الأسلحة وهي تستخدم ضد المدنيين الفلسطينيين، وصور شارون وهو يتحدى طلب بوش بانسحاب القوات الإسرائيلية، أوجد انطبعا معاديا بعمق لأمريكا في كل مكان، وكذا فعل وصف شارون بأنه رجل سلام، ومن المعروف على نطاق واسع أن شارون هو واحد من أشد الصقور الإسرائيلية عنفا، وله تاريخ عنيف مع الفلسطينيين، ومعارض لمبادرات السلام، قال داتو جوهر بن حسان، القائد الماليزي

والكاتب: كيف يمكن لبوش أن يطلق على رجل مثل هذا، رجل السلام؟ إن المسلمين المتعاطفين مع أمريكا أمثالي، بدؤوا يفكرون في أمريكا بطريقة سيئة؛ لأنها تتجاهل القهر الإسرائيلي.

وقد لاحظت الإيكونوميست أن "صحف الولايات المتحدة لا تنشر ما يجري من تجريف إسرائيلي لمنازل الفلسطينيين، وأن الولايات المتحدة لا تعترف بمدى مسئوليتها عن ذلك باعتبارها من يقوم بتسليح إسرائيل"^(٣)، كان كل من يحدثني، في كل مكان ذهبت إليه، سرعان ما يذكر المعايير المزدوجة، "إذا كانت أمريكا منزعجة إلى هذا الحد، فيما يتعلق بأسلحة الدمار الشامل، فلماذا لا تعترض على ترسانة إسرائيل النووية؟"، لماذا تصر أمريكا على أن تطيع بعض البلدان - بصرامة، قرارات الأمم المتحدة بينما لا تذكر أى شيء عن تحدى إسرائيل لقرارات الأمم المتحدة؟ "الولايات المتحدة تصر على أن تكون بعض البلدان ديمقراطية، غير أن إسرائيل في الحقيقة ليست ديمقراطية".

هناك بوضوح انفصال كبير، وهناك تفسيران محتملان: الأول صدر قريبا عن شارون، الذى أطلق على النقد الأوربي لإسرائيل صفة المتحيزة (متضمنا أن ذلك كان عدا للسامية)^(٤)، ولكن ربما كان ذلك تحيزا كونيا ضد إسرائيل، الاحتمال الثانى هو أن إسرائيل والولايات المتحدة معزولتان بسبب هذا الموضوع لأسباب جيدة، وبينما لا يوجد شخص قادر على أن يكون مثاليا بصورة مثالية، دعنى، كواحد ما له خبرة فى الحياة مع العديد من أفراد مختلفين، أحاول على الأقل تقديم وجهة نظر أكثر توازنا، من واحد يرى "فوكس نيوز" أو "لوموند".

تل أبيب وأورشليم

وصلت إلى مطار بن جوريون، فى تل أبيب، فى ٢٧ سبتمبر عام ٢٠٠٢، وكان هناك حتى بالنسبة للأمريكيين إجراءات أمن محكمة، بما فى ذلك الفحص المزدوج

لجوازات السفر، رغم أن إسرائيل هي المكان الوحيد الذي لا يجد المرء فيه أوقية عداء واحدة للأمريكانية، كان هناك تفجير انتحارى آخر منذ بضعة أيام مضت، فى سيارة ركاب تابعة للبلدية فى قلب المدينة؛ مما تسبب فى مقتل خمسة أشخاص، وإصابة خمسين آخرين؛ ومرت سيارة التاكسى التى أستمّلها، ونحن فى الطريق إلى الفندق، عبر شارع النبي، قرب المكان الذى فجرت فيه السيارة إلى أجزاء، لم يكن هناك أية علامة تدل على الانفجار، وكانت أرصفة المشاة مليئة بالناس يتسوقون ويرشفون الكابوتشينو، وكأن شيئاً لم يحدث، غير أن كل امرئ كان يعرف أن شيئاً قد وقع، وأن ذلك قد حدث تماماً بعد يوم واحد من هجوم انتحارى آخر قتل شرطياً فى شمال إسرائيل، وكانت تلك هى الهجمات الأولى بعد ستة أسابيع من السكون، تلت الاحتلال الإسرائيلى للضفة الغربية وقطاع غزة، وحديث بوش فى يونيو، حدث ذلك فقط حتى يكون هناك يقين من أن كل امرئ قد فهم أن خطاب الرئيس وتكتيكات شارون العسكرية لم تغيرا من الأمر شيئاً، وادعت "الجهاد الإسلامى" و"حماس"، وهما منظمتان فلسطينيتان متطرفتان مسئوليتيهما عن الهجمات الجديدة، ووعدا بالمزيد منها، ونظرت إلى الشارع الأنيق ونشاطه الذى لا يضير، وكان على أن أتساءل: أى أناس يمكن أن يعلنوا بالفعل أنهم قد قاموا بمذبحة جماعية فى الضحايا، وينشغلون وهم سعداء فى البحث عن صفقة، وقد سارع عرفات، وسلطته الفلسطينية (بى إيه) لتقول: إنه لا علاقة لها بما جرى، غير أن قليلين فى إسرائيل أو الولايات المتحدة صدقوه.

إن الانطباع الأول، لمراقب عابر دون قصد - تتحكم فيه مشاهد الفرع التى تذيعها الـ سى إن إن، عن الحياة الإسرائيلية - هو أن هناك هواءً يثير الدهشة، لا شك أنه فى كل مبنى مكون من مكاتب أو فندق قوة أمن، تنتظر إليك، عندما تدخل بنظرات قاسية، وأجهزة كشف عن المعادن، وجوازات مرور خاصة فى كل مكان، ومكاتب الحكومة تبدو مثل القلاع، غير إن مثل تلك الإجراءات الأمنية، بالنسبة لأى امرئ قام بقدر كبير من السفر العالمى بافتراض وقوعها على أى نحو، تبدو معتدلة بصورة تثير

الدهشة، إن تل أبيب تبدو كنسخة بحر متوسطة لسانتا مونيكا، وتشرع فى القيام بعملها، بنفس الطريقة بلا كلفة، وقد نقطتها الشمس، الشوارع مسدودة والستاريكس(*) الموجودة فى كل مكان، المملوءة بما يكفى - تصيب المرء بالحيرة حول تقارير الصحف عن البطالة التى بلغت ١٠٪، وعن ترحيل العمال الأجانب غير الشرعيين. إن تل أبيب وأورشليم لا تبدوان مثل مناطق حرب فى بلد يعيش على الصدقات.

لكن ليس عليك أن تحفر إلى عمق كبير جداً؛ كى تعثر على دلائل حياة قلقة مضطربة، كانت جريدتى الصباحية "جيروسالم بوست" تعرض نتائج اقتراح قامت به يوضح أن ٦٠٪ من الإسرائيليين يؤمنون أنهم فى حرب دفاعاً عن وجودهم ذاته^(٥)، وكانت الضجة الخلفية سيلاً من التقارير حول العنف، الأخبار اليومية النموذجية تحتوى هنا على قصص عن عجز عربية تبلغ الخامسة والتسعين، قُتلت بالرصاص وهى فى سيارة أجرة، فى الضفة الغربية، وتفجير انتحارى آخر فى أورشليم، وتدمير بيوت الفلسطينيين انتقاماً من هجمات مبكرة على إسرائيليين، ومنع إسرائيلى عربى ناجح لمحاولة نسف سيارة ركاب فى الضفة الغربية، إن هذا يخلق حالة دائمة من القلق، كان زميلى فى الغداء خائفًا بصورة واضحة، أكلنا فى سرعة وغادرنا المطعم، وأخبرنى إذ ذاك أن هناك من كان يتناول الطعام فى المائدة المجاورة، جعله عصبياً.

ورغم الضجة والنشاط، فإن الوضع الاقتصادى كارثى، سجلت اسمى فى الماريوت وهو فندق كبير، به أكثر من سبعمائة غرفة، تطل على جزء من المدينة القديمة، لقد أطلقت النيران هنا على وزير النقل الإسرائيلى، منذ شهور قليلة مضت، واكتشفت أننى ربما أكون واحداً من عشرة ضيوف، المطعم مغلق إلا لتناول إفطار كوينتيننتال،

(*) محلات لشرب القهوة. (الترجم)

وقد تمت جولة فى جبل الزيتون، فيما بعد، بانوراما رائعة للمدينة ومعالمها: الأقصى، الحائط الغربى، المدينة القديمة، وغير ذلك كثير، إنه واحد من أعظم المناظر فى العالم. إن السياحة تقدم أكثر قليلا من ٣٪ من إجمالى الناتج المحلى الإسرائيلى، وهذا هو ما يجىء السياح لرؤيته، إنتى وحيد باستثناء بعض الصبية البائسين العرب الإسرائيليين الذين يطنون حولى، ويحاولون بيع هدية ما إلى، وقاومت حتى سمعت أحدهم يهمس للآخر همسة مسرحية^(٥)، "إنه أمريكى، وهو إن يشتري لأنهم يكرهوننا"، انتابنى إحساس بالرقه، واشترت خريطة وكتابا، من الواضح أننى ساكون كل ما ياكلونه الليلة، وهم لا يبالون إن كنت سأترك تلك الأشياء فى الفندق.

غير أن صفقتى الصغيرة المثيرة لن تفعل شيئا للاقتصاد الإسرائيلى، هناك تكهن بانكماشه ٣٪ تقريبا هذا العام، كما أنه يعانى تضخما قيمته ٨٪^(٦)، ورغم أن الدين الحكومى هو الثانى فقط بعد اليابانى، مع انخفاض التقديرات الأهلية الائتمانية، فإن الحكومة الإسرائيلية تطلب ضمانات من الولايات المتحدة لمزيد من القروض، جنبا إلى جنب مع ٤ مليار دولار مساعدة عسكرية جديدة، حوالى ٦٤٥ دولارا لكل إسرائيلى، إن الإبقاء على منشأة عسكرية، واحتلال الضفة الغربية وغزة يُبقى جزءا كبيرا من السكان مقيدى بتزويد نقاط التفتيش بالرجال، واستئصال الإرهابيين، وحماية المستوطنين، إن العبء ثقيل، ويصعب تحمله دون عون الولايات المتحدة، وكما قال لى جيمس بنيت من "النيويورك تايمز": إن الاقتصاد الإسرائيلى لا يمكن حساب إجمالية، لكن كل التناقضات مستترة وراء القتال، تدعمها منح وهبات خاصة ورسمية من الولايات المتحدة، هذه هى إسرائيل المحصنة المحاصرة التى تشبه الشعور الأمريكى كثيرا.

(٥) همسة عالية يسمعها النظارة ولا يسمعها المثلون الآخرون. (المترجم)

المستوطنون الإسرائيليون والعرب الإسرائيليون

هنالك أغلبية من الإسرائيليين تقول: إنهم يقاتلون من أجل وجودهم ذاته، وهنالك العديد ممن لديهم معنى مختلف للوجود فى عقولهم، إن إحدى القوى القوية هى المستوطنون الإسرائيليون، لقد قامت إسرائيل فى حرب الأيام الستة عام ١٩٦٧ بهجوم استباقى على الجيوش العربية التى تهددها فى مصر وسوريا والأردن، أدت إلى احتلالها الضفة الغربية من نهر الأردن، وأوشليم الشرقية، وقطاع غزة وصحراء سيناء، وقاىض الإسرائيليون سيناء بالسلام مع مصر عام ١٩٧٩، غير أنهم قبضوا بقوة على الباقي، فى انتظار اتفاقيات سلام مع الأطراف الأخرى، والتى عليها أن تتحقق ماديا، لقد فعلوا فى الحقيقة أكثر من القبض بقوة على الأرض، لقد ألحقوا شرق أورشليم، بمواقعها التاريخية المقدسة عام ١٩٦٧، ونقلوا عاصمتهم من تل أبيب إلى أورشليم بهدفين فى حسبانهم: إقامة حزام أمنى ضد الهجمات المستقبلية، ولتحقيق التصنيف التوراتى لفلسطين، باعتبارها الأرض التى وعد الله بها اليهود. ومنذ بدايتها، كانت تلك المستوطنات مصدر نزاع وخلاف كبير، إن غالبية الخبراء يعتبرونها غير شرعية، طبقا لمواد اتفاقية جنيف الرابعة التى تشترط أنه ليس فى وسع أية قوة محتلة أن تلحق أرضا محتلة، أو توزيع جزءا من سكانها إلى المنطقة المحتلة، إنها أيضا تنازع قرارات الأمم المتحدة ٢٤٢، ٣٣٨، التى تطالب إسرائيل بالانسحاب من الاراضى المحتلة، فى سياق اتفاقية سلام نهائية، إنهم أيضا يتحدثون طلبات أى رئيس للولايات المتحدة من جيمى كارتر إلى الرئيس الحالى بوش، وخداعهم خلال السنوات القليلة الماضية، التى كانت دون شك فى انتهاكهم لروح تعهدات عملية أوسلو للسلام عام ١٩٩٣، إن لم يكن انتهاكها حرفيا.

والأكثر أهمية أن المستوطنات تعنى أخذ الأرض من الفلسطينيين، وإقامة نقط تفتيش ومداخل خاصة للطرق، وعمل مئات الأشياء الأخرى التى تسببت فى الاحتكاك بين الإسرائيليين والفلسطينيين، لقد كانت المستوطنات فى البداية قليلة وصغيرة، واستراتيجية فى الغالب، ولكن فى ظل رئيس الوزراء مناحم بيجين ووزير الزراعة

أريل شارون عام ١٩٧٧، قام حزب الليكود برعاية جهد كبير لتوسيع المستوطنات، كان ييجين مؤمنا صلبا بما أسماه "إرتيز إسرائيل" أو "إسرائيل الكبرى"، بمعنى كل أراضى فلسطين التى كانت "تحت الانتداب"، وبدأت الحكومة الإسرائيلية فى تقديم حوافز مالية للمستوطنين، مقدمة لهم الإيواء وأشياء أخرى للمتعة والراحة، أشياء لا يستطيعون شراؤها أبدا فى إسرائيل الأصلية. ونما سكان المستوطنات، نتيجة ذلك، من آلاف قليلة، فى أواخر السبعينيات، إلى حوالى ٤٠.٠٠٠ تقريبا اليوم^(٧)، إن الأراضى الكلية التى بلغت المستوطنات، بما فى ذلك مناطق عسكرية، ومداخل خاصة إلى الطرق، تقدر بحوالى ٤٢٪ من الضفة الغربية.

إن المستوطنين، ومن يساندونهم، يتكونون من مجموعتين من الناس، مجموعة منهما ذات دافع دينى، وكثرة هذه المجموعة جاءت من الولايات المتحدة يساندها المسيحيون الأصليون مثلما تساندهم المنظمة اليهودية، وقد أحسن أحدهم التعبير عن وجهة نظرهم لـ مولى مور من "الواشنطن بوست"، "لا يمكن أن يكون هناك سلام، حتى تصبح كل أراضى إسرائيل لشعب إسرائيل، كما جاء فى الوعد، فى الكتاب المقدس"^(٨)، والمجموعة الأخرى مجموعة ذات توجه أكثر مادية، ويمثلها المستوطن الذى أخبر مسز مور أن المشكلة ليست فيما إذا كانت المستوطنات شرعية أم غير شرعية، المسألة هى إذا ما كان على المرء أن يترك تلك التلال للعرب، أم إذا كان اليهود سوف يعيشون عليها. هذا هو الموضوع، إن مشكلة الشرعية مشكلة ثانوية، وفى كلتا الحالتين فإن المستوطنين قوة قوية، وأن الوجود الذى يقاتلون من أجله هو اندماج الضفة الغربية، وربما غزة، فى إسرائيل الأصلية.

إن أغلبية الإسرائيليين لا يقاتلون من أجل وجود المستوطنين، إن اقتراحا وراء اقتراح قد بيّن أن أكثرية ترغب فى الانسحاب من غالبية المستوطنات، وردها إلى الفلسطينيين فى مقابل سلام حقيقى دائم، إن أغلب الإسرائيليين يرغبون فى الحياة داخل حدود إسرائيل عام ١٩٦٧، مع تعديلها تعديلا محدودا، وراء جدار يفصل إسرائيل عن الضفة الغربية، وهو خط تحت الإنشاء بالفعل، غير أن الكثيرين لا

يصدقون أن الفلسطينيين راغبون في إخراج إسرائيل من الضفة الغربية وغزة، إنهم يعتقدون أن الفلسطينيين لن يكونوا راضين حتى تتحطم إسرائيل.

إن هذا الاعتقاد قد شحّب ويهت، فبعد أن بدأت عملية أوصلو للسلام في سبتمبر عام ١٩٩٣، مع مصافحة تاريخية بين رئيس الوزراء الإسرائيلي إسحق رابين، وقائد الفلسطينيين ياسر عرفات على مرجة البيت الأبيض، كانت هناك موجة من الشعور بالخفة والنشاط، وأمل تضاعف تدريجياً مثل عقبات الطرق، ظلت تبرز، واقعياً ومجازياً، دون توقع، وبدأ أن اجتماعات كامب دافيد، ثم طابا في مصر، قد اقتربت في صيف وخريف عام ٢٠٠٠ من تحقيق تسوية، وانتفخ الأمل مرة أخرى، كان انهيار هذا الجهد هو الذي غمر الإسرائيليين بالمزاج الحالي من التصميم الشرس، إن الرأي الذي يؤمنون به في إسرائيل بقوة هو أن إيهود باراك، رئيس الوزراء قد قدم لعرفات صفقة لم يستطع رفضها في كامب ديفيد، وتم تحسينها في قاعدة بولينج الجوية، في ديسمبر ٢٠٠٠، ثم أضيف الكرّز على قمّتها في طابا في يناير عام ٢٠٠١، وطبقاً لكل من باراك والرئيس كلينتون، فإن عرفات لو كان قد أجاب بـ "نعم"، لكان حصل على انسحاب من كل المستوطنات تقريباً، ودولة فلسطينية عاصمتها القدس الشرقية، و٩٧٪ من أراضي الضفة الغربية، والسيادة على الحرم الشريف (جبل الهيكل) وحق العودة إلى الدولة للاجئين من حرب ١٩٤٨، التي أنشأت إسرائيل، وبدلاً من ذلك، كما يقال: رفض عرفات بالفعل، وأطلق العنان للتفجيرات الانتحارية للانتفاضة الثانية، إن هذا الرفض هو الذي يكمن وراء نتيجة المقاومة القائلة: إن الهدف الحقيقي للفلسطينيين هو التدمير النهائي لإسرائيل، إن المحرر والكاتب يوسى كلين هاليفي قد أخبرني: "كانت هذه هي القشة الأخيرة بالنسبة إليّ، أنت تعرف أنني كنت أعتقد في البداية أنه ليس هناك من أمل في السلام، ثم بدأت في تقبل بعض النقاط الفلسطينية، وأؤمن بإخلاصهم، غير أن هذا أنهى الأمر، ليس لدينا خيار غير أن ندافع عن أنفسنا، وطرحت إشارة ما في حيفا نفس القضية: "إننا الآن جميعاً مستوطنون"، إن غالبية الطيف السياسي المتوسط تشعر أن الفلسطينيين لم يتركوا لإسرائيل خياراً غير أن تلقى بكثرتها مع المستوطنين.

بدأ البعض - على أية حال - يسألون سؤالاً سوف نعود إليه، هل أدى التوسع المتواصل للمستوطنات على الجانب الفلسطيني إلى فقدان ثقة ويأس مماثل يغذى الهجمات التي يؤمن الإسرائيليون أنها لم تترك لهم غير اختيار الوجود؟ هل يمكن أن تكون صقور إسرائيل الكبرى - كما يرى بعض المحللين الإسرائيليين - هم الذين أثاروا النزاع لجعل الفلسطينيين راديكاليين، حتى تتوحد إسرائيل وراء القتال الوجودي؟ هل الأمر، كما سأل إسرائيلي مسالم، هو أنهم يريدون كل الأرض، ولكن دون فلسطينيين؟

إن هذه المناقشة تطرح وجهين حاسمين آخرين من المشكلة الوجودية: أحدهما خاص بالحفاظ على "الدولة اليهودية"، إن هذه النقطة غير مفهومة جيداً في الولايات المتحدة، إن المرء يسمع في إسرائيل عبارة الدولة اليهودية كثيراً، حتى إنها تكاد تكون صدى للتعريف الإسلامي للعديد من الدول العربية، إن النقطة الكلية للحركة الصهيونية، التي قادت إلى تأسيس إسرائيل كانت بعد كل شيء، هي إنشاء بلد لا يضطهد فيه اليهود؛ لأنه سيكون بلدهم، وتحت سيطرتهم، اليوم تدخل هذه السيطرة في نزاع متزايد مع الديموجرافيات المحلية، في كل من إسرائيل الأصلية، وفي الأراضي المحتلة، إن مواطني إسرائيل يشتملون على خمسة ملايين يهودي و ١,٢ مليون عربي، غير أن العرب يتكاثرون بسرعة أكبر بكثير من اليهود، كان هذا النقص وأكثر يُغطى بالهجرة، غير أن هذه تضاعفت كثيراً بسبب النزاع المتواصل، وكذلك بسبب ارتفاع مستوى المعيشة في أماكن مثل روسيا، ومن ثم، فإن أكثر وأكثر من الإسرائيليين يحتمل أن يكونوا عرباً.

إن هذه النظرة طرحت أسئلة موجهة؛ إن اندمج العرب الإسرائيليون كلية في المجتمع الإسرائيلي، فإنهم سوف يخفون بالحثم مفهوم الدولة اليهودية ويتحدونه، وإن لم يحدث دمجهم بالكامل، فإن الاستنتاج الحتمي سوف يكون وجود نوع من حكم الأبارتهيد الذي هو معاد للقيم الأصلية لليهودية ولدولة إسرائيل، ومع ذلك، فإن ما ينذر بالسوء هو أن يسمع المرء في إسرائيل وبصورة متزايدة أحاديث عن

"النقل"، بمعنى نقل العرب الإسرائيليين إلى خارج إسرائيل، إن لهذا صدى لا يبعث على الراحة مثل التطهير العرقي، إن المستوطنات وحدها تجعل هذا الموضوع أكثر تعقيدا، هنالك في الأراضي المحتلة، ٣,٥ مليون فلسطيني آخر، هم أيضا يتكاثرون بسرعة أكبر بكثير من الإسرائيليين اليهود، وهناك تقدير أنه في عام ٢٠١٠، سوف يكون الذين يعيشون في فلسطين القديمة تحت الانتداب، من العرب الإسرائيليين والفلسطينيين أكثر من اليهود^(٩)، وإذا كانت المستوطنات سوف تبقى وتتوسع، فما الذي سيكون عليه وضع الفلسطينيين، وهم الآن أغلبية في إسرائيل الكبرى؟ وكما قال لي بروفيسور إسرائيلي: "لو كان عرفات ذكيا لرفض فكرة الدولة الفلسطينية، ولقال: إن الفلسطينيين يودون أن يكونوا إسرائيليين على أساس أن الشخص الواحد له صوت واحد".

إن هذه النظرة تحديدا هي التي قادت رابين رئيس الوزراء أن يبعث من جديد بياسر عرفات في المنفى في تونس عام ١٩٩٣ وبيادر "بعملية أوسلو للسلام" مع عرفات باعتباره محاوره الرئيسي، لقد رأى أن دولة يهودية ديمقراطية يمكن أن تكون قابلة للحياة فقط كإسرائيل صغيرة، مع بعض التعديلات لحدود ١٩٦٧، كان في حاجة إلى هوية فلسطينية ولشخص ما يمكن أن يصنع السلام معه، وكان عرفات، بكل نتوءاته هو الاختيار الممكن الوحيد.

ويقود ذلك إلى السؤال الأخير. إن وضع الإسرائيليين حتى في إسرائيل الصغيرة، سواء كانت إسرائيل دولة علمانية أو يهودية، يثير أسئلة حارقة؛ يقول ليف جرينبرج: إن إسرائيل، بأي معيار، ليست ديمقراطية، إن هذه مغالاة هائلة. إن إسرائيل بالنسبة لمواطنيها هي واحدة من أكثر الديمقراطيات خشونة ونبضا بالحياة قياسا بمن حولها، إن بعض الإسرائيليين يؤمنون - في الحقيقة - وكما سنرى فيما بعد، بوجود مشكلة، من أجل الوصول، إلى تسوية مع الفلسطينيين، هي "الديمقراطية المفرطة للغاية"، كما أنه من الحقيقي أيضا أن العرب الإسرائيليين مواطنون من الدرجة الثانية بوضوح، إن "رحيق" امرأة عربية شابة مؤثرة في يافا، تتحدث العربية

والعبرية والفرنسية والإنجليزية بطلاقة، وتعمل مع مجموعة تحمى حقوق العرب الإسرائيليين، تشير إلى أن المدارس والخدمات العامة، وإصلاح الطرق تحصل، فى الأساس، على اعتمادات مالية متدنية فى الجوار العربى، مقارنة بالمناطق اليهودية، وأن هنالك قيودا شديدة على شراء الأراضى، وبداية اشتغال العرب بأعمال يقومون بها، وأن المدارس الإسرائيلية تعكس فقط وجهة النظر الإسرائيلية فيما يتعلق بالتاريخ، وأن العرب لا يخضعون للقرعة العسكرية، ولا يشجعون على الالتحاق بالجيش الإسرائيلى، وأسباب هذه الحالة الأخيرة واضحة ومفهومة، فالخدمة فى الجيش فى المجتمع الإسرائيلى شىء ضرورى للترقى، وقد زهبت هذه المواطنة، من الدرجة الثانية، بعيدا إلى حد أنه حدث فى الانتخابات البرلمانية الإسرائيلية، مبكرا عام ٢٠٠٣ - أن مُنع بشكل أساسى عضوان عربيان إسرائيليان فى الكنيست من خوض الانتخابات بواسطة "لجنة الانتخابات المركزية"، وقد أسقطت "الحكمة العليا" فيما بعد هذا الحكم، لكنها أقامت الدليل بصورة درامية لما يُطلق عليه نسيم كالديرون التناقض بين عقيدة الدولة اليهودية والديمقراطية.

الضفة الغربية

تبدأ التعقيدات حقا حينما نصل إلى "الضفة الغربية"، لقد بدأت أقدر هذا عندما تلقيت دعوة هاتفية ذات يوم حوالى الثالثة بعد الظهر، تخبرنى أن الرئيس ياسر عرفات "يمكن أن يرانى، ولكن على أن أكون عند نقطة تفتيش "رام الله" الساعة الخامسة بعد الظهر، وحيث إن رام الله هى من ضواحي أورشليم، فى ظل الظروف الطبيعية، فإنها يجب ألا تأخذ أكثر من نصف ساعة للوصول إليها.

لكن لا شىء له علاقة بالضفة الغربية طبيعى، هذه المنطقة فى الأساس منطقة خاضعة للاحتلال الإسرائيلى، منذ خمسة وثلاثين عاما، إن الحاجة إلى حماية الأعداد المتزايدة من المستوطنين قد أدت إلى نظام مجنون من أربعمئة كيلو متر من الطرق

الخاصة التى تتجنب المراكز السكانية الفلسطينية، حتى يمكن للمستوطنين، والمرور العسكرى الإسرائيلى، من العبور فى سرعة وأمان، وفى نفس الوقت فإن العديد من تلك الطرق مقطوعة ومقصولة وذات انعطافات طويلة، وتحتاج نقاط التفتيش العسكرية، الموجودة فى كل مكان، إلى حواجز عديدة، وكانت نتيجة كل هذا أننى وصلت بالكاد فى موعدى للملاقة من سوف يرشدوننى، عمدة بيت لحم وأخوه والسفير الفلسطينى المعين فى الولايات المتحدة، تحركنا ببطء إلى نقطة التفتيش، فى صف طويل من الشاحنات والدراجات والحمير، وأناس على أقدامهم، كان الجنود الإسرائيليون أولادا ربما تتراوح أعمارهم من ١٨ إلى ٢٥ سنة، كانوا مؤدبين مجتهدين، لكنه لم يكن من الصعب الإحساس بإذلال زملائى، وهم ناضجون مسئولون متمرسون، عندما يستجوبهم أطفال عما يفعلونه فى فنائهم الخلفى.

وقد اكتشفت ذات مرة عبر نقطة تفتيش ما الذى تفعله شاحنة صهريج بشوارع المدينة - إنها تطحنها ثم تبصقها وقفزت سيارتنا وترنحت فوق الأخاديد والحفر إلى مقر قيادة عرفات "المقاطعة" الذى أزيل جزئيا منذ أيام قليلة مضت. فقد أرسل شارون فى نوبة غضب دباباته وبلدوزراته من أجل عصر عرفات، ربما بشدة أكثر، وبينما نقترب مررنا بالدبابات تطوق الأبنية التى هُدمت وخُربت، ثم أوقفنا السيارة، ودخلنا عبر أسلاك شائكة فى محاذاة أكياس رمل.

إن عرفات رجل ضئيل، فى السابعة والسبعين - مصاب بالشلل الرعاش، إن شكله يفصح عن عمره، من الصعب أن تتصوره السوط الذى يخيف الإسرائيليين، غير أن عقله ما يزال حادا، وكان مركزا فى ذلك اليوم على الإساءة الأمريكية الأخيرة، مشروع القانون الذى كان الكونجرس قد وافق عليه لتوه، بنقل السفارة الأمريكية فى إسرائيل من تل أبيب إلى أورشليم، كان ذلك قد تم إعلانه مع فرح يجاور شعورا بالخفة والنشاط، فى الصحافة الإسرائيلية هذا الصباح، كان نقل سفارة الولايات المتحدة، بالنسبة للفلسطينيين - إضفاء شرعية على الإلحاق الإسرائيلى لشرق أورشليم، كما سيؤدى إلى هبوط الآمال الفلسطينية فى استعادة الأرض المفقودة، وقد أوضحت

شارحا أن الأمر كله ممارسة سياسية، لقد اشتمل مشروع القرار على ثغرة تسمح للرئيس بتجاهل إصدار التعليمات إن اعتقد أن نقل السفارة سوف يضر بالأمن القومي للولايات المتحدة، وهو يقينا سوف يعتقد ذلك، إن التصويت كان وسيلة من الكونجرس لإرضاء جمهور الناخبين المتعاطفين مع إسرائيل، دون خوض مخاطرة أن يتم النقل بالفعل، سياسات أمريكية ذكية، لكن حاول أن تشرح ذلك لمستمع أجنبي مستريب.

ويذل عرفات جهدا كبيرا ليشرح أنه لم يكن يوجه أو يحرض على هجمات إرهابية ضد إسرائيل، وذكر أن الجيش الإسرائيلي قد دمر بصورة أو أخرى كل مراكز شرطة السلطة الفلسطينية ومكاتبها العامة، بما في ذلك إغلاق الجامعات الفلسطينية والقيام بضربات قاسية، وقال: إن قدرته محدودة فيما يتعلق بتوجيه أى شئ، قال: إن بوش طالب بالإصلاح والانتخابات، ولكن كيف نجرى انتخابات، بينما لا نستطيع حتى إجراء اتصال هاتفي؟ ونسب التفجيرات الانتحارية للمنظمتين الإرهابيتين حماس والجهاد الإسلامي، اللتين تناقسان منظمته، "منظمة التحرير الفلسطينية" (بي إل أو) بهدف كسب الفلسطينيين، كما ذكر أيضا أنه كلما هاجمته إسرائيل أكثر، ودمرت السلطة الفلسطينية، أصبحت حماس أقوى، كما أنكر أيضا أنه رفض ما جاء من فكر في خطة سلام كلينتون وطابا. وقال: الأصح، إن باراك هو الذي ابتعد عن محادثات طابا، بعد أن اعترف بأنه لا يستطيع أن يبيع ذلك الفكر إلى الرأي العام الإسرائيلي (وقد فشل في الحقيقة، أمام شارون في الانتخابات التالية)؛ إن المرء ينتابه الشك الغريزي إزاء عجوز ما زال حيا مثل عرفات، إلا أن تعقيبه بأنه سوف يرحب بتسوية تضعها الولايات المتحدة، أو المجتمع الدولي تحفظ النظام والأمن فيها قوات أمريكية ودولية، كان لافتا للنظر؛ لأنه في تناغم مع تعليقات بعض الإسرائيليين الذين أخبروني أن الأمل الوحيد هو أن تفرض الولايات المتحدة تسوية ما.

صائب عريقات هو رئيس المفاوضين الفلسطينيين، حاصل على درجة الدكتوراه في الاقتصاد من جامعة كاليفورنيا، وعاش ثمانى سنوات في سان فرانسيسكو،

وشارك في كل مفاوضات كامب دافيد وطابا، وما بينهما، هو أيضا عمدة "أريحا"، وأعددت أن ألقاه هناك بعد ظهر اليوم التالي، أخذني في اليوم التالي سائق السيارة الأجرة، وهو عربي إسرائيلي، حتى نقطة أريحا، غير أنهم لم يسمحوا له بأن يأخذني عبر نقطة التفتيش، كان على أن أترك سيارة الأجرة، وأمشي، أخذ سيارة أجرة أخرى حتى أصل إلى مكتب عريقات.

سألت عريقات مباشرة: لماذا لم توقف هجمات التفجيرات الانتحارية الإرهابية، وذكرت أنه باعتباره واحدا يعرف أمريكا، فهو لا بد أن يدرك قدر الدمار الذي تسببه تلك الهجمات لأي دعم أمريكي للقضية الفلسطينية، كان رد فعله مضطربا بعمق، قال: إنه يعرف بالطبع لكن استمع إلى يا كلايد، يُفترض أن تكون لي بعض السلطة هنا في أريحا، لكنهم يجعلونني بلا علاقة بعمل، أكثر فأكثر كل يوم، إن الرأس الحقيقي هنا في أريحا هو الملازم ألون، هناك عند نقطة التفتيش، إنه هو الذي يقرر من يدخل المدينة، ومن الذي يخرج منها؛ وما إذا كانت سيدة عجوز تذهب إلى المستشفى أم لا، وإذا ما كان وقود النفط يجرى أو لا يجرى؛ وكما يقوم هو بتدميري، فإن "الفتيان هنا"، مشيرا إلى الجامع، "يجعلونني أيضا بلا علاقة بعمل، بقولهم للناس: إن عريقات لا يستطيع فعل شيء لكم، وأن الله وحده هو الذي في وسعه أن يعاون: دعني أخبرك شيئا آخر عن الهجمات الإرهابية، إن الحياة في الضفة الغربية جحيم، البطالة حوالى ٨٠٪ في أغلب المناطق، نصف السكان يعيشون بدولارين في اليوم في أكواخ، وعليهم الانتظار عند نقاط التفتيش حتى ينال المستوطنون الأولوية، الإسرائيليون يشكون من التفجيرات الانتحارية، وأنا أوافق أنها ليست أخلاقية، غير أن الفلسطينيين يقتلهم الإسرائيليون أكثر من الجانب الآخر، في كل مرة يأمر فيها شارون بأعمال ثأرية، وأعمال اغتالات، إنه يحقق دعما أكثر لحماس والجهاد الإسلامى، دعني أخبرك أن لدى ابنا في سن المراهقة، يلقي المضايقة دوما في المدرسة، ويوبخ بطريقة ساخرة مهينة: لأننى أنا أبوه الذى يُنظر إليه باعتباره ضعيفا متعاطفا مع الأمريكيين، إننى أصلى كل ليلة حتى لا يصبح مفجرا انتحاريا، آملا في وسيلة ما مراصة مجنونة أن

تتقذ شرف العائلة، كيف يمكننا وقف أى شىء، عندما يكون شارون قد عطل بنيتنا التحتية، هل يهزل بوش؟

أما بالنسبة لكامب دافيد فقد أكد عريقات أن عرفات قد توسل إلى كلينتون من أجل مزيد من الوقت؛ كى يستعد قبل المباحثات، ولكن دون جدوى، كان كلينتون فى شهور رئاسته الستة الأخيرة، وكان باراك يأمل فى استخدام المباحثات لتقوية موقفه الضعيف فى الانتخابات الإسرائيلية القادمة، وقد قال عريقات: إن الفلسطينيين هم الذين تقدموا باقتراحات خيالية مثل مقايضة أرض فى إسرائيل مع الفلسطينيين فى عملية تبادل من أجل دمج بعض المستوطنات الكبيرة فى الضفة الغربية، فى إسرائيل الأصلية، كما أكد أيضا أن الفلسطينيين عرفوا بعدم قبول الإسرائيليين عودة ضخمة لكل اللاجئين، ومن ثم اقترحوا آليات عودة اختيارية يمكن أن يسمح لمنظمة التحرير الفلسطينية أن تدعى أمام شعبها أنها قد عالجت هذا الموضوع الحساس للغاية، حتى تتجنب غمر إسرائيل بقادمين فلسطينيين جدد. وفى النهاية، ورغم اعترافه بأن الفشل فى الوصول إلى نتيجة حول اقتراحات كلينتون، قد تسبب فى صعوبات، فإنه أصر أيضا على أن الجانبين كانا قريبين للغاية من الاتفاق فى طابا، فقط حدث الفشل لهزيمة باراك الوشيكة فى الانتخابات. وقد أنكر بعناد أن عرفات هو الذى أمر بالانتفاضة الثانية، وقال: إنه بعد انهيار كامب ديفيد، عندما أصبح معروفا أن شارون قد خطط لمسيرة إلى جبل الهيكل؛ الأمر الذى كان من المؤكد إثارته لكراهية الفلسطينيين وعداوتهم، ذهب عرفات إلى منزل باراك وتوسل إليه أن يوقف المسيرة، قائلا: إنه لا يستطيع التحكم فى النتائج. يضاف إلى ذلك أن عريقات قال: إن الطلقات الأولى، بعد المظاهرات التى ما كان من الممكن تجنب حدوثها بسبب مسيرة شارون، كانت على الفلسطينيين من جنود إسرائيليين. وأنه فى الشهور القليلة الأولى من الانتفاضة كان كل الموتى، تقريبا، من الشباب الفلسطينى.

وحتى ترى الصورة الفلسطينية كلها، من الهام النظر، أكثر قربا، إلى نقاط عدة. أولا: خارج تأكيد المراقبين، وربما يقوى من تعليق عريقات على الحالة الاقتصادية

والاجتماعية، فإن جريدة إسرائيل الرئيسية "هآرتز" قد لاحظت أن أكثر من ربع الطلبة الفلسطينيين لم يعودوا قادرين على الذهاب إلى المدرسة^(١٠)، بينما أعلنت الأمم المتحدة ووكالات دولية أخرى عن وجود خسائر فلسطينية قدرها أربعة مليار دولار في مختلف الأنواع، من اقتصاد كان إجمالى ناتجه المحلى عام ١٩٩٩ ثلاثة مليار دولار فقط، إن الكثير من هذه الخسائر يبدو ناجما عن تدمير الجيش الإسرائيلى لبساتين الفواكه والمباني التى يمكن أن توفر غطاء للمهاجمين الفلسطينيين المحتملين بالقرب من طرق المستوطنين^(١١)، كما أعلنت الأمم المتحدة أيضا عن انخفاضات فى القبول بالمستشفيات الفلسطينية، وفى أداء الإجراءات الطبية المختلفة بمقدار يتراوح من ٢٠ إلى ٧٠٪، جنبا إلى جنب مع زيادة علامات سوء التغذية عند الأطفال^(١٢)، إن هذا يكاد يكون بسبب حظر التجول والقيود المفروضة على الحركة داخل الضفة الغربية وغزة، وفى إيجاز، فإن الحالة الاقتصادية والاجتماعية الفلسطينية ربما كانت كارثية أكثر من الحالة الإسرائيلية.

النقطة الثانية أنه بينما من المقدر للتفاعلات الإسرائيلية الفلسطينية، فى المناطق المحتلة أن تكون مثيرة فى أفضل الأحوال، غير أن الأمور تزداد سوءاً بسبب حقيقة خضوع المستوطنين فقط للمحاكم الإسرائيلية، كما تتمتع العسكرية الإسرائيلية بحرية العمل، بصورة واسعة، فى الاستيلاء على الأراضى للأغراض الأمنية، وقد وجدت "لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان" أن للفلسطينيين أملا ضئيلا فى التعويض أمام المحاكم الإسرائيلية عن الأضرار الناجمة من العنف الذى يرتكبه المستوطنون المقاتلون، بصورة متزايدة، إن الأوضاع غالبا ما تكون سيئة جدا، حتى إن حركة نمت داخل جنود العسكرية الإسرائيلية، ترفض الخدمة فى الأراضى المحتلة، يقول دافيد زونشين قائد هذه المجموعة: "أنت تقف على نقطة تفتيش وأنت تعرف أن المستوطنين يمرون مباشرة لكن العرب لا يمرون، وتتذكر جنوب إفريقيا"^(١٣)، وتثير تعليقات المفاوضات السابق يورى سافير دهشة أكبر، وهو يكتب عن هذه الدهشة: لأنه اكتشف فى أوصلو، قبل المفاوضات، أن الفلسطينيين "لا يستطيع البناء أو العمل

أو الدراسة أو شراء الأرض أو زراعة محصول أو أن يبدأ أعمالاً أو أن يتمشى ليلاً، أو أن يزور عائلته في غزة أو الأردن دون إذن منا^(١٤)، إن خرافة "احتلال مستنير" قد أخفت كل هذا عنه.

والنقطة الأخيرة هي السياسات الفلسطينية المعقدة، كان على عرفات أن يكون رمزاً للحركة الفلسطينية، وقد صبغه شارون بصبغة تجعل غالبية العالم تراه كنوع من الديكتاتوريين، يتحكم تحكما كلياً في كل حركة فلسطينية، والحقيقة مختلفة، إن عرفات هو رأس منظمة التحرير الفلسطينية، ورئيس السلطة الفلسطينية، الهيئة التنفيذية التي أنشئت في ظل عملية أوسلو لتدير المناطق التي يجب أن يتخلى عنها الإسرائيليون بالتدريج، إنه يشرف أيضاً على البرلمان الفلسطيني، الذي يصفه نسيم كالديرون، من جامعة تل أبيب، إنه الأكثر ديمقراطية في العالم العربي، غير أنه يواجه على الأقل تحديات ثلاثاً قوية: الأولى هو حماس، وهي مجموعة، ويا للسخرية، خلقت في الأساس بدعم من الرسميين الإسرائيليين بأمل إضعاف عرفات، وهي، دون شك، قد فعلت ذلك، ولكن ربما ليس كما أملت إسرائيل، إنها مرتبطة بمجموعات دولية مسلمة تقدم هبات كبيرة، وهي ممولة بوفرة، وحماس داخل إسرائيل ذراعان: واحد خيري، متصدق، يوفر الطعام والدواء والمساعدات الأخرى للفقراء، والذراع الثاني عسكري متخصص في التفجيرات الانتحارية، الجهاد الإسلامي مجموعة أقل مرتبة في حسن التنظيم، لكنها تدين بذات الفلسفة الإسلامية القتالية، وتتبع نفس طريقة العمل، وحزب الله هو مجموعة إسلامية قتالية أخرى، تأسست في لبنان، وذات روابط بإيران، وتعمل إلى حد كبير مثل حماس، بذراعين عسكري وخيري، إن كل تلك المجموعات مكرسة فلسفياً لتدمير إسرائيل، وليس لديها اهتمام بالسلام أو الدولة الفلسطينية على الضفة الغربية وغزة، إنها بمطالبتها، بكل شيء أو لا شيء، تعكس صورة الصقور الإسرائيلية التي تقف مع إسرائيل الكبرى.

إن الإسرائيليين والكثيرين من الأمريكيين غالباً ما يقولون: إن عرفات يريد الكل أيضاً، واحتمال أنه كان كذلك احتمال قائم، لكن غالبية الخبراء يتفقون على أن عرفات

قد قرر في اتفاق أوسلو: مهما كان كارها قبول حقيقة إسرائيل، والسعى إلى دولة فلسطينية منفصلة؛ لذا فإن القتال مع إسرائيل، بالنسبة إليه، وإلى السلطة الفلسطينية - هو في الأساس حول الأرض، وليس الوجود، غير أن فشل عرفات في الحصول على الأرض قد أدى، كما ذكر مستطلع الرأي العام، خالد الشقافى، إلى الظهور المتزايد لحرس جديد من شباب يتحدى قيادة منظمة التحرير الفلسطينية القديمة، وليس بالضرورة أن يكون هذا الجيل مكرسا لمحو إسرائيل، لكنه يؤمن، بصورة متزايدة أن الإسرائيليين لن يوقفوا احتلالهم حتى يغدو الثمن باهظا، بحيث لا يستطيعون احتماله.

إن أفعال شارون وبوش، التي أضعفت عرفات، وأحبطت تحقيق الأهداف الفلسطينية المشروعة تغذى، في ضوء هذه الديناميكية - الاستياء الذي يقوى كثيرا حماس وكل مجموعات المتحدين الآخرين، إن معرفة شارون بهذا، ومواصلته عصر عرفات والضغط عليه - قد قادت كل الفلسطينيين، وعددا كبيرا من الإسرائيليين إلى الإيمان بأنه يفضل جعل القتال حقا من أجل الوجود، حتى يوجد إسرائيل في حرب ما، تدفع بالفلسطينيين إلى الأردن، وأخيرا يحقق حدود إسرائيل الكتاب المقدس، إن الكثيرين يخافون من أن الحرب التي قادتها الولايات المتحدة ضد العراق - سوف تمنح شارون الغطاء لإلحاق الضفة الغربية، بينما يطهرها من الفلسطينيين.

ليس شروعا في السلام

إن للنزعات الحالية جذورها منذ أواخر القرن التاسع عشر، عندما اقتنع قادة اليهود مثل تيودور هيرتزل، وليوينسكر، وموسى هيس بأن الطريق الوحيد لليهود يفلتوا من المذابح المنظمة والتمييز - هو أن تكون لهم أمتهم، في الوطن القديم لليهود حول أورشليم، وبدؤوا عام ١٨٧٨ الإعداد لليهود الأوربيين ليهاجروا إلى فلسطين، التي كانت حينئذ جزءا من الإمبراطورية العثمانية، ويبدو أن هؤلاء الصهاينة المبكرين

لم يكونوا يعترفون بوجود عربى أصلى، وتحدثوا بسذاجة عن "أرض بلا شعب، وشعب بلا أرض"^(١٥)، وثار الاحتكاك سريعا مع العرب، عندما بدا واضحا أن القادمين الجدد لم يكن فى نيتهم أن يصبحوا جزءاً من الحياة المحلية بل هم - على الأصح - يهدفون إلى خلق مجتمعهم الخاص، المنفصل والمختلف للغاية، وقد قال شايم مارجاليت كالفاريسكى، الذى أدار "جمعية الكولونىالية اليهودية" أنه أحس بالإشفاق على العرب، وكانت الأعوام الخمسة والعشرون لطردهم أعواما صعبة، غير أن رأى العام اليهودى قد طالب بذلك، ويقرر كالنبوءة الفيلسوف والكاتب اليهودى أحاد هام "علينا أن نعامل السكان المحليين بحب واحترام ... وماذا فعل أخونا فى أرض إسرائيل؟ العكس تماما ... لقد تصرفوا قبل العرب بعدوانية ووحشية ... هل يجب أن يجيء الزمن الذى تفرض فيه حياة شعبنا فى فلسطين على السكان المحليين ألا يستطيعوا الخطو جانبا بسهولة"^(١٦).

وأدت الحرب العالمية الأولى إلى تطور جديد حاسم بالنسبة للفلسطينيين، عندما أصدر لورد بلفور، وزير الخارجية البريطانية، فى محاولة داعمة لليهود، من أجل القضية المتحالف حولها فى أوروبا والولايات المتحدة، "إعلان بلفور"، الذى يقول إن بريطانيا سوف تدعم، "تأسيس وطن قومى للشعب اليهودى فى فلسطين"، وأضاف: "إن الصهيونية جيدة كانت أم رديئة، تجلب عمق التفكير بصورة بعيدة، أكثر من رغبات وتحيين ٧٠٠٠٠٠ عربى يسكنون الآن هذه الأرض القديمة"^(١٧)، ولسوء الحظ، لم يكن ذلك هو رأى هنرى مك ماهون، المفوض الأعلى البريطانى فى مصر، الذى كان يحاول التحريض على ثورة عربية ضد حلفاء ألمانيا، "الأتراك العثمانيين"، وقد وعد مك ماهون، فى رسالة له إلى القائد العربى، شريف حسين، باستقلال العرب، فى الأقاليم التى يحكمها العثمانيون إن ثاروا ضد الأتراك كذلك أرسل ت. أ. لورانس (لورانس العرب)، إلى العرب ليساعد فى تنظيم الثورة.

وقد تصادمت تلك الوعود المتضاربة فى "مؤتمر فرساي للسلام"، ورغم تكريسه لحق تقرير المصير الوطنى، فإن الرئيس ويلسون قال: إن "الشعوب غير

المتطورة سوف تحتاج إلى التوجيه، من القوى الإدارية، في ظل انتدابات من "عصبة الأمم"^(١٨)، وضغط البريطانيون، وقد نسوا لورانس، والثورة العربية، منذ زمن طويل؛ لينالوا الانتداب على فلسطين، وأرسلت "لجنة ويلسون"، "لجنة كينج - كرين"؛ كى تتحرى المشاعر المحلية، فوجدوا معارضة قوية للبرنامج الصهيونى، فى المناطق التى تسكنها أغلبية مسيحية - إسلامية، كذلك بالمثل، الرغبة فى انتداب أمريكى، وقد عارض الصهاينة مثل تلك الفكرة؛ ظنا منهم أن أمريكا سوف تصر على حكم الأغلبية الذى سوف يضع العرب فى موضع التحكم، ومن ثم، فضلوا بريطانيا، وإعلان بلفور (وقد حث ذلك توم سيجيف على أن يذكر أن "حلم الصهيونية قد جرى فى تضاد مع مبادئ الديمقراطية")، ومضى ويلسون وغدت بريطانيا مسئولة عن فلسطين.

كانت ولاية حزينة، تدفق المهاجرون من أوروبا، وأدت التوترات مع السكان العرب إلى العديد من أعمال الشغب، وأخيرا حاول البريطانيون تقييد الهجرة، إلا أن هذا سبب نزاعا مع المجموعات الصهيونية، وضاعت تلك المشاكل بسبب ما أدت له الحرب العالمية الثانية من اضطراب، ولكن مع نهاية الحرب أدار الملايين ممن نجوا من الهولوكوست خطاهم نحو فلسطين، وقاوم العرب - وقد خافوا الآن، من الإزاحة الضخمة، وفرض البريطانيون القيود مرة أخرى، عند تلك النقطة، أدارت الأراجون، وهى جيش سرى يهودى كان يقاتل العرب، بنادقه وقنابله إلى البريطانيين، الذين أعادوا انتدابهم إلى الأمم المتحدة، وغادروا عام ١٩٤٨، وعرضت الأمم المتحدة (التي كانت فى ذلك الوقت هيئة من ستة وخمسين، غالبيتهم بلدان غربية وأمريكية لاتينية) عرضت على بساط البحث الحل الأسمى لدولتين، باقتراحها تقسيم فلسطين إلى كيانين، يهودى وعربى، مع تدويل أورشليم. ورفض العرب هذه الخطة، وأعلنوا الحرب على إسرائيل التى تشكلت حديثا، وخسروا، تاركين فلسطين وأورشليم مقسمة على امتداد خط هدنة يشكل الآن حدود إسرائيل المعترف بها دوليا، وترك حوالى ٧٥٠٠٠٠ من اللاجئين الفلسطينيين، المنطقة التى هى إسرائيل الآن، غربا فى معسكرات من

الضفة الغربية وغزة وبلدان أخرى مثل الأردن ولبنان^(١٩)، ومنذ حينذاك، وحتى الآن، تواصل النزاع، يعلو ويضعف، بصورة أو أخرى، ومنذ هذا التاريخ نما إحساس العرب بالظلم، والتوق "للعودة"، والإحساس الإسرائيلي بالحصار والتشوش المتواصل للمجتمع الدولي.

ولم يحدث تغيير أساسي، حتى عام ١٩٦٧ عندما تركت "حرب الأيام الستة"، إسرائيل مسئولة عن الضفة الغربية وغزة، وتسببت في حركة المستوطنين؛ مما هيأ المرحلة لعقود من الصراع، والهجمات الإرهابية، والحرب في لبنان، وقرارات الأمم المتحدة الداعية لمفاوضات سلام وانسحاب إسرائيل من الأراضي المحتلة، ومختلف محادثات السلام، وبدأت الانتفاضة الأولى عام ١٩٨٧ - ١٩٨٩ و"حرب الخليج" ١٩٩٠ - ١٩٩١ والتي بدأت فعليا في خلق حركة، ثورة من الشباب الفلسطيني يلقون الحجارة ضد الاحتلال الإسرائيلي الذي بلغ عمره الآن واحدا وعشرين عاما، ونالت الانتفاضة التعاطف في المجتمع الدولي، وأيضا بين إسرائيليين، كان الكثيرون منهم يرتاب في أخلاقيات الاحتلال والمستوطنات، وألقت حرب الخليج الضوء على ضرورة تسوية النزاع الذي طال، وطالب الرئيس بوش الأول بمؤتمر للسلام في مدريد، وأيضا بوقف بناء المستوطنات، التي كانت المعونة الأمريكية هي التي تتعهد بها بصورة يتعذر تجنبها، ورفض إسحق شامير رئيس الوزراء الإسرائيلي، الذي كان رجل إسرائيل الكبرى بثبات تجميد المستوطنات، وعلق بوش حينئذ تدفقات معينة من المعونة لإسرائيل، وأدى مؤتمر مدريد إلى القليل، إلا أنه حقق الحديث المباشر بين الإسرائيليين والفلسطينيين، الواحد منهم إلى الآخر، ولعب وقف المعونة دورا في أن يهزم إسحق رابين، شامير، في الانتخابات، وواصل رابين المحادثات سرا حتى أدت إلى اتفاقية بين الجانبين في أوسلو، في أغسطس ١٩٩٣.

وقد ألزمت ترتيبات أوسلو الإسرائيليين بالانسحاب التدريجي بجيشهم من بعض المناطق المحتلة، ونقل بعض السلطة في أمور مثل التعليم والصحة والشرطة إلى الفلسطينيين، وألزمت الفلسطينيين بالاعتراف بحق إسرائيل في الوجود، وتخلي منظمة

التحرير الفلسطينية عن كل أعمال العنف، وكان على النقل التدريجي لسلطة محدودة أن يؤدي إلى تسوية دائمة تقوم على قرارى مجلس الأمن ٢٤٢، ٢٣٨، وكانت الانسحابات الإسرائيلية الأساسية من غزة ومنطقة أريحا، وسارت الأمور، ورابين فى المسئولية، طبقا لما جرى الاتفاق عليها، رغم بطنها، غير أن العملية بدأت فى التحلل، بعد اغتياله بيد متعصب إسرائيلى فى أواخر ١٩٩٥، كان قلب المصاعب افتراضا خافيا فى الصفقة؛ إذ رغم أن الإسرائيليين لم يلتزموا كتابة، فقد كان المتوقع وقف التوسع فى المستوطنات؛ حيث إن نموها المتواصل كان ضد روح، إن لم يكن نصف الصفقة، بصورة واضحة. وينفس النهج، كان الإسرائيليون يتوقعون من منظمة التحرير الفلسطينية وقد تعهدت بالتخلى عن عنفها هى أن توقف أيضا عنف حماس والمجموعات الأخرى، لكن الذى حدث هو زيادة المستوطنات أكثر من ضعف ما كانت عليه خلال عملية أوسلو، ورغم أن العنف قل دراماتيكيًا - إلى المدى الذى غدا فيه الإسرائيليون أنفسهم هم اللاعبون الكبار فى كازينو أريحا - لكن العنف لم يختف.

وكان السبب هو أن هذه الصفقة هى الشئ الأخير الذى تريده حماس والريكياليون الآخرون، كما خدم الإرهاب أيضا "الصقور الإسرائيلية الكبرى"، الذى كان فى وسعهم استخدامه كحجة لرفض أى انسحابات ولتبرير عنفهم هم، وبينما كان كثيرون فى إسرائيل والولايات المتحدة يرون أن إسرائيل قد تخلت عن أراض فى مقابل وعود فلسطينية غير مؤكدة، فإن العديد من المراقبين الدوليين يرون أن الفلسطينيين هم الذين قدموا أكبر التنازلات، وطبقا لهذا الرأى فإنهم كفوا عن أى ادعاء خاص بكل فلسطين القديمة كما كانت تحت الانتداب، ولم يحصلوا على أى التزامات بالخروج من المستوطنات المكروهة، ولم يتسلموا أى ضمانات للمستقبل ما عدا حق التفاوض حول "تسوية نهائية" غير مؤكدة، وكما لاحظ أحد المعلقين الإسرائيليين، "لا بد أن عرفات كان يائسا ليمسك بمثل تلك الفرصة"، وعلى أية حال، فإنه قد دُفع، فى أواخر ١٩٩٩ بكل الجداول الزمنية إلى وراء، وكان العنف يتصاعد على الجانبين، وأصبح واضحا أن العملية تواجه مصاعب عميقة.

جماعة الضغط

هناك حقيقة أساسية فى القضية الإسرائيلية - الفلسطينية هى الزيادة المتواصلة فى قدر الأرض الخاضعة للسيطرة الإسرائيلية، وقد حدث هذا بصورة كبيرة منذ عام ١٩٦٧ من خلال التوسع الذى لا يتوقف للمستوطنات، وبينما الهجمات الفلسطينية الإرهابية يحتمل ألا تتوقف حتى لو فكك الإسرائيليون كل المستوطنات، فمن المؤكد أن الفهم الفلسطينى بإضمار الإسرائيليين أخذ كل الأرض، يساهم فى العنف، وخلال عشاء قريب، أخبرنى مستشار سابق للأمن القومى للولايات المتحدة أنه لا يوافق على ذلك الفهم فحسب، لكن عدم القدرة على تجميد توسع المستوطنات كان محبطا للغاية، وسألت: لماذا لا يستطيع رئيس أقوى دولة فى العالم الحصول على التزام بالتجميد فى بلد أصغر منه بكثير، ويعتمد كلية على نقود وحماية الولايات المتحدة؟ قال، "كلايد: هذه هى المرة الأولى التى تسألنى فيها سؤالا، وتكون له إجابة واضحة: إنهما نيويورك وفلوريدا"، إن ما كان يعنيه هو أهمية تصويت اليهود الأمريكيين فى تلك الولايات، وبصورة أكثر اتساعا: جماعة الضغط اليهودية القوية، وقلت له، وأنا أضيف النفوذ القوى "للائتلاف المسيحى"، وبالمثل مجموعات مسيحية أصولية أخرى، وفى سرعة وافقنى على ما قلت.

إن عاملا كبيرا فى انهيار جهود السلام كانت قدرة جماعات الضغط تلك، على منع الولايات المتحدة من ممارسة الضغط على إسرائيل: إن "لجنة الشئون العامة الأمريكية الإسرائيلية" (إيه آى بى إيه سى) واحدة من أقوى المجموعات المتعاطفة مع إسرائيل، وقد ادعت أن أى تشريع هام يخص إسرائيل، يبدأ بالقاعدة التى يعتمد عليها والمكونة من مائتى داعم فى مجلس النواب وخمسة وأربعين سيناتورا^(٢٠)، وقد أضاف، بات روبرتسون الإنجيلى، فى حديث للائتلاف المسيحى، فى أكتوبر عام ٢٠٠٢، وزن المجتمع البروتستنتى قائلا: "سوف نقف مع إسرائيل" وأضاف، إن الدولة الفلسطينية لعنة^(٢١)، وقد كتب رجل الكونجرس، بول فيندلى، أن جماعة الضغط تؤكد أن "مناقشة مفتوحة حول النزاع العربى - الإسرائيلى لا وجود لها"^(٢٢)، ويقول ويليام

كواندت، وهو موظف رسمي في "مجلس الأمن القومي" إن من ٧٠ - ٨٠٪ من كل أعضاء الكونجرس يتعاونون مع جمعية الشئون العامة الأمريكية - الإسرائيلية^(٢٣)، وقد كتبت "فوكس نيوز"، كأنما تؤيد هذا، في أوائل مايو عام ٢٠٠٢، إن القرارات المتعاطفة مع إسرائيل، بما فيها ٢٠٠ مليون دولار للنشاطات العسكرية الإسرائيلية وافق عليها مجلس النواب بـ ٣٥٢ - ٢١، ومجلس الشيوخ بـ ٩٤ - ٢^(٢٤)، وقبل ذلك عندما دعا بوش لانسحاب الدبابات الإسرائيلية من الضفة الغربية في إبريل، تلقى البيت الأبيض ١٠٠٠٠٠ إيميل غاضب من محافظين مسيحيين^(٢٥)، وكما أخبرني محلل سياسى إسرائيلى: "إن مساحة النقاش حول إسرائيل، فى الولايات المتحدة أقل مما هى فى إسرائيل"، وكان فى وسعه أن يضيف أن النقاش الذى يدور بالفعل مثير للضحك، فى بعض الأحيان، وقد قال ريتشارد أرمى فى "باسبول"، فى مايو ٢٠٠٢: إنه كان مع دولة فلسطينية، طالما كانت لا تعنى التخلي عن الأراضي التى تسيطر عليها إسرائيل^(٢٦).

لعبة اللوم

قدم إيهود باراك، رئيس وزراء إسرائيل، فى مارس عام ٢٠٠٠، وعملية أوصلو على فراش موته، وفرص إعادة انتخابه قد دنت، إلى الرئيس كلينتون، اقتراحاً جديداً جريئاً - يقفز على ترتيبات أوصلو المملة، ويدعوه إلى قمة فى كامب ديفيد، تجرى فيها محادثات حول كل شيء - أو - لا شيء، فيما يتعلق بالتسوية النهائية، ورغم عدم توافر الوقت اللازم للإعداد، والوقت المحدود المتبقى له، ولولاية باراك المحتملة فى المكتب، ومخاطرة أن يكثف الفشل النزاع، وجد كلينتون فى ذلك فرصة ذهبية للوصول إلى اتفاق وربما إلى تراث لنفسه، وأمسك عليها بالنواجذ، وأدى الفشل النهائى لهذه المقامرة إلى التفجيرات الانتحارية، وإلى انتخاب الصقر نصير إسرائيل الكبرى، شارون، كرئيس وزراء إسرائيل، وأعمال ثائرة إسرائيلية وحشية، والأكثر أهمية، أن المساهمة التى لا مفر منها للوم قد أدت إلى قبول عريض بين القادة

الإسرائيليين والأمريكيين لوجهة النظر التقليدية أن الفلسطينيين رفضوا العروض الإسرائيلية السخية؛ لأنهم في الحقيقة يكرهون إسرائيل، ويفضلون تدميرها بالعنف، بدلا من السلام.

وقد عبر باراك نفسه، عن هذا القول أفضل تعبير؛ إذ أصر أثناء إفطار معي على أنه قدم لعرفات صفقة العمر: دولة فلسطينية منزوعة السلاح، على ٩٢٪ من الضفة الغربية و ١٠٪ من قطاع غزة، مع تعويضات أرضية من إسرائيل ما قبل ١٩٦٧، وفك غالبية المستوطنات، وإعادة إسكان مستوطنين على قطعة أرض مساحتها ٨٪ من الضفة الغربية، تلحق بإسرائيل، وخلق عاصمة فلسطينية في شرق أورشليم، والوصاية (لا السيادة) على جبل الهيكل، وعودة اللاجئين إلى الدولة الفلسطينية (وليس إسرائيل الأصلية) وبرنامج معونة دولي ضخم، غير أن القائد الفلسطيني العجوز قال: لا، وأصر باراك على أن عرفات كان "يمثل" فقط، ويسعى إلى أقصى تنازلات إسرائيلية دون أن "يتفاوض بحسن نية"، إنه لا يثق بعمق في عرفات فقط، ولكن في العرب عامة، قائلا: إنه لا يوجد في ثقافتهم شيء مثل "الحقيقة"، ومن ثم، فإنهم لا يحسون وخز ضمير إن كذبوا، أما لماذا يرفض عرفات مثل تلك الصفقة الظاهرة الجودة، فإن باراك يقول: يرجع ذلك إلى أن الفلسطينيين لا يؤمنون بأن لإسرائيل الحق في الوجود، وأنهم يسعون إلى دولة فلسطينية على كل فلسطين، وهو يؤمن أن عرفات يرى في إحصائيات السكان سلاحه الأساسي، ويقول: إن الفلسطينيين سوف يستفيدون من الديمقراطية الإسرائيلية؛ ليحولوا إسرائيل إلى "دولة لكل مواطنيها"، ثم يدفعون إلى دولة مزدوجة القومية حتى يمنحهم الإحصاء السكاني أغلبية، ومن ثم، نهاية "الدولة اليهودية"، وهو يقول أيضا: إن عرفات يخطط منذ البداية أن يستغل المباحثات للحصول على أكثر ما يستطيع الحصول عليه، ثم يطلق العنان لعنفه كوسيلة لوضع المزيد من الضغط على الإسرائيليين، من أجل التنازلات.

ويوافق دينس روس، كبير مفاوضي كلينتون في كامب ديفيد، وإن لم يقل تماما مثلما قال باراك، على أن عرفات استحق أكثر اللوم للفشل، برفضه العرض، ثم إطلاق

سراح العنف، وهو يشبّه عرفات بـ "راكب الأمواج المتكسرة"، الذى لم يلحق بـ "الموجة الكبرى"؛ لأنه كان مهتما أكثر بمواصلة ركوب الأمواج أكثر من اهتمامه بالركوب إلى الشاطئ، ربما لأن شاطئ النولة الفلسطينية المحدود ليس هو الشاطئ الذى يسعى إليه، وأشار كلينتون أيضا بأصبعه إلى عرفات قائلا: إنه لأول مرة فى التاريخ يقترح رئيس الولايات المتحدة صفقة قريبة للمطالب الفلسطينية التى مضى عليها زمن طويل، ويرفضها عرفات، حتى باعتبارها أساسا للمفاوضات^(٢٧).

والأكثر أهمية، حتى مما يقوله هؤلاء الناس الأساسيون هو أن الرئيس الحالى بوش يصدقهم، ومن هنا جاء صبر بوش على تحدى شارون، ومن هنا جاء نداؤه، الذى يجمع بين متناقضين، من أجل انتخابات فلسطينية حرة لقائد جديد، لا يمكن أن يكون عرفات، ومن ثم، مساواته العنف الفلسطينى بالإرهاب الكونى، ومطالبته بوقف كل أشكال العنف قبل بدء مفاوضات السلام، ومن ثم، رفضه مقابلة عرفات، أو حتى مصافحته فى الأمم المتحدة، ولو كان المعتقد صحيحا، حتى وإن اتجهت أفعال ومنحى بوش نحو إثارة الفوضى، فقد كان البديل ضئيلا، ولكن ماذا لو لم يكن صحيحا؟

إن انطباعى، وقد تحدثت مع غالبية المفاوضين الأساسيين الذين يمثلون كل الجوانب - مشابهة لذلك الفيلم اليابانى "راشومون"، الذى يروى فيه كل واحد من عدة مشاركين، فى حدث واحد، ما بدا أحداثا عديدة مختلفة كلية، وقد أنكر عرفات ومفاوضه الرئيسى رفض صفقة ما، وأشاروا بإصبعهم نحو باراك، الذى أصر أنهما رفضاها بالفعل، وما يثير الاهتمام أكثر هو تحليل روبرت مالى، الذى كان واحدا من فريق الولايات المتحدة المفاوض، والذى كتب فيما بعد تقارير "تصحيح" عن المفاوضات تميل إلى الاتفاق مع بحثى الخاص ونتائج مقابلتى.

وحتى نبداً فإن مالى يؤكد قلق عرفات، بسبب عدم توافر الوقت اللازم للإعداد، ومخاطر الفشل، وقد أخبر كلينتون، فى ١٥ يونيو عام ٢٠٠٠ بخوفه من أن كل شيء يمكن أن ينفجر فى وجه الرئيس"، وقال: "إن القمة هى ورقتنا الأخيرة، هل تود حقا

أن تحرقها^(٢٨)، وكان الرد بـ نعم، وذهب عرفات حتى لا يجلب على نفسه غضب الولايات المتحدة، ولكن دون توقعات كبرى، إن خلفية عجلة باراك، وحذر عرفات، حاسمة لفهم ما بدا أنه قد حدث فعليا، كان رئيس الوزراء الإسرائيلي عميق الارتياح فى عملية أوصلو التدريجية، كانت بالنسبة إليه تعنى انسحابات عسكرية، دفعت إسرائيل ثمنا غاليا لها، دون أى شىء ملموس فى مقابلها، ودون أية فكرة عن المطالب الفلسطينية النهائية، وكان الاضطراب الفلسطينى المتزايد يخلق على قمة هذا ضغطا من أجل حركة أسرع، وقدمت صفقة سلام درامية، فرصة إنقاذ من وضعه الهابط فى استفتاءات ما قبل الانتخابات، وقد وجد أنه من الأفضل له لكل تلك الأسباب أن يتجنب آلة تقطيع السلام، وأن يتوجه إلى السندوتش كله، وقد أهمل، بسبب تركيزة على لعبة النهاية - عددا من الخطوات الفاصلة - والهامة للغاية، انسحاب جزئى ثالث للقوات فى الضفة الغربية، ونقل السيطرة من ثلاث قرى قرب أورشليم إلى الفلسطينيين، كانت إسرائيل ملتزمة بذلك طبقا لأوصلو والاتفاقيات التالية، وفى نفس الوقت تزايد توسع المستوطنات فى الضفة الغربية، لم يكن أى من هذه الأمور يحتاج، فى عقل باراك، الاهتمام؛ إذ طبقا للتحديد والتعريف فإن تسوية نهائية لا بد أن تحل كل تلك المشاكل.

وقد رأى عرفات - بالطبع - الأمور بطريقة مختلفة. لقد وجد هو أيضا أن أوصلو عملية مؤلة، ولكن لأسباب مختلفة عن باراك، لقد تحول وعد أوصلو بالنسبة للفلسطينيين إلى سلسلة لا نهاية لها من التزامات لا تنفذ ومؤجلة، بعد ست سنوات من عقد الاتفاقية كان هنالك المزيد من المستوطنات الإسرائيلية، وحرية حركة أقل، وأحوال اقتصادية أسوأ، وفى تضاد لهذه الخلفية، أكد إهمال باراك للانسحابات المطلوبة على فترات، والخطى السريعة المتصلة بالمستوطنات، شكوك عرفات فى الإسرائيليين، وفى باراك ذاته، وكى يعيد طمأنئة نفسه فيما يتعلق بالقمة، سأل عرفات كلينتون المزيد من الوقت للإعداد، وأيضا من أجل الإنجاز الإسرائيلى للالتزامات السابقة، بانسحابات جزئية للجيش، ورد كلينتون، الذى كان يشارك عرفات بعض

قلقه، بالحصول على وعد من باراك بأن الانسحاب الإسرائيلي سوف يُكمل بصفقة نهائية أو بدونها، كما وعد الرئيس عرفات أيضا بأنه لن يكون الملوم في حالة الفشل قائلا: "لن تكون هناك إشارة بالأصبع"، وعندما حان الوقت، لم يكن هناك زمن إضافي للتخصير، ولا لانسحاب إسرائيلي، لكن عرفات ذهب؛ لأنه لم يكن أمامه خيار آخر.

كان النهج في كامب ديفيد مختلفا تماما عن الصورة العامة للإسرائيليين والفلسطينيين الذين يواجهون بعضهم البعض عبر منضدة المساومة وهم يطرقون الاقتراحات طرقا تحت الإشراف الأمريكي، لم يقم باراك وعرفات البتة بأية محادثات حقيقية، لقد قضوا معظم الوقت في حجرات منفصلة مع الأمريكيين يترددون عليهم جيئة وذهابا ينقلون الآراء والردود، إنني أستخدم التعبير "آراء" عن عمد؛ لأنه لم يكن هناك أية اقتراحات رسمية مكتوبة من جانب إلى الآخر، كان الرسل الأمريكيون يأخذون الملاحظات ويقرؤونها للجانبين حتى يتأكدوا من فهمها، غير أن كل شيء كان مشروطا، كانت تقدم الآراء باعتبارها أمريكية أكثر منها اقتراحات إسرائيلية، وتبسط في عبارات ترضى عنها إسرائيل لاستخدامها كأسس للمفاوضة، إن فعل عرفات نفس الأمر.

لم يكن فريق الولايات المتحدة يدفع في إطار هذا النهج، بخطة من لدنه، لكنه كان يقوم بدور مُيسر رفيع المستوى للغاية، دون معرفة النقطة الجوهرية لكل من الجانبين، وقد احتاج وسطاء الولايات المتحدة لتحريك الكرة نحو الهدف إلى اقتراحات مضادة ليعودوا بها إلى الجانب الآخر، هنا انكشف الضعف الكبير للفلسطينيين، فرغم أنهم - كما أخبرني عريقات في أريحا - كانوا مبدعين في ابتكار فكرة مقايضة الأرض حتى يسهلوا الإلحاق الإسرائيلي لبعض المستوطنات الرئيسية، وفي اقتراح سبل تحد من العودة الفعلية للاجئين إلى إسرائيل كجزء من الاعتراف بحق العودة وفي منح إسرائيل السيادة على المناطق اليهودية في شرق أورشليم، فإن الفلسطينيين أثبتوا في النهاية عجزهم عن إعطاء مفاوضات الولايات المتحدة خطة سلام متماسكة، ليس من

الواضح تماما، لماذا حدث ذلك، رغم أن العديد من العوامل لعبت دورا كان أحدها هو أنهم قد أحرقوا في الماضي في اتفاقيات ملتبسة وعارضة، وإن كانت هذه هي المبادرة النهائية فيجب أن تكون واضحة وضوح البلورة، وأن تكون مدونة، وألا يترك شيء للخيال، ومع ذلك، لم تكن تلك واضحة، إنها حقا المباراة الأخيرة لأن باراك لم يلتزم البتة، بصورة نهائية بأي وضع. كانت تلك هي الحيلة الثانية والعشرين. لم يرغب باراك في الكشف عن نقطته الجوهرية حتى يظهر عرفات أنه جاد، وعرفات لم يكن في وسعه تحمل فعل أي شيء حتى يكون في وسعه رؤية النقطة الجوهرية.

العامل الآخر، كان الوضع السياسي المحلي المتجزئ للفلسطينيين، مما أدى إلى انقسامات في فريق التفاوض، الذي كان قد بدأ يتكهن بخليفة لعرفات المسن. وأخيرا رأى الفلسطينيون أن قبول آراء الولايات المتحدة، حتى باعتبارها "أسسا لمزيد من التفاوض"، مشحونة بالأخطار الماكرة وإن كانت هامة، وبينما كانت الآراء مثيرة للاهتمام من بعض أوجهها، إلا أنها صامتة فيما يتعلق باللجنين، ومختلفة التوازن فيما يتعلق بتبادل الأرض، وتركت "جبل الهيكل" والكثير من أورشلیم العربية تحت السيادة الإسرائيلية، كان قبول الآراء المقترحة يخيف الفلسطينيين، على أساس أن ذلك قد يدمر الوضع الفلسطيني الأساسي بنقل الحديث من الالتزامات الإسرائيلية، في ظل قرارات الأمم المتحدة، إلى آراء الولايات المتحدة الغامضة غير الواضحة، وعلى أية حال، فإن السؤال الذي كان يثير عذابا شديدا هو لماذا لم يعد عرفات باقتراحات أفضل، وقد أخبرني العديد من القادة الفلسطينيين الهامين أنهم يعتقدون أنه قد فاتته فرصة كبرى؟

ولم يواجه باراك، في ذات الوقت - على أية حال - ضغطا من الولايات المتحدة كي يوقف، دعك من حل المستوطنات التي ظلت الولايات المتحدة تدعوها بغير الشرعية مدة خمسة وثلاثين عاما، لقد قام كلينتون وفريقه بدور أكثر شبها برسول، أكثر منهم قادة أقوياء معهم سند حيوى في قرار صائب، والوسائل لتحقيقه، ومن ثم انتهت قمة كامب ديفيد دون نتيجة لعدة أسباب.

غير أن تلك لم تكن نهاية المناقشة، تواصلت المحادثات بين الجوانب الثلاثة خلال خريف عام ٢٠٠٠، وفي ٢٣ ديسمبر، ولم يكن متبقي غير أقل من شهر على مدته الرئاسية، قدم كلينتون مجموعة جديدة من المقترحات تعطي الفلسطينيين أرضا أكثر، وحق العودة للاجئين إلى دولة فلسطينية جديدة محتملة (وليس لإسرائيل) ووضع أقوى في أورشليم، وظل عرفات حذرا، لكنه أخبر كلينتون، عندما التقيا في ٢ يناير ٢٠٠١، أن في وسع الرئيس إخبار باراك أنني "أقبل معايرك، ولدى بعض وجهات النظر التي يجب أن أعبر عنها، وفي نفس الوقت، فإننا نعرف أن للإسرائيليين وجهات نظر يجب أن نحترمها".

وظهر عند هذه النقطة أن لباراك تحفظاته، التي أوصلها إلى كلينتون بصورة شخصية، وبعد ثلاثة أسابيع غادر كلينتون المسرح، غير أن الإسرائيليين والفلسطينيين واصلوا المحادثات المباشرة في طابا، وانتهت تلك، ليس لأن الطرفين رفضا صفقة ما، ولكن لأن الانتخابات الإسرائيلية جاءت قبل إمكان إنهاء المباحثات، وأصدر باراك، الذي كان قد دبر حملة من أجل تفويضه لمواصلة المباحثات - بيانا مشتركا مع الفلسطينيين يقول: "يعلن الطرفان أنهما لم يكونا البتة أقرب للوصول إلى اتفاق، ومن ثم فإن إيماننا المشترك هو أن الفجوات المتبقية يمكن اجتيازها باستئناف المفاوضات التالية للانتخابات الإسرائيلية"^(٢٩).

والحال أعلن أرييل شارون، رئيس الوزراء الجديد، أن طابا ميتة، كما أعلن معارضته لأي مزيد من محادثات السلام، لقد سقط باراك، جزئيا؛ لأن العنف تصاعد سريعا منذ نهاية سبتمبر، مدمرا مصداقية مبادرته السلامية، وكان الجزء الثاني من الاعتقاد بلوم عرفات هو اتهامه بأنه هو الذي خطط لهذا العنف وأطلق سراحه في أعقاب الفشل، في الوصول لاتفاقية، في كامب ديفيد، حتى يوقع المزيد من الضغط على الإسرائيليين، من أجل الحصول على تنازلات، غير أن نظرة مدققة للأمور، تطرح، مرة أخرى، صورة أكثر تعقيدا.

لقد أصبح معروفا في آخر سبتمبر أن شارون يخطط لمسيرة إلى جبل الهيكل/ الحرم الشريف، وقام عرفات بزيارة باراك في منزله يتوسل إليه أن يوقف المسيرة، إلا أن باراك طبقا لعرفات قال: إنه لا يستطيع فعل شيء، كما قال باراك في بيانات متتالية إن ذلك كان شأنا سياسيا إسرائيليا داخليا، تم التنسيق حوله مع مسؤولي الأمن الفلسطيني، وأنه لا علاقة له بانفجار العنف الذي تلاه، لم تكن هذه هي وجهة نظر المراقبين المطلعين في ذلك الوقت، فقد قال دنيس روس، عن سيرة شارون: "في وسعي أن أفكر في قدر كبير من الآراء الرديئة، لكنني لا أستطيع التفكير في واحد أسوأ"، كان من الواضح، وله سمعته المعادية للسلام، والمعادية للفلسطينيين، والقلق السائد - أن هذا الحدث سوف يكون حدثا استفزازيا، ويبدو أنه كان محسوبا هكذا، في لحظة يمكن أن يمنع فيها الاستفزاز شارون حصصا انتخابية، وفي ٢٨ سبتمبر، بدأ شارون جولته الصغيرة، مصحوبا بألف ضابط شرطة إسرائيلي، وجاءت في اليوم التالي المظاهرات العنيفة، التي كان عليها أن تنفجر خلال الشهور التالية، وطبقا للتقرير الذي قدمه جورج ميتشيل، قائد أغلبية مجلس الشيوخ، باعتباره رئيسا للجنة التي تشكلت لتحديد سبب العنف - أن النزاع بدأ عندما ووجه عدد كبير من المتظاهرين الفلسطينيين، غير المسلحين، بفرقة كبيرة من الشرطة الإسرائيلية، ألقى الفلسطينيون الحجارة قربى الحائط الغربي، واستخدمت الشرطة الذخيرة الحية لتفريق المتظاهرين، فقتلت أربعة وأصاب ٢٠٠، كما أصيب أيضا أربعة عشر شرطيا إسرائيليا، وارتفع عدد القتلى الفلسطينيين سريعا خلال الأشهر الثلاثة التالية. وطبقا لتقرير ميتشيل فإن "الفلسطينيين لم يستخدموا في أغلب الأحداث أسلحة نارية أو مفرقات" (٣٠).

وفي نهاية الأسبوع الأول، كان أكثر من ستين فلسطينيا قد قتلوا، جنبا إلى جنب مع خمسة إسرائيليين، واشتكت مجموعات دولية عديدة من استخدام الجيش الإسرائيلي المفرط للقوة، ويؤمن العديد من الفلسطينيين، وكذا بعض الإسرائيليين، الذين تحدثت إليهم أن الجيش الذي تزداد هيمنة الأجنحة اليمينية والمخلصين لشارون

عليه، قد استخدم عمدا القوة المفرطة حتى يستفز انتفاضة يمكن أن تبرر إنهاء محادثات السلام، والعودة بكثافة إلى الأراضي المحتلة.

وبغض النظر عن حقيقة ذلك التخمين، فإن وجهة نظري ليست تبليضا للفلسطينيين أو حلهم من تبعه اللوم، إما بسبب الفشل في كامب ديفيد، أو العنف الذي دمر المنطقة خلال الستين الماضيتين، إنني أؤمن أنا وعدد من الفلسطينيين يوافقون أن عرفات ارتكب خطأ هائلا بعدم استجابته بطريقة أكثر إيجابية، وخلافة، في كامب ديفيد، غير أن الفشل والعنف لم يكونا فقط بسبب عرفات، ولم يكونا بالتأكيد إعلانا عن تكريس متواصل لتحطيم إسرائيل.

المشكلة الحقيقية

إن هذا يصل بنا إلى مشكلة الحقيقة؛ إذ رغم أن العقيدة خطأ، غير أن سياسة الولايات المتحدة تقوم عليها، ونتيجة ذلك، فإن أفعالنا تزيد من العزلة الكونية لأمريكا، تماما في اللحظة التي نحتاج فيها إلى قليل من الأصدقاء، هنا قام مسئول كبير في سفارة الولايات المتحدة في تل أبيب، بشرح الوضع لي: "إن الحكومات الإسرائيلية مكونة دوما من ائتلافات، وتلك حقيقة تمنح الأحزاب المتطرفة قوة غير متكافئة، وذلك يجعل إسرائيل، بصورة مؤثرة، رهينة للمستوطنين، ولجمهور إسرائيل الكبرى، إنهم يريدون أيضا دولة، واقتران الرغبة في الأرض، بالرغبة في دولة يهودية، يقتضى ضمنا، بطريقة لا مفر منها، إما نوعا من التطهير العرقي، أو أبارتهيد على النمط الجنوب الإفريقي، إن الحل العملي الوحيد هو تسوية، من نوع ما، تفرضها الولايات المتحدة، ربما مقترنة بالناتو، ولكن لأن جماعة الضغط الإسرائيلية المسيحية بالولايات المتحدة، هي وراء إسرائيل بنسبة ٢٠٠٪، وتسيطر على الكونجرس الأمريكي، فإن ذلك لن يحدث، وفي وسعي أن أضيف فقط أنه لولا يقظة مجموعات الضغط والكونجرس والبيت الأبيض، فإن المتوقع من الولايات المتحدة أن تصب المزيد من بلايين الدولارات

فى توسع المستوطنات الإسرائيلية، إن هذه السياسة سوف تحفز العنف، وتؤدى إلى ثأر وحشى؛ مما يجلب للولايات المتحدة المزيد من الازدراء الكونى، وسوف يترد السلام، الذى تريده كل الأطراف، فقط إلى الوراء.

تايوان

لما كانت الصين هى أكثر بلدان العالم كثافة سكان، وأسرعها تطورا، وأغناها وأكثرها قوة، فإن علاقات أمريكا معها هى على الأرجح العلاقة الثنائية الأكثر أهمية فى العالم، منذ الانفتاح على الصين عام ١٩٧٢، استهدفت سياسة الولايات المتحدة قبل الصين تطبيع العلاقات، وفطمها بعيدا عن اقتصاديات التخطيط المركزى والسياسات الشيوعية، وقد نجحت هذه السياسة واقعيا، بأى معيار من المعايير، لقد غدت الصين موقع اختيار رجال الصناعة الكونيين، واستثمرت الشركات الأمريكية وحدها فيها حوالى ٤٠ مليار دولار^(٢١)، كما غدت أيضا عضوا فى منظمة التجارة العالمية، بدعم كامل من الولايات المتحدة، كما غدت مستثمرا هاما فى الولايات المتحدة، إن الصين بالإضافة إلى تبنيها الرأسمالية، فتحت أيضا بطريقة دراماتيكية نظامها الاجتماعى والسياسى، وبينما هى بالقطع ديمقراطية، فإن حقوق وحرىات الناس اليومية قد ازدادت كثيرا، يجب أن تكون هناك، طبقا للظواهر، مشاكل قليلة بين الولايات المتحدة والصين، شىء واحد يمكن أن يبطل هذا التقدم، ذلك هو تدخل الولايات المتحدة فى علاقات تايوان والصين.

إن وضع تايوان بالنسبة للصين أمر أساسى من أمور السيادة الوطنية، والتخلص من آخر الحكم شبه الكولونىالى، إنه أيضا من أمور إنهاء الحرب الأهلية الصينية، التى انتهت على الأرض الرئيسية عام ١٩٤٩، إن الصينيين يرون فى أى تدخل أجنبى، فيما يتعلق بتايوان تدخلا غير مقبول فى شئونهم الداخلية، وبينما تايوان جزء من امتداد الصين، فإن المشابهة هنا يمكن أن تعاون فى فهم الموضوع، إن لابتنى

منزلا فوق جزيرة "ماوي"، يطل على قناة ماوي، وجزيرة "كا هولواي" غير المسكونة، وقد قامت فى السنوات الأخيرة حركة استقلال "هاواينية" بين بعض أخلاف السكان البوليزيين الأصليين من الجزيرة، تصور أن الهاوايين المطالبين بالاستقلال يجب أن يحتلوا كاهولوى، ويعلنون ملكية جديدة لهاوى، لا شك أن الولايات المتحدة سوف ترسل حرس الشواطئ أو الأسطول لقمع الثورة، والآن لنفرض أنه كان على الصينيين أن يرسلوا أسطولهم لحراسة قناة ماوي، حماية للدولة الهاواينية الجديدة من الأذى، أنا أعرف أن ذلك غير محتمل، ولكن إن حدث عليك أن تتصور الغضب الذى يمسك بكل أمريكى.

كان ذلك تحديدا هو الغضب الذى التقيت به عندما قمت بجولة عبر الصين فى ربيع ٢٠٠٢. ما من اجتماع يمكن أن يبدأ وينتهى إلا على موضوع تدخل الولايات المتحدة فى تايوان، ولماذا أرادت الولايات المتحدة المخاطرة بحرب حول شأن هو هم لكل الصينيين. لماذا حقا؟ قبل أن نشرع فى ذلك، دعونا نتناول هذا الصخب.

أعلنت الولايات المتحدة، فى ٢٤ إبريل عام ٢٠٠١ عن عملية بيع ضخمة لأسلحة إلى تايوان، كانت حزمة ٤ مليار دولار اشتملت على أربعة مدمرات، وستة طائرات مضادة للغواصات، وثمانية غواصات قادرة على إطلاق، ليس فقط طوربيدات، ولكن أيضا صواريخ كروز، كانت هذه هى المرة الأولى التى تباع فيها إدارة الولايات المتحدة بصورة واضحة إلى تايوان، وقد اقترن البيع باتفاقية غير مسبوقة، مدت فيها الولايات المتحدة تدريبها لقوات تايوان، لاستخدام أنظمة أسلحة متقدمة، جاء الإعلان بعد ساعات فقط من إخبار السفير الصينى، فى الولايات المتحدة، لمستمعيه أثناء غداء مأدبة صغيرة أن علاقات الصين والولايات المتحدة، عند مفترق طرق، إن بيع الولايات المتحدة المتواصل لأسلحة متقدمة لتايوان يهدد الأمن القومى للصين، وينتهك سيادتها، ويشجع القوى الانفصالية على تلك الجزيرة الصينية^(٢٢).

وقد نُظر إلى البيع باعتباره نصراً كبيراً لتايوان (وخاصة للتايوانيين الذين يدفعون نحو الاستقلال)، وجماعات الضغط في الولايات المتحدة (بما فيهم سيناتور ترنت لوت، جمهوري من المسيحيين؛ حيث ستبنى السفن، ومعهدان كبيران يحصلان على منح ضخمة من تايوان) والذين أحبطهم تأجيل كلينتون لاقتراحاتهم، بينما كان يسعى إلى ارتباط بالصين.

وكانت تعليقات الرئيس في اليوم التالي هي الأكثر إثارة للدهشة، قال بوش: إن الولايات المتحدة سوف تفعل كل ما يمكن فعله لمعاونة تايوان على الدفاع عن نفسها، حتى إذا اقتضى الأمر القوة الكلية، للقوى العسكرية الأمريكية^(٣٣)، ورغم أن الصين أسمت هذا "استفزازاً صريحاً"، فقد تبعته في الأشهر التالية زيارات من كبار مسئولين عسكريين تايوانيين ليلتقوا "بصورة غير رسمية" بسلطات دفاع الولايات المتحدة، ويتوسّع تدريب الولايات المتحدة والتنسيق مع القوات العسكرية التايوانية.

إن المشكلة في كل هذا والنسب في إثارتها حنق يكين، هي أنها كانت انتهاكاً كاملاً لروح، واحتمال نص "البيان المشترك" في ١٧ أغسطس عام ١٩٨٢ وهو واحد من ثلاث وثائق تحكم علاقات الولايات المتحدة بالصين، إن الولايات المتحدة تكرر في تلك الوثيقة بصورة تثير الضجر "أنه ليس في نيّتها انتهاك سيادة الصين وسلامة أراضيها، أو التدخل في الشؤون الداخلية للصين، وممارسة سياسة صينيين أو صين واحدة، وتايوان واحدة"، كما قالت الولايات المتحدة: "إنها لن تسعى إلى تنفيذ سياسة طويلة المدى لمبيعات أسلحة لتايوان، حتى إن مبيعاتها أسلحة لتايوان لن تتجاوز، كمّاً أو كيفاً، مستوى تلك التي أمدتها بها في السنوات القريبة، وأنها تنوى منذ أقيمت علاقات دبلوماسية بين الولايات المتحدة والصين - التخفيض التدريجي لمبيعاتها من السلاح إلى تايوان؛ مما يؤدي عبر فترة من الزمن إلى حل نهائي.

لم تكن هذه هي المرة الأولى التي ظهرت فيها الولايات المتحدة، وهي تخرق هذه الاتفاقية. فقد أعلن الرئيس بوش الأول، في الحملة الساخنة للانتخابات الرئاسية عام

١٩٩٢ بيع ١٥٠، ف - ١٦ مقاتلة إلى تايوان (طائرات أكثر تفوقا بكثير من أى شيء فى مخزون الأرض الأساسية الصينية، فى جهد واضح ليدعم قاعدته السياسية فى تكساس حيث تصنع الطائرات، ولتتملق الجناح اليميني الجمهورى، المعادى للصين، كسبا لرضاه، والمعروف بمجموعة ضغط الصين، وأكثر قربا، بمجموعة ضغط تايوان، ولفهم ما يجرى هنا، فإنك تحتاج إلى معرفة بعض من التاريخ.

كانت الصين، فى نهاية القرن التاسع عشر، وأوائل القرن العشرين هى الغاية المختارة للمبشرين البروتستانت الأمريكيين، كان إنقاذ الصين هو المعادل التبشيري للهدف التجارى لتزويد لمبات الصين بالزيت لإضاءتها، أتذكر فى صباى زيارات المناسبات التى يقوم بها المبشرون فى الصين، والتى كانت تدعمها كنيستى، كان من بين المبشرين والدئ هنرى ب.لوس، مؤسس ومحرر مجلة "التايم"، الذى وصفهما تيودور هوايت باعتبارهما أكثر صانعى الأفكار قوة فى أمريكا، وقد ذكر هوايت أيضا: "إن ما كان يستهدفه المسيح، وما تستهدفه أمريكا قد اتحدا فى عقل لوس، فى نمط غير معقد، غاية فى البساطة، وعانق ما استهدفه الاثنان، الشعب الصينى^(٢٤)، وكان من بين الصينيين الذين عانقهم، الجنراليسمو ومدام شيانج كاي - شك اللذين أطلقت عليهما التايم عام ١٩٣٧، "رجل وزوجة العام". كان شيانج قائد الكومنتانج أو "حزب الصين الوطنى" - قد عمل على فرض سيطرة غير محكمة على أمراء الحرب فى الصين، وكان يتحرك لتوحيد البلاد محرزا بعض النجاح، لولا المقاومة العنيدة لحلفائه السابقين الشيوعيين الصينيين بقيادة ماوتس تونج، وكانت "مدام"، أو "مى لينج" ابنة ت.ف.سونج، واحدة من أغنى رجال الصين، وقد حقق ثروته من نشر الكتب المقدسة، كانت المدام خريجة كلية ويلسلى، وهى ميثودية^(*) أقنعت شيانج بالاهتمام إلى المسيحية، وكانا هما الاثنان من قادا الصين عندما أخذت الحرب الثانية تهدأ، واللذان

(*) اتباع الحركة الدينية الإصلاحية عام ١٧٢٩، فى محاولة لإحياء كنيسة إنجلترا. (المترجم)

اعتمد عليهما لوس والمبشرون، وقالت الـ "ميثوناري ريفرأوف ذى ورلد": "الصين لديها الآن أكثر الحكام استنارة، ووطنية، وقدرة فى تاريخها"^(٣٥).

لم تكن تلك هى وجهة النظر التى انطلقت فى عقل الجنرال جوزيف ستالين بعد أن تعامل مع شيانج والمدام باعتبارها الجنرال القائد لقوات الولايات المتحدة على مسرح الصين - بورما - الهند، ورئيس أركان شيانج، كان ستيل ويل، الذى عرف بـ جو فينيجار (جوانكند)، بسبب آرائه الفظة، متحدثا صينيا سلسا، وقد وصف ستيل ويل، بعد سنوات من الإحباط مع شيانج، الذى بدا أكثر اهتماما بتسخير موارده من أجل حسم نهائى مع شيوعى ماو بدلا من تسخيرها فى القتال ضد اليابانيين، وصف المشكلة وصفا بليغا، "المشكلة فى الصين بسيطة: نحن نتحالف مع جاهل، أمى، متطير، فلاح ابن عاهرة"^(٣٦)، وبينما وجد ستيل ويل الشيوعيين حازمين، ومنظمين، ومتلهفين على قتال اليابانيين، وجد جنود شيانج بون غداء، ودون رواتب؛ لأن الجنرالات سرقوا النقود، ومنتشرين ضد الشيوعيين أكثر من انتشارهم ضد اليابانيين، وبينما قاتل ستيل ويل ببسالة ليصلح ديكتاتورية شيانج، التى يستحوذ عليها الابتزاز، وذلك بهدف تحقيق درجة من السيطرة، تمكن من إنزال جيش صينى حقيقى، إلى الميدان، فى ارتباط مع الشيوعيين، ضد اليابانيين، استخدمت المدام مفاتيها واتصالاتها وصحافة لوس السخيفة لاستبعاد ستيل ويل، وقد عبرت خاتمة هوايت عن ذلك بصورة أفضل، "كنت قد بدأت الاعتقاد بأن الحكومة الصينية كانت عاجزة كلية على الحكم، لقد كان (شيانج) ليس فقط بلا قيمة لنا، لكنه كان بلا قيمة لشعبه أيضا، وذلك كان أكثر أهمية، لو أن ستيل ويل كان قد نجح فى تحقيق طريقه، ربما ما كان الشيوعيون قد كسبوا الصين، وإن كسبوا فإنهم كانوا سيكسبوننا كحلفاء لنا، أو على الأقل ما كانوا ينظرون إلينا كأعداء".

إلا أن ستيل ويل لم ينجح فى تحقيق طريقه، وبعد أن استسلم اليابانيون اندلعت الحرب الأهلية بين وطنى شيانج وشيوعى ماو فى ضراوة متجددة، ورغم بلايين الدولارات معونة من الولايات المتحدة، وأطنان المعدات والأسلحة التى جرى الإمداد

بها، لم يكن ذلك صراعا، لقد سار الشيوعيون عبر قوات شيانج مثل سكين ساخن عبر الزبد، وأسروا وهاجموا كل الأسلحة التي أمدت بها الولايات المتحدة الوطنيين، وبدا وكأن الأمريكيين كانوا يمدون الشيوعيين بينما كان الوطنيون يلعبون دور القانم بتسلم الطلبات، ووصف هوايت النظام المتاكل والحكم الذى كانت أمريكا مقيدة إليه، وكأنه عملية ضم "ما هو أسوأ فى ملامح البهو - التامانى" (*) لحكمة التفتيش الإسبانية^(٢٧)، إلا أن لوس لم يكن ينشر الأخبار السيئة؛ لأنها كانت تدمر فلسفته عن العالم.

لم يكن لوس هو الوحيد الذى عجز عن مواجهة الحقيقة؛ إذ بينما كان هوايت يرسل بنسخة لا تنشرها التايم، فإن مجموعة من المتخصصين فى الشأن الصينى، فى المخابرات الأجنبية للولايات المتحدة، بما فيهم جون سيرفيس، كانوا يرسلون إلى واشنطن رسائل مماثلة، لم يكن يقرؤها المسئولون، وفى النهاية، ترك هوايت التايم، واستولى الشيوعيون على الأرض الأساسية للصين، وهرب شيانج وسبائك ذهب الصين إلى جزيرة تايوان؛ حيث ظل هو والمدام أحياء، وطُرد جون سيرفيس من الخدمة حيث وجه إليه السيناتور جو مك كارثى، والجناح اليمينى المحافظ، وخبراء آخرون فى الشأن الصينى اللوم "لفقدان الصين".

ما أن أصبح شيانج فوق تايوان، حتى أمر بإعدام عدة آلاف من المعارضين، وأسس ديكتاتورية وطنية، فرضت الحكم العرفى قرابة أربعين عاما، وأكد أن حكومته هى الحكومة الشرعية، وأنه سوف يعود ويستولى على الأرض الأساسية، وسرعان ما اعترفت غالبية البلدان بذلك، سواء أحبته أو لم تحبه؛ حيث سيطر نظام ماو الشيوعى على كل الصين باستثناء تايوان، وأقامت تلك البلدان علاقات دبلوماسية مع بكين، دون الولايات المتحدة على أية حال، ودافعت الولايات المتحدة عن قصة شيانج فى تايوان،

(*) التامانى هو الساعى إلى التمتع بالسلطة بطرق كثيرا ما تكون فاسدة أو مشبوهة. (المترجم)

باعتباره الحكومة الشرعية للصين مدة ثلاثة وعشرين عاما، حتى بدأ نيكسون فى النهاية إعادة البلد إلى الواقع بفتحه الصين عام ١٩٧٢.

إن ما كان يكمن وراء هذه الممارسة فى تصورى، هو جماعة ضغط الصين، فى ارتباط بالحرب الكورية؛ إذ فور هروب شيانج إلى تايوان عام ١٩٤٩، أعلن دين أتشيسون وزير الخارجية أن "فرموزا" (أى: تايوان) كانت خارج محيط دفاع الولايات المتحدة، وهى إن كانت قد ظلت كذلك لكان الشيوعيون، دون شك، قد أنهوا الحرب الأهلية بالاستيلاء على الجزيرة بسرعة تامة، ولكن عندما نشبت الحرب الكورية أرسل "أسطول الولايات المتحدة السابع" إلى مضائق تايوان لحراستها، ومن أجل الجيل التالى، قامت التايم، والمنظمات الدينية، والقادة السياسيون مثل سيناتور والتر جورج، وجون فوستر دالاس، ودين رسك بإقناع الرأى العام الأمريكى أن ديكتاتورية شيانج الفاسدة فى تايوان كانت هى بطله الحرية والديمقراطية.

كانت حيلة نيكسون لإقامة علاقات ودية مع بكين هى كيفية التخلص من شيانج دون جعل الولايات المتحدة تبدو وكأنها تحنث بوعدها حول جيل من الدعم، وقد تم تحقيق ذلك من خلال "الازدواجية الخلاقة"، وخفة يد بليغة، وانتهزت الولايات المتحدة فرصة حقيقة أن شيانج ما يزال يرمى قصة أنه حكومة الصين الشرعية، وأنه سرعان ما سيعود ليسيطر على الأرض الأساسية؛ لتحدد الصين فى البيان مسألة تايوان باعتبارها الموضوع الذى يعوق تطبيع العلاقات، وأكدت معارضتها لأى وضع لتايوان غير أنها جزء متمم للصين، ولما كانت وجهة نظر شيانج مماثلة، وإن يكن لأسباب مختلفة، فقد أعلنت الولايات المتحدة أنها "تعترف أن كل الصينيين على جانبى مضيق تايوان الذين يعيشون هناك صين واحدة، وأن تايوان جزء من الصين، كان ذلك عملا ذكيا رغم أنه كان عملا مأكرا مخادعا، غير أن ما تلى ذلك وضع التزاما على الولايات المتحدة، وأكد البيان الرسمى أن "الهدف النهائى هو انسحاب كل قوات الولايات المتحدة والمنشآت العسكرية من تايوان، لكن كلمة نهائى يمكن أن تعنى زمنا طويلا منذ الآن، خاصة أن مبيعات أسلحة الولايات المتحدة، والعلاقات العسكرية مع

تايوان استمرت بكامل قواتها، كما تم الإبقاء على السفير الأمريكي لدى الصين في تايبيه^(*).

وظل الأمر كذلك حتى عام ١٩٧٩، وإصدار البيان الرسمي الثاني المشترك، وعندئذ وافقت الولايات المتحدة والصين على إقامة علاقات طبيعية، وبفعل ذلك، أعادت الولايات المتحدة تأكيد مبدأ الصين الواحدة، ووافقت على قطع العلاقات الرسمية بتايوان، وإقامة سفارتها في بكين، وإنهاء معاهدة دفاعها المشترك مع تايوان، وسحب كل قوات الولايات المتحدة من الجزيرة، وترك موضوع مبيعات السلاح دون حل، وبدأ هذا وكأنه يمكن أن يجعل من ابن شيانج، شينج كو، والذي هو الآن رئيس النظام الوطنى شيئا ما، لا يزيد عن حاكم إقليم صينى - غير أن المدام وريبها ما يزال لهما أنصار فى صحافة تصورهما كأبطال فى النضال من أجل الحرية، رغم ثلاثين عاما من الرقابة على الصحف والحكم العرفى فى تايوان.

وكان لهما أصدقاء فى الكونجرس أيضا، كانت إدارة كارتر قد أعدت مسودة مشروع قانون لتقديم عدد ضخم من البيانات القانونية عن انتقال الاعتراف الدبلوماسى للولايات المتحدة من تايبيه إلى بكين، إن هذه الوثيقة القانونية الرقيقة فى الأساس تحولت عام ١ٹ٧٩ إلى قانون العلاقات مع تايوان بواسطة مجموعة تمثل حزبين من رجال الكونجرس المتعاطفين مع تايوان يقودهما صديقنا القديم السيناتور جيسى هيلمز جنباً إلى جنب مع السيناتور تيد كينيدي، ديمقراطى من ماسا شوستس، وكان هنالك فى القلب من القانون شرط لبيع أسلحة لتايوان تكفيها دفاعا عن نفسها (أيا كان معنى ذلك)، والتزام من الولايات المتحدة بمقاومة أى لجوء إلى القوة أو الإكراه ضد تايوان، كما أوجد القانون شبه سفارة رسمية فى تايبيه،

(*) عاصمة تايوان. (المترجم)

والمعهد الأمريكى فى تايوان، وهو منظمة خاصة مندمجة فى واشنطن دى.سى.، وتمولها حكومة الولايات المتحدة، ولها مجلس من الأمناء يعينه وزير الخارجية.

يحتمل لو كنت صينيا أن ترى هذا القانون مدمرا لوعود الولايات المتحدة التى قطعتها فى "بيانها الرسمى الثانى"، وتلك فى الحقيقة كانت رؤية الصينيين لها بالضبط. وطالبوا بإيضاح، فانتج ذلك "البيان الرسمى الثالث" فى أغسطس عام ١٩٨٢، لم يكن الصينيون فى كل هذا، دون عيب، بالطبع، لقد أقاموا قوة صاروخية فى مواجهة تايوان، واستعرضوا بعض الطلقات الصاروخية عام ١٩٩٦ وحذروا من الحرب، إن أعلنت تايوان الاستقلال، لقد أصيبوا بالإحباط؛ لأن ضمانات الولايات المتحدة مكنت النظام فى تايوان من مقاومة مناقشات جادة فيما يتعلق حول نوع من التوحيد طبقا لنمط هونج كونج، ومن ثم فإن أفعالهم فى بعض الأحيان لم تكن سارة بل وحتى مخيفة، لكنهم كانوا يفكرون حينئذ بأن تلك بلدهم، إن مشابهة مثل "ماوى" الخيالية الخاصة بى، والتى غالبا ما يذكرها المتحدثون الصينيون: ما الذى كانت تحس به الولايات المتحدة، لو أن الصين أرسلت قواتا لدعم التحالف خلال الحرب الأهلية الأمريكية؟

من حسن الحظ، على أية حال، إنه ليس علينا أن نجيب على ذلك السؤال، ومع انتهاء "الحرب الباردة" اختفت فائدة الصين كشبه حليف للولايات المتحدة ضد الاتحاد السوفيتى، إن ذلك، جنبا إلى جنب مع تطور نظام ديمقراطى فى تايوان بعد لائى، أدى إلى حركة بين المحافظين الأمريكيين لدعم "إعلان استقلال تايوان"، وذلك شئ لم ينل دعم الأغلبية هناك، رغم النقاش الكثير، ولكن حدث بسببه النمو السريع للاقتصاد الصينى، خلال السنوات العشر الماضية، أن اندفع رجال الأعمال من تايوان فى أفواج يحركون مصانعهم إلى الأرض الرئيسية. وقد حاول نظام تايوان يانسا الحد، فى البداية، من الاستثمار وتدفق التكنولوجيا المتطورة، ولكن ذلك كان مثل مطالبة المد بالآ يتجه إلى الخارج، إن رجال الأعمال من تايوان هم الآن أكبر المستثمرين فى

الصين، هنالك حوالى نصف مليون من المقيمين السابقين فى تايوان يعيشون الآن فى شنغهاى، مع المزيد الذى يلحق بهم، ومن ثم، ربما يجد بوش نفسه يفعل أى شىء مهما اقتضى الأمر لحماية تايوان حتى يطفئ آخر مقيم فى تايوان النور ويبحر إلى الأرض الرئيسية، إننى بينما أكتب، فإن رحلة الطيران التجارية الأولى بين تايوان وأرض الصين الرئيسية منذ عام ١٩٤٩، قد حدثت، فى الحقيقة، هذا الأسبوع (٢٦ يناير عام ٢٠٠٣)؛ ولذا فإن آخر مقيم ليس عليه أن يبحر، ولكن فى وسعه أن يطير بالدرجة الأولى.

مغزى القصص

إن أمريكا بسياساتها نحو إسرائيل وتايوان، تواصل إلحاق الضرر البالغ بنفسها، وتخلق عداوة كثيفة، لا حاجة لنا بها، نحو نفسها بسماعها بتشويه وجهة نظرها عن الحقيقة، بواسطة مجموعات مهتمة بذاتها بشدة، وتحول عينيها عمداً عن الدليل المناقض، إن نظام حكومتنا، بما فيه انفصال القوى، يسهل للأقليات التى تركز نفسها لغرض معين، كى تمسك بمواقع رئيسية، وهى فى بعض الأحيان متأثرة للغاية بعناصر أجنبية تتصادم مصالحها مباشرة مع تلك التى للولايات المتحدة، إن سيناتور من ولاية بها أقل من مليون مواطن يمكن أن يقبض على السياسة الخارجية للولايات المتحدة إن أمسك هو أو هى بالرئاسة المناسبة فى الوقت المناسب، إن قوتنا الكبرى تمكنا، كما أشرت، من تجنب مواجهة للواقع لاماد طويلة من الزمن، ويمكن أن تؤدي إلى تحقيقنا أضراراً بالغة، ليس فقط للآخرين، ولكن لأنفسنا أيضاً.

وفى هذا الصدد فإن على صحافتنا أن تجيب على الكثير، لقد مر وقت طويل قبل أن تكتب الصحافة عن الحقيقة فى فيتنام، وهى لا تزال لا تروى حقيقة إسرائيل وفلسطين وتايوان، ومناطق أخرى عديدة حاسمة؛ لأنها فى الغالب أصابتها

أيديولوجيتها المقتنعة بها سابقًا بالعمى، أو الخوف من تحدى تحامل وتحيز قرائنها، وأخيرًا، على أية حال، فإن المشكلة ترقد مع هذا الجمهور من القراء، مع اهتمامات، في الغالب الأعم، ببلدان انتقائية، ومؤقتة أو كتعبير عن تحيزاته العرقية والدينية والسياسية، إن الأمريكيين يميلون إلى التفكير في البلدان الأخرى، ليس كأماكن حقيقية، بها شعوب حقيقية، ولكن كأدوات نقل لأرائهم عن الكيفية التي يجب أن يعمل بها العالم، أو تعويض ما حل بهم من ضيم تاريخي، لا تجعلنى أنطلق حول كوبا.

الفصل التاسع

أصدقاء وأعداء

كنت أتابع، فى ٩ نوفمبر عام ١٩٨٩، سى إن إن، شأنى فى ذلك شأن ملايين الآخرين على امتداد العالم، ألمان برلين الشرقية، وألمان برلين الغربية وهم يطرقعون سدادات زجاجات الشمبانيا، أعلى سور برلين، الذى ظل طويلا رمزا للحكم الاستبدادى والتقسيم، لقد غدا الآن فجأة رمزا للنصر والحرية والأمل، إن الأربعين عاما من الحرب الباردة، والستارة الخلفية المشنومة لمسرح كل حياة جيلى، قد انتهت، ليس فى "الهرمجدون"^(*)، ولكن فى ضحك الناس الأحرار وغنائهم، لقد كانت لحظة عظمى لى ولجىلى وللولايات المتحدة التى قادت النضال والمثل العليا والقيم الغربية.

وتحسنت الأمور؛ إذ قبلت العراق، فى ٢ مارس عام ١٩٩١ - شروط الائتلاف بقيادة الولايات المتحدة لإنهاء "حرب الخليج"، والتى بدا أنها قد أنهت وعلى طول المدى، تهديد ديكتاتور العراق، صدام حسين لجيرانه، وتم حل "ميثاق وارسو" فى يوليو ١٩٩١، وانتهى الاتحاد السوفيتى الضخم، وغير القابل للتخريب، "إمبراطورية شر" رونالد ريجان، فى يوم عيد ميلاد عام ١٩٩١، إن النضالات الأيديولوجية بين الفاشية والشيوعية، والرأسمالية الديمقراطية، التى حددت معالم القرن العشرين - انتهت،

(*) المكان الذى ستجرى فيه المعركة الفاصلة بين الخير والشر. (المترجم)

والرأسمالية الديمقراطية هي الوحيدة الباقية حية، وقد أطلق فرانسيس فوكوياما على ذلك جملة شهيرة هي "نهاية التاريخ"، وبدأ سريعا أنه على صواب. وتبرعمت الديمقراطية في التربة التي كانت يوما قاحلة، تربة أمريكا اللاتينية، بينما تبنت الصين شيئا يدعى "اقتصاد السوق الاشتراكي"، وهو تعبيرها الخاص عن الرأسمالية، وحتى الإسرائيليين والفلسطينيين بدوا وقد دخلوا في حالة نفسية؛ حيث أطلقوا ما أصبح يعرف بـ"عملية أوسلو للسلام"، واحتل ذروة كل ذلك، النمو الاقتصادي العالمي، وقد تدعم بالازدهار الأكبر في تاريخ أمريكا، وانطلق من عقالة في النهاية النموذج الأمريكي الفريد للرأسمالية، بزغ كالمعيار الذي لا بد وأن يتجه العالم، لا محالة إليه.

وبدا أنه ليس هناك من أعداء للولايات المتحدة، كان الرئيس يلقي الترحاب في أي مكان، في لندن، في باريس، في الرياض، في موسكو، في بكين، في سيول، في جاكرتا، في القاهرة، في نيو ميكسيكوسيتي، أو في بيونس أيرس، كانت تلك هي لحظة الفرصة والأمل، مثلما كانت أعوام ١٩٤٦ - ١٩٤٨، عندما سمت أمريكا أيضا فوق العالم، وبدأت وضع أسس نظام عالمي جديد للتعاون متعدد الأطراف، فقط اعترض انفجار الحرب الباردة عملها بوقاحة، كانت هذه اللحظة حقيقة هي الأفضل، فقد انتصرت المؤسسات والمفاهيم التي تأسست في المرحلة الأولى، والآن ليس هناك من منافس محتمل يمكن أن يهدد بنزاع جديد.

كان هناك أيضا فرق آخر مهم، فقد فكر أنشيسون، وقادة تلك الحقبة المغايرة، لما بعد الحرب، برعى في أن يكونوا "موجودين وقت خلق" النظام العالمي الجديد، وأن يلعبوا دورا مباشرا في صياغته، فكر قادة التسعينيات في أنهم سوف يحققون "النيرفانا" (*) بطريقة أوتوماتيكية، لم يكن عليهم غير اتباع نصيحة رونالد ريجان أن

(*) السعادة القصوى. (المترجم)

يشقوا المجرى، وقد قال فوكوياما: إن الديمقراطية الليبرالية تمثل دولة النهاية السياسية؛ "حيث تمنح الفرد الجدارة الذاتية، التي كان يبحث عنها طوال تاريخه"^(١)، إنه عالم من ديمقراطيات ليبرالية متماثلة العقلية، لديها حافز ضئيل للحرب؛ لأن الديمقراطية كما يعرف كل امرئ لا تذهب إلى محاربة بعضها البعض؛ إذ من الأجدى لها أن تتاجر وأن تحقق الثراء، إن عالما مكونا من مثل تلك الديمقراطيات سوف يشكل نظاما مستقرا وسلميا، ومن ثم يجب أن تكون الأولوية الأولى للولايات المتحدة هي تعزيز توسيع نطاق الديمقراطية، وقد تمت الإجابة على السؤال عن كيفية فعل هذا، بالكلمة المفردة الفاتنة "العولة"، وقد اعتبرت هذه النعمة المغرية أسرة إلى حد أن بلدانا سوف ترغب في تبني قواعد عامة شديدة القسوة (مثل الرداء الخارجى المصنوع من مادة قوية مقيدة لتوم فريدمان)^(٢)، حتى تحقق الثراء، وأكثر ديمقراطية، تصبح أكثر حداثة، ومن ثم أكثر تكريسا للسلام والاستقرار، والملاحقة البريئة للسعادة، لقد كان حلما جميلاً، وأفضل ما فيه أنه لم يكن يقتضى وجود "أحد من أى نوع من "الخلق".

ما أن كسب قادة الولايات المتحدة الحرب حتى بدؤوا إساءة إدارة السلام، فقد واصلوا العمل وكأن الحرب الباردة والقرن العشرين لم ينتهيا، وبينما انخفضت فعليا نفقات الدفاع، على الأقل قليلا، فإنها ارتفعت بالفعل، فى علاقة نسبية بتلك التى للاتحاد السوفيتى القديم، والبلدان الأخرى التى تلاشت، إن أبنية التحالف القديم كانت مصونة فى ظل الشروط القديمة مع كوريا واليابان، وإلى حد ما ظلت أوروبا محميات أمريكية ودولا تابعة، بل إن التزامات عبر البحار والقواعد العسكرية توسعت، وخاصة فى الخليج الفارسى، مع إقامة القاعدة الجوية الكبيرة فى العربية السعودية كما ذكرنا أنفا، وتواصل فى نفس الوقت إهمال عمليات أجنبية غير عسكرية، وتواصل ارتفاع كمية الالتزامات الأمريكية للأمم المتحدة والمستحقة الأداء، بينما هبطت ميزانيات معونة الولايات المتحدة والمواقع الدبلوماسية عبر البحار، وواصلت الولايات المتحدة التفاوض بعدوانية من أجل الوصول إلى اتفاقات تجارية دولية مثل "اتفاقية أمريكا الشمالية

للتجارة الحرة" (نافتا) و"جولة أوروغواي" التي أوجدت "منظمة التجارة العالمية" من "الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة"، إلا أن البنات التجتية الأساسية، وأحوال المشاركين الجدد، والأسواق التي فُتحت حديثا - لم تحظ بأى تفكير، إن "إجماع واشنطن" يُعلم أن التجارة الحرة سوف تعتنى بكل ذلك أوتوماتيكيا.

وأهملت أيضا تطورات أخرى مهمة، إن الولايات المتحدة، وقد هزمت الاتحاد السوفيتى، فعلت القليل لمساعدة النول التي خلفته لتحقيق التحول من الشيوعية والتخطيط المركزى، إلى الديمقراطية والأسواق الحرة، والقليل لصيانة المخزون من مواد خطيرة هزيلة الحراسة، إن أمريكا وحلفاها يهددهم إيمان بإمكان الإبقاء على النادى الذرى محدودا، أمسكت المفاجأة بتلابيبهم عندما أعلنت الهند وباكستان عضويتها الجديدة، فى ضربات عنيفة عالية، وبينما تحت العولة على نمو اقتصادى فى بعض المناطق، فإن ميلها إلى فعل ذلك بطريقة غير متساوية، مع خلق فجوات أكبر بين الأغنياء والفقراء قد نُظر إليه بشعور من الارتياح، كذلك نُظر أيضا إلى حقيقة أن العولة قد جعلت تلك الفجوات أكثر وضوحا، وفرضت على شعوب ذات معتقدات وقيم مختلفة للغاية - صلة حميمة بطرق تهدد هويتها، إن نهاية الحرب الباردة، وتطور الاتحاد الأوروبى وعملته الجديدة اليورو قد غيرت بصورة درامية ديناميكيات العلاقة الأمريكية - الأوروبية، إلا أن هذا التطور لم يتم الاعتراف به أيضا، وكان الأكثر من ذلك هو الأثر المزعج، لاستخدام الولايات المتحدة للمخدرات والسياسة، على أمريكا اللاتينية، أو مفاهيم الحس الإسلامى عند فقدان الاحترام، وأهمية السياسات المحطمة لليابان، والديمقراطية الجديدة فى كوريا، وولادة الصين من جديد، إن الانتشار السريع لوباء "الإيدز"، جنبا إلى جنب مع أوبئة أكثر انتشارا، كالملاريا والسل، نظر إليها كمشكلة نائية، وكذا التكهات القائلة: إنه فى عام ٢٠٠٥ سيفقد ثلث العالم ماء الشرب النظيف، وأن ارتفاع مستويات البحر والفيضانات سوف تؤدى إلى انخفاض مستوى القمح فى أماكن مثل مصر وباكستان بنسبة تتراوح من ٢٠ إلى ٥٠٪^(٣)، إن ذكر مثل تلك الأشياء كان أمرا فظا أخرق، وإلهاء عن الأخبار الأكثر أهمية بكثير، والصادرة عن وول ستريت.

والنتيجة أنه بينما يمكن أن يكون القرن العشرين قد انتهى يوم عيد ميلاد عام ١٩٩١، فإن القرن الواحد والعشرين لم يبدأ حتى ١١ سبتمبر عام ٢٠٠١، عندما أظهرت الهجمات على برجى التجارة العالمية والبنتاجون بوضوح أن التاريخ ما يزال على الدرب. وأن العولة ليست بالضرورة إكسيرا سحريا، إن تلك الهجمات قد فجرت تحولات بعيدة المدى فى العلاقة الكونية مع بعض أصدقاء أمريكا القدامى، وهم يظهرون أكثر مثل الأعداء، ومعارضين قدامى يظهرون أكثر مثل الحلفاء.

أوريا

لم تكن تلك التحولات أكثر حدة فى أى مكان، مما هى عليه فى أوريا؛ حيث لأمريكا أكثر روابطها الدولية طولا وأهمية، ورغم أن الولايات المتحدة ولدت من ثورة ضد بريطانيا، والكثير الذى كان أوريا، إلا أن المبادئ التى تم التعبير عنها فى "إعلان الاستقلال" و"دستور الولايات المتحدة" كلها مأخوذة من الفكر الأوربى، وكان تحالف "الناقو" الذى تأسس على قيم عامة من الديمقراطية وحقوق الإنسان ومقاومة القهر هو الذى كسب الحرب الباردة، إن تحالف الولايات المتحدة وأوريا هو الذى شكل مثل تلك المؤسسات الاقتصادية الكونية الأساسية مثل "صندوق النقد الدولى" و"البنك الدولى" و"منظمة التجارة العالمية"، إن تفاعل اقتصاديات الولايات المتحدة والأوربية هو الذى دفع العولة أساسا، إن استثمارات الولايات المتحدة فى أوريا تصل إلى ٨٠ مليار دولار^(٤)، وهى أكثر بكثير من استثماراتها فى آسيا وأمريكا اللاتينية مجتمعة، ونتاج مصانع الولايات المتحدة العاملة فى أوريا يصل إلى حوالى ربع إجمالى الناتج المحلى الأوربى، وتصل استثمارات أوريا فى الولايات المتحدة إلى قدر مماثل، إن إجمالى الناتج المحلى للولايات المتحدة وأوريا معا هو ١٠ تريليون دولار، و٩ تريليون دولار على التوالى، ويصل إلى حوالى ٦٠٪ من الاقتصاد الكونى، وكما أخبرنى رئيس منظمة التجارة العالمية ورئيس "بريتش بتروليوم" حاليا بيتر سوزرلاند - "أن نجاح حلفائنا أساسى لنجاح النظام الكونى".

إن سوزرلاند تحديداً على صواب، وتلك الحقيقة وحدها هي التي تجعل الحالة المتزايدة الاضطراب للتحالف مزعجة إلى حد كبير، وبينما لا تزال استفتاءات "بيو" للرأي توضح وجود أغليات في أوروبا ذات منحى إيجابى تجاه الولايات المتحدة، إلا أن النسب في كثير من باقى العالم أقل من ذلك، وهى فى هبوط^(٥)، ففى "المنتدى الاقتصادى" فى دافوس فى يناير عام ٢٠٠٢، وفى اجتماع بيلدبرج فى ربيع عام ٢٠٠٢، وفى اجتماع "شبكة سياسة عبر الأطلنطي" فى ربيع عام ٢٠٠٢، لاحظ كبار رجال الأعمال، والحكومة والإعلام، وقادة أكاديميون من جانبى الأطلنطي - أن الفجوة بين الولايات المتحدة وأوروبا لم تكن البتة بهذا القدر من الاتساع. وبعد السعى عن معادل لحلف الناتو فيما يتعلق بإعلان الحرب، ورفض الولايات المتحدة مساعدة تقوم على التحالف فى أفغانستان بعد ١١ سبتمبر، على أساس أن الأوربيين سوف يؤدون فقط إلى إبطاء الأمور؛ مما جرح الكبرياء الأوروبى، بل وأثار أيضاً أسئلة حول الغرض من التحالف، وبينما ضغطت الولايات المتحدة من أجل حل عسكري سريع لمشكلة أسلحة الدمار الشامل العراقية، أصرت أوروبا على قرارات الأمم المتحدة، وعلى تأكيدات وتحقق الوعود العراقية بتحطيم الأسلحة. حقاً، إن المستشار الألمانى، جيرهارد شرودر، أخذ على نفسه عهداً ألا تدعم ألمانيا عملاً عسكرياً فى العراق تحت أى ظرف من الظروف، ودقت العقيدة الجديدة للولايات المتحدة بالحرب الوقائية والاستباقية أجراس الإنذار فى أوروبا ذات الخبرة الحميمية، عن الحرب إلى حد بعيد للغاية، أكثر مما لدينا، وعندما رفضت الولايات المتحدة اتفاق كيوتو، والمحكمة الجنائية الدولية، واتفاقيات أخرى، تحركت أوروبا قدماً لتأكيد أنها ستضع تلك الاتفاقيات فى التطبيق حتى بدون مصادقة الولايات المتحدة، وانتشرت على قمة هذا كالفطرنزاعات تجارية حول موضوعات مثيرة للعاطفة مثل الأغذية المعالجة جينياً.

يضاف إلى ذلك، أن النغمة التى كانت تناقش بها تلك الموضوعات، غدت أكثر خشونة عن أى وقت مضى، وقد عبر أصدقاء أمريكا، الأوربيين القدامى، عن شعورهم بالخديعة وخيبة الأمل، وقد قال لى إتيين دافيجنون، المفوض السابق للاتحاد الأوروبى:

إن أمريكا تنسف الناقو لصالح تحالف الراغبين، وقد قال مارتن وولف، محرر العمود ب الفيننشيل تايمز: إن الولايات المتحدة تملك أصولا ضخمة، إلى حد لا يصدق، تتطابق فيها المصلحة الدولية مع مصالح الولايات المتحدة، غير أن كل ذلك قد أُلقي به الآن بعيدا، إن الولايات المتحدة اليوم تثير الخوف؛ لأنها لن تكون مقيدة، إن اليسار قد فكر دوما في الولايات المتحدة باعتبارها دولة مارقة، غير أن المركز يفكر الآن بذات الطريقة".

إن الولايات المتحدة، بالنسبة للعديد من الأوروبيين - قد أدارت ظهرها للقيم الداعمة للنظام الكوني، وأثمرت طبقا لكلمات وولف فكرة أن "القوة تصنع الحق"، وعلى الجانب الأمريكي، أشار دوج فيث، وكيل وزارة الدفاع، إلى سياسة الولايات المتحدة قبل الناتو، بأن تعمل من أجل "الإبقاء على الأسطورة حية"، بينما قال مسئول في البيت الأبيض عن الأوروبيين: إنهم "أصدقاء الطقس الصافي"^(٦)، وقد ادعى، روبرت كاجان، في كتابه الصادر عام ٢٠٠٢، والذي نوقش كثيرا، "الجنة والقوة" - أن أوروبا من كوكب "الزهرة"، بينما الولايات المتحدة من كوكب "المريخ"، وقال إن ضعف أوروبا العسكري أوجد ميلا إلى كل من تهدة أمريكا وتقييدها^(٧)، إن أوروبا تُصور - على نحو ما - في أمريكا، ليس فقط باعتبارها مهدئة، ولكن أيضا باعتبارها معادية للديمقراطية، ومعادية للسوق، وتتنظر إلى الداخل، وتحصل على الأشياء بدون الثمن أو الجهد المعتاد، وهي غير راغبة في إنفاق النقود على الدفاع، بينما تحسد الوحدة وتغتاز من قوة الولايات المتحدة ونجاحها.

وترقد عميقا، تحت تلك الموضوعات والإحباطات النوعية - أمور تتعلق بالقيم، والدوافع والنماذج، ويعلق دومينك مويسى، محرر العمود الفرنسي في الفورين أفيرز - أن "العداء للتأمرك"^(٨)، في السبعينيات، كان رد فعل لما فعلته أمريكا، غير أن العداء

(*) اصطلاح أمريكي خاص بالولاء للولايات المتحدة. (الترجم)

للتأمر الآن هوردد فعل لما عليه أمريكا^(٨)، وقد حذر معلقون في الولايات المتحدة مثل جون أوسوليفان من ذى ناشونال ريفيو: إن الاتحاد الأوربي ينجرّف نحو التحول إلى قوة معادية للولايات المتحدة^(٩)، ويرد مارتن وولف بقوله: إنه ربما يكون على الاتحاد الأوربي والصين والهند أن يصطفوا معا كي يوازنوا الولايات المتحدة.

ليست هذه صورة طبق الأصل لزوجين منذ عهد قديم، إن الصفائح الكونية يمكن أن تغير بطريقة درامية، إن لم تحطم، النظام الكونى الذى وصفه سوزرلاند، إن القول "بنهاية التاريخ"، يزعم أن الرأسمالية الديمقراطية المنتصرة متكاملة، لكن هنالك فى الحقيقة عناصر، يمكن أن تشتمل على حرب بين الولايات المتحدة وأوربا؛ لأنه من كل القوى العالمية، فإن لأوربا فقط الحجم، والموارد، والمؤسسات، والتقنية لتحدى الولايات المتحدة، إن بعض المراقبين بما فيهم فوكوياما يسألون، فى الحقيقة: إن كان تعبیر "الغرب" لا يزال له معنى^(١٠)، فإن وضعت السياسة الأمريكية المعلنة فى الحساب، تلك السياسة التى تقوم على منع قيام أى متّحد لها، فإن هذا الخط من التفكير يجعل النكته الخاصة بغزو الولايات المتحدة "للاهياي"، التى قبلت نتيجة معارضة الولايات المتحدة لـ "المحكمة الجنائية الدولية"، يجعلها فجأة أقل إثارة للضحك بكثير. حقا إن يحدث غزو حقيقى، غير أن نوعا من الحرب الباردة الأمريكية الأوربية احتمال واضح جلى.

إن عددا محدودا من الأمريكيين هم الذين يعرفون مدى الإنجاز الاقتصادى الأوربي، إننا بدلا من ذلك، نتجه إلى أن نكون نافذى الصبر مع أوربا بسبب ما تواجهه من صعوبة للوصول إلى وضع موحد، وبسبب لجانها التى لا تنتهى، وانشغالها بالصفحات الثمانية آلاف من "مكتسبات المجتمع"^(*)، المخدرة للعقل، والتى تشكل القواعد والنظم الكاملة للاتحاد الأوربي، ولكن كما ذكر الرئيس كينيدي فى حديثه

(*) التشريعات المتراكمة، القوانين، وقرارات المحكمة التى تشكل قوام قانون الاتحاد الأوربي. (المترجم)

عام ١٩٦٢، دعما لهذا الجهد أن مهمة بناء أوروبا موحدة عملية مخيفة أكثر بكثير من مهمة بناء الولايات المتحدة، ولقد تذوقت شخصيا هذه الحقيقة عندما كنت أعمل في بروكسل في السبعينيات كرئيس لعمليات التسويق الأوربي لشركة سكوت للورق، وكان لنا شركات فرعية في غالبية البلدان الأوربية الكبرى، وكنا نحاول معايرة عملياتنا حتى يمكن نشرها على اتساع أوروبا، وكان هذا الجهد يقتضى دعوة مديري التسويق معا من مختلف البلدان لتناقش التغيرات، وكانت المشكلة الأولى هي اللغة. كان المفروض أن تكون اللغة الإنجليزية هي اللغة الفاعلة، إلا أنها لم تنجح دائما، وغير ذلك، كانت هناك آلاف الأسباب حول لماذا لم يكن فى الإمكان تبني استراتيجيات على اتساع أوروبا، مثال ذلك: كان لدينا مصنع ورق فى شمال إيطاليا، وآخر فى شمال بلجيكا، وكنا نود إمداد السوق الفرنسى من هذين المصنعين، غير أن ما حدث هو أن لفات المناشف كانت أعرض قليلا فى بلجيكا عنها فى إيطاليا، مما أثار التشوش عندما وصلت الشحنات إلى أسواق فرنسا المركزية، كذلك اشتمال رقعة التعريف فى بريطانيا على معلومات مغايرة لتلك التى فى هولندا، إن فى وسعى أن أواصل، لكنك أدركت الصورة، كانت عملية طويلة مملة، غالبا ما تتأثر الجنون، وكنت أنا أتعامل مع شركة واحدة فقط، وخط إنتاج واحد بسيط للغاية، واندثشت من نشاط وصبر وتفانى المسؤولين الأوربيين الذين يبنون الاتحاد الأوربي، طبقا لمعيار واحد، فى وقت واحد.

وانظر إلى ما تم إنجازه، لقد هُزم الاتحاد الأوربي التضخم العنيف، والعجز الجامح فى الميزانية الوطنية، ووضع حدا للعجز الجديد، وأسس بنكاً مركزياً أوربيا واحداً، ويستخدم الآن عملة واحدة فقط، كما يمكنك السفر فى طول أوروبا وعرضها دون أن تغير النقود البتة، أو تظهر جواز مرورك، وغالبا ما يقال: إن للولايات المتحدة أكبر اقتصاد فى العالم، تليها اليابان، غير أن تلك وسيلة عتيقة للنظر إلى الأمور، ففي ١٣ ديسمبر عام ٢٠٠٢، قرر الاتحاد الأوربي إضافة عشرة بلدان أعضاء جدد، وكان يونيو عام ٢٠٠٤ فعالاً؛ إذ زاد عدد سكانه الكلى إلى ٤٥٠ مليوناً من البشر،

ووصل إجمالي الدخل المحلي إلى ٩ تريليون دولارا - ضعف حجم اليابان، وبالنسبة وبراء الولايات المتحدة، التي بلغ إجمالي دخلها المحلي ١٠ تريليون دولارا، يضاف إلى ذلك أنه في حالة يقوى اليورو أكثر بكثير في مواجهة الدولار، فإن الاتحاد الأوروبي يمكن أن يصبح هو رقم واحد.

إن أهمية هذا التطور لا يمكن المغالاة في تقديرها، ولا يمكن للولايات المتحدة، في الاقتصاديات الكونية؛ حيث أوروبا قوة عظيمة كاملة النمو أن تتصرف منفردة، إن الاتحاد الأوروبي يتحدث بصوت واحد، عبر مسئول كبير واحد - كما فعلت في شئون التجارة والزراعة والمعايير التكنولوجية، وسياسة المنافسة والعمل، ولذا فهو ند كلى للولايات المتحدة، ولا يمكن بأية حال من الأحوال دفعه جانبا، ولو كان هناك أى شيء فعله، فهو قد وضع المعيار، إن جاك ولش، المسئول التنفيذي لـ "جنرال اليكتريك" (جى إى) ورب عمل سابق، عرف أن الطريق صعب، عندما غنت أوزته العراقية أغنية الموت قبل الاعتزال، فى الوقت الذى حاول فيه تحقيق دمج جنرال اليكتريك مع "هونى ويل"، عندما بدأ ذلك العمل بهمة ونشاط، من خلال عملية تقوم بها "مقاومة التروستات" (*) "بإدارة العدالة" بالولايات المتحدة، اعتبرها وول ستريت صفقة تتفق والعرف الاجتماعى، وفتحوا زجاجات الشمبانيا، لكن الأمر سرعان ما انقلب ظهرا لبطن" لقد قدروا دون أن يضعوا فى حساباتهم، ماريو مونتى، مفوض الاتحاد الأوروبي لسياسة المنافسة، والذي قتل الصفقة، وحطم عقد اعتزال ولش، ومن ثم، أثبت أنه لا يمكن تحقيق اندماج بين شركتين مقرهما الولايات المتحدة، ولهما عمليات فى أوروبا، دون موافقة أوروبية، وهو بفعله ذلك قد أكد أيضا صحة عقيدة المنافسة التى ركزت على الأثر الذى يحل بالمتنافسين، أكثر من ذاك الذى يحل بالمستهلكين، كما هو نموذجى فى الولايات المتحدة.

(*) مقاومة تجميع الرساميل الكبيرة. (المترجم)

لكن العملة - على أية حال - هي الملك أكثر من سياسة المنافسة، كان خط وول ستريت قبل أن تتحقق تلك العملة، يتحدث وخاصة على صفحات، وول ستريت جورنال، إن توحيد العملة الأوروبية لن يحدث أبداً، وعندما حدث كان الخط الجديد هو أن ذلك لن ينجح، وحتى إن نجح فإن اليورو لن يشكل تحدياً للدولار، وإذا ما كان سينجح على المدى الطويل، فإن الزمن وحده هو الذى سيقول ذلك، لكننا نرى الآن بالفعل أثراً ما على الدولار، ففي أواخر فبراير عام ٢٠٠٢، حولت روسيا بعضاً من احتياطياتها من الدولار إلى اليورو، بينما واصل الدولار اتجاهه نحو الضعف، إن اليورو يبيّز كشيء لم يره العالم منذ ستين عاماً: بديل قابل للحياة كعملة احتياطية للدولار، أما وقد فعل ذلك، فإن الولايات المتحدة سوف تجد حريتها فى العمل قد ازدادت تقييداً فيما يتعلق بمعدلات الفائدة، ومعدلات المخدرات والعجز التجارى، وربما تجد نفسها فى صراع مع أوروبا، بشكل عام، للتحكم فى صندوق النقد الدولى، والبنك الدولى، ومنظمة التجارة العالمية، إن هذه المنافسة يمكن أن تصبح كثيفة، بصورة خاصة، إن اتسعت الفجوة بين أمريكا وأوروبا حول موضوعات كونية أكثر اتساعاً، وفى النهاية، فإن ذلك يمكن أن يؤثر على مقدرة أمريكا فى إظهار القوة.

ويحتمل أن يرى الاقتصاددان أن النزاع يتصاعد بطرق أخرى كذلك، تماماً مثل "روما" و"بيزنطة" واللذان أقامتا فى النهاية مجتمعين مختلفين تماماً، بعد انقسام "الإمبراطورية الرومانية"، وهكذا طورت الولايات المتحدة وأوروبا نموذجين اجتماعيين اقتصاديين جد مختلفين، حتى إنهما يحتكان، الواحد منها ضد الآخر، بصورة متزايدة، بسبب العولة. وفى القلب من هذه الخلافات هناك أنوار ومسئوليات كل من الفرد والحكومة، إن أمريكا بالطبع تؤكد على الفرد ولا تثق بالحكومة، إنها تؤمن بتساوى الفرص، لكنها تعتقد فكرة عدم مساواة النتائج بصورة واسعة، وقد حثت مجلة بيزنيس ويك، فى مقالها الافتتاحى فى ٢٦ أغسطس عام ٢٠٠٢، على تبني سياسات يمكن أن توسع الفجوة بين الأغنياء والفقراء فى الولايات المتحدة، وهى قد فعلت ذلك على أسس أنه رغم الفجوة الأوسع، فإن المستوى المطلق لدخل الفقراء سوف

يرتفع أيضا^(١١)، إن هذا الجدل لن يكون جدلا محبوبا في أوروبا؛ حيث يتم التأكيد على التخفيف من عدم مساواة النتيجة، والاعتقاد بأن للحكومة دورا إيجابيا تلعبه تعزيزا لرفاهية المجتمع، وقد جادلت الولايات المتحدة دوما، فيما يتعلق بالنقاش الخاص بالنمو - مقابل - رفاهية - الدولة، إن سياستها بعدم التدخل إنما ترعى بدايات العمل، والانطلاق، والابتكار والتجديد، والنمو والإنتاجية، بينما يتم الإبقاء على البطالة منخفضة، ويشير معلقو الولايات المتحدة إلى النمو المنخفض ومعدلات البطالة العالية في أوروبا، بينما يقول الأوروبيون: إن العاطلين لديهم يعيشون أفضل مما يعيش كثير من الأمريكيين الذين يعملون، ويرثى الأوروبيون لحال الأعداد الكبيرة من الأمريكيين الذين يفتقدون التأمين الصحي، ويعيشون تحت مستوى الفقر.

وقد بدأ أثناء التسعينيات أن هذا الجدل قد يسوى لصالح الأمريكيين، بدأ الأوروبيون يجربون رفع القواعد والقيود المنظمة، ويخصصون بينما ينطقون كلمة "حامل السهم"، ويستتسخون "ناسداك"^(*) دون تزاوج، غير أنه بانهيار الفقاعة التكنولوجية، بدأ النموذج الأمريكي أقل جاذبية، وبدأ الجدل في الاتجاه إلى درب آخر، وكما قرر لويس سكويرز، الرئيس التنفيذي لـ "ريتولت"، في محادثة قريبة "إنه من الصعب تصديق الفكرة الأمريكية القائلة بأن سعر السهم لفترة زمنية قصيرة هو أفضل السبل لقياس قيمة أداء شركة أو مدير، يضاف إلى ذلك أنه رغم الرؤية الأمريكية العامة لصلابة اليورو، فإن العديد من الاقتصاديات الأوروبية ذات الضرائب العالية والمدفوعات الخاصة بالرفاهية، مثل السويد والأراضي الواطنة، تحقق نجاحا كبيرا للغاية، وعموما فإن أداء الاتحاد الأوربي لا يتخلف كثيرا وراء ذلك الذي للولايات المتحدة، مثال ذلك: أنه عندما يجرى ضبط صحيح لعمليات المحاسبة، يتضح

(*) بورصة ناسداك. (المترجم)

أن الكثير من الزيادة التي يُعلن عنها حديثاً بصورة صاخبة عن إنتاجية الولايات المتحدة - هي في الحقيقة إلى الوراء من تلك التي لأوروبا^(١٣)، والأكثر أهمية من أوجه عديدة هو أن الأساسيات الاقتصادية للاتحاد الأوربي تبدو أفضل من تلك التي لأمريكا، إن معدلات مدخرات الاتحاد الأوربي هي ٦,٣٥٪ مقارنة بنسبة تقريبية قدرها - ٣٪ لأمريكا^(١٣)، وبينما تتوازن تقريباً تجارة الاتحاد الأوربي مقارنة بالعجز التجاري التتموى الكبير للولايات المتحدة^(١٤)، ومن ثم فإنه مهما حققت الولايات المتحدة من تفوق في نموها الاقتصادي، فإنه يتوجب عليها أن تقترض حوالى ٥٠٠ مليار دولار سنوياً من أوروبا وأماكن أخرى، وكما أشار مارتن وولف فإن اقتراض الولايات المتحدة الآن عال للغاية حتى إنه غداً أمراً غير محتمل، يضاف إلى ذلك أن الكثيرين ينظرون إلى أوروبا باعتبارها أكثر تقدماً في عمليات وأساليب العولة نتيجة خبرتها في دمجها اقتصادياتها الوطنية كلية في الاتحاد الأوربي، وكلما تقدمت العولة، أفرز الاتحاد الأوربي نموذجاً بقوة، وسوف يكون هذا النموذج جذاباً، ومن ثم، فبدلاً من معايير المحاسبة الخاصة بالولايات المتحدة، مثلاً ربما يتبنى العالم تلك التي للاتحاد الأوربي، وبدلاً من قواعد الولايات المتحدة لخصوصية الإنترنت، قد يتبنى العالم تلك التي للاتحاد الأوربي، وربما تكف العولة سريعاً على أن تكون لعبة أمريكية.

إن الأوربيين فخورون حقاً بتلك الإنجازات، وتلك القيم التي أنتجتها، لقد كان تشاركننا ذات القيم تعويذة روحية، منذ زمن طويل الحوار الأمريكي - الأوربي، لكن بينما نحن ورثة نفس الخلفية الثقافية العريضة، والمدافعون عن الديمقراطية، هنالك بالفعل اختلافات كبيرة في القيم، وواحد من أكبر تلك الخلافات هو الدين؛ إذ بينما يذهب نصف كل الأمريكيين إلى مكان للعبادة في نهاية كل أسبوع، فإن العدد في أوروبا أقرب إلى أن يكون ١٥٪. إن الأوربيين عادة ما يجدون في نقاشات الأمريكيين حول الإجهاض والتطور، في مواجهة قصة الخلق - مسألة يصعب فهمها، بل والأكثر صعوبة على الفهم، وأكثر إثارة - هي تلك النداءات العديدة التي يطلقها قادة الولايات

المتحدة السياسيون "لرب"، ليبارك أمريكا، وكأن هذه الأمة أكثر استحقاقا لمحابة الرب من الأمم الأخرى، فمن غير المحتمل - إلى حد كبير - أن يسأل توني بلير، أو جاك شيراك، الرب، في أي وقت، في خطبة عامة - أن يبارك بريطانيا أو فرنسا.

إن الأوروبيين قلقون من الصبغة الدينية للسياسة الخارجية الأمريكية، بعناصر صليبية ومأنوية^(*) يمكن أن تؤدي إلى نزاعات عنيفة لا داعي لها، ويميل الأوروبيون، وهم لا يؤمنون كثيرا بالخير في مواجهة الشر، للنظر في الأسباب الاجتماعية والاقتصادية للمشاكل، وكما لا يشارك الأوروبيون الالتزامات الدينية لأمريكا، فإنهم أيضا لا يشاركونها وطنيتها المفرطة، إن طالبا تبادليا^(*) سويسريا ظل عدة شهور مقيما مع أسرتي، أصيب بصدمة من نشر الرايات، والعهود العديدة بالولاء التي صادفها في الولايات المتحدة، هنالك - مرة أخرى - إحساس في أوروبا أن هذا التأمرك العاطفي يمكن أن يتحول، في بساطة، إلى عدوانية، إن الأوروبيين لا يتشددون، نتيجة لتاريخهم، للوطنية، ويبدون منغمسين في مفاوضات لا نهاية لها لحل موضوعات خطيرة.

وبينما يؤكد الأمريكيون المساواة في الفرصة، فإن الأوروبيين يركزون أكثر على المساواة في النتائج، إن شركة "نوكيا" هي المنتج العالمي القائد للهواتف الخلوية، ومع ذلك فإنها تدفع لمديريها التنفيذيين أكثر الرواتب تواضعا نسبيا، ويتسائل الأوروبيون: لماذا يحتاج المديرون التنفيذيون الأمريكيون أن يدفع لهم أكثر كثيرا جدا من عمالهم، إنهم أيضا يتشككون في قيم رجال الأعمال الدافعة للمساهمين في الولايات المتحدة، ويعترفون بدلا من ذلك بمد واسع من حاملي الحصص، بالإضافة إلى أصحاب الأعمال - بما في ذلك موظفوها، الذين يمدونها، وزبائنهم، والمجتمع المحلي، ويتضمن

(*) مأنوي أحد أتباع قاني الفارسي الذي دعا إلى الإيمان بعقيدة قوامها الصراع بين النور والظلام. (المترجم)

(*) طالب من بلد أجنبي يتلقى العلم في بلد ما مقابل طالب آخر يرسل إلى بلد الأول. (المترجم).

توجه هذا المجتمع على إيمان فى الحكومة كأداة للخير، ويرى الأوروبيون أن تأكيد الأمريكين على الفردية وعدم الثقة فى الحكومة يخلق مجتمعا عنيفا تسيطر عليه الجريمة، مجتمعا معدلات السجن فيه ببساطة مجنونة (٤١٧ لكل ١٠٠٠٠٠ مواطن من الرجال البيض، و٢٤٠٨ لكل ١٠٠٠٠٠ من الرجال السود، مقارنة بأقل من ١٠٠ لكل ١٠٠٠٠٠ رجل فى أوربا)^(١٥)، إنهم لا يفهمون بشكل خاص تلك الإتاحة السهلة للبنادق فى أمريكا، بحجة أن البنادق ضرورية للديمقراطية، وهم يعتبرون أن ديمقراطيتهم الخاصة مؤكدة بون أن يكون كل مواطن مسلحا حتى الأسنان، إنهم يرون عقوبة الموت، عقوبة كريمة بشكل خاص، وقد رفضوا تسليم مشتبه فيهم بأنهم إرهابيون، إلى الولايات المتحدة، إن كان هناك احتمال مواجهتهم حكما بالموت، حقا إن الأمر مثير للحيرة بالنسبة إليهم، كيف يمكن لمجتمع متدين هكذا أن يحتضن مثل تلك العقوبة التى لا تتسم بالغفران.

وفى النهاية، فإنهم يرون الديمقراطية الأمريكية، بمشاعرها المتجهة نحو المصالح الخاصة الثرية - أمرا معيبا للغاية، ورغم كل تلك النقائص التى يجدونها فى المجتمع الأمريكى، فإن ٦١٪ من الفرنسيين لديهم اتجاه إيجابى كلى نحو الولايات المتحدة^(١٦).

وينظر الأمريكين، من ناحية أخرى إلى إلحاد الأوروبيين باعتباره مصدر مشاعرهم مع الديانات العلمانية المدمرة للفاشية والشيوعية، التى أنقذتهم الولايات المتحدة منها مرارا فى القرن الأخير، وهم ينظرون أيضا للأوروبيين باعتبارهم جاحدين، يحصلون على الأشياء بدون الثمن أو الجهد المعتاد، وأنهم لم يلتقوا قط بديكتاتور إلا واستكانوا إليه، وانتهزوا فرصة مظلة الدفاع الأمريكية ليتخذوا وضع المعتد بذاته باعتباره متفوقا أخلاقيا، إن الأوروبيين فى عرف الأمريكين يقاومون الهجرة رغم عدد سكانهم المتناقص، ويترددون فى الموافقة على طلب تركيا لعضوية كاملة فى الاتحاد الأوروبى، وينتقدون سياسات إسرائيل نقدا به نكهة عنصرية، ومعادية للسامية، إن أوربا من المنظور الأمريكى ليست ديمقراطية البتة، لكنها

مجموعة من البيروقراطيات تديرها نخبة شبه أرستقراطية بعدت للغاية عن الشعوب الحقيقية، وهى تميل إلى تقييد الولايات المتحدة الأكثر ديناميكية، بسبب الحسد والتوق إلى الماضى، من أجل الهيمنة الكونية المفقودة التى لن يستعيدوها البتة مرة أخرى، يجب أنؤكد مرة أخرى أن الاستفتاءات توضح أن للأمريكيين مواقف منحازة كلية نحو أوروبا، لكن الانتقادات الموجهة إليهم هى أيضا مرة أخرى وجهات نظر يعبر عنها معلقون بارزون.

ويجىء ذلك بنا إلى صلب الموضوع - مستقبل أوروبا والتحالف، إنها ترى بدءا أن المشروع الأوروبى يمثل لهم وحدة سياسية نهائية، يتم إنجازها عبر اندماج اقتصادى تدريجى، أما وأن هذا الاندماج قد اكتمل الآن عمليا، فإن القادة الأوربيين يستديرون إلى السؤال الشهير الذى وضعه هنرى كيسنجر، ما رقم الهاتف الذى تديره لتصل إلى أوروبا؟ وبينما أكتب، يقود الرئيس الفرنسى السابق، جيسكار ديستان جهدا لكتابة دستور أوروبى لتقديمه إلى قادة أوروبا كى ينظروا فيه، فى يونيو عام ٢٠٠٣. فإن تم تبنيه، فسوف يحقق اتحادا أوروبيا، بنيانه أكثر وحدة، وصوته أكثر صدقا، إن هدفه - على أية حال - قد جرى التنبؤ به بالفعل فى الوثائق والأحاديث، وقد قال تونى بلير، رئيس وزراء بريطانيا، وهو يتقبل "جائزة شارلمان" فى مايو ١٩٩٩: "إن التحدى الأساسى بالنسبة لأوروبا هو التحدى المفروض من العالم الخارجى حول الكيفية التى نجعل بها أوروبا قوية ومؤثرة، كيف نحقق استخداما كليا للقوة الكامنة التى تمتلكها أوروبا لتصبح قوة كونية من أجل الخير"^(١٧)، وقد أكد بلير فيما بعد أن "هذا عن بروز القوة والنفوذ مجتمعين ... مما يصنع القوة العظمى"^(١٨)، وقد أصدرت "المفوضية الأوروبية" تعليمات إلى البرلمان الأوروبى تقول: إن "هدفنا يجب أن يكون جعل أوروبا فاعلا كونيا، له وزن دولى يتناسب وقوتنا الاقتصادية، لاعبا قادرا على الحديث بصوت قوى، وتحقيق فرق فى إدارة شئون العالم"^(١٩)، إن إنجاز أى شىء مثل هذا يعنى بالطبع طمس سيادات قديمة فى أوروبا الأكبر ككل، ومن ثم، فإن كريس باتن مفوض الشؤون الخارجية للاتحاد الأوروبى يقول

فى "محاضرة شاتام ٢٠٠٠" فى أكسفورد: إن السيادة بمعنى حرية العمل غير المقيدة هراء، إن رجلا عاريا وجوعان وبمفرده فى الصحراء - هو شخص حر - وهالك^(٢٠)، وكرر كلامه كارل بيلدت، رئيس وزراء السويد الذى قال: "إن دولة الأمة مينة، إن كانت فاعلا مستقلا"^(٢١).

إن هذه الفكرة العاطفية لا تغرى أى سياسى أو رجل دولة أمريكى، ولكن كما قال جوزيف جوفى محرر "دى زيت" لى: "إن القادة الأوربيين غاضبون بشدة من عجزهم الجنسى"، لقد غطى عجزهم الجنسى قناع الحرب الباردة على امتدادها، ورغم أن الحرب العالمية الثانية قد أنهت حقبة قوى أوربا العظمى، فإن وضع أوربا باعتبارها ميدان المعركة الأساسى للحرب الباردة، والحاجة التالية للولايات المتحدة للتشاور والعمل مع الأوربيين عن كثب، أبقت على وهم وضع القوة - العظمى طويلا بعد أن انقضى هذا الواقع، لقد تحولت المصالح الأمريكية، مع انهيار الاتحاد السوفيتى، إلى أماكن أخرى، ولم تعد هواتف أوربا تدق كثيرا، على وجه التقريب.

لقد انعكس العجز الجنسى فى تجربة يوجوسلافيا، لقد كانت لوكسمبورج فى رئاسة الاتحاد الأوربى عام ١٩٩١، عندما انفجرت الصدامات العرقية فى البوسنة، وطار جاكس بوس، وزير خارجية لوكسمبورج لما اعتقد أنه المنقذ، معلنا: "هذه هى ساعة أوربا، وليست ساعة الأمريكين"^(٢٢)، وما زال بوس يختنق بتلك الكلمات، فقد أثبت الاتحاد الأوربى عجزه الباعث على اليأس، ليكون على مستوى الحالة، وكان الأمريكيون هم الذين أعدوا، فى آخر الأمر، ببراءة "اتفاقية دايتون" التى أنهت القتال، وكان الارتباك الذى سببته كوسوفو هو الأكبر أهمية، لم يكن الاتحاد الأوربى عاجزا فقط عن إعداد عملية عسكرية جديرة بالثقة، فى فنائه الخلفى، بل إنه استطاع بصعوبة أن يدعم عمليات الولايات المتحدة، يضاف إلى ذلك أنه رغم رفضه العميق لاستراتيجية الولايات المتحدة بالضربات الجوية أساسا على بلغراد، وتفضيله استخدام القوات الأرضية فى كوسوفو ذاتها، فإن الاتحاد الأوربى لم تكن لديه القوة لتغيير خطة اللعبة

الأمريكية، وكان رد فعل أوروبا معقدا: ارتياح لأن الجهود الأمريكية أسقطت نظام ميلوسيفيتش، وارتباك بسبب قصورهم، ودهشة وكدر بسبب الفجوة التكنولوجية بين القوات الحربية الأمريكية والأوروبية، وقد نشطت هذه التجربة في عام ١٩٩٩ إصدار القرار بالإسراع في وضع "سياسة خارجية وأمنية عامة" (سى إف إس بى)، وذلك بتعيين خافيير سولانا "الممثل الأعلى لأوروبا"، للسياسة الخارجية والأمنية العامة - مسئولاً، من بين أشياء أخرى، عن تكوين قوة رد فعل سريع ومستقل للاتحاد الأوروبي، مكونة من حوالى ستين ألفاً من القوات المزودة بمعدات وقوة نيران تمكنها من معالجة حالات مثل كوسوفو، دون استدعاء حلف الناتو أو الأمريكيين - هنا جاء رقم هاتف كيسنجر أو آلة الرد على الأقل.

ولكن لما كان في وسع الناتو تشكيل قوة رد الفعل الخاصة به بسهولة، وهو قد فعل ذلك، في الحقيقة، فيما بعد، فإن في وسع المرء أن يسأل، بطريقة معقولة: ماذا كان الغرض من قوة الاتحاد الأوروبي؟ ورغم أن الإجابة كانت مغلفة برداء صداقة لا تموت وتعاون متبادل، فإن الإجابة بدت أساساً في عدم وجود الأمريكيين فيها، وكما أكد تونى بلير "أيا كان أصلها، فإن أوروبا اليوم لم تعد للسلام فقط، إنها توشك أن تُبرز قوة جماعية"^(٢٣)، والتي تظهر بحزم في مبادرات نحو كوريا الشمالية والشرق الأوسط، المناطق التقليدية للهيمنة الأمريكية.

إن السياسة الخارجية للاتحاد الأوروبي، مثلها مثل الاتحاد ذاته - عمل يجرى في تقدم، وهناك - على أية حال - مؤشرات هامة عن أسلوبها ومادتها المحتملة، إن الاعتبار الأول الكبير هو التوسيع المنطلق للاتحاد الأوروبي، إن إضافة عشرة أعضاء جدد عام ٢٠٠٤، لن يوسع الاتحاد الأوروبي درامياً فقط، لكنه كما ذكرت إلين سسيليونو شكل أكبر استسلام طوعى للسيادة في ألف ومائتى عام^(٢٤)، وبينما هذا الأمر هام اقتصادياً، فإنه مبادرة في السياسة الخارجية أيضاً؛ لأنه وسع من تأثير استقرار الاتحاد الأوروبي ومقرطته إلى حدود روسيا وأوكرانيا، وكذا نحو الشرق الأوسط، وإذا حكمنا عليه على أساس ممارساته الداخلية لبناء إجماع عبر حوار لا نهائى،

فإن الاتحاد الأوربي سوف يكون تعدديا بطريقة حاسمة فى السياسة الخارجية، وسوف يصر على التعامل مع الموضوعات الكونية عبر الأمم المتحدة والهيئات الدولية الأخرى، ويجادل روبرت كاجان، ومعلقون آخرون محافظون من الولايات المتحدة - بأن هذا قد يكون جزئيا إعلانا عن استراتيجية للاستخدام الضئيل "لأقزام الأمم المتحدة الليبتيين" لتقييد "العلاق الأمريكى جاليفر"، لكنه أيضا تأكيد لصحة الخبرة الأوربية فيما بعد الحرب العالمية الثانية، فبعد قرون من الحرب، غدت أوربا غير واثقة من ادعاءات السيادة المطلقة، ووجدت أن حجرة المؤتمر هى أفضل السبل إلى المجد.

ومن ثم، أصر الأوربيون على العمل ضد العراق عبر مجلس أمن الأمم المتحدة، حتى يصفوا الشرعية على أى عمل، وكان رد فعلهم هو القلق من دعوة الولايات المتحدة للائتلافات من الراغبين فى القيام بحرب وقائية، يقول خافير سولانا: "ربما يحتاج الإرهاب شكلا جديدا من الاحتواء، غير أن الاستخدام الوقائى للقوة يحتاج إلى شرعية أوسع، إما من خلال الأمم المتحدة، أو شكل ما من الدعم متعدد الأطراف، وإذا ادعت الولايات المتحدة تلك القوة لنفسها، فإنها فقط سوف تغذى الاستياء وتدمر مصلحتها الوطنية"^(٢٥)، ويضاف إلى التعددية التركيز على مهاجمة الأسباب الجذرية للقلق من خلال برامج اقتصادية واجتماعية، هنا يذكر سولانا، أنه بينما تميل الولايات المتحدة إلى تأكيد الحلول العسكرية، فإن الاتحاد الأوربي يؤمن بأن العمليات العسكرية وحدها لا يمكنها حل مشكلة الإرهاب؛ يقول: "إن للاتحاد الأوربي ثقافة معينة تقوم على منع النزاع، من خلال الحوار، والإحساس بجذور العنف الاقتصادية والاجتماعية"، ويضيف زميله كريس باتن: "أنا لست سانجا إلى حد الاعتقاد أنك لو أسقطت عشرين مليوناً من رباطات المساعدة على أفغانستان، فإن الإرهاب سيختفى غدا، لكننى أؤمن بالفعل أن هنالك علاقة بين عدم المساواة الكونية وتحطيم الدولة والعنف وعدم الاستقرار والإرهاب"^(٢٦)، وفى هذا السياق، فإنه من الجدير بالذكر، أن إنفاق أوربا على التنمية الاقتصادية وقدره ٣٠ مليار دولار، يقارب ما تنفقه الولايات المتحدة ثلاث مرات.

وفى النهاية، فإن الاتحاد الأوربي مرتاب فى العاطفة الأخلاقية التى تصبغ سياسة الولايات المتحدة الخارجية، وكذا بالمثل "التواءاتها وتحولاتها" فى أماكن مثل الشرق الأوسط، إن ويليام دالاس، بروفيسور بمدرسة لندن للاقتصاديات يقول: إن "الولايات المتحدة تفكر فقط أن بوسعها تعزيز الديمقراطية، وإنها هى النموذج الوحيد الصحيح، غير أن أسلوبها الحاد عن التفوق الأخلاقى والاقتصادى يتسبب فى حركة ارتجاعية، بينما سياساتها مثل تلك التى تدعم إسرائيل، وتبنى فى ذات الوقت قواعد هائلة فى العربية السعودية، أرض القلب الإسلامى، يجعل الأمر غير مفهوم"^(٢٧)، ومن ثم، فإن كلمات مارتن وولف تقول: إن "البهلوان (اقرأ الاتحاد الأوربي) نبوءة تحقق ذاتها بذاتها".

وقد ظلت الولايات المتحدة طويلا فى تناقض وجدانى حول أوروبا؛ قال الرئيس كينيدي وهو يتحدث فى "إنديبننس هول"، فى يوليو عام ١٩٦٢: "إن الولايات المتحدة تنتظر إلى هذا المشروع الشجاع بأمل وإعجاب، إننا لا ننظر إلى أوروبا الموحدة القوية باعتبارها منافسا، ولكن باعتبارها شريكا، إن المساعدة فى تقدمها كان هو الهدف الأساسى لسياستنا الخارجية خلال السنوات السبع عشرة الماضية"، ثم استمر داعيا إلى "إعلان استقلال" بين الولايات المتحدة وأوروبا. لكن وجهة النظر هذه تغيرت، لأن أوروبا غدت أقوى، إن مؤتمر الاتحاد الأوربي عام ١٩٩١، فيما بين الحكومات، اشتمل على اقتراحات لإعطاء الاتحاد الأوربي بعداً أمنياً، وأخيراً قدرة عسكرية، وبالنظر إلى الشكاوى العديدة للولايات المتحدة من أن الأوربيين لا يشاركون فى حمل العبء بما يكفى، فقد فكر كثيرون أن هذا سوف يلقى ترحيب الأمريكيين، غير أن رد فعل واشنطن كان فزعا وتحذيرات من أخطار تدمير الناتو، وسقطت الاقتراحات، وبعد ست سنوات، فى أعقاب تجربة البوسنة، صادقت الولايات المتحدة كلية على اقتراح لتطوير هوية أمنية ودفاعية للاتحاد الأوربي، وفى نفس الوقت، دُفعت الولايات المتحدة، دون تشاور، على أية حال، فى اتجاه توسيع الناتو ليضم بولندا والمجر وجمهورية التشيك، وعندما بدأ جهاز "الاتحاد الأوربي للسياسة الخارجية

العامّة والأمن" في اتجاه شكله وخطته من أجل أن تتحرك قوة رد فعله السريع قدما في عام ١٩٩٩ - ٢٠٠٠، تفجرت واشنطن مرة أخرى بالقلق والتحذيرات، وهاجم السيناتور جيسى هيلمز "جيش اليورو"، داعيا إياه "قوة محرّكة خطيرة وانشقاقية داخل الناتو، وكررت تعليقاته مادلين أولبريت، وزيرة الخارجية السابقة، وويليام كوهن، وزير الدفاع^(٢٨)، ودعا فريق انتقال الرئيس القادم، جورج دبليو بوش، قوة رد الفعل السريع، بـ"الخنجر المصوب إلى قلب الناتو"^(٢٩)، ومن ثم، فإن سياسة الولايات المتحدة، تأرجحت بين حث أوروبا على المشاركة أكثر في عبء الدفاع، ومحاولة اعتراض سبيل تكوين قوة عسكرية أوروبية مستقلة، إن الديناميكيات هنا ليست معقدة، وكما قال زيجنيو برززينسكي: "إن أوروبا محمية للولايات المتحدة"^(٣٠)، إن واشنطن تحتاج إلى أوروبا باعتبارها قاعدة مراحل^(٣١) لعمليات في الشرق الأوسط، وكجزء من شبكة اتصالاتها الكونية، إن الناتو هو المقعد الأمريكي على المنضدة الأوروبية، وبذا فإن الولايات المتحدة، تريد المزيد من الدعم الأوروبي للناتو، والمبادرات التي تقودها الولايات المتحدة، لكنها ليست متحمسة لأي شيء يمكن أن يجعل من أوروبا لاعبا حقيقيا.

وعندما أكدت أوروبا استقلالها، تحول التعليق في الولايات المتحدة تحولا سلبيا بصورة واضحة. وحتى قبل ١١ سبتمبر كان المحللون، مثل محرر الناشونال ريفيو، جون أوسوليفان يحذر من تحول الاتحاد الأوربي إلى "منافس ومجموعة من السياسات العدوانية"^(٣٢). كتب أوسوليفان، أنه ليس هناك من ضرورة لقوة أو سياسة أمن أوروبية. إن ذلك تعبير خالص لإزدهار مرحلة الدولة والقومية، متتكرة في لباس معاد للقومية"^(٣٣)، يضاف إلى ذلك أنه رأى فيما سبق سياسة أوروبية منفصلة نابعة من عدااء للتأمرك ورغبة في تحدى الولايات المتحدة، وفي أعقاب ١١ سبتمبر،

(*) القاعدة التي تُجمع فيها القوات العسكرية، وتعد للقتال قبل تكليفها بمهمة ما. (المترجم)

وعجز أوروبا (مع استثناءات ملحوظة مثل قوات بريطانيا الخاصة) عن الإنزال السريع لقوات جيدة الإعداد إلى ميدان القتال، مثل قوات الولايات المتحدة، وترددها في دعم الولايات المتحدة للتخلص من "صدام حسين العراقي"، بينما تصر على التوسع في إجراءات الأمم المتحدة، أكد لكثير من الأمريكيين أن أوروبا ليست فقط مُسَكِّن لا أمل فيه، لكنها أيضا مهتمة بكبح قوة أمريكا أكثر من ضبط أمن أى أحد آخر. الأوروبيون بالطبع هم من قالوا بأنهم قد قدموا كتلة قوات حفظ السلام والمعونة بعد الهجمات الأساسية في أفغانستان، وأصروا على اتباع إجراءات الأمم المتحدة كشأن أساسى لتفادى الفوضى الدولية، وقد خفف هذا الجدل بعض برودة الولايات المتحدة، التي فضلت وجهة نظر روبرت كاجان، باعتبار أن الأوروبيين من "الزهرة"، وأن الأمريكيين من "المريخ".

كانت حجة كاجان في إيجاز أنه طبقا لقوة أمريكا الوقائية، فإن أوروبا قادرة على أن تنغمس في كل من ترف الإنفاق الدفاعى المنخفض، ومن وهم وجوب تجنب القوة العسكرية، والعمل طبقا للقوانين والقواعد والتعاون عبر الحدود القومية، وفي إطار هذه الرؤية، فإن أوروبا، طالما لا تفهم العالم "الهوبزى" (*) الذى يجب أن تعمل فيه أمريكا، فإنها ترى أمريكا كتهديد يجب تقييده، وهى لا تدرك أن وجود عالم أحلامها إنما يحقق تمكنه فقط بواسطة قوة الولايات المتحدة^(٣٢)، هناك حقيقة فى هذه الحجة، ولكن لسوء الحظ ليست كل الحقيقة، إن الأوروبيين مثلهم مثل اليابانيين وآخرين خلف درع الولايات المتحدة الدفاعى - لا يتحملون مسئولية أنفسهم كاملة، ومن ثم، فهم قادرون على رؤية العالم عبر نظارات وردية، ولكن هذه هى الكيفية التى تفضلها الولايات المتحدة، عندما تحركت أوروبا فى اتجاه أخذ المزيد من المسئولية، غالبا ما اعترضت الولايات المتحدة، وحاولت تدمير هذا الجهد.

(*) نظرية توماس هوبز للحكم الاستبدادى. (المترجم)

مثال ذلك: أن أوروبا تعتمد على نفط الخليج الفارسي اعتمادا أكثر بكثير من اعتماد الولايات المتحدة، وأي تقسيم عقلاني للعمل الدفاعي يقتضى نشر بلدان الاتحاد الأوربي حاملات طائرات وقوات أكثر مما تنشره الولايات المتحدة، غير أن أمريكا لم تطلب البتة هذه المساعدة؛ لأنها بصورة خاصة لا تريدهم هناك، وإلا فإن وجودهم يخفف من نفوذ وقوة الولايات المتحدة، إننا نؤمن أنه من الأسرع والأسهل والأقل تعقيدا إن نحن أنفسنا فقط قمنا بالعمل، ويجب أن نقول الحقيقة: إننا حقا لا نثق بهم. إن مصالحهم تختلف قليلا عن مصالحنا، إنهم لا يرون بصورة خاصة النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، كما نراه، إن ترك الأوربيين يلعبون دورا هاما في المنطقة - لن يكون متفقا على الدوام مع منظورنا لمصالحنا، ولكن إن لم نكن راغبين في تركهم يتحملون مسئوليات القوى صاحبة السيادة كاملة النمو، فإنه ليس في وسعنا أن نشكو، في ذات الوقت، من أنهم ضعاف الشخصية، إننا نشكو من أن أوروبا لا تتفق ما يكفي على الدفاع، وأن مستوى تكنولوجيا أسلحتها يتكأ ورامنا على نحو كارثي، إن لكل من الشكايتين ميزته، يقينا أن الأوربيين يفضلون كثيرا إتفاق النقود على الرعاية الصحية والإجازات الطويلة بدلا من الدفاع، ومن ناحية أخرى، فإننا دائما ما نؤكد، في حالة لاعب حقيقي مثل الصين - أنها تتفق الكثير على الدفاع، ونستخدم ذلك "التهديد" لتبرير إنشاءاتنا.

ونحن نتحرك أيضا بطريقة منتظمة لتعويق تطور الأسلحة الأوربية، لقد عملت في إدارة ريجان وقت أن كان الترخيص بصادرات التكنولوجيا موضوعا ساخنا، إن الولايات المتحدة تقيد صادرات التكنولوجيا بعدة طرق تجعل قيام شركات أجنبية بأعمال معنا مسألة صعبة أو منفردة يضاف إلى ذلك أن البنتاجون وهو الشاربي الأكبر لكثير من الأسلحة في العالم، يعمل ويده في القفاز مع موردي أسلحة الولايات المتحدة لمساعدتهم على هيمنتهم الكونية: إن القيود على الأجانب الذين يقومون بأعمال مع البنتاجون تصل إلى حد أن أكبر مورد أجنبي "أنظمة بي إيه أي"، تبلغ أعماله أقل من ١٪ من مشتريات البنتاجون من الأسلحة والأنظمة، ومن ثم فإن ميزانيات تطوير أسلحة جديدة تذهب بصورة ساحقة إلى شركات أمريكية^(٢٤).

إن الولايات المتحدة تستخدم الناتو، علاوة على ذلك، كوسيلة للتغلب على الاتحاد الأوروبى فى أوربا، يقينا، لم يكن هنالك أى زيادة فى التهديد من روسيا يبرر توسيع الناتو، ولم يضيف الأعضاء الجدد شيئا إلى قوة الناتو، حقا، لقد زادوا ثقله دون أن يضيفوا إلى موارده، إن التوسع قد جرى جزئيا لأسباب سياسات عرقية داخلية للولايات المتحدة، وجزئيا لربط البلدان الأوربية الشرقية مباشرة بالولايات المتحدة، إن عضوية الناتو جذابة للغاية لمكان مثل بولندا، مثلا له روابط بالولايات المتحدة، ولكن عليها كعضو فى الناتو أن ترفع من وضع قوتها الجوية، والبنّاجون مستعد للمساعدة ببيع إف - ١٦، والتي أدى شراء بولندا لها إلى ضرب منافسة منتجى الطائرات الأوربيين، يضاف إلى ذلك - كما لوحظ أنفا - جعل قوة الطيران البولندية، خاضعة للعديد من رخص الولايات المتحدة، والإمداد بالنظم والقواعد، واستخدام الحاجات الأساسية، حتى يكون للولايات المتحدة قول مؤثر فى الكيفية التى تستخدم بها بولندا طائراتها، وبذا لو كان الأوربيون يعيشون فى أرض الأحلام، فإنها أرض أحلام خلقتها الولايات المتحدة، وهى التى تقوم على صيانتها.

إن حربا باردة ثانية مع أوربا غير محتملة، غير أن الاحتكاك المتواصل كثير للغاية فى أوراق اللعب، وخاصة فيما يتعلق بجهود الولايات المتحدة لخلق انشقاق بين أوربا القديمة والجديدة. كما أن سياسة الولايات المتحدة، فيما يتعلق بالعراق، قد أدت إلى هوة بين بريطانيا والقارة، إن ما يثير السخرية هو أن الروس يبدون الآن كأصدقائنا الطيبين تماما، فإن أردنا وقف الاتفاقية المضادة للصواريخ باليستية، فإنهم يجاملوننا، وإن أردنا نشر نظام دفاعى وطنى صاروخى، فإنهم يوافقوننا ولو على مضض، لكن الروس ليسوا فى وضع يمكنهم من تحديدنا، ويعود بنا هذا إلى نقطة بيتر سوزرلاند من أن النظام الكونى لا يستقر على تحالف أمريكى روسى، ولكن على تحالف الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى، وهو إن تحطم فعلا، فإن النظام الكونى سيذهب معه، إن كل الخلافات التى اكتشفناها حديثا بيننا، كانت هناك خلال الحرب الباردة، ومع ذلك عمدنا إلى غمرها فى قيم وأهداف أكبر

تشاركناها، وحيث إنه ليس من صالحنا، أو الصالح العالمى - أن يتحطم النظام، فإنه أمر هام للغاية أن تراجع الولايات المتحدة سياساتها الأوربية وتعد بنية جديدة للتعاون مع الاتحاد الأوربى.

آسيا

ويشبه الحال فى آسيا الحال فى أوروبا؛ إذ تجد الولايات المتحدة برودة جديدة فى علاقاتها مع أصدقائها القدامى، بينما يبدو أنها تحقق علاقات أفضل مع الخصوم القدامى، إن ما يثير الدهشة بشكل خاص، على أية حال، هو التماثل المذهل لما تدركه الولايات المتحدة عبر آسيا؛ إذ سواء فى طوكيو أو بكين أو جاكرتا، فإن تحليل الولايات المتحدة للأهداف والدوافع فى خصام مع الأساس المنطقى الأمريكى النموذجى.

وبدءاً فإن الكل يؤمن أن الولايات المتحدة تفكر فى نفسها باعتبارها حاملة المعايير العالمية للأخلاق، والفلسفة السياسية والتنظيم، أو كما وصفها أحد المعلقين: "مثل أعلى مؤله، وحكم السلوك العالمى المتحضر"^(٣٥)، إنهم يرون الولايات المتحدة تميل إلى فرض ميسمها الخاص بالقيم الغربية بالقوة عبر هيمنة مسيطرة، وكذا عبر المؤسسات متعددة الأطراف، يضاف إلى ذلك أن الحلفاء والخصوم، على حد سواء، يرون فرقاً حاداً بين الفردية والمادية يرقد فى قلب قيم الولايات المتحدة، وبين قيمهم الآسيوية الأكثر طائفية وهرمية، ويؤمنون أن العسكرية الأمريكية موجودة فى آسيا؛ لتؤكد بصورة كبيرة الهيمنة فى المنطقة، ولتمنع نهوض أية قوى منافسة، وفى رأيهم أن الولايات المتحدة تريد مجتمعاً آسيوياً - بأسفكيا قويا ومزدهرا، ولكن طبقاً لشروطها بحزم - مجتمعاً ثابتاً ومتيناً من الناحية الاقتصادية، ومستقراً وديمقراطياً من الناحية السياسية، ويقبل قيادة الولايات المتحدة، وهم يؤمنون أيضاً أن الولايات المتحدة قد تكون فى حاجة غير واعية للأعداء، ليوفروا لها تبريراً لقوتها الكبيرة عالية التكنولوجيا، وكى يخدموا كبؤرة لاستراتيجيتها الجغرافية، كما يعتقدون أن سبب هذا هو تأكيد

الولايات المتحدة، مع نهاية الحرب الباردة، فكرة "الأمم المارقة" والحاجة إلى "استقرار"، وهم يؤمنون أيضا بأن إدارة بوش كانت تعد لوضع الصين في مرتبة "الأعداء"، عندما جعل أسامة بن لادن، من نفسه، بطريقة مريحة - هدفا أفضل.

وينظر إلى الولايات المتحدة أيضا بأنها تستثنى نفسها من القيود التي تحكم الآخرين بها؛ لأنها ترى صورتها باعتبارها مسيطرًا رقيقًا، ومن ثم، فإنها تشرح نشرها للقوات العسكرية في مراكز أمامية باعتبارها غير مهددة، بينما هي غالبًا ما تذكر كتهديدات، مبررة، دوماً، نفقات الدفاع الأمريكية الكبيرة، مقابل الانتشار المحدود للغاية لبلدان أخرى؛ مرة أخرى، فإنني حينما أذهب إلى آسيا أجد حساسية بالغة للمعايير المزدوجة التي يلاحظونها، وخاصة فيما يتعلق بالتسلح، مثل الأسلحة النووية التي ترى مقبولة عند الولايات المتحدة، عندما تكون مملوكة لبريطانيا أو فرنسا أو إسرائيل، وغير مقبولة في أيدي الآسيويين.

يجب ألا تؤخذ أى من وجهات النظر تلك، بمعنى أن الآسيويين لا يحبون أمريكا، في الحقيقة، تبين استفتاءات "بيو" عامة اتجاهات إيجابية وإعجابا شديدا على عدة مقاييس، يضاف إلى ذلك أن الآسيويين يفرقون، مثل الآخرين، بحسم بين الأمريكيين الذين يحبونهم بصورة كبيرة، وأمريكا التي يجدون سياساتها وأفعالها غالبًا ما تكون معوقة وبغيضة، غير أن هنالك فجوة واسعة بين وجهات النظر الآسيوية عما تفعله أمريكا في المنطقة، ووجهة النظر الأمريكية عنها، وحتى تفهم الفروق الدقيقة وتضمينات هذه الفجوة، دعنا نقوم بجولة، ولنبدأ بكوريا حيث القيود أكثر وضوحا.

كوريا

لقد ذكرت بالفعل في الفصل السابع النفور المتنامي بين الولايات المتحدة وكوريا الجنوبية، الذي بلغ ذروته - في ضيق شديد في واشنطن - في انتخابات ديسمبر

عام ٢٠٠٢، انتخابات "روه مو - هيون"، كرئيس لكوريا خلفا لـ "كيم واى جونج"، كانت واشنطن تأمل بإخلاص فى نجاح خصم "روه"، صديق الولايات المتحدة منذ زمن طويل "لى هوى - شانج" بناء على برنامجہ الساعى لإبطال سياسة "ضوء الشمس" نحو "الشمال".

ولم يربح روه فقط، بل فاز بنسبة عالية من تصويت الشباب، وقد تزامن انتخابه مع مزيد من تسارع التوتر بين كوريا الشمالية، والولايات المتحدة؛ لأن كوريا الشمالية لم تكشف فقط عن برنامج تخصيب اليورانيوم السرى السابق، لكنها أيضا طردت مفتشى "الوكالة الدولية للطاقة النووية" (آى إيه أى إيه)، وبدأت الاستعدادات لاستئناف عمل مفاعلها "يونج بيون"، من هذا المرفق، يمكنها استخراج البلوتونيوم الذى يمكن استخدامه لصناعة القنابل الذرية، منتهكة بذلك معاهدة عدم الانتشار، وبالمثل اتفاقياتها مع الولايات المتحدة، وبينما أصرت واشنطن على عدم التفاوض مع كوريا الشمالية حتى توقف هذه النشاطات المهددة، أعلن روه أنه سيواصل سياسة ضوء الشمس، ويقوم بمفاوضات مع الشمال، ويكمن وراء خرق القانون هذا وجهة نظر عن الحالة الكورية، لم تسمح بها واشنطن البتة، يمكن بالطبع أن تكون خاطئة، لكن من الهام أن يفهمها الأمريكيون، كما شرح لى واحد من كبار مفاوضى كوريا الجنوبية منذ عهد قريب.

إن الأمريكيين يعرفون أنه ليس لدى الولايات المتحدة نية غزو كوريا الشمالية، غير أن كوريا الشمالية لا تعرف ذلك، لم تكن هناك البتة معاهدة سلام لإنهاء الحرب الكورية، لقد أبقت الولايات المتحدة حوالى أربعين ألفا من القوات فى كوريا الجنوبية، بالإضافة إلى الإشراف على جيش كوريا الجنوبية زمن الحرب، وإدخال كوريا الشمالية فى "محور الشر"؛ مما قاد الشمال لأن يرى الولايات المتحدة كتهديد لأمنه، كان أساسيا بالنسبة لوجهة النظر الأمريكية الاقتناع بأن كوريا الشمالية لا يمكن الثقة بأنها سوف تفى بالتزامات ثنائية أو متعددة الأطراف، إنها ببديها برنامج تنشيط اليورانيوم منتهكة الاتفاقات التى أبرمتها مع الولايات المتحدة، فى "الإطار المتفق عليه"

لعام ١٩٩٤، تكون قد قدمت نموذجا يدعم وجهة النظر هذه، ومع ذلك فإن الشروط المحددة لاتفاق ١٩٩٤ كانت لتعليق برامج إنتاج بلوتونيوم الشمال، وتلك الشروط قد تم الوفاء بها^(٣٦)، يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة ذاتها فشلت فى الوفاء بشروط أساسية من الصفقة، إن المحطة النووية التى تم الوعد بها عام ٢٠٠٣ بطاقة قدرها ٢٠٠٠ ميجاوات لتوليد الكهرباء لم يتم تسليمها، كما لم يتم "التطبيع الكامل للعلاقات الاقتصادية والسياسية"^(٣٧)، ولا نفذت "التأكيدات الرسمية ضد التهديدات أو استخدام الأسلحة النووية بواسطة الولايات المتحدة"^(٣٨) ومن ثم، فإن الولايات المتحدة حصلت، فى رؤية الكوريين الشماليين، على ما أرادت، حتى خط النار، وتحديدًا تعليق برنامج البلوتونيوم الكورى الشمالى بينما حصلت كوريا الشمالية، فى الأغلب، على وعود لم يتم الوفاء بها.

يضاف إلى ذلك أنها عندما ووجهت بمعرفة الولايات المتحدة برنامج تخصيب اليورانيوم، بواسطة جيمس كيلي، مساعد وزير الخارجية، خلال زيارته لبيونج يانج فى أكتوبر عام ٢٠٠٢، عرض الكوريون الشماليون إغلاق البرنامج فى مقابل التزام من الولايات المتحدة بعدم الهجوم، وأن تسير قدما فى تنفيذ وعدها بتطبيع العلاقات، غير أن كيلي أخبرهم أنه عليهم وقف البرنامج لفترة، وأنه لن تكون هناك مفاوضات، إن أكثر ما تريده كوريا الشمالية طبقا لمفاوضى كوريا الجنوبية - هو اعتراف من الولايات المتحدة، ومعاهدة بعدم الاعتداء لإنهاء الحرب، والجنوب لا يرى أن ذلك صعب إلى هذا الحد، بالنظر إلى حقيقة أن كل بلدان العالم قد اعترفت عمليا بكوريا الشمالية ما عدا الولايات المتحدة واليابان وفرنسا، إن الكوريين الجنوبيين يؤمنون بأن سياسة واشنطن يدفعها خط الصقور المتشددين أيديولوجيا، الذين يودون تحقيق انهيار الشمال، والإبقاء على العدوانية لتبرير انتشار الولايات المتحدة الأوسع فى الباسفيكى، ومن ثم، فإن الولايات المتحدة، من وجهة نظر العديدين من الكوريين الجنوبيين، تشكل عقبة أمام الحل، مثلها مثل الشمال.

ويستاء الكوريون فوق هذا؛ مما يعتبرونه طريقة واشنطن المستبدة، وقد أعلن منذ عهد قريب أن إدارة كلينتون فكرت بجدية فى توجيه ضربات جوية لتدمير المشروعات النووية الشمالية عام ١٩٩٤، وفى النهاية لم تفعل، وبدلا من ذلك فاوضت حول "الإطار المتفق عليه"، الذى أدى إلى إغلاق المشروع، غير أن الكوريين الجنوبيين صدموا عندما وجدوا أن حكومتهم قد أبلغت بخطة الهجوم فقط فى اللحظة الأخيرة، عندما اعترضت الحكومة بقوة؛ حيث إن عاصمة كوريا الجنوبية - سيول - تقع فقط على بعد ١٧ ميلا من جنوب الحدود، وأن كوريا الشمالية استهدفتها بأثقل تركيز للمدفعية فى العالم، وأن مثل ذلك الهجوم كان لا بد أن يؤدى إلى تسوية سيول بالأرض، كانت لطة حقيقية للكوريين ألا يسألوا من حليف، يفترض فيه الوفاء، عما اعتقدوه تدميرا لعاصمتهم هم.

كما لم يستشر أحد من واشنطن الكوريين الجنوبيين حول ضم كوريا الشمالية إلى محور الشر، أو حول تدمير سياسة ضوء الشمس الجنوبية بواسطة الخط الأمريكى المتشدد، وفى إيجاز يعتقد الكوريون الجنوبيون أننا نستخف بهم، وهم مستاعون من ذلك، كما يستاعون من الجحيم، ويا للسخرية، فهذه المشاعر تدفع المثل العليا الديمقراطية الصاعدة حديثا لآلاف الشباب ورجال الأعمال الذين درسوا وعملوا فى الولايات المتحدة، وعادوا وهم يرغبون فى أن ينالوا نفس حقوق أصدقائهم الأمريكيين، إن الكوريين مثلهم مثل العديد من الأوربيين لديهم إحساس بالخذلان، عندما لا يعيش الأمريكيون كما هو متوقع طبقا لمثلهم العليا.

هنالك التواءة مثيرة، فقد بدأت كوريا الجنوبية إرسال بعثات تبشيرية إلى الولايات المتحدة، إن الكثيرين من الكوريين، بعد أن غدت كوريا بلدا مسيحيا عبر الخمسين سنة الماضية، مع سيطرة البروتستانت، وخاصة الكنائس "المسيحية"، يرون أن الولايات المتحدة فى حاجة متزايدة إلى التجديد الروحى.

وهناك عامل ديناميكى آخر مهم هو صعود الاقتصاد الصينى، لقد غدت الصين مستوردا كبيرا للمنتجات الكورية، غدت المنتجات كثيرة إلى حد أن كوريا يمكنها أن

تتكهن باليوم الذى تسبق فيه صدارتها إلى الصين تلك التى للولايات المتحدة، وقد أدى ذلك إلى مناقشات كبيرة فى كوريا، حول استراتيجية تجارية إقليمية، وحول الأقلمة عموما، وقد سار جنبا إلى جنب مع هذا نقاش مفتوح حول وضع قوات الولايات المتحدة فى كوريا الجنوبية، كان الأمريكيون يقولون لمدة خمسين عاما: إن تلك القوات هناك، لحماية كوريا الجنوبية. بالطبع، علق كوهن وزير الخارجية عام ١٩٩٧ أن قوات الولايات المتحدة سوف تبقى، حتى إن أعيد توحيد كوريا، دع القطة خارج الحقيقة، والحقيقة أن قوات الولايات المتحدة هناك كجزء من مشروعها الكلى للقوة فى آسيا، والآن، فإن تبلد الشعور والسياسة التى تضغط بها الأيديولوجية يوفران بالضبط وضع القوات التى تحاول الولايات المتحدة الحفاظ عليه.

اليابان

تتطور ببطء عبر المضائق من كوريا إلى اليابان، ويكثر للغاية من التعقيد، حالة ما، لكنها ذات خواص متماثلة، إن اليابان حقا فى أزمة، رغم أنها أزمة هادئة وغير مرئية بصورة كبيرة، أنت إن سرت عبر طوكيو، أو سافرت غير اليابان، كل شىء يبدو طبيعيا تماما، والمرور متعذر لا يطاق، والمطاعم مزدحمة، القطارات تسير تماما فى مواعيدها، والأنفاق تقف تماما أمام علامة فتحاتها، وأوناش التشييد فى كل مكان، وحتى أصغر القرى تقدم لها الخدمات بالطرق الأكسبرس والقطارات السريعة، ذلك هو مفتاح حل اللغز، إن الاقتصاد اليابانى، رغم البريق الخارجى، على حافة الكارثة، وسياساته فى القلب عطنة، والدليل على الاثنين كل أوناش التشييد تلك، والطرق السريعة والقطارات الزاهية إلى لا مكان.

لقد حكم "الحزب الليبرالى الديمقراطى" اليابان طول الوقت تقريبا ما عدا سنتين من السنوات الخمسين الغربية الماضية، لقد بين الحزب قوته على مثلث حديدى من دعم يضم المزارعين، وسكان الريف، وشركات التشييد وموظفيها والنشاطات ذات العلاقة،

ورجال أعمال صغار، وأصحاب حوانيت، النظام السياسى مزود بقصبات^(*) عطنة تماما مثل تلك التى كانت لبريطانيا فى القرن التاسع عشر وأوائل القرن العشرين، ويسبب هذه الوسيلة، تُعد الأصوات بحيث تصل قيمة صوت المزارع فى اليابان إلى حوالى ٢,٢ صوتا من سكان المناطق الحضرية، ويبقى الحزب الليبرالى الديمقراطى على هذا المثلث الحديدى، بتقديم الدعم الثقيل إليه وحمايته، المزارعون محميون من الواردات حتى إن سعر الأرز المحلى - مثلا - عشرة أمثال سعره فى السوق العالمى، الأعمال الصغيرة أيضا مدعومة بسبل شتى، أفضلها جميعا عدم الدفع العملى للضرائب، وتعيش أعمال التشييد على ما يقدم لها من حسنات هائلة، من عقود الحكومة، الخاصة بطرق تذهب إلى قرى المزارع والكبارى التى تربطها، والنتيجة هى ذلك الإنفاق فى التشييد، الذى يصل إلى حوالى ١٠٪ من الاقتصاد اليابانى كله، حوالى ضعف رقم الولايات المتحدة.

إن غالبية الاقتصاد اليابانى يلقى فوق هذا حماية عالية منذ سنوات من كل من الواردات والمستثمرين الأجانب، وقد تبنت اليابان بعد الحرب العالمية الثانية استراتيجية تنمية يقودها التصدير، وفرضت الحكومة فى ظلها مدخرات عالية شقت طريقها من خلال النظام المصرفى إلى إنتاج صناعات تحويلية ضخمة مثل السيارات والإلكترونيات والصلب، وتحققت طاقة إنتاجية هائلة، وجرى تصدير الكثير من الإنتاج بينما تم الاحتفاظ بالسوق المحلى للإنتاج اليابانى أساسا - ونجح النظام تماما حتى إن اليابان، فى منتصف الثمانينيات، كانت تصدر الكثير للغاية وتستورد القليل للغاية، حتى إن قيمة الين أجبرت على الصعود فى "اتفاق بلازا" عام ١٩٨٥، كان يجب تغيير استراتيجية التصدير، لكنه كان من الصعب الانصراف عن مثل هذه المعادلة الناجحة، وبدلا من ذلك ضخت الحكومة أموالا فى الاقتصاد الأقوى، وكانت النتيجة انفجار فقاعة كلاسيكية عام ١٩٩١ - ١٩٩٢ تاركة العديد من الشركات مفلسة من الناحية

(*) قسبة: مدينة إنجليزية تتمتع بحكم محلى ذاتى - أو مدينة ذات ممثلين فى البرلمان. (المترجم)

العملية، وبنوك عديدة بقروض لا تقدم عوائد، إلا أن العديد من تلك الشركات كانت شركات تشييد، وبنوك مرتبطة بالحزب الليبرالي الديمقراطي، وفضلا عن تنظيف كل شيء، كان الحزب الليبرالي الديمقراطي يجرف خلال العشر السنوات الماضية، الدعم أكثر فأكثر، وفي أثناء ذلك أصاب الاقتصاد الركود؛ لأن البنوك كانت تحمل بالفعل الكثير للغاية من الدين الرديء الذي كان يقرض في الغالب لتبقى الشركات الميته الحية، حية، ومن ثم المزيد من ديونها الرديئة، إن الدين الوطني لليابان الآن هي الأعلى في العالم، وما يزال يرتفع، لقد وقع في انكماش حلزوني مهدد، حوله الوحيدة تؤدي إلى تضخم حقيقي، شيء يحتمل أن يحدث تاكلا في ثروة الأسر، أو كسادا على نمط كساد الثلاثين ليفعل ذات الأمر.

أين دخلت الولايات المتحدة، في هذا؟ إن الحزب الليبرالي الديمقراطي مخلوق من مخلوقات الولايات المتحدة، وقد أقر الفريد ك. أدلر الصغير، رئيس عمليات وكالة المخابرات المركزية بشرق آسيا ١٩٥٥ - ١٩٥٨، وروجر هيلزمان، رئيس المخابرات والبحث في إدارتي كينيدي وجونسون، ويو. اليكسيس جونسون، السفير في اليابان ١٩٦٦ - ١٩٦٩ إلى ١٩٧٢^(٣٩)، يضاف إلى ذلك وجود ارتباطات وثيقة بين وكالة المخابرات المركزية والحزب الليبرالي الديمقراطي و"الياكوزا" أو "الماфия اليابانية"^(٤٠)، وقد ساندت واشنطن، منذ نهاية احتلال اليابان إلى اليوم، الحزب الليبرالي الديمقراطي في اليابان؛ لأنه كان معاديا للشيوعية، وقدم القواعد العسكرية، واتباع القيادة الأمريكية في السياسة الخارجية، كانت هناك صفقة منذ زمن طويل، الولايات المتحدة تعتني بالأمن وتستخدم القواعد في اليابان، وتدعم الولايات المتحدة في المقابل، أو على الأقل، تقبل السياسات الاقتصادية لليابان، ولم يعد الأمر، بصورة كبيرة للغاية، في السنوات الحديثة - هو أمر القبول، بعد أن غدت مضفرة بنيويا وماليا، مع اليابان، إلى حد كبير، حتى إن مقدرتها غدت محدودة لتفعل الكثير قبل هذا الأمر، غير أن القضية هي أن الولايات المتحدة كانت عاملا هاما (وإن لم تكن العامل الوحيد أو حتى العامل الأكثر) في أمراض اليابان، وخاصة في قهر ديمقراطية حقيقية.

لقد شوهت الولايات المتحدة تنمية اليابان أيضا بوسائل أخرى هامة، ولأن محاكمات "طوكيو لمجرى الحرب" استبعدت أى نقاش عن دور الإمبراطور (بقرار من الولايات المتحدة) التى فكرت أنها فى حاجة إلى حكم اليابان عبر الإمبراطور، إن تلك المحاكمات لم تُقبل البتة من اليابانيين باعتبارها أى شىء آخر غير عدالة المنتصر، ولم تصل اليابان البتة إلى توافق مع تاريخ الحرب، إنها لم تُدرس حتى الجزء الأكبر من هذا التاريخ فى موادها، وقد جعل هذا من المستحيل على اليابان أن تنتهى ما يخص الحرب فى علاقاتها بالبلدان الأخرى، إن الزيارات التى قام بها رئيس الوزراء اليابانى فى السنوات الحديثة إلى "مزار باسوكوني" (حيث أرواح موتى اليابان فى الحرب، بما فيهم مجرمو الحرب المدانون، الذين يحتفظ بهم كشىء مقدس) قد تسببت فى غضب فى العديد من البلدان، غير أن الغضب حير اليابانيين الذين يرون هذا مماثلا لزيارة مقابر "جبانة ارلينجتون الوطنية".

وقد أوجدت الولايات المتحدة فوق هذا نفس النوع من أرض الأحلام فى اليابان، مثلما فعلت فى أوروبا، إن اليابان لا تتحمل مسئولية حقيقية دفاعا عن مسالك النفط أو موضوعات استراتيجية كلية فى آسيا؛ لذا فإنه يمكنها الخوض فى نفقات دفاع منخفضة - تصل فقط إلى ١٪ من إجمالى الناتج المحلى - وتجنب الموضوعات الصعبة (من المثير للاهتمام أن الولايات المتحدة، لم تعد تشكو من مستوى الإنفاق الدفاعى لليابان، رغم أنه قد غدا أقل بكثير من ذلك الذى لأوروبا)، إن وضع قوات الولايات المتحدة فى اليابان يعطى سلطات اليابان عمليا سلطة قضائية كأمر واقع، أكثر مما تحظى به فى كوريا، غير أن النتيجة متماثلة، اليابان محمية وبولة تابعة للولايات المتحدة، كما أنها لم تُستشر كلية حول سياسة الولايات المتحدة نحو كوريا الشمالية، رغم أنها كانت ستكون هدفا لصواريخ كوريا الشمالية.

إن شيئا من هذا لم يثر مظاهر مشاعر معادية لأمريكا مثل تلك التى عُبر عنها فى كوريا، جزئيا؛ لأن اليابان مستفيد أكبر من العلاقة الاقتصادية بالولايات المتحدة، وجزئيا لأن ديمقراطية اليابان ليست متطورة تطورا مماثلا لديمقراطية كوريا، وجزئيا

لأن اليابانيين يميلون إلى أن يكونوا أقل صراحة، غير أن هناك مؤشرات هامة يجب ملاحظتها، مثلا، كان فيلم "كبرياء"، واحدا من أكبر الضربات السينمائية في اليابان خلال السنوات الحديثة، وهو فيلم يمجّد الجنرال هيدكي توجو الذي قاد اليابان خلال أكثرية الحرب العالمية الثانية، وأدين ونفذ فيه حكم الإعدام باعتباره مجرم حرب، إن المنتج هيدكي كاسي، الذي يكتب الآن كتابا عن طيارى "الكاميكازي"^(*) قال: إن توجو كان سوهر ستار وما يزال"^(٤١)، ثم هناك بوشينوري كويا ياشي، وهو أكثر رسامى الكاريكاتير شعبية، قال لى ونحن نتناول القهوة فى طوكيو قريبا: إن الحرب العالمية الثانية كانت بالنسبة لليابان حرب تحرير لآسيا من الكولونيالية الغربية، والأهم من كل هؤلاء هو شينتارو أشيهار، الروائى وحاكم طوكيو، وهو الذى ألف مع الرئيس السابق شركة سونى، أكيو مورتيا، صاحب أفضل الكتب مبيعا، "اليابان التى فى وسعها أن تقول لا"، وأشيهارا وطنى صريح، ووجهات نظره، رغم أنها معقدة، فإنها إلى حد ما شوفينية، وهو يطرح فى كتابه وقف اليابان لصادراتها - عالية التكنولوجيا إلى الولايات المتحدة، ردا على شكاوى الولايات المتحدة من الخواجز التجارية اليابانية، إنه بلد مريض بالفساد تحت قيادة بكاء للحزب الليبرالى الديمقراطى الذى تدعمه الولايات المتحدة، وهو الآن وإلى حد كبير، القائد السياسى المفرد والأكثر شعبية فى البلد، والذى يذكر اسمه باعتباره رئيس الوزراء. وهو إن انتخب، فمن المحتمل جدا أن يلحق بالكوريين الجنوبيين فى التحرك من أجل إخراج قوات الولايات المتحدة (وقد جرى، ذات مرة، حوار بيننا فى التلفاز اليابانى، فأكد معارضته للقواعد العسكرية للولايات المتحدة فى بلده)، وحتى بدون ذلك، هناك دعوات متزايدة فى اليابان لتخفيض مستويات قوات الولايات المتحدة، وقد أعلن وزير خارجية اليابان يوريكو كاوا جوشى، فى ٢ فبراير عام ٢٠٠٣ - أن الحكومة اليابانية سوف تناضل لتخفيض عدد القوات الأمريكية فى أوكيناوا^(٤٢).

(*) الطيار الغدائى اليابانى. (المترجم)

إن وجهة نظر اليابان، عن دور قوات الولايات المتحدة وقواعدها، من الهام فهمها، وهى فى خصام كبير مع وجهة نظر غالبية الأمريكيين؛ إذ بينما يعتقد الأمريكيون أنهم يدافعون عن اليابان، وأنه يجب على اليابانيين أن يكونوا شاكرين مقرين بالجميل، فإن اليابانيين يسمون الأموال التى يقدمونها لصيانة القواعد "ميزانية تعاطف"، إن هذه الميزانية يقدمها القادة السياسيون فى اليابان، ليس مساهمة كحليف لمهمة مشتركة حاسمة، ولكن باعتبارها معروفاً أو هدية للأمريكيين لتمكينهم من تحقيق طموحاتهم الساعية للهيمنة، مرة أخرى، للمنظور أهمية حاسمة، اليابانيون يحبون الأمريكيين، إن كل الاستفتاءات وكل سنوات الأربعين من الاتصال باليابان تؤكد ذلك، لكن علينا ألا نتجاهل وجهات نظر مثل تلك التى لصديقى اليابانى، وهو سفير سابق فى تايلاند، فقد قال لى: "إن أمريكا فى حاجة إلى نزاع لتبقى اقتصادها دائراً"، إن اليابان لن تتخلى عن أمريكا غداً أو ربما أبداً، ولكن هؤلاء الذين فى حكومة الولايات المتحدة، والذين يصرون على الرهان على اليابان باعتبارها "شريكاً استراتيجياً" لأمريكا، ربما وجنوا أنفسهم وقد أصابتهم خيبة أمل محزنة.

الصين

إن علاقات الولايات المتحدة مع روسيا مثلها مع الصين، أفضل اليوم بصورة واضحة عما كانت عليه قبل ١١ سبتمبر، إن هذا يجعل النمط المتأرجح لعلاقات الولايات المتحدة - الصين متواصلاً، وقد جذبت التنمية الاقتصادية للصين، والمصالح المشتركة فى احتواء الاتحاد السوفيتى، منذ افتتاح نيكسون للصين عام ١٩٧٢، خلال إدارة ريجان، البلدين إلى بعضهما البعض، وقد شاركت باعتبارى مسئولاً فى إدارة ريجان، فى بعض المباحثات الاقتصادية المبكرة مع الصين، وفى استطاعتى أن أشهد بالاهتمام البالغ لرجال الأعمال الأمريكيين، بالسوق الصينى، وقد أدخلت نهاية الحرب الباردة، وحادثة "ميدان تينان مين" عام ١٩٨٩ رعشة، صححتها بصورة نهائية إدارة بوش الأولى استجابة لضغط رجال الأعمال، وكذا بالمثل لصالح استراتيجية أعرض.

وقد اتهم كلينتون، خلال الحملة الرئاسية عام ١٩٩٢ - إدارة بوش بتدليل الصين، ووعده باتخاذ خط أكثر صرامة، واتخذ بالفعل عندما صار رئيسا، وبشكل أولى خطا عنيفا حول حقوق الإنسان، وموضوعات أخرى، غير أنه سرعان ما خضع لمنطق التنمية الاقتصادية، وبدأ العمل بسياسة "الارتباط"، داعيا الصين بـ "الشريك الاستراتيجي"، وقد أغضب هذا البعض في اليابان هؤلاء الذين اعتقدوا أن اليابان هي "الشريك الاستراتيجي"، والكثيرين من الجناح اليميني للحزب الجمهوري، والذين ما زالوا يضمرون عداوة قديما للشيوعيين الصينيين.

وجاءت الإدارة التالية لبوش عام ٢٠٠١، وتشددت الولايات المتحدة مرة أخرى، وأعيد تصنيف الصين باعتبارها "منافسا استراتيجيا". وازدادت مراقبة الولايات المتحدة العسكرية على الصين، وبدأ للكثيرين من الصينيين أن أمريكا تحتاج إلى عدو يحل محل الاتحاد السوفيتي، وهي قد اختارت الصين، وظهر أسامة بن لادن للصين كلقية سعيدة غير منتظرة، وعبرت في سرعة عن تعاطفها، وقدمت التعاون لواشنطن، واتسمت العلاقات بعد ذلك بالدفع إلى حد بعيد، غير أن الصينيين ظلوا قلقين من أنه ما أن تتم السيطرة على تهديد الإرهاب، حتى يصبحوا مرة أخرى هدفا للعوانية الأمريكية.

إن أكثر الأجزاء أهمية إلى حد بعيد في لغز الولايات المتحدة - الصين، هو تايوان، وكما ذكرنا سابقا، فإنه فيما يتعلق بالأرض الرئيسية الصينية، فإن وضع تايوان تحت العلم الصيني يمثل الخطوة الأخيرة في تأسيس السيادة والوحدة اللتين فقدتا لحساب الكولونيالية الغربية في "حروب الأفيون" في القرن التاسع عشر، إن دعم أمريكا لتايوان ينظر إليه، بشكل صارم، باعتباره تدخلا في شأن داخلي يتعذر تفسيره إلا باهتمام الولايات المتحدة بإضعاف الصين واحتوائها، وهم يرون من وجهة نظرهم أنه في كل زمن يلتقي فيه قائد تايواني، بقائد من الولايات المتحدة، وفي كل وقت يقول فيه الرئيس بوش شيئا مثل: "إننا سنفعل كل ما يقتضيه الأمر" للدفاع عن تايوان، إن هذا يشجع ببساطة، القادة التايوانيين على مقاومة جهود الصين لإعادة التوحيد، وبذا

يضع مزيدا من الضغوط على القيادة فى بكين حتى تتخذ خطأ أشد حزما، وقد أخبر الصينيون كل من يمكن أن يستمع إليهم (وغالبية الخبراء يصدقونهم)، إن الشيء الوحيد الذى يمكن أن يسبب دون شك حربا فى الغالب - هو إعلان تايوان مستقلة، وترى وجهة النظر الأمريكية، التى تنعكس كالصورة فى المرآة، إن بناء الصين لقواها على الجانب الآخر من تايوان يفرض تهديدا يتطلب رد فعل من الولايات المتحدة، ويرى الصينيون فى إيماءاتنا الداعمة لتايوان تهديدا مفروضا عليهم، وليس أمامهم من خيار بالنسبة إليه غير الرد، ومن وجهة نظرهم فإن الولايات المتحدة هى التى خلقت مشكلة تايوان كجزء كبير من جهد كبير لكبح وتدمير قوة الصين الصاعدة ونفوذها.

ويجىء ذلك بنا إلى الجزء الثانى من اللغز - المنافسة من أجل الهيمنة، وسواء كان هناك شك أو لا فى صحة قصة البروفيسور الصينى الذى علق بقوله: "إن الصين قد مرت بـ ١٥٠ عاما رديئة، لكننا الآن نرجع إلى وراء"، وهو قول شديد الأثر، ما أن يتجاوز المرء مناقشة تايوان التى لا مفر منها، حتى يكون الموضوع الثانى الكبير فى عقول النخبة الصينية هو التوقعات المضيئة للبلاد والعودة إلى الصف الأمامى للأمم، إنك بدون أن تكون صينيا، من المحتمل ألا تستطيع الفهم الكلى للإحساس العميق بالمهانة التاريخية التى جاءت بها متاعب القرن الماضى، غير أن الشعور بالخفة والنشاط والتوقع فى أعقاب نجاح الصين الجارى واضح ملموس، ومع ذلك فهناك قلق فى الصين من أن الولايات المتحدة تخشى هذا النجاح وتود الحد منه.

مرة أخرى، صور المرأة تعمل. أستدعى مثلا الحادثة التى وقعت مبكرا عام ٢٠٠١، عندما أجبرت طائرة المراقبة إى بى - ٢ الإلكترونية على الهبوط فى جزيرة هاينان، ورأى الأمريكيون فى هذا الحدث فعلا من أفعال العدوان الذى لم يستغزه أحد، والذى أثبت مرة أخرى: لماذا علينا أن نكون حذرين من الصين، غير أن الصينيين تساءلوا: لماذا تقوم طائرات الولايات المتحدة بشكل دائم بدوريات فوق ساحلهم ولماذا يخرقون عمدا وسائل الاتصال الدفاعية الصينية من أجل رصد القدرات الدفاعية للصين؟ وقد أشاروا إلى إنه ليس لديهم مثل تلك الطائرة، ولا هم يقومون بدوريات فوق

سواحل الولايات المتحدة، ولا حتى البلدان المجاورة في آسيا، إن الولايات المتحدة من وجهة نظرهم، تكسب فوائد ومنافع من كونها القوة المهيمنة، وتسعى للإبقاء على تلك القوة، ربما حتى بالمنع الجبري لصعود مزاحم . إن هذا الإحساس يعزز بقوة بالأفعال الأمريكية، ويحدث وبيانات الرئيس في ويست بوينت، ومسئولين آخرين يدعون إلى حرب وقائية، وإبطال صعود أية قوة منافسة، ويرى الصينيون، عند النظر إلى العالم في بكين، قوات وأساطيل الولايات المتحدة تغطي الباسفيكي، وترسل أسلحة الولايات المتحدة إلى تايوان، وانفراج العلاقات بين الولايات المتحدة وروسيا، وقوات الولايات المتحدة لأول مرة على الإطلاق، في العديد من الدول غير الديمقراطية من بلدان آسيا الوسطى على الحدود مع الصين، نتيجة للنزاع في أفغانستان، إنهم يرون مسعى الدفاع الصاروخي الوطني للولايات المتحدة، وهو مسعى موجه بصورة ظاهرية نحو "الأمم المارقة" مثل كوريا الشمالية، لكنه يميل أيضا إلى إبطال القوة المانعة للصواريخ النووية الصينية، حركة أحادية الجانب دون دعم الأمم المتحدة في العراق، وترسانة لا نظير لها من التطور والقوة، إن كل ذلك يقدم صورة مروعة للصينيين، تشير إليهم بأن أمريكا تعتقد أنهم تهديد لها، وهم يؤكّدون أنهم ليسوا قوة توسعية، ولم يكونوا كذلك أبدا، ولا يهددون الولايات المتحدة في غير المنافسة الاقتصادية التي تقول الولايات المتحدة إنها ترحب بها . حقا، إنهم يقولون: إن الولايات المتحدة تجبرهم على إضاعة موارد على الدفاع، يفضلون كثيرا على وضعها في التنمية الاقتصادية، إن الكثيرين يشكون في أن التهديدات الأمريكية إنما هي جزء من استراتيجية لتخفيض النمو الاقتصادي للصين.

والجزء الثالث من اللغز هو موضوع الكبرياء والاحترام وصراع الثقافات والقصد النهائي، ربما كان الصينيون أكثر تأرجحا وتضاربا فيما يتعلق بالولايات المتحدة عن أي شعب آخر. قم كأمرىكى بتقديم محاضرة فى جامعة صينية، وسوف تُسأل بحدة، وتعرض لنقد شديد حول الهيمنة والعسكرية والتدخل الأمريكى فى تايوان، ولكن بعد المحاضرة، سوف يتجمهر نصف الطلبة حواك ليسألك كيف يمكنهم الذهاب إلى "إم

أى تى " أو ستانفورد، أو كيف الحصول على عمل فى أمريكا، إنهم مفتونون بصورة لا نهائية بالتكنولوجيا الأمريكية، صناعتها وإنتاجيتها وحكومة الديمقراطية وروحها، إن الصينيين يجدون الأمريكيين أيضا غير متكلفين ومعبّرين مثّهم، يسهل الكلام معهم، ومع ذلك، فإن لديهم أيضا اعتداداً هائلاً بثقافتهم، ويؤمنون بعمق أنه يجب على الصين أن تُحكم بطريقة مختلفة عن أمريكا، وأن أساليب الصين يجب أن تُدمج فى إطار العولمة، ومرة أخرى يعبر الرسميون الصينيون والعلماء والطلبة عن استيائهم لأن الأمريكيين يفترضون أن الأسلوب الأمريكى أو الغربى هو الأسلوب الأفضل عالميا، إنهم يكررون بإصرار أن العالم لا يمكن أن يسير طبقا لمعيار أمريكى فقط، ولكن يجب أن تُدمج المعايير الصينية بالمثل؛ إنهم يصرون، فى هذه المناقشة على أن الصين لا تشكل تهديدا لأحد، وأنه لا رغبة لديهم فى فرض معاييرهم.

إن هذا الادعاء يحظى برد فعل مختلط فى باقى آسيا، ويخشى عدد قليل من بلدان آسيا، خارج تايوان، من هجوم مسلح صينى، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى أخبرنى الكثيرون أنهم يخافون من أن طريقة النظام الصينى الهرمى سوف تتجه إلى إعادة تنظيم الأبنية الكونية، كلما زادت قوتها، إن مثل هؤلاء الناس يحسون بالراحة مع وجود الولايات المتحدة فى الجوار كذلك، وقد عبروا عن أحد الأسباب فى محادثة طويلة قمت بها مع طلبة وكلية تسينغوا، "معهد الاقتصاديات أحادى القاعدة"، فى ربيع عام ٢٠٠٢، فبعد أن وُيخت بعنف بعض الوقت حول غطرسة أمريكا فعليا، والعجز فى المعايير الغربية، سألت إن كان فى وسعهم إخبارى تحديدا ماهية المعايير أو النظام الصينى، للكيفية التى يجب أن يكون عليها التنظيم السياسى والجيوبوليتيكى، فاعترفوا بأمانة، بأن ذلك ليس فى وسعهم.

هنا، إذن القضية الكبرى، إن الصين تود أن تكون قوة عظمى، تتوق للقبول والاحترام الأمريكى، وتلك رغبة تقدم لنا نفوذا كبيرا محتملا، ومع ذلك فإن الصين ليس لديها بعد مؤسسات يمكن أن تعالج التغيير بأسلوب منظم يمكن التنبؤ به، وتلك حقيقة تشكل بطريقة لا يمكن تفاديها، عنصرًا يتسم بالمخاطرة، الصين تود أن تكون

ليست عدوا للولايات المتحدة اليوم، وفي كلمات أخرى، يمكننا أن نجعل عدوانية الصين نبوءة، تحقق ذاتها بذاتها، وهي من ثم، شأن له أهمية عظمى، حتى إنه علينا أن نخطو بعناية، وأن نفعل كل ما نستطيع حتى نؤكد أن الصين تواصل السير على طريقة التنمية والتحرير.

ويصل ذلك بنا إلى الجزء الأخير من اللغز: الاقتصاد، إن التحول الصينى يترنح منذ ذهبت فى هذه المهمة التجارية عام ١٩٨٢، إنه ليس اقتصاد السوق تماما، إلا أنه يصل إلى هناك بسرعة عالية، وقد غيرت هذه التنمية، بطريقة درامية، المجتمع والسياسات الصينية، وبينما لا تزال بعيدة عن الديمقراطية، بالنسبة للشخص المتوسط، فإن للصين اليوم مكانا أكثر، أكثر حرية، ربما مما كانت عليه فى أى وقت مضى، وجرى تعزيز هذا التطور بقوة بواسطة كل من حكومة الولايات المتحدة وصناعة الولايات المتحدة، من خلال نقل الاستثمار والتكنولوجيا بصورة هائلة، إن هذا الاتجاه هو الضمان الأفضل لعلاقات أمريكية - صينية سلمية وودية المستقبل، حقا، هنا سخرية كبرى، وحتى بينما تأرجحنا، جيئة وذهابا، حول إذا ما كانت الصين "شريكا" استراتيجيا أم "منافسا" استراتيجيا، كان اقتصاد الولايات المتحدة قد نما بصورة متزايدة معتمدا على الصين، عن طريقين حاسمين: الأول، بلغ العجز التجارى للولايات المتحدة مع الصين ٨٥ مليار دولار، حيث اعتمدت أمريكا أكثر فأكثر على الصين باعتبارها المورد للنوعية الأدنى تكلفة لكل شئ من فرش الدهان إلى الهواتف الخلوية^(٤٣)، والأكثر أهمية هو أن الصين حققت احتياطات دولارية هائلة، وهى مستثمر فى التدابير الوقائية للولايات المتحدة، بصورة متزايدة، وكما رأينا مبكرا، فإن اقتصاد الولايات المتحدة يعتمد بصورة كبيرة على تدفق دائم لرأس المال الأجنبى، ولما كانت الصين تتحول إلى مصدر أكبر لرأس المال ذلك، فإن الولايات المتحدة سوف تصبح أكبر اعتمادا على الصين، ويأمل المسئولون فى الصين ألا تكون الولايات المتحدة قادرة على النظر إلى الصين باعتبارها عدوا، عندما يحين وقت إزاحة أسامة بن لادن خارج الطريق.

أمريكا اللاتينية

هناك سلاح ضخم للدمار الشامل موجود فقط جنوب حدود الولايات المتحدة، وهو يوشك على الانفجار، ويدعى "أمريكا اللاتينية"، إن تلك الكلمات قالها أنجيل جوريا، وزير المالية المكسيكى السابق، وهى قد أيقظتني على إفطار فى مكسيكو سيتي، فى خريف عام ٢٠٠٢، كانت الأرجنتين، فى ذلك الوقت، تتخلف عن سداد ما عليها من ديون لصندوق النقد الدولى، والبطالة التى فى المكسيك، والنزاع اللانهائى فى كولومبيا يزداد كثافة، ومحاولة انقلابية بدت وكأنها حظيت، على الأقل، بدعم الولايات المتحدة الصامت، وقد فشلت تلك المحاولة فى فنزويلا، وكان الاقتصاد البرازيلى يتأرجح على حافة كارثة بسبب سحب المستثمرين العالميين الأموال فى منتصف الحملة الانتخابية الرئاسية المضطربة لاحتمال أن تؤدى الانتخابات إلى مجيء يسارى إلى السلطة، وقد انتخب جوريا لأن "أصولى السوق" فى واشنطن كانوا يؤخرون معونة صندوق النقد الدولى، ويصدرون بيانات حول أخطار المجازفة الأخلاقية (وخاصة تمكين سياسات لا تتسم بالحكمة على المدى الطويل حتى تحقق اكتفاء على المدى القصير)، وهم قليلو المعرفة بالأحوال فى أمريكا اللاتينية، ولا ينتبهون إلى انهيار النظام كله، وتلك هى المخاطرة الأكثر كثيرا، كما قال: "إن البرازيل تلقى العقاب من مستثمرى البلدان الديمقراطية؛ لأنها تجرى انتخابات ديمقراطية، كيف تتوقع أن يؤمن الأمريكيون اللاتينيون سريعا بالديمقراطية؟ عندما يحدث ذلك؟" كما هاجم "إجماع واشنطن" حيث ينصحون باستخدام سياسات طبقا للكتب والمراجع أكثر من أن تكون طبقا لقانون حالات البلد النامى. وقال: "إن الولايات المتحدة فى حاجة إلى استراتيجية لأمريكا اللاتينية، لكنها لم يكن لديها واحدة أبدا".

كان ذلك هو تقييم واحد من أفضل أصدقاء أمريكا فى أمريكا اللاتينية، فإن وضعنا فى الحساب سجل الولايات المتحدة فى المنطقة، وهو سجل مواقف متبادلة من التدخل والإهمال، فإن شعورا واسع الانتشار من السخرية والشك فى دوافع الولايات المتحدة، يجب ألا يثير الدهشة، كما يُنظر إلى الولايات المتحدة، على نطاق

واسع، باعتبارها صاحبة مصالح، وليست صاحبة أصدقاء، وهي مهمة ، بصورة أساسية، بالكسب المادى والقوة، إنها لا يُنظر إليها بأية حال، باعتبارها محبة للسلام، حقا، لقد سأل سفير أمريكى لاتينى آخر فى الولايات المتحدة، "إن كانت أمريكا محبة للسلام؟ هل تهزل؟ إن أحدا فى أمريكا اللاتينية لا يؤمن بهذا الهراء". هنا، كما فى أماكن أخرى، يوجد نقد يقال همسا عن المعايير المزدوجة للولايات المتحدة، ومع ذلك فهنا أيضا، تحظى الولايات المتحدة بالإعجاب لنجاحها الاقتصادى وجامعاتها ومعاهدها الكبرى، كما يعترف بها، على نطاق واسع، باعتبارها الأمل الوحيد لأمريكا اللاتينية"، ولكن كما يقول روبنز باربوسا السفير الإسرائيلى، إن تجسيد ذلك الأمل صعب؛ لأنه "ليس هنالك تهديد أمنى أو نووى فى هذا النصف من الكرة الأرضية، ونتيجة ذلك فإن واشنطن تمنح أمريكا اللاتينية أولوية ضئيلة".

وقد سببت هذه الأولوية الضئيلة الإحباط للرئيس المكسيكى فيسينت فوكس، والذي ربط نجاحه فى الرئاسة برهان أن صديقه الطيب، وزميله فى تربية الماشية جورج ديليو بوش سوف يغير، بصورة درامية، شكل ومادة العلاقة كلها، ولم يكن يبدو أن هذا فى طريقه للحوث، ولذا سبب الأذى لفوكس - غير أن الرؤساء الذين تحدثت إليهم فى المنطقة، ما زال لديهم أمل بأن يقوم بوش بتناول موضوعات أساسية ثلاثة خلال إدارته: التجارة والتنمية الاقتصادية، والسيطرة على تجارة المخدرات، ودعم الديمقراطية.

إن التنمية الاقتصادية هى الموضوع الأكثر إلحاحا، وهى الموضوع الذى ترى المنطقة فيه واشنطن وهى تفشل فشلا ذريعا، إن مدخل الولايات المتحدة يقوم على اقتراح اتفاقات تجارة حرة، جنبا إلى جنب مع الخصخصة المحلية ورفع القيود والقواعد المنظمة، إن الصعوبة هنا هى أن "النافتا" جاءت بزيادة دراماتيكية فى التجارة بين المكسيك والولايات المتحدة، لكنها لم تحقق توقعات ونبوءات أخرى عديدة، مثال ذلك: أن الرواتب والأجور المكسيكية هبطت إلى حد بعيد منذ عام ١٩٩٤، وارتفع عدد هؤلاء الذين يعيشون تحت مستوى خط الفقر، جنبا إلى جنب مع البطالة، وما هو

دون البطالة، ومن ثم فإن جاذبية الهجرة غير الشرعية، بحثا عن وظائف في الولايات المتحدة، تظل قوية، إن المشكلة لا ترجع فقط للنافتا، إنها أيضا نتيجة الأزمة الاقتصادية لعام ١٩٩٥، وارتفاع وانخفاض أسعار النفط، غير أن النافتا لم تكن كافية لتفرغ أيا من هذا، وجاءت بمشاكلها الخاصة، ويظل المدخل المكسيكي إلى سوق الولايات المتحدة كما في السكر، أو الخدمات كما في النقل بالشاحنات محدودا، وفي نفس الوقت الذي فُتحت فيه الأسواق الزراعية المكسيكية أمام سلع مدعومة بقوة مثل القمح الأمريكي، فإن المنتجات المكسيكية تواجه الانقراض بصورة متزايدة، وعلى غير مثال الاتحاد الأوروبي، الذي قدم معونة تسوية مادية حقيقية، ومدخلا كليا إلى السوق، وتمويلا جديدا للبنية التحتية عندما ضم إسبانيا والبرتغال، فإن الولايات المتحدة زعمت في ظل النافتا أن التجارة وحدها هي التي ستوفر الوسائل للعناية بالضرورات الأخرى.

إن المشكلة في باقى أمريكا اللاتينية والجنوبية، خارج النافتا - أكثر صعوبة، وبينما تقدم اقتراح العديد من الاتفاقيات التجارية، فإن واحدة فقط، مع شيلي هي التي استكملت، إن البرازيل وهي ذات أكبر اقتصاد في أمريكا الجنوبية تجد أن أكثر من نصف مفردات صادراتها تخضع لبعض القيود في سوق الولايات المتحدة، ويأتى تحدى الصين، على قمة كل هذا، إن المصانع التي تحركت أولا من مواقع في الولايات المتحدة، إلى المكسيك، قد بدأت الآن تغادر المكسيك إلى الصين؛ حيث الأجور أقل بكثير من المستويات المكسيكية المنخفضة، وما هو حقيقى بالنسبة للمكسيك يظل كذلك، بل وأكثر، بالنسبة لباقي نصف الكرة، إن دخول الصين في منظمة التجارة العالمية يُنظر إليه جنوب ريوجراندى باعتباره بداية النهاية للنافتا، ولا يبدو أن أحدا في واشنطن يتناول هذا الموضوع.

إن الموضوع الأكثر إثارة للقلق هو تجارة المخدرات؛ حيث إن موقف الولايات المتحدة يشبه سلوكها في مسألة واردات النفط، إن إدمان الولايات المتحدة للغاز الرخيص قد ورطها في سياسات الشرق الأوسط، وقادها ذلك عن غير عمد إلى

تمويل نشر الإسلام الأصولي والإرهابيين، إلى ما يصيبها هي بالضرر، وبنفس الطريقة، فإن إدمان الولايات المتحدة للكوكايين، ومواد مخدرة أخرى - يمول الاتحادات الاحتكارية في أمريكا اللاتينية، والفساد، وتاكل المجتمعات في بيرو وكولومبيا وبنما والمكسيك وأماكن أخرى، إن الأمريكيين - ويقدرّون بعشرين إلى خمسة وعشرين مليوناً يدخلون الماريجوانا، وستة ملايين مستخدم منتظم للكوكايين، ونصف مليون مستهلك للهيريويين - ينفقون حوالي ٦٤ مليار دولار سنوياً على المخدرات^(٤٤)، وقد اتخذت الولايات المتحدة منذ عام ١٩٠٩ نهجاً يقوم على التحريم، يقتضى بالضرورة "أن يقوم التجار والموزعون والمدمنون بالتسليم دون قيد أو شرط"، إلا أن عدم تحقق هذا التسليم أمر واضح من حجم السوق، وحقيقة أن إنتاج العالم من الأفيون والكوكايين قد زاد أكثر من الضعف فقط بين عامي ١٩٨٥ - ١٩٩٦^(٤٥).

إن تفاعل حكومة الولايات المتحدة مع المخدرات مُركب، وغالباً ما هو فاسد، كانت وكالة المخابرات المركزية، عندما ساعدت في تنظيم المجاهدين في أفغانستان بعد الغزو السوفيتي - تعرف أن العصابات تحصل على النقود ببيع الأفيون، وكان ٦٠٪ من الهيريويين في سوق الولايات المتحدة قد جاء أصلاً من أفغانستان^(٤٦)، وقد كان مانيويل نوريجيا، رئيس بنما السابق، وهو من رجال وكالة المخابرات المركزية - متعاوناً أيضاً مع "ميدلين كارتل أوف كولومبيا" - وقد غزت إدارة بوش الأولى عام ١٩٨٩ بنما، وقبضت على نوريجيا، الذي هو الآن في أحد سجون الولايات المتحدة لتنفيذ حكم بأربعين عاماً، وتظل بنما على أية حال مغسلة كبيرة للأموال، ومركز نقل للكوكايين.

إن مدخل الولايات المتحدة لتجارة المخدرات، لم يكن تحريماً فقط، بل كان أيضاً شبه عسكري وتدخل إلى حد كبير للغاية، ورغم أن محاكم وسجون الولايات المتحدة مثقلة بأناس قبض عليهم بتهم ذات علاقة بالمخدرات، فإن جهوداً كبرى، لخفض الطلب على المخدرات، عبر المعالجة - لم تطبق في الحقيقة أبداً في الولايات المتحدة، إن جهد السيطرة قد ركز على وقف الإنتاج ومنع الشحنات، إن هذا الجهد يستخدم

أسطولا كبيرا من السفن والطائرات يحدد المواقع، يتعقب، ويوقف تدفق المخدرات، وتقوم الولايات المتحدة بتدريب وحدات عسكرية لاتينية وتمويلها، لتوقف إنتاج المخدرات والاتجار فيها، فى بلدانهم، وتستخدم طائرات الرش لتدمير محصول الكوكا الذى يزرعه المزارعون فى الأدغال وأراضى المزارع فى بيرو وكولومبيا، وغالبا ما يدمر هذا الرش المحاصيل القانونية كما يدمر الكوكا، كما أنه يتسبب فى تآكل التربة، وكانت الجهود التى بذلت لمساعدة المزارعين على زراعة محاصيل بديلة، غير كافية وغير ناجحة، يضاف إلى ذلك أن التدريب الذى أعطى للأشخاص المتحكمين فى المخدرات اللاتينية - يشابه إلى حد كبير التدريب المضاد للعصيان والتمرد، الذى كان دون شك قد طبق لأغراض لا علاقة لها بالمخدرات فى مناطق تستوطنها عصابات الحروب.

إن المشكلة الكبرى هى مراجعات الشهادات السنوية الخاصة بالحكومات الأجنبية، إن على البيت الأبيض أن يزود الكونجرس كل عام بشهادة أن الحكومات الأجنبية تتعاون بصورة وافية مع جهود الولايات المتحدة، حول التحكم فى المخدرات، والبلدان التى لا يُشهد لها تفقد المساعدة الأجنبية، وتواجه عقوبات تجارية، وتعنى هذه السياسة الخاصة - بصورة مؤثرة - أن الحرب ضد المخدرات لا تُشن فى شراكة مع حلفاء، ولكن ضدهم، إن الولايات المتحدة تتصرف كمدع، وقاض، وهيئة محلفين فى تحديد إذا ما كانت المكسيك أم بيرو تعمل بطريقة صحيحة محاولة وقف تدفق المخدرات عبر حدود الولايات المتحدة، إن العملية مهينة وتثير الجنون، وهى فى عيون جيراننا اللاتينيين عامرة بالنفاق الأمريكى، وقد أخبرنى مسئول مكسيكى بحس بالمرارة أن الولايات المتحدة تعمل على التغاضى عن بنوكها عندما تتعامل فى أموال المخدرات، ورغم أنها تستطيع تعقب الشاحنات إلى حدود الولايات المتحدة، فإنها تختفى بشكل ما حالما تكون فى نطاق سلطة الولايات المتحدة، إن الناس تتساعل، على اتساع أمريكا اللاتينية، حول أين جانب الطلب فى هذه المعادلة؛ إذ طالما كان الطلب كبيرا جدا، والربح كبيرا جدا، فإن التجار سوف يجدون وسيلة للعرض، ونتيجة ذلك

فإن قوات الشرطة والقضاة والجيش، والناس العاديين لأمريكا اللاتينية يُفرون في أموال غير مشروعة تلتهم تدريجيا، وتدمر نسيج مجتمعاتهم.

ويصل بنا ذلك إلى موضوع الديمقراطية، إن واحدا من الأوجه البراقة للخمسة عشر عاما الماضية كان تحول أمريكا اللاتينية إلى الديمقراطية، ومع ذلك، هناك شك متزايد في أن ذلك سينجح؛ "إن السياسة تقتضى وقتا لتظهر نتائج"، قال أحد القادة: "غير أن الديمقراطية لا تمنحك أى وقت"، قال آخر: "انظر إلى البلدان التى تطورت بنجاح مثل سنغافورة، تايوان وشيلي، إنها لم تكن ديمقراطية خلال مراحل التطور"، إن هؤلاء القادة يتساطون فى عجب، كيف يمكن للديمقراطية أن تتعزز فى محيط من أموال المخدرات، لكن الأشد إحباطا للهمة، فى كل ذلك، هى وجهة نظرهم بأن الولايات المتحدة "لا تبالى حقا، وإلى حد كبير، بالديمقراطية فى أمريكا اللاتينية"، لقد لاحظ الجميع بالطبع ما كانت تحسه الولايات المتحدة فى الماضى من راحة مع الديكتاتوريين وتنصيبهم، غير أن المثل الرئيسى فى أيامنا تلك هو فنزويلا، حيث بدأ فى إبريل عام ٢٠٠٢ أن رسمى الولايات المتحدة يقدمون الدعم لمحاولة انقلابية لطرد الرئيس المنتخب هوجو شافيز، بالطبع غيرت الولايات المتحدة موقفها وأنكرت التورط، غير أنه لا يوجد واحد فى أمريكا اللاتينية يصدق هذا الإنكار ولو لدقيقة واحدة، هنا مرة أخرى لم تقدم سياسات الولايات المتحدة مبررا هاما للثقة.

الشرق الأوسط

إن كان لدى أمريكا اللاتينية القليل من الثقة فى الولايات المتحدة، فإن البلدان الإسلامية فى "الشرق الأوسط"، وجنوب آسيا وجنوب شرق آسيا، لم يعد لديها أية ثقة. إن هذا يعنى أيضا حركة عكسية كبرى، إن هذه البلدان باعتبارها بلدانا عميقة التدين، فقد رفضت العقيدة الشيوعية، بصورة طبيعية، وكانت فى أغلب الوقت حليفة لأمريكا خلال الحرب الباردة، رغم عدم ارتياحها لدعم الولايات المتحدة لإسرائيل، وكما

هو ملاحظ في الفصل الرابع، فإن العربية السعودية كانت لها بصورة خاصة علاقات دافئة مع الولايات المتحدة تعود إلى الاكتشاف الأول للأمريكيين للنفط في صحراء السعودية، عندما أكد البريطانيون وغيرهم بقوة استحالة وجود أى نفط هناك، إن البلد الأساسى الآخر فى الشرق الأوسط هو مصر، التى كانت لها علاقات أكثر صعودا وهبوطا مع الولايات المتحدة، ولكن بعد نهاية حرب "يوم كيبيور" عام ١٩٧٣، أصبحت هى أيضا صديقا صلبا، وقد لعبت الأردن ولبنان أيضا رغم صغرهما أدوارا رئيسية كمساعدين وصديقين للولايات المتحدة، وقد قامت الأردن، فى الغالب، وبشكل خاص، فى ظل الملك حسين بدور مهدئ وسط سياسات المنطقة المتفجرة.

والآن، كما ذكرت بيانات مسح "بيو" فى الفصل الأول والثانى، فإنها تشير إلى أنه قد تم نزح كل حسن نية، إن السبب المباشر هو الحالة فى العراق، غير أن العامل طويل المدى والأعمق هو ملاحظة انحياز الولايات المتحدة لإسرائيل، هناك دون شك أيضا عنصر للإحباط والغضب الذاتى، فى العديد من تلك البلدان، بسبب عجزها الكبير على أن تكون على مستوى التحديث، وهم يواجهون هذه المشاعر وجهة جديدة نحو الولايات المتحدة، غير أن فقدان الإرادة والاحترام اللذين أشير إليهما هنا بشكل خاص - هما لهؤلاء الناس الذين راهنوا بتاريخهم المهنى، وبنوا حياتهم على أساس كونهم أصدقاء للولايات المتحدة، إن العربية السعودية هامة بشكل خاص فى هذا الصدد؛ لأن الكثير للغاية من نخبها قد درسوا وعاشوا فى الولايات المتحدة، ولأن البلد قد فعلت الكثير، فى نظرها هى لتكون داعمة بتقديمها المساندة لعمليات الولايات المتحدة السرية حول الكون، وكذلك بالمثل فى ضبط أسعار النفط، وفى أعقاب ١١ سبتمبر اتخذت الصحافة الأمريكية موقفا صارما من السعودية، وهى الصديق المقدم حتى الآن، أو فى الغالب لا مصلحة لها؛ لأن خمسة عشر من التسعة عشر قرصانا كانوا مواطنين سعوديين، وبعد سنوات من تجاهل الملكة، أو التغطية على ما تقدمه من دعم قوى لغالبية مبادرات الولايات المتحدة بكفاءة، فإن صحفا مثل الـ "ول ستريت جورنال" لم تجد شيئا جيدا فى المملكة، وقد أدين بشدة قانونها الإسلامى، وتحجيبها

للمرأة، ومؤسساتها الخيرية، ونظامها المدرسى، وافتقارها للديمقراطية، ودعمها للفلسطينيين، أُدينَت كلها بشدة باعتبارها بربرية من العصور الوسطى ومعادية لأمريكا، وبينما أشار النقد إلى موضوعات حقيقية يحاربها السعوديون أنفسهم، فإن النغمة الخشنة والتحول العكسى الفجائى للاتجاهات الودودة السابقة قد لدغت عندما بدا واضحا أن الأمريكين قد نسوا، أو ربما لم يعرفوا أو يبالوا بالدعم الذى أعطته لهم العربية السعودية.

وقد شرح لى مالك سلسلة صحف سعودية رئيسية، الماراة التى سببها هذا المنحى، إنه خريج جامعات الولايات المتحدة الذى يقضى معظم وقته فى بلده الثانى الولايات المتحدة، وصف لى صدمته فى أناس كان يفكر فيهم دوما كأصدقاء، وقد بدوا الآن فجأة شكاكين فى كل السعوديين، بل والأكثر أهمية كان وصفه لرد فعل ابنه البالغ من العمر ٢١ عاما، كان الشاب قبل ١١ سبتمبر طالبا فى جامعة رئيسية بالولايات المتحدة، ذهب إليها بعد انتهائه من مدرسة تمهيدية من مدارس القمة بالولايات المتحدة، كان دائما معجبا شديد الإعجاب بكرة القدم، وكرة السلة فى الولايات المتحدة، يستمتع بلا توقف إلى الموسيقى الأمريكية، ويأكل الطعام الأمريكى الرديء، ويلعب ألعاب الكمبيوتر، ويواعد فتيات أمريكيات، والآن على أية حال وفى أعقاب التحول العكسى المفاجئ للاتجاهات الأمريكية، فإن الابن، كما أخبرنى، انسحب من الجامعة، ويرفض السفر إلى أمريكا، أو حتى أن يقابل أمريكين فى العربية السعودية، بل وأكثر ما يثير قلق صديقى حقيقة هو أن ابنه قد غدا مهتما بصورة كثيفة بالسياسة، ويحضر بانتظام اجتماعات شخصيات راديكالية سياسية ودينية، وهو ليس الآن معاديا بقوة لأمريكا فقط، لكنه معاد لإسرائيل أيضا.

هذا مثل واحد فقط، لكنه دال على مشاعر أكثر إتساعا لها نتائجها بالفعل على الولايات المتحدة، إن القاعدة الجوية العملاقة "الأمير سلطان"، كانت عنصرا رئيسيا فى بنية الولايات المتحدة من أجل مراقبة مستمرة للخليج الفارسى، وقد أعلن قادة سعوديون، فى الأشهر القريبة، على أية حال أنه ما أن تنتهى الحرب مع العراق، حتى

يطلبون من الرئيس بوش سحب كل القوى المسلحة الأمريكية في المملكة، حقا، إن العديد من السعوديين - كما يبدو - يفكرون في أن أفضل جزء في الأمريكي الجديد فيما يتعلق بالعراق - لن يكون إلى حد كبير التخلص من أسلحة "صدام" للدمار الشامل، ولكن التخلص من الوجود الأمريكي في العربية السعودية، ومن ثم فإن أسامة بن لادن قد يرى إنهاء التحالف السعودي مع الولايات المتحدة، ذلك التحالف الذي طالما سعى إليه.

وتعاني الأردن ومصر القلق أيضا، مثلما عانت السعودية، ولقد تأثرت في اجتماعات مع قادة أردنيين من الإحباط الذين عبروا عنه لما يرونه سوء تأويل واشنطن للأحداث في المنطقة، ويشاركهم وجهات نظرهم، ويعبر عنا أفضل تعبير عبد المنعم سعيد، مدير مركز الأهرام للدراسات السياسية والاستراتيجية في القاهرة، وقد شرح أثناء إفطار أن الأمريكيين يميلون إلى رؤية مشاكل العراق وإيران والأصولية والإرهاب والنزاع الإسرائيلي - الفلسطيني باعتبارها مشاكل منفصلة، تحل كل منها على حدة، وقال: إنها بالنسبة للعرب هي كل مترابط، واستمر خاصة أن المشكلة ليست في أن وضع العراق قريب إلى حد كبير مما عليه وضع القضية الفلسطينية، وقال حقا: إن ضرب العراق سوف يفاقم الوضع في الشرق الأوسط، وخاصة أنه ليس من المحتمل كبح الأصولية والعنف بين العرب وإسرائيل، ولكن تحفيزه، إن ما لا يفهمونه في أمريكا، هكذا أكد، هو ذلك الحس العميق بالظلم الذي يحسه عمليا كل العرب، إنهم يتساءلون: لماذا في وسع إسرائيل امتلاك قنابل نووية، وليس في وسع البلدان العربية؟ لماذا في وسع إسرائيل تجاهل قرارات الأمم المتحدة مع إعفائها من العقاب، لكن صدام يجب مهاجمته على الفور؟ لماذا في وسع إسرائيل الإفلات حتى مع إغراق باخرة الأسطول الأمريكي "ليبرتني"؟ في حرب ١٩٦٧، واستخدام الأمريكيين، أمثال جونatan بولارد، الذي هو الآن في السجن؛ للتجسس على الولايات المتحدة ذاتها، بينما العرب المواطنون في الولايات المتحدة يُجمعون بصورة روتينية للاستجواب بخصوص نشاطات إرهابية، فقط لأنهم عرب؟ يضاف إلى ذلك قوله: إن العرب لا يرون في صدام

تهديدا كبيرا كما هو الإرهاب، وبالسعى وراء العراق، يقول: أمريكا تسلك الطريق السهل بمهاجمتها عاصمة يمكن قذفها بالقنابل، وواصل: إن رباط الولايات المتحدة بالعرب المعتدلين - عمل طوال نصف قرن لكبح التوسع الشيوعي، ولوقف موجات الثورة الإيرانية، وإنهاء تهديد صدام في حرب الخليج عام ١٩٩١، وقال: الآن يرى العرب أن القوة العظمى وراء عدم الاستقرار في المنطقة هي الولايات المتحدة ذاتها.

وترددت وجهة النظر تلك على أساس أوسع بواسطة رئيس الوزراء الماليزي مهاتير، الذي قال لـ ١١٦ عضوا في حركة عدم الانحياز في فبراير عام ٢٠٠٢، إن الولايات المتحدة لم تعد تحارب فقط ضد الإرهاب، والأصح هو القول أن تلك الحرب للهيمنة على العالم، هكذا قال. وأكد عدم مبالاة أمريكا بالإحباط في العالم الإسلامي بسبب النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، وأدان المعايير المزدوجة الوقحة التي تثير حق المسلمين، بينما قال إن الجهود الجارية التي تقودها الولايات المتحدة تخلق الظلم والقهر للناس الذين من أصول عرقية وألوان أخرى، إنه نفس مهاتير الذي كُرم في "البيت الأبيض" منذ ما يقل عن عام سابق لدعمه الوفي للولايات المتحدة في حربها ضد الإرهاب.

جنوب آسيا

إن ميراث انقسام باكستان عن الهند، عام ١٩٤٧، والحرب الباردة - متحdan مع ورود الحرب على الإرهاب، قد خلقا خليطا مخيفا من الجنس والوحشية غير المروضة في جنوب آسيا؛ مما يجعلها أكثر الأماكن حذرا في العالم اليوم، إن الفصل المر للهند وباكستان قد ترك الملايين موتى، جنبا إلى جنب مع الألم الحادث لتقسيم كشمير، لقد خاضت الهند وباكستان ثلاثة حروب خلال الخمسين سنة الماضية، وكانا مرتبطين بصورة مستمرة بعملية تطوير الأسلحة عالية التكلفة رغم فقرهما المشترك، وغدت الولايات المتحدة مضطرة في كل هذا نتيجة الحرب الباردة.

ورغم أن الهند كانت دوما ديمقراطية، وباكستان ليست فى الغالب الأعم غير ديمقراطية عسكرية، والهند بنظامها الاقتصادى الاشتراكى، والشك فى ارتباطات أمريكا بحاكمها الكولونى السابق، بريطانيا، اتجهت نحو الاتحاد السوفيتى خلال الحرب الباردة، ومن ثم اتجهت الولايات المتحدة نحو باكستان، التى قفزت برشاقة فى تحالفات الخمسينيات التى ترعاها الولايات المتحدة مثل "الستتو" (منظمة المعاهدة المركزية) و"السياتو" (منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا)، غير أن علاقة الولايات المتحدة بباكستان كانت علاقة ساخنة وباردة، كانت ساخنة، فى الأيام الأولى للحرب الباردة؛ حيث كانت الولايات المتحدة "تبحث عن حلفاء فى آسيا"، ثم عندما هاجمت الصين الهند، عام ١٩٦٢، كانت هناك فترة قصيرة من الدفء الهندى الأمريكى، عندما قدمت واشنطن بعض المساعدات للهند، غير أن باكستان سرعان ما غدت حليفة للصين التى أراد نيكسون فتحها فى أواخر الستينيات وأوائل السبعينيات، وقدم قادة باكستانيون أنفسهم كقناة إلى بكين، ومن هنا وطلدوا رباطا وثيقا بواشنطن، حقا، كان الرباط وثيقا حتى إن الولايات المتحدة مالت فى الحرب الهندية الباكستانية عام ١٩٧١ نحو باكستان الفاشستية ضد الهند الديمقراطية، وبدت واشنطن بعد ذلك بصورة أو أخرى ناسية ما يجرى فى المنطقة حتى عام ١٩٧٤، عندما فجرت الهند أدواتها النووية الأولى، ورغم أنها هى التى مرنت علماء الهنود، وأمدتها بمواد نووية حاسمة فإن الولايات المتحدة قطعت عن الهند ما كانت تمدّه بها من وقود نووى بعد التفجير، رغم حقيقة أن الهند وعدت ألا تحول أدواتها إلى أسلحة، وقد دفع هذا بالهند أكثر مباشرة بين نزاعى السوفيت، الذين سعدوا بأن يكونوا مورد الماء الثقيل إلى الهند.

كانت باكستان فى تلك الأثناء تقوم بتنفيذ برنامج تطورها النووى بعد حربها عام ١٩٧١ مع الهند، وبينما قامت كندا وألمانيا بتوريد معدات حاسمة، أوقفت الولايات المتحدة المعونة الاقتصادية والعسكرية فى تعبير عن معارضتها لما لم يكن واضحا أنه برنامج أسلحة نووية، وأصبحت باكستان عام ١٩٨١، على أية حال، هامة مرة

أخرى لواشنطن نتيجة غزو السوفيت لأفغانستان، كانت الولايات المتحدة فى حاجة إلى منطقة خلفية لتدريب وتسليح وإمداد المجاهدين، وكانت باكستان مثالية فى ذلك؛ حيث إنها بلد إسلامى يؤوى العديد من ذات القبائل التى تعيش فى أفغانستان وتتعلم بعض لغاتها، ومن ثم، رفعت إدارة ريجان العقوبات عنها، رغم القبض على مهرب حاول شحن طنين من الزركونيوم(*) إلى باكستان، وجدت مساعداتها السخية العسكرية والمالية فى مقابل العون مع المجاهدين، وقد أمدت الصين، عام ١٩٨٣، باكستان بتصميم قنبلة؛ رداً على ذلك، وأقر الكونجرس تعديلاً يطالب بعقوبات اقتصادية ما لم يشهد البيت الأبيض أن باكستان لم تعمل فى برنامج أسلحة نووية، وشهد البيت الأبيض بذلك للسنوات الخمس التالية، لكنه فرض أخيراً عقوبات عام ١٩٩٠، عندما خافت باكستان الحرب مع الهند مرة ثانية فصنعت الأجزاء المركزية من أسلحة نووية عديدة، وتواصل البرنامج - على أية حال - منتهياً عام ١٩٩٨، عندما قامت كل من الهند وباكستان بسلسلة من تفجيرات التجارب النووية، وعبرت واشنطن ثانية عن غضبها.

وفى أعقاب انهيار الاتحاد السوفيتى، وتحقيق عدد كبير من أصحاب الشركات الهندو الثراء فى "سيليكون فالى"، وعودتهم لتكوين شركات جديدة فى وطنهم، بدأت علاقات الهند والولايات المتحدة فى الدفء، بل أصبحت أكثر دفئاً عندما أعلنت إدارة بوش الجديدة أن الصين "منافس استراتيجى" عام ٢٠٠١، وبدأت تعاوناً عسكرياً أكبر مع الهند كوسيلة للإشارة إلى الصين بأنها محاصرة، وفى تلك الأثناء، سيطرت "طالبان" على أفغانستان، تحت النفوذ الباكستاني؛ الأمر الذى كانت الولايات المتحدة قد تخلت عنه ونسيته بعد خروج الجيش السوفيتى عام ١٩٨٩، وعندما فرضت طالبان الحجاب على النساء وأخرجتهن من الوظائف، والمدارس، حتى المستشفيات، ووفرت

(*) عنصر فلزى نادر. (المترجم)

تسهيلات ودعمًا لأسامة بن لادن، وفرضت نظامًا ينتمي إلى العصور الوسطى، ظلت الولايات المتحدة خرساء بكاء - حتى جاء ١١ سبتمبر.

فجأة، احتجنا لباكستان مرة أخرى، وبدأت المعونة الاقتصادية والعسكرية تتدفق مرة أخرى، عندما تعهد الرئيس مشرف بأنه مع الولايات المتحدة في الحرب ضد الإرهاب، وأثبت مشرف بهذا التعهد أنه فعليا رجل شجاع، كان الإسلاميون الراديكاليون الداعون لطالبان، يخترقون بعمق أجهزته العسكرية والسرية، بينما العالم في بلده، وخاصة في الأقاليم الحدودية مع أفغانستان، يميل إلى أن يكون متعاطفا مع أسامة، ولما كان مشرف ديكاتورا عسكريا آخر، فإن إمكانية اغتياله أو الانقلاب عليه، كانت وما زالت قائمة طوال الوقت، ولكن إن كان مشرف شجاعا، فقد كان مخادعا أيضا، فعندما قبض من يدعمون القاعدة في باكستان على داني بيرل، المراسل الصحفي لـ وول ستريت جورنال، وقتلوه، فإن أجهزة الأمن الداخلية كانت واعية لهذا الأمر، وهناك احتمال كبير لتورطها في عملية القتل، إن مشرف دون شك، كان يعرف في الغالب هذا عندما زار واشنطن في فبراير عام ٢٠٠٢، ومع ذلك فإنه أخبر الرأي العام الأمريكي باعتقاده أن داني كان ما يزال حيا، ربما كان عليه أن يفعل ذلك حتى يظل هو، ذاته حيا، إن الحالة اليوم، على أية حال، هي أنه بينما يبقى مشرف رئيسا يدعم الولايات المتحدة فإنه لا يسيطر على الأقاليم الغربية، أو ما تسمى المناطق القبلية لبلده هو. كما أنه لا يبدو مسيطرا على بعض أجهزته الداخلية التي تواصل دعمها للنشاط الإرهابي في كشمير، إن هذا النشاط يمكن أن يؤدي إلى حرب مع الهند، غير أن الأمم المتحدة تقول للهنود: أن يهدؤوا لأن واشنطن تحتاج إلى مشرف لدعم سياستها في أفغانستان. وفي تلك الأثناء، على أية حال، فإن سياسة الولايات المتحدة في العراق وفي إسرائيل - فلسطين تجعل موقف باكستان جذريا إلى حد كبير، حتى إنه من الممكن للغاية، كما أخبرني ناشر باكستاني هام، أن تقتل مجموعة مثل طالبان مشرف وتستولي على باكستان بمعداتها النووية وصواريخها الباليستية، إذا كنت تعتقد أن ذلك يبدو أمرا خطرا، فهو بالفعل كذلك.

النظام العالمى الجديد

إن شكل النظام العالمى الجديد ما يزال غير متبلور - على نحو ما - غير أنه لا يبعث على الراحة بصورة متزايدة، إنه ليس تماما، الولايات المتحدة ضد العالم، كما تنبأ صديقى المالىزى، لكن التوتر بين أمريكا وأصدقائها القدامى فى كوريا الجنوبية وأوروبا واليابان، وجنوب شرق آسيا، وأمريكا اللاتينية، يتصاعد إلى مستويات خطيرة، إن العلاقات بالخصوم القدامى مثل روسيا والهند والصين قد تحسنت بالفعل، لكن التنبؤ بها يظل صعبا، حقا، إن النظام العالمى الجديد كله غدا أمرا لا يمكن التنبؤ به وغير مستقر. هل ذلك هو ما نريده حقا؟ إننا فى حاجة لنسأل أنفسنا ذلك السؤال.

الفصل العاشر

مدينة فوق التل

" لا حاجة ليلا إلى قمر أو نجوم ولا حاجة نهارا لشمس

تشرق. إنها أورشليم الجديدة التي يجب ألا تموت"

المدينة المقدسة (ويزرلى وأدمس)

يبدو لي وأنا أبدأ هذا الفصل الأخير أنه من المحتمل تماما أن تحتل حشود الولايات المتحدة جنبا إلى جنب مع بعض القوات البريطانية، وربما تمثيل رمزي لوحدات مسلحة من أعضاء آخرين في "ائتلاف الراغبين"، العراق عندما يظهر هذا الكتاب، وبينما يحتمل أن يكون ذلك في هذه المرحلة، أفضل من البديل الذي يسمح لصدام بتحدى مجلس أمن الأمم المتحدة وازدراءه، وهو يواصل معاملة العراقيين العاديين بوحشية، ويبدو لي أننا ونحن نحاول فعل الشيء الصحيح، ولكن بأسوأ سبيل ممكن، نكون قد منحنا أنفسنا الاختيارات السيئة فقط، وأوجدنا حالة خاسرة - خاسرة؛ إذ سواء دخلنا عاجلا أو تأخرنا بسبب تغير ما في قلب صدام، في آخر دقيقة، أو لم ندخل على الإطلاق، فإن ضررا بالغا قد ارتكب بالفعل، وإن سار الاحتلال على هدى ما جاء في الكتب، وبزغت العراق كنموذج ديمقراطي خلال خمس سنوات - وهو سيناريو نزاع طويل للغاية - فسوف يكون للضرر نتائج لاحقة دائمة، وهذا صحيح بشكل خاص إن نظرنا إلى العراق وكوريا الشمالية، كجزء من كل، أكثر من النظر إليهما باعتبارهما موضوعين منفصلين.

إن التقليل من أهمية تهديدات كوريا الشمالية، والانسحاب من معاهدة حظر الانتشار بينما تبذل جهود جبارة للذهاب إلى الحرب مع العراق البعيد للغاية وغير النووي، تعنى أن واشنطن قد أرسلت رسالة عالية تقول بانك إن فكرت باحتمال وجودك في الجانب السيئ لأمريكا، يجب أن تصبح نوويا، وفي سرعة، والأمر الأكثر أساسية هو أننا بسوء فهمنا لمصالحنا الوطنية الخاصة بنا وأسس قوتنا - نكون قد دمرناها بالفعل، إن الاتحاد الأوربي مثلا أكثر من مجرد سوق كبير، إنه الأداة التي هدأت حروب الخصومات القديمة والقبلية في أوروبا، وهو الذي خلق مولدا للثروة، مولدا قادرا على أن يكون شريكا مساويا للولايات المتحدة، وذلك بعمله كمولد لنشر الديمقراطية والسلم والاستقرار في كل أوروبا، وفي أجزاء من آسيا الآن أيضا، إن مصدر القوة الهائل ذاك، والذي عززته الولايات المتحدة يوما باعتبار أنه كان في صالحها إلى حد كبير - قد أوقع به ضرر داخلي بالغ بسبب الانقسامات التي نشأت في المعركة حول كيفية معالجة العراق، انقسامات بسبب سياسات الولايات المتحدة، وفوق هذا، فإن علاقة الاتحاد الأوربي، وغالبية البلدان الأوربية الأساسية والولايات المتحدة قد أصابها الضرر، وهذا حقيقي، حتى في البلدان، مثل بريطانيا؛ حيث ساندت القيادة أمريكا؛ لأن الرأي العام على اتساعه كان ضد سياسات الولايات المتحدة بصورة ساحقة، ولم يخدمه الحديث عن "أوروبا القديمة - أوروبا الجديدة"، إن أوروبا الجديدة لن ترسل أي حشود جنود، أو تدفع أية حوالات، وهي إن ذهبت جنبا إلى جنب مع واشنطن، وإبعاد نفسها عن أوروبا القديمة، فهي تكون على الأرجح قد دمرت طموحاتها التنموية.

خذ الناتو مثلا آخر، إن الأمريكيين عادة ما ينظرون إلى الناتو، وإلى الاحتفاظ بحشود من جنود الولايات المتحدة في أوروبا، باعتبار ذلك نوعا من المعروف الذي تقوم به من أجل الأوروبيين، حقا، لم يعد هناك، بموت الاتحاد السوفيتي، تهديد عسكري لأوروبا، ومن ناحية أخرى، ليس في وسع الولايات المتحدة إظهار القوة في الشرق الأوسط أو إفريقيا دون استخدام قواعد الناتو، والتعاون، والحقيقة أننا في حاجة إلى

الناثور ربما أكثر من الأوروبيين، ومع ذلك، فهناك بالفعل حديث في أوروبا عن إنهاء محتمل أو تقييد لاستخدام الولايات المتحدة للقواعد والقضاء الجوي، ومن الواضح بالفعل أن العربية السعودية سوف تطلب منا إجلاء القواعد هناك في المستقبل القريب، ويبدو محتملاً أن تطلب كوريا الجنوبية نفس الشيء، وربما تتبعها اليابان، إن السخريّة الكبرى هنا هي أن الأحادية الأمريكية تبدو وهي تاكل ذات قواعد الهيمنة التي يحاول حواريوها توسيعها.

الحلم الذي يمكن أن يتحقق

إنه ما كان، ولم يكن عليه أن يكون على هذا النحو، كان هناك وما يزال سيناريو آخر ممكن، لم يكن معروفاً بصورة واسعة أن الولايات المتحدة أو الأمم المتحدة في نهاية حرب الخليج، عام ١٩٩١ - قد وضعت شروطاً جادة لوقف إطلاق النار، حقاً، عندما اجتث الجيش العراقي كلية، أوقف الانتلاف القتال ببساطة، وطلب من القادة العراقيين أن يتخذوا الاستعدادات لوقف إطلاق النار، والتقى الجنرال نورمان شوارتزكوف، وكان يعمل ببضعة تعليمات في ٢ مارس ١٩٩١ - مع الجنرالات العراقيين لاتخاذ الاستعدادات لشروط وقف إطلاق النار، ولم يقدم الانتلاف طلبات لصدام، أو إلى أي أحد من ممثليه، لتوقيع أية وثيقة بالتسليم، أو بشروط تطالب بنزع سلاح العراق، أو تدمير أسلحة الدمار الشامل، أو حماية مجموعات الشيعة أو الأكراد في العراق، والذين شجعهم الانتلاف ليثوروا ضد نظام صدام، وقد حصل صدام، في الواقع، على جواز مرور، ورغم أن شوارتزكوف قد طلب ألا تطير طائرات ثابتة الأجنحة قرب حشود جنود الولايات المتحدة، ولم توضع شروط لتقييد الطائرات المروحية؛ لذا فإنه عندما ثار الشيعة والأكراد، وقد حثهم الانتلاف على ذلك، ذبحتهم مروحيات صدام، وقد أحالت واشنطن اللوم على هذا، فيما بعد إلى الحاجة للرد على مخاوف السعودية من الشيعة، غير أن مسؤولين كباراً من الولايات المتحدة والسعودية، كانوا في نفس المكان في ذلك الوقت، أخبروني أن السعوديين رغبوا، في الحقيقة،

في مساعدة الشيعة، وقد جعلت الولايات المتحدة المنطقة الجنوبية أخيراً، دون طيران، لكن الوقت كان قد تأخر كثيراً لإنقاذ الشيعة، وأصدرت الأمم المتحدة، فيما بعد، في أبريل، القرار ٦٨٧ والذي يأمر صدام بتدمير كل أسلحة الدمار الشامل، ورغم أن وزير خارجية العراق رد بخطاب يقبل فيه التعليمات كانت لحظة التغيير الحاسم قد مرت، كان الوضع الآن هو لعبة القط والفأر.

افترض أن الولايات المتحدة وحلفاءها (وقد كانوا بالفعل حلفاء حينذاك) قد فرضوا شروط نزع سلاح على العراق في وقت وقف إطلاق النار، طالبين من صدام توقيع وثيقة رسمية ذات شروط حقيقية، وآليات وضعها موضع التنفيذ، لكان في وسعنا أن نفعل ما نتحدث عنه الآن، يساندنا الثقل الكلي للرأي العام العالمي، وقد أخبرني خبراء كبار للولايات المتحدة كانوا في المنطقة في ذلك الوقت، أن مثل هذا المطلب كان يعنى بالتأكيد سقوط صدام، لكننا سمحنا له، بدلا من ذلك، أن يحول مأساة عسكرية إلى نصر سياسى، كان لدينا حينئذ غالبية القادة الذين لدينا الآن: شينى، باول، وولفويتز، فيث وهان، كانوا جميعا هناك، واليوم، يجادلون بأن الكونجرس والأمم المتحدة أمروهم رسميا بطرد العراق من الكويت فقط، وأن أى تقدم نحو بغداد كان سيمزق الائتلاف إربا، وبينما يمكن أن يكون ذلك صحيحا، بقدر ما ينجح، فإنه يتهرب من حقيقة أنه لم تكن هناك ضرورة للذهاب إلى بغداد، كان هناك حاجة فقط لفرض شروط المنتصر، وربما نتذكر أننا كرمنا هؤلاء القادة، وأقمنا لهم المواكب في قلب المدينة في مناهاتن حيث أُلقيت عليه قطع الأوراق الصغيرة فكانت كهبة ريح ثلجية، ومنحناهم الأوسمة أمام الكونجرس لانتصارهم الواضح على جيش من العالم الثالث، كان علينا أن نصفر لهم لأنهم نسفوه نسفا.

نسفوه بعدم توصلهم إلى أسلحة الدمار الشامل، عندما كان في وسعهم أن يفعلوا ذلك، ونسفوه ثانية عندما سمحوا لصدام باستخدام مروحياته وإطلاق النار على الثورات المتمردة التي دعوا إليها في مناطق الاكراد والشيعة بالعراق، لقد نسفوه للعجز في التخطيط لما بعد الحرب، وبسبب الجهل بالحالة الحقيقية في العراق.

وبوضوح، بسبب مراعاة ائتلاف حلفائنا الذين خشوا فراغا في المنطقة، لقد عرفوا حينذاك أن صدام قد استخدم الغاز ضد شعبه، وأنه كان ديكتاتورا وحشيا يقينا، لقد أملوا، وربما حتى اعتقدوا - أن ضباطه سوف يقومون بانقلاب ضده، لكنهم كانوا على استعداد للقبول ببقائه حيا؛ لاعتقادهم أنه قد هُزم، وأنه لن يشكل تهديدا مرة أخرى.

لكن، ضع كل ذلك جانبا، لقد بدا للعديدين - في هذا الوقت - أن ذاك كان صحيحا، افترض بديلا آخر، مصادقة الولايات المتحدة على "اتفاقية كيوتو"، والتي هي قريبة للغاية من الاقتراحات الأمريكية الأصلية، افترض أن الولايات المتحدة وقعت على المحكمة الجنائية الدولية، أو على الأقل أحجمت عن شن حملة ضدها، افترض أننا وقعنا على معاهدة الألغام الأرضية، ومعاهدة الأسلحة الصغيرة، ولم نُخرج أحشاء معاهدة الأسلحة الكيميائية، ودعمنا الاتفاقيات المضادة للإبادة العرقية، واتفاقية وضع المرأة، افترض أن الولايات المتحدة كانت تقود الجهود لإعادة تجديد الناتو وإعادة بنائه، وعلاقته بالاتحاد الأوربي، جنبا إلى جنب مع مؤسسات الحرب الباردة المهجورة العتيقة بما فيها الأمم المتحدة، افترض أنه بدلا من القول: إن "الحرية ذاتها قد هاجمها جبان عديم الكرامة"، أو "أنهم يكرهون قيمنا وحياتنا"، كنا قلنا شيئا ما مثل: "لقد هاجمنا متدينون متعصبون يسيئون فهم قيمنا وسياساتنا"، وهم قد سطوا على الإسلام، تماما مثلما سطا الصليبيون على المسيحية، في محاولة لجعل الأخطاء المتصورة صحيحة، وهي ذات علاقة كبيرة بالصعوبات التي تواجهها مجتمعاتهم في عملية التحديث، صعوبات نحن ملتزمون بمساعدتهم للتغلب عليها"، افترض أنه بدلا من تسمية أرييل شارون "رجل سلام" - وهو شيء لم يسمه به أحد من إسرائيل، دع جانبا الأمم العربية - كنا ألزمتنا أنفسنا بالعمل حول خطة سلام عبد الله^(*)، افترض أنه بدلا من قول "أنت معنا أم ضدنا"، في أعقاب ١١ سبتمبر، كان الرئيس انتهز تلك الثورة

(*) الملك عبد الله بن سعود (المترجم).

الهائلة من التعاطف مع أمريكا، وطار إلى باريس وبرلين، وموسكو، وبكين، والقاهرة، وطهران، وسيول، وطوكيو، وإسلام آباد وقال "شكرا".

افترض أنه استدعى قادة العالم معا في مؤتمر خاص للبحث عن التزود بالمعلومات اللازمة والنصيحة في كيفية التعامل مع الإرهابيين ومصادر الإرهاب، افترض أن الولايات المتحدة لم تعلن عن استراتيجية للحرب الاستباقية بهدف منع صعود أى متحد لسيطرة الهيمنة الأمريكية.

افترض، في هذا السياق، أن الولايات المتحدة جاءت بالشأن العراقى إلى مجلس الأمن من أجل نقاش حقيقى بدلا من تحدى المجلس؛ لتجعل نفسها وثيقة الصلة بالموضوع، هل كان على المجتمع العالمى أن يستجيب بطريقة مختلفة؟ وحتى لو ظلت هناك معارضة قوية، هل كان من الممكن وجود دعم حقيقى أكثر، لوضع الولايات المتحدة؟ وفى النهاية، وقد جرى العمل منفردا، هل كان من الممكن وجود مخاطرة أقل بالعمل هكذا؛ لأن الأمر اعتبر فعلا استثنائيا للأحادية، أكثر من كونه فعلا أخيرا فى سلسلة مثل تلك الأفعال؟ إننى أومن أن اختياراتنا الآن سوف تكون أفضل، إن كان قد نُظر إلينا باعتبارنا مواطنين عالميين جيدين، أكثر من مرشحين لقائمة الأمة المارقة.

ماذا عن الوضع فى كوريا؟ افترض أننا بدلا من رفض الرئيس الكورى الجنوبي كيم - داي - جونج بازدياء، كنا دعوناه إلى واشنطن، وسألناه النصيح فى كيفية التعامل مع الشمال، افترض أننا بدلا من تسمية كوريا الشمالية جزءا من "محور الشر"، كان الرئيس اتصل برئيس كوريا الشمالية كيم جونج إيل، وأكد له تسليم المعدات المولدة للكهرباء، التى وعدناه بها، والتى هو فى حاجة شديدة إليها، افترض أننا عرضنا التفاوض حول معاهدة سلام لإنهاء الحرب الكورية، وعرضنا الاعتراف الدبلوماسى بكوريا الشمالية، كما وعدناها، ولم نكن قد عقدنا مثل تلك الصفقة الكبيرة الخاصة بنشر الدفاع الصاروخى الوطنى ضد "الأمم المارقة مثل كوريا الشمالية"، هل كان يمكن أن تكون أزمة كوريا تحت أيدينا؟ هل ستكون الإدارة فى وضع مضحك

وهى تحاول أن تشرح، لماذا شمال كوريا، وهى التى لديها أسلحة نووية وصواريخ طويلة المدى، وتعد لإنتاج المزيد منها، أقل تهديدا من صدام، ومرة أخرى: هل سيكون الشمال واضح الخوف منا، إلى حد كبير، إن لم تكن قد أعلننا عن استراتيجية حربنا الوقائية؟ اعتقد أن الإجابة، لا. لقد ساهمنا كثيرا فى تنمية الاختيارات الرديئة التى تواجهنا الآن.

* * *

إن نقطة النقاش، فيما بعد الأزمة الحالية، هى ذلك السؤال الكبير للغاية، عما يجب أن تكون عليه استراتيجيتنا الوطنية، ويكمن وراء ذلك السؤال، الذى قد يكون الأكبر، نوع الشعوب والأمم التى نريد حقا أن نكونها، دعونا نبدأ بالاستراتيجية، لقد اتبعت الولايات المتحدة منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، وحتى نهاية الحرب الباردة، استراتيجيتين متشابكتين - منع الانتشار والعولة الاقتصادية، إن الصفقة التى عقدتها أمريكا مع حلفائها، هى أنه يمكنهم الحصول على مدخل إلى السوق الأمريكى الهائل، والتكنولوجيا الأمريكية المتقدمة، وبالمثل استثمار أمريكى، فى مقابل نظام شراكة جيوبوليتيكية تكون الولايات المتحدة فيها هى الأعلى مقاما، لكنها ليست دائما الشريك المسيطر - وكما شرح جون إيكينبرى: "إن قوة الولايات المتحدة لم تُفقد النظام العالمى استقراره؛ لأن الولايات المتحدة ألزمت نفسها بنظام من القواعد العامة مفهوم ومقبول"^(١)، وفى كلمات أخرى، حددت البلدان الأخرى مصالحها مع مصالح الولايات المتحدة؛ لأن الولايات المتحدة "جعلت قوتها أمنة"، وقد كتب بنيامين شوارتز وكريستوفر لاين فى الـ "أتلانتيك" فى أكتوبر عام ٢٠٠٢ داعين هذا بـ "استراتيجية إعادة التأكيد"^(٢)، إن ما أدى إلى الإحساس الغربى بالعزلة والخوف والخيانة الموصوفة فى تلك الصفحات هو أولا: النمو النسبى الدرامى فى قوة الولايات المتحدة، وقد قالها البروفيسور تيمونى جارتون آش، من أكسفورد بطريقة لطيفة عندما كتب فى نيويورك تايمز: "إننى أحب هذا البلد (الولايات المتحدة) .. على عكس ما يعتقد الكثيرون من

الأوروبيين، إن المشكلة مع القوة الأمريكية ليست فى أنها أمريكية، المشكلة ببساطة هى القوة، سوف يكون خطرا على ملاك من ملائكة الطبقة العليا، أن يستخدم قوة بهذا القدر الكبير ... حتى الديمقراطية تجيء بإغراءاتها هى عندما تكون قوة بمفرطة^(٢)، قد يكون جارتون أش على حق، رغم أن الفجوة بين الولايات المتحدة والباقيين لم تُظهر تعليقه للعيان، فيما مضى، إن الأمر لا أهمية له الآن، كما أعتقد، أساسا لمصاحبه بتحول أساسى فى عقيدة الولايات المتحدة التى جعلت القوة الأمريكية "غير آمنة" فى عيون العالم بصورة متزايدة.

بدأ التحول فى نهاية إدارة بوش الأولى، عندما أعدت فى البداية مجموعة الدراسة تحت مسئولية شينى أو برناسة وولفويتز مسودة ورقة (سرعان ما تم تسريبها إلى النيويورك تايمز) طالبت باستراتيجية مانعة لصعود أية قوى متحدة^(٤)، وقد تم إنكارها فى حينها باعتبارها تأملات غير رسمية لعدد قليل من المفكرين الضئيل القيمة، وقد أصبحت هذه الوثيقة منذ حينئذ الاستراتيجية الرسمية للولايات المتحدة، كما أعلنت فى خطبة الرئيس فى ويست بوينت، وفى وثيقة "استراتيجية الأمن القومي" (إن إس إس) فى سبتمبر عام ٢٠٠٢، إن الولايات المتحدة لم تعد تؤمن بنجاح وقف الانتشار، إن العقلية الانتحارية للخصم، مرتبطة بالسهولة المتزايدة لإتاحة أسلحة الدمار الشامل ونقلها، تجعل استراتيجية لا - ضربة - أولى استراتيجية يتعذر الدفاع عنها، ومن ثم، فإن العقيدة الجديدة تقول: "إننا ننتظر بينما تتجمع الأخطار"، أو حتى تتصاعد "سحابة عش الغراب"، إننا بدلا من ذلك نضرب استباقيا ووفائيا أينما ووقتما نحس، بأن هناك أخطارا غير متوقعة نتجمع، إن هذه العقيدة تُقدم الكيفية التى يتم التعامل بها مع التقلبات وعدم الاستقرار الذى يسببه فشل الدول والأمم المارقة، وتحدث ورقة استراتيجية الأمن القومي عن التعاون بين القوى الكبرى حتى يمكن تهدئة مخاوفها؛ حيث إنها قد تكون موجهة إليها أيضا^(٥).

لكن الجزء الثانى من العقيدة ينسف هذه النغمة المطمئنة بالإصرار على أن الولايات المتحدة سوف تحافظ على فجوة القوة تلك، بينها وبين الباقيين كى لا يفكر بلد

حتى فى رفع أى تحد، هذه هى عقيدة الأمن المطلق عبر التفوق العسكرى الساحق، إنها من أوجه عدة عقيدة مناسبة لأمريكا، فأمريكا وحدها هى التى لديها الموارد البشرية، والمؤسسية، والطبيعية والتكنولوجية التى تمكنها من الإنجاز بنجاح، إنها رغم المصاعب، تتلاعب بالإحساس الذى نما منذ زمن طويل للحصانة الأمريكية باعتبارها حقا بكورية، ولثقة الأمريكية المألوفة فى الأسلحة المتفوقة، إنها تعكس أيضا الإحساس الذى لدى الأمريكين بأنهم استثناء ومعزلون، شعب غير عادى، مختار، يمكنه تحقيق الحصانة؛ لأنه يستحق الحصانة، وليس لباقى العالم أن يخاف منه؛ لأن الأمريكين قد منحوا "الحقيقة". وأن الحقيقة، قد جعلتهم أحرارا صالحين، ومن ثم فإن الأناية المانوية^(٩) صريحة للغاية فى بيان الرئيس عن "انتصار الحرية على كل أعدائها الذين شاخوا"^(١٠).

لا ينتابك الشك فى أن هذه العقيدة الجديدة عقيدة إمبراطورية، أعلنتها مجموعة عصرية لـ "روديارد كيبلينج"، أفرختها وول ستريت جورنال، ومطبوعات أخرى للجناح اليمى والذين صنفوا أنفسهم، بصورة غير دقيقة "كمحافظين"، ودعوا "أمريكا" إلى أن "تتبنى عبء الرجل الأبيض"، ويجادل ماكس بوت، وهو محرر سابق فى وول ستريت جورنال، فى قضية الإمبراطورية الأمريكية - بأن هجمات ١١ سبتمبر كانت "نتيجة التأثير والطموح الأمريكى غير الكافيين، والحل أن نكون أكثر توسعا فى أهدافنا وأكثر تأكيدا فى تنفيذنا"^(١١)، يقول بوت: "إن أفغانستان، وأراضى أخرى مضطربة تصرخ اليوم طلبا لنوع من إدارة أجنبية مستنيرة، قدمها ذات مرة الرجال البريطانىون الوثاقون فى نواتهم، المرتدين سراويل ركوب الخيل والخوذات ذات الشأن"^(١٢)، ويكرر سيباستيان مالابى، كاتب العمود، بالواشنطن بوست، تناول هذا الموضوع قائلا: إن "منطق النيو إمبريالى قاهر إلى حد... لا يقاوم"، ويجادل بأن المجتمعات المنظمة التى تقودها الولايات المتحدة "تفرض مؤسساتها على المؤسسات

(*) عقيدة فارسية قوامها الصراع بين الخير والشر (المترجم).

غير المنظمة^(٩)، ويدعو روبرت كابلان مراسل الـ "أتلانتيك مونثلي" إلى حمل "الرفاهية إلى الأجزاء النائية من العالم تحت النفوذ الإمبراطوى الأمريكى الناعم"^(١٠)، إنه يدعو إلى ذلك حتى لا يسبقه أحد.

إن المناقشة مغرية لاعتبارين: الاعتبار الأول هو حقيقة وجود تهديدات جديدة غير متماثلة، يمكن أن تكون الروادع القديمة غير ملائمة للوقوف ضدها، والاعتبار الثانى هو أنه من الواضح بالنسبة لآى امرئ يعيش فى روح نظام غربى حديث، علمانى، مادى، إن النظام الأمريكى القائم على الإدارة والقيمة الاقتصادية هو أفضل من التشوش وعدم النظام، ورغم أن أنصار هذه الرؤية من المتعلمين يمكن أن ينكروا ذلك، فإن هذا هو نفس التفكير الذى توصل به مك كينلى، عندما تقرر ضم الفلبين إلى الإمبراطورية الأمريكية: إذ قال بأن هناك حاجة إلى "النهوض بهم وتنصيرهم"، إن غالبية النيوإمبرياليين سوف يجفلون من أى ترابط مع "التنصير"، وسوف يستبدلونه بـ "الأمركة"، ولا يوجد فرق كبير.

إن منطق العقيدة الجديدة هو منطق توسع لا محدود، إن عدد التهديدات المحتملة، فى حقبة العولة - كبير للغاية، ومحاولة التحكم فى واحد مثل العراق، يمكن فقط أن يعرضنا لأخطار جديدة، إننا نرى هذا بالفعل فى أفغانستان، ولمواجهة التهديد الجديد، ربما يكون من الضرورى كسب سيطرة على أراض جديدة أو كيانات جديدة، وفى النهاية، فإن الأمان الوحيد هو فى جعل كل مكان امتدادا لك أنت.

إن هذا سوف يبدو مهمة مروعة، إن النظرية التقليدية للعلاقات الدولية تقول: إن صعود أية قوة إمبراطورية سوف يُنتج بطريقة أوتوماتيكية تحالفات مضادة وتعاوننا بين القوى الأخرى لتوازن القوى المهيمنة، ونتيجة ذلك، تضاعف القوى المهيمنة جهودها فى تضاد مع التحالف الجديد، حتى يصبح فى النهاية امتداد الإمبراطورية مفرطا وتتهار، غير أن الإمبرياليين الجدد يؤمنون - مرة أخرى - أن أمريكا استثناء - لأنها ديمقراطية، وليس لديها أى شبق لكسب الأرض، وسلطتها الإمبراطورية جذابة، ولها حق الصداقة المكتسب، إنها قوة ناعمة، بل وحتى مغرية، ليس هنالك من نشاط يوازن

القوة الأخرى المقابلة؛ لأن الكل سوف يرحب بالطريق الأمريكي، من الذى لا يود أن يكون أمريكيا، إذا كان ذلك فى وسعه؟ ومن ثم، فإن الرجال والنساء الأمريكيين سوف يرسلون إلى أركان الأرض البعيدة فى حملة صليبية لنشر العقيدة الأمريكية فى عالم جائع وظمآن لها.

إن ذلك لن ينجح، دعنى أعدد الأسباب:

السبب الأول أنه ليس هناك من أشياء كثيرة مثل الأمن العسكرى المطلق، هل قامت قنابلنا الموجهة بالليزر وصواريخنا النووية، وصور الأقمار الصناعية بحمايتنا من حاملى الأسلحة البيضاء والتعصب الانتحارى والمختطفين الذين قاموا بهجمات ١١ سبتمبر؟ هل روعت قدراتنا العسكرية المتطورة الكوريين الشماليين فاذعنوا؟ هل قلل نشر قواعدنا عبر البحار مما نواجهه من مخاطر؟ الجواب: لا، فى كل حالة، بل ربما يكون نشر القواعد مما يزيد المخاطر التى نواجهها.

السبب الثانى أنه حتى لو كنا ظرفاء، كما هو نحن الأمريكيين، فإن باقى العالم لا يرانا بالضرورة كما نرى أنفسنا، وهم ليسوا بالضرورة راغبين أن يكونوا مث لنا، حتى إن أحبونا، وهم بالفعل يتحركون لتوازن مقابل لقوتنا، إن هذه الحركة يمكن رؤيتها بأكثر وضوح فى عملية المناورة داخل مجلس أمن الأمم المتحدة "حول العراق"، كما أنها واضحة أيضا فيما قام به الاتحاد الأوروبى من دفع لتحقيق وضع أكثر مساواة بالولايات المتحدة، وفى الروابط التى أعيد تجديدها بين روسيا والصين، وفى الجهود النشطة للعديد من البلدان والخاصة بتشجيع "لينوكس" على "ميكروسوفت ويندوز" باعتباره نظام الكمبيوتر الأساسى العامل، يوجد هنا عامل بشرى أساسى فى العمل هو أن الأمريكيين يجدون صعوبة كى يفهموا، ولكن علينا إن وضعنا فى اعتبارنا تاريخنا أن نكون أول من يفهم، الأمم تشبه الأفراد بصورة كبيرة للغاية، إنها مدفوعة بالحاجة إلى الكرامة والاحترام، بالحاجة إلى أن تُعرف باعتبارها فعالة، ذات قيمة مثل أى شخص أو بلد آخر، أكثر من الرغبة فى كسب مادى أو خوف أو حب، عندما سُئل أورهام باموك، الروائى التركى، ما الذى يقود رجلاً عجوزاً فى إسطنبول

إلى التغاضي عن الهجمات على "برجى التجارة العالمية"، أو شاب باكستانى إلى الإعجاب بطالبان، أجب: "إنه الشعور بالعجز الناشئ عن الإهانة، عن الفشل فى أن تكون مفهوما، وعدم قدرة مثل هؤلاء الناس على جعل أصواتهم مسموعة"^(١١)، إنهم بقدر ما يحبون ويعجبون كثيرا بالأمريكيين (وكما قلت إنهم يفعلون ذلك)، فإن لباقي العالم تقاليده وطرائقه وقيمه الخاصة، التى يحبون لها أن تحترم.

إن العولة لم تغير هذه الحقيقة، إن الرجل الفرنسى لم يتوقف عن كونه فرنسيا، أو أدار ظهره لـ "ديسكارتس" بأكله همبورجر "مك دونالد"، وامرأة شابة أندونيسية تركت قرية تقليدية لتعمل فى مصنع أحذية "نايكي"، وتعيش فى عنبر نوم - قد تتمسك، بصورة أكثر عنادا، أو تعود إلى غطاء الرأس الإسلامى باعتباره وسيلة للالتزام بقيمها فى عالم غريب، إننا لا نستطيع إنهاء ذلك، علينا ألا نحاول.

السبب الثالث أن حربا صليبية أمريكية لن تنجح؛ لأنها سوف تورطنا بصورة متزايدة فى أنواع من تحالفات تقوم على الملاءمة، وأعمال لا رحمة فيها ولا شفقة، أعمال لن تؤدى إلى شىء غير تعقيد حياتنا فقط، حتى فى المدى الطويل؛ حيث إنها ستفسد شخصيتنا ومؤسساتنا.

السبب الرابع أن العولة الاقتصادية والتبذير الأمريكى قد نسفا بالفعل سيادتنا الاقتصادية، وجعلنا أكثر اعتمادا، أكثر مما نعرف، على هؤلاء الذين نهيمن عليهم، إن تهمة الرغبة فى غزو العراق للتحكم فى نفطه، والتى تبدو مضللة لأذان الكثيرين من الأمريكيين كان لها الكثير من المصادقية فى الخارج، تحديدا لأن الكثيرين فى العالم يعرفون أن الاقتصاد الأمريكى غير حصين وسريع التأثر، ويرون فى التهديدات العسكرية الأمريكية عملا متعمدا للإبقاء على تدفق رأس المال إلى المئوى الأمريكى الأمن، وللتحكم فى أسعار المواد الحيوية، من أجل الإبقاء على أسلوب "بوبا" فى الحياة، إن الاقتصاد الأمريكى الآن يسير على مسار غير ثابت، إن نموه يدفع بصورة شاملة بالاستهلاك القائم على الاقتراض الدائم الصعود، إننا كأمة نستهلك بصورة متزايدة أكثر مما ننتج، ونحن قادرون على فعل ذلك فقط بالاقتراض من

الخارج، إننا باعتبارنا من يوفر أمن العالم، ولدينا أكبر احتياطي لعملته؛ لذا فإن دورنا قوى؛ مما يمكننا من الاستمتاع بمستوى من الحياة يفوق ما نكسبه بالفعل، غير أن اليورو بدأ توفير احتياطي عملة بديلة، وحاجاتنا للافتراض العالمى تتصاعد إلى مستويات تجعل المقرضين فى حالة عصبية، كيف يمكن أن نصبح "قيصر" العالم بينما نهز كويًا من صفيح، ما لم نأخذ فقط ما نحتاج إليه؟ ولكن هذا هو السبب النهائى فى عدم نجاح الحرب الصليبية الأمريكية - إن الأمريكين ليسوا الرومان، ولا حتى البريطانيين، قد تفعل أمريكا أشياء غبية وسيئة من وقت لآخر، غير أن الشعب الأمريكى لا ينظر إلى أكياس الموتى باعتبارها رموزا لشجاعته المتألفة، ولا هو أيضا تواق لإرسال ثانى أبنائه أو بناته إلى الخدمة الكولونيلية، لقد بدأنا حياتنا فى ثورة ضد الإمبراطورية، وإن نصبح حقا مرتاحين البتة، بعادات الإمبراطورية، فنحن فى بساطة لسنا إمبrialين جيدين، لسبب واحد هو أننا نتلف كثيرا على حب الناس لنا.

ما الذى يجب عمله إذن؟ إنه فى الحقيقة أمر بسيط، إنه شىء يجب على جورج دبليو بوش أن يعتنقه فى نبضة قلبه، حقا، لقد كان بوش على حق فى المرة الأولى، عندما قال خلال الحملة: "نحن إن كنا أمة متواضعة، فإنهم سوف يرون ذلك ويحترمونه"^(١٢)، إن ما نحتاج إليه هو العودة إلى مبادئ المحافظين الحقيقية، إن المشروع الإمبراطورى لما يسمونه بالمحافظين الجدد ليس هو محافظا البتة، لكنه الراديكالية والغرور والمغامرة، مترابطة فى بلاغة مثيرة للوطنية التقليدية، إن المحافظين الحقيقيين لم يكونوا البتة مسيحيين أو نظريين غير علميين، إن الجوهر الحقيقى للمبادئ المحافظة، الذى يبشر به بصورة ثابتة المحافظون الجدد، هو الحكومة المحدودة، ومع ذلك فإن المشروع الإمبراطورى الذى يقترحوه سوف يزيد إلى حد كبير دور الحكومة فى كل من الوطن والخارج، لقد رفعنا بالفعل الإنفاق الفيدرالى، بطريقة درامية، بينما زدنا بالفعل قوة ألتنا العسكرية الساحقة، وجعلنا من إدارة "أمن الوطن" أكبر بيروقراطية محلية حصلنا عليها فى أى وقت مضى، ليست هذه بمبادئ

المحافظين، إنها "الحكومة الكبيرة"، لقد كان المحافظون التقليديون حريصين دوماً على موازنة الميزانية، ويصرون على مسئولية كل مواطن في القيام بواجبات مدنية. غير أن الإمبرياليين الجدد يطالبون بتخفيض الضرائب، حتى وهم يرفعون الإنفاق، ليس هنالك من رسوم أو تضحيات، والإيماءة الوحيدة للرئيس بالواجب المدني جاءت عندما استحثت كل فرد في أن يذهب للتسوق لمساعدة الاقتصاد.

ليس هذا بالمحافظة أو الليبرالية، لكنه ببساطة عدم مسئولية، إننى أستخدم كلمات الفيلسوف المحافظ الكبير آدموند بروك، الذى قال عن قوة بريطانيا، فى حقبة مبكرة: "إننى فزع من كوننا فزعين للغاية"، القوة تجذب التهديدات، ويمكن لرد الفعل عليها أن يستحث مشروعات راديكالية، لقد رأى الحاكم وينثروب، "مدينة فوق التل"، باعتبارها جذابة بفضل فضيلتها، وليس قوتها، وقد أمرنا جون كوينسى آدمز، "بألا نذهب إلى الخارج بحثاً عن وحوش نذبحها"، إن كل هؤلاء مرشدون محافظون جيّدون لاستشارتهم حول استراتيجية مستقبل أمريكا.

غالباً ما يقول الناس : إن نقد الولايات المتحدة يجب ألا يؤخذ مأخذ الجد كثيراً؛ لأنه من الطبيعى لمن هو رقم واحد - أن يكون هدفاً للحسد والشكوى، كما كانت روما وبريطانيا فى زمانهما - غير أن هذه النصيحة اللامبالية تثير سبواً جاداً، هل نود نحن أن نكون بالفعل "روما" أو "بريطانيا"، إننا كثيراً ما نقول: إنه يجب على أمريكا أن تكون القائدة وأن أمريكا هى "الأمة التى لا غنى عنها"، غير أن صديقاً مكسيكياً يسأل: "لماذا؟ لماذا تكون أمريكا مسئولة عن كل شيء؟ من الذى عينكم لفعل ذلك؟" بالطبع، هنالك تاريخ طويل وراء هذا، غير أن تعليقه يذكرنا بأن هنالك استراتيجية بديلة لن تطالب أمريكا بالتخلّى عن التزاماتها ومسئولياتها، إن الولايات المتحدة لا تستطيع الانسحاب من الارتباط العميق بالشئون الكونية، ويجب عليها ألا تحاول ذلك، دعونا نتذكر أنه رغم كل أخطائها، فإن الولايات المتحدة، طبقاً لبيانات استفتاء "بيو"، ما تزال تعتبر مهيمناً آمناً نسبياً، غير أنه من المرغوب فيه من جميع وجهات النظر أن

تكون الولايات المتحدة هي نداء الملاذ الأخير، بدلا من أن تكون ملاذ النداء الأول، وفيما يلي بعض الأفكار عما يمكن أن تشتمل عليه مثل تلك الاستراتيجية.

عند هذه النقطة يصبح الاختيار محدوداً، لكن الأمر بالنسبة للولايات المتحدة، وأيا كان الشركاء الذين كان في وسعها حشدتهم للإطاحة بصدام واحتلال العراق، كان هو أن عدم القيام بذلك الآن سيكون أكثر تكلفة، لكن علينا أن نفعل كل ما في قوتنا لتجنب احتلال أمريكي طويل، كان في وسعنا تجنب أن نصبح المحتل، وأن نعاون في لام الجراح الحديثة بإعادة تقييم الأمم المتحدة، وأن نطلب منها تشكيل اتحاد من بلدان مثل ماليزيا، والأردن، وسويسرا، وكندا، وبلدان أخرى لتشرف على خلق عراق جديد، إن الولايات المتحدة سوف تكون مشاركا أكبر، وسوف تدفع جزءا أكبر من الفاتورة، غير أنها لن تكون بمفردها أو هي المسئولة.

كذلك يجب مناقشة مستقبل الأمم المتحدة نفسها، إنها موجودة، رغم معاناتها التصدع، وكما قال وينستون تشرشل عن الديمقراطية: "إنها أسوأ نظام، باستثناء كونها لكل الباقين"، يجب علينا بدلا من نبذها، أن نعيد إحياءها، ونعيد تصميمها. يجب ضم الهند والبرازيل، وربما اليابان والعربية السعودية، كأعضاء دائمين في مجلس الأمن، كما يجب في ذات الوقت أن يحل محل بريطانيا وفرنسا ممثل واحد عن الاتحاد الأوروبي، كذلك يجب في وقت ما وضع شروط لاختيار أعضاء متعاقبين في مجلس الأمن، وإعادة النظر في مدى قوة الفيتو، قد يبدو الأمر الآن طوباويا، لكن وجود أمم متحدة قابلة للحياة سوف تصنع - على المدى الطويل - أمريكا أكثر قوة، لا أقل قوة.

إن أي عمل في العراق، يجب أن يقترن بجهد متجدد لحل المأزق الإسرائيلي - الفلسطيني، يجب أن يشتمل ذلك على تقديم معونة لإسرائيل، مشروطة بالانسحاب من "الضفة الغربية" و"غزة"، وتجميد كل أعمال الاستيطان، وغلق كل المستوطنات باستثناء تلك التي تم الاتفاق عليها بشكل غير نهائي في كامب دافيد وطابا، إن الخطوط العريضة للاتفاق الذي لم يتم في طابا يمكن فرضه مع نشر قوات من الناتو

على الضفة الغربية وغزة لحراستها، هنالك ضرورة عند قيام أى اتفاق على وجود شرط بوضع نهاية لكل أعمال العنف، وهو شرط سوف يعطى ببساطة قوة الفيتو للمتطرفين على الجانبين.

يجب علينا - فيما يتعلق بكوريا الشمالية - أن نجرى تفاوضا حول اتفاق جديد يُضمن فيه أمن البلد من الهجوم الخارجى، وكفالة ما يكفيها من الكهرباء والطعام، وتوقيع معاهدة لإنهاء الحرب الكورية، ومنح الشمال اعترافا دبلوماسيا رسميا، ودعم جهود كوريا الجنوبية لتنمية التجارة والاستثمار مع "الشمال"، وفى التنمية الاقتصادية، إن التنمية الاقتصادية الداخلية تحتمل إلى حد بعيد تغيير نظام كيم أكثر من التهديدات الخارجية، وبالطبع، يجب على كوريا الشمالية فى مقابل هذا أن توقف مشروعاتها الخاصة بالأسلحة النووية، وأن تجعلها عرضة لتفتيش الأمم المتحدة الزاهن ومراجعتها.

إن تعبير "الإشراف الراشد" قد استخدم لوصف علاقة أمريكا بأوروبا واليابان، ويقول مراقبون آخرون مثل كاجان: إن تلك البلدان تعيش فى جنة زائفة تمكنهم من الانغماس فى وضع فارغ، وتدلل أنانى؛ لأنهم تركوا لأمريكا أعباء التعامل مع العالم الحقيقى، هنالك حقيقة فى هذا، كما تُستخدم المناقشة لتشويه سمعة الأوروبيين واليابانيين باعتبارهم جاحدين وكارهين لفعل الأشياء الضرورية للعناية بأنفسهم، إن ما يجرى دون أن يذكره أحد، وكما اقترحت، هو أن الولايات المتحدة تفضل الإبقاء عليهم فى حالة من المراهقة الممتدة كشرط لهيمنتها هى وللأسف، فإننا نشترى هذه الهيمنة بتكلفة متزايدة، إن البلاد المتطورة الأخرى، مثلها مثل المراهقين، تمتعض من إشرافنا، وتغدو متمردة أكثر فأكثر، وفى نفس الوقت، فإن ما نتكلفه نحن حماية لمضايق نفطهم وجيرانهم عالية ومتنامية.

لذا، لماذا لا ندعم ينمون ليصبحوا راشدين حقيقيين، أو كما يقول أوزاوا: "بلدانا عادية؟" لماذا لا نرحب بتلك البلدان، ونرعى تنميتها، بدلا من أن تكون هدفا لقوة دفاع أوربية تابعة؟ يجب أن نخفف من القيود على تدفقات التكنولوجيا العسكرية من وإلى

أوروبا، ونفتح مشتريات البنتاجون لمشاركين حقيقيين أوروبيين ويابانيين، ونشجع الصناعات الدفاعية عبر القوميات، كان على الاتحاد الأوربي بالطبع أن يوافق على تحمل مسئولية كاملة في حراسة جيرانه، في حالات مستقبلية، مثل كوسوفو أو البوسنة، علينا في نفس الوقت أن نضع في الحسبان تجديد الناتو لمعالجة قضايا كونية أكثر، لماذا لا ندع الناتو يحرس طرق النفط والخليج؟ سوف نكون جزءا من العملية، لكننا لن نكون الجزء الوحيد، يمكننا حتى أن نؤجر للأوروبيين قوات ناقلة للمهام، وفوق ذلك، يمكننا أن نرعى سياسة خارجية ودفاعية مشتركة، حقا، للاتحاد الأوربي، بأن نعلن أننا سوف نتعامل فقط مع سلطات الاتحاد الأوربي في الموضوعات الدفاعية والسياسية الأوروبية، إن هذا سوف ينهي طموحات فرنسا وحينئذ إلى الماضي، إلى وضع القوة العظمى، ومن المحتمل أن تكون سلطة واحدة للاتحاد الأوربي أكثر ملاءمة لحماية مصالح الولايات المتحدة، ويكون على الاتحاد الأوربي، في نفس الوقت، الاضطلاع بالمسئوليات، وكذا امتيازات القوة الحقيقية الراغبة بشدة في أن تتحقق.

يتوجب على الولايات المتحدة، في الشرق الأقصى، عندما يصبح الوضع في كوريا الشمالية تحت السيطرة - تخفيض انتشار قواتها إلى قوة رمزية، إن كان الكوريون يريدونهم، أو استبعادها تماما، إن لم يكونوا يريدون ذلك. يجب أن يوضع الجيش الكوري الجنوبي تحت قيادة كورية في كل الأوقات، ويجرى تغيير اتفاقيات وضع القوات (السوفا) لتأكيد أن النظام الشرعى محترم تمام الاحترام، ونفس الأمر صحيح في اليابان، أما بالنسبة للدفاع الصاروخي الوطني، فقد اتضح بالفعل أنه لن يمنع دولا مارقة مثل كوريا الشمالية من إثارة المتاعب، كما أنه يحرض الصين في نفس الوقت على زيادة قدرتها العسكرية، وهو شيء ليس في صالحنا على الإطلاق؛ لذا يجب علينا فقط، وقف النشر وتوفير قدر كبير من المال لنا، وكما حدث مع أوروبا فإنه يجب على الولايات المتحدة أن تصر على أن اليابان قد نضجت وأصبحت بلدا طبيعيا

راشدا، إن هذا يعنى فى المقام الأول إنهاء الحرب الباردة، بمراجعة معاهدة الأمن الأمريكى - اليابانى بحيث تنهى بيئة أرض الأحلام التى خلقتها ضمانات الولايات المتحدة أحادية الجانب للأمن اليابانى، إن تسوية جديدة يجب أن تكون تبادلية فى حدود كل من المسئوليات وسلطة صناعة القرار، يجب تشجيع اليابان على إنهاء "الحرب العالمية الثانية"، وذلك بتشكيل لجنة رسمية تصدر بيانا نهائيا عن وجهة نظر اليابان فى أسباب ومسئوليات ونتائج الحرب، إن هذا البيان يمكن أن يكون الأساس لكل الكتب المرجعية والشارحة المفسرة، ويمكن أن يحل أيضا الخلافات حول زيارات مقام "ياسكونى"، يضاف إلى ذلك ضرورة تشجيع اليابان على أن تفعل بالمثل، وأن تعتذر اعتذارا كليا حيث تتوجب الاعتذارات، ودفع تعويضات سخية حيث تتوجب التعويضات، مثال ذلك "نساء السلوى" (النساء الكوريات وغيرهن ممن أجبروا على العمل كمومسات للقوات اليابانية أثناء الحرب) واللواتى ما يزلن أحياء.

لقد كتب الأمريكيون الدستور اليابانى، وهذا أمر غير طبيعى يقود إلى تشوهات خادعة للحياة السياسية اليابانية داخليا وعالميا، إن على الولايات المتحدة تشجيع اليابان على إعادة التفكير فيه، ويجب، كما حدث فى كوريا، تخفيض مستويات قوات الولايات المتحدة بطريقة جادة، يجب أن نعيد حقا أوكيناوا إلى اليابان، أما فيما يختص بدوريات الباسفيكى الغربى، فإنه فى وسع الولايات المتحدة اقتراح قوة عسكرية إقليمية توجد بها عناصر من البلدان الكبرى فى المنطقة، بما فيهم الصين.

يجب على الولايات المتحدة توضيح معارضتها لآى إعلان استقلال تصدره تايوان، ويجب ألا ندافع عن تايوان إن حدث مثل هذا الإعلان، كما يجب عليها أن توضح أيضا للأرضى الأساسية، للصين أنها سوف تتدخل فى حالة الهجوم على تايوان فجأة بعد إعلان التايوانيين الاستقلال، ولكن على الولايات المتحدة فى ذات الوقت الإحجام عن بيع المزيد من الأسلحة لتايوان، والنشاط العسكرى المشترك، يجب

علينا أن نشجع المزيد من مناقشات تايوان - بكين، بهدف تحقيق طريقة للعيش الداخلي، يجب علينا فى تعاملات أخرى مع الصين أن ننتهز كل فرصة لمنح الصين التقدير والاحترام الذى تتوق إليه، مثلا انضمت روسيا إلى ما كان السبعة الكبار (G-7)، والذين غدوا الآن الثمانية الكبار (G-8)، مجموعة من القوى الاقتصادية القائدة عالميا، التى يعقد قاداتها اجتماعات قمم دورية لوضع استراتيجيات اقتصادية كونية، إن اقتصاد الصين أكبر بكثير من الاقتصاد الروسى، واحتياطات عملتها العالمية تُقزم الاحتياطات الروسية، لماذا لا تُضم الصين؟ حقا، لماذا لا تضم الصين والهند، ونجعلها مجموعة العشرة الكبار (G-10) ؟

يجب على الولايات المتحدة أن تصدق فوراً على معاهدة كيوتو، ومعاهدة الألغام الأرضية، والمحكمة الجنائية الدولية، كما يجب أن تراجع بعناية وضعها فى الاتفاقيات الأخرى، التى نوقشت آنفاً، وأن تبذل جهداً جاداً للتوقيع ما دام ذلك ممكناً، يجب أن ندفع ما علينا من مستحقات لكل الهيئات الدولية التى نحن أعضاء بها مثل الأمم المتحدة، ويجب أن يصاحب ذلك مجهود جاد لتخفيض انبعاثات غاز الصوبات، وتخفيض استخدام الطاقة، ليس هنالك من سبب لماذا لا تستطيع أمريكا تبني العديد من الإجراءات الناجحة فعلاً فى بلدان صناعية أخرى، لقد اقترحت إدارة بوش زيادة أكثر من مليار دولار فى تمويل الأبحاث الخاصة بطاقة الهيدروجين، وهى خطوة على الطريق الصحيح، ولكن إن كان فى مقدورنا تقديم ٣٠ مليار دولار حقوق قاعدة فى تركيا، فإنه يبدو منطقياً أن نفكر فى حدود مقادير مماثلة لضمان أنه ليس علينا الاعتماد على من يمدوننا بالطاقة، والذين يجعلون تلك الحروب ضرورية، إن مشروع مانهاتن لطاقة بديلة تأخر عن مواعده طويلاً.

إننا - حقيقة - ننفق بالفعل على الدفاع أكثر من الخمسة عشر بلداً المتحدين؛ لذا فإنه يحتمل أن وجود هذا التركيز للقوة ذاته يصبح إضافة إلى الضغوط على الآخرين ليزيدوا من إنفاقهم العسكرى، إننا إذ نقوم بنقل الأعباء تدريجياً إلى آخرين، يتوجب علينا إذن وضع خطة للتخفيض التدريجى فى الإنفاق الدفاعى، إن اليابان تحاول منذ

سنوات رفع إنفاقها بناء على توصيتنا إلى هدف هو ١٪ من إجمالي الناتج المحلي، وربما نستطيع وضع هدف يتراوح من ٢٪ إلى ٥, ٢٪ من إجمالي الناتج المحلي، والعمل على النزول به مع مرور الوقت، إن المدخرات يمكن تحويلها إلى معونة، وإلى التحكم فى الأمراض، وإلى دعم جهود دولية أخرى، تتحرك بنا إلى وراء نحو توازنات عام ١٩٤٨.

إن منهج السياسة الأمريكية الخارجية فى حاجة شديدة إلى المراجعة، إنه لأمر بالغ الضرر أن يكون فى وسع واحد أو اثنين من أعضاء الكونجرس الأقوياء الذين يتأسسون لجانا - إملاء سياسات الولايات المتحدة، رغم افتقادها دعما شعبيا ذا شأن، ربما كان الأكثر أهمية هو السؤال الذى يحتاج إلى التوضيح بصورة ملحة، وهو من الذى يقرر متى تذهب أمريكا إلى الحرب، إن الكونجرس يبدو مشاركا بصورة أقل فأقل، غير أنه ليس هناك نية أن يدير أمريكا "قيصر"، إن فعل هذا سوف يخفض إلى حد كبير تعاملاتها وتكاليفها بينما يحسن علاقاتنا بالعديد من المناطق الرئيسية فى العالم، إن ذلك سوف يسمح لنا بالالتفات إلى الأزمتين الباديتين الآن عبر الأفق، واللتين فى حاجة للتعامل معهما الآن، وإن لم يحدث ذلك، فإنهما سوف يجعلان عنف القرن العشرين يبدو وكأنه روضة للأطفال.

المسألة الأولى هى العولة، إذ رغم كل الهياج المرح والمثير حول عجائبها، فإنه من الواضح أن "سترتها الذهبية" غير ناجحة، أو على الأقل ليست كما يجب أن تكون طبقا لما تقوله الكتب المرجعية، إن بلدانا مثل المكسيك تفعل كل الأشياء المفروض صحتها وتتساقط إلى الوراء، إن حكومة محافظة يجب أن تكون ضد أعمال الدعم، نحن فى حاجة لوقف دعم مزارعى القطن الأمريكى، الذى يجعلهم قادرين على دفع مزارعى غرب إفريقيا خارج الأعمال، إن تأثير الصين على البلدان النامية الأخرى يحتاج إلى أن يُحل بعناية، وعلينا استنباط السياسات الملائمة لتأكيد أن بلدانا مثل المكسيك وأندونيسيا ليستا بضحايا للتنمية الصينية، من الواضح أن مجرد فتح أسواق، وانتظار أن تحل التجارة المشاكل غالبا ما لا ينجح، إننا فى حاجة، للالتفات بجدية

البنية الأساسية ورأس المال البشرى وحاجات التكيف فى المناطق النامية الكبيرة، إن لم تنجح التنمية الاقتصادية فإن كل قنابل الليزر والصواريخ الدفاعية لن تحمينا، وخاصة لأن العولة بينما يحتمل ألا تعود أوتوماتيكيا إلى التنمية، فإنها مكنت كل امرئ بالفعل فى أن يرى كيف يعيش الآخرون.

إننا فى حاجة، ونحن نناضل لإنجاح العولة، إلى معالجة موضوعات أكثر أساسية، لقد أدهش الرئيس بوش كل امرئ، عندما أعلن فى رسالته عن "حالة الاتحاد" عن برنامج بـ ١٥ مليار دولار لمحاربة الإيدز فى إفريقيا، إنها خطوة فى الاتجاه الصحيح، لكنها خطوة فقط، إن التدمير الذى سببه الإيدز فى إفريقيا قد نال بعض الانتباه؛ لأن معدلات الإصابة قد بلغت أكثر من ٤٠٪ فى بعض البلدان، وعدد الموتى جنوب الصحراء الإفريقية بلغ أكثر من مليونين سنويا^(١٣)، غير أن أخبارا تنذر بسوء حظيت باهتمام أقل، هل يعرف أى أحد أن كل امرئ تقريبا فى غرب إفريقيا يعانى من نوع من الملاريا^(١٤). أو أن السل قد أصبح وبائيا فى كثير من أنحاء العالم، إنه يصيب عددا أكبر من هؤلاء الذين يعانون من الإيدز.

وماذا عن موضوعات مثل الماء، وإزالة الغابات، والصحة، والتصحر، واستنزاف التربة، وزيادة السكان المفرطة؟ هل يفكر أى أحد من مجلس الأمن القومى فى احتمال قيام حروب حول المياه بين حلفائنا، تركيا وإسرائيل؟ إن "سد كمال أتاتورك" سوف يتحكم قريبا فى تدفق الكثير من مخزون مياه جباله إلى بلدان الجنوب، وطبقا لمدير الموقع، فإن المياه المناسبة إلى سوريا والعراق يمكن أن تُوقف لمدة ثمانية أشهر^(١٥). من الذى يتابع حقيقة ثلث سكان العالم الذين سيواجهون ندرة المياه عام ٢٠٢٥؟ انظر إلى باكستان، إنها بالفعل واحدة من أكثر بلدان الأرض خطورة، إن بها عدة مجموعات عرقية تتأثر بصورة متزايدة بعناصر أشبه بطالبان، وتمتلك قنابل نووية وصواريخ باليستية لتسديدها، إن ثلثى أرضها تقريبا يعتمد على رى كثيف، تزداد صعوبة الحفاظ عليه بسبب الإزالة الحادة للغابات والنمو السريع للسكان، البلد يعتمد بصورة كبيرة على نهر الأنديس، وهكذا الهند أيضا، التى تعانى تماما من ذات

المشاكل على نطاق واسع، ماذا سيفعل هذان البلدان عندما ينفذ الماء، والقنابل النووية مستعدة بالفعل فوق كشمير؟

إن إزالة الغابات قد أنقصت الغابات المطرية الرئيسية في سيراليون من ٦٠٪ من البلد إلى ٤٠٪ منه، بينما أدت إزالة الغابات في الصين إلى زيادة الفيضان، وتآكل تربة القمة وإنهاك الآبار، وكانت نتيجة ذلك التدنى السريع للأراضي الصالحة للزراعة، إن حركة السكان واسعة المدى تشكل في الصين مشكلة كبرى حقا؛ إذ يحاول السكان الهرب من الداخل إلى المناطق الساحلية المزدهرة^(١٦)، هل يفكر أى امرئ في واشنطن في كيفية مساعدة الصين في هذه المشكلة؟ الإجابة واضحة بطريقة درامية في ميزانيتنا التي اعتمدت زيادة أكثر من ٥٠ مليار دولار من أجل البنتاجون، بينما برامج المعونة والتنمية تواصل ذبولها عند ١٦,٨ مليار دولار^(١٧).

أحيانا ما تكون الحقيقة الأصغر أفضل، وتكون تلك الأقل حقيقية أفضل بكثير، ذلك المفهوم، كما أعرف، مفهوم غريب على الأمريكيين. إن استراتيجية تجعل قوتنا قوة أمّنة للآخرين، حتى بانقاص قوتنا النسبية، وبمنح الآخرين شرف معاملتهم كراشدين، والتعاون والتشارك في المسؤوليات، سوف يحقق كسبا من سبل عدة. إن ذلك سوف يهبط بمظهرنا، ويجعلنا واحدا من بين أهداف عدة بدلا من أن نكون الهدف الوحيد. إننى سوف أجبر الآخرين على فهم وجهة نظرنا بتحميلهم مسؤوليات أكثر مثل مسؤولياتنا. إن منح الآخرين مساواة أكبر سوف يخفض الحسد والامتعاض، وسوف يكون ذلك أقل تكلفة بكثير لأنه لن يكون علينا السيطرة على كل شيء والدفع لكل شيء. إن ذلك سوف يعنى المشاركة في بعض القوة، غير أن "إعلان الاستقلال" كان حول الحرية والسعى وراء السيادة، لا السعى وراء القوة، وكان "الدستور" حول التحكم في القوة وتقييدها. إن أمريكا لم تُصمّم كي تكون إمبراطورية.

إن كان علينا أن نتبنى هذه الاستراتيجية غير المسبقة، القائمة على تقليل قوتنا الجيوبوليتيكية، يجب علينا التعامل مع شيء واحد آخر- العقيدة، إننا شعب حسن النية والقصد وقد بوركنا بالثروة، إن لدينا ديمقراطية رائعة، لكنها ليست الديمقراطية

الوحيدة الممكنة، وهى ليست على الدوام أفضل ديمقراطية ممكنة، إن لدينا اقتصادا ناجحا للغاية، لكن الآخرين كذلك أيضا، وليس اقتصادنا هو الأفضل دائما، إن لدينا نظاما قضائيا به الكثير الذى يثير الإعجاب، لكن الآخرين لديهم كذلك، وليس نظامنا هو الأفضل دائما.

لقد كانت رحلة طويلة من القراءة والتجربة التى قادتنى إلى هذه النقطة، لقد كنت أرغب دوما فى أن أؤمن بأن تكون أمريكا هى الأنقى والأفضل فى كل شىء، ولذا فإننى أستطيع أن أتصورك، أنت القارئ، واحتمال صراعك مع بعض من هذا، غير أن الطريق الوحيد كى تكون أمريكا هى ما اعتقده، هو أن تكون صادقة النفس بصورة أساسية، وأن تعرف الحقيقة وتعترف بها. وسوف تكون الحقيقة هى التى تجعلها حرة، وتجعلها ما يجب أن تكون عليه، وفى كلمات أخرى، علينا أن نعيد التفكير فى الاستثنائية الأمريكية، إن جزءاً من صدمة ١١ سبتمبر كان الثثرة حول أسطورة أن الأشياء الرديئة لا تعنى ضرورة أن نكون مؤمنين بالقضاء والقدر، لكننا فى حاجة، فى زمن ما فى العولة، أن نعترف بأن مشاكل الآخرين هى مشاكلنا أيضا، وأننا لا نملك كل الإجابات، خاصة أننى أود تذكير زملائى المسيحيين بكلمات أوليفر كرومويل التى أمر بها فى خطاب له إلى "كنيسة إسكتلندا" - "باسم رحمة المسيح، أرجو منكم أن تؤمنوا بإمكان أن تكونوا على خطأ"^(١٨)، وأود باعتبارى ممن يقدمون النصيحة " للكنيسة المشيخية" أن أؤكد أن المسيح لم يكن من أجل الأمم والقوة، ولم ينشر بشارته بالقسر والإكراه، وعندما سُئل عن الضرائب قال: "أعطوا ما لقيصر لقيصر، وما لله لله"، لقد أنقذ المسيح أرواح الناس واحدا بعد الآخر، إن خلاص الكنائس الأمريكية كان فى فصل الكنيسة عن الدولة، وبالنظر إلى موت كنائس أوروبا فى حضان الدولة المحكم اللفظ، فإننا نحن المسيحيين يجب أن نتجنب أكثر من أن نحتضن، هنا فى أمريكا، علاقات أوثق بين الكنيسة والدولة، إن السياسيين الذين يستخدمون الرب كدعامة لحملتهم يجب أن يتذكروا أن الرب لا يُخدع، إن أمريكا التى أكدت تسامحها أكثر من قوتها، وتقليدها الخاص بتحقيقها المفتوح أكثر من نهجها فى الحياة، التى

طلبت مباركة الرب لكل شعوب الأرض، وليس مباركتها هي فقط، سوف تكون أمريكا التي يريدها العالم بشدة، إنها سوف تصبح أيضا شيئا آخر، إنني لن أنسى أول نظرة خاطفة لى لمدينة "أسيس" الإيطالية موطن سان فرانسيس؛ إذ بينما كنت أجتاز منحني في الطريق قبل غروب الشمس، كانت هي هنالك بيضاء، تومض فوق التل.

خاتمة

تحقق ما كنت أتوقع، بعد أن سلمت الفصل الأخير من هذا الكتاب لناشرى، فى نهاية فبراير عام ٢٠٠٢؛ إذ بعد العرض الذى قدمه كولين باول وزير الخارجية إلى الأمم المتحدة، فى فبراير حول برنامج أسلحة الدمار الشامل العراقية، ضغطت إدارة بوش بشدة، بدعم من بريطانيا العظمى، من أجل الحصول على قرار ثان من مجلس الأمن ليدعم إصدار إنذار إلى الرئيس العراقى صدام حسين، يطلب منه وقف كل برامج النووية والكيميائية والبيولوجية، ويفتح البلد أمام تفتيش الأمم المتحدة، وتعهده بالتدخل المسلح، إن ظل متحديا، وشنت فرنسا، بدعم من ألمانيا وروسيا والصين حملة ضد إصدار إنذار فوري، محبذين إعطاء مزيد من الوقت لمفىشى الأمم المتحدة، للبحث عن أسلحة غير شرعية، وخفض الرئيس الفرنسى جاك شيراك، فى النهاية، طلبه للوقت الإضافى إلى مجرد شهر واحد لا غير، فى مواجهة ضغط الولايات المتحدة الهائل، غير أن واشنطن ظلت متصلبة تضغط من أجل إنذار سريع.

وتابع العالم، مدة أسبوعين، مشهد الولايات المتحدة وفرنسا، وهما فى مزايعة ضد بعضهما البعض من أجل كسب الأصوات، أمثال أنجولا وباكستان، كان الدعم الذى حظى به الموقف ضعيفا إلى حد يثير الدهشة، وقد ظهر ذلك فى صورة درامية فى ٣ مارس، عندما أعلنت تركيا، وهى واحدة من حلفاء أمريكا الأوفياء منذ زمن، إنها لن تسمح للولايات المتحدة باستخدام الأراضي التركية كمنطقة تجمع لقوات غزو العراق، وعبر أصدقاء آخرون قدامى مثل المكسيك وكندا عن دعمهم لوجهة النظر

الفرنسية، ووقع رؤساء وزراء ثمانى دول، بما فيهم رؤساء إيطاليا وإسبانيا وبولندا وبريطانيا العظمى خطابا ردا على معارضة فرنسا وألمانيا؛ دعما لوضع الولايات المتحدة، كتبه لهم ونشره محرر وول ستريت جورنال، ورغم ذلك، عندما حل التصويت، فى النهاية، فى مجلس الأمن، لم تحصل الولايات المتحدة حتى على الأغلبية، دع جانبا مسألة ثلثى الأصوات التى تحتاجها للموافقة على القرار.

وأعلن الرئيس المقدم - جورج دبليو بوش - أنها "لحظة صدق" للأمم المتحدة، ثم أعلن فى قمة الأزور، مع رؤساء بريطانيا وإسبانيا والبرتغال، فى ١٧ مارس أن "المجهودات الدبلوماسية لنزع سلاح صدام حسين سوف تنتهى اليوم، واتهم مجلس الأمن، فى اليوم التالى، بالعجز عن القيام بمسئوليته، وأعلن إنذارا لصدام بثمان وأربعين ساعة؛ كى يترك العراق أو يواجه الحرب فى الوقت الذى نختاره، وأعلن الوزير باول، بعد فترة قصيرة - قائمة بأسماء ثلاثين عضوا، فى ائتلاف، بقيادة الولايات المتحدة، ولكن كان عليه أن يعترف أن واحدة من أكثرهم بروزا، إسبانيا، لن ترسل أية قوات، ثم غدت كل عمليات المناورة، فى مساء ١٩ مارس عام ٢٠٠٣، غير ذات أهمية عملية، عندما دوى الصوت العالى، لصفارات الغارات الجوية فوق بغداد، وسار الرئيس بوش، بعد ذلك بقليل أمام آلات التصوير فى المكتب البيضاوى الساعة ١٦، ١٠ بعد الظهر، وأعلن إلى العالم أن العمليات التى تقودها الولايات المتحدة لنزع سلاح العراق قد بدأت، وحذر من أن الحرب "قد ترهق الأمة"، وأكد أن القتال قد يقتضى وقتا أطول، ويكون أكثر صعوبة مما تكهن به البعض، وقد لاحظت أقلية، وإن كانت تلك الملاحظة ذات أهمية متأخرة - أن الأعمال العدوانية قد ابتدأت، ولكن ليس كجزء من خطة البنتاجون الحربية، ولكن كضربة انتهازية، لحشد من القادة العراقيين جرى الاعتقاد بأن صدام حسين من بينهم، وأشارت التقارير المبكرة إلى أنه قد قتل أو جرح جرحا بليغا، غير أن ذلك تكشف عن كونه أمراً غير حقيقى.

كان هذا - فى الحقيقة - هو أول العديد من الحسابات الخاطئة والمفاجئات، وكان الثانى هو السرعة التى ناولش بها "انتلاف الراغبين"، بقيادة الولايات المتحدة، الجيش العراقى، وانتهى القتال بأكبر سرعة، وأقل صعوبة مما تكهن به أى فرد، على نقيض ما حذر منه الرئيس، بدا الجيش وكأنه يتبخر فى مواجهة قوات الانتلاف، ولم تدخل الأسلحة الكيميائية وأسلحة الدمار الشامل الأخرى، التى كان هناك خوف كبير منها، اللعبة البتة، وفى ١٠ إبريل كانت قوات الولايات المتحدة تتحكم تحكما تاما فى بغداد، وأسقط تمثال صدام من فوق قاعدته وسط هتاف العراقيين المتهللين الذين قبلوا الجنود الأمريكين، وركلوا صورة صدام بأحذيتهم.

بدا، بالنسبة للمحافظين الجدد وغيرهم، وكأن الأحداث تتزعزع كما توقعوا، وأعلن الرئيس فى أول مايو أن الصراع الأكبر قد انتهى، وحذر رئيس الوزراء تونى بليز هؤلاء الذين يشككون فى العثور على أسلحة محظورة، حتى إنهم سوف "يعتذرون عن بعض ما قالوه من كلمات"، غير أن المفاجأة الثالثة والرابعة جاءتا حينئذ. إذ عندما انتهى الأمر، لم تكن الأمور تسير كما كان متوقعا، لقد تبع الهتاف والقبل العراقية لجنود الولايات المتحدة، بسرعة، عمليات نهب وسلب لكل شىء لم يُحكم الإغلاق عليه، من النفائات النووية إلى كنوز الفن القديم، وكان الأسوأ هو الانهيار الكلى، تقريبا، للإدارة المدنية العراقية، لقد زعمت إدارة بوش أنه فى إمكانها هزيمة صدام حسين فى حين أن المدرسين ورجال الإطفاء والشرطة، والأطباء وعمال الصحة العامة، وكل العناصر الأساسية الأخرى للمجتمع المدنى، سوف تواصل العمل على نحو طبيعى بصورة أو أخرى، إلا أنهم لم يفعلوا ذلك، وبالدخول فى أوج صيف العراق شديد الحر، لم تكن هناك مياه، أو كهرباء، ولا جازولين (فى بلد يطفو على النفط) - وليس هناك من مسئول، وقد أضيفت لهذا التشوش واحدة من الحركات الأولى لسلطة الانتلاف الجديد الحاكم، هى حل الجيش، ومن ثم دفع بالآلاف من الشباب العاطل حديثا حاملا أسلحته إلى الشوارع، ثم سقط العائق الآخر، أطلقت قوات عراقية غير منظمة حربا شريرة، حرب إنهاك على قوات الانتلاف تستخدم تكتيكات العصابات، وقنابل

صاروخية، وسيارات مفخخة، تُكذب كلية ادعاءات الرئيس حول نهاية النزاع، وتم قتل وتشويه خمسة وسبعين، في المتوسط، في أسبوع، في حملة لا تزال مستمرة، وقت كتابة هذا الكتاب، وكان الفضل هو الأكثر إزعاجاً، رغم جهود البحث المكثفة للغاية من أجل العثور على أسلحة الدمار الشامل التي أثارت أشد الخوف، والتي ساعد تهديدها، المفترض، على الحرب، باعتباره الأساس المنطقي الرئيسى لذلك، كم عدد المرات التي حذر فيها الرئيس، وشينى نائب الرئيس، ولبير رئيس الوزراء من السماح لأسوأ قادة العالم بامتلاك أسوأ أسلحة العالم؟ غير أنه مع السقوط أصبح واضحاً لكل امرئ تقريباً أن صدام لم يكن لديه فى الحقيقة مثل تلك الأسلحة، ورقدت كل الشكوك حول هذا الموضوع ساكنة، عندما قرر كبير مفتشى أسلحة الولايات المتحدة دافيد كاي فى أواخر يناير أنه لم يعجز فقط عن العثور على أسلحة، بل إن صدام حسين أيضاً لم تكن لديه أسلحة دمار شامل خلال السنوات السبع الماضية، كانت برامجه فى الحقيقة مشوشة، وكان هو نفسه يعيش فى أرض أحلام، مع معونات عالية، تساعد فى الحفاظ على أوهامه، وقد أكد كاي أن استخبارات الولايات المتحدة كانت قاصرة وخاطئة بكل ما فى الكلمة من معنى.

والحقيقة أن لا شيء سار كما توقع المحافظون الجدد، وقد قادتهم أيديولوجيتهم وافتراساتهم الرومانسية، وهى قابعة على قمة استخباراتهم الرديئة - إلى تحاشى التخطيط العادى للبنتاجون، وللإدارة الخارجية، لمرحلة ما بعد الحرب، حقاً لقد غدا واضحاً فيما بعد أنهم تجاهلوا القنوات الطبيعية منذ البداية، وذلك بتشكيل وحدة خاصة، خاضعة لـ بول وولفويتز نائب وزير الدفاع (ومرتبطة بصورة وثيقة بمكتب نائب الرئيس شينى) وهى التى أمدت البيت الأبيض بنسختها الخاصة من الاستخبارات.

لم أكن مثل كثيرين من نقاد السياسات الخارجية للإدارة، معارضا لغزو العراق، لقد أحسست لزمن طويل أن عدم الذهاب إلى بغداد عام ١٩٩٢ كان خطأ تاريخياً، كان من الواضح أن صدام هو أحد وحوش التاريخ الكبرى، وأن إسقاطه لن يكون

شيئاً رديئاً، وبدا لى الغزو فى ظل أوضاع ربيع عام ٢٠٠٢ - فى ظل بناء ضخّم لقوات فى الخليج الفارسى وقرار يصدره مجلس الأمن يطالب بمحاسبة كلية لبرامج الأسلحة العراقية - بدا لى أقل شراً من التراجع والسماح لصدام بتقديم نفسه كمنتصر على الولايات المتحدة والأمم المتحدة.

وفوق هذا كنت أعانى على أية حال قلقاً عميقاً حول الدور الأمريكى فى العالم؛ وكيف يمكن لأوضاع الغزو المقترح للعراق أن يؤثر فيه؛ وبينما بدا لى أن التخلص من صدام أمر مرغوب فيه، غير أن ما بدا أكثر جاذبية هو فعل ذلك فى صحبة حلفاء، وبدعم من الأمم المتحدة؛ لأن ذلك سوف يؤدى إلى المشاركة فى الأعباء والمخاطر، بينما يحافظ على الأرضية الأخلاقية العالية للولايات المتحدة، لو كنت أنا مكان الرئيس لكنت طلبت من مجلس الأمن أن يخبرنى ما هى المدة المطلوبة للتفتيش على الأسلحة، ولكنت وافقت على الوقت الذى تحتاجه المرحلة أيا كان شريطة أن يلتزم المجلس الآن بدعم عمل عسكري، إن لم تتم الاستجابة لمطالبه حتى نهاية المرحلة المحددة، غير أننى لم أكن الرئيس؛ لذا قبلت الغزو باعتباره أقل الشرور، وأملت فى الأفضل، أملت بصورة خاصة، أنه ما أن تتم السيطرة على العراق، حتى تتحول الولايات المتحدة إلى الناتو والأمم المتحدة لحراسة الأرض، وقيادة عملية إعمارها، بالطبع، لم يحدث شئ من ذلك، ويجب أن نسال أنفسنا الآن، هل نحن الآن أفضل أم أسوأ، نتيجة أفعالنا الأحادية، وهل يجب أن نتواصل الأحادية لتكون نجمنا الهادى.

وحتى تتم الإجابة على هذا السؤال، من الهام فهم الأغراض الحقيقية لغزو العراق، إنها حقاً لم تكن حول أسلحة الدمار الشامل كما قال وولفوويتز فيما بعد، إن أسلحة الدمار الشامل استخدمت فقط كذريعة؛ لأنها كانت الموضوع الوحيد الذى يمكن أن توافق عليه البيروقراطيات فى واشنطن، والذى كان حوله كذلك، درجة ما من اتفاق تحالفى، إن الأهداف الحقيقية كانت أعرض بكثير، بل وحتى ثورية، كان الأول ببساطة استعراض القوة الأمريكية والرغبة فى استخدامها، لقد ادعى المحافظون الجدد أن الأشياء الرديئة تحدث فى العالم؛ لأنه يُنظر إلى أمريكا باعتبارها نمراً من ورق، غير

راغبة، وغير قادرة على رد الهجمات على سفاراتها وطانراتها المدنية، وأهداف أخرى مكشوفة، وإظهارا لأن هذا غير حقيقى، وأن أمريكا يجب أن تُحترم، كان هنالك إيمان بأنه عليها هى أن تبعث بالرعشة، بنفسها، إلى النشاط العدوانى، إن مثل هذا الإظهار يحتاج إلى هدف، وكان صدام هو الهدف المثالى، هنا قائد يكرهه الجميع، كما أنه قام، على الأقل، بانتهاكات فنية للعدد من قرارات الأمم المتحدة، ورغم حديثه وفعله اللفظ، فإنه كان بالفعل أضعف بكثير مما كان عليه خلال حرب الخليج عام ١٩٩١ - ١٩٩٢، لقد وقع مدة عشر سنوات تحت العقوبات الاقتصادية للأمم المتحدة، وتعرض لتحديد مناطق مُنع الطيران فيها فى بلده، وللمراقبة الأمريكية البريطانية الجوية المتواصلة، كان من الناحية العسكرية فتاتا سهلا.

وكان لهزيمته ميزات ثانوية بالمثل، نتيجة تدمير أى أسلحة دمار شامل يمكن أن تكون لديه، ومنعه من تحويلها إلى آخرين، وكانت القواعد العسكرية الأمريكية، فى العربية السعودية، بصورة متزايدة - مصدرا للمشاعر المعادية لأمريكا عند هذا الحليف الأساسى المنتج للنفط، ويمكن للقوات العسكرية الأمريكية بغزو العراق وتنصيب حكومة صديقة - أن تنسحب من العربية السعودية، وتحظى بقواعد جديدة وأكثر أمنا فى العراق، البلد الذى يحتوى على ثانى أكبر احتياطيّات النفط فى العالم، كما كان معتقدا أن هزيمة صدام سوف تخفض دعم الإرهاب الفلسطينى ضد إسرائيل، ومن ثم يؤدى ذلك إلى تسوية سلمية إسرائيلية - فلسطينية، بينما يزيل ذلك أيضا أى تهديد باستخدام أسلحة الدمار الشامل ضد إسرائيل، وفى النهاية كان من المعتقد أن إقامة نظام علمانى ديمقراطى فى العراق سوف يحفز الإصلاح والحركة نحو الديمقراطية عبر العالم العربى، ومن ثم تخفيض التهديد الذى يفرضه المتطرفون العرب، والأفضل من كل شىء، أن التكلفة سوف تكون منخفضة لأن العراقيين سوف يرحبون بنا لإزاحتنا الديكتاتور المكروه، كما يمكن تغطية مثل تلك التكاليف التى سوف تظهر، بواسطة العراقيين أنفسهم عبر بيع نفطهم، وفى أعقاب كل تلك النتائج المفيدة، فإن

الأمم المتحدة، وباقي العالم، سوف يجيء فى النهاية، ليحتضن سياسة الولايات المتحدة، ما الذى يمكن أن يكون أسهل، من ذلك وأفضل؟

هنالك القليل الذى يمكن قوله عن الجانب الإيجابى لدفتر الحسابات الجارية، قليلون هم الذين ناحوا على موت صدام، أبناؤه الساديون، والآخرين الذين ملؤوا المقابر الجماعية، إن نقل قوات الولايات المتحدة من العربية السعودية إلى قواعد أخرى فى المنطقة قد حدث، وهو دون شك عمل إيجابى كبير للسعوديين، ولنا بالمثل. هل فعل استعراض القوة الأمريكية أى شىء، بالنسبة للاتفاق الأخير لإيران مع الاتحاد الأوروبى للسماح بالتفتيش على مواقعها النووية، ذلك أمر يصعب قوله، غير أنه لا شك لم يوقف الاتفاق، ويمكن قول نفس الأمر بالنسبة لاتفاقية ليبيا لوقف برامج تطوير أسلحتها النووية يضاف إلى ذلك أن الخوف الشديد من تفجر "الشارع العربى" لم يحدث، وبدا أن العربية السعودية، وسوريا، وآخرين قد غدوا أكثر تعاوناً فى محاربة القاعدة، بدا أن السعودية تحاول القيام ببعض الإصلاحات الليبرالية المحلية بالفعل، وبدأت باكستان، تحت قيادة الرئيس مشرف فى الرجوع القهقرى ببطء عن دورها كمورد عام للتكنولوجيا الذرية والصواريخ إلى البلدان النامية، وتتجه إلى الدفء نحو الهند شريكها فى المقارعة منذ زمن طويل، بينما تحاول السيطرة على المتطرفين الإسلاميين داخل حكومتها، وبالرغم من تخطيط الولايات المتحدة الأقرب لأن يكون كارثياً، للوضع فيما بعد الحرب، فإن العراق يعاد إعمار بهبط، وتتعاون عناصر الشيعة والأكراد، التى تشكل الأغلبية الساحقة للعراق، مع قوات الولايات المتحدة، إلى أقصى حد، بغرض خلق نظام عراقى جديد، وقد أعفى الروس والفرنسيون، منذ فترة قريبة - العراق من دينه القديم، بناء على توصية الولايات المتحدة، ويناضل الألمان والمكسيكيون والكنديون كى يعودوا إلى أفضال أمريكا الجيدة، رغم أو ربما بسبب أنها وضعت فى ثلاجة الولايات المتحدة.

واحسرتاه، إن لدفتر الحسابات الجارية أيضاً جانب المدين أيضاً، إن الولايات المتحدة بارتباطها بالحرب الاستباقية، وتبنيها عقيدة رسمية أحادية، أمنية وقائية،

استباقية، قد تخلت عن المستوى الأخلاقي العالى، وكذبت أسطورتها هى عن الاستباقية، وعملت من نفسها مجرد آخر، فى صف طويل من القوى المهيمنة تمتد إلى الورا، إلى المصريين القدماء، والرومان، كما أنها خانت ثقة شعبيها، وهو عمل مزعج لأى بلد يدعو نفسه بلدا ديمقراطيا، هل يمكن لأحد أن يصدق أن الكونجرس والشعب الأمريكى كانا سيدعمان الغزو لو كان الرئيس قد أخبرهم أنه ليس هناك من تهديد مباشر لأسلحة الدمار الشامل، لكن صدام شخص ردىء، وعلينا أن نودع ٥٠٠٠ قتيل وجريح من الفتيان الأمريكان حتى يمكننا استعراض القوة الأمريكية، ونحفز الديمقراطية فى الشرق الأوسط؛ إن غياب أسلحة الدمار الشامل، والاكتشاف التالى بأن معلومات الاستخبارات، إن لم يكن قد جرى التلاعب فيها، فإنها بلا شك، قد استخدمت بطريقة انتقائية - وبطريقة غير دقيقة فى بعض الحالات، حتى تقتضى الحالة الحرب المباشرة، قد خلق أيضا فقدان ثقة فى الخارج، وكان هبة لمنظرى المؤامرة من جميع الأنواع، لا أحد فى الشرق الأوسط أو جنوب آسيا، وقليلين فى أجزاء مختلفة من العالم مقتنع بأن وكالة المخابرات المركزية لم تكن عارفة بأنه لا توجد هناك أسلحة دمار شامل، إن كل امرئ يفترض أن الأمريكين وتكنولوجيتهم المثيرة للدهشة التى يعلنون عنها يمكن أن تسمع وأن ترى كل شئ تقريبا، يقينا، أنهم يعرفون وضع أسلحة الدمار الشامل، كما هو مفترض، ولذا فإن لم تكن هناك أسلحة دمار شامل، فإن النتيجة التى تصل إليها الغالبية الواسعة من الناس حول العالم أن الحرب كانت فى الحقيقة من أجل السيطرة على نفط العراق، وقد انتهت مجموعة أكثر حنكة أن الحرب كانت من أجل تأسيس واضح جلى لهيمنة أمريكية، وضربة استباقية لتحديات محتملة من أية قوى أو مجموعة قوى أخرى، ويختلف الوضع فى الأجزاء المختلفة من العالم، إلا أن العزلة التى أحسستها بقوة كبيرة، عن أمريكا بينما كنت أسافر عام ٢٠٠٠/٢٠٠١ التى قادتني إلى كتابة هذا الكتاب قد ازدادت سوءا، إن هذا تطور يثير قلق أى امرئ ما زال مقتنعا بأن أمريكا تحتاج إلى أصدقاء.

إن الولايات المتحدة تجد نفسها، فى تعبيرات أكثر مباشرة، ملتزمة بجهد للتهدئة وإعادة الإعمار أكثر مما كان متخيلا، فى العراق، إن حرب العصابات والإرهابيين غير المتوقعة تفرض ضريبة راسخة على جنود الولايات المتحدة والمسؤولين العراقيين الأساسيين بالمثل، وحتى الآن، فإن الضحايا يبلغون أكثر من ١٠,٠٠٠ - وما زال الرقم يتصاعد، إن جيش الولايات المتحدة، وغالبية كتائبه مشتبكة على امتداد مشنود على نحو يفوق شدة الطبل، الدورات تطول والاحتياطي تزداد دعوته، وقدرة الولايات المتحدة على الانشغال بأى نزاع آخر يمكن أن ينشأ، محل تساؤل كبير للغاية، وتكاليف كل من مواصلة النشاط العسكرى وإعادة الإعمار تتصاعد بسرعة، لقد صبت الولايات المتحدة بالفعل أكثر من ١٥٠ مليار دولار فى الجهد العراقى، وذلك يمكن أن يكون العربون فقط، إن إنتاج النفط العراقى، الذى لن يزداد لفترة من الوقت، لا يُحتمل أن يغطى جزءا كبيرا من الفاتورة، أما عن مساهمات شركاء الائتلاف وبلدان أخرى، فقد كانت نقطة فى دلو، إن الائتلاف باستثناء بريطانيا هو أقرب إلى حلية منه إلى واقع، مثال ذلك أن حكومتى إسبانيا واليابان قد حصلتا على إطراء سخى من إدارة بوش لدعمهما ومع ذلك فإن الإسبانية لم ترسل قواتا، وأرسلت اليابانية أخيرا ٦٠٠ جندي غير مقاتل إلى الميدان بعد عشرة أشهر من إعلان بوش انتهاء القتال الأكبر، إنها الولايات المتحدة، وليست حكومات التحالف التى تدفع لغالبية قوات التحالف فى الميدان.

إن سقوط صدام - دون شك - شىء جيد، لكن الحرب فى العراق صرفت الأنظار عن أفغانستان واصطيد أسامة بن لادن، إن الشىء الوحيد الذى يدفع الاقتصاد الأفغانى حاليا هو بيع زراعة الخشخاش الذى سوف يُرسل فى النهاية بأطنان الأفيون كعنصر أساسى إلى مصانع الهيرويين فى أوروبا الغربية والولايات المتحدة، تحت إشراف أمراء الحرب، الذين تتحالف معهم قوات الولايات المتحدة من أجل الإطاحة بطالبان، وقد أصبح أمراء الحرب هؤلاء بالكاد أكثر احتراما للمرأة وحقوق الإنسان من طالبان، والآن يبدو فى بعض الحالات متحالفين بالفعل مع

طالبان التي تستعيد نشاطها، لحصر إرادة حكومة الأفغان الاسمية، بصورة أو أخرى، في حدود كابول، وكان أسامة والقاعدة، في تلك الأثناء، يعيدون التجمع عبر حدود باكستان تماما، التي هي حليف هام للولايات المتحدة، كما أنها على نحو قابل للجدل أكثر البلاد خطرا في العالم، وبرغم أن الرئيس مشرف قد وضع بلده بصراحة في معسكر الولايات المتحدة، في الوقت الحاضر، فإن سيطرته ضعيفة، إن منطقة الحدود الغربية؛ حيث يختبئ أسامة، والمتاحة لكل الأغراض العملية، غير خاضعة لتحكم الحكومة المركزية، وفوق ذلك، فإن انتخابات حرة سوف تجيء دون شك، بقوى الإسلاميين المتطرفين المتحالفين مع أسامة، كما أن الأمن الداخلي، والأعمال الاستخبارية مخترقة بكثافة من المتعاطفين مع أسامة، وقد أفلت في ديسمبر ٢٠٠٢ مشرفة بصعوبة من محاولتين لاغتياله؛ لذا فإن الأخبار الطيبة هي أن باكستان مشرف حليف يحاول أقصى جهده كي يجعل المتطرفين تحت السيطرة، والأخبار السيئة هي أن أسامة يمكن أن يكسب بحق السيطرة على باكستان بأسلحتها النووية العاملة وصواريخها الباليستية طويلة المدى، ونبدو نحن في هذا الوقت غير قادرين، أو غير راغبين على الأقل، في أن نقوم بنوع من الدفع على أسامة مثل ذلك الذي فعلناه مع صدام.

وحتى نجعل الصورة أكثر إثارة للمتعة فقط، فإن العربية السعودية مرشح آخر لأسامة لأخذ السلطة فيها، إن سبب إخراج القوات الأمريكية كان لأن وجودهم على أرض أكثر بلاد المسلمين قداسة كان يولد دعما متزايدا للقاعدة ولبرنامجها للإطاحة بالعائلة الملكية، إن العربية السعودية هي اليوم بلد يختمر بقيادة الأسرة الملكية المسنين والمنقسمين، والطائفة الوهابية الإسلامية القوية يزداد وجودها في معسكر أسامة، لا شيء هنا غير ممكن، وتبدو القاعدة، في تلك الأثناء وهي لا تزال قادرة على القيام بأنفعال إرهابية كبرى في أي مكان من العالم.

إن غياب أسلحة الدمار الشامل قد أجبر إدارة بوش على إيجاد أسس منطقية جديدة تبرر بها التزامها الثقيل قِبل العراق، قيل في البداية: إن التخلص من صدام كان

سببا كافيا، غير أن الرئيس تحول في النهاية إلى مقرطة الشرق الأوسط، بادئا بالعراق ومنتشرا من هناك إلى باقى العالم الإسلامى، وقد قال الرئيس وهو يعلو أساسه المنطقى الجديد، فى بلاغة مثيرة: إن قبول ستين عاما من الفاشية فى الشرق الأوسط لم يجعلنا أكثر أمنا، والآن فإن السؤال ليس فقط إذا ما كان فى الوسع إنجاز المقرطة، وإذا ما تحققت، هل يجعلنا ذلك أكثر أمنا، بالنسبة للأول، فإن الشيعة يشكلون أغلبية العراقيين، وحتى الآن، فإنهم متعاونون مع سلطات الولايات المتحدة، غير أنهم مصررون على انتخابات مباشرة للهيئات العراقية المكلفة بخلق نظام جديد، إنهم، دون شك، سوف يصرون على انتخابات مباشرة لحكومة أساسية، وذلك بوضوح لأنهم سوف يكسبون، لكن هذا بالضبط ما لن تقبل به سلطات الولايات المتحدة؛ لأن حكومة يسيطر عليها الشيعة يحتمل إلى حد كبير أن تكون حكومة خاضعة لهيمنة رجال الدين، وقد أظهر الاكراذ بالفعل رغبتهم فى الحكم الذاتى، إلى حد أنهم سوف يشكلون حكومة أمر واقع، وبينما يمكنهم تخفيف مطالبهم قليلا، تحت ضغط الولايات المتحدة، فإنه من الصعب تصورهم يتخلون ببساطة عن الاستقلال الفعال الذى تمتعوا به عبر عشر سنوات، فى ظل حماية الولايات المتحدة، منطقة محظور فيها الطيران، وعقوبات ضد صدام، ولذا فإن الانتقال من هنا إلى هناك يبدو صعبا.

ويفرض السؤال الثانى صعوبات أكبر، إن الانتخابات الحرة، كما لاحظنا آنفا، تكاد - دون شك - تعيد إلى السلطة حكومة معادية لأمريكا، معدة بأسلحة دمار شامل حقيقية، وبينما لا تمتلك العربية السعودية أسلحة دمار شامل، فإن الانتخابات هناك يحتمل أيضا أن تنتج نظاما خبيثا معاديا لأمريكا، ومعاديا لإسرائيل، ويمكن أن تكون مصر فى ذات المرتبة، يضاف إلى ذلك أن الولايات المتحدة حققت، دعما للحرب ضد الإرهاب، تحالفات وأقامت قواعد فى سلسلة من بلدان آسيا الوسطى، مثل أوزبكستان، التى يوجد حولها بعض الحكومات الأكثر استبدادا، ولذا فإنه عندما تقول كوندوليزا رايس مستشارة الأمن القومى: إنه من الكياسة التفكير فى أنه ليس فى وسع البلدان الإسلامية تحقيق الديمقراطية، فإنها دون شك على صواب، لكن على المرء

أن يتسائل إذا ما كانت حقاً تريد أن تكون كذلك، لقد أعلنت إدارة بوش هدفا كبيرا للسياسة الخارجية يحتمل ألا تكون رغبة في تحقيقه، إن كل امرئ يعرف هذا ما عدا الرأي العام الأمريكى الذى أبقى عليه فى جهالة بالامر، بواسطة بلاغة عالية التلاشى، تترك العالم يتهمك من دوافع الولايات المتحدة.

إن هذا التهكم تفاقم، فقط بسبب مدخل الولايات المتحدة إلى كوريا الشمالية، هنا بلد لديه بالفعل، وبوضوح أسلحة نووية وصواريخ باليستية طويلة المدى، ومع ذلك فإن الولايات المتحدة لم تدع ضده إلى حرب وقائية - إن السبب بالطبع، هو أن أى حرب مثل تلك سوف تدمر كوريا الجنوبية، التى تقع عاصمتها، سكانها العشرين مليوناً، فى متناول مدفعية الشمال، وفى نفس الوقت، فإن الإدارة برفضها "استراتيجية ضوء الشمس"، استراتيجية كوريا الجنوبية، واتخاذ خط متشدد برفض المحادثات مع الشمال، بينما تطالب بتغيير النظام، تكون قد وضعت نفسها فى صندوق متعب للغاية، وهى تأمل أن يستخلصها الصينيون، وربما الروس منه، وبينما تتحرك كوريا الشمالية إلى الأمام، وهى تسلح مخزونها الاحتياطى من البلوتونيوم، فإن واشنطن تعتمد على الصين لتعقد اجتماعات مع كوريا الشمالية، تضم الصين وروسيا والولايات المتحدة واليابان؛ حيث يكون فى وسع المسئولين الرسميين من الولايات المتحدة الحديث فيها إلى المسئولين الرسميين لكوريا الشمالية، دون الإقرار بأنهم يقومون بتغيير مفاجئ، فى المواقف المبكرة الرافضة للحديث مع الشمال، حتى يفك برنامج النوى، إن كون إدارة بوش مجبرة، فى هذه اللحظة، على تبني التعددية، يزيد فقط من المرارة التى يحسها هؤلاء الذين جرحتهم بالفعل أحادية الولايات المتحدة.

إننا فى حاجة فى هذا السياق للنظر إلى بعض التحولات الأساسية فى بنية النظام الكونى، إن الأكثر عمقا هى علاقة الولايات المتحدة بأوروبا، وربما كان أبرز ما رمزت له هى زيارة رئيس الدولة إلى لندن فى نوفمبر عام ٢٠٠٢، إن هذه الرحلة التى كانت للالتقاء بأوثق حلفائنا فى أعقاب النصر فى العراق، كان يجب أن تكون تلك فرصة للاحتفال الدافئ، غير أنها بدلا من ذلك كانت محنة، قاد الخوف من المظاهرات

المعادية لأمريكا إلى إلغاء ركوب الحصان المعتاد والعربة مع الملكة إلى قصر بكنجهام عبر شوارع لندن، كما لم يتوجه الرئيس، الذي يبغي مقرطة الشرق الأوسط، بالحديث إلى "أم البرلمان" خشية المضايقة بكثرة الأسئلة والتحديات، ولم تكن هناك مؤتمرات صحفية.

إن هذا الاستقبال البارد، من أوثق حلفائنا، يعكس أثر الاستراتيجية الأمريكية الجديدة نحو أوروبا، إن العلاقة الأمريكية الأوروبية كانت أساس النظام الكوني منذ نهاية الحرب العالمية الثانية، إن مبادئ السوق الحر الديمقراطية التي تتشاركها أمريكا وأوروبا هي التي حددت وعززت العالم الحر، وخلقت المؤسسات الدولية الكبرى، والأكثر أهمية: إن التحالف الأمريكي الأوربي هو الذي كسب الحرب الباردة، وعززت الولايات المتحدة، طوال تلك المرحلة وشجعت تطوير أوروبا أكثر وحدة، لقد وضع الرئيس كينيدي الأسلوب في "قاعة الاستقلال" (إندياندانس هول)، في ٤ يوليو ١٩٦٢، عندما قال: "إننا لا ننظر إلى أوروبا القوية المتحدة كمنافس، ولكن كشريك"، وإثبات ذلك، دعا إلى قوة عسكرية أوروبية مستقلة وموحدة، كما دعا إلى "إعلان استقلال" بين أوروبا المتحدة والولايات المتحدة، واليوم، فإن ازدياد المحافظين الجدد لأوروبا، والدفع إلى غزو العراق بأى ثمن، قد قلب الوضع، إن واشنطن الآن تنظر إلى أوروبا المتحدة، وخاصة تلك التي لها قوة عسكرية مستقلة عن الناتو، باعتبارها منافسا محتملا، وهي قد ثبتت سياسة التقسيم والإبقاء تحت الهيمنة.

بالطبع، لن تتحارب الولايات المتحدة وأوروبا، لكن أمريكا لن تكون قادرة على الاعتماد على الإحساس القديم بالقيم والأهداف المشتركة، إن أفضل دليل على هذا هو تحرك البريطانى تونى بليز فى آخر نوفمبر ٢٠٠٢ للالتحاق بفرنسا وألمانيا فى خلق وحدة التخطيط العسكرى الأوربية المستقلة، إن ما يثير السخرية من العدوانية الأمريكية الجديدة نحو أوروبا - هو أنها قد تعجل بظهور المنافس الأوربي المتحد الذي تخافه إدارة بوش.

إن صدق القول المأثور أنه "كلما زاد تغيرها، زاد بقاؤها كما هي"، ليس متوافرا في أية حالة، كما هو متوافر في حالة النزاع الإسرائيلي الفلسطيني، إن أحد الأسباب التي طرحت دعما لهزيمة صدام، كما قيل: إن الطريق إلى أورشليم يقع عبر بغداد، ومن الواضح الآن أنه ليس كذلك، وقد قامت الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبي وروسيا والأمم المتحدة، بإعلان صاحب للغاية، عن "خارطة الطريق"، من أجل السلام، وقد أصرت الولايات المتحدة على عدم تعاملها مع الفلسطينيين طالما كان عرفات مسئولا، فعين الفلسطينيون رئيس وزراء - أبو مازن - ليقود الوزارة مع عرفات باعتباره رئيسا شرفيا، والتقى بوش برئيس الوزراء الجديد، وكذا بالمثل مع ملك الأردن عبد الله، ورئيس وزراء إسرائيل شارون، وألزم الولايات المتحدة بالدعم الكامل لدولة فلسطينية وبخارطة الطريق، باعتبارها السبيل الذي سيوصل إلى هناك، وبذهاب صدام، وبالتزام بوش، كما بدا فعليا، لاح شعاع من أمل للحظة، غير أن الديناميكيات القديمة عادت لتؤكد ذاتها، رفض شارون عمل أي شيء حتى يوقف الفلسطينيون كل أعمال العنف، وقد رفض بصورة خاصة وقف برنامج قوات الأمن الإسرائيلية الذي يستهدف قتل القادة الذين يشتبه فيهم كإرهابيين، وقد حاول الفلسطينيون إقناع مجموعاتهم المختلفة بوقف إطلاق النار، غير أنهم نجحوا جزئيا؛ لأن المستوطنات الإسرائيلية واصلت تمدها بعناد، وقد رفضت أقسام هامة من الفلسطينيين التخلي عن العنف، حتى بدأ الإسرائيليون التراجع من المستعمرات، وقد أحجم بوش عن ممارسة أي ضغط على شارون، وسرعان ما أثبتت خريطة الطريق أنها نهاية ميتة، وقد واصلت إسرائيل في تلك الأثناء بناء جدار أمني سوف يطوق في النهاية أقل بقليل من نصف الضفة الغربية الحالية، ويلحقها بشكل مؤثر بالأراضي الإسرائيلية، إنه بدون تدخل قوى من الولايات المتحدة أو الناتو، فإن الوضع يواصل تدهوره، وبينما يظل الأمر هو ذات اللعبة القديمة، من أوجه عديدة، فإن هناك طريقا واحدا حاسما تختلف فيه الأمور، لقد أصرت إدارة بوش على أن الطريق إلى أورشليم يقع عبر بغداد، والتزمت بجهد كبير مع خارطة الطريق، في أعقاب غزو العراق، إن الذهاب إلى أورشليم قد أثبت أنه صعب كما كان من قبل، وأن بوش قد غسل بوضوح يديه من

الأمر، دون حله؛ مما يعنى أن مواصلته هى رشح للسم فى أكثر علاقات الولايات المتحدة الخارجية أهمية، إن القول بأن هذا الموضوع منفرد سيصبح سلاح الدمار الشامل لسياسة الولايات المتحدة الخارجية، ليس بالأمر الكثير للغاية.

وفى الشرق الأقصى، وصف قائد حكومة سنغافورة، رفيع المقام، الصين باعتبارها "شمساً جديدة فى الكون"؛ مما يطرح مؤشرات عن حلولها محل الولايات المتحدة، كالقوة الرئيسية فى المنطقة، وأصبح ذلك واضحاً بصورة كبيرة فى أكتوبر عام ٢٠٠٣ عندما قام الرئيس بوش بزيارة أستراليا، ثم تبعه بفترة قصيرة الرئيس الصينى "هو جينتاو"، وما كان يمكن للتناقض بين الزيارتين أن يكون أشد وضوحاً مما كان، كان بوش متعجلاً مركزاً فقط على مناقشة الحرب على الإرهاب مع القادة الأستراليين، ورغم أن أستراليا هى الحليف الثانى وثيق الصلة بأمرىكا، بعد بريطانيا العظمى، فإنه أحس بالضيق من كثرة الأسئلة والتحديات عندما خاطب البرلمان، لم يضع فى برنامجه أى ظهور عام، واتجه للإجابة على ما طرحته الصحافة عليه من أسئلة، لكن "هو جينتاو" من الناحية الأخرى تجول فى البلد، ووقع اتفاقيات تجارية كبرى، ومما أثار الدهشة، بالنسبة لما يمكن أن يصدر عن قائد صينى، عقده بالفعل مؤتمراً صحفياً غير مكتوب، وبدا للمراقبين الذين يتابعون المشهد، منذ زمن طويل، وكأن أمريكا والصين تبادلتا المواقع، وقد لاحظ معلق أسترالى أن "بوش جاء، إلا أن جينتاو هو من تغلب"، إن أهمية كل هذا قد ظهرت لى خلال زيارة قريبة لى لأستراليا، عندما علق العديد من القادة الحكوميين ورجال الأعمال - بصورة مستقلة، أنهم يأملون الاتساع أستراليا أن تختار بين أمريكا والصين، إن أحداً فى باقى منطقة آسيا - الباسفيك لن يضع الأمر على هذا النحو اللفظ، لكن الإحساس متماثل عبر المنطقة. وكما قال لى قائد أندونيسى: "إن كل القادة الأمريكين يرغبون فى الكلام عن المساعدة فى الحرب ضد الإرهاب، إنهم يظلون يكررون ضربنا لنوقف غسيل الأموال، ألا يعرفون أننا نعجز حتى عن جمع ضرائبنا نحن؟ إن الصينيين لا يرهقوننا بحقوق الإنسان والإرهاب، إنهم يتحدثون عن الأعمال والتجارة الحرة".

حقاً، إنهم يفعلون ذلك، لقد شكلت الصادرات إلى الصين، خلال السنوات الماضية - الكتلة الكبرى الزيادة في صادرات كل البلدان الأخرى في المنطقة، بل وحتى الكثير، من خارج المنطقة، مثل البرازيل وشيلي، إن كوريا واليابان وتايوان وماليزيا وكل الآخرين مدينون بنموهم الحديث للصين في غالب الأحوال، إن الصينيين يستخدمون الدبلوماسية ببراعة ليهذبوا من مخاوف المنافسة مع الصين، ولتكون الميسر والصديق لكل جيرانها، الذين أدمنوا الاعتماد على الصين، بصورة متزايدة، ولا يوجد مثل هذا الإدمان في أى مكان مثلما هو في الولايات المتحدة؛ حيث أصبحت الصين جنباً إلى جنب مع اليابان، الممول الأساسى لعجز الولايات المتحدة التجارى، ومن ثم عاملاً أساسياً في تمكين الأمريكيين من الاستهلاك بأكثر مما ينتجون، وفي مثل تلك الحالات، فإنه من الصعب تصور رئيس أمريكى يضغط على الصين فيما يتعلق بحقوق الإنسان أو أى شىء آخر.

كان يجب في نصف الكرة الغربى في ١ يناير ٢٠٠٤ - أن يكون الاحتفال بالذكرى العاشرة لانطلاق "اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة (النافتا)، مناسبة لتبادل التهنتنة، لكنها بدلا من ذلك أُلقت فقط الضوء على التناقض بين الإرادة الطيبة والآمال الكبيرة خلال عشر سنوات مضت، والتوترات والمخاوف من الحاضر، هناك سبب واحد لعدم تحقق الآمال الكبار التى استثمرت فيها، رغم أن إيجابياتها أكثر من سلبياتها، وهذا السبب هو أن الولايات المتحدة لا تنفذ فى الأساس العديد من الالتزامات التى تعد بها، فيما يتعلق بفتح أسواقها، كما لم تكن راغبة فى معالجة موضوعات مثل البنية التحتية، والتدريب، والهجرة والخدمات الاجتماعية، حقاً، لقد كان رد فعل افتقاد الدعم المكسيكى والكندى لغزو العراق - معاقبة إدارة بوش لهما وتجاهلهما، بدأ هذا فى التغير فى الشهور القريبة، خاصة بالنظر إلى موضوعات الهجرة المكسيكية، التى هى هامة بالنسبة لانتخابات الولايات المتحدة، غير أن النقطة الأساسية هى أن الافتراض القديم للشراكة والقيم والأهداف المشتركة خاصة مع كندا - قد تم إنكاره، وحل محله فهم أكثر سخرية، وهذا صحيح أيضا فى أمريكا

الجنوبية حيث يواصل نفاق الولايات المتحدة، فيما يتعلق بالمخدرات والتجارة الحرة، كونه سببا للإحباط والعزلة.

ثم هناك قضية هاتين المؤسستين المتعدتين اللتين أصيبتا بجراح خطيرة، الأمم المتحدة ومنظمة التجارة العالمية، لقد تعاملت إدارة بوش مع الأمم المتحدة كقوة أجنبية معادية، حتى أدركت فيما بعد الوقت الصحيح، الحاجة لمساعدة الأمم المتحدة فى إقناع أية الله السيستانى بالعمل مع مسئولى الولايات المتحدة لتشكيل حكومة عراقية مؤقتة فى يونيو عام ٢٠٠٤ ونتيجة ذلك أن السؤال حول إذا ما كانت الأمم المتحدة قادرة على لعب أى دور له معنى أو هدف فى المستقبل، مطروح إلى حد كبير للغاية على بساط البحث، إنها لا تستطيع أن تلعب اليوم دورا مثل ذلك الذى لعبته عام ١٩٩٩ فى إزاحة نظام تيمور الشرقية الجائر، وبداية بناء أمة جديدة، إن الأمم المتحدة تبدو مثل ديمقراطية وينستون تشرشل، أسوأ نظام لحكم العالم، باستثناء أن تكون كذلك لكل الباقين، وقد اكتشفت واشنطن فى العراق أنه لو لم يكن لديك أمم متحدة، فعليك أن تبتكر واحدة.

ربما كانت تلك هى النقطة: إن الأمم المتحدة فى حاجة إلى إعادة ابتكار؛ حتى لا تتكرر الخطى الخاطئة للأعوام الثلاثة السابقة، لكن الولايات المتحدة - فقط - هى التى فى وسعها قيادة مثل هذا الجهد الذى لا يحتمل وقوعه فى هذه المرحلة الحاسمة، ومن ثم، فإن الفرص مواتية كى تسير الأمم المتحدة على طريق "عصبة الأمم"، مع نتيجة تقول : إن مخاطر وتكاليف حراسة العالم يجتمل أن يكون على الولايات المتحدة أن تنهض بها.

إن مستقبل منظمة التجارة العالمية، فى أعقاب فشل المفاوضات فى تحقيق أى تقدم فى محادثات "كانكون" فى خريف عام ٢٠٠٢ يتسم أيضا بعدم الوضوح؛ إذ المفروض بعد سنوات من التعامل، بصورة أساسية، مع موضوعات ذات أهمية للبلدان النامية، أن تكون هذه الدورة، من المحادثات، مكرسة لفعل شئ من أجل البلدان النامية، وفى القلب من هذا الجهد توجد الزراعة، وفى القلب من المسألة الزراعية يوجد

القطن، وقد انهارت المباحثات فى كانكون لعدد من الأسباب، إلا أن سببا رئيسيا منها كان رفض الولايات المتحدة تقديم أى تخفيض له قيمة أو معنى من الدعم الزراعى المقدم إلى قطنها ومحاصيل أخرى، وقد بذلت الولايات المتحدة فى أعقاب هذا الفشل جهدا منفردا بهدف تخفيض عدد مما يسمى باتفاقيات التجارة الحرة الثنائية، غير أن ذلك يمكن عمله فقط بصورة نموذجية مع البلدان الصغيرة نسبيا، مع إنهاء عقد ذلك الخليط من الاتفاقيات التفضيلية المشابهة لتلك التى ساهمت فى كارثة الكساد العظيم فى الثلاثينيات.

ويواصل ثانى أوكسيد الكربون تراكمه، فى الغلاف الجوى، فى تلك الأثناء، وتواصل الثلجات والغطاء الثلجى القطبى الانصهار، وتواصل الألفام الأرضية قتل وتشويه مئات الآلاف من النساء والأطفال كل عام، وتواصل تجارة الأسلحة الصغيرة ازدهارها، ويظل تدفق الكوكايين والهيرويين إلى داخل الولايات المتحدة فى كامل قوته رغم المزيد من رش محاصيل فلاحى أمريكا الجنوبية، وفرض مراقبة أشد صرامة على الممرات الجوية والبحرية، كما يواصل الإيدز نشر دماره فى إفريقيا، والآن أجزاء كبيرة فى آسيا، وتواصل مناسيب المياه انخفاضها مع ارتفاع أعداد السكان، وتضرب مبيعات سيارات الدفع الرباعى فى سوق سيارات الولايات المتحدة أرقاما قياسية، ولكن "هاى" (*) لقد نلنا من صدام، وارتفعت بورصة "الناسداك" إلى أكثر من ٥٠٪ عن العام الماضى، وازدهرت مبيعات سيارات الدفع الرباعى، إنها حقا كلما كبر حجمها زادت مبيعاتها، من ذا الذى يقول: إن بلدنا هذا بلد عظيم؟ هل تعرف أن الأجانب هم مجرد أناس يحسون الغيرة.

(*) لفت الانتباه أو التساؤل أو التعجب . (المترجم)

الهوامش

الفصل الأول

- (١) عمل قذر: لقد وضع السيد بوش مصداقية الولايات المتحدة في خطر شديد. الجارديان، ٣٠ مارس، ٢٠٠١، ص ٢١.
- (٢) كولومباني، جان - ماري " Nous somme tous Américains" الموند باريس، فرنسا، ١٢ سبتمبر، ٢٠٠١.
- (٣) كل اللقاءات في هذا الكتاب قد أنيرت ما بين إبريل ٢٠٠١ وأكتوبر ٢٠٠٢، في الولايات المتحدة، أوروبا، أمريكا اللاتينية وآسيا، هؤلاء الذين لم تذكر أسمائهم هم الذين طلبوا بقاها مجهولة.
- (٤) كونستانتين، جوس، "امتدحت تاويان قسم بوش أن يفعل ذلك مهما اقتضى الأمر"، واشنطن تايمز، ٤ مايو، ٢٠٠١، ص ١.
- (٥) "المضيف السويدي ينسف السياسات الخاطئة حول البيئة"، أسوشيتدبرس (أ ب) الصحافة الكندية، ١٤ يونيو، ٢٠٠١.
- (٦) مركز أبحاث بيد للشعب والصحافة. ما الذي يفكر فيه العالم في ٢٠٠٢: كيف يرى الرأي العام الكوني: حياتهم، بلدانهم، العالم، أمريكا. ديسمبر ٢٠٠٢.

الفصل الثانى

- (١) باسيفيتش، أندرو ج. الإمبراطورية الأمريكية: الحقائق والنتائج لدبلوماسية الولايات المتحدة. كامبريدج، م:
أ: صحافة جامعة هارفارد، ٢٠٠٢، ص ١٢٢.
- (٢) المرجع السابق، ص ٨.
- (٣) المرجع السابق ص ٧.
- (٤) هينتينجتون، صامويل ب - "القوة العظمى المنعزلة"، فورين أفيرز مارس/إبريل، ١٩٩٩، ص ٢٨.
- (٥) حديث لجورج دبليو بوش. "نولية أمريكية بوضوح". سيمى فالى، كاليفورنيا، ١٩ نوفمبر ١٩٩٩،
وباسيفيتش، ص ٢٠١.
- (٦) مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة. ما الذى يفكر فيه العالم فى ٢٠٠٢، ص ٧٠ - ٧١.
- (٧) حديث الرئيس بوش يوم التخرج باكااديمية ويست بوينت، ١ يونيو، ٢٠٠٢.
- www.whitehouse.gov/news/releases/2002/06/2002601-3.html.
- (٨) استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية للأمن القومي. البيت الأبيض، سبتمبر، ٢٠٠٢،
<http://usinfo.state.gov/topical/pol/terror/secstrat.htm> Hssintro.
- (٩) أرمسترونج، دافيد. "أغنية ديك تشينى الأمريكية: وضع مسودة خطة للهيمنة الكونية". هاربرز. أكتوبر،
٢٠٠٢. مجلد ٢٠٥، رقم ١٨٢٤، ص ٧٦ - ٨٢.
- (١٠) "موجود وقت الخلق: مسع لدور أمريكا العالمى". الإيكونوميست. ٢٩ يونيو، ٢٠٠٢، ص ٥.
- (١١) كريستول، إيرفينج. "الإمبراطورية الأمريكية البازغة". معهد المشروع الأمريكى، واشنطن دى سى. ١٨
أغسطس، ١٩٩٧.
- (١٢) كينيدى، بول. "لقد حط النسرة"، فاينانشيال تايمز ٢٠ فبراير، ٢٠٠٢، ص ١.
- (١٣) جونسون، شالرز. "رد اللطمة: تكاليف ونتاج الإمبراطورية الأمريكية"، نيويورك: هنرى هولت
ومساعده، ٢٠٠٠، ص ٣٦.
- (١٤) وولفى ريتشارد. "التكنولوجيا تجيء بالقوة مع قليل من القيود"، فاينانشيال تايمز. ١٨ فبراير، ٢٠٠٢،
ص ١٤.

- (١٥) "موجود وقت الخلق". الإيكونوميست. ٢٩ يونيو، ٢٠٠٢.
- (١٦) صفحة حقيقة النشاط المالي الكوني: تقرير المناقشة العامة حول التمويل من أجل التنمية. www.un.org/reports/financing/profile.htm; and Quick Facts: Market Capitalization [www.nyse.com/market/info/market capitalization.htm](http://www.nyse.com/market/info/market%20capitalization.htm).
- (١٧) "موجود وقت الخلق". الإيكونوميست. ٢٩ يونيو، ٢٠٠٢، وأوين، جيوفري، "مشروع التكنولوجيا العضوية في المملكة المتحدة: دور السياسة العامة". معهد ديبولد، ٢٠٠١.
- (١٨) باربر، بنجامين ر.، جهاد في إس. مك وورد: كيف تعيد المالية والقبلية تشكيل العالم. نيويورك: كتب بالتانين، ١٩٩٦، ص ٩٧ - ٩٩، وملحق ب.
- (١٩) "قبول القوة الأمريكية"، الإيكونوميست. ٢٩ يونيو، ٢٠٠٢.
- (٢٠) شيرمان، ويندي، "استمع إلى الجنوب، وتحدث إلى الشمال"، واشنطن بوست. ٢٤ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص ١٥ أ.
- (٢١) أوزاوا، إيشيرو. "برنامج عمل من أجل اليابان جديدة". طوكيو: كودانشا إنترناشونال ليمتد.، ١٩٩٤، نشر في اليابان في يونيو ١٩٩٣.
- (٢٢) كريستول.
- (٢٣) معهد التعليم العالي. "مضاهاة زيارة العام الماضي باعتبارها أعلى نمو منذ ١٩٨٠". ١٨ نوفمبر، ٢٠٠٢.
- www.iie.org/content/ContentGroups/Amrouh
cements/International - student-Enroplement-in-u-s-Rose-6-4%25-In-20012002.htm.
- (٢٤) جايا ديف، راج. أصحاب مشاريع سيليكون فالي احتاجوا إلى: "أين كنتم عندما يحتاج إليكم مجتمع آسيا الجنوبية؟" باسفيك نيوز سيرفيس، ٢٣ نوفمبر، ٢٠٠١.
- (٢٥) باربر، ص ٦٩.
- (٢٦) مك دوجال، والتر أ. "أرض الميعاد، دولة الصليبي: الصدام الأمريكي مع العالم منذ ١٧٧٦، نيويورك: هوغتون ميفلين ١٩٩٧.
- (٢٧) مك دوجال، ص ١١٢.
- (٢٨) مك دوجال، ص ١٤٧.
- (٢٩) ترومان، هاري س. خطاب أمام الدورة المشتركة للكونجرس، ١٢ مارس، ١٩٤٧.

- (٣٠) هيجز، روبرت. "الإنفاق العسكري للولايات المتحدة في حقبة الحرب الباردة: تكاليف الفرصة، الأزمات الأجنبية، والقيود الداخلية" بوليسى أناليسس (تحاليل سياسية)، نوفمبر ١٩٩٨، المجلد ١١٤.
- (٣١) نيكيرك، ويليام، ودافيد س. كلود. "كليتتون: إسماء تضع الصين في الجانب الخاطئ من التاريخ، بكن مع الحد من مبيعات الأسلحة". شيكاغو تريبيون. ٣٠ أكتوبر، ١٩٩٧.
- (٣٢) هاريس، جون ف. "جيانج يكسب أعلى إطراء لكليتتون، نهاية رحلة، التفاؤل حول مستقبل الصين". واشنطن بوست. ٤ يوليو، ١٩٩٨، ص ١.
- (٣٣) جينجريتش، نيوت، "تجديد أمريكا"، نيويورك: هاربر كولينز، ١٩٩٥.
- (٣٤) حديث كوندوليزا رايس أمام مجلس لوس أنجلوس للشئون الخارجية، ١٥ يناير، ١٩٩٩.
- www.Lawa.org/speech/rice.html.
- (٣٥) فريدمان، توماس ل. "بيان رسمي من أجل العالم الشرقي"، نيويورك تايمز مجازين. ٢٨ مارس، ١٩٩٩، ص ٢.
- (٣٦) باسيفيتش، ص ١٢٧، وويليام ج. كليتتون، "الاستراتيجية الوطنية من أجل قرن جديد"، واشنطن دي سي: ديانى للنشر، ١٩٩٨، ص ٨.
- (٣٧) المنافسة الثانية للرئيس، جامعة ويك فورست، ١١ أكتوبر، ٢٠٠٠.
- (٣٨) نيبور، رينهولد، "رجل أخلاقى ومجتمع غير أخلاقى: دراسة فى علم الأخلاق والسياسة"، نيويورك: سكرينرز، ١٩٣٢، ص ٢٩٤.
- (٣٩) شيسيترون، ج. ك. "ما رأيته فى أمريكا". نيويورك: دود، ميد وشركاه، ١٩٩٢، ص ٧.
- (٤٠) هينتينجتون، صامويل ب. "تآكل المصالح الوطنية الأمريكية"، فورين أفيرز، سبتمبر/أكتوبر ١٩٩٧، مجلد ٧٦، رقم ٥.
- (٤١) ليبست، سيمور مارتين، "الاستثنائية الأمريكية: سيف ذو حدين". نيويورك/لندن: و. و. نورتون، ١٩٩٦، ص ١٩.
- (٤٢) الخطاب الوطنى للرئيس جورج دبليو بوش. ١١ سبتمبر، ٢٠٠١.
- (٤٣) إيمرسون، رالف والدو. "الحرب". بوسطن. م: مارس، ١٨٢٨.
- (٤٤) تيرنر، فريدريك جاكسون. "الحدود فى التاريخ الأمريكى". نيويورك: هنرى هولت، ١٩٢١، ص ٣٧.
- (٤٥) "فى مديح ما لا يصح ذكره - رجال الأعمال وحب البشر والعمل على تعزيز السعادة الإنسانية". الإيكونوميست. ٢٠ يوليو، ٢٠٠٢، ص ٢٨.
- (٤٦) إدارة الولايات المتحدة للصحة والخدمات البشرية، ويب سيت المركز الوطنى للإحصائيات الصحية، www.cdc.gov/nchs/fastats/homicide.hem

- (٤٧) سياسة أمريكا الجنائية الصارمة لها نتائج غير مقصودة، الإيكونوميست، ١٠ أغسطس، ٢٠٠٢.
- (٤٨) الآن، ستيفن روبرت، "شرطة الولايات المتحدة الأمريكية". ويكلي اليبى. ٩ - ١٥ مارس، ٢٠٠٠.
- www.alibi/2000-03-09/edit.htm والعقد الدافع: تقديرات السجون فى الألفية". واشنطن دى سى: معهد سياسة العدالة، مايو ٢٠٠٠.
- (٤٩) المسح السكاني الحالى المسح الديموجرافى السنوى، تكلمة المسيرة. جدول "السن، الجنس، العلاقات الأسرية، السلالة والأصل الأمريكى اللاتينى - وضع فقر الشعب فى خصائص منتقاة فى ١٩٩٨". مكتب الولايات المتحدة للإحصاء الرسمى، روجع فى ١٥ ديسمبر، ١٩٩٩.
- (٥٠) وورث، روبرت. "أمة تواجه التحدى: الاستخبارات، العملاء المطلوبين، يجب أن نتحدث الباشتونية".
- (٥١) ماركيز، كريستوفر. "الأكثر يقولون نعم للخدمة الأجنبية، ولكن ليس للمهام الشاقة"، نيويورك تايمز. ٢٢ يوليو، ٢٠٠٢، ص ١، ١.
- (٥٢) بونر، راييموند. "مدارس باكستانية: حطام هزيل للعقول الجائعة"، نيويورك تايمز. ٣١ مارس، ٢٠٠٢، ص ٣.
- (٥٣) داو جيمس. "المجموعة الآسيوية توافق على أهداف تنظيم الأسرة بسبب احتجاج الولايات المتحدة". نيويورك تايمز، ١٨ ديسمبر، ٢٠٠٢ ص ٧.
- (٥٤) ويلز، جارى. "بلطجى العالم الحر"، فورين أفيرز. مارس/إبريل، ١٩٩٩، مجلد ٧٨، رقم ٢.
- (٥٥) هينتينجتون.
- (٥٦) هاس، ريتشارد، "تحديد السياسة الخارجية للولايات المتحدة فيما بعد - عالم الحرب الباردة". جمعية السياسة الخارجية، محاضرة إرثر روس لعام ٢٠٠٢، نيويورك. ٢٢ إبريل، ٢٠٠٢.
- (٥٧) نى جوزيف س. الأصفر. "ملزم بالقيادة: الطبيعة المتغيرة للقوة الأمريكية". نيويورك: كتب أساسية، ١٩٩١ (إصدار معاد طبعه).
- (٥٨) مونتييسكيو، شارلز لويس. "آراء حول أسباب عظمة الرومان وانحدارهم" دافيد لوينتال. نيويورك: الصحافة الحرة، ١٩٦٥، الفصل السادس - السلوك الذى استخدمه الرومان لإخضاع كل الشعوب.
- (٥٩) ج. ر. (جون روبرت)، سير سيلى (١٨٣٤ - ١٨٩٥). الكلاسيكى، المؤرخ البريطانى، "توسع إنجلترا"، المحاضرة الأولى (١٨٨٤): www.bartleby.com/66/58/48958.html.
- (٦٠) باترسون، توماس ج. ودينيس ميريل. "المشاكل الكبرى فى العلاقات الخارجية الأمريكية، المجلد ١: ١٩٢٠، الطبعة الرابعة، لكسينجتون إ م إيه: دى سى الصحة وشركاه، ١٩٨٩.
- (٦١) براوس، ميشيل. "رؤساء طماعون، وسياسيون كذابون ومدرسون غشاشون"، فاينانشيال تايمز. ١٥ يونيو، ٢٠٠٢، ص ٣.
- (٦٢) معهد الأبحاث الوطنى للتعليم المحلى، "حقائق حول التعليم الوطنى"، أغسطس، ١٩٩٩.

(٦٣) فريدمان، ص ٤٠.

(٦٤) مركز أبحاث نيوستب والصحافة.

(٦٥) تقرير قمة المديرين التنفيذيين للتعاون الاقتصادي لآسيا والمحيط الهادئ ٢٠٠٢: التحديات من أجل التنمية في حقبة عدم اليقين، قمة المديرين التنفيذيين للتعاون الاقتصادي لآسيا والمحيط الهادئ، المكسيك، أكتوبر ٢٠٠٢.

(٦٦) هيرش ميتشيل: "بوش والعالم"، فورين أفيرز، سبتمبر-أكتوبر ٢٠٠٢، ص ١٨.

الفصل الثالث

- (١) شاندا، نايان. "مسح اقتصادي: إعادة بناء آسيا". فار إيست إيكونوميك ريفيو. ١٢ فبراير، ١٩٩٨.
- (٢) ستيجلتزر، جوزيف. "العولة وما تثيره من سحق واستياء". نيويورك. و. و. نورتون، ٢٠٠٢، ص ٩٣.
- (٣) وارد، إبراهيم. "الرأسمالية الصديقة: إدارة رأس المال طويل المدى، صندوق تغطية فوق الشبهات"، ليموند ديپلوماتيك، نوفمبر ١٩٩٨. www.mondediplo.com/1998/11/05warde2.
- (٤) كيتو، أليكس. "مراقبة البيت الأبيض: بوش يطالب سلطة سرعة العمل والحركة"، خدمات نوجونز الإخبارية، ٧ مايو، ٢٠٠١.
- (٥) تويدتمان، جيمس. "باول: التجارة حيوية في الحرب ضد الإرهاب". نيوز داي، ٢ فبراير، ٢٠٠٢.
- (٦) ثورو، روجر وسكوت كيلمان. "معلق بخيط: في الولايات المتحدة يزدهر زارعو القطن، وفي إفريقيا يقاتلون من أجل البقاء أحياء - المعونات الأمريكية تخفض الأسعار العالمية، وتدمر أهداف سياستها الخارجية". بذر بذور الإحباط. وول ستريت جورنال، ٦٢ يونيو، ٢٠٠١، ص ١.
- (٧) "رفع الإنتاج في ٢٠٠٢/٤"، اللجنة الدولية الاستشارية للقطن، ٣ فبراير، ٢٠٠٢.
- (٨) باديان، أومين، دهانشوار غورا، لويس جورو ويول ماسون. استراتيجيات قطاع القطن في الغرب ووسط إفريقيا. أبحاث سياسة البنك الدولي. يوليو ٢٠٠٢.
- (٩) ثورو، روجر، وسكوت كيلمان. ص ١.
- (١٠) هوفبار، جاري كلايد وين جودريش. "زمن المساومة الكبرى في الصلب ملخص السياسة الاقتصادية العالمية، يناير ٢٠٠٢، المجلد ٢، رقم ١، جدول ٥.
- (١١) هوفبار، جاري كلايد وين جودريش.
- (١٢) هويل، توماس، ويليام أ. نولارت، جيسي ج. كرير، وألان و. وولف. "الصلب والدولة: تدخل الحكومة وأزمة الصلب البنوية". بولدر، وشركاه: ويست فيو برس، ١٩٨٨.
- (١٣) إحصائيات تم حسابها من بيانات جمعها المعهد الدولي للحديد والصلب. مايو ٢٠٠٢.
- (١٤) "جدول ١ الناتج كل ساعة في الصناعة، ١٤ بلدا أو منطقة، ١٩٥٠ - ٢٠٠١". إدارة الولايات المتحدة للعمل، إحصائيات مكتب العمل، سبتمبر ٢٠٠٢.

www.bls.gov/news.release/prod 4.to 1.htm.

(١٥) من أجل حساب أكثر دقة لصناعة الصلب، فإنني أشرح كتاب توماس ر. هويل، "الصلب والدولة": تدخل الحكومة وأزمة الصلب البنوية". انظر حاشية رقم ١٢.

(١٦) سيمان رودريك، "الخطاب القانوني لليابان"، إبريل ١٩٨٣.

law.com/law letter/april 83/bed.htmwww.Japan

(١٧) ماي، برتهارد، "مشروع مارشال: دروس تاريخية وتحديات حالية في البلقان"، المجلس الألمانى للعلاقات الأجنبية.

www. dgap.org/marshallplan.html., February 14,2003

(١٨) "تاريخ التكنولوجيا الأمريكية: صناعة السيارات، ١٩٤٠ - ١٩٩٩".

Web. bryant.edu/-history/h364 material/cars, cars - 60.htm.

(١٩) "المكسيك - الاتحاد الأوروبي، المكسيك تحتل المرتبة السابعة في التجارة العالمية في ١٩٩٨". خدمة إى إف إى للأخبار. ٥ مايو، ١٩٩٩.

(٢٠) دراسة البيانات الدولية. مجموعة البنك الدولي، إبريل ٢٠٠٢ devata.world bank.org

(٢١) "سى أو إف إيه سى إى لشراء خط سى إيه إن لاعتماد الأعمال فى أمريكا الشمالية" خط بى آر ١٨ نوفمبر ٢٠٠٢.

(٢٢) هوتون، ويل، "العالم الذى نحن فيه" لندن: ليتل، براون، ٢٠٠٢، ص ١٨٦.

(٢٣) تم حسابها من الإحصائيات الرسمية التجارية لحكومة الولايات المتحدة.

(٢٤) إسوشيتدپريس، "حراسة الشبكة". أنباء سى بى إس. ٢٢ نوفمبر ٢٠٠١.

(٢٥) لافيل، لويس، مع فريدريك جيسبرسون وميشيل أرندت، "الدفع التنفيذي". بيزنيس ويك، ١٥ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٨٠.

(٢٦) فريدمان، توم، "فورين أفييرز: بيج ماك ٦". نيويورك تايمز، ٨ ديسمبر، ١٩٩٦.

(٢٧) "داخل متجر حلوى صينى: حياة أشياء جميلة ومرهقة"، بيزنيس ويك، أكتوبر، ٢٠٠٠، ص ٨٦.

(٢٨) الاقتصاد، إليزابيث. "طلاء الصين باللون الأخضر: الصراع الصينى - الأمريكى التالي". فورين أفييرز. ١ مارس، ١٩٩٩، المجلد ٧٨، رقم ٢، ص ١٦.

(٢٩) بنور/ رايموند، "الغابات الأنتونيسية تحت اللأس من أجل أرضية الحجرات". نيويورك تايمز، ١٣ سبتمبر، ٢٠٠٢، ص أ ٢٠.

(٣٠) كوكسون، كلايف، "مخزون الأسماك يواجه الانهيار الكونى"، فاينانشيال تايمز. ١٨ فبراير، ٢٠٠٢.

(٣١) "طلقات خضراء قليلة: قمة العالم فى جوهانسبرج". الإيكونوميست، ٣١ أغسطس، ٢٠٠٢، ص ٥٩.

(٢٢) سليمان، جاي. "كيف تكون أسواق مستر بامبانج، بيج ماكس، في أندونيسيا المسلمة". أسيان وول ستريت جورنال، ٢٩ أكتوبر، ٢٠٠١.

(٢٣) باسو، كاوشيك. "العولة وتهديدها للديمقراطية" السترايتس تايمز، ٣ مايو، ٢٠٠٢.

(٢٤) "التوقعات الاقتصادية للعولة ٢٠٠٢: جعل التجارة تعمل من أجل فقراء العالم". البنك الدولي، نوفمبر ٢٠٠١.

(٢٥) تم حسابها من إحصائيات جمعت من قسم الإحصائيات بالأمم المتحدة، ومؤتمر الأمم المتحدة حول التجارة والتنمية.

(٢٦) ميلمان، جويل، "إفساد عمل جيد: خروج الجولف" ذي وول ستريت جورنال، ٢٤ يوليو، ٢٠٠٢، ص ١٢.

الفصل الرابع

- (١) بامبرجر، روبرت، اقتصاد وقود السيارات والشاحنات الخفيفة: هل سى إيه إف إى على مستوى المعايير؟ تقرير سى آر إس للكونجرس، حدث فى ٢ أغسطس، ٢٠٠١.
- (٢) المرجع السابق.
- (٣) المرجع السابق.
- (٤) لانكاستر، جون، "النقاش حول اقتصاد الوقود يتحول إلى نقاش عاطفى"، واشنطن بوست، ١٠ مارس ٢٠٠٢، ص ١٢١، وهوراه^(٥)، سى إيه إف إى تتجه إلى النزول وشنجتون تايمز، ١٥ مارس، ٢٠٠٢، ص ٣٠١.
- (٥) جمعية اليابان لصناعة السيارات، "ارتفاع طفيف فى أسعار الجازولين باليابان"، يابان أوتو ترندس، يونيو ٢٠٠٠ المجلد الرابع، رقم ٢.
- (٦) وكالة الطاقة الدولية، "إحصائيات أسعار وفترات الطاقة ربع السنوية لعام ٢٠٠٢".
- (٧) المرجع السابق.
- (٨) الإدارة الوطنية لسلامة نقل الطرق العمومية، إدارة النقل بالولايات المتحدة.
- (٩) الوكالة الدولية للطاقة (آى إيه ايه)، "معلومات عن كهرباء ٢٠٠٢".
- (١٠) وكالة الموارد الطبيعية والطاقة (اليابان). "الطاقة فى اليابان ٢٠٠٢". يونيو ٢٠٠١.
- (١١) مركز اليابان للحفاظ على الطاقة. "استهلاك الكهرباء العالمى الأول، وفقا لإجمالى الناتج المحلى.. كتاب بيانات الحفاظ على الطاقة /١٩٩٩/ ٢٠٠٠،
- (١٢) هو، باريشياس، "تقديرات إنفاق الولايات المتحدة العسكرية فيما يتعلق بالدفاع عن مصادر إمداد النفط من الشرق الأوسط: محاضرة نظرة عامة"، العمل الوطنى أوك ريدج، تمت مراجعتها فى أغسطس ١٩٩٧.

(٥) هتاف استحسان وتشجيع (المترجم).

(١٣) ستيكيل، ريتشارد هـ. "تاريخ مستوى المعيشة في الولايات المتحدة"، أنسيكلوبيديا شبكة إى إتش، تحرير روبرت هابلس، ٢٢ يوليو، ٢٠٠٢.

www.eh.net/encyclopedia/steckel_standard.living-us.php.

(١٤) أدامز، شين باتريك. "صناعة الفحم في الولايات المتحدة في القرن التاسع عشر" أنسيكلوبيديا شبكة إى إتش، تحرير روبرت هابلس، ٢٤ يناير، ٢٠٠٣.

(١٥) وكالة الولايات المتحدة لحماية البيئة. "بصمة الماضي: التاريخ الإيكولوجي لرفاً نيو بيدفورد"، ٢٢ إبريل، ٢٠٠٢ www.epa.gov/nbh/html/whaling.html.

(١٦) ستيكيل.

(١٧) إن الكثير من هذا التفسير لتاريخ صناعة النفط مأخوذ من كتاب دافيد بروجين الحائز على جائزة بوليتزر، "الجائزة: المطلب الملحمي للنفط، النقود والقوة". (نيويورك: سيمون وسشوستر، ١٩٩١)، وهو كتاب يوصى بقراءته بقوة لهؤلاء الذين يرغبون في قراءة تفسير تفصيلي دقيق لصناعة النفط.

(١٨) بروجين، ص ٣٠.

(١٩) ستيكيل.

(٢٠) بروجين، ص ٢٠٨.

(٢١) المرجع السابق، ص ١٧٨، ١٨٣.

(٢٢) المرجع السابق، ص ٣٧٩.

(٢٣) المرجع السابق، ص ٢٠٨ - ٢٠٩.

(٢٤) المرجع السابق، ص ٥٥١.

(٢٥) المرجع السابق، ص ٥٥٣.

(٢٦) إحصائيات تاريخية للولايات المتحدة: من الأزمات الكاوثالية إلى ١٩٧٠ سلسلة إم ١٣٨ - ١٤٢، في الجزء رقم ١، ص ٥٩٣، سلسلة إم ١٧٨ - ١٨٧، في الجزء رقم ١، ص ٥٩٦، إدارة الولايات المتحدة للتجارة، مكتب الإحصاء الرسمي، واشنطن دي سي، ١٩٧٥.

(٢٧) بروجين، ص ٥٦٧.

(٢٨) المرجع السابق، ص ٥٦٧.

(٢٩) المرجع السابق، ص ٥٦٧.

(٣٠) المرجع السابق، ص ٥٦٨.

(٣١) المرجع السابق، ص ١٥٧ - ١٦٤.

(٣٢) المرجع السابق، ص ٤٢٥.

- (٢٣) المرجع السابق، ص ٥٥٥.
- (٢٤) المرجع السابق، ص ٦٠١.
- (٢٥) المرجع السابق، ص ٦١٦.
- (٢٦) المرجع السابق، ص ٦٢٥.
- (٢٧) المرجع السابق، ص ٤٢٨.
- (٢٨) المرجع السابق، ص ٥٥٣.
- (٢٩) أتشيسون، دين، "موجود وقت الخلق، سنواتي في وزارة الخارجية"، نيويورك و. نورتون، ١٩٨٧، ص ٥٦٨.
- (٤٠) يرجين، ص ٧١٨.
- (٤١) ثاومان، مات، "مبيعات، الطلب يتنمش على السيارات الهجين"، سان جوسيه ميركيور نيوز، ٤ يناير، ٢٠٠٣.
- (٤٢) الطاقة في اليابان، وزارة التجارة الدولية والصناعة، يونيو ٢٠٠١.
- (٤٣) يرجين، ص ٦٥٥.
- (٤٤) ملخص تحليل وكالة معلومات الطاقة (إي أي إيه) للبلاد، فرنسا.
- www.eia.doe.gov/emeu/cabs/crance.html.
- (٤٥) وكالة الطاقة الدولية، "توفير النفط وتخفيض انبعاثات ثاني أكسيد الكربون في نظام النقل: اختيارات واستراتيجيات"، منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية/ وكالة الطاقة الدولية، ٢٠٠١، ص ٢٣.
- (٤٦) إدارة معلومات الطاقة، "استهلاك الطاقة العالمي الأول لكل فرد (بي تي يو)، ١٩٨٠ - ٢٠٠٠".
- www.eia.doe.gov/pub/international/iealf/tableetcx.ps.
- (٤٧) يرجين، ص ٦١٧.
- (٤٨) المرجع السابق، ص ٦٦٠.
- (٤٩) المرجع السابق، ص ٦٦٠.
- (٥٠) المرجع السابق، ص ٦٦٠ - ٦٦١.
- (٥١) المرجع السابق، ص ٦٦٢.
- (٥٢) المرجع السابق، ص ٦٩٥ - ٦٩٦.
- (٥٣) وكالة معلومات الطاقة، استهلاك الطاقة العالمي الأولى لكل دولار من إجمالي الناتج المحلي، ١٩٨٠ - ٢٠٠٠.

- (٥٤) وكالة معلومات الطاقة، "ملخص تحليل البلد، كندا"، ديسمبر ٢٠٠٢.
- (٥٥) مقرر القانون البيئي، "الخطة الوطنية للطاقة: لا نجاح بعد الجولة الأولى"، ١٩٧٧، روم، جوزيف، "الحاجة إلى: سياسة الطاقة لا تعرف الندم"، بوليتين أوف أتوميك سينتيسيس، يوليو/ أغسطس ١٩٩١، المجلد ٤٧، رقم ٦.
- (٥٦) وكالة معلومات الطاقة، "استهلاك الطاقة العالمي الأولى بالنسبة للفرد (بى تى يو)، ١٩٨٠ - ٢٠٠٠.
- (٥٧) وكالة معلومات الطاقة، "المراجعة السنوية للطاقة ١٩٩٧"، دى أو إي/إي أى إيه - ٢٨٤، يوليو ١٩٩٨، جدول ٢٢، ٥.
- (٥٨) وكالة معلومات الطاقة، "ملخص حول البترول ١٩٤٩ - ٢٠٠٠"، المراجع السنوية للطاقة ٢٠٠٠، ص ١٢٣.
- (٥٩) وكالة حماية البيئة (إي بى إيه)، "متوسط قوة القرية بالحصان فى الولايات المتحدة"، تكنولوجيا صناعة سيارات خفيفة - الخدمة واتجاهات اقتصاد الوقود خلال ١٩٩٦، إي بى إيه/ إيه إيه/ تى دى إس جي/ ٩٦ - ١.
- (٦٠) وكالة معلومات الطاقة، "سعر التجزئة لكهرباء الولايات المتحدة"، المراجعة السنوية للطاقة ١٩٩٧، إدارة الطاقة (دى أو إيه) وكالة معلومات الطاقة - ٢٨٤، يوليو ١٩٩٨، جدول ١٢، ٨.
- (٦١) جمعية صناع ما يستعمل محليا، "فاعلية ثلاثة جديدة متوسطة فى الولايات المتحدة، طاقة الثلاثيات والاتجاهات الاستهلاكية، ١٤ يوليو، ١٩٧٧.
- (٦٢) "الاحتياطي الاستراتيجي للبترول"، إدارة الطاقة بالولايات المتحدة. www.fe.doe.gov/spe
- (٦٣) روم، ٤٧: ٦.
- (٦٤) يرجين، ص ٧٦٩.
- (٦٥) المرجع السابق، ص ٧٦٩.
- (٦٦) المرجع السابق، ٧٦٩.
- (٦٧) سوليفان، ألانا. "خيارات الطاقة، لن يكون الأمر سهلا، لكن الولايات المتحدة يمكنها أن تخفف الاعتماد على نفط العرب وغازهم الطبيعي، الآبار المحلية، يمكن للناجح السوفيتي أن يساعد إن إرتفع السعر بما يكفي - لا تعتمد على ملوحيين الهواء"، وول ستريت جورنال، ١٧ أغسطس ١٩٩٠، ص ١، ١.
- (٦٨) يرجين، ص ٧٧٢.
- (٦٩) يرجين، ص ٧٧٣، وروم.
- (٧٠) كلارك، مارك ت. "القلق مع الأمن الجماعي"، أورييس، ٢٢ مارس، ١٩٩٥، المجلد ٣٩، الإصدار الثاني، ص ٢٣٧.
- (٧١) روم.

(٧٢) المرجع السابق.

(٧٣) براون، ليستر ر. جاري جاردينر، ويريان هالويل. ١٦ أثر للنمو السكاني، ذي فيوتشر ست. ١ فبراير، ١٩٩٩.

(٧٤) موديز، إيرنست ج. "أمن الطاقة"، شهادة في الكونجرس تقدمها غرفة إجازة الوثائق.

(٧٥) سكولمان، بروس ج. "أزمة الطاقة: أمريكا تحفظ سترتها الصوفية في مكان واق". لوس أنجلوس تايمز، ١٢ مايو، ٢٠٠١.

(٧٦) سكندر، ويليام. "أمريكا تبقى على الشحن بالتأملات"، ناشونال جورنال، ٢٣ مارس، ٢٠٠٢.

(٧٧) المرجع السابق.

(٧٨) الأمم المتحدة. "توقعات بخصوص سكان العالم، مراجعة عام ٢٠٠٠"، المجلد ١: جداول شاملة. نيويورك، ٢٠٠١.

(٧٩) مورس، إينوارد ل. وجيمس ريتشارد، "المعركة للهيمنة على الطاقة"، فورين أفيرز، مارس / إبريل، ٢٠٠٢.

(٨٠) المرجع السابق.

(٨١) المرجع السابق.

(٨٢) وولسى، ر. جيمس، "تعطيل سلاح النفط". وول ستريت جورنال. ١٩ سبتمبر ٢٠٠٢، ص ١٦ أ، ومورس، ص ١٦.

(٨٣) ديكى، كريستوفر، "ملوك البترول ذات مرة وفي المستقبل"، نيوزويك، ٨-١٥ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٤٠.

(٨٤) سكندر.

(٨٥) هوبرت، هـ. جوزيف، "مجلس الشيوخ يرفض معايير اقتصادية جديدة منظمة لوقود السيارات". أسوشيتد برس، ١٣ مارس، ٢٠٠٢.

(٨٦) لوفينز، أ. "مشاكل قديمة، حلول جديدة". وورلد لينك، يوليو/ أغسطس، ٢٠٠٢.

(٨٧) المرجع السابق.

(٨٨) وولسى، ص. ١، ١٦.

(٨٩) لاكاويو، ريتشارد. "المباني التي تنفس: أفضل ما في فن العمارة الجديد استخدامه للطبيعة بدلا من محاربتها". تايم. ٢٦ أغسطس، ٢٠٠٢، المجلد ١٦٠، رقم ٩، ص ٣٦ أ.

(٩٠) "صناعة خلية الوقود تنجى إلى الاشتعال التجارى"، مانيو فاكتشورينج نيوز، ١٦ يوليو، ٢٠٠٢، ص ٩.

(٩١) "مؤيدو الحرب، مجموعة ضغط معارضة للتأثير على ميزانية ف ي - ٤٠". إنسايد ذي بنتاجون. ٢٠ يناير، ٢٠٠٢، المجلد ١٩، رقم ٥.

الفصل الخامس

(١) ديكى، كريستوفر وأدم روجرز، وآخرون. "دخان ومرايا. كان رد فعل العالم غاضبا عندما رفض الرئيس باراك أوباما في الصيف الماضي معاهدة كيوتو لتخفيض الانبعاثات الحرارية، ولم تأت له خطته الجديدة بأى أصدقاء أيضا"، نيوزويك إنترناشونال، الطبعة الأطلنطية، ٢٥ فبراير، ٢٠٠٢.

(٢) بيانين، إريك. "الولايات المتحدة تهدف إلى الانسحاب من اتفاقية الاحتباس، الحرارى، لا مصلحة فى تطبيق ميثاق كيوتو، يقول هويتمان"، واشنطن بوست، ٢٨ مارس ٢٠٠٢.

(٣) "الرئيس بوش يناقش التغير المناخى الكونى"، ١١ يونيو، ٢٠٠١.

[www. White-house.gov/news/releases/2001/06/20010611-2.html](http://www.White-house.gov/news/releases/2001/06/20010611-2.html).

(٤) كريستى، ميشيل، "حالة غضب عندما تلقى الولايات المتحدة بكيوتو"، دايلي تلجراف، ٢١ مارس، ٢٠٠١.

(٥) "عمل قدر". الجارديان. ٣٠ مارس، ٢٠٠١.

(٦) بيانين، إريك، "رئيس وكالة حماية البيئة يمارس ضغطا أمام تحول بوش عن الانبعاث، تفاصيل مذكرة هويتمان التى تلتزم التزاما رئاسيا"، واشنطن بوست، ٢٧ مارس، ٢٠٠١، ص ١٧.

(٧) كريستيان سون، ص ١٦٨ - ١٦٩، ومولينا، ماريوج. د ف س. رولاند، "الهبوط الستراتوسفيرى" (*) بسبب مجموعة الكلوروفلورو ميثان - ذرة كلور - حفزت تدمير الأوزون"، ناشور، ٢٨ ٢٤٩، يونيو، ١٩٧٤، ص ٨١٠ - ٨١٢.

(٨) كريستيان سول، جال، "الصوية: قصة المائتى عام من الانبعاث الحرارى الكونى"، نيويورك: كتب بنجوين، ٢٠٠٠، ص ١٦٩.

(٩) فارمان، ج ك ب ج. جارنيز، ود. ج. د. شانكلين. "خسائر كبرى للأوزون الكلى فى انتاركتيكا" (**) كشفت عن تفاعل موسمى لثانى أكسيد الكربون وأوكسيد النيتروز، ناشور، ١٩٨٥، مجلد ٣١٥، ص ٢٠٧ - ٢١٠.

(*) الجزء الأعلى من الغلاف الجوى (المترجم).

(**) قارة غير مأهولة تقع حول القطب الجنوبي (المترجم).

- (١٠) "أسباب وتأثيرات التغيرات في الأوزون الستراتوسفيري: حدث في ١٩٨٣". ناشونال أكاديمي برس، واشنطن، دى سى. ١٩٨٤.
- (١١) كريستيان سون، ص ١٩٤.
- (١٢) المرجع السابق، ص ١٩٥.
- (١٣) هولدر، فانيسا، وكليف كوكسون. "وداعا ثقب السماء"، فاينانسيال تايمز. ٢١-٢٢ سبتمبر، ٢٠٠٢.
- (١٤) من أجل وصف حياة وعمل فوريير، انظر الفصل الأول. "الجيوليتين والناقوس الزجاجي"، فى كريستيان سون، نفس المرجع، ص ٣ - ١٢.
- (١٥) كريستيان سون، ص ١١٣.
- (١٦) كاليندار، ج. س. "الإنتاج الصناعى لثاني أوكسيد الكربون وأثره على درجة الحرارة، الجريدة ربع السنوية للجمعية الملكية للأرصاد الجوية ١٩٢٨.
- (١٧) المرجع السابق، ص ١٥٥.
- (١٨) المرجع السابق، ص ١٦٧.
- (١٩) جيليسبان، روس، "الحرارة مستمرة: أزمة المناخ، الغطاء، وصفة العلاج. بوسطن: فرساوس (*) للنشر، ١٩٩٨، ص ١٣٦ - ١٣٩.
- (٢٠) سارويتز، دانييل، روجر بيلكى الصغير. "تحطيم الازدحام الخانق للاحتباس الجارى الكونى". أتلانتياك مونثلى، يواير، ٢٠٠٠.
- (٢١) سكيندر، ستيفن. "نظم الأرض الهندسية والإدارية، ناشور. ١٨ يناير، ٢٠٠١.
- (٢٢) كريستيان سون، ص ١٧١.
- (٢٣) كيلوج، ويليام/ ومرجريت ميد. "الغلاف الجوى: عرضة للخطر، وهو خطير، مطبوعات كاسيل هاوس، ١٩٧٧.
- (٢٤) جيليسبان، ص ١٣٩.
- (٢٥) كريستيان سون، ص ٢١٦.
- (٢٦) المرجع السابق، ص ٢١٨.
- (٢٧) المؤتمر الدولى للبيئة يحث على فرض ضريبة على الوقود؟ رويترز نيوز. ١ يولاي، ١٩٨٨.

(*) بطل من أبطال الميثولوجيا الإغريقية (المترجم).

- (٢٨) كريستيان سون، ص ١٩٧.
- (٢٩) كريستيان سون، ص ١٩٦.
- (٣٠) تعليق من ريتشارد ليندن، وول ستريت جورنال، ١١ يونيو، ٢٠٠١.
- (٣١) هوغتون، ج.ت، ج. ج. جنكينز، و ج. ج. أفراومس، محرر "التقييمات العلمية لتغير المناخ: تقرير مجموعة العمل"، لندن: مطبعة جامعة كمبريدج، المملكة المتحدة، ١٩٩٠.
- (٣٢) كريستيان سون، ص ١٧٦ - ١٧٧.
- (٣٣) المرجع السابق، ص ١٨٠.
- (٣٤) المرجع السابق، ص ١٧٨.
- (٣٥) شارفولين، فلوريان، "١٩٧٠: العام مفتاح تعريف البيئة في فرنسا"، ربي ديهيستوار دي سي إن إر إس، مايو ٢٠٠١، رقم ٤.
- (٣٦) سيب، جيرالد، "إنه ضد المطر الحمضي، إنه العدو أيضا، هكذا يقول العديد من المهتمين بالبيئة، إنه جون سونونو"، وول ستريت جورنال، ٢ مارس، ١٩٩٠.
- (٣٧) نيلسون، دانييل، "معارك المشاهد الخلفية في التمهيد لمؤتمر البيئة الضخم في ريو عام ١٩٩٢"، جارديان، ٢٩ مارس، ١٩٩١.
- (٣٨) ماتيس، جيسكا، "الغوريلا في الصويرة"، واشنطن بوست، ٢٥ يوليو، ١٩٩١.
- (٣٩) جتفلد، روز، "لقد وضعت قمة الأرض بوش في مأزق: الموضوع إذا ما كان سيحضر اجتماع البرازيل"، وول ستريت جورنال، ٧ إبريل، ١٩٩٢.
- (٤٠) ويسكوت، ميتشيل، "الألمان يقوون في مسرح ريو، والولايات المتحدة في موقف المتفرج، الأوروبيون يقدمون مبادرة حول البيئة" واشنطن بوست ١٣ يونيو، ١٩٩٢، وديفروي، أن. "بوش يصرف النقد بعنف، الرئيس يمتدح نتائج الرحلة المثيرة للقلق"، واشنطن بوست، ١٤ يونيو، ١٩٩٢.
- (٤١) "بوش الأكثر خضرة"، الإيكونوميست، ١٥ فبراير، ٢٠٠٣.
- (٤٢) جور، البرت، "الأرض في الميزان"، نيويورك: كتب بلوم، ١٩٩٣.
- (٤٣) كومبيند نيوز سرفيسيس، "جينجريتش يضيء بطاقته الخضراء، ولكن هل بهت اللون؟ سوات ليك تريبيون، ٧ فبراير، ١٩٩٥، ص أ.
- (٤٤) خطاب الجمهوري، جيم هانسن إلى ناخبيه في أوتاوا، ١٨ ديسمبر، ١٩٩٤.
- (٤٥) تعليق نون يونج على الانكواراج دايلى نيوز، مراجعة الناطق الرسمي، ١٨ ديسمبر، ١٩٩٦.
- (٤٦) تعليق نون يونج على راديو الأسكا العام في أغسطس، ١٩٩٦ سوات ليك تريبيون، ١ ديسمبر، ١٩٩٦.

(٤٧) تسجيل من الكونجرس، بيانات الحكومة الصحفية بواسطة غرفة إجازة الوثائق الفيدرالية، ٣١ يناير، ١٩٩٦.

(٤٨) جيلبسبان، ص ١ - ٣.

(٤٩) "تقارير العلماء عن تصدع رف الجليد بالقطب الجنوبي"، شبكة الاحتباس الحرارى الكونية أون لاين اليوم ٢٨ مارس، ١٩٩٥.

(٥٠) جيلبسبان، ص ١٥.

(٥١) تقرير التقييم الثانى لهيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ: تغير المناخ ١٩٩٥.

(٥٢) سزاموسزجى، أندروز لورانس شيميرين وكلايدف، بريستويتز الصغير، "النقاش حول المناخ الكونى: الإبقاء على الاقتصاد دافئا والكوكب باردا"، دراسة قام بها معهد الاستراتيجية الاقتصادية ومنظمة التعاون الاقتصادى والتنمية، سبتمبر، ١٩٩٧، ص ١٤.

(٥٣) جيلبسبان، ص ٤.

(٥٤) كريستيان سون، ص ٢٥٦.

(٥٥) واطسن، تراسى، "معاهدة الاحتباس الحرارى الكونى معلقة فى هواء رفيع"، الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، ١ ديسمبر، ١٩٩٧، ص ٦ أ.

(٥٦) هال، ميمى. "إن مدخل قيد - كيو تو يقلل بمخاطر سياسية من أجل تحقيق الرحلة". الولايات المتحدة الأمريكية اليوم، ٢ ديسمبر، ١٩٩٧، ص ٨ أ.

(٥٧) كريستيان سون، ص ٢٦٦ - ٢٦٧.

(٥٨) ثونينج مارجو، بروتوكول كيو تو، سياسة تغير المناخ والنمو الاقتصادى للولايات المتحدة، المجلس الأمريكى لتكوين رأس المال (إيه سى سى إف)، مركز بحث السياسات، تقارير خاصة، أكتوبر ١٩٩٨.

الفصل السادس

- (١) مشكلة تاريخ الألغام الأرضية. المؤسسة الكندية للألغام الأرضية.
[www. Canadian landmine.org/landmine brop-History.cfm](http://www.Canadian landmine.org/landmine brop-History.cfm).
- (٢) فهريباك، بوب. "استخدام الألغام الأرضية لا يقدم فوائد عسكرية للولايات المتحدة"، لانسينج ستيت جورنال، ١٤ يناير، ٢٠٠٣.
- (٣) هويت، أندرو. "استيراد الكتب". ملتينا شونال مونثير. يناير ١٩٩٥.
- (٤) حملة حظر الألغام الأرضية: الحملة العالمية لحظر الألغام الأرضية تدين سياسة الألغام الأرضية لإدارة كلينتون. ١ سبتمبر، ١٩٩٦.
- (٥) ديون، نانسي. "على كلينتون أن يعمل على إنهاء الألغام الأرضية"، فاينانشيال تايمز. ١٧ مايو، ١٩٩٦.
- (٦) تيرنر، كريج. "كندا سوف تقدم معاهدة حول الألغام الأرضية في العام القادم". لوس أنجلوس تايمز، ٦ أكتوبر، ١٩٩٦.
- (٧) ملاحظات للرئيس كلينتون حول الألغام الأرضية. البيت الأبيض. ١٧ سبتمبر، ١٩٩٧.
- (٨) المرجع السابق.
- (٩) خطاب مفتوح للرئيس كلينتون، منشور في نيويورك تايمز. ٢ إبريل، ١٩٩٦.
- (١٠) ملاحظات للرئيس كلينتون حول الألغام الأرضية، البيت الأبيض، ١٧ سبتمبر، ١٩٩٧.
- (١١) ستيوارت، جون س. "من تبقى حيا يحتج على رفض توقيع معاهدة الألغام الأرضية"، روكي مونتين نيوز، ٢ مارس، ١٩٩٦.
- (١٢) كالمس، جاكى. "معاهدة الألغام الأرضية تثير الشك". وول ستريت جورنال. ٢ أغسطس، ٢٠٠١، ص ١١.
- (١٣) المحاربون القدماء يحتجون بوش على توقيع معاهدة الألغام الأرضية. أسوشيتد برس. ٢٦ فبراير، ٢٠٠٢.
- (١٤) كيلر هالس، ميرل د. الصغير. "نجاح مؤتمر الأمم المتحدة للأسلحة الصغيرة، رسمى من الولايات المتحدة يقلل: خطة العمل تركز على حظر التجارة غير المشروعة فى الأسلحة". ٢٠ أغسطس، ٢٠٠١.
- <http://usinfo.state.gov/topical/pol/arms/stories/0/01082001.htm>.
- (١٥) بك، دون. "تجارة البنادق". أتلانتيك مونثلى. ديسمبر ٢٠٠٢، المجلد، ٢٩، رقم ٥.

- (١٦) كيلر هالس. "الأسلحة الصغيرة فى دول عاجزة، تركيبة قاتلة". مركز معلومات الدفاع، ١٩٩٩.
- (١٧) لورانس، إى دى. "مسح ٢٠٠٢ للأسلحة الصغيرة". نيويورك: صحافة جامعة أوكسفورد، سبتمبر ٢٠٠٢، ص ٢٠٦.
- (١٨) بولتون، جون، خطاب عام وكيل وزارة التحكم فى الأسلحة والأمن الدولى إلى مؤتمر الأمم المتحدة حول حظر التجارة فى الأسلحة الصغيرة والأسلحة الخفيفة. نيويورك. ٩ يوليو، ٢٠٠١.
- (١٩) المرجع السابق.
- (٢٠) لينزر، دافينا، "مؤتمر الأسلحة الصغيرة ينتهى بنصر للولايات المتحدة". أسوشيتد برس، ٢١ يوليو، ٢٠٠١.
- (٢١) راوم، توم. "معاهدة الأسلحة تلفظ أنفاسها اليوم، الكثيرون يتضررون من انسحاب الولايات المتحدة الأمريكية من الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية". أسوشيتد برس. ١٢ يونيو، ٢٠٠٢.
- (٢٢) سير جيبف، مارشال. "كبار الضباط الروس يعنون ردا فى حال تخلى الولايات المتحدة عن الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية". بيلى نيوز بوليتن، ٢٦ ديسمبر، ٢٠٠٠.
- (٢٣) راوم.
- (٢٤) "العالم: مجلس شيوخ الولايات المتحدة الأمريكية يرفض معاهدة حظر التجارب". بى بى سى نيوز. ١٤ أكتوبر، ١٩٩٩.
- <http://news.btc-co.uk/1/hl/world/americas/474220.stm>.
- (٢٥) نيتز، بول هـ. "تهديد لنا فى الغالب"، نيويورك تايمز. ٢٨ أكتوبر، ١٩٩٩، ص ٣١، عمود ٢.
- (٢٦) "تحليل اتجاهات المصوتين فيما يتعلق بمعاهدة الحظر الشامل للتجارب". مستطلى الرأى من مجموعة ميلمان، ضمنا ويرتلين ورك وايد، ٢٩ يونيو، ١٩٩٩.
- (٢٧) ديوتش، جون، هنرى كسينجر، ويرنت سكا وكروفت. "معاهدة حظر التجارب: دعونا نترث قليلا"، ذى واشنطن بوست. ٦ أكتوبر، ١٩٩٩.
- (٢٨) سجل الكونجرس الـ ١٠٦ - الكونجرس ١٣ أكتوبر، ١٩٩٩، ص ١٢٥٤٩.
- (٢٩) "تقرير: لقد استخدمت الولايات المتحدة غاز الأعصاب ضد المرتدين فى فيتنام"، أسوشيتد برس نيوز ويرز. ٨ يونيو، ١٩٩٨.
- (٣٠) نالدر، إريك. "مخبأ مسن لغاز الأعصاب - إن حظر الولايات المتحدة لحرق المخازن الضخمة للذخائر الكيميائية العتيقة فى أوريجو مخاطرها". ذى سياتل تايمز. ١٧ يناير، ١٩٩١، ص ١١.
- (٣١) داسشل، تيماس. "قرار تنفيذى لمجلس الشيوخ ٧٥، قرار بالموافقة على تصديق الولايات المتحدة على اتفاقية الأسلحة الكيميائية"، بيانات صحفية للحكومة بواسطة غرفة إجازة الوثائق الفيدرالية. ٢٢ إبريل، ١٩٩٧.

- (٣٢) المرجع السابق.
- (٣٣) إيواردز، روب. "حرب بالدموع". نيو سايتيتيست. ١٦ ديسمبر، ٢٠٠٠، ص ١٤.
- (٣٤) "الولايات المتحدة توقف محادثات حرب الجرائم". يوركشاير بوست. ٢٦ يوليو، ٢٠٠١، ص ١٢.
- (٣٥) هيجينز، ج. الكسندر. "الولايات المتحدة ترفض الاتفاق المضاد لحرب الجرائم". أسوشيتد برس أون لاين، ٢٥ يوليو، ٢٠٠١.
- (٣٦) بروجر، سيث. "اتفاقية الأسلحة الكيميائية ترحل أساسا بناء على مبادرة من الولايات المتحدة". أرمي كونترول توداي. ١ مايو، ٢٠٠٢.
- (٣٧) "ببلماسية السموم - أحادية الولايات المتحدة تدعى ضحية أخرى"، جارديان. ٢٤ إبريل، ٢٠٠١، ص ١٧.
- (٣٨) "لم يكسب شيء من غضبة أمريكا الكونية". كانبيرا تايمز. ٢١ يوليو، ١٩٩٨، ص ٩.
- (٣٩) سكيت، ميتشل. "في المياه غير الموثقة على خريطة المحكمة الجنائية الدولية"، نافال وور كولنج رفيو. ١ يناير، ٢٠٠٠.
- (٤٠) نيوفر، اليزابيث أ. "الولايات المتحدة تحث بوعدها لمثل خطة المحكمة الدولية: يمكن (ألا يوقع) فريق بوش المعاهدة". بوسطن جلوب. ٢٩ مارس، ٢٠٠٢، ص ٢٢ أ.
- (٤١) جوردن، هوجو. "يجب ألا توقع الولايات المتحدة كيوتو". وول ستريت جورنال يوروب. ١١ أكتوبر، ٢٠٠٢، ص ٦ أ.
- (٤٢) ميرستين، أريل. "مجلس الأمن يمنع الولايات المتحدة حصانة من المحكمة الدولية ١٢ شهرا"، ٢٢ يوليو، ٢٠٠٢.
- www.crimesofwar.org/print/onnews/iccimunity-print.html.
- (٤٣) الإنفاق العسكري للولايات المتحدة ١٩٤٥ - ١٩٩٦، مركز معلومات الدفاع.
- www.cdi.org/issues/milspend.html.
- (٤٤) التقويم العسكري، ٢٠٠١ - ٢٠٠٢، مركز معلومات الدفاع.
- www.cdi.org/products/almanac/milspend.html.
- (٤٥) ليبرت، ديريك. "جرح الخمسين عاما: الثمن الحقيقي لانتصار أمريكا في الحرب الباردة"، نيويورك: ليتل براون وشركاه، ٢٠٠٢، ص ٢٥١.
- (٤٦) ميتنز، جون. "أفعال الولايات المتحدة لتقاوم حظر الصواريخ ضد طائرات الخطوط الجوية"، واشنطنجتون بوست، ١٥ يناير، ٢٠٠٣، ص ١ أ.
- (٤٧) جونسون، شاليرز. "رد اللطمة: تكاليف ونتائج الإمبراطورية الأمريكية". نيويورك: كتب متروبوليتان، ٢٠٠٠، ص ٩٠.

(٤٨) إدارة مكتب الدولة للتحقيق والإنذاعن. "الإنفاق العسكري الدولي وانتقالات الأسلحة ١٩٩٩ - ٢٠٠٠". أكتوبر ٢٠٠١.

www.state.gov/r/pa/prs/ps/2003/17447.htm.

(٤٩) ستيلينسكى، أندريزيغ. "حتى تشتري بولندا نقائات لوكهيد، الولايات المتحدة تدعم قرار قرض معان". أسوشيتدپرس، ٢٨ ديسمبر، ٢٠٠٢.

(٥٠) "اليابان تحاول كبح جماح التكلفة المنطلقة للمقاتلة إف إس إس". ديفنس نيوز، ٢٤ يوليو، ١٩٩٥.

(٥١) ثارنوف، كيرت ولارى نويلز. "المعونة الأصلية: موجز تمهيدى لبرامج وسياسة الولايات المتحدة"، تقرير خدمة أبحاث الكونجرس، مؤرخ ٦ إبريل، ٢٠٠١، ص ٢٢ و "المبيعات العسكرية الأصلية، مبيعات إنشاعات عسكرية أجنبية وحقائق عسكرية معونة"، كتاب حقائق وكالة تعاون أمن الدفاع. ٢٦ سبتمبر، ٢٠٠٢.

www.dsca.osd.mil/programs/comptroller/2001-FACTS/default.htm.

(٥٢) المرجع السابق، ص ١٢.

(٥٣) المرجع السابق، ص ١٨.

(٥٤) بايت، فيتا، "نظام تمويل الأمم المتحدة: موضوعات خاصة بالكونجرس". خدمة أبحاث الكونجرس، ٨ يناير، ٢٠٠٨، ص ٥.

(٥٥) ريسير، بول. "الشباب الأمريكى يسقط فى الجغرافيا، طبقا لمسح امتحان موجز جغرافى وطنى". أسوشيتدپرس نيوزويز، ٢١ نوفمبر ٢٠٠٢.

(٥٦) واليستين، إيمانويل. "ارتطم النسر وهو يهبط أرضاً"، فورين بوليسى. يوليو/ أغسطس، ٢٠٠٢، ص ٦٠.

الفصل السابع

- (١) كورنيلو، أنى أ. 'برش يحاول فى سيول أن يهدئ الحذر من نية قتل كوريا الشمالية'، بوسطن جلوب، ٢٠ فبراير ٢٠٠٢.
- (٢) تيرنر، فريدريك جاكسون. 'الحدود فى التاريخ الأمريكى'. نيويورك. هنرى هولت، ١٩٢١.
- (٣) ويلسون، وودرو. 'رسائل حرب'. الكونجرس الـ ٦٥، الدورة الأولى، وثائق مجلس الشيوخ رقم ٥، مسلسل رقم ٧٢٦٤، واشنطن دى سى، ١٩٢٧ ص ٣-٨، متكرر.
- (٤) مك دوجال، والتر. 'الأرض الموعودة، دولة الصليبي: الصدام الأمريكى مع العالم منذ ١٧٧٦ نيويورك، هوغتون ميفلين وشركاه، ١٩٩٧، ص ١٦٣، وتوماس ج. باترسون وديس ميريل، مشاكل كبرى فى العلاقات الخارجية الأمريكية، نيويورك، هوغتون ميفلين وشركاه، ١٩٩٩، ص ٣٦٧ - ٣٠٠.
- (٥) مك دوجال، ١٦٩.
- (٦) بروجين، دانييل. السلم المبعثر: 'أصول الحرب الباردة'، نيويورك: هوغتون ميفلين وشركاه، ١٩٧٧، ص ١٩٦ - ٢٠٠.
- (٧) مك دوجال، ص ١٦٨، وتوني سميث، 'مهمة أمريكا: الولايات المتحدة والنضال على النطاق العالمى من أجل الديمقراطية فى القرن العشرين'، برينستون: مطبعة جامعة برينستون، ١٩٩٤، ص ١٤٣.
- (٨) مك دوجال، ص ١٦٤، وجيمس ب. واربروج، المعتقد، الغرض، والقوة. التماس سياسة إيجابية. نيويورك: فارار، ستراوس وشركاه، ١٩٥٠.
- (٩) كويتنى، جوناثان. 'أعداء بلا نهاية: صناعة عالم غير وود'، نيويورك/ مطبعة سانت مارتين، ١٩٨٤، ص ٢٧٣.
- (١٠) المرجع السابق.
- (١١) ماينون، جيم. 'لا تخفيض فى قوات الولايات المتحدة فى آسيا حتى لو أعيد توحيد كوريا: كوهين. مطبعة وكالة فرنسا، ٦ إبريل، ١٩٩٧.
- (١٢) كويتنى، ص ٢٧٨ - ٢٨٣.
- (١٣) ليبيرت، ديرك. 'جرح الخمسين عاما: الثمن الحقيقى لانتصار أمريكا فى الحرب الباردة'. نيويورك: ليتل براون وشركاه، ٢٠٠٢، ص ٣٢٩.

- (١٤) المرجع السابق، ص ٣٢٨ - ٣٢٩.
- (١٥) المرجع السابق، ص ٣٣٠.
- (١٦) سبيرس، الآن، "الاندونيسيون بدؤوا رؤية مؤامرة وقد نضج وطنهم"، واشنطن بوست، ١٤ يناير، ٢٠٠٣، ص ١٤.
- (١٧) ليبيرت، ص ١٥٨.
- (١٨) كويتى، ص ١٥٨.
- (١٩) ليبيرت، ص ٢٠٤.
- (٢٠) المرجع السابق، ص ٤٠٨، هامش ٦٧.
- (٢١) المرجع السابق، ص ٤٨٤.
- (٢٢) فيسك، روبرت، "هل أجرى جيش صدام اختبار غاز سام على الخمسة آلاف مفقود؟"، إنديبندنت، ١٣ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص ١٥.
- (٢٣) فينانشيال تايمز، ٢٣ فبراير، ١٩٨٣، ذكر في مقال مارك بيثيان "تسليح العراق: كيف قامت الولايات المتحدة وبريطانيا سرا ببناء آلة حرب صدام". بوسطن: مطبعة جامعة نورث إيسترن، ١٩٩٧.
- (٢٤) نوبس، ميتشيل، "للولايات المتحدة دور أساسي في بناء العراق"، واشنطن بوست، ٣٠ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص ١، مقالة فينانشيال تايمز ٢٣ فبراير، ١٩٨٣، ذكر في مقال بيثيان (انظر الهامش السابق)، ويروس وز جنتلسون، "مع أصدقاء مثل هؤلاء: ريجان، بوش وصدام، ١٩٨٢ - ١٩٩٠ نيويورك: و. و. نورتون، ١٩٩٤، ص ٥٢.
- (٢٥) نوبس، ص ١١.
- (٢٦) ويندريم، روبرت، "رمسفيلد اللاعب الاساسى فى تحويل سياسة العراق"، أخبار إن بي سي، ١٨ أغسطس، ٢٠٠٢.
- (٢٧) ماكاي، نيل/ وفيليسيتى أربوثنوت، "كيف حصل العراق على أسلحة: نحن من باعها"، صنداي هيرالد، ٨ سبتمبر، ٢٠٠١، ص ١.
- (٢٨) أويرياك، ستورت، "٥٠ مليار دولار مبيعات الولايات المتحدة للعراق: منتجات تكنولوجيا تمت الموافقة عليها اليوم قبل الغزو"، واشنطن بوست، ١١ مارس، ١٩٩١، ص ١، وهنرى وينستين وويليام ك. رمبل، "أسلحة العراق: مساعدة كبرى من تكنولوجيا الولايات المتحدة تم بيعها بموافقة - وتشجيع - من الإدارة التجارية، ولكن فى الغالب إلى جانب اعتراضات مسئولى الدفاع"، لوس أنجلوس تايمز، ١٢ فبراير، ١٩٩١، ص ١.
- (٢٩) نوبس، ص ١١.
- (٣٠) جينتلسون.

(٣١) لجنة مجلس الشيوخ المعنية بالاستماع للعلاقات الخارجية، الكونجرس ١٠١، الدورة الأولى، ١ مارس، ١٩٨٩، ص ٢٧ - ٤٥.

(٣٢) اللجنة المعنية بعمليات الحكومة، مجلس النواب، "تقوية نظام تراخيص الصادرات"، ٢ يوليو ١٩٩١، الفقرة ١٠.

(٣٣) نويس، ص ١.

(٣٤) أوير باك.

(٣٥) "مجلس العلماء الأنثونيسي يطلب من الأنثونيسيين المسلمين الصلاة من أجل الشعب العراقي". إل كيه بي إن انتارا، ١١ فبراير ٢٠٠٣، ورئيس القضاة الإيراني يقول: الرجم بالأحجار لم يبطل استعماله بعد. مطبعة وكالة فرنسا، ٤ فبراير، ٢٠٠٣.

الفصل الثامن

- (١) هاربر، جنيفر. "متاعب لـ تيد تيرنر سى إن إن". ذى واشنطن تايمز، ٢١ يونيو، ٢٠٠٢.
- (٢) بيان صحفى: "الكنيسة الإنجليكانية اللوثرية فى اورشليم". الأسقف د. منيب أ. يونان. ١٦ إبريل، ٢٠٠٢.
- (٣) "نيران صديقة" لماذا تقسم فلسطين أوروبا وأمريكا". الإيكونوميست. ٢٠ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٩.
- (٤) بينيت، جيمس. "شارون يقول: إن أوروبا متحيزة لصالح الفلسطينيين"، نيويورك تايمز. ٢٠ يناير، ٢٠٠٣، ص ٦١.
- (٥) توما، أبو خالد وهيئة بريد اورشليم. "استفتاء: ٦٠٪ من الإسرائيليين يقولون: إنهم يقاتلون من أجل بقائهم أحياء". جيروسالم بوست، ٤ أكتوبر، ٢٠٠٢.
- (٦) بيفي، شاميللا، الانتفاضة تسدد ألما حادا للإسرائيليين". فينانشيال تايمز. ٢٤ أكتوبر، ٢٠٠٢، ص ٩.
- (٧) "مستوطنات الضفة الغربية تلتهم كل ما كان قبلها". الإيكونوميست، ٣١ أكتوبر، ٢٠٠٢.
- (٨) مور، مولى. "حول التحكم فى قمم التلال عن بعد، إسرائيل توسع المستوطنات". واشنطن بوست. ٨ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص ١٠.
- (٩) موريس، هارفى. "إسرائيل تواجه قنبلة زمنية ديموجرافية". فينانشيال تايمز. ١٤ يونيو، ٢٠٠٢، ص ٥.
- (١٠) هالبرن، أورلى. "تعليم فى تحدي". هارتز. ٤ أكتوبر، ٢٠٠٢.
- (١١) بشارة، مراون. "قوانين إسرائيل للانتقال سوف تحطم آمال السلام، الأبرتهايد فى الأراضي". إنترناشونال هيرالد تريبيون. ٢٢ مايو، ٢٠٠٢، ص ٦.
- (١٢) "مسألة انتهاك حقوق الإنسان فى الأراضي العربية المحتلة، بما فيها فلسطين"، لجنة الأمم المتحدة لحقوق الإنسان. مارس ٢٠٠١.
- (١٣) جورنبرج، جيرشوم. "الخط الأخضر الرفيع". موزر جونس. سبتمبر/ أكتوبر ٢٠٠٢، ص ٥٠.
- (١٤) كريستيسون، كاثلين. "القدرة على فهم فلسطين: تأثيرهم على سياسة الولايات المتحدة فى الشرق الأوسط. بيركلى: مطبعة كاليفورنيا، ١٩٩١، ص ٣٠٥، لقد كان هذا الكتاب عونا كبيرا لى فى كتابة هذا الفصل، وقدم تحليلًا رائعًا لسياسة الولايات المتحدة فى النزاع الإسرائيلى الفلسطينى.
- (١٥) كريستيسون، ص ٢٢.

(١٦) "الحقيقة من فلسطين". بقلم أحاد هام، مقتبسة من توم سيجين. "فلسطين واحدة كاملة: اليهود والعرب في ظل الانتداب البريطاني". نيويورك: هنري هولتا والشركة (كتاب أول) ص ١٠٤، ٢٥٧، وأفينييري شلومو. "صناعة صهيونية حديثة: الأصول الفكرية للدولة اليهودية". نيويورك: كتب أساسية. ١٩٨١، ص ١٢٢.

(١٧) كريستيسون، ص ٣١.

(١٨) حديث إلى مجلس شيوخ الولايات المتحدة، ١٠ يوليو ١٩٩٩.

(١٩) حددت تقديرات متعددة عدد اللاجئين الفلسطينيين عام ١٩٤٨ ما بين ٧٠٠,٠٠٠ و٧٠٠,٠٠٠ مليون، انظر الملحق ٤ من "تقرير التقدم العام والتقارير التكميلي للجنة الأمم المتحدة للتوثيق من أجل فلسطين، الذي يغطي المرحلة من ١١ ديسمبر ١٩٤٩ حتى ٢٣ أكتوبر ١٩٥٠". في ٢٣ أكتوبر، ١٩٥٠، والذي يقدر العدد بـ ٧٠٠,٠٠٠.

(<http://ldomino.an.org/unispal.nsf/>).

انظر أيضا أبو لغد، جانيت. "التحول الديموغرافي لفلسطين"، في أبو لغد، إبراهيم (محرر)، "التحول في فلسطين، إيفانستون، إيل: مطبعة جامعة نورث ويسترن، ١٩٧١ (ص ص ١٣١ - ١٦١)؛ حيث بلغ التقدير ٧٨٠,٠٠٠.

(٢٠) بير، روبرت، مع ريتشاردل، بيرك. "المجموعة المتعاطفة مع إسرائيل تمارس قوة هادئة وهي تحشد الداعمين في الكونجرس". نيويورك تايمز، ٧ يوليو، ١٩٨٧، ص ٨١.

(٢١) جولد ستين، أفرام. "الائتلاف المسيحي يحشد من أجل إسرائيل لاستعادة عطاء". واشنطن بوست، ١٢ أكتوبر، ٢٠٠٢، ص ب١.

(٢٢) فيندلي، بول. "تحرير أمريكا من إسرائيل". ميديا مونيتورز نتورك. ١١ سبتمبر، ٢٠٠٢.

(٢٣) ماسينج، ميتشل. "محطمو الاتفاقات". أمريكا بروسيكت. ١١ مارس، ٢٠٠٢.

(٢٤) فلاهوس، كيلي، بيوكار. "جماعة الضغط المتعاطفة مع إسرائيل قوة يحسب حسابها". فوكس نيوز كومباني. ٢٨ مايو، ٢٠٠٢.

(٢٥) إنجل، ماتيو. "التقى بالصهيانية الجدد". جارديان ٢٨ أكتوبر، ٢٠٠٢، ص ٢.

(٢٦) هارديول. إم إس إن بي سي، ١ مايو، ٢٠٠٢.

(٢٧) موريس، بني. "كامب ديفيد وما بعدها، لقاء مع أيهود باراك". نيويورك ريو أوف بوكس. ١٣ يونيو، ٢٠٠٢.

(٢٨) مالي، روبرت وحسين أنفا. "كامب ديفيد: تراجيديا الأخطاء". نيويورك ريو أوف بوكس. ٩ أغسطس، ٢٠٠١.

(٢٩) البيان المشترك الإسرائيلي - الفلسطيني. ٢٧ يناير، ٢٠٠١.

- (٢٠) التقرير النهائي للجنة تقصى الحقائق بشرم الشيخ (ميتشيل)، ٢٠ إبريل، ٢٠٠٢.
- (٢١) خدمة زين هار الصينى للمعلومات الاقتصادية، "يجب حل الخلل فى الميزان التجارى الصينى - الأمريكى من خلال التنمية"، ٢٣ ديسمبر، ٢٠٠٢.
- (٢٢) موفسون، ستيفن. ودانا ميلبانك. "تايوان تحصل على تنويع من الأسلحة، غير أن الولايات المتحدة تمتنع عن رادار الحماية الذى اعترضت عليه الصين بشدة. واشنطن بوست ٢٤ إبريل، ٢٠٠١، ص ١١.
- (٢٣) موفسون، ستيفن. "البيت الأبيض يقول: الرئيس يضمن أمن تايوان، السياسة لم تتغير"، واشنطن بوست، ٢٦ إبريل، ٢٠٠١، ص ١٠.
- (٢٤) هوايت، تيولور. "بحثًا عن التاريخ". نيويورك: هاربر رو، ١٩٧٨.
- (٢٥) توشمان، باربارا. "ستيل ويل والتجربة الأمريكية فى الصين". نيويورك، مطبعة جرو، ١٩٧١، ص ١٨٨.
- (٢٦) هوايت، ص ١٣٤.
- (٢٧) هوايت، ص ٢٠٨.

الفصل التاسع

- (١) فوكوياما، فرانسيس. "نهاية التاريخ والرجل الأخير". نيويورك: أفون، ١٩٩٣.
- (٢) فريدمان، توماس. "لكزس وأشجار الزيتون: فهم العملة". نيويورك: فارار، ستراوس وجيروكس، ٢٠٠٠، ٩٩٢.
- (٣) صفحة الحقيقة العالمية لأثر السكان. "لماذا السكان مسألة هامة للموارد الطبيعية".
www.populationaction.org/resources/factsheet-13.htm.
- (٤) ١٩٩٩ أرقام عن "علاقات الاتحاد الأوروبي بالولايات المتحدة الأمريكية" أوروبا.
www.europa.ell.int/comm/external_relations/us/intro/index.htm.
- (٥) مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة. "بماذا يفكر العالم في ٢٠٠٢".
<http://press.org/reports/files/report/165.pdf>.
- (٦) دالر، إيفوفيليب جورون. "الثقافة الأوروبية". واشنطن بوست، ٢٩ مايو ٢٠٠٢، ص ١، ١٧.
- (٧) كاجان، روبرت. "عن الفردوس والقوة". نيويورك: كتوبف، ٢٠٠٣، ص ٣.
- (٨) موسى، دومينيك. "الأزمة الحقيقية فوق الأطلنطي". فورين أفيرز، يوليو/ أغسطس، ٢٠٠١، ص ١٥٢.
- (٩) أوسوليفان، جوناثان. "لماذا يجب على الولايات المتحدة أن تكون حذرة من الاتحاد الأوروبي". ناشونال ريفيو، ٦ أغسطس، ٢٠٠١.
- (١٠) فوكوياما. "ربما يكسر الغرب أوروبا وأمريكا". إنترناشونال جيرالد تريبيون، ٩ أغسطس، ٢٠٠٢، ص ٤.
- (١١) مانديل، ميتشيل ج. "الغنى أصبح أكثر غنى، وهذا جيد". بيزنيس ويك، ٢٦ أغسطس، ٢٠٠٢، ص ٨٨.
- (١٢) "أوهام إحصائية". الإيكونوميست، ٨ نوفمبر، ٢٠٠١.
- (١٣) بارسيلان، روبرتو. "إجمالي الناتج المحلي ٢٠٠١". التركيز على الإحصائيات: الاقتصاد والموارد المالية، موضوع ٢ - ٢٠٠٢/٥٣، نوفمبر، ٢٠٠٢، رسم بياني ت ٥، والتقرير الاقتصادي للرئيس، فبراير ٢٠٠٣، ص ٦٠.
- (١٤) الميزان التجاري للاتحاد الأوروبي، ١٩٩٠ - ١٩٩٩ سجل متوسط عجز سنوي قدره ٢,٦٣ مليار دولار (بالسعر الجاري). انظر أيروستات نيويورك، ٢٠٠٢.

(١٥) دافنبورت - هينس، ريتشارد. "ملاحقة النسيان: تاريخ كوني للمواد المخدرة، نيويورك: و. و. نورتون، ٢٠٠٢، ص ٤٤٢.

(١٦) مركز أبحاث بيو للشعب والصحافة. لماذا يفكر العالم في ٢٠٠٢. ص ٥٣.

(١٧) مقتبسة بواسطة ريفكين، دافيد. "أوروبا في الميزان"، بوليسي ريفيو. ١ يونيو، ٢٠٠١، ص ٤١ - ٥٣.

(١٨) ريد، ت. ر. "قادة الاتحاد الأوروبي يجتمعون ليصمموا قوى عظمى كونية"، واشنطن بوست، ١٦ ديسمبر، ٢٠٠١، ص ٣٥.

(١٩) كا سي، لي أ. ودافيد ب. ريفكين. "الزعة المندرة بالخطر غير الديمقراطية للاتحاد الأوروبي". بوليسي ريفيو. ١ يونيو، ٢٠٠١، ص ٤١ - ٥٢.

(٢٠) المرجع السابق.

(٢١) بوركى، آل. "استفتاء مريب". شبكة أخبار نورديك. ١ يناير، ٢٠٠١.

(٢٢) سميث، دان. "ساعة أوروبا لبناء السلام". جورنال أوف إنترناشيونال أفيرز. ربيع ٢٠٠٢، ص ٤١.

(٢٣) حديث رئيس الوزراء توني بليير إلى البورصة البولندية، ٦ أكتوبر، ٢٠٠٠.

(٢٤) سسبولينو، إيلان. "الاتحاد الأوروبي يعمل للاعتراف بعشر أمم". نيويورك تايمز. ١٤ ديسمبر، ٢٠٠٢، ص ٧١.

(٢٥) سولانا، جافيير. "الصدع عبر الأطلنطي". هارفارد إنترناشيونال، ١ يناير، ٢٠٠٣، مجلد ٢٤، رقم ٤، ص ٦٢.

(٢٦) ريتشبيورج، كيث. "أوروبا، الولايات المتحدة يختلفان حول مداخل سياسات أساسية، واشنطن بوست. ٤ مارس، ٢٠٠٢، ص ١٣.

(٢٧) والاس، ويليام. "أوروبا الشريك الضروري". فورين أفيرز، مايو/ يونيو، ٢٠٠١، المجلد ٨٠، رقم ٣، ص ١٦ - ٢٤.

(٢٨) مقتبسة في وارو، جيوفري. "يجب على استراتيجيات الولايات المتحدة الترحيب بالجيش الأوروبي". لوس أنجلوس تايمز. ٢١ ديسمبر، ٢٠٠٠، ص ٥.

(٢٩) المرجع السابق.

(٣٠) برززينسكي، زيجنيو. "الحياة مع أوروبا جديدة". ناشونال إنترست، صيف ٢٠٠٠، ص ١٨.

(٣١) أوسوليفان، جوناثان. "لغة القومية - الأوروبية". ناشونال ريفيو. ٦ أغسطس، ٢٠٠١، ص ٣٣ - ٣٦.

(٣٢) المرجع السابق.

(٣٣) كاجان، روبرت. "القوة والضعف". بوليسي ري، يونيو/ يوليو، ٢٠٠٢، رقم ١١٣.

(٣٤) إدارة الدفاع، عملية عمليات المعلومات والتقارير. "مانة الشركة" دفعة التي تحتل قمة مشتريات إدارة

www.dior.whs.mil/peidhome/procstat/procstat.htm.

(٣٥) لاثام، أندرو. "الصين في التصور الجيولوليتكى الأمريكى المعاصر". آسيان أفيرز، خريف ٢٠٠١، المجلد ٢٨، رقم ٣، ص ١٤٠.

(٣٦) "الإطار المتفق عليه بين الولايات المتحدة الأمريكية وجمهورية كوريا الديمقراطية الشعبية". جينيف، سويسرا، ٢١ أكتوبر ١٩٩٤، الفقرة الشرطية ١-٣.

(٣٧) المرجع السابق، الفقرة الشرطية، ٢.

(٣٨) المرجع السابق، الفقرة الشرطية ٢-١.

(٣٩) جونسون، شالميرز. "نظام عام ١٩٥٥ والارتباط الأمريكى. مقدمة بيلوجرافية". معهد أبحاث سياسة اليابان، ورقة عمل رقم ١١، يوليو ١٩٩٥.

(٤٠) سكالر، ميتشيل. "مجرم الحرب المفضل لدى أمريكا: كيشى نوبوسوك: وتحول العلاقات الأمريكية اليابانية". معهد أبحاث سياسة اليابان، ورقة عمل رقم ١١، يوليو ١٩٩٦.

(٤١) ناكاو، أنى. "معركة من أجل التاريخ". سان فرنسيسكو كرونكل. ٢٨ إبريل، ٢٠٠٢، ص ١.

(٤٢) بيلينج، دافيد. "اليابان تطالب بقوات من الولايات المتحدة أقل في أوكتيناوا". غينانشيال تايمز، ٢ فبراير، ٢٠٠٣.

(٤٣) إدارة التجارة الدولية، أعضاء على التجارة الخارجية للولايات المتحدة. "أعلى عجز مع ٥٠ بلدا في تجارة الولايات المتحدة لعام ٢٠٠١".

www.ita.doc.gov/td/industry/otea/usfth,aggregate HOIT13.html.

(٤٤) ما الذى ينفقه المتعاطون الأمريكيون على المخدرات غير الشرعية". المكتب التنفيذى للرئيس، مكتب سياسة التحكم الوطنى فى المخدرات، ١ ديسمبر، ٢٠٠١، ص ٣، جدول ١.

(٤٥) دافنبورت - هينس، ريتشارد. "ملاحقة النسيان: تاريخ كونى للمواد المخدرة". نيويورك: و. و. نورتن، ٢٠٠٢، ص ١٥.

(٤٦) المرجع السابق، ص ٤٢٨.

الفصل العاشر

- (١) إكيبيري، جون ج. "الطموح الأمريكي الإمبراطوري". فورين أفيرز، سبتمبر/ أكتوبر ٢٠٠٢، ص ٤٨.
 - (٢) سكوارتز، بنجامين وكريستوفر لاين، "استراتيجية جديدة كبرى"، ذي أتلانتيك مونثلي، يناير ٢٠٠٢، المجلد ٢٨٩، رقم ١، ص ٣٦ - ٤٢.
 - (٣) أش، تيموثي جارتون، "خطر الكثير للغاية من القوة"، نيويورك تايمز، ٩ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٣٤.
 - (٤) استراتيجية الولايات المتحدة الأمريكية للأمن القومي، سبتمبر ٢٠٠٢، ص ١٥.
 - (٥) المرجع السابق، المقدمة.
 - (٦) بوش، جورج دبليو، "تأمين انتصار الحرية"، نيويورك تايمز، ١١ سبتمبر، ٢٠٠٢، ص ١، ٢٣.
 - (٧) بوت، ماكس، "قضية من أجل الإمبراطورية الأمريكية"، ويكلي ستاندارد، ١٥ أكتوبر، ٢٠٠١، ص ٢٧.
 - (٨) المرجع السابق، ص ٢٨ - ٢٩.
 - (٩) مالابي، سيباستيان، "الإمبريالية المعارضة: الإرهاب، النول الفاشلة، وقضية من أجل الإمبراطورية الأمريكية"، فورين أفيرز، مارس/ إبريل، ٢٠٠٢، ص ٢ - ٢.
 - (١٠) كاجان، روبرت، "سياسات المحارب: لماذا تقتضى القيادة نفسية وثنية"، نيويورك راندوم هاوس، ٢٠٠٢، ص ١٥٢ - ١٥٣.
 - (١١) "عندما تثار الإمبراطوريات"، فينانشياي تايمز، ٨ ديسمبر، ٢٠٠١.
 - (١٢) المناقشة الثانية للرئيس، جامعة ويك فورست، ١١ أكتوبر، ٢٠٠٠.
 - (١٣) الإصابة بضعف المناعة ينخفض جنوب الصحراء الإفريقية، ويرتفع على اتساع العالم.
- www.cnn.com/2000/health/aids.11/28/hiv.africa.
- (١٤) كابلان، روبرت، "الفوضى القادمة"، أتلانتيك مونثلي، فبراير ١٩٩٤، ص ٤٨.
 - (١٥) المرجع السابق، ص ٦٨.
 - (١٦) كابلان، ص ٦٠.

- (١٧) تورنوف، كيرت ولارى نويلز. "المعونة الأجنبية: ملخص تمهيدى لبرامج وسياسة الولايات المتحدة". تقرير المؤسسة (سى آر إس) إلى الكونجرس، مؤرخ ٦ إبريل، ٢٠٠١.
- (١٨) خطاب إلى الجمعية العامة لكنيسة أسكتلدا. ٢ أغسطس، ١٦٥٠.

مراجع يوصى بقراءتها

- Acheson, Dean. *Present at The Creation: years in the State Department*. New York: W.W.Norton, 1987.
- Alagappa, Muthaiah (ed.). *Asian Security Order: Instrumental and Normative Features*. Stanford, CA: Stanford University Press, 2003.
- Avineri, Shlomo. *The Making of Modern Zionism: Intellectual Origins of the Jewish State*. New York: Basic Books, 1981.
- Bacevich, Andrew. *American Empire: The Realities and Consequences of us Diplomacy*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 2002.
- Bandow, Doug. *Tripwire: Korea and US. Foreign Policy in a Changed World*. Washington, D.C.: Cato Institute, 1996.
- Barber, Benjamin R. *Jihad vs. McWorld: How Globalism and Tribalism are Reshaping the World*. New York: Ballantine Books, 1996.
- Blix, Herbert. *Hirohito and the Making of Modern Japan*. New York: Perennial, 2001.
- Boniface, Pascal (ed.) *Les lecons du 11 septembre*. Paris: IRIS-PUF, 2001.
- Boot, Max. *The Savage wars of Peace*. New York: Basic Books, 2002.
- Brackman, Arnold C. *The Other Nuremberg. The Untold Story of the Tokyo War Crimes*. Trials Tokyo: John Hawkins & Associates, Inc., 1987.
- Carson, Rachel. *Silent Spring*. Boston: Mariner Books, 2002 (first published in 1962).
- Chesterton, G.K. *What I Saw in America*. New York: Dodd, Mead & Co. 1992
- Christianson, Gale E. *Greenhouse: The 200-year Story of Global Warming*. New York: Penguin Books, 2000. Originally printed by Walker Publishing Company, 1999.
- Christlson, Kathleen. *Perceptions of Palestine: Their Influence on Us. Middle East Policy*. Berkeley, CA: University of California Press, 1999.
- Clawson, Patrick L. and Rensselaer W. Lee III. *The Andean Cocaine Industry*. New York: St. Martin's Griffin, 1996.
- Colombani, Jean-Marie. *Tous Americains? Le monde apres le 11 septembre 2001*. Paris: Fayard, 2002.
- Dasque, Guillaume and Jean Guisnel. *L'effroyable mensonge- These et foutaises sur les attentats du 11 septembre*. Paris: La Decouverte, 2002.
- Davenport-Hines, Richard. *The Pursuit of Oblivion: A Global History of Narcotics*. New York: W.W. Norton, 2002.
- De Toqueville, Alexis. *Democracy in America*. New York: Vintage Books, 1990.
- De Villiers, Marq. Water: *The Fate of Our Most Precious Resource*. New York: Houghton Mifflin, 2000. First published in Canada in 1999 by Stoddart Publishing Co. Limited.
- Dickens, Charles. *American Notes For General Circulation*. New York: Penguin USA, 2001 (Rdssue).
- Dinan, Desmond. *Ever Closer Union-An Introduction to the European Community*. Boulder, co: Lynne Rienner Publishers, 1999.

- Eisendrath, Craig, Melvin A. Goodman, and Gerald E. Marsh. *The Phantom Defense: America's Pursuit of the Star Wars Illusion*. Westport, CT: Praeger Publishers, 2001.
- Friedman, Thomas L. *Longitudes and Attitudes: Exploring the World After September 11*. New York: Farrar, Straus, & Giroux, 2002.
- Friedman, Thomas L. *The Lexus and the Olive Tree: Understanding Globalization*. New York: Anchor Books, 2000.
- Fritsch-Bournazel, Renata. *L'Allemagne depuis 1945*. Paris: Hachette, 2002.
- Fukuyama, Francis. *The End of History and the Last Man*. New York: Avon Books, 1993.
- Gelbspan, Ross. *The Heat Is On: The Climate Crisis, the Cover-up, the Prescription*. Boston: Perseus Publishing, 1998.
- Gingrich, Newt. *To Renew America*. New York: Harper, 1996.
- Gore, Al. *Earth in the Balance: Ecology and the Human Spirit*. New York: Plume, 1993.
- Graham, Bradley. *Hit to Kill: The New Battle Over Shielding America from Missile Attack*. New York: Public Affairs, 2001.
- Haass, Richard. *The Reluctant Sheriff: The United States After the Cold War*. New York: Council on Foreign Relations, 1998.
- Harding, Harry. *A Fragile Relationship: The United States and China since 1972*. Washington D.C.: The Brookings Institute, 1992.
- Harrison, Selig S. *Korean Endgame: A Strategy for Reunification and US Disengagement*. Princeton, NJ: Princeton University Press, 2002.
- Harrison, Selig S. and Prestowitz, Clyde. *Asia After the Miracle*. Washington, D.C.: The Economic Strategy Institute, 1999.
- Howell, Thomas, William A. Noellert, Jesse G. Kreier, and Alan W. Wolff. *Steel and the State: Government Intervention and Steel's Structural Crisis*. Boulder, CO: Westview Press, 1988.
- Huntington, Samuel P. *The Clash of Civilizations and the Remaking of the World Order*. New York: Simon and Schuster, 1996.
- Hutton, Will. *The World we're In*. London: Little, Brown, 2002.
- Jentleson, Bruce W. *With Friends Like These: Reagan, Bush, and Saddam, 1982-1990*. New York: W.W. Norton, 1994.
- Johnson, Chalmers. *Blowback: The Costs and Consequences Of American Empire*. New York: Metropolitan Books, 2000.
- Kagan, Robert. *Of Paradise and Power: America and Europe in the New World Order*. New York: Knopf, 2003.
- Kagan, Robert. *Warrior Politics: Why Leadership Demands a Pagan Ethos*. New York: Random House, 2002.
- Kellogg, William and Margaret Mead. *The Atmosphere: Endangered and Endangering*. Castle House Publications, 1977.
- Kissinger, Henry. *Does America Need a Foreign Policy? Toward a Diplomacy for the 21st Century*. New York: Simon & Schuster, 2001.
- Kojima, Noboru. *Tokyo Saiban Vol. 1 and Vol 2* [Tokyo war crimes trial]. Tokyo: Chuko shinsho, 1971.
- Kupchan, Charles A. *The End of the American Era*. New York: Knopf 2002.

- Kwitny, Jonathan. *Endless Enemies: The Making of an Unfriendly World*. New York: St. Martin's Press, 1984.
- Lampton, David M. *Same Bed, Different Dreams: Managing U.S.-China Relations 1989-2000*. Berkeley and Los Angeles, CA: University of California Press, 2001.
- Laqueur, Walter and Barry Rubin. *The Israel-Arab Reader*. New York: Penguin Books, 1976.
- Laurence, Ed. *Small Arms Survey 2002*. Oxford, England: Oxford University Press, September 2002.
- Leebaert, Derek. *The Fifty-year Wound: The True Price of America's Cold War Victory*. Boston, Mass.: Little, Brown and Co., 2002.
- Lewis, Bernard. *The Middle East: A Brief History of the last 2000 years*. New York: Scribners, 1996.
- Lipset, Seymour Martin. *American Exceptionalism: A Double-Edged Sword*. New York: W. W. Norton, 1996.
- Lomborg, Bjorn. *The Skeptical Environmentalist: Measuring the Real State of the World*. Cambridge: Cambridge University Press, 2001.
- Marsh, George Perkins. *Man and Nature*. Cambridge, MA: Harvard University Press, 1973.
- McDougall, Walter. *Promised Land, Crusader State: The American Encounter with the World Since 1776*. New York: Houghton Mifflin, 1997.
- Mead, Walter Russell. *Special Providence: American Foreign Policy and How it Changed the World*. New York: Knopf, 2001.
- Meyssan, Thierry. *11 Septembre 2001-L'effroyable imposture*. Paris: Carnot, 2002.
- Mikuni, Akio and R. Taggart Murphy. *The Japan Policy Trap*. Washington, D.C.: The Brookings Institute, 2002.
- Minear, Richard H. *Victors' Justice: The Tokyo War Crimes Trial*. Princeton: Princeton University Press, 1971.
- Morita, Akio and Shintaro Ishihara. *The Japan That Can Say "No"*. Jefferson Educational Foundation, Washington, D.C., 1990.
- Murakami, Hiromi, Steven Clemons and Clyde Prestowitz, eds. *Japan and the United States Reconsidered: Evolution of Security and Economic Choices since 1960*. Washington, D.C.: Economic Strategy Institute, 2002.
- Niebuhr, Reinhold. *Moral Man and Immoral Society: A Study of Ethics and Politics*. New York: Scribners, 1932.
- Nuttall, Simon. *European Political Cooperation*. Oxford: Clarendon Press, 1992.
- Nye, Joseph S. Jr. *Bound to Lead: The Changing Nature of American Power*. New York: Basic Books, 1991.
- Nye, Joseph S. Jr. *The Paradox of American Power*. Oxford: Oxford University Press, 2002.
- Oberthur, Sebastian and Hermann E. Ott. *The Kyoto Protocol: International Climate Policy for the 21st Century*. Berlin: Springer, 1999.
- Ohmae, Kenichi. *The Borderless World: Power and Strategy in the Interlinked Economy*. New York: Harper Business, 1999.

- Ohnuma, Yasuaki. *Tokyo saiban kara Sengo Sekinin no shisou he* [From Tokyo Trial to War responsibility]. Tokyo: Yushindo, 1985.
- Oren, Michael B. *Six Days of war and the Making of the Modern Middle East*. New York: Oxford University Press, 2002.
- Ozawa, Ichiro. *Blueprint for a New Japan*. Tokyo: Kodansha International Ltd, 1994.
- Patterson, Thomas G. and Dennis Merrill. *Major Problems in American Foreign Relations*. New York: Houghton Mifflin, 1999.
- Pells, Richard. *Not Like Us: How Europeans Have Loved, Hated, and Transformed American Culture Since World war II*. New York: Basic Books, 1997.
- Phythian, Mark. *Arming Iraq: How The US. and Britain Secretly Built Saddam's war Machine*. Boston: Northeastern University Press, 1994.
- Pyle, Kenneth B. *The Japanese Question: Power and Purpose in a New Era*. Washington D.C.: The American Enterprise Institute Press, 1992.
- Revel, Jean-Francois. *L'obsession anti-americaine: Son fonctionnement, ses causes, ses incon sequences*. Paris: Plon, 2001.
- Roger, Philippe. *L'ennemi americain: Genealogie de l'anti-americanisme franrais*. Paris: Seuil, 2002.
- Schaller, Michael. *The American Occupation of Japan: The Origins of the Cold war in Asia*. Oxford: Oxford University Press, 1985.
- Schonberger, Howard B. *Aftermath of War: Americans and the Remaking of Japan, 1945-1952*. Kent: The Kent State University Press, 1989.
- Schultz, Lars. *Beneath the United States: A History of u.s. Policy Toward Latin America*. Cambridge, Mass.: Harvard University Press, 2001.
- Segev, Tom. *One Palestine, Complete: Jews and Arabs Under the British Mandate*. New York: Henry Holt (An Owl Book), 1999.
- Servan-Schreiber, Jean-Jacques. *Le Defi Americain*. Paris, Denoel, 1967.
- Shipler, David K. *Arab and Jew: 'Wounded Spirits in a Promised Land*. New York: Pen guin, 1986.
- Sigal, Leon V. *Disarming Strangers: Nuclear Diplomacy with North Korea*. Princeton: Princeton University Press, 1998.
- Smith, Tony. *America's Mission: The United States and the Worldwide Struggle for Democracy in the Twentieth Century*. Princeton: Princeton University Press, 1994.
- Stiglitz, Joseph. *Globalization and Its Discontents*. New York: W. W. Norton, 2002.
- Suzuki, David and Holly Dressel. *Good News For A Change: Hope For a Troubled Planet*. Toronto: Stoddart Publishing Co., 2002.
- Thoreau, Henry David. *The Main Woods*. New York: Penguin USA, 1988.
- Todd, Emmanuel. *Apres L'empire-Essai sur la decomposition du systeme americain*. Paris: Gallimard, 2002.
- The World Bank. *The East Asian Miracle: Economic Growth and Public Policy*. Oxford: Oxford University Press, 1993.
- Tuchman, Barbara W. *Stilwell and the American Experience in China, 1911-45*. New York: Grove Press, 2001.

- Turner, Frederick Jackson. *The Frontier in American History*. New York: Henry Holt, 1921.
- Victor, David G. *The Collapse of the Kyoto Protocol and the Struggle to Slow Global Warming*. Princeton: Princeton University Press, 2001.
- Vogel, Ezra. (ed.). *Living with China: U.S.-China Relations in the Twenty-First Century*. New York: W. W. Norton, 1997.
- Warburg, James P. *Faith, Purpose and Power: A Plea for a Positive Policy*. New York: Farrar, Straus, & Giroux, 1950.
- White, Theodore. *In Search of History*. New York: Harper Row, 1973.
- Woodard, Colin. *Ocean's End: Travels Through Endangered Seas*. New York: Basic Books, 2000.
- Yergin, Daniel. *The Prize: The Epic Quest for Oil, Money & Power*. New York: Simon & Schuster, 1991.
- Yergin, Daniel. *Shattered Peace: The Origins of the Cold war*. New York: Houghton Mifflin, 1977.
- Zimmermann, Warren. *First Great Triumph*. New York: Farrar, Straus, & Giroux, 2002.

شكر

لم يكن فى وسعى أن أكتب هذا الكتاب دون معاونة المثات من الناس الذين قابلونى برحابة صدر وشاركونى بنفاذ بصيرتهم وأرائهم، القائمة طويلة للغاية إن ذكرت كل شخص هنا، غير أننى أود أن أشكر كل من شاركوا بوقتهم وأفكارهم فى لقاءات ومناقشات.

إن عددا غير قليل قد عمل طويلا، وبلا كلل، فى البحث والمعاونة فى تنظيم المخطوطة، إننى مدين بصورة عميقة، بشكل خاص، لـ أولريكا "ريكى" سوانسون، التى أشرفت على كل الجهد البحثى والجيش الداخلى وتنسيقهما، كذلك أود أن أشكر فرانك جورنود، الذى أدار الكثير من البحث المرتبط بأوروبا، وهيرومى مورا كامى الذى أدار الكثير من البحث المرتبط بآسيا، وسام مك كوى، الذى أنفق العديد من الساعات حول الشرق الأوسط، جنبا إلى جنب مع راشيل سترين، وقد قدمت جلاديس سكوت وسونجاي هاريسون دعما إداريا أساسيا، وكان لدى لورى هارمون معلومات الاتصال الصحيحة، فى الوقت الصحيح، وهناك شكر خاص واجب الأداء أيضا لـ مونيك ملكة "بريدج واتر"، التى حافظت على المكتب نشطا للغاية فى مواجهة الطلبات غير العادية، كما يجب أن أعبر عن افتتاني لسجنائى الذين لا يعرفون التعب فى "كهف القرصان" (بيرات كوف): بن باردن، سكوت، فريدمان، تريشاجالوين، ساشيكوجاوس، ريتشارد خو، بورى كيم، باكور كفاشيلافا، جوشوا لاجوس، جيمس مورو، ميليس أوزدوجان، هيو أون بارك، تيجال باتل، إريك راهن، كارتيك راما شاندران، ريان سينجر، كيفين سو، كاكي تسي، جيمس تيودور، وستيافى وولفينبارجر.

كان السفير شاس فريمان، المتخصص فى المشروعات الدولية - عونا هائلا لى فى تنظيم لقاءات فى الصين والشرق الأوسط، وكان لفترة طويلة ناصحا موضع التقدير والاحترام، صديقا، ومرشدا، كما كان البرفيسور شاليرز جونسون ناصحا، مخلصا وصديقا، وأنا مدين له بدين ثقافى كبير، وقد أمدنى دافيد يونج وأرنى ناشمانوف، من أوكسفورد أناليتيكا، برؤى نقيه بعيدة النظر، ومساعدات للقاء شخصيات هامة، وقد قرأ الاثنان أجزاء من المخطوطة ونقداها، وقد قرأ زميلى القيم وصديقى بوب بركينز المخطوطة كلها، وقدم اقتراحات ثمينة كما فعل كذلك، بات مالوى من "المجلس الصينى للولايات المتحدة"، وكان جان أبى - نادر من "المعهد العربى الأمريكى" - عونا هائلا فى تنظيم اجتماعات لى فى الأردن والصفة الغربية، كما أننى ممتن أيضا لمساعدة روى بيليد ودافيد ليفى، واللذان ساعدانى فى تحقيق صلات أساسية فى أورشليم وتل أبيب. وكان ستيفن كوهين من "مركز الشرق الأوسط للسلام" عونا كبيرا ببصيرته داخل إسرائيل والنزاع الإسرائيلى الفلسطينى، وكان كاتب العمود فى النيويورك تايمز، توم فريدمان مرشدا هاما إلى الشرق الأوسط، وكذا بالمثل إلى العولة، وإننى مدين بعمق لـ سليج هاريسون، لمساعدته فى تنظيم اجتماعات فى كوريا، ولتقديمه معلومات ثمينة عن خلفية الوضع الكورى، كما أود أيضا أن أشكر البروفيسور مون شونج - إن من "جامعة يونسى"، وكيك شين - هيون لما قدماه من عون فى كوريا. إن بول ألاير المدير التنفيذى السابق لـ "زيوركس"، وميك فارين نائب رئيس زيوركس، أصدقاء منذ أمد بعيد، وقد عاونانى معاونة كبيرة فى اقتراح اجتماعات، مع مفكرين أوريبيين قادة وصانعى سياسات، وعقدها معهم، كما أننى أود أن أشكر إيتين "ستيفى" دافينون من "الجمعية العامة البلجيكية" لما قدمه من مساعدة فى هذا الخصوص، وقد وفر سفير الاتحاد الأوروبى فى واشنطن جونتير بورغادت رؤى هامة بعيدة النظر، وأرشدنى إلى أخرى ذات وجهات نظر هامة بالمثل، وكان السفيران جوان جوس بريمر من المكسيك، وداتو، غزالى شيخ عبد الخالد من ماليزيا، معاونين بكثافة فى توفير رؤى بعيدة النظر عن بلديهما، وفى تنظيم اجتماعات أيضا

مع مفكرين، وقادة أعمال، وصانعي سياسة أساسيين، وقد نظم لى بعطف وكرم السفير السويسرى فى الأمم المتحدة جينو ستا يهيلين عشاء مع زملائه من الأمم المتحدة، وقد ساعدنى الرئيس "جروبو كورازا جوليو ميلان" فى العثور على شخصية أساسية فى المكسيك والالتقاء بها، كما أمدنى بالمثل بدعم لوجيستى، وأود أيضا أن أشكر داتو، مجمد جوهر بن حسان من "مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية" فى ماليزيا لرؤاه بعيدة النظر، ولتقديمه مفكرين آخرين، وفى أندونيسيا لم ينظم صديقى القديم جوسوف واناندى من "مركز الدراسات الاستراتيجية الدولية" جدول أعمالى فقط، لكنه استضاف أيضا حلقة دراسية أثناء عشاء مع غالبية قادة الفكر الأندونيسى، وقادة سياسيين أساسيين، كما أننى ممتن أيضا لـ خالد الشقاقى من "معهد بروكينجز" لمساعدته فى فلسطين، وإلى الوزير المستشار جان فرانسوا بويتين من السفارة الفرنسية فى واشنطن، لنصيحته ومساعدته فيما له من علاقات بأوروبا، وقد تفضل جيم فوستر نائب رئيس "البعثة التبشيرية" إلى البعثة التبشيرية الأمريكية، بالاتحاد الأوروبى، بالاستضافة على عشاء فى بروكسل، كما قدم المساعدة من خلال العديد من سبل العون، وكان بروس ستوكس من "مجلس العلاقات الخارجية" معاوننا للغاية بالنصح فيما يتعلق بالرأى العام فى الخارج، وقد قدم إيرا شابيرو نصيحته المعتادة وقرأ أجزاء أساسية من المخطوطة، وقد عمل بوب ليس من "نقطة الاتجاه" وستيف أولسون من "المجلس الاقتصادى لحوض الباسفيكى" بلا كلل، ليقترحا أناسا حتى أراهم فى آسيا، وقدما اقتراحات ثمينة للموضوعات محل النظر، وكان سفير سنغافورة فى واشنطن هيونج شى شان معينا للغاية كمرشد للتفكير الآسيوى، وكذلك بالمثل فى تنظيم اجتماعات فى جنوب شرق آسيا، كما أننى ممتن أيضا لـ جاكين ويليز، رئيس "بعثة هونج كونج التبشيرية" إلى واشنطن، وكريس جاكسون من "بعثة هونج كونج التبشيرية" فى بروكسل لرؤيتهما بعيدة النظر ولمساعدتهما، وكانت البرفيسور يوان مينج وزميلتها فان شيمينج من جامعة بكين - الصين - عوننا ثمينا لى

فى تنظيم لقاءات وتقديم رؤى بعيدة النظر حول التطورات فى الصين - وكان صديقى القديم فان جانج من "المعهد الوطنى للبحث الاقتصادى" - معاوننا كالعهد به، وكان المستشار يوزباو يونج من السفارة الصينية بواشنطن - معاوننا للغاية فى دعم جهودى فى الصين، وكان صديقى القديم ومرشدى إلى اليابان، كومورى يوشيهيا، المحرر الحر لجريدة "سانكى"، وزميله ياماموتو هيديا معاونين للغاية فى اقتراح أناس؛ كى أراهم فى اليابان والصين، وكذلك قدم لى نام - كى رئيس الـ "إف تى سى الكورية"، وزميله شين هو - هيون، مساعدة قصوى، وكذلك كان وينكى سو من مكتب "بعثة هونج كونج الاقتصادية والتجارية فى واشنطن"، وأنا ممتن لـ جويرج وولف من "مؤسسة كونراد أديناور فى بكين" لدعمه بالاجتماعات والعشاء والمعاونة، كما أننى أود أن أشكر السيد والسيدة دين هو لتقديمهما عشاء ضيافة وترتيبات فى شنغهاى، كما أننى ممتن بالمثل لـ لوزهو نجوى رئيس "معهد الصين للعلاقات الدولية" الذى استضافنى على عشاء مع عدد من الباحثين والكتاب حول علاقات الولايات المتحدة والصين، وأود أن أشكر كين هسو، من "شركة فوردموتور فى الصين"، الذى لم يقدم لنا العشاء فقط، لكنه قدم لنا أيضا العديد من الرؤى الثمينة بعيدة النظر، يضاف إلى ذلك أيضا صديقى، منذ أمد طويل، ميرلى هينريكس المدير التنفيذى لـ "جلوبال سبورسس" الذى كان معاوننا كالعهد به فى هونج كونج، وأود أن أشكر أوهتاماساهيدى، عضو "المجلس التشريعى اليابانى" وعضو "لجنة الشؤون الخارجية والدفاع" لاقتراحاته وضيافته على عشاء عاون كثيرا فى طوكيو، وأخيرا أود أن أشكر جون لاركين رئيس مكتب "مراجعة الشرق الأقصى الاقتصادية"، سيول، وقد قدم بيل كريست من "مركز وود رويلسون"، معاونة ثمينة حول موضوعات بيئية.

وقد سعدت بمحرر عظيم هو بيل فروشت، إنه مبدع، ومثابر، متعاطف، وقد غدا صديقا طيبا، كما يجب أن أشكر ناصحى المخلص فى الكتابة فويب هوس، الذى تعلمت منه الكثير.

وقد منحني كل هؤلاء وقتهم ووجهات نظرهم ومعلوماتهم بكرم، غير أن مسئولية هذا الكتاب، وما جاء فيه من بيانات هي مسئوليتي كلية.

وأخيرا، وليس على الأقل إطلاقا، فإنني يجب أن أشكر مصدر وحيي، وناصحتي، وناقدي ومحررتي وباحثتي، وصانعة الشاي لي - رفيقتي الدائمة، أفضل أصدقائي، وزوجتي كارول أند بريستوويتز.

قائمة بالاختصارات الواردة فى الكتاب

| | |
|-------|--|
| ABM | الاتفاقية المضادة للصواريخ الباليستية |
| ACCF | المجلس الأمريكى لتكوين رأس المال |
| AIPAC | لجنة الشؤون العامة الأمريكية الإسرائيلية |
| APEC | التعاون الاقتصادى لآسيا والمحيط الهادى |
| ARPA | وكالة مشروعات البحث المتقدم |
| BWC | اتفاقية الأسلحة البيولوجية والسامة |
| CEOs | المسؤولون التنفيذيون (مديرون) |
| CENTO | منظمة المعاهدة المركزية |
| CFCs | مجموعة كلورو فلورو الكربون |
| CFSP | سياسة خارجية وأمنية عامة |
| CIA | وكالة المخابرات المركزية |
| COP 1 | المؤتمر الأول للأطراف |
| CSIS | مركز الدراسات الاستراتيجية والدولية |
| CTBT | معاهدة الحظر الشامل للتجارب النووية |
| CWC | اتفاقية الأسلحة الكيميائية |
| DMZ | المنطقة منزوعة السلاح |
| EIA | وكالة معلومات الطاقة |
| EPA | وكالة حماية البيئة |
| EU | الاتحاد الأوروبى |

| | |
|-------|---|
| FDI | الاستثمار الأجنبي المباشر |
| GAO | مكتب المحاسبة العامة |
| GATT | الاتفاقية العامة للتعريفات والتجارة |
| GDP | إجمالي الناتج المحلي |
| GE | جنرال اليكتريك |
| HFCs | مجموعة هيدرو فلورو الكربون |
| IAEA | الوكالة الدولية للطاقة النووية |
| ICBL | الحملة الدولية لحظر الألغام الأرضية |
| ICBMs | صاروخ باليستي عابر للقارات |
| ICC | المحكمة الجنائية الدولية |
| IEA | وكالة الطاقة الدولية |
| IMF | صندوق النقد الدولي |
| INC | لجنة التفاوض فيما بين الحكومات |
| IPCC | هيئة ما بين الحكومات المعنية بتغير المناخ |
| IPO | الإصدار الأصلي العام |
| JCET | قانون التدريب المشترك الموحد المتبادل |
| LPD | الحزب الليبرالي الديمقراطي (اليابان) |
| LTCM | إدارة رأس المال طويل المدى |
| MAD | التدمير المؤكد المتبادل |
| MITI | وزارة التجارة الدولية والصناعة (اليابان) |
| mpg | ميل لجالون الواحد |
| NAFTA | اتفاقية أمريكا الشمالية للتجارة الحرة |
| NASA | وكالة ناسا الأمريكية |
| NATO | اتفاقية منظمة شمال الأطلسي (الناتو) |
| NGOs | المنظمات غير الحكومية |

| | |
|-------|--------------------------------------|
| NMD | الدفاع الصاروخي الوطني |
| NPT | معاهدة حظر الانتشار |
| NSS | استراتيجية الأمن القومي |
| OECD | منظمة التعاون الاقتصادي والتنمية |
| OPEC | منظمة البلدان المصدرة للبترول (أوبك) |
| PA | السلطة الفلسطينية |
| PLO | منظمة التحرير الفلسطينية |
| ppm | جزء لكل مليون |
| SDI | مبادرة الدفاع الاستراتيجي |
| SEATO | منظمة معاهدة جنوب شرق آسيا |
| SOF | قوات العمليات الخاصة |
| SOFA | اتفاقية وضع القوات |
| SUV | سيارات الدفع الرباعي |
| TPAA | قانون هيئة تعزيز السياحة |
| UN | الأمم المتحدة |
| US | الولايات المتحدة |
| WMD | أسلحة الدمار الشامل |
| WTO | منظمة التجارة العالمية |

المؤلف فى سطور :

كلايد بريستويتز

ينتمى المؤلف إلى الطبقة الوسطى الأمريكية، وهو محافظ جمهورى، يقول عن نفسه: إنه ليس اشتراكيا فرنسيا ولا من شباب الستينيات الأمريكى المتمسك بعناد بالمبادئ وعدم التوطن، صلب لا ينتنى، مفرط فى الوطنية، من عائلة مسيحية ولدت من جديد، التحق بكلية سوارثمور حيث أسس نادى الكلية المحافظ فى مواجهة لليبرالية السائدة، درس فى اليابان كى يصبح دبلوماسيا، تطوع للخدمة فى فيتنام، واستمر داعيا للحرب مدة طويلة، عمل فى العديد من الشركات متعددة الجنسيات، والتحق عام ١٩٨١ بإدارة ريجان، ثم أصبح مستشارا لوزير التجارة؛ حيث أدار العديد من المفاوضات بهدف تحقيق اتفاقيات، وشارك فى محادثات تجارية متنوعة حتى أنه لقب بـ"صقر التجارة"، أسس فيما بعد منظمة بحثية لا تقوم على الربح، وكان رئيسها وهى "معهد الاستراتيجية الاقتصادية" التى أطلق عليها "مصنع الفكر".

يجيد اللغات اليابانية والهولندية والألمانية والفرنسية.

من أهم كتبه ومقالاته :

خيانة الرفاهية الأمريكية: أوهام السوق الحرة، انحدار أمريكا، وكيف علينا أن نتنافس فى حقبة ما بعد الدولار، ٢٠١٠.

ثلاثة بلايين رأسمالى جديد: التحول الكبير للثروة والسلطة نحو الشرق، ٢٠٠٥.

مخفر إطفاء كوريا الجنوبية، الجلوباليسٲ، ٢٥ يوليو، ٢٠٠٥.

لا تزعج أوروبا حول الطعام المعدل جينيا، نيويورك تايمز، ٢٤ يناير، ٢٠٠٣.

تبادل الأماكن - كيف نعطي مستقبلنا لليابان وكيف نستعيده، ١٩٩٣.

من مؤلفاته:

موسوعته الكبرى "تاريخ الفلسفة" التي تضم تسعة أجزاء، و"الفلسفة والفلاسفة"،
و"الفلسفة والثقافة"، و"الفلسفة في روسيا"، و"نيتشه.... فيلسوف الحضارة"،
و"القديس توما ونيتشه".

المترجم فى سطور :

فخرى لبيب

ولدت فى ١٩٢٨٢/٧.

حصل على بكالوريوس علوم كيمياء وجيولوجيا عام ١٩٥١.

وحصل على دكتوراه فى الجيولوجيا عام ١٩٨٧ - كلية العلوم - جامعة القاهرة:

عمل جيولوجيا فى الهيئة العامة للمساحة الجيولوجية والمشروعات التعدينية، ووفر خامات لصناعات الألومنيوم والحديد والصلب والكيمياويات والإسمنت والفيروسيلىكون والطوب الطفى والزجاج.

يعمل حاليا: مسئول الإعلام بمنظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية.

من أهم أعماله :

١- أعمال ترجمة منذ عام ١٩٥٨: والكتب المترجمة سياسية واقتصادية وعلمية وأدبية نشرتها: جريدة المساء، ودار المعارف، ودار الثقافة الجديدة، ودار المستقبل العربى، ودار الفارابى اللبنانية، ودار سعاد الصباح، ومركز البحوث العربية والإفريقية، والمجلس الأعلى للثقافة، ودار الشروق.

٢- قصص قصيرة منذ عام ١٩٥٨، وقد تم نشرها فى جريدة المساء (١٩٥٨) وإبداع وأدب ونقد، وأخبار الأدب، والجماهير الأردنية، والثقافة الجماهيرية.

٣- ثلاث روايات صدرت عن دار العربى، والهيئة العامة للكتاب، ومبدولى.

٤- كتابان سياسيان صدرا عن دار الديمقراطية (١٩٥٧) ودار الأمل.

٥- تحرير كتب وإعدادها منذ عام ١٩٨١ لجامعة الدول العربية، ومنظمة تضامن الشعوب الإفريقية الآسيوية.

٦- مقالات سياسية وغيرها فى مجلات الطليعة، الأمالى، أدب ونقد، آسيا وإفريقيا اليوم، والمنار، والمختار من الصحف الديمقراطية (مجلة اتحاد الصحفيين العالمى)، وقضايا فكرية، والثقافة الجديدة، والعالم اليوم، والتنمية والتقدم الاجتماعى والاقتصادى، والقاهرة، والبديل.

٧- ترجمة مقالات وعرض كتب أجنبية، فى مجلات الثقافة العالمية، والنداء اللبنانية، ومركز دراسات الشرق الأوسط، وجريدة أخبار الخليج، ومجلة العربى الكويتية.

التصحيح اللغوى: محمد نصر الدين

الإشراف الفنى: حسن كامل

